السلطنة الحفصية

تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي

تأليف

محمد العروسي المطوي



السَّلطنة الحفصيَّة

تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي

السَّلطنة الحفصِيَّة

تاريخها السِّياسي ودورها في المغرب الإسلامي

تأليف
محمد العروسي المطوي



دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَـارة

أصل هذا السفر محاضرات إذاعية لقيت من إقبال المستمعين عليها، ومن حرصهم على نشرها ما جعلني أستجيبُ للرغبة في تعميم الفائدة والزيادة في النفع. وكان هؤلاء المستمعون المهتمّون من مختلف المستويات الثقافية والشرائح الاجتماعية. وكم كنت منشرحاً بشعور الابتهاج عندما ألقى صدَى تلك المحاضرات في أقاصي الرّيف ودواخل البادية ـ بَلْهَ المدن والقرى ـ امتداداً من مناطق رقبة تطاوين جنوباً إلى أدغال برقة شمالاً. وإنه ليسعدني أن كان في قمة أولائك المستمعين والمشجعين فخامة رئيس الجمهورية المجاهد الأكبر الزعيم الحبيب بورقيبة الذي أذن ذات مرّة بنشر تلك المحاضرات[1] فله بالغ التقدير وصادق الوفاء.

وكان من الطبيعي أن يعاد النظر في تلك المحاضرات التي ألقيت على مستمعين كانوا يحتاجون إلى شيءٍ من الإعادة والربط والتذكير بما يجعلهم على صلة أوثق بتسلسل الأحداث التاريخية. وعودة النظر هذه لم تمس الجوهر ولا الأسلوب. وهو أسلوب يقتفي مسلك التثقف العام مما يدعو إلى التبسيط في العرض، والوضوح في التبليغ، والبعد ـ قدر الإمكان ـ عن تركيز الاختصاصي، أو الإكثار من التحشية والتهميش، إلاّ أن ذلك لم يَحُلْ دون الدراسة النقدية ومعرفة الأسباب والمسبّبات، وتحليل مختلف النتائج والمعطيات مما سيجده القارىء في ثنايا الكتاب.

(1) جريدة العمل الأحد 8 جوان 1974 ص 2.

والفترة التاريخية التي تضمّنها هذا الكتاب هي من أهمّ فترات تاريخ المغرب الإسلامي من الأندلس غرباً إلى طرابلس شرقاً، تمسح أكثر من ثلاثة قرون، وتتعرّض لأخطر المحن التي تعرّض لها المغرب الإسلامي. وكانت نتيجة تلك المحن إنهاء الحضور الإسلامي في الفردوس المفقود (الأندلس). وكانت تلك النهاية حتمية طبيعية للتمزق السياسي والتناحر على الحكم، وانعدام الضمير الوطني ـ وحتى الديني ـ عندما أصبح المسلم يتحالف مع عدوّه جنساً وديناً ضد خصمه الذي يلتقي معه عقيدةً وأرومةً.

كما تصوّر هذه الفترة التاريخية المحاولات العديدة والعقيمة في سبيل توحيد أقطار هذا المغرب حتى يمكن له أن يجابه عدوّه المشترك. لكنّ القائمين بتلك المحاولات لم يتمكنوا من ذلك لاعتبارات مختلفة شرحناها في إبانها أثناءَ الكتاب. وإذا كان ظهور هذا الكتاب يصادف زماناً متميّزاً ـ لا بأوضاع المغرب العربي فقط بل بأوضاع عامة الوطن العربي ـ فإنني أناشد قادة هذا المغرب وحكّامه ـ وكلّهم دعاة إلى الوحدة ـ أن يتعظوا بمحاولات التوحيد القريبة والبعيدة حتى يتخذوا مَساراً ناجعاً لتحقيق هدف طالما نادت به الضمائر، وهفَتْ إليه القلوب، وتطلّعت إلى آفاقه الشعوب على أمل الوصول إلى الهدف الأسمى للأمة العربية.

ولا يفوتني في ختام هذه الإنارة أن أشير إلى النقص الكبير في التوثيق المفصّل لتاريخ السلطنة الحفصية، وفقد الوثائق المساعدة على ذلك. وهو يعود ـ في حَسْبي ـ إلى سببين أصليين: 1 ـ قلّة المؤرخين المستوعبين للفترات التي سجلوها. 2 ـ الكوارث التي أصابت التراث ـ خاصة المكتوب منه ـ سواء أكانت أحداثاً عامة أو تصرفات شخصية. وعسى أن تتظافر الجهود لاستجلاء النصوص واستجلاب أكثر ما يمكن من «المحفوظات» ذات الصلة بتاريخ هذه البلاد خاصة من دول البحر الأبيض المتوسط التي كانت لها علاقات ووشائج اتصال بالبلاد التونسية. والله المستعان المعين.

محمد العروسي المطوي

تونس غرة صفر 15 أكتوبر 1985/1406

تمهيد

الموحّدون يوحدون المغرب الإسلامي

عندما انبعثت دولة الموحدين في أقصى المغرب الإسلامي في الثلث الأول من القرن السادس الهجري كان سكّان المنطقة في أشد الحاجة إلى من يجمع شملهم، ويوحِّد صفوفهم، ويبعد عنهم خطر حركة الاسترجاع الإسبانية في الأندلس، وخطر الاحتلال النرمندي في إفريقية: ففي الأندلس كاد الأمر يعود إلى عهد ملوك الطوائف بسبب ضعف المرابطين وانشغال رؤسائهم باللهو كما قال عبد الواحد المراكشي في كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» فقد تحدث عن ذلك قائلاً:

«لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف اختلت أحوالها (الأندلس) اختلالاً مفرطاً أوجب ذلك تخاذل المرابطين، وتواكلهم، وميلهم إلى الدعة وإيثارهم الراحة، وطاعتهم النساء، فهانوا على أهل الجزيرة، وقلُّوا في أعينهم، واجترأ عليهم العدوّ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم»[1] مما جعل أهل الأندلس يتشوَّفون إلى الدَّولة الجديدة التي انبعثت في المغرب عساها أن تنقذهم من الخطر المحدق، فجعل الأندلسيون يفدون كلّ يوم على المصامدة الموحدين، ويتنافسون في الهجرة إليهم والدخول في طاعتهم حتى أنَّ الكثير من الجهات قدمت تلك الطاعة قبل عبور عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس. وهذا ما فعلته

(1) المعجب لعبد الواحد المراكشي ص 208.

الجزيرة الخضراء، ورندة، وإشبيلية، وقرطبة، وغرناطة. ولم يكن من عبد المؤمن بن علي إلاّ عبور المضيق والنزول بجبل طارق الذي سمّاه «جبل الفتح»[2].

وتقدم إليه في ذلك اليوم عدد من الشعراء مادحين مرحِّبين من ذلك قول ابن حيوس:

بلغ الزمانُ بهديكم ما أمَّلا ... وتعلَّمَتْ أيامُه أن تعدلا
وبِحَسْبِهِ أن كان شيئاً قابلا ... وجد الهداية صورةً فتشكلا[3]

أما الأصمّ المرواني فكان أوضح في قوله:

وطودِ طارقَ قد حلَّ الإمام به ... كالطُّور كان لموسى أيمنَ الرُّتَبِ
لو يعرف الطَّوْدُ ما غشَّاه من كرم ... لم يبسط النور فيه الكفَّ للسُّحُبِ
ولو تيقَّنَ بأساً حلَّ ذروته ... لصَار كالعين من خوف ومن رَهَبِ
منه يعاود هذا الفتح ثانيةً ... أضعافَ ما حدّثوا في سالف الكُتُبِ
ويلبس الدِّينُ غضّاً ثوبَ عزّته ... كأنَّ أيامَ بدرٍ عنه لم تَغِبِ[4]

وكان أبو عبدالله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرُّصافي من جملة الشعراء المستقبلين لعبد المؤمن بن علي. وقد قال فيه قصيدة لعلَّ أجْوَدَ ما فيها ما قاله في وصف الأسطول العابر لمضيق جبل طارق، منه قوله:

فَسِرْنَ يَحْمِلْنَ أمرَ اللّهِ من مَلِكٍ ... بالله مستنصِرٍ في اللّهِ منصور
يُومِي له بسجود كلُّ مَحْرَكَةٍ ... منها، ويولِيهِ حَمْداً كلُّ تصريرِ
لما تسابَقْنَ في بحر الزُّقَاقِ به ... تَرَكْنَ شَطَّيْهِ في شكٍّ وتحييرِ
أَهَزَّ من مَوْجِهِ أثناءَ مسرورِ ... أمْ خاضَ من لُجِّه أحشاءَ مذعورِ

---

(2) المصدر السابق ص 212 - 213.

(3) المصدر السابق ص 214.

(4) نفح الطيب للمقري (3: 592 - 593).

كـأنّـه سـالـكٌ منـه على وَشَـلٍ   في الأرضِ من مُهَجِ الأسيافِ مقطورِ
من السيـوفِ التي ذابَتْ لسطوتِـهِ   وقـد رَمَى نـارَ هيجاهـا بِتَسْعيـرِ
ذو المنشآتِ الْجَوَاري في أَجِرَّتِهَا   شَكْلُ الغدائِـرِ في سَدْلٍ وَتَضْفِيـرِ

ويقول الرصافي في قصيدته تلك:

كـأنّمـا عَبَـرتْ تَخْتَـالُ عـائِمـةً   في زاخرٍ من يَدَيْ يُمْناهُ مَعْصورِ
حَتَّى رَمَتْ جَبَلَ الفَتْحَيْنِ مِن كَثَبٍ   ببـاطـعٍ من سنـاهُ غَيْـرِ مَبْهـورِ
لِلَّهِ مـا جبَلُ الفَتْحَيْنِ من جبـلٍ   معظَّمِ القَدْرِ في الأجيالِ مَذْكُـورِ
من شامِخِ الأنْفِ في سَحْنَائِهِ طَلَسٌ   لـه من الغَيْمِ جَيْبٌ غيـرُ مَـزْرورِ
مـعـبِّـراً بـذُرَاه عـن ذُرَى مـلِكٍ   مُسْتَمْـطَرِ الكفِّ والأكنَافِ مَمْـطُورِ

وينتهي الرصافي بقصيدته إلى قوله:

وإنّـمـا هـو سيـفُ الـلَّهِ قَـلَّدَهُ   أقرى الهُداةِ يداً في دفعِ محْذور
فـإن يكن بيـدِ المهـديِّ قـائِمُـهُ   فمـوضِعُ الحدِّ منه حـدُّ مشهـورِ
والشمسُ إن ذكَرَتْ موسى فما نَسِيَتْ   فتـاه يُـوشَـعَ قمَّـاعَ الجمـاهيـر[5]

ولم يكن حال إفريقية حين انبعثت دولة الموحدين بأحسن من حال الأندلس؛ فقد كانت السواحل بيد النرمان، وكـانت الدواخـل بيد ملوك الطوائف مثل آل خراسان بتونس، وآل الرند ببلاد الجريد، وقد ذهب آخر الصنهاجيين إلى عبد المؤمن بن علي مستنجداً به بعد أن عرف انتصاراته في الأندلس. وجاء عبد المؤمن بن علي إلى إفريقية، وخلَّصها من الاحتلال النرماني نهائياً بعد استسلام المهدية سنة الأخماس (أي سنة 555هـ). وقد بعث مبشراً بنصره إلى عُمَّالِهِ بالمغرب الأقصى والأندلس، وخاصةً إلى ولده أبي يعقوب في الأندلس، مشفعاً رسالته بقصيدة جاء فيها قول شاعره:

وأشـرقَتِ الشمسُ المنيـرةُ فـوقَنَـا   وأصْبَـحَ وجـهُ الحقِّ غَيْـرَ محجَّبِ
وطهَّـر هذا الصُّقْعَ من كلِّ كـافرٍ   وعــادَ بــه الإِســلامُ بعـد تقلُّبِ

(5) انظر القصيدة كاملة في «المعجب» (218 - 221) والديوان ص 87 - 97.

وكُسِّـرتِ الصُّلبَـانُ في كـلِّ بِيعـةٍ — ونادى منادي الحق في كلِّ مَرْقَبِ
فَـأَبْشِـرْ أبـا حفصٍ بنصـرٍ مُؤَزَّرٍ — كفيلٍ بما تبغيـه في كلِّ مـذهـبِ
ولا بـدَّ من يـومٍ أغـرَّ محجَّـلٍ — يُسِيلُ دماء الكفـر في كلِّ مـذنَبِ
وتُشْفَى صـدورُ المؤمنين لـغـزوةٍ — تكون على حُكم الحُسام المدرَّبِ
فطوبى لأهل الغـرب ماذا يَـرَوْنَهُ — من النَّصرِ والفتح المبين المقرَّبِ[6]

وكان لهذا الانتصار صداه البعيد في الأندلس، وخاصة عند ولده أبي يعقوب يوسف حتى أَمَرَ بتلك القصيدة التي جاءت مبشرة بفتح المهدية أن يكتبها الطلبة ويحفظوها. وأمر بقرعِ الطبول في إشبيلية وإطعام الطعام، وبعث إلى والده بالتهنئة والشكر.

وواصل عبد المؤمن فتوحاته إلى طرابلس وبلاد الجريد، وأصبح تحت سيادته كامل المغرب العربي وأكثر جزيرة الأندلس؛ فقد امتدت مملكته من طرابلس إلى طنجة، ومن لشبونة إلى السوس الأقصى. ولكن هل كتب لهذه الوحدة أن تطولَ وتستمرَّ؟ أم كان مآلها مآلَ الحروب الخاطفة تُحَقِّق الإسراعَ ولا تحققُ البقاء؟ وهل حاول عبد المؤمن وخلفاؤه أن يسدُّوا الثّغرات التي ينفَذُ منها الانقسام والشقاق؟

عوامل التفريط في الوحدة:

«ليست الحكمة في مقدار ما تملك، ولكن الحكمة في حسن تصرفك لما تملك».

لقد استطاع عبد المؤمن بن علي أن يجمع شمل المغرب الإسلامي تحت سيادة واحدة من طرابلس شرقاً إلى طنجة غرباً، ومن لشبونة شمالاً إلى السوس الأقصى جنوباً. وتلك مملكة واسعة ـ بلا شك ـ ممتدة الأطراف بعيدة المسافات. صحيح أنَّ عبد المؤمن بن علي أوقف الزحفَ الإسباني لمدة في الأندلس، وخلَّص إفريقية من احتلال نرماني لا تُدْرَى نتائجه لو

(6) البيان المغرب لابن عذاري (3: 41) طبع تطوان.

استمرَّ طويلاً. ولكن هل استطاعت دولة الموحدين أن تحافظ على تلك الوحدة، وأن توفِّر لها أسبابَ المناعة والبقاء؟.

للأسف الشديد أنَّ الإجابة ستكون سلباً لا إيجاباً. وكان ذلك نتيجةَ عدَّة عوامل تتمثل خاصة في الثغرات الداخلية التي سبَّبتِ الانتقاضَ والثورةَ. ثمَّ أدَّت إلى الانقسام والتمزُّق.

وإذا كانت العوامل الخارجية تتمثل في عدم القضاء على حركة الاسترجاع الإسبانية، وفي الهدنة التي عقدها عبد المؤمن بن علي نفسه مع الإسبان؛ فإنَّ الرغبة في توسيعِ رقعة الدولة والتعجيلِ بها جعل دولة الموحدين تلاقي الثورات والتصدُّع حتى من الأندلسيين أنفسِهم الذين لم يتعظوا بالأحداث، ولم توقظ ضمائرَهم تحفزات العدوّ المتربِّص بهم.

وكانت أهمّ تلك الانتفاضات والثورات هي التي قام بها بنو غانية في الجزر البحرية الواقعة شرقيَّ الأندلس وخاصة جزيرة ميورقة. فقد استغلَّ محمد بن غانية فرصة ضعف المرابطين وقيام دولة الموحِّدين فاستولى على جزيرة ميورقة. ثمَّ ضمَّ إليه جزيرتي مينرقة ويابسة المعروفة في عصرنا الحاضر بجزر الباليار.

ولم يأبه الموحِّدون لتلك الحركة الانفصالية بل كانوا ينظرون إلى واقع ميورقة باحتقار ولا يلتفتون إليها[7]. وعندما تولّى إسحاق بن محمد بن غانية أمر تلك الجزر بدأ يشعر الموحدون بخطورة ذلك الانفصال فبعثوا إليه يدعونه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر، فلم يستجب لذلك وأرجأ الأمر إلى ما بعدُ نظراً لجبهة المعارضة في ذلك الانضمام التي وجدها من رجال إمارته إلى أن وافاه الأجل، وتولّى الأمر بعده ابنُه علي الذي سوف يكون له شأن وأي شأن مع الموحدين.

لقد كان بنو غانية في أول أمرهم وُلاَةً وقادة للمرابطين. ولهذا لم

(7) المعجب 269.

يكونوا على استعداد للدخول في طاعة الموحدين ما دام لهم من الأمر منعة. كما أنّ مناطق مملكة الموحدين لم تكن على الولاء التام لهم سواء في الأندلس أو في إفريقية أو حتى في المغرب الأقصى المَعْقِلِ الأصلي لانبعاث الدولة الموحدية. فلما توفّي السلطان أبو يعقوب وظهر الخلاف في الأسرة الموحدية الحاكمة كان ـ إذ ذاك ـ أعيان مدينة بجاية قد استنجدوا بعلي الميورقي لتخليصهم من سيطرة الموحدين[8].

ولا ننسى أنّ أعراب بني هلال كان لهم دور في الثورات والانتفاضات التي حصلت في إفريقية بعد زحفهم عليها في القرن الخامس الهجري، وتشتيت شمل الدولة الصنهاجية. وقد استعان عبد المؤمن بن علي نفسه بهم فاستخدمهم معه واستعملهم ضدّ خصومه سواء في إفريقية أو الأندلس.

فعندما أراد عبد المؤمن بن علي العبور إلى الأندلس كان في حاجة إلى قوّة دافعة أخرى بالإضافة إلى سكان المغرب الأصليين، فبعث إلى القبائل العربية التي كانت في مملكة بني حماد بالمغرب الأوسط (وهم قبائل من هلال بن عامر الذين نزلوا بمنطقة بجاية على عهد المنصور بن المنتصر الصنهاجي) فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلّة البلاد من ثمرها وبرِّها وغير ذلك، فأقاموا على ذلك بقيَّة أيام المنصور بن المنتصر وأيام ابنه العزيز ثمَّ يحيى بن العزيز. إلى أنَّ ملك البلاد عبد المؤمن بن علي، فأزال ذلك من أيديهم وصيَّرهم جنداً له[9].

قلنا: إنَّ عبد المؤمن بن علي عندما أراد العبور إلى الأندلس بعث إلى أولائك الأعراب يستنفرهم ويدعوهم إلى مساعدته على السيادة في الأندلس، وأغراهم بما فيها من خيرات. وكانت رسالة الاستنفار تلك مشفوعة بقصيدة جاء فيها:

---

(8) المعجب 271 .

(9) المعجب 224 - 225 .

أقِيموا إلى العلياءِ هُوجَ الرَّواحِلِ وقُودُوا إلى الهيجاء جُرْدَ الصَّواهِلِ
وقوموا لنصرِ الدِّين قومَةَ ثائرٍ وشُدُّوا على الأعداء شدَّةَ صائلِ
فما العزّ إلاَّ ظهرُ أجْرَدَ سابحٍ يفوتُ الصَّبا في شدِّهِ المتواصلِ
وأبيضَ مأثورٍ كأنَّ فرندَهُ على الماءِ منسوجٌ وليس بسائلِ
بني العمِّ من عليا هلال بن عامر وما جمعت من باسلٍ وابن باسلِ
تعالَوْا فقد شُدَّتْ إلى الغزوِ نِيَّةٌ عواقبُها منصورةٌ بالأوائلِ
هي الغزوةُ الغرَّاء والموعدُ الذي تَنجَّزَ من بعد المَدى المتطاولِ
بها نفتحُ الدنيا، بها نبلغُ المُنَى، بها ينصف التحقيق من كلِّ باطلِ
أهَبْنَا بكم للخير واللَّهُ حَسْبُنا وحسبُكُمُ، واللَّهُ أعدلُ عادلِ
فما همُّنا إلاَّ صلاحُ جميعكم وتسريحكم في ظلِّ أخْضَرَ هَاطِلِ
وتسويغُكم نُعْمَى ترفُّ ظِلاَلُهَا عليكم بخيرٍ عاجلٍ غيرِ آجلِ
فلا تتوانَوا فالبِدَارُ غنيمةٌ ولِلْمُدْلِجِ السَّاري صفاءُ المناهِلِ[10]

وواضح ما في هذه القصيدة من حوافز ودوافع تغري أولائك الأعراب باستجابة النداء والإسراع بالمبادرة. وقد عرف عبد المؤمن بن علي كيف أنَّ الخيرَ العاجل أدعى بأولائك الأعراب إلى التلبية. ولهذا كانت أمور الدنيا أكثر ذكراً وتأكيداً من أمور الأخرى بالرغم من أنَّ استنفارهم لبلاد الأندلس لا يعني مجابهة العدو المسلم فيها بقدر ما يعني مجابهة القوى النصرانية المتجمعة التي تزداد انتصاراتها يوماً بعد يوم.

واستجاب لهذا النداء عدد ضخم من أولائك الأعراب من بني هلال بن عامر. وحقَّق بهم عبد المؤمن انتصاراتِهِ الأولى في الأندلس. وعندما أراد العودةَ إلى المغرب رتبهم في البلاد «فجعل بعضهم في نواحي إشبيلية مما يلي مدينة شريش وأعمالها» وظلوا مقيمين بها. وقد أعطانا عبد الواحد المراكشي في كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»[11]

(10) المعجب (225 - 226).
(11) المعجب ص 226.

معلومات إحصائية مدققة عن عددهم في القرن السابع الهجري أو بالضبط في سنة 621 من الهجرة زمن تأليفه لكتابه المذكور. فقال المراكشي: «. . . فهم باقون إلى وقتنا هذا، وهو سنة 621. وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير. وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتى كثروا هنالك. فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجشم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجّالة»[12].

ومثل هذا العدد قد يكفي للاستقرار والسيادة لو كان مدفوعاً بالحمية العقائدية، والإيمان بالرسالة. ولكن الأمر كان على العكس من ذلك؛ فقد كانت الأطماع الشخصية والمنازع الفردية هي الدافع والمحرك. ولعلّ في كل ذلك ما يؤيد ما ذكرناه من أنّ الحكمة ليست في مقدار ما تملك، ولكن الحكمة في حسن تصرفك لما تملك.

(12) المعجب ص 226.

الفصل الأوّل

ثورة ابن غانية

أسباب الثورة

لم تكن العوامل المغربية أو الداخلية بإفريقية هي التي ساعدت فقط علي بن غانية على ثورته ضدَّ السلطنة الموحدية، بل كان هنالك عامل خارجي ساعد ابن غانية في ثورته ضدَّ الموحدين. وكان هذا العامل يتمثل في قدوم الغزِّ الأتراك من البلاد المصرية، واستيلائهم على قسم كبير من إفريقية سواء في طرابلس الغرب أو في الجنوب التونسي. وكان قدوم أولائك الغزاة بقيادة قراقوش الأرمني أحد مماليك بني أيوب بمصر.

أمَّا الأسباب التي دفعت إلى ذلك الغزو فتعود إلى الخلاف الذي نشب بين صلاح الدين الأيوبي والسلطان نور الدين زنكي في البلاد الشامية. فبعدما أزال صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية من مصر سنة 567 هـ (1171 م) توجَّس بعض الأيوبيين خيفةً من السلطان نور الدين زنكي. وفكَّر الأيوبيون ـ بما فيهم صلاح الدين ـ في البحث عن منطقة تكون لهم ملجأً وحصناً من مغبة ذلك الخلاف فكان اختيارهم متجهاً نحو اليمن جنوباً أو نحو إفريقية. وإذا كان أمر اليمن لا يعنينا في هذا المجال فإنَّ التوجُّه إلى إفريقية هو الذي يتطلب التوقف عنده والاهتمام به لما كان له من تأثير في وضع الموحدين بإفريقية، ومن ثَمَّةَ فيما انتهى إليه ذلك التوجُّه من مناصرة أقوى معارضة، وأمضى شوكة جابهت الموحدين، وزعزعت قواهم، وسهلت الحركة الانفصالية عنهم فيما بعد.

ويذكر أبو محمد عبدالله التجاني في رحلته «.. أنَّ قراقوش صار إلى سنترية فافتتحها وخطب فيها للسلطان صلاح الدين ولأستاذه تقي الدين بعدَه. وكتب إليهما ذلك. وافتتح زلَّة وأوجلة، وأزال من بلاد فزَّان دولة بني خطاب الهواريين وكانت قاعدة ملكهم «زويلة» المعروفة بزويلة بني خطاب..»[13].

ولم يزل قراقوش الأرمني يفتح البلاد، ويخطب فيها باسم بني أيوب إلى أن وصل طرابلس «.. فاجتمع عليه الدبابيون، ونهضوا معه إلى جبل نفوسة فاستولوا عليه. واستخلص منه أموالاً عظيمة أرضى بها العرب»[14]. من بني دباب الذين ناصروه.

وقبل قدوم قراقوش الأرمني وجيشه بسنوات قليلة كان مسعود بن رمَّان[15] شيخ قبائل رياح قد شقَّ عصا الطاعة في وجه الموحِّدين. وعندما علم بوصول قراقوش الأرمني استبشر بذلك وتوجَّه إليه بمن معه من أبطال الرياحيين فحاصَرَ بهم قراقوش مدينة طرابلس «.. وصادف بلاداً لم تتوقع ثائراً، ولا مخالفاً؛ فكانت خاليةً من الأجناد ومن العُدَدِ والأقوات فاستولى عليها، وعظم ذلك أمره، وتوقع من بتونس وغيرها شرّه، ووصلت إليه العربان من كلِّ مكان»[16].

وكان ابن غانية الميورقي قد خاف من كثرة إقبال الأعراب على قراقوش وانضمامهم إليه، فبعث إلى أولائك الأعراب يذكِّرهم بالصلة التي بينه وبينهم؛ لأنَّه وإياهم من سليم. وكان يعيِّرهم بانقيادهم لقراقوش ويستدعيهم للوصول لحضرته[17].

---

(13) رحلة التجاني (112) وانظر الحاشية (3) بنفس الصفحة.

(14) المصدر السابق (113).

(15) في العبر لابن خلدون (6 :70) زمام. وانظر فيه أخبار هذا الشيخ.

(16) رحلة التجاني ((113) -

17) المصدر السابق (114 - 115).

ولم يكتف ابن غانية بالمراسلة العادية فكتب إليهم الأشعار يستثير هممهم ويستجلب عواطفهم. وممّا ورد في تلك الأشعار المقطوعة التالية:

يا أيُّها الراكبُ الساري لطيَّته ... على عذافرة تشقى بها الأَكَمُ
بلِّغ سليما على بُعْدِ المزار لها: ... «بيني وبينكم الرَّحمانُ والرَّحِمُ
يا قومَنا لا تشبّوا الحرب إن خمدت ... واستمسكوا بعُرَى الإيمان واعتصموا
يقودهم أرمنيٌّ لا خلاقَ له ... كأنَّه فيهمُ - من جهلهم - عَلَمُ
اللَّهُ يعلمُ أني ما دعوتُكُمُ ... دعاءَ ذي تِرَّةٍ يوما فينتقمُ
ولا لجأت لأمرٍ يستعان به ... من الأمورِ وهذا الحقُّ قد علموا
لكن لأمرِ رسولِ اللَّه عن رَحِمٍ ... يُنْمَى إليه، وتُرْعَى تلكُمُ الذِّمَمُ
فإن أتيتُمْ فحبلُ الوصل متَّصلٌ ... وإن أبيتمْ فعند السيف نحتكمُ..»[18].

واعتبار ابن غانية لبني سليم أنَّهم من أبناء عمومته هو عملٌ سياسي محض كان يقصد به التقرّبَ إليهم، وجلْبَهم إلى صفوفه. ذلك أنَّ الذي ذكره المعتمدون في التاريخ أنَّ بني غانية هم من قبيلة «مسّوفة» البربرية. وأنّ ابتداء أمرهم الأوَّل كان في بداية عهد المرابطين؛ فقد دخلت «مسّوفة» في طاعة المرابطين وانقادت إليهم و«.. أصبح للكثير منهم في دولة المرابطين حظ وجاه»[19].

وكان يحيى المسوفي من رجالاتهم وشُجعانهم. وكان مقدَّماً عند يوسف بن تاشفين لمكانته في بني قومه[19] وطرأ خلاف بين يحيى المسوفي وبعض رجالات قبيلة لمتونة حتى قتل البعض منهم وفرّ [هو] ناجياً بنفسه إلى الصحراء. ولكن يوسف بن تاشفين استرضاه بعد سنين، وأعاده إلى مكانته السابقة، وزوَّجه امرأة من أهل بيته تسمَّى «غانية» فولدت له محمداً ويحيى فنشآ في ظل يوسف بن تاشفين وكفالته[19].

---

(18) رحلة التجاني (115).

(19) العبر (6 :390) وفي الإحاطة (4 :344) أن زوج غانية اسمه علي وهو أبو يحيى ومحمد.

ومن هنا جاءت تسمية هذه الأسرة بـ «بني غانية» وذلك هو أصلهم وسبب تسميتهم. ولكن ابن غانية (الذي نتحدَّث عنه والثائر في وجه الموحِّدين) حاول أن يجعَل نفسَه من بني سليم استمالةً لهم، وتقوية لأنصاره. وكان ادِّعاء النسب العربي لم يستغلَّه بنو غانية فقط لأغراض سياسية بل نجد عبد المؤمن بن علي يدَّعي ذلك أيضاً رغم أنَّه من قبيلة كومة البربرية.

وقد ذكر عنه أنَّه كان يقول إذا ذكر كومية: لست منهم، وإنَّما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار. ولكومية علينا حق الولادة بينهم، والمنشأ فيهم. وهم الأخوال[20].

ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ ادِّعاء ابن غانية نسبتَه لبني سليم لم يكن في أساسه إلاَّ عملاً سياسياً القصد منه استجلاب أولائك الأعراب إلى صفِّهِ مخافةَ أن يقوى بهم قراقوش الأرمني فيحول بينه وبين مطامحه في تكوين مملكة واسعة في إفريقية على حساب دولة الموحدين. ولكن رغم هذا التنافس ـ في أوَّل الأمر ـ بين ابن غانية وقراقوش الأرمني فإنَّ تحالفاً حصل بينهما ضدَّ الموحدين، إلاَّ أنَّ هذا التحالف سوف لا يدوم؛ لأنَّه مبني على مصالح عاجلة وغايات خاصة مما سوف نرى نتائجه فيما بعد. كما أنَّ الأعراب الذين سارعوا بالانضمام إلى قراقوش، وأغراهم الطمع في كسب الأموال سرعان ما تبين لهم أنَّهم كانوا واهمين في ذلك «لأنَّه كلَّف الرعية فوقَ طاقتهم فأبغضه الناس بعدما كانت القلوب كلُّها مالت إليه»[21].

وقد ذكرنا قبل هذا أنَّ عبد المؤمن بن علي استنفر ـ كذلك ـ الأعراب عندما عزم على العبور إلى الأندلس، وأنَّه خاطبهم بالشعر على أنَّهم أبناء عمومته. وهو ما جاء صريحاً في إحدى تلك القصائد:

---

(20) المعجب (197).
(21) رحلة التجاني (113).

بني العمِّ من عليا هلال بن عـامر   وما جمعت من باسِل وابن باسل
تعـالَوا فقـد شدّت إلى الغَزْوِ نِيَّةٌ   عـواقبهـا منصـورةٌ بـالأوائـل[22]

أما عن مجرى الأحداث في إفريقية بسبب الصراع عليها بين الموحدين من جهة وابن غانية وقراقوش من جهة أخرى فإنَّ ذلك مما زاد في تقهقر العُمْران بها، وتعرُّضِ الكثير من مدنها إلى قساوة النهب والتخريب التي انتابتها، وقضت على الكثير من المعالم فيها خاصة عندما اشترك في ذلك الصراع أعراب الصعيد من بني هلال وبني سليم وغيرها من القبائل التي زحفت على إفريقية في العقد الأخير من النصف الأول للقرن الخامس الهجري. وقد ظلَّ أولائك الأعراب مستمرين على بداوتهم وحبِّهم للنهب والسلب رغم مضي أكثر من مائة وثلاثين سنة على قدومهم إلى إفريقية في عهد المعز بن باديس الصنهاجي، لأنَّهم ـ رغم تلك المدة ـ لم يشملهم الاستقرار، ولم يركنوا إلى التحضر فظلوا على حكم ابن خلدون فيهم عندما قال:

«. . فغاية الأحوال العادية عندهم الرِّحلة والتقلب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومُنَافٍ له.

فالحجر ـ مثلاً ـ إنما حاجتهم إليه لنصب أثافيٍّ للقدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه، ويعيدونه لذلك، والخشب ـ أيضاً ـ إنما حاجتهم إليه لِيَعْمِدُوا به خيامَهم، ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران. .»[23].

(22) المعجب (225 - 226).
(23) المقدمة ـ مصر 1958 (ص 453 - 454).

ابن غانية يختار الظرف المناسب للنزول بإفريقية

كان أوَّل عمل قام به علي بن إسحاق الميورقي ضدَّ السلطنة الموحدية هو التوجُّه إلى بجاية قصد غزوها واحتلالها، وقد انتهز ابن غانية الفرصة المؤاتية لذلك الغزو.

ففي الأندلس انهزم الموحدون في حصارهم لمدينة شنترين سنة 580 هـ ـ (1184 م)، وطُعِنَ سلطان الموحدين (أبو يعقوب) طعنة لم تمهله إلاَّ قليلاً حتى توفي على مراحل من مدينة شنترين[24]. وكان خلفه أبو يوسف لا يحظى بإجماع رجال الدولة على مبايعته، بالإضافة إلى ما عُرِفَ عنه من ميلٍ إلى الدعة، وكراهةٍ للحرب.

أما في بجاية فإنَّ الظرف كان مناسباً لعملية النزول التي اعتزمها ابن غانية؛ فقد كان والي هذه المدينة (أبو الربيع سليمان بن عبدالله بن عبد المؤمن) متغيباً عنها بسبب الاضطرابات التي أثارتها الأعراب في جهات مختلفة من إفريقية. وانهزم الموحدون أمام تلك الاضطرابات، وأسر أبو الربيع والي بجاية مع أخيه أبي علي. وعندما وصلت الأخبار إلى أبي يعقوب سلطان الموحدين بعث يفاوض الثوار، ويطلب منهم الانقياد، فطالبوا بمقادير هائلة من الأموال. وقد انتهت المساومات فيها إلى ستة وثلاثين ألف مثقال من الذهب ممَّا جعل السلطنة الموحدية عاجزة عن تسديد ذلك المبلغ ذهباً

(24) المعجب (265).

فعمدت إلى المخادعة وأمرت أن يضرب ذلك المقدار دنانير نحاسية مذهبة، وقدموها لأولائك الأعراب فانطلت عليهم الحيلة وأخلوا سبيل والي بجاية وأخيه[25]. ولكن الخدعة انكشفت لدى الأعراب الثائرين مما جعلهم ينحازون إلى علي بن غانية؛ ويترقبون قدومه.

هذا بالإضافة إلى ما عقده ابن غانية من صلات مع بقايا أمراء بني حمَّاد الذين تغلّب عليهم الموحدون، واستولوا على مملكتهم وقاعدتها بجاية.

كان هذا ـ إذن ـ هو الظرف الذي اختاره ابن غانية لغزو بجاية وضرب الموحدين من خلف. وهكذا توجَّه هذا الثائر سنة 580هـ (1184 م) في أسطول يضمُّ اثنين وثلاثين سفينة ومائتي فارس وأربعة آلاف من الرجالة[26].

ولم يجد ابن غانية مقاومة تُذْكَر في بجاية فقد كان وصوله إليها على حين غفلة من الموحدين. وكانت المدينة خالية من واليها أبي الربيع سليمان الذي كان خارجاً عنها في طريقه إلى مراكش. هذا بالإضافة إلى التسهيلات والمساعدات التي وجدها ابن غانية من أنصاره الذين تعاقد معهم سرّاً سواء من الأعراب أو من أمراء بجاية السابقين من بني حمّاد. وتمكن ابن غانية من احتلال بجاية بسهولة، وأسر من كان فيها من الموحدين. وكان من أبرزهم موسى بن عبد المؤمن بن علي الذي وفد على بجاية قادماً من إفريقية. ودخل ابن غانية مدينة بجاية في السادس من شعبان سنة 580هـ ـ (1184م). وعند صلاة أوَّل جمعة وقعت الدعوة في خطبتها لبني العباس بإمامة أبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمان الإشبيلي[27].

وكانت السهولة التي استولى بها ابن غانية على بجاية مُغْرِيَةً به على

(25) المعجب (271).
(26) في ابن الأثير 20 سفينة (11: 507).
(27) المعجب (271 - 272).

مواصلة الغزو فخرج منها بعد إقامة أسبوع واحدٍ فيها و «بعد أن أسس أمورها» وولّى عليها أخاه يحيى بمعاونة قائده رشيد الرومي[28]، واستولى ابن غانية على عدّة مدن بالمغرب الأوسط من أهمها مدن الجزائر ومليانة وآشير وقلعة بني حماد. ولم تصمد أمامه إلاّ مدينة قسنطينة التي حاصرها طويلاً. وكاد يستولي عليها لطول الحصار ونفاد الذخيرة لولا أنّ الموحّدين هالهم ما أحرزه من انتصار فاستعدُّوا إلى ملاقاته أعظم استعداد بتجهيز جيش برّي كبير وأسطول بحري كانا يسيران متوازيين. وقد تمكن هذا الجيش المزدوج من استرجاع الجزائر وبجاية. ثمّ اتّجه إلى قسنطينة المحاصرة من ابن غانية الذي بلغته الانتصارات التي حققها الموحدون ضدّه. وهكذا لم يَسَع ابن غانية ـ بعد أن بلغته انتصارات الموحّدين ـ إلاّ أن يفكّ الحصار عن قسنطينة، وأن يتجه صوب إفريقية مفضلاً المناطق الصّعبة، والجهات التي تبعد عن مطاردة الموحدين له حسب ظنّه. وعلى هذا الأساس فضّل علي بن غانية أن يتجه إلى بلاد الجريد. واستهدف في البداية مدينة توزر فحاصرها هو وأخوه يحيى مدّة وقطعا غابتها وأفسدا نخيلهـا. ويقول أبو محمد التجاني عن حلول ابن غانية بتوزر وحصاره لها:

«ولولا المخامرة من أهلها لما تمكّنا منها. ولمّا افتتحاها سالما أهلهَا الذين باطنوهما على فتحها واستصفيا أموال الآخرين. ثمّ ألزماهم بعد ذلك أموالاً أخرى يفتدون بها أنفسَهم، فكان الرجل منهم ينادى عليه، فإن وجد من يفديه أُطْلِقَ وإلاّ رمي بعد قتله هناك في بئر يسمونها بئر الشهداء أضيفت إلى هؤلاء الذين رموا بها»[29].

ولا شك أنّ مثل هذه الأعمال لا تساعد ابن غانية على الانتصار؛ لأنّها سوف تؤلّب الرأي العام ضدّه، وسوف تُعِين الموحدين ـ حيث يتعقبونه ـ على هزيمته وكسر شوكته؛ فقد كانت كثرة الضرائب التي يفرضها على الناس،

(28) المصدر السابق. و ع، عنان (2 :150).
(29) رحلة التجاني (162).

وشدَّته في تنفيذ ذلك من أهمّ الأسباب التي جعلت عامَّة الناس ينفرون منه، وينظرون إلى الموحِّدين نظرتهم إلى المنقذ المستَنْجَدِ به ضدَّ الطغيان والاعتساف.

وكانت هذه الأعمال الشنيعة من الأسباب التي زادت من عزم الموحدين على مطاردة ابن غانية وتعقبه. ذلك أنَّ مطامح ابن غانية لم تقف عند ذلك الحد، فعزم على تصفية سلطة الموحدين من كافة بلاد الجريد وغيرها سالكاً هذا المسلك العنيف. وكان من جملة تلك الأعمال ما تناقله الإخباريون عمَّا فعله ابن غانية وجيوشه في منزل «باشو» القريب من مدينة قرنبالية الحالية. فقد قال أبو محمد عبد العزيز بن شداد في كتابه «الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان» والذي كان في بلاد الشام في ذلك الوقت: أخبرني أبو عبدالله محمد بن البراء المهدوي ـ وقد وصل إلى دمشق في هذه السنة يعني سنة اثنين وثمانين وخمسمائة ـ قال: فسألته عن أحوال إفريقية فقال هلك العباد وخرب البلاد.. وسأخبرك بما تستدلّ به على الحال: لما نزل علي بن إسحاق على منزل باشو من الجزيرة ـ وهو على بعض يوم من تونس ـ سأله أهله الأمان فأمَّنهم، ودخل عسكره إلى المنزل المذكور فانتهبوا جميع ما فيه وسلبوا أهله حتى ثيابهم التي تواريهم. وامتدت أيدي العبيد وجفاة الأعراب إلى البنات فاضطر أهله إلى الفرار ففرُّوا بأجمعهم إلى تونس، ونزلوا بين سُورَيْها؛ فدخل عليهم فصل الشتاء هنالك فأهلكهم البرد والماء. وأحصي من مات منهم بتونس فكانوا اثني عشر ألفاً»[30].

وتلك عينة مما لاقاه سكَّان إفريقية من علي ابن غانية المتمرِّد على الموحدين في سائر المناطق والمدن التي استولى عليها. ولم تسلم من ذلك إلَّا مدينة تونس، ومدينة المهدية لشدَّة المقاومة التي لقيها من القوات

(30) رحلة التجاني ص 14.

الموحدية المحافظة على المدينتين. وقد ذكر عن عنت ابن غانية أنَّه ـ كما يقول ابن الأثير ـ قد اعتمد «كلّ مفسد في الأرض ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر، فخربوا البلاد والحصون والقرى وهتكوا الحرم، وقطعوا الأشجار»[31] وهكذا يتأكد ما ذكرناه سابقاً من أنَّ سكّان إفريقية الذين ربَّما كانوا على ضيق من الموحدين وكانت لهم بارقة أمل في ابن غانية سرعان ما انكشفت لهم الحقائق. وظهر لهم ما ينتظرهم من هذا المتمرِّد.

وأمَامَ إجماع المؤرخين على وصف أعمال ابن غانية بالشناعة والعنف يستبعد أن تكون للتيارات السياسية ـ خاصة الموحدية منها ـ التأثير الكامل في تشويه سمعة هذا الثائر الذي ظهرت مطامحه عندما لقب نفسه «أمير المسلمين» على غرار ما كان المرابطون يلقّبون به ملوكهم خاصة أنَّ أهمَّ النصوص عن أفعال ابن غانية إنما هي النصوص التي نقلها ابن شداد والقاضي الفاضل، وكلاهما من رجال دولة بني أيوب التي أزالت الخلافة الفاطمية وأعلنت ولاءها للخلافة العباسية في بغداد. وهو قدر مشترك يجمع بين صلاح الدين الأيوبي وابن غانية الميورقي. كما لا ينبغي ـ في هذا المجال ـ إغفال الترابط والتساند اللذين حصلا بين قراقوش الأرمني وابن غانية ضدَّ الموحدين في بداية الأمر. وكنا ألمحنا في حينه كيف أنَّ الأيوبيين فكَّروا في الاستقرار بإفريقية إذ اشتد الخلاف بينهم وبين نور الدين زنكي. وعلى ذلك الأساس كانت بعثة قراقوش واستيلاؤه على قسم من إفريقية من طرابلس إلى قابس.

ومهما يكن فإنَّ ثورة ابن غانية لم يكتب لها البقاء. وقد تضافر عاملان أساسيان على ذلك: أولهما ما قام به ابن غانية من إرهاق للرعية، وثانيهما ـ وهو الأهم ـ العزم الأكيد من دولة الموحدين على مقاومته وخضد شوكته.

---

(31) الكامل (11: 520).

الجولة الأولى بين الموحدين وابن غانية

رأينا في السابق كيف أنَّ الخليفة الموحدي «يعقوب المنصور» ـ بعد أن وصلته أخبار استيلاء ابن غانية على بجاية والمغرب الأوسط ـ جهز جيشاً بريّاً عدَّته عشرون ألف مقاتل، كما جهَّز أسطولاً بحرياً كبيراً أقلع من مدينة سبتة بقيادة أبي محمد بن إسحاق بن جامع. وقبل ذلك بعث الخليفة «المنصور» برسائل إلى أهالي المدن التي احتلَّها ابن غانية يدعوهم فيها إلى الطاعة والانفضاض من حول ابن غانية، ويعدهم بالصفح والأمن والإحسان[32].

وكانت لتلك المكاتيب أثرها البالغ في سكان بجاية. ويصف صاحب البيان المغرب ذلك التأثير بقوله:

«..ولما دنت الجيوش البريَّة والبحرية من البلاد دسّوا بالكتب جواسيس دخلوا بها ليلاً إلى البلاد، واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن، فلما وقفوا عليها رأوا أنَّهم قد أمنوا غوائل العذاب، وأن العفو والرحمة لهم مفتحة الأبواب، وثبوا على ما كان عندهم من الأعداء، وأوصدوا لفرارهم بالمضايق، وقبضوا على أكثرهم بتلك المخانق»[33]. وكانت الطريقة التي استعملها الموحدون من استمالة الناقمين والغاضبين، ومن استعمال الجواسيس تكاد تكون نفس الطريقة التي استعملها ابن غانية نفسه في

(32) البيان المغرب (3 :150) دولة المرابطين والموحدين لعبدالله عنان (2 :151).
(33) البيان المغرب (3 :150).

استيلائه على بجاية. وما إن وصلت الجيوش الموحدية والأسطول إلى بجاية حتى عمَّت الفوضى داخل المدينة، وفتح العامة أبوابها لاقتبال الوافدين، فدخل الموحدون مدينة بجاية، وفكُّوا الأسرى الذين حبسهم وأسرهم ابن غانية.

أمَّا أخوه يحيى الذي كان يتولَّى المدينة فقد فرَّ منها منهزماً، ملتحقاً بأخيه «علي» الذي كان في ذلك الوقت يحاصر مدينة قسنطينة. ثمَّ ارتحل الأخوان معاً إلى مناطق الواحات الغربية من إفريقية.

وكان لاسترجاع مدينة بجاية وتخليصها من سيطرة بني غانية مفعول الانشراح والابتهاج في العاصمة الموحدية، مراكش، فتقاطرت وفود المهنئين على الخليفة الموحدي، وتسابق الشعراء إلى تسجيل ذلك الانتصار وتخليده. من ذلك ما قاله أبو العبَّاس بن عبد السلام:

لـواؤك منصـورٌ وسعـدُك غـالبُ ... وحـزبُكَ لـلأعداء عنـك محـارِبُ
لقـد ثكلت أمّ المنـادي وغـرّرت ... مبـادىء من أحـوالِـهِ، وعـواقبُ
سَمَا لاسْتراق السَّمعِ من وَهَدَاتِـهِ ... ودون سمـاء الملك شُهْبٌ ثواقبُ
تـلاقى عليه البرّ والبحـر تـرتمي ... سفينٌ إلى استئصـالـه وكـتـائبُ
غـريق بغَـرْقَـى مثـله متـمسِّـكٌ ... ومـوجُ المنـايـا مثلَهم متـراكبُ
هـوت بِهِمُ الأطماعُ في هوّة الرَّدَى ... وغـرَّتهُمْ جهـلا بـروقٌ عـواقبُ
أطـاعـوا غـويّـاً لم تقيِّده شِـرعـةٌ ... ولم تُـرِهِ وجهَ الصَّوابِ التجـاربُ
مغيَّب وجه الرأي، والـوجهُ حـائر ... يرى حاضراً في أمره، وهو غائبٌ
دعـاهم إلى آجـالهم فتهـافتـوا ... كمـا جمع الأعـوادَ للنَّـارِ حـاطبُ
تَصَـامَمَ عن وعـدِ الـزمـان بقلبـه ... وأعرض عن وجهِ الهُدَى، وهو لاحِبُ
تـخـيَّـل أنَّ الـنـاصـريـة دارُهُ ... يُـطاعن عن ساحتهـا ويُضـارِبُ[34]

وبعد أن ينتهي أبو العباس بن عبد السلام من التنديد بابن غانية وتصوير

---

(34) البيان المغرب (3 :151 — 152).

ما آل إليه هو وأنصارُه، ينتقل هذا الشاعر إلى مدح الخليفة المُوحدي مُضْفِياً عليه نعوت المبالغة والتمجيد، والتهويل والشرف، شأنه في ذلك شأن المعاصرين لبني عبد المؤمن، وما صاحَبَ انبعاثِ الدولة الموحدية من وضع للآثار والأحاديث في وصف المهدي (ابن تومرت) وكراماته، وفي التبشير بعبد المؤمن بن علي وآله مِمَّا يدخل في باب «الأحاديث والآثار» الموضوعة، ومِمَّا يذكر بتلك الأحاديث المكذوبة على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ خاصة المتعلق منها بفضائل الأشخاص والقبائل. وقد أثبت ابن القطّان في كتابه «نظم الجمان» الكثيرَ من تلك الأحاديث الموضوعة والمنسوبة للرسول عليه السلام، من ذلك «الحديث» المروي عن أبي عبدالله اللَّخمي الذي يقول: «. . رأيت في الخبر عن خير البشر رسول الله ـ ﷺ ـ أنَّه قال: خير القرون الذي أنا فيه، ثمَّ الذي يليه، ثمَّ الذي يليه، ثمَّ الذي يليه والآخر أشق. ولا يقوم بالحق بعد الفترة التي تحدث في الخلق بعد هذه القرون إلاَّ المهدي، والرجل القائم بأمره، ومن يليه من الخلفاء بعده. . »[35].

ومن غريب ذلك ـ أيضاً ـ ما ذكر عن أبي القاسم المؤمن أنَّه قال: دخلت في أرض القدس رباطاً يعمره رهبان الرُّوم مفروشاً بالرخام المجزع، وفيه رخامة بيضاء قد نقش في سطحها الظاهر منها أحدَ عشرا سطراً على كلِّ سطر منها اسمان إلاَّ السطر الأوسط فعليه اسم واحد. . وعلى السطر الأوسط السادس اسم الإمام المهدي (يعني محمد بن تومرت) وعلى السطر السابع اسم الخليفة بعد الإمام المهدي الآخذ عنه في حياته عبد المؤمن بن علي القيسي.

ويقول صاحب هذه الأسطورة: إنَّه عرض ذلك على ابن تومرت فأمره بحفظ ذلك حتى يحين الوقت الذي يكون فيه ظهوره[36]. إلى غير ذلك من

(35) نظم الجمان القطعة المطبوعة منه ص 142.
(36) «نظم الجمان» ص 146.

الترّهات والأباطيل التي دعت إليها الأوضاع السياسية، ونمّاها الجهل بالأصول الصحيحة للعقيدة الإسلامية.

ولم تقتصر تلك «الموضوعات الحديثية» على المهدي ابن تومرت، ومؤسس الدولة عبد المؤمن بن علي بل تجاوزت ذلك إلى الأبناء والأحفاد الخلفاء. من ذلك ما نقله ابن الشمّاع غير منسوب ولا مسند أنّه جاء في حديث: «.. ولّينا نحن بمصر بعشرة دنانير، ثمّ رجعنا بخمسين ديناراً من حرص الناس على الجهاد بإفريقية، وكافة النعم، نريد المحامل على عتبة النيل إلى أرض إفريقية لطلب الجهاد والعدل فيها. وليملكنّ من إفريقية رجل اسمه يوسف يعدل فيها اثنين وعشرين سنة»[37] وكان يعني بذلك يوسف بن عبد المؤمن الذي حكم من سنة 568 هـ إلى سنة 590 هـ وذلك اثنان وعشرون سنة.

ولهذا فلا نستغرب من أبي العباس بن عبد السلام عندما يتابع القول في قصيدته الآنفة الذكر:

وفي الغيب من إنجاد طائفةِ الهدى ونصرِ أمير المؤمنين غرائبُ
هو الأمْرُ. أمرُ الله ليس يفوته مُناوٍ ولا يثنى عليه مناصبُ
وما هاربٌ منه ـ ولو بلغ السُّها ـ بناجٍ. وهل ينجو من اللّه هارِبُ؟
إمام له فضلٌ على الخلق باهرٌ ومرتبة تنحطّ عنها المراتِبُ
مناقبُه مثل الكواكب كَثْرَةً ونوراً، ألا لله تلك المناقبُ
هي الدّوحة الشمّاءُ في الأرض أصلُها وقد زاحمت منها السماءَ الذوائِبُ
له نسبة قيسية قرشية تقرّ لها بالمعلومات المناسبُ
حقيقٌ بميراث النبوّةِ والهُدى ولا عجبٌ أنّ المزايا مواهبُ
بقيتم ـ أمير المؤمنين ـ وسعدكم تُهَزُّ قنىً منه وتُنْضَى قواضِبُ[38]

(37) الأدلة البينة النورانية لابن الشماع ص 14.
(38) البيان المغرب (3 :152).

وإذا كانت انتصارات الموحِّدين على ابن غانية في المغرب الأوسط لم تكن بقيادة الخليفة الموحدي فإنَّ جولات أخرى بين ابن غانية وبني عبد المؤمن سوف تكون بقيادة الخليفة نفسه إظهاراً لمدى الاهتمام بالوضع الخطير الذي يهدد السلطنة الموحِّدية، فعندما بلغ إلى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ما فعله ابن غانية بأهالي إفريقية وخاصة - في بلاد الجريد - قرَّر يعقوب المنصور أن يقودَ الحملة بنفسه من مراكش إلى بلاد الجريد لملاقاة علي بن غانية. وكان ذلك سنة 582 هـ - (1186 م). وقد أتى هذا القرار الموحدي بعد أن ازدادتِ صِلات ابن غانية بدول المشرق؛ فبالإضافة إلى تحالفه مع قراقوش الأرمني فإن ابن غانية ربط صلته بالخلافة العباسية في بغداد عندما بعث بابنه عبد المؤمن إلى بغداد حيث يوجد الخليفة العباسي الناصر بن المستضيء بالله يطلب منه المدد والمساندة باعتباره منضوياً تحت لواء الخلافة العباسية، ومناوئاً للخلافة الموحدية التي قد تمثِّل في موقفها السياسي ما كانت تمثله الخلافة الفاطمية في القاهرة. إذ لا مانع - في صورة نجاح ابن غانية - أن يحصل لهذه الخلافة «الموحدية» على يديه ما حصل للخلافة الفاطمية على يدي صلاح الدين الأيوبي بالقاهرة. ولهذه الاعتبارات فإننا نجد الخليفة العباسي يهتمّ بالرسول الموفَدِ إليه من قبل ابن غانية فيحتفي به، ويكرمه، ويعقد لابن غانية على سائر ما تحت يده من أقطار وأمصار. كما بعث الخليفة العباسي إلى صلاح الدين الأيوبي يعلمه بذلك، ويطلب منه مساندةَ ابن غانية. ولم يكن صلاح الدين الأيوبي - من جهته - المستنكف من تلك البادرة فأرسل إلى قراقوش (مولى بني أيوب) يأمره بمساندة ابن غانية ضدَّ الموحدين في سبيل تقوية نفوذ الخلافة العباسية، وتوسيع ذلك النفوذ في أقطار المغرب الإسلامي.

معركة عمرة بين المنصور الموحدي وابن غانية

كان على الخليفة الموحدي (يعقوب المنصور) أن يستعد ـ إذن ـ استعداداً خاصاً لملاقاة ابن غانية؛ فبالإضافة إلى عظمة استعداده لذلك فإنه سلك شيئاً من الاحتياط في العناصر التي كوّن منها جيشه لمحاربة ابن غانية؛ فقد لوحظت قلة ما اصطحبه من العربان في ذلك الجيش إذ لم يكن معه إلّا قِلّةٌ من أشياخ بني رياح مثل بني زيان[39] وذلك خوفاً من عدم صدق العربان في ملاقاة العدو، واعتباراً للتجارب العديدة التي اختبر بها أولائك الأعراب من فرارهم في ساحات القتال، وانضمامهم إلى صفوف الأعداء. وهو ما حصل فعلاً في بعض المعارك التي جرت بالأندلس.

وفي شوال من سنة 582 (ديسمبر 1186) كان خروج الخليفة يعقوب المنصور إلى إفريقية قَصْدَ كبح جماح ثورة ابن غانية وإيقافها عند حدّها. وعند الوصول إلى القيروان كان رأي المنصور أن يتوجه رأساً إلى محاربة ابن غانية، إلّا أن مجلس الشورى الذي عقده كان يرى عكس ذلك مفضلاً التوجه إلى تونس العاصمة للاستراحة بها مدّةً ثم يقع التوجه بعد ذلك إلى مناطق الواحات وبلاد الجريد. وانصاع ـ أخيراً ـ الخليفة المنصور لرأي أشياخ المجلس والوزراء[40] فتابع السير حتى وصل مدينة تونس في شهر صفر من

(39) محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين (1 :159).
(40) البيان المغرب (3 :159).

سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. وبقي الخليفة المنصور في تونس مكتفياً بإيفاد جيش في ستة آلاف رجل إلى قفصة حيث يوجد المتحالفان: ابن غانية وقراقوش. ونظراً لقلّة الجيش الموحدي وللانقسام الذي حصل في صفوفه فقد مُنِي الموحدون بهزيمة كبرى قتل فيها وأسر الكثير من قوادهم. وقد جرت هذه المعركة في سهل «عمرة» على مقربة من مدينة قفصة حيث قتل في ساحتها أكثر جيش الموحدين. كما كان نصيبُ مَن التجأ منهم إلى قفصة القتل كذلك. ورجعت الفلول المنهزمة إلى تونس لإبلاغ المنصور الموحدي ما حصل لجيشه في سهل «عمرة» فاستاء الخليفة المنصور لذلك أشد الاستياء «وكثر قلقه، وطال أرقه»[41] حتى قرّ منه العزم ـ هذه المرة ـ على الاستبداد برأيه في مجابهة ابن غانية وحليفه قراقوش بنفسه بعد أن تبيّن له فساد اجتهاد مجلس الأشياخ والوزراء.

وهكذا كانت هزيمة «عمرة» دافعة بالمنصور الموحدي إلى أن يقود زمام المعركة بنفسه. فخرج من مدينة تونس تاركاً ولايتها وإدارتها لأخيه أبي إسحاق. ونزل ـ أول الأمر برادس ـ حتى ينظم الجيش، ويستكمل عدده، ويعرف المتخاذلين عن القتال والمتنكبين للمواجهة. ثم اتجه صوبَ الجنوب الشرقي لإفريقية. ولعله فضّلَ ذلك لتأمين السواحل ومنع الأمداد التي قد ترد برّاً أو بحراً من الشرق. وفي سبيل ذلك بادر ببعث جيش إلى قابس ليحاصرها، ويتوجه هو إلى حامة قابس. وفعلاً فإن المعركة الأولى التي خاضها جيش الموحدين كانت في منطقة حامة قابس. وقد انتصر فيها الموحدون انتصاراً باهراً اعتبروه أخذاً بثأر معركة «عمرة» فقد مني فيها ابن غانية وقراقوش بهزيمة كبيرة ولّوا بعدها الأدبار في اتجاه قفصة، وتعقب الموحدون فلول أولائك الفارين من معركة الحامة. ولكنَّ توغلَهم في الفيافي والصحراء جعل المنصور الموحدي يعدل عن مواصلة مطاردتهم، ويعود إلى قابس قصد الاستيلاء عليها باعتبارها أهم معاقل قراقوش الأرمني.

(41) المصدر السابق (161).

الاستيلاء على قابس أهم معاقل قراقوش الأرمني

كانت مدينة قابس قبل أن يستولي عليها قراقوش تابعةً للموحدين تحت ولاية ابن تافراجين. فلما وصلها قراقوش وعزم على افتتاحها بعث إلى ابن تافراجين وقواته إنذاراً جاء فيه:

«.. ولما عزمنا على قرع بابكم، والحلول بجنابكم، رأينا تقديم الإنذار إليكم، وإيراد النصيحة عليكم، والكفّ عنكم ثلاثة أيام لا تمدّ لكم فيها يد، ولا يتقدم بالإضرار إليكم أحد، لنعلم ما عندكم، ونتبين غيَّكم من رشدكم. فإن آثرتم الطاعة، وتبعتم الجماعة مدَدْنا لكم أكناف العدل، وأتبعنا فيكم كريم القول، وصحيح الفعل. وإن أبيتم إلّا خلافاً فقد أبلغنا الناس عذراً، وأتينا بالتبرّي من أمركم برّاً. ولا تغترّوا بأهل طرابلس فلو كان لهم سواد يقطع، أو مياه تصدّ وتمنع لجروا إلى الطاعة، وحمّلوا أنفسهم منها فوق الاستطاعة»[42].

ولكنّ هذا الإنذار الذي بعث به قراقوش إلى الموحدين بقيادة ابن تافراجين في قابس لم يجد الاستجابة والآذان الصاغية؛ فقد ظن ابن تافراجين أنه بإمكانه الاستمرار في المقاومة، وأن الإمدادات والنجدة قد تصل إليه قبل أن يتمكن قراقوش من التغلب عليه. وقد فات ابن تافراجين أن وضعية الموحدين ـ إذ ذاك ـ لم يكن في إمكانها إنجاده. وهذا ما حصل

42) رحلة التجاني (105 - 106).

بالفعل إذ لم يمهله قراقوش أكثر من الأجل الذي جاء في الإنذار، فزحف قراقوش على مدينة قابس بجموعه من الغز (الأتراك) وأنصاره من العربان. وحاصر قابس حصاراً شديداً، وعمد إلى غابة نخيلها فقطع ما فيها من الأشجار والنخيل حتى قيل: إنه لم يترك بغابة قابس إلا نخلة واحدة للاعتبار[43] ورغم ما يبدو على هذه الرواية من المبالغة فإنها ـ لا محالة ـ تدلّ على شدّة ما نال غابة قابس من قطع لأشجارها ونخيلها. مما جعل أهالي قابس ينالهم الفزع ويهولهم المصير الذي يهددهم إذا استمروا في الاعتصام بأسوار المدينة ولم يستجيبوا للإنذار فأجبروا ابن تافراجين على قبول الاستجابة وفتح أبواب المدينة.

وقد دارت المفاوضات بين قراقوش والمحصورين على أمرين: الأمر الأول أن يسمح قراقوش لابن تافراجين بمغادرة المدينة صحبة أهله وأمواله، وأن يتوجه عن طريق البحر إلى المغرب الأقصى، فوافق قراقوش على ذلك وسمح للقائد الموحدي بمغادرة المدينة بعد أن أمّنه على ذلك.

أما الأمر الثاني فهو الضريبة التي طلبها قراقوش من أهل قابس؛ فقد اشترط عليهم ـ مقابل أمنهم والعفو عنهم ـ مائة ألف دينار. وبعد المفاوضات وقع الاتفاق على تنزيل تلك الضريبة إلى ستين ألف دينار. وعلى هذا الأساس فتحت المدينة أبوابها وانقادت لقراقوش، وأصبحت مركز قيادته، ومقر سطوته. وبعث قراقوش مبشراً بذلك الانتصار إلى طرابلس التي دخلت تحت طاعته قبل ذلك. ويذكر التجاني في رحلته[44] أن الذي كتب رسالة البشرى هو أبو محمد عبد البر بن فرسان[45]. وقد جاء في تلك الرسالة قوله:

---

(43) المصدر السابق (106).

(44) ص 106.

(45) المعروف أن ابن فرسان كان كاتباً لبني غانية، خاصة أبا زكرياء يحيى. ولعل كتابته لقراقوش كانت من باب التعاون بين الثائرين على السلطنة الموحدية. انظر عن ابن فرسان: المغرب =

«. . فأخذهم هول الحصار، وأحاطت الخيام بالأسوار حتى كانت المدينة معها كالزند في ضمن السوار، وكالعنق تحت محيط الأزرار، وكالمركز للفلك الدوار. . . ولما أسقط في أيديهم، ولم يجدوا راحماً يعصمهم مما يؤذيهم سلكوا للطاعة طريقة، وتظاهروا بها مجازاً أو حقيقة، فقبلت على حكم التسليم والتفويض، والقيام بعبء وظيفة المال والنهوض، وانتقلوا من الحرم إلى الحلّ، ومن الحرور إلى الظل. . وتفقدوا سوادهم[46] فوجدوه طامس الآثار، مجتثّ الأشجار، مغوّر المياه الغزار. .»[47].

كما ينقل التجاني قصيدة لابن فرسان هذا قالها مهنئاً لقراقوش عند استيلائه على قابس افتتحها بقوله:

أجل، إنّه النصر المهنّأُ والفتحُ طواه الدجى وقتاً وبيّنه الصُّبْحُ
عصوا، ثم جاؤوا طائعين إمَامَهم عماية غيّ كان آخرَها الصبحُ

ويستمرّ ابن فرسان في وصف أهالي قابس كيف عادوا إلى الهداية والرشد بعد أن يئسوا من الصمود في المقاومة. ثم يتطرق بعد ذلك إلى ذكر المفاوضات التي تمت بين قراقوش والمحصورين، وكيف استجابوا لذلك. وكيف لبّى طلبهم قراقوش في التخفيف من الضريبة التي سلطت عليهم من مائة ألف إلى ستين ألف دينار. ثم ينتهي إلى مدح قراقوش وكيف أنه بسط العدل وأزال الظلم. ويختمها بقوله[48]:

فلا زلت فتّاحَ البلاد ممهّداً جوانبها ما الْتَاحَ من بارقٍ لَمْحُ
ودانَ لك الداني وقُصَّ من الذي قَصا طاغِياً ريشٌ وحمّ له ذبحُ

ولكن كل هذا لم يكن إلاّ خيال شاعر، ومطامح مغامر لا ترتكز على

= لابن سعيد (2: 142 - 143) ـ المقتضب من تحفة القادم (115 - 116) ـ نفح الطيب (2: 611 - 614).

(46) يعني غابة قابس.

(47) رحلة التجاني (107 - 108).

(48) انظر القصيد كاملاً في الرحلة (109 - 110).

قاعدة البقاء، ولا تملك أسباب الاستقرار. وإذا كانت ظروف الاضطرابات الداخلية في إفريقية هي التي ساعدت قراقوش على تحقيق مغامرته، كما ساعدت من قبله حليفه ابن غانية فإن تلك الظروف لم تكن قارة ثابتة. ولهذا فإنه لما عزم المنصور الموحدي على تصفية أمر قراقوش وابن غانية ـ بما أقره من عزم، وجنّد من قُوَىً، وأحكم من تخطيط ـ تلاشت كل تلك الأحلام. وهكذا لم تستطع قابس ـ معقل قراقوش ـ أن تصمد طويلاً أمام زحف المنصور الموحدي؛ فبعد يومين فقط من قدوم المنصور استسلم أتباع قراقوش وأهله، وغادروا «قصر العروسين» ونزلوا إليه راغبين في الأمان، فقبل منهم ذلك. وبعث بهم بحراً إلى حاضرة تونس. ثم توجهوا بعد ذلك إلى مراكش.

وتابع المنصور الموحدي انتصاراته في القضاء على جيوب المقاومة المتمردة. واستطاع أن يستولي على مدن وقرى الواحات الغربية فاستولى على توزر ونفطة ودقاش وحامة الجريد ثم اتجه بعد ذلك إلى مدينة قفصة التي تركها عمداً حتى تكون الجولة الحاسمة بينه وبين أعدائه بعد أن سدّ عليها منافذ الإمدادات ومسالك النجدات.

معركة قفصة

كان من الطبيعي أن يستعدّ المنصور الموحدي كبير الاستعداد للهجوم على قفصة التي تحصن بها خَصْمَا السلطنة الموحدية: يحيى ابن غانية وقُراقوش الأرمني بعد أن سجّل الانتصار عليهما في عدة معارك قبل ذلك. وأقبل المنصور الموحدي في جيش لجب جمع فيه أكبر عدد من جيوشه، وأكثرهم بسالة وإقداماً وإخلاصاً. كما أعدّ له من العُدَد واللّوازم ما لم يعدَّه لمعركة أخرى قبل ذلك في إفريقية. ولم يبدأ المنصور الموحدي هجومه على قفصة إلاّ بعد أن استكمل كل تلك القوات، فعسكر ـ أولاً ـ بعيداً عن المدينة ثم تقدم منها بعد أن تأكد مِنْ عزم مَنْ فيها على الصمود في المقاومة، والاستماتة في الدفاع. وكانت مدينة قفصة محصنة بسور منيع، محاطة بحفير عميق حول أسوارها. وكان أول عمل قام به المنصور الموحدي هو قطع ما حول المدينة من أشجار ونخيل إنذاراً للمحصورين،. وحرباً نفسية سلّطها على سكان المدينة. وكان من أهمّ استعدادات الموحدين أنهم شيدوا برجاً متحركاً متركباً من سبع طوابق شحنوه بالرماة، واقتربوا به من أسوار المدينة حتى أصبح في مستوى أسوارها أو أعلى. وبذلك يتمكن الرماة الموجودون فيه من إصابة أهدافهم، ورؤية أعدائهم ومراميهم. كما عمدت قوات الموحدين إلى ردم الخندق المحيط بالمدينة وخاصة في المناطق التي بها ثغرات في الأسوار. ويصف صاحب البيان المغرب ذلك الحصار بقوله:

«.. وأقيم برج على سبع طباق مزاحماً بذروته مراقي السبع الطِباق،

فشُحِنَ بالرّماة والآلات، رجال بصفوف الأسلحة والرايات، تحرّك بالهمز ولطيف الركز، فانساب انسيابَ الحيّة الرقطاء، ومرّ على سمته مرّ السحاب على صفحة الماء من غير توعّر ولا تعوّر ولا التواء. ونفخ بداخله البوقات، وصُكّت الطبول، وقام بأقطار المحلّة التكبير والتهليل. ودنا من السور حتى أطلّ على جفن المدينة إطلال الأهرام، وتحكّم من أهلها بسوء الانتقام، وكمل ردم الحفير المقابل لثلم السور حتى ساوى وجه الأرض، وصار مهيعاً للبلد بحيث لا يمنع فارساً ولا راجلاً، ولا خارجاً ولا داخلاً»[52].

وبالرغم من الهجوم العنيف الذي قام به الموحدون في اليوم الأول فإنهم لم يتمكنوا من اقتحام المدينة رغم انقضاض السور وانهدامه برمي المنجنيق. وكان لوابل الحجارة التي صوّبها المحصورون على المهاجمين أثر كبير في تعطيل تقدم الموحدين بين الأنقاض والأوحال وتهاطل الأحجار.

وعندما أيقن المحصورون بعزم الموحدين على إعادة الهجوم في الغد خرج أعيان قفصة ليلاً لمقابلة المنصور والتفاوض معه في الاستسلام والتخلي عن مناصرة المتمردين ضده. فاقتبلهم المنصور، وعقد مجلسه الشوري. وأسفر ذلك عن قرار يضمن لأهالي قفصة أمانهم، وبقاء أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة على شرط أن يستسلم كل الغرباء عن المدينة من أنصار ابن غانية وأنصار قراقوش على حد سواء. ووافق وفد التفاوض القفصي على تلك الشروط باستثناء منح الأمان للأتراك أنصار قراقوش الأرمني فوقع الاتفاق على ذلك أخيراً بين الجانبين.

وفي الغد أخليت المدينة من جميع الرجال شيوخاً وكهولاً وشباناً، ولم يبق فيها إلّا النساء والأطفال. وحشر كل الرجال في مكان واحد حيث ابتدأت عملية الفرز؛ فمَنْ كان من أهل البلد سمح له بالعودة إليها، ومن كان غريباً عنها زجّ به في البرج الكبير بعد أن قيدوا وثقفوا كلّهم. وبعد صلاة عصر

(52) البيان المغرب (جـ 3 : 166).

ذلك اليوم أمر المنصور الموحدي بقتلهم جميعاً فذبحوا عن آخرهم، وألقي بجثثهم في حفير المدينة. حتى اضطر المنصور الموحدي إلى نقل مخيمه بعيداً عن آثار تلك المجزرة المرعبة وما يترتب عليها من عفونة وأمراض.

ويصف صاحب البيان المغرب هذه المجزرة بقوله: فلما فرغ (المنصور) من صلاة ظهر اليوم المذكور جلس في المرقبة التي تقدّم ذكرها المسماة بالديدبان، وأمر بإخراج المثقفين وأمر بذبحهم أجمعين، فكانوا يساقون إلى مصارعهم زمراً، ويكبّون على وجوههم وجنوبهم وظهورهم. وبدىء بابن شقيّهم ذبحه أبو يحيى الوزير حتى إذا أتى الذبح على آخرهم جعل من خندقهم وحفيرهم بقيع قبورهم. وأهل البلد ينظرون إلى مصارعهم. وتمكن الحديد في أوداجهم وأخادعهم، فنهكت الجهة من دفن جيفهم، وثقلت من وحشة جثثهم فحوّل المنصور مضاربه، ورحل إلى البقعة التي نزل بها أولاً. . »[53].

ولعلّه من المضحك المبكي ما ذكره التجاني في رحلته ـ أثناء حديثه عن هذه المعركة ـ حيث يقول: «. . وكان الأعمى الفهمي حاضراً. وهو نحوي فاضل. كان الخليفة يعينه لقراءة أولاده القرآن، فطلب أن يسمح له بشخص منهم يتولّى ذبحه بيده. فأجابه الخليفة إلى ذلك. ولما أضجع له طلب يسيراً من الملح والصعتر كما يفعله العامة بالضحايا. وأضحك بهذا الفعل المبكي جميع من حضر»[54].

ولم يكتفِ المنصور الموحدي بهذه المجزرة المرعبة فأمر بهدم سور مدينة قفصة عن آخره. ولم يمض يومان حتى أصبح أثراً بعد عين. ويقول التجاني: «. . وفي هذه الخطرة هلك أكثر نخيل قفصة إذ كان المنصور قد آلى ـ أيام حصارها ـ أن يقطع كلَّ يوم ألف نخلة»[55].

(53) البيان المغرب (3: 168).

(54) رحلة التجاني (138 - 139).

(55) المصدر السابق (139).

تلك هي الصورة المرعبة التي انتهت بها معركة قفصة بين المنصور الموحدي وخصومه من بني غانية وأتباع قراقوش الأرمني. ولكن تلك الصورة المرعبة لم تمنع الشعراء من تسجيلها، والتشفي من أهالي قفصة، ومدح المنصور الموحدي، من ذلك ما قاله أبو بكر بن مجبر:

ما غرّ قفصة إلا أنها اجترمت فلم يكن عند أهل الحلم تثريبُ
ما بالها؟ زارَ أمنُ الله حوزتها فلم يكن عندها أهلٌ وترحيبُ
تلك البغيُّ التي خانت، فعاق بها وبالزناة بها رجمٌ وتغريبُ
قد فضّ شملهم عنها، وقد نعبت بها من الحين غربان غرابيبُ
أما يردّ سليماً ما يباشره وفيه للنفس ترغيبٌ وترهيبُ
هذي أعاديه قد صارت مقسمةً على البلايا، فمقتولٌ ومسلوبُ[56]

ولقد ذكرنا ـ قبل قليل ـ أن المنصور الموحدي أمّن الغزّ الأتراك، كما أمّن أهالي قفصة. وكان ذلك نتيجة تخاذل قراقوش عن ابن غانية؟ فعندما كان المنصور محاصراً لمدينة قفصة وردت عليه رسالة من قراقوش «يعرب فيها عن خضوعه ورغبته في دخوله للتوحيد، وأنّه على استعداد ـ إذا قبلت توبته ـ أن يأتي إلى الموحدين مستنيباً طائعاً. كما وصله في نفس اليوم التالي خطاب مماثل من أبي زيان زعيم الغزّ (الأتراك) المستولي على طرابلس يعرب فيه عن انضوائه تحت لواء التوحيد، وأنه أظهر دعوة التوحيد بطرابلس ونواحيها»[57].

وبعد الانتهاء من معركة قفصة عاد المنصور الموحدي إلى مدينة تونس واستقرّ فيها أياماً حتى ينظم شؤونها، ويرتب أحوالها. ثم عيّن ابن عمّه أبا زيد عليها وقفل عائداً إلى مراكش عن طريق المهدية. وكان أثناء إقامته بتونس قد جاءته الوفود للتهنئة بانتصاره في معركة قفصة. من ذلك ما قاله الشاعر أبو العباس الجراوي ـ ذكر فتح مدينة قفصة:

(56) رحلة التجاني (139).
(57) عبدالله عنان (عصر المرابطين والموحدين جـ 2 :165) نقلاً عن رسائل موحدية.

فتح يطاول فتحه الأحقابا خضعت له فرق الضلال رقابًا
واستشعر المُرّاق منه مخافةً ملكت عليهم جيئة وذهابًا
وعذابه ما قد صفا من عيشهم كدراً وما فيه الحلاوة صابًا
لله يوم الأربعاء فإنه أحيى النفوس وتمّم الآرابا

ويختمها بقوله:

ملك عليه مسحة ملكية لبس الزمان جمالَها جلبابًا
مَدْحُ الإمام عبادة نرجو بها عزّ الحياة، وأن نفوز مآبًا
ما سافرت أذهاننا في مدحه إلاّ وكان له القصور إيابا
لم يدر حقَّ مقامه من لا يرى من دون حق مقامه الإطنابا[58]

---

(58) البيان المغرب (3 :169).

ثورة «الأشل»
وظهور زعيم آخر من بني غانية

كان من أسباب تعجيل المنصور الموحدي بالعودة إلى مراكش ـ بعد انتصاراته في إفريقية ـ هو ما بلغه من أنباء تفيد أن خصومه السياسيين ومناوئيه في الحكم تحرّشوا به أثناء غيابه عن مراكش خاصة عندما وصلتهم أنباء هزيمة الموحدين في معركة عمرة. وقد حصل هذا الارجاف بالهزيمة والتنمّر ضد المنصور الموحدي لا في المغرب الأقصى فقط بل شمل أيضاً المغرب الأوسط والأندلس.

على أن الحالة في الأندلس كانت أدعى إلى انشغال المنصور الموحدي لا سيما بعد تزايد خطر ملك البرتغال «صانشو الأول»؛ فقد ساندته فلول الصليبيين الراجعين من المشرق بعد استيلاء صلاح الدين الأيوبي على بيت المقدس. وكان هذا الانتصار الأيوبي ذا تأثير معاكس في المغرب الإسلامي. فقد دفع الانتصار فلول الصليبيين إلى مدّ حركة الاسترجاع الإسبانية بالقوة ومساندة زعمائها حتى استطاع «صانشو الأول» ـ بمساعدة أولائك الصليبيين ـ الاستيلاء على مدينة شلب الإسلامية في شهر رجب 585هـ (سبتمبر 1189م). وكان هذا الانتصار البرتغالي من جهة أخرى دافعاً قوياً للمنصور الموحدي حتى يعجل بالعبور إلى الأندلس بعد غيابه الطويل في إفريقية. ولكن هذا العبور المستعجل لم يعجل باستعادة مدينة شلب إلاّ بعد عامين من احتلالها. ولم تكن الجبهة الداخلية الموحدية تساعد كثيراً المنصورَ الموحدي على مجابهة أعدائه من نصارى الأندلس. وكان من

مظاهر الانحلال في الجبهة الداخلية ثورة أبي عبد الله محمد بن عبد الله الجزيري الذي شق عصا الطاعة في وجه السلطنة الموحدية بدعوى أنّ الموحدين انحرفوا عن خطهم الأصلي، وتنكروا للمبادىء التي كان يدعو إليها المهدي بن تومرت لما كان يقوم به العمّال الموحدون من إفساد للسلطة، وحيف اجتماعي. ونظراً لما كانت عليه سيرة أولائك العمال من انحراف وحيف فإن دعوة أبي عبد الله الجزيري لقيت قبولاً وأنصاراً كثيرين في المغرب الأقصى والأندلس على حدّ سواء مما جعل المنصور الموحدي يشعر بمدى الخطر إذا هو لم يتصد للجزيري ويقض عليه. وهكذا لم يهدأ له بال إلا بعد القبض عليه وصَلْبه. وهنّىء المنصور بانتصاره على هذا الثائر بالكثير من الرسائل والقصائد منها قصيدة يقول فيها الجراوي المتقدم ذكره:

قضى لك الله بالتأييد والظفر ... وبالسعادة في وِرد وفي صَدَرِ
آثرتَ في نصرة الدين المسير على ... طيب المقام وبعت النوم بالسهر
مظفّر، ما لمغرور يطالبه ... في الأرض من ملجأ عنه ومن وزر
جدّ «الجزيري» في إتلاف مهجته ... حتى تورّط في ورد بلا صَدَرِ
نارٌ من الفتنة العمياء أطفأها ... سعدُ الإمام وحدّ الصارم الذَّكَرِ
ما زال إبليس في الأقطار يوقدها ... وترتمي من شرار الخلق بالشّرَرِ
زاد الشقي على الخفاش مشبهه ... ضعف البصيرة إذ ساواه في البصَرِ
جارَى إلى سَقَرٍ أصحابه فهووا ... فيها سراعاً، ووافاهم على الأثر
إن الذي اتخذ الأهواء آلهة ... على الضلال مضر غير مزدجر
والوعظ في الناس مقبولٌ، ومطّرح ... كالخطّ في الماء أوكالنقش في الحجر[59]

وكانت نهاية الجزيري في مدينة مرسية حيث قبض عليه هناك «وسيق إلى إشبيلية فأخرج إلى موضع جلوس الموحدين وطيف به على جميع الحاضرين فأكذب نفسه فيما نسب إليه وفيما كان يدّعي ويحض عليه»[60] ثم

(59) البيان المغرب (3 :182 - 183).

(60) المصدر السابق.

طعن حتى قتل وصلب. وقطعت به أراجيف المفسدين، وعاد المنصور إلى مراكش فأصيب بمرض توجس منه خيفةً مما دعاه إلى التعجيل بعقد ولاية العهد لابنه محمد الناصر الذي كان عمره ـ إذ ذاك ـ عشر سنوات إلّا شهراً[61]. وجاء في تلك الأثناء عامله على إفريقية السيد أبو زيد ومعه هدية جليلة ووفد كبير من أعراب بني سليم ورياح[62] فاقتبلهم المنصور الموحدي، وتحدث معهم عن شؤون إفريقية. وجدّد أعيان رياح وسليم بيعتهم وولاءهم للمنصور. ثم عاد الوفد إلى إفريقية بعدما نالوا إنعام المنصور وهداياه[63].

وكان المنصور مشغول البال كثيراً بالوضع في إفريقية. وكان شديد الحرص على استقرار الأوضاع فيها، وعلى بقائها على الولاء لبني عبد المؤمن. إذ بالرغم مما قام به من أعمال كي يخضد شوكة الثائرين في إفريقية فإنه لم يكن على اطمئنان كامل لأحوالها خاصة أنه لم يقض نهائياً على بني غانية الذين فرّوا من قبضته. ولهذا فإنه ظل يخشى ظهورهم وانتقاضهم من حين لآخر رغم الهزائم التي نالتهم. وفعلاً فإن الأمور لم تستتبّ في إفريقية بعد معركتي الحامة وقفصة، وظل بنو غانية يترقبون الفرصة السانحة حتى يعيدوا الثورة والانتقاض على الموحدين.

وإذا كانت الظروف في الأندلس، وتفاقم الشقاق في عائلة بني عبد المؤمن تدعو إلى الانتقاض عليهم فإن أمراً له صلة بإفريقية زاد من تطاول بني غانية على الموحدين، وظهورهم إلى التحدّي من جديد.

ففي سنة 588 هـ (1192 م) ظهر ثائر جديد في بلاد الزاب بالجنوب الغربي لإفريقية، وهو الثائر الذي اشتهر بلقب «الأشل» وهو شخص غريب الأطوار حسب الذي جاء في البيان المغرب إذ يقول عنه: «.. إن هذا الأشل

---

(61) المعجب (307).
(62) البيان المغرب (3: 188).
(63) البيان المغرب (3: 188).

قام ببلاد الزاب، ودعا لنفسه، واجتمع له شرذمة من العرب، وبايعه كثير من أهل تلك الجهات، والتأم عليه أشتات من الناس من الجبال المجاورة له، ومن كل صنف من الغوغاء والسفلة والغرباء فاستفحل أمره، وشاع في البلاد ذكره. وكان يلقي لأصحابه بالغايات لزعمه من الحدثان وضروب غير معقولة من الهذيان بأنه موعود بأمره، وأن الأراجيز نصّت على خبره[64].

واهتمّ المنصور الموحدي بهذا الثائر الجديد فبعث إلى «واليه» على بجاية يستحثه على مجابهته والقضاء عليه مهما كانت التكاليف، وبكلّ الطرق والوسائل. واهتم هذا الوالي بتقصّي أخبار الثائر الجديد، وحاول استمالة الأعراب المناصرين له حتى يقبضوا عليه، أو يدلّوا على مكانه. ولكن بدون نتيجة. وظل الوالي (أبو زكريا) يخوض المسالك، ويتقصّى أخبار هذا الرجل الغريب الذي قيل له في وصفه: إنه يكون في مجلسه في لباس فاخر، يعتمّ عمامة خضراء، وعنده سيف محلّى موضوع بين يديه، وقد طاف به قوم من شيعته وهو يحدثهم بلسان حضري[65].

وتـابع أبو زكرياء مسيرته حتى وصل قلعة بني حماد متظاهراً للأعراب بأنه يئس من القبض على «الأشل»، وأنه - وإياهم - قد أدّوا ما عليهم من واجب في ذلك. وما عليهم إلاّ أن يعودوا أدراجهم فاستمال إليه بذلك زعماء الأعراب واطمأنّوا إليه. وكان - إذ ذاك - قد وصل إلى قلعة بني حماد، ثم دعا زعماء الأعراب إلى وليمة كبرى أقامها في القلعة. ولما اجتمعوا عنده وتكامل عددهم أمر بغلق أبواب القلعة، وأخذ يتفاوض معهم في شأن تسليم الثائر «الأشل». ثم احتجز الكثير من أبنائهم رهائن عنده مقابل تسليمهم للثائر المذكور وإلاّ فإنه سوف يقتل الأولاد ويقطع رؤوسهم ويبعث بها إلى المنصور الموحدي عوض رأس الثائر «الأشل». ولكن الأعراب قالوا له: مـا نسلّم

(64) البيان المغرب (3 :189 - 190).

(65) البيان المغرب (3 :190).

جارنا، ولا نغدر دخيلنا ولو أتى القتل على جميعنا[66].

وعادوا إلى منازلهم تاركين أولادهم رهائن، ومصرين على التمسك بموقفهم. ولكن أمهات الأولاد المحجوزين كان لهن موقف معاكس لموقف الآباء مما غير الوضع، فقد أصرَّت الأمهات على الاحتفاظ بأولادهن والحيلولة بينهم وبين القتل. وطالبن بتسليم «الأشل» إلى الوالي أبي زكرياء. ويقول صاحب البيان المغرب: إنَّ النساء طردن رجالهنَّ من البيوت ولم يقبلنهم.[66]. وكان لهذا الموقف أثره الحاسم، فاختلفت القبائل بين مستجيب لرغبة الأمهات وبين رافض لها. وعندما سمع «الأشل» بهذا الاختلاف حاول الفرار من مخبئه في القلعة. إلَّا أنَّ طائفة ممن كان أبناؤهم محتجزين هجموا على «الأشل» وقبضوا عليه وعلى وزيره وذهبوا بهما إلى أبي زكرياء. وما كان من هذا الأخير إلَّا أن ضرب عنق «الأشل» وعنق وزيره، وحمل معه رأس الأشل إلى بجاية وعلَّقه على بابها مع ذراعه وعضده.

وبذلك قضي على هذه الثورة التي استعمل فيها جانب الحيلة والغدر أكثر من أي شيء آخر. وظنَّ الموحدون أنَّ جذور الفتنة والانتقاض قد استؤصلت من إفريقية. إلَّا أنَّ المنصور الموحدي لم يبق طويلاً مرتاح البال بعد إعلامه بمقتل «الأشل» وإخماد ثورته؛ فقد وردت عليه الأخبار من إفريقية أنَّ بني غانية ظهروا من جديد على مسرح الثورة والانتقاض. ولم يكن ظهورهم هذه المرة بزعامة علي بن غانية فقد توفي هذا الأخير سنة584 هـ فانتقلت زعامة بني غانية إلى أخيه يحيى الذي أخذ يستعدُّ ويتهيأ حتى إذا جاءت سنة 590 هـ جاءت معها موجة أخرى من الصراع بين الموحدين وبني غانية.

---

(66) البيان المغرب (3: 191).

تحالف جديد
بين قراقوش وبني غانية

لم يكن انتصار الموحدين بزعامة المنصور على قراقوش الأرمني وعلي بن غانية في معركتي حامة قابس وقفصة بالضربة القاضية على أولائك المنتقضين؛ لأنَّ فلول هؤلاء المتمردين كانت معتصمة بالفيافي عندما عاد المنصور الموحدي إلى المغرب الأقصى.

وإذا مرَّ علينا أنَّ قراقوش الأرمني ـ أثناء حصار قفصة ـ بعث إلى المنصور الموحدي بالولاء والطاعة وطلب الأمان، فإنَّه ـ في واقع الأمر ـ لم يكن ذلك منه إلَّا مخاتلة وغدراً؛ فما إن انصرف المنصور من تونس حتى عاد قراقوش إلى الانتقاض على الموحدين، وحالف من جديد بني غانية الذين أصبحوا بزعامة يحيى بن غانية بعد وفاة أخيه علي أثناء مطاردة المنصور له. ولم يكن هذا التحالف الجديد بين قراقوش ويحيى بن غانية إلَّا تحالفاً وقتياً قصد به قراقوش ـ مرة أخرى ـ تهيئة الفرص لتحقيق مطامحه وأهدافه.

لقد أقام قراقوش مدة بتونس عند واليها الموحدي الشيخ أبي زيد بن أبي حفص، ثمَّ «انصرف فارًّاً منه فرجع إلى قابس. وخادع أهلها حتى دخلها فقتل جماعة منهم، وأظهر الرجوع عن الإنابة. واستدعى أشياخ العرب الدبابيين فقتل أعيانهم بقابس. ومن جملة من قتل منهم محمود بن طوق بن بقية وإليه تنسب المحاميد، وحميد بن جارية وهو أبو الجواري في سبعين من كبارهم، وذلك بداخل قصر العروسين، ويقول التجاني: إنَّ الموضع الذي

قتل فيه قراقوش أولائك الأعيان معروف إلى الزمن الذي ألَّف فيه رحلته أي بداية القرن الثامن للهجرة[67].

وبعد استيلاء قراقوش على قابس توجه إلى طرابلس واستولى عليها. وفي الوقت الذي كان فيه قراقوش الأرمني يحقق انتصاراته في الجنوب الشرقي لإفريقية كان يحيى بن غانية قانعاً بما استحوذ عليه من جنوبها الغربي في مناطق الصحراء والجريد. إلاَّ أنَّه بدأ يشعر بخطر قراقوش إذا هو تركه يواصل انتصاراته ويعمل على توسيع مناطق نفوذه. ولهذا قرر يحيى بن غانية أن يوقف توسعات قراقوش عند حدِّها، فقرر أن يتوجه إلى طرابلس من محل إقامته ببلاد الجريد. وما إن سمع قراقوش بعزمه على ذلك حتى خرج إلى ملاقاة يحيى بن غانية بعد أن ترك بطرابلس ياقوت الافتخار نائباً عنه. والتقى الخصمان بالقرب من طرابلس في مكان يعرف باسم «محسن». ولم يثبت قراقوش أمام زحف ابن غانية فولَّى هارباً متوغلاً في جبال نفوسة. وحاول ابن غانية مطاردته عدَّة أيام حتى إذا أعياه إدراكُه عدل عن مطاردته ورجع إلى طرابلس ليحاصرها. وصمد ياقوت الافتخار أمام حصار يحيى بن غانية حتى اضطر هذا الأخير إلى مراسلة أخيه عبدالله بجزيرة ميورقة طالباً منه المدد والمعونة، فبعث إليه أخوه عبدالله بقطعتين من أسطوله ضيَّق بهما الحصار على طرابلس برّاً وبحراً تضييقاً شديداً انتهى باستسلام ياقوت الافتخار. وأعطى ابن غانية أمانه لأهالي طرابلس: أمَّا ياقوت الافتخار فبعث به مقيداً إلى أخيه عبدالله بميورقة صحبة السفينتين التين جاءتا لنجدته. وقد ظلَّ ياقوت الافتخار رهن الاعتقال في ميورقة إلى أن جاء الموحدون واستولوا على الجزيرة وقتلوا عبدالله بن غانية[68] وكان ذلك سنة 599 هـ (1203 م).

وبعد استسلام طرابلس ليحيى بن غانية بقي بها هذا الأخير مدَّة. ثمَّ غادرها تاركاً والياً عليها ابن عمه تاشفين بن غازي بن غانية. إلاَّ أنَّ أهالي

---

(67) رحلة التجاني (104).

(68) رحلة التجاني (244) ـ وانظر البيان المغرب (3: 215 - 216).

طرابلس لم يلبثوا أن أعلنوا العصيان في وجهه وأخرجوه منها، وأعلنوا ولاءهم من جديد للموحدين[69].

وإذا استطاع يحيى بن غانية أن يتغلب على الغز الأتراك ويخرجهم من طرابلس وقابس وأن يصبح أغلب إفريقية تحت سيطرته فإنَّ ذلك لم يحل بينه وبين اندلاع ثورة أخرى لم تجابهه هو فقط بل جابهت الموحدين كذلك. وهي ثورة محمد بن عبد الكريم الرجراجي الذي سوف يكون من ألدّ خصوم يحيى بن غانية.

(69) رحلة التجاني (245).

ثورة الرجراجي[70]

كان محمد بن عبد الكريم الرجراجي في أوَّل أمره من قادة الجيش الموحدي منحدراً من عائلة مهدوية كومية. وقد أبلى هذا القائد البلاء الحسن في صفوف جيش الموحدين خصوصاً ضدَّ الثوار من قبائل الأعراب مما نال به إعجاب السلط الموحدية، فرفعوا منزلته حتى كثر أنصاره وأتباعه. وأوسعت له السلط الموحدية في النفوذ واتخاذ ما يرتئيه من إجراءات ضد المشاغبين والعصاة، فارضاً عليهم ما يعنّ له من غرامات وضرائب.

واستمر الرجراجي على سيرته تلك إلى أن تولى إفريقية أبو سعيد بن أبي حفص فعيَّن أخاه يونس على المهدية. وكان موقف حاكم المهدية الجديد على عكس حكَّامها السابقين الذين كانوا يتركون محمد بن عبد الكريم الرجراجي مطلق التصرف مع الأعراب والمشاغبين. بل طالبه الأمير الجديد على المهدية بتشريكه في الغنائم والمغانم التي ينالها الرجراجي. وعندما امتنع من تلبية رغبته اعتقله وسجنه. ورغم استنجاده بأبي سعيد بن أبي حفص والي إفريقية فإنَّه ظلَّ مسجوناً. وما إن أمن الأعراب بالساحل سطوة الرجراجي وبطشه حتى شقوا عصا الطاعة وثاروا وأحدثوا الشغب والاضطراب

---

(70) انظر عنه الرحلة (350 - 351) ـ الكامل لابن الأثير (12 :146 - 147) ـ العبر لابن خلدون (6 :400 - 401) وفيه «الركراكي». ويبدو أنَّه نسبة إلى قبيلة «ركراكة» من قبائل المصامدة. والإطلاقان واردان. ينظر مقدمة ابن خلدون (1 :260) في كتابته للحرف البربري المتوسط بين الكاف والجيم أو القاف العربية. وأنَّه يرسمها «كافاً» فوقها نقطة.

مما دفع بأهالي قرى الساحل ومدنه إلى الضجر بالشكوى والمطالبة بإطلاق سراح الرجراجي حتى يقمع العيث والفساد.

وأمام تواصل الشغب من الأعراب، وإلحاح أهل المدن والقرى بإطلاق سراح الرجراجي اضطر حاكم المهدية (أبو علي يونس بن أبي حفص) إلى إطلاق سراح الرجراجي وإعادته إلى منصبه. وكان الرجراجي ـ كما يقول التجاني ـ «العرب تهابه، ولا تنتجع أرضاً من أرضه إلاَّ بإذنه، فبعد صيته بذلك، وسما ذكره، وحصل الأمن به في تلك الجهات فكان يدعى له في المساجد وعقب الصلوات»[71].

ولم يحتمل الرجراجي هذه الإهانة التي لحقته، ولهذا عندما أطلق سراحه وأمره حاكم المهدية بالخروج لكف الأعراب عن الشغب والفساد انتهز هو الفرصة وأسرع بالخروج عن المهدية وأقام بضواحيها يومين حتى ينضم إليه أنصاره وأصحابه، فشكا إليهم ما لقيه في سجنه من إهانة على يد أبي علي يونس بن أبي حفص صاحب المهدية. ثمَّ كاشفهم بخطة دبَّرها من أنَّه يريد الغدر بابن أبي حفص إذا هم وافقوه على ذلك. ولم يكن من أولائك الأنصار إلاَّ أن شجَّعوه على الغدر والعصيان. وفي الثلث الأخير من الليل اقتحم عبد الكريم الرجراجي مدينة المهدية مع جماعة مختارة من جنوده وأنصاره. ثمَّ أغلق أبوابها واتجه صوب قصر الشيخ ابن أبي حفص، وحاول بوَّاب القصر منعه من الدخول فلما نزع اللثام عن وجهه وعرفه الحارس فتح له الباب وفرَّ هارباً. واقتحم الرجراجي القصر بينما كان ابن أبي حفص يغطّ في نومه. وعندما أيقظه الهرج خرج في ثياب نومه لا يحمل أي سلاح، يستطلع ما يجري داخل القصر. وفي ساحة القصر باغته الرجراجي بالقبض عليه. وأراد قتله في نفس المكان لولا أن تشفع فيه بعض الحاضرين، فاكتفى بتقييده وسجنه داخل القصر. وبذلك أصبح محمد بن عبد الكريم

(71) الرحلة (350).

الرجراجي صاحب التصرف المطلق في المهدية. ولم يكتف بذلك التصرف المطلق فدعا لنفسه فيها، وتلقب بلقب «المتوكل على الله»[72]. وكان استبداد ابن عبد الكريم الرجراجي بالمهدية في شعبان من سنة 595هـ (1199م). وهو استبداد سوف يجعله يواجه قوتين في وقت واحد: قوّة الموحدين بالشمال من إفريقية، وقوّة بني غانية في الوسط والجنوب منها.

(72) التجاني (352) ـ ابن خلدون (6 : 400).

الرجراجي
يهاجم الموحدين في تونس

كان من الطبيعي أن تحاول الولاية الموحدية القيام برد الفعل أمام ثورة ابن عبد الكريم الرجراجي في المهدية. ولكن هذه المحاولة تمثلت فقط في عملية «الفدية» التي قام بها والي تونس لإنقاذ أخيه من الأسر فقد فداه بخمسمائة دينار أرسلها من تونس إلى الرجـراجي بالمهـدية على يـدي محمد بن عبد السلام الكومي الذي كان صهراً لعبد الكريم الرجراجي. واكتفى أبو سعيد بن أبي حفص (الوالي الموحدي) بلوم أخيه يونس وتوبيخه وزجره والغضب عليه[73]. وكان من الطبيعي كذلك أن يحصل ردّ فعل من السلطنة الموحدية في مراكش ضدَّ واليها على إفريقية تمثل في عزل أبي سعيد بن أبي حفص وتعويضه بوال جديد هو السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن.

أمَّا ابن عبد الكريم الرجراجي فلم يكتف باستيلائه على المهدية بل عزم على التوجه إلى تونس وافتكاكها من سلطة الموحدين، ونزلت جيوشه بحلق الوادي.

وكان ـ إذ ذاك ـ الوالي الموحدي الجديد قد وصل إلى تونس فتصدت قوَّاته للدفاع وصدَّ هجوم ابن عبد الكريم الرجراجي بمحاولة حصار القوات المهاجمة برّاً وبحراً. وجرت عدَّة معارك عنيفة تكبد فيها الموحدون خسائر

(73) الرحلة (352).

فادحة. ويصف أبو محمد التجاني شيئاً من تلك المعارك بقوله:

«.. وكان ابن عبد الكريم قد أكمن كميناً للجيش في بعض المواقع. فلما وصل عسكر تونس ووقع القتال بينه وبين ابن عبد الكريم خرج ذلك الكمين فولى العسكر منهزماً، وقتلت منه مقتلة عظيمة، ولم ينج منه إلاَّ القليل. وترامى منه جماعة في البحر فقتلوا هنالك. وانبسطت جموع ابن عبد الكريم في تلك الجهات فأخذوا من المرسى المعروفة بمرسى البرج أموالاً كانت للناس هنالك وأمتعة، وانتهبوا من تلك القرى ما قدروا عليه»(74).

وارتاع الموحدون في العاصمة لما حصل لجنودهم من انكسار أمام ابن عبد الكريم الرجراجي. وخافوا إذا هو استمرَّ على زحفه أن يستولي على المدينة ويكسر شوكة الموحدين فيها فبعثوا إليه أعيان المدينة ومشائخ الموحدين يرجون منه الكفَّ عن أعماله وقتاله، خاصة أنَّه لم يتنكر للموحدين، ولم يخرج عن مبادئهم. وأن انتفاضته إنما كانت ردّ فعل لسوء التصرف نحوه من قبل أمير المهدية السابق. واستجاب ابن عبد الكريم الرجراجي لتلك الشفاعة، وأطلق ما عنده من مساجين. وكف عن مواصلة القتال وقرر العودة إلى المهدية.

(74) التجاني (352 - 353).

الرجراجي يتراجع
عن تونس ليواجه ابن غانية

لم يكن ما أبداه ابن عبد الكريم الرجراجي من كفّه عن مواصلة القتال للاستيلاء على تونس لمجرد أنَّه لم يخرج عن الطاعة العامة للموحدين، أو لمجرد استجابته لشفاعة أعيان وعلماء مدينة تونس، وإنما كان ذلك نتيجة ضغط خارجي أجبره على ذلك. وهو استفحال أمر يحيى بن غانية، وتطور العلاقات بينه وبين الرجراجي. وفي بداية أمر ابن عبد الكريم الرجراجي كان بينه وبين يحيى بن غانية شبه تساند وتحالف. ثمَّ حصل بينهما خلاف لم تظهره المصادر المتوفرة لدينا، لكنه لا يبعد ـ فيما نحسب ـ أن يكون ناتجاً عن شعور كلّ منهما بمنافسة الآخر، وتوقع الخطر منه. ومهما كانت العداوة التي يكنها ابن عبد الكريم الرجراجي للمسؤولين الموحدين في إفريقية فإنَّهم لا يشكلون خطراً ضدَّه مثلما يشكله خطر العدو التقليدي للموحدين، أعني بني غانية.

ومهما يكن من أمر فإنَّ ابن عبد الكريم الرجراجي ـ بعد أن رفع حصاره عن تونس ورجع إلى المهدية وأقام بها شهراً ـ عزم على مواجهة يحيى بن غانية في الجنوب. ويبدو أنَّه ارتكب خطأ كبيراً في تلك المبادرة فقد جابهها وحده بدون مساندة إيجابية وعملية من ولاة الموحدين بإفريقية ومن أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن بالذات.

ولعلَّ اغتراره بانتصاره على جنود الموحدين في كل من المهدية وتونس هو الذي شجعه على مواجهة ابن غانية بمفرده في الجنوب. وهكذا اتجه

الرجراجي نحو قابس حيث يوجد فيها يحيى بن غانية. إلاَّ أنَّ الرجراجي ما إن أشرف على قابس حتى هاله أمرها لما هي عليه من مناعة دفاع ووفرة جيش مما جعله لا يقدم على محاصرتها، مفضلاً التوجه إلى قفصة التي ربما تكون أقل دفاعاً من ناحية، ولبعدها عن ابن غانية من ناحية أخرى. وفعلاً صحت تقديرات الرجراجي ولم يجد صعوبة في الاستيلاء على قفصة. إلاَّ أنَّ يحيى بن غانية لم يمهله طويلاً منتشياً بذلك الانتصار. فعجل بالتوجه إلى قفصة حيث التقى بخصمه بقصور لاله قرب المدينة المذكورة. وانجلى ذلك اللقاء بهزيمة منكرة للرجراجي فولَّى هارباً لا يلوي على شيء حتى وصل المهدية. واستولى ابن غانية على جميع أخبيته وأمواله التي خلَّفها في ساحة القتال[75].

(75) الرحلة (353).

نهاية ابن عبد الكريم الرجراجي

كانت معركة قصور لاله فرصة انتهزها يحيى بن غانية جسَّ بها نبض هذا الثائر الموحدي، ولهذا قرر أن يلاحقه حتى المهدية. وفي أوائل سنة 597 هـ (1280 م) وصل يحيى بن غانية إلى المهدية وناصبها الحصار الذي تجلَّى فيه دهاؤه السياسي وبراعة تدبيره الحربي. ذلك أنَّ يحيى بن غانية يعلم أنَّ المهدية لا يمكن التغلب عليها إذا حوصرت من ناحية البر فقط. وبما أنَّه لا يملك أسطولاً يحقق به محاصرتها بحراً فقد قرر استعمال الحيلة، وأن يحارب الرجراجي بسلاح الموحدين أنفسهم. ولتحقيق ذلك بعث إلى والي إفريقية الموحدي (أبي زيد بن أبي حفص) كتاباً يسأله فيه المصالحة، ويطلب منه المساعدة على إحكام محاصرة الرجراجي في المهدية. ولم ينس أبو زيد ما فعله معهم الرجراجي أثناء هجومه على تونس، وطغى به الحقد عليه حتى انطلت عليه حيلة ابن غانية فبعث إليه بسفينتين انتصبتا في عرض البحر أمام المهدية لتشديد الحصار عليها بحراً مسانداً للحصار البري الذي يقوم به ابن غانية. وصحت تقديرات ابن غانية، فإنَّ ابن عبد الكريم الرجراجي ما إن رأى الحصار البحري حتى أسقط في يده. وتأكد أنَّه لا يستطيع مواصلة الدفاع خاصة أنَّ السفن كانت موحدية، وأنَّ لا أمل له في وصول أية نجدة إليه. ولهذا عزم على الاستسلام وفتح أبواب المهدية أمام يحيى بن غانية. وبعث بابنه عبدالله ليفاوض ابن غانية في شأن المصالحة، وتسليم المدينة مقابل بذل الأمان له في أهله ونفسه وماله.

وتظاهر ابن غانية بالاستجابة لطلب الصلح، وتنفيذ شروط الأمان. إلاَّ أنَّه ما كاد يعود عبدالله الرجراجي مع والده محمد بن عبد الكريم حتى أمر ابن غانية بالقبض عليهما، وتقييدهما، ووضعهما في خيمتين منفصلتين. ثمَّ دخل المهدية واستولى على جميع ما كان عند الرجراجي من أموال وذخائر. وبعد أيام أخرج محمد بن عبد الكريم الرجراجي من سجنه ميِّتاً ـ يقول التجاني ـ لا أثر به. يعني أنه لم يضرب ولم يعذب. ولكن من ينفي أنَّه لم يكن مسموماً. ثمَّ سلِّمت جثته إلى أهله فدفنوه بقصر قراضة. وظلَّ ابنه عبدالله يتوقع الموت من حين لآخر إلى أن أخرجه ابن غانية من سجنه. وأظهر له أنَّه سيبعث به إلى جزيرة ميورقة ليبقى فيها تحت أنظار أخيه عبدالله بن غانية مثلما فعل من قبل مع ياقوت الافتخار الأرمني بعدما انتصر عليه في طرابلس. ثمَّ هيأ له سفينة لتقلع به من المهدية إلى جزيرة ميورقة، ولم يكن كل ذلك إلاَّ مظهراً خادعاً. فما إن وصلت السفينة أمام مرسى القل بالسواحل الجزائرية حتى رمى أصحاب السفينة بعبدالله الرجراجي مقيّداً في أعماق البحر. وانتهى أمره على تلك الصورة الغادرة. وأسدل الستار بذلك على ثورة محمد بن عبد الكريم الرجراجي وابنه عبد الله[76].

(76) رحلة التجاني (354).

انتصارات أخرى لابن غانية

كان استيلاء يحيى بن غانية على المهدية يمثل سيطرة هذا الأخير على القسم الأعظم من إفريقية. ولم يبق خارج نفوذه منها إلّا قسمها الشمالي بما فيه مدينة تونس مركز الوالي الموحدي. واكتفى هذا الوالي (أبو زيد) بما بقي عنده دون أن يكون له من القوّة والسطوة ما يكسب بهما الهيبة والحرمة للدولة التي يمثلها. وكان هذا الضعف مشجعاً للثائر يحيى بن غانية على مواصلة التطاول على الموحدين وانتزاع ما بقي في أيديهم بالمغربين الأوسط والأدنى.

ولم يشأ يحيى بن غانية ـ في البداية ـ أن يواجه مدينة تونس، وإنّما فضّل أن يتجه إلى باجة المشهورة بالخصب فناصبها الحصار حتى استولى عليها عنوة وقتل عاملها الموحدي (عمر بن غالب) ولم يسلم من القتل والنهب إلّا من فرّ من حاميتها إلى نواحي الكاف والأربس[77]. وحاول الوالي أبو زيد إنقاذ باجة من احتلال ابن غانية لها فأرسل أخاه أبا الحسن لمنازلته، فزاد ذلك من الفتك بباجة ونواحيها إذ أصبحت ميداناً للكرّ والفرّ بين المتقاتلين دون أن يتمكن الموحدون من استردادها، فقد تتابعت انهزامات الموحدين أمام صمود ابن غانية وتفاني أتباعه في القتال. وبعد انتصارات ابن

---

(77) العبر لابن خلدون (6 :401) ويطلق على الكاف إذ ذاك اسم «شقبنارية» كسائر كتب المسالك القديمة.

غانية في باجة أخذ يطارد الموحدين في قسنطينة. وتكبد أبو الحسن الموحدي فادح الخسائر دفاعاً عن قسنطينة. ثمَّ فرَّ منهزماً إلى بجاية في أسوإ حال. وبعد قسنطينة تحوّل ابن غانية إلى بسكرة فاستولى عليها، وقطع أيدي أهلها، وقبض على عاملها علي بن أبي يعلى[78].

كانت انتصارات ابن غانية على الموحدين طبقت الآفاق حتى هابه الناس. وبعثت إليه مدينة بونه (عنابة) بالطاعة والولاء اتقاءً لشره وحقناً لدماء سكّانها. واكتفى يحيى بن غانية بما ضمَّه إلى نفوذه من سلطنة الموحدين في تلك المناطق النائية فعاد أدراجه إلى المهدية ليستقر بها مدَّة قبل أن يستجمع أموره للهجوم على مدينة تونس.

(78) المصدر السابق.

يحيى بن غانية
يستولي على تونس

لـم يكن بقاء مدينة تونس وحدها خارج نفوذ ابن غانية هو المشجع الوحيد لابن غانية كي يقوم بهجومه على تونس مركز الوالي الموحدي في إفريقية، بل كان للأحداث التي جدَّت في السلطنة الموحدية ما ساعده على ذلك، ومما جعله لا يتوقع وصول الإمدادات من مراكش إذا هو أحكم حصاره لتونس.

وقد تمثلت تلك الأحداث التي جدَّت في السلطنة الموحدية فيما يلي:

أ ـ ففي السوس الأقصى بالمغرب ظهرت ـ في تلك الأثناء ـ ثورة عارمة بقيادة عبد الرحيم الجزولي المشهور بلقب «المهر» وبكنية «أبو قصبة». وكان هذا الثائر الجديد من أصل أندلسي محسوب من العلماء، حضر يوماً جدلاً في مجلس يعقوب المنصور، وبدرت منه أقوال جدلية خشي عاقبتها فاختفى حيناً[79]. ثمَّ ظهر مدَّعياً الإمامة، منتسباً إلى قبيلة قحطان زاعماً أنَّه هو المقصود في الأثر الموضوع الذي يقول بأنَّه لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وانطلت حيلته على العامة والسذج من الناس فكثر أتباعه ومؤيدوه حتى أصبح خطراً على السلطنة الموحدية مما دعاها إلى تجريد حملات عسكرية ضدَّه انتهت بانهزامه واحتجاز رأسه سنة 598 هـ أي في نفس الفترة التي قام فيها يحيى بن غانية

(79) انظر. ع. عنان (3 :256).

بحملاته على الموحدين وانتصاراته عليهم في معارك باجة وقسنطينة وبسكرة وغيرها.

ب ـ أما الأمر الثاني الذي ساعد يحيى بن غانية على انتصاراته في إفريقية فهو ما ارتآه الموحدون من ضرورة الاستيلاء على جزر الباليار شرقي الأندلس وهي جزر يابسة، وميورقة، ومينورقة. وكانت جزيرة ميورقة ـ على الأخص ـ تمثل قاعدة التمرد ونقطة انطلاق ثوار بني غانية ضدَّ الموحدين. وكانت الجزيرة ـ إذ ذاك ـ تحت عبدالله بن إسحاق بن غانية. وقد أقدم الموحدون على غزو تلك الجزر بعد أن تبين لهم أنَّه لا سبيلَ للقضاء على بني غانية في إفريقية إلَّا بعد القضاء عليهم في جزر الباليار الشرقية حتى لا يأتيهم المدد منها كما حصل أثناء حصار طرابلس، وحتى يدخل الضعف والوهن على يحيى بن غانية، ويسدُّ عليه طريق الهروب إليها والتحصن بها إذا تمكنوا من هزيمته في إفريقية.

لذلك استعدَّ الموحدون استعداداً عظيماً لضرب بني غانية خاصة في جزيرة ميورقة. ومن أجل ذلك جهزوا أسطولاً كبيراً بقيادة إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن لاحتلال تلك الجزر. وقد أمكن لهذا الأسطول ـ بعد معارك ضارية وخسائر فادحة ـ أن ينتصر على عبدالله بن غانية بعد معركة استمرت سبعة أيام متتالية انتهت بمقتل عبدالله بن غانية وتخليص الجزائر الشرقية نهائياً من سيطرة الملثمين المتمردين.

وسجل الشعراء ذلك الانتصار في قصائد عديدة خوطب بها سلطان الموحدين (الناصر). من ذلك ما قاله أبو العباس الجراوي من قصيدة طويلة:

لك النصر حزب والمقاديرُ أعوانُ ... فحسب أعاديك انقياد وإذعانُ
فبعداً وسحقاً لابن إسحاق إنَّه ... مطيعٌ لأحلام الكرى وهو يقظانُ
سواءٌ لديه ـ من غباوة طبعه ـ ... هلاكٌ ومنجاة وربح وخسرانُ
وهل هو إلَّا من أناسٍ تهافتوا ... فراشاً على أسنانكم وهي نيرانُ
عصوا دعوةَ المهديِّ. وهي سفينة ... فأغرقهم طغيانهم، وهو طوفانُ

لقــد ألبس الله الخـلافــةَ بهجـةً بملك بـه يزهى الـوجـود ويـزدان
سعودك من يرتـاب فيها؟ وللورى عليهـا دليل كـل يوم وبـرهـان[80]

كانت ـ إذن ـ تلك أهمّ الأحداث ـ خارج إفريقية ـ التي هيأت الفرصةَ ليحيى بن غانية حتى يقومَ بهجومه على مدينة تونس آخر معقل للموحدين بإفريقة. ففي سنة 594 هـ (1203 م) توجه يحيى بن غانية من المهدية إلى تونس في جيش كبير، فنزل هو بالجبل الأحمر من ظاهر تونس، ونزل أخوه غازي بن إسحاق بحلق الوادي «. . حيث يتصل البحر بالبحيرة شرقاً فردم البحر الموصل بينهما وجعله أرضاً يابسة، وقطع بذلك سير السفن الداخلة لتونس أو الخارجة منها. ثمَّ تحوَّل إلى قبليّ المدينة على مقربة من باب الجزيرة، وردم الخندق المواجه له»[81] وبذلك أحكم الحصار على تونس وشرع في ضربها بآلات الحرب والمنجنيق. واكتفى الموحدون المحصورون بالدفاع داخل الأسوار. ولم يجابهوا قوات العدو وجهاً لوجه. واستمر هذا الحصار أربعة أشهر دون أن يأتي أي مدد للمحصورين مما اضطرهم إلى الاستسلام وفتح أبواب المدينة في السابع من ربيع الثـاني سنة 600 هـ (ديسمبر 1203 م). ودخل بنو غانية مدينـة تونس، وقبضـوا على الوالي الموحدي وولديه وجماعة من مشيخة الموحدين. وبالرغم من الأمان الممنوح لبقية السكان فإنَّ بني غانية فرضوا عليهم ضريبة شاقة كانت أشد عليهم من الحرب وأهوالها؛ فقد فرضت عليهم ضريبة قدِّرت بمائة ألف دينار يقال: إنها تبلغ جملة ما أنفقه ابن غانية على حملته لاحتلال تونس. واشتط بنو غانية في استخلاص تلك الضريبة، وتفننوا في تعذيب الناس من أجلها حتى مات الكثير بسبب ذلك. وكان البعض منهم يفضل الانتحار حتى لا يتعرض للتعذيب من أجل ضريبة لا طاقة له بها. وقد ذكر ابن خلدون أنَّ أحد أعيان مدينة تونس (إسماعيل بن عبدِ الرفيع) رمى بنفسه في بئر هروباً من ذلك

---

(80) البيان المغرب (3: 216).
(81) ع. عنان (3 :262).

التعذيب[82]. وهل أبلغ من ذلك دليلاً على قساوة التصرف مع الرعية الذي يجعل الإنسان يفضل الموت على الحياة مصداقاً لقول أبي الطيب المتنبي:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا   وحسب المنــايـا أن يكنّ أمــانيـا

وكان ابن غانية عهد باستيفاء الضريبة إلى كاتبه ابن عصفور وإلى أبي بكر بن عبد العزيز بن السكاك. ولما اشتطوا في الطلب ووصلت الحالة إلى ما انتهى إليه إسماعيل بن عبد الرفيع من أجل استيفاء الضريبة «رفع الطلب ببقيتها عنهم»[83].

---

(82) العبر (6 : 402).

(83) المصدر السابق.

تراجع بني غانية
نتيجة سوء التصرف

هنالك حكمة سياسية تقول: «العبرة بامتلاك القلوب لا بامتلاك الحجارة والطوب» ولعلّ من الأمثلة التي يمكن أن تتناقض مع تلك الحكمة السياسية ما نحن بصدد الحديث فيه بخصوص ثورة يحيى بن غانية ضد السلطة الموحدية في إفريقية. ذلك أن الانتصارات الكثيرة التي سجلها يحيى بن غانية ضد الموحدين لم تكن مصحوبة ببعث الاطمئنان في نفوس الرعايا أو المواطنين الذين شملهم نفوذه. ولهذا كان من الطبيعي أن يجابه بالثورة والانتفاضات في كثير من الجهات في منطقة نفوذه؛ لأن المواطن يتقبل النظام ـ وخاصة إذا كان جديداً ـ بقدر ما يقدمه له ذلك النظام من توفير الاطمئنان وأسباب العيش والبعد عن أسباب التسلط والسيطرة القهرية. وحتى على فرض وجود ما يدلّ على استقرار ـ في مثل تلك الحالة ـ فإنما هو في حقيقته تقية تتخذ، أو تظاهر بالطاعة التي فرضتها قوة السلاح وبطش السلطان. وهذا ما يجعل المواطن إما منتهزاً لفرصة انتقاض، أو منتظراً لمنقذ من الخارج. وقد توفّر هذان الأمران معاً بالنسبة للوضعية التي كانت عليها إفريقية تحت سيطرة يحيى بن غانية؛ فقد اندلعت ثورة بجبال نفوسة من عمل طرابلس ضد يحيى بن غانية ولم يخمد نيرانها إلا بعد مشاق كبيرة، وإنفاق الأموال الطائلة، وإزهاق الأرواح البريئة كما ثارت عليه «طرة» بإقليم نفزاوة فتوجه إليها وقاتل أهلها. ويتحدث أبو محمد التجاني ـ نقلاً عن ابن نخيل ـ بخصوص موقف ابن غانية من ثورة «طرة» بقوله: ثم أطلق الجند عليها فقتلوا

الرجال، وانتهبوا الأموال، وانتزعوا الأبكار، وأخربوا المنازل والديار، ووجد الميورقي بها رجلين من أبناء الموحدين كانا قاطنين بها منذ زمان فضرب رقابهما صبراً، وترك طرّة خاوية على عروشها، وخرج من سلم من أهلها فتفرقوا في بلاد نفزاوة»[84] وأضرم النار في دورها ومنازلها. وفعل يحيى بن غانية مثل ذلك مع أهالي الحامة وقابس فنالهم من التنكيل والعسف ما نال أهالي طرة.

أما انتظار المنقذ الخارجي فقد تمثل في اعتزام الناصر الموحدي في التوجه إلى إفريقية وتخليصها من يحيى بن غانية بعد أن بلغه ما استولى عليه من أملاك الموحدين وما فعله بالأهالي في تلك المناطق. وجهز السلطان الموحدي ـ في سبيل ذلك ـ جيشاً برياً كبيراً يسانده أسطول بحري في اتجاه بجاية وتونس. وبدأت الأخبار تتوارد على ابن غانية بقدوم الجيش الموحدي واستيلائه على بجاية فأخلى مدينة تونس من القوات وحمل ما عنده من الأموال والذخائر وبعث بها إلى ابن عمّه بالمهدية (علي بن غازي) حتى تكون في مأمن. ذلك أن ابن غانية كان على يقين أنه لا يستطيع مجابهة السلطان الموحدي وجيوشه الجرارة خاصة أنه يفقد السند الشعبي لكثرة ما أنال الناس من ظلم وإرهاق فأصبحوا كارهين له، متطلعين إلى من ينقذهم منه، ويدفع عنهم شرّه. ولهذا أراد يحيى بن غانية أن يسلك مسلك سلفه علي بن غانية أمام المنصور سلطان الموحدين السابق. وهكذا ابتعد يحيى بن غانية عن المجابهة قدر الإمكان، واتجه إلى الجنوب الغربي من البلاد حتى إذا ضاقت به الحيل التجأ إلى الصحراء وتحصّن بالفيافي مثلما فعل من قبل علي بن غانية وقراقوش الأرمني. ولكلّ ذلك بادر بالتوجه إلى القيروان فأقام بها أياماً؛ ثم انتقل إلى قفصة واجتمع بأعيانها ورؤساء قبائلها. وسلك معهم مسلك المزايدة فبذل لهم الأموال والعطايا، وأخذ منهم العهود والمواثيق والرهائن على أن يكونوا في صفه وبجانبه عند لقائه بسلطان الموحدين.

---

(84) رحلة التجاني (147).

أما الموحدون ـ فبعد وصولهم لبجاية والاستيلاء عليها وعلمهم بإخلاء مدينة تونس من قوات ابن غانية ـ بعثوا بجيش لهم من بجاية فاستولى على تونس وقتل من بقي فيها من أتباع يحيى بن غانية، وأعطى الأمان لبقية سكانها. وعندما علم الناصر الموحدي أن ابن غانية تحول إلى الجنوب عزم على مطاردته في تلك المناطق النائية، فخرج من تونس واستولى على قفصة بعد أن فرَّ عنها يحيى بن غانية كما استولى على مدينة قابس.

معركة تاجرا

كانت خطة يحيى بن غانية أن يجعل مركز مقاومته مدينة المهدية بقيادة ابن عمه علي بن الغازي، وأن يتركز هو في جبل «دمّر» بالجنوب. وكانت خطة السلطان الموحدي أن يجابه قوات يحيى بن غانية في كل من المهدية وجبل «دمّر» في نفس الوقت. وعندما حلّ بقابس وعرف أن ابن غانية انتقل إلى جبل «دمر» اتجه هو إلى المهدية وبعث بالشيخ عبد الواحد بن أبي حفص إلى حيث يعتصم يحيى بن غانية.

وكان عزم ابن غانية ألاّ يتصدى مباشرةً لابن أبي حفص مفضلاً تجنّبه وفراره إلى الصحراء ولكن تحريض أصحابه على ضرورة التصدي والمجابهة جعله يلتقي معه سنة 602 هـ في منطقة تاجرا بين قابس ومدنين. وكانت فيها الهزيمة على ابن غانية إذ قتل الكثير من جنوده وقواده كان من ضمنهم أخوه جبارة بن غانية وكاتبه علي بن اللمطي، وأحد عمّاله يقال له: الفتح بن محمد. وفرّ يحيى بن غانية في شرذمة قليلة ملتحقاً بأهله الذين تركهم على بعد عدة أميال من ميدان المعركة[85] واستولى الموحدون على جميع ما في عسكر ابن غانية من الأموال والسلاح والماشية. وكان من نتائج هذه المعركة أيضاً تخليص السيد أبي زيد عامل الموحدين على تونس من الأسر مع جماعة أخرى من الموحدين كان ابن غانية يصحبهم معه حيثما سار. ويذكـر

(85) المصدر السابق (357).

التجاني أن يحيى بن غانية كان يعتزم قتل السيد أبي زيد عندما أيقن بالهزيمة، وشرع فعلاً في عملية قتله. ولكن سير المعركة وسرعة الانهزام أنقذا أبا زيد من الإجهاز عليه نهائياً. وهكذا أنقذ أبو زيد من قتل محقق. وقبض على من كلّف بقتله، وحمل إلى المهدية فطيف به على جمل حاملاً «الراية السوداء» التي كانت راية بني غانية تشهيراً به وتدليلاً على انتصار الموحدين على بني غانية، وإنذاراً وترهيباً لأهالي المهدية المحصورين الذين كانوا مصرّين على المقاومة ومكذبين لأخبار انتصار الموحدين على يحيى بن غانية[86].

وكان لانتصار عبد الواحد بن أبي حفص على يحيى بن غانية في معركة تاجرا صدى كبير في الجيوش الموحدية وعند السلطان الموحدي بالذات. وسجل الشعراء هذا الانتصار معرضين بخصومهم في بلاد المشرق سواء في مصر الأيوبية التي جاء منها قراقوش الأرمني وساند بني غانية، أو في بغداد التي كانت خلافتها تساند الحركة الانفصالية في إفريقية الموحدية التي تعلن انتسابها إليها والدعوة باسمها، من ذلك هذه المقطعات من قصيدة قالها أبو عمرو وزير بن أبي خالد اللخمي:

* * *

فكيف بمصر والعراق وعندها ... حديث من استيلائكم غير مظنون
وما هو إلا أن تعيّن موقف ... يقدّم ما أخّرتموه إلى حين
وتطوى بأيديكم بلاد عريضة ... غدت نُشُراً ما بين غاوٍ ومفتون

* * *

وأنسيتم بالعدل وحشةَ تونس ... وأمّنتمو من خوفها أيَّ تأمين
وألبتسمو أرضَ الجريد ملابسا ... بها جرّدت ثوب المذلة والهون

* * *

(86) الرحلة (357 - 358) البيان المغرب (3 :221 - 222).

ويا طيب ما أهـدته مهـدية المنى | لكم من سلام دونه مسـك دارين
ووالَيتم الأيـامَ فـانقـاد صعبهـا | على شدة من حكمكم أو على لين
فـدام لـه فخـر بحسن صفـاتـه | على كل منصور سواكم ومأمون[87]

(87) البيان المغرب (3 :222).

استسلام المهدية

كان لانتصار عبد الواحد بن أبي حفص على يحيى بن غانية في معركة تاجرا (602 هـ ـ 1205 م) تأثير على الناصر الموحدي في مضاعفة حصاره للمهدية المعتصم بها علي بن الغازي بن غانية مبدياً وجنوده ضروباً من البسالة والشجاعة في الدفاع والمقاومة رغم شدة الحصار وضرب المجانيق. وكان الأشد تأثيراً في المحصورين ـ وعلى رأسهم علي بن الغازي ـ هو ما شاهدوه من أن أحد خاصة يحيى بن غانية جيء به مقيّداً في الأصفاد، وطيف به على جمل حول أسوار المهدية وهو يحمل راية يحيى بن غانية المهزوم. وكان ذلك موجباً لبعث روح الفشل والاستسلام في المحصورين. وصدّقوا ما كان يشيعه الموحدون من انتصارهم على القائد الأعلى للثوار الملثمين. فلم يكن من علي بن الغازي إلا أن طلب الأمان «ونزل هو وأتباعه وشيعته على أن يخلّى سبيلهم، ويسلّموا البلد، ويكونوا في أمان الموحدين إلى أن يصلوا إلى يحيى حيث كان.

وكان ذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى (602 هـ ـ 1205) فكان بين هزيمة تاجرا وفتح المهدية أربعة وسبعون يوماً»[88] والتزم الموحدون بما تعهدوا «وخرج علي بن الغازي عن المهدية بجملته وحاشيته فضرب أخبيته بقصر قراضة فبات هناك تلك الليلة»[89] قرب المهدية. ثم ضرب

(88) رحلة التجاني (358).

(89) المصدر السابق (359).

أخماسه في أسداسه بعد أن ظلّ طول ليلته مفكراً في مستقبله. ولعله أيقن أنه لا تقوم لبني غانية دولة بعد اليوم. فقد انهزموا في الجزر الشرقية، وانهزم يحيى في تاجرا، وأسلم هو مدينة المهدية، وليس هنالك ما يبعث على الأمل من جديد. وبعد طول تفكير استقر رأيه على الاعتراف بالواقع والإذعان؛ فقرر أن يعود إلى المهدية، ويعلن طاعته وانقياده للناصر سلطان الموحدين. وبعث إليه يقول: «أطعت بعد أن صرت في حكم نفسي» فاستحسن منه الناصر هذا الموقف فاستدعاه وأحسن إليه، وبالغ في إكرامه. حتى إن أبا محمد التجاني يذكر أنه عندما أعلن علي بن الغازي طاعته للناصر الموحدي صادف أن جاء إلى المهدية أحد مماليك سلطان الموحدين يسمى «ناصح»[90] محملاً بالهدايا العظيمة جمعها من مدة طويلة. وكان فيها ثوبان قد نسجا بأنواع الجواهر، وجعلت فيها أعلام من اليواقيت والأحجار النفيسة فأمر الناصر بحمل جميع الهدية إلى علي بن غازي مما جعل صاحب الهدية يغتاظ لذلك أشد الغيظ ويموت على إثر ذلك كمداً وحسرة[91].

وكان علي بن الغازي بن غانية صادقاً في طاعته وانقياده لسلطان الموحدين فاستصحبه معه إلى تونس ثم ذهب معه إلى مراكش. وعندما تحرك الموحدون لغزو الأندلس ذهب علي بن الغازي مع جيش الموحدين للجهاد في الأندلس. وكانت معركة العقاب المشهورة في تاريخ الأندلس الإسلامية. وكان علي بن الغازي بن غانية أحد الذين استشهدوا فيها.

أما الناصر سلطان الموحدين فبعد انتصاره في المهدية والقضاء على بني غانية ظلّ فيها عدة أيام يرتب أمورها ويضمد جراحها. ثم عيّن والياً عليها محمد بن يغمور الهنتاني، كما عين على طرابلس عبدالله بن إبراهيم بن جامع. وبعد ذلك توجه إلى تونس فأقام بها بقية سنة 602 هـ إلى السابع من شهر شوال 603 هـ (1206 م). وقبل عودته إلى مراكش اختار للولاية على

(90) كان يتولى شؤون مدينة سبتة.
(91) رحلة التجاني (359).

تونس (إفريقية) الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي الـذي سجل انتصاره الحاسم على يحيى بن غانية في معركة تاجرا والذي سيكون له ولأبنائه من بعده دور كبير في إفريقية.

بنو غانية في الميزان

تلك هي الصورة التي انتهى بها مجد بني غانية في إفريقية. وكانت ثورتهم من أعنف الثورات التي جابهت سلطنة الموحدين الواسعة؛ فقد امتدت رقعة نفوذ بني غانية من غربي بجاية إلى شرقي طرابلس. وقد استطاعوا أن يكونوا أصحاب سيادة منذ احتلالهم لمدينة بجاية سنة 580 هـ على يد علي بن غانية إلى استسلام المهدية سنة 602 هـ على يد علي بن الغازي.

وكان في إمكان هؤلاء الثوار أن تدوم سيادتهم، وتتوطد مملكتهم أكثر لو أنهم سلكوا السبيل السوي، وعرفوا كيف يسوسون الأمور. وكان في إمكان يحيى بن غانية أن يتعظ بما حصل له في جبل تاجرا، وأن تكسبه التجارب الحنكة والحكمة فيما سوف يقوم به - فيما بعد - من محاولات يائسة لإعادة سلطانه وخضد شوكة أعدائه.

ولعلّ من أهم الأسباب التي حالت بين بني غانية وبين تحقيق أحلامهم ومطامحهم أنهم لم يكونوا مدفوعين بالمثل العليا للدولة المرابطية التي كانوا ينتسبون إليها مما لم يجعل لهم وفرة الأنصار وكثرة الأتباع المستعدين للدفاع عن المثل والمبادىء المؤمنين بها مثلما حصل إبان تأسيس دولة المرابطين حيث كانوا يؤمنون أنهم محمّلون برسالة إزالة الضيم وتحقيق العدل بين الناس. ومن جهة أخرى فلم يكن بنو غانية متزعمين لقبيلة تؤمن بتلك الدعوة

فتلتئم بها عصبيتها الدموية التي جعلها ابن خلدون من مقومات الملك في الممالك السابقة.

وكان بنو غانية ـ بموجب ذلك ـ فاقدين لأهم عنصر من مقومات السيادة والملك إذ لم يكونوا سوى عائلة قليلة العدد شقت عصا الطاعة في وجه السلطنة الموحدية. وكان من نتيجة ذلك أن أنصارهم ومؤيديهم كانوا من الطامعين الانتهازيين سرعان ما ينفضون أو ينسحبون إدا داهمهم الخطر أو بعدت عنهم المصالح الذاتية العاجلة. وكان هذا ينطبق خاصة على قبائل الأعراب من بني هلال وبني سليم الذين كانوا أسرع ما يكون إلى الانتقاض والانفضاض، والاستجابة لمن يقدم البذل الأكبر والعطاء الأوفر. وكان من ذلك أيضاً الأتراك الأغزاز الواردون من المشرق والذين كانت لهم مطامعهم ومطامحهم الخاصة. فكان تحالفهم مع بني غانية شأن تحالف المنافس الحسود مع منافسه.

وإذا كان كلّ من بني غانية والأغزاز كارهاً للخلافة الموحدية باعتبارها مناوئة للخلافة العباسية فإنه لا توجد أية رابطة تجمعهم في سبيل تحقيق صالح مشترك أو مصلحة عامة.

وهكذا أضاع بنو غانية كثيراً من جهودهم في سبيل استرضاء أولائك الأغزاز أو في سبيل محاربتهم. ولقد رأينا ـ فيما سبق ـ أن الأغزاز ـ في نهاية الأمر ـ خذلوا بني غانية وانضمّوا إلى الموحدين لأنهم ـ في واقع أمرهم ـ لم يكونوا في تحالفهم مع بني غانية صادقين بقدر ما كانوا راغبين في الحصول على الملذات والأموال والغايات الخاصة.

وبعد هذا وذاك فإن بني غانية كانوا يحملون في أنفسهم وذواتهم بذور الفشل والخيبة. فإذا لم يكن وجود لمقومات الملك من العصبية الدموية أو من المبادىء السامية التي تحكم التلاحم في المجموعة فلا أقل من تركيز النظام على أسس العدالة الاجتماعية واحترام الإنسان حتى يعوض ذلك ما

فقد من مقومات. وكان بنو غانية فاقدين أيضاً لهذا التعويض. وبذلك فقدوا كل إمكانية للاستقرار والاستمرار. وقد ذكرنا عدة أمثلة مما كانوا يفعلونه مع سكان المدن التي يحتلونها والأراضي التي يستولون عليها. وهي أمثلة تدعو كلّها إلى التنفير والتباعد بين الحاكم والمحكوم بل تجعل المحكومين يتشوفون إلى التخلص مما هم فيه فيرحبون بكل وارد عليهم علّه يخفف عنهم العبء ويزيل عنهم الضيم حتى لو كان هذا الوارد مشكوكاً في عدله وإنصافه تبعاً للمثل الدارج الذي يقول: «تبديل السروج فيه راحة».

ومن يدري. فلعلّ هذا المثل الذي توارثناه عن الأسلاف إنما كان تعبيراً لا شعورياً عما كان يسود البلاد من اضطرابات وتقلبات مستمرة ليس للشعب فيها من دور، وليس له فيها من حظ إلاّ ما يحمله حظ المغبون المغلوب يدفع الغرامة ولا ينال الغنيمة؛ لأنه ـ في ذلك العهد ـ كان بمثابة المتاع يتسابق على اكتسابه المغامرون والحاكمون، لأن المجتمع ـ إذ ذاك ـ كان أفراده رعايا لا مواطنين.

التحديات الأخيرة لابن غانية

إذا اعتبرنا انتصار الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص على يحيى بن غانية في معركة «تاجرا» انتصاراً حاسماً فلا يعني ذلك الحسم الحقيقي والفعّال لذلك الثائر المهزوم، لأننا نجده ـ بعد ذلك ـ، وبعد أن توغل في الفيافي والاعتصام بالمناطق النائية ـ يظل مترقباً الفرصة السانحة حتى يعود إلى الظهور وخوض القتال ضد الموحدين. ورغم هزيمته في معركة تاجرا فإنه لم يعدم من ينقاد إلى صفوفه من الأعراب الطامعين الذين احترفوا النهب والارتزاق من الغارات دون أن يتعظ بفرارهم من حوله كلما دارت عليه الدائرة أو نقص بذله وعطاؤه. فما إن أيقن ابن غانية بعودة الناصر الموحدي إلى مراكش حتى بادر بالحركة والظهور. ولكن الوالي الجديد بإفريقية (الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص) كان له بالمرصاد يراقب حركاته وسكناته حتى التقى به من جديد سنة 604 هـ (1207 م) وجرت بينهما معركة دامت يوماً كاملاً انتهت بهزيمة ابن غانية مرة أخرى. وفرّ ابن غانية ـ مثل العادة ـ ملتحقاً بالفيافي والقفار في اتجاه طرابلس بينما عاد ابن أبي حفص ظافراً، وبعث يبشر بانتصاره إلى السلطان بمراكش.

وأيقن ابن غانية بصعوبة مواجهة عبد الواحد بن أبي حفص. ولهذا فضل تجنّبه دون أن يكفّ عن مجابهة الموحدين في مناطق أخرى من سلطنتهم الواسعة، وأخذ يتحسس مناطق الضعف حتى وجدها خارج حدود إفريقية في حدودها المعروفة في ذلك الوقت. وكان ميدان اللقاء الأول في

المنطقة الغربية من المغرب الأوسط بتلمسان. وكان الذي شجعه على ذلك أمران: الأول، التغيير الذي حصل في والي تلمسان. فقد كان يتولّاها السيد أبو الحسن فبعث برسالة إلى مراكش يعتذر فيها عن الاستمرار في منصبه لمرضه وضعفه فعين الناصر الموحدي ـ بدله ـ موسى أبا عمران.

أما الأمر الثاني فهو تحالف يحيى بن غانية مع قبيلة زناتة المعروفة بعدم ولائها للموحدين. وقد سبق أن راسله زعماء تلك القبيلة كاشفين له عن مواطن الضعف في تلك المنطقة. وعندما تمكن ابن غانية من وفرة الأنصار اتجه صوب تلمسان معترضاً لأبي عمران موسى الذي خرج من عاصمته تلمسان وتوغل في قبيلة زناتة يسترضي زعماءها، ويحاول جلبهم لصفوف الموحدين ويحذرهم من الانخداع لوعود يحيى بن غانية. ويبدو أن الوالي الموحدي لم يكن في مستوى خصمه ابن غانية دهاءً سياسياً ومكراً حربياً. ولهذا بعث إليه والي إفريقية (عبد الواحد بن أبي حفص) يحذره من مجابهة ابن غانية لما يعلمه من شدة شكيمته، ولما يعرفه ـ أيضاً ـ من ضعف الوالي الجديد على تلمسان. ولكن هذا الأخير لم يستجب لنصيحة زميله والي إفريقية فخرج من مدينته المحصنة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ متوغلاً في أراضي زناتة. وكان الزناتيون يراسلون يحيى بن غانية ويحرضونه على القدوم من جهة، ويغرون أبا عمران على لقاء ابن غانية ويهوّنون عليه أمره من جهة أخرى. وهكذا وقع والي تلمسان في الشرك الذي نصبوه له فالتقى بخصمه ـ جنوب تلمسان ـ وكان لقاء قاضياً عليه. ويصف ابن العذاري هذا اللقاء بأسلوب عصره قائلاً:

«. . ولم يكن (أبو عمران) إلّا قبل أن يلتئم جمعه، وتكمل تعبئته، ويأخذ أهبته، ويستحضر عدته إذ غشيته أسراب العدو كالجراد المنتشر. وطلعت عليه ساقات ابن غانية وكان له كالمنتظر فثبت السيد (أبو عمران) مع من كان في موكبه من خاصته، ومضت الهزيمة على جناحي ساقته، واصطلتهم العرب قتلاً وأسراً وفرّ من أفلتته الرماح خبالاً وذعراً. واستشهد

السيد أبو عمران مع من صبر من خاصته، وساروا إلى فضل الله ورحمته، وأسر بعض بنيه والكاتب أبو الحسن بن عياش معهم وبعض طلبة تلمسان. واستولى العدّو على المحلة وأثقالها، وخيلها وبغالها، وسائر أموالها. وتبسطت جموعه على تلك الجهات، وعاثوا بها عيث السباع الضاريات[108] وعاثت الأعراب في تلك المناطق فانتهكوا عمرانها وانتهبوا زروعها.

أما أهالي تلمسان فقد استولى عليهم الرعب وخافوا أن يصل إليهم ابن غانية، ويكون مآلهم مآل المدن التي استولى عليها من قبل، ونال أصحابها العسف والتنكيل. فأغلقوا أبواب المدينة وتحصنوا بأسوارها أملًا منهم في وصول نجدة موحدية تدرأ عنهم الخطر الداهم، وتنقذهم مما يهددهم. إلا أن ابن غانية فضّل أن يتجه ـ أولاً ـ إلى مدينة تاهرت فاستولى عليها وبقي فيها مدة يسترجع قواه ويخطط مغامراته المقبلة. وكان انتصار ابن غانية معيداً إليه هيبته وسمعته بين القبائل العربية والبربرية، وانضم إليه الكثير من بقايا جنود قراقوش الأرمني. وكانت الغنائم التي استولى عليها أتباعه حافزة لمن كان خارج الميدان بالانضمام إليه والدخول في جيشه طمعاً في الكسب والمال.

وطارت الأنباء إلى عاصمة الموحدين تعلن انتصارات ابن غانية الجديدة، واستيلائه على مدينة تاهرت وعدة جهات من ولاية تلمسان. وخاف أولو الأمر من الموحدين أن يتقدم ابن غانية إلى مدينة تلمسان ذاتها ويستولي عليها فيزداد أمره استفحالاً، وتقوى شوكته لا سيما أنه أصبح ـ نسبياً ـ على مقربة من عاصمة السلطنة مراكش، مما جعله يبدو في نظر المسؤولين الموحدين أشد خطراً من الانتصارات التي سجلها ـ سابقاً ـ في إفريقية في مناطق تبعد عنهم آلاف الأميال.

ولهذا اهتموا كثيراً بمصير تلمسان. وكان أول من بادر إلى نجدة

---

(108) البيان المغرب (3: 229).

تلمسان السيد أبو زكرياء يحيى والي مدينة فاس فأسرع إلى تلمسان التي استقبلته استقبال البطل المنقذ فطمأنهم على سلامتهم، وأزال عنهم الوهن الذي كانوا عليه.

أما السلطان الناصر الموحدي فقد نزلت عليه هزيمة أبي عمران نزول الصاعقة. وتألم لفقد الكثير من الشخصيات المقربة إليه، ولِمَا نال رعاياه في المناطق التي استولى عليها ابن غانية. وأيقن أن سفرته إلى إفريقية لم تأت بالنتائج الحاسمة، ولهذا بادر ـ أولاً ـ بتعيين وال جديد على تلمسان هو السيد أبو زيد بن يوجان، وأمر بتجهيز جيش كبير يسير معه إلى تلمسان. واستجابةً لرغبة والي تلمسان الجديد قام الناصر الموحدي بعملية نفسانية استرضاءً للقلوب ومحاولة لجمع الشمل فعفا عن جميع المعتقلين في مختلف السجون استرضاء لهم ولعائلاتهم، واستجماعاً لمختلف القوى التي عليها أن تجابه الأعداء في الأندلس والبلاد المغربية على حدّ سواء.

وفي هذا الجو الجديد سار أبو زيد بن يوجان في جيشه الكبير إلى تلمسان حاصراً هدفه في غرضين اثنين: الأول الحفاظ على مدينة تلمسان من السقوط في يدي يحيى بن غانية والثاني متابعة هذا الثائر وإبعاد خطره.

الفصل الثاني

ظهور بني حفص
وتأسيس الدولة الحفصية

ولاية بني حفص على إفريقية
و
نهاية بني غانية

عندما انتصر عبد الواحد بن أبي حفص على يحيى بن غانية في معركة تاجرا المشهورة ازدادت قيمته عند سلطان الموحدين (الناصر بن المنصور). لهذا عندما أراد الناصر الموحدي اختيار وال جديد على إفريقية قبل عودته إلى مراكش لم ير من هو أولى بذلك من عبد الواحد بن أبي حفص بالرغم من أن هذا الأخير لم يكن راغباً في تلك الولاية. وكان يرغب في أن يبقى ضمن شخصيات السلطة المركزية في مراكش، لأنه كان في ذلك الوقت «عميد شيوخ الموحدين، وأعلاهم مكانة، وأشدّهم نفوذاً لدى (الخليفة) وكان يمت إلى الناصر بصلة النسب الوثيق إذ كان متزوجاً بأخته ابنة يعقوب المنصور»[109]. وقد قام الناصر بعدة مشاورات بخصوص ولاية إفريقية. فكان إجماع شيوخ الموحدين على أن يتولّاها عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، فبعث إليه في المرة الأولى أحد خدّامه يستطلع رأيه في الولاية على إفريقية فامتنع ابن أبي حفص من قبولها. ثم فاوضه الناصر الموحدي بنفسه في الموضوع فاعتذر له عن قبول تلك الولاية متعللاً ببعد الشقة عمّن خلّفه بمراكش من أهل وولد، وبما يستلزم ذلك من مفارقة الخليفة والبعد عنه[110].

وأعاد سلطان الموحدين النظر فيمن يتولّى إفريقية فلم يجد غير عبد

(109) عصر المرابطين والموحدين (2: 270).
(110) رحلة التجاني (360).

الواحد بن أبي حفص فعرض عليه الأمر للمرة الثالثة فاستجاب ابن أبي حفص لرغبة السلطان الموحدي إثر محاولة طريفة لا بأس من إثباتها هنا حسب الرواية التي ذكرها عبدالله التجاني في رحلته. يقول التجاني:

«.. حكى نبيل مملوك الشيخ (عبد الواحد) قال: بينما أنا جالس على خباء الشيخ ليلة إذ بضوء قد خرج من مضارب الخليفة. فإذا بشرذمة من الخدم والفتيان قد قصدوا خباء الشيخ. فعرّفته بذلك فقال: إذا وصلوا فافتح لهم. فلما وصلوا فتحت لهم فدخل ولد الخليفة الناصر ومعه ولد الشيخ أبي محمد من ابنة المنصور، وهو المعروف بالسيد أبي الحسن. وكان الناصر قد رباه مع ولـده يوسف المستنصر ولي عهده واختصه كولده فوجهه مع ولده ليقرر أنه بمنزلة الولد، ومعهم سالم الفتى مربّي الناصر وفتيان آخرون سواه. فقام الشيخ أبو محمد (عبد الواحد) لولد الناصر وأجلسه معه وقال له: ما حاجتك أيها الطالب. ولو كان عندي غير نعمتكم لقابلتك به. فقال له الفتيان: كرامته قضاء حاجته. فقال (عبد الواحد): نعم. حاجته مقضية فقال له الولد:

ـ إن مولانا وسيدنا يخصك بالسلام. ويقول لك: هذه البلاد هي من أول هذا الأمر العزيز مع هؤلاء الثوار في أمر عظيم، وتحت ليل بهيم. وقد وصل إليها سيدنا عبد المؤمن وسيدنا أبو يعقوب، وسيدنا المنصور. وما منهم إلّا من أنفق أموالاً، وأفنى في الحركة إليها رجالاً، والمشقة شديدة، والشقة بعيدة. وما عاد منهم واحد إلى حضرته إلّا وعاد الويل، وأظلم ذلك الليل. وهذه الدعوة كما يجب علينا القيام بها والذبّ عنها كذلك يجب عليك. وقد طلبنا في جميع إخوانك السادة وأعيان أهل الجماعة من ينوب عنّا في هذه البلاد فلم نجد عنك معدلاً فانحصر الأمر إلينا وإليك، فإما أن تطلع إلى حضرة مراكش فتقوم هنالك مقامنا، ونقيم نحن في هذه البلاد، أو نطلع نحن إلى حضرتنا.

فقال الشيخ (أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص):

ـ يا بني. أما القسم الأول فهو ما لا يمكن. وأما القسم الثاني فأجبت إليه على شروط[111].

وخرج الوفد مبتهجاً بالنتيجة التي وصل إليها فذهب مستبشراً ليخبر الناصر بقبول عبد الواحد بن أبي حفص الولاية على إفريقية مقابل شروط معيّنة. ثم التقى الناصر الموحدي بعبد الواحد بن أبي حفص الذي عرض عليه شروطه منه فقبلها سلطان الموحدين. أما أهمّ هذه الشروط فهي التالية:

1 ـ أن يبقى عبد الواحد بن أبي حفص والياً على إفريقية إلى أن تصلح أحوالها وينقطع طمع يحيى بن غانية عنها، ثم يختار سلطان الموحدين بعد ذلك، من يوجهه والياً على إفريقية عوض عبد الواحد بن أبي حفص.

2 ـ أن المدة التي سوف يقضيها عبد الواحد بن أبي حفص والياً على إفريقية لا تتجاوز ثلاث سنوات.

3 ـ يعرض الجيش الموحدي على ابن أبي حفص ليختار منه ما يبقيه عنده. وتعود بقية الجيش إلى مراكش صحبة السلطان.

4 ـ أن عبد الواحد بن أبي حفص إن فعل فعلاً كائناً ما كان لا يسأل عنه ولا يعاتب فيه.

5 ـ بعد مغادرة سلطان الموحدين لتونس فإن عبد الواحد بن أبي حفص يكون له مطلق الحرية في إبقاء من كانت له مسؤولية سابقة أو عزله عنها[112].

وقبل الناصر الموحدي كل تلك الشروط. ثم غادر تونس عائداً إلى مراكش بعد أن مكث بإفريقية أكثر من سنتين.

والسؤال المتبادر هو: ما سبب هذا الإلحاح من الناصر الموحدي على ابن أبي حفص؟ ثم ما هو سبب امتناع ابن أبي حفص عن ولاية إفريقية في

(111) رحلة التجاني (362).

(112) المصدر السابق.

أول الأمر؟ ثم ما هو سبب إجماع شيوخ الموحدين على أن يبقى عبد الواحد بن أبي حفص والياً على إفريقية؟.

قد يتبادر ـ للوهلة الأولى ـ أن كفاءة الرجل هي التي أوجبت ذلك. وأن قناعة السلطان الموحدي بأنه لا استقرار بإفريقية ولا سبيل للقضاء النهائي على ابن غانية إلاّ بوجود عبد الواحد بن أبي حفص فيها. ولكن عبارة ذكرها عبدالله التجاني في رحلته قد تبعد تلك التساؤلات. فقد جاء في مساق حديثه عن هذه النقطة ـ وهو يتحدث عن إجماع شيوخ الموحدين ـ ما يلي: «.. وكأنهم أرادوا بُعْدَهُ عن الخلافة ليجدوا السبيل إلى أغراضهم»[113].

كان ـ إذن ـ الصراع على النفوذ الداخلي وفي بلاط السلطان الموحدي هو الذي حدا بأولائك الشيوخ على إبعاد عبد الواحد بن أبي حفص مهما تكن نتائج ذلك الإبعاد على سير السلطنة ومكانة الدولة في سبيل تحقيق ما يريدون من أهداف وحاجات خاصة. وعلى صحة توقّع أن الناصر الموحدي لم يكن يرمي ـ هو أيضاً ـ إلى إبعاد ابن أبي حفص، وأن حرصه على استقرار الأوضاع بإفريقية وإبعادها عن خطر ابن غانية، على صحة توقع ذلك فإنه لا يستبعد أن يكون استجاب ـ ولو ضمنياً ـ لرغبة شيوخ الموحدين الذين أجمعوا على ابن أبي حفص ليكون والياً على إفريقية. وإن عدم قبول أي واحد منهم الولاية عليها يعني فرض إرادتهم على الناصر الموحدي حتى يلحّ بشدة على ابن أبي حفص كي يقبل الولاية على إفريقية.

(113) رحلة التجاني (360).

الجولة الثالثة مع يحيى بن غانية

لم يكن يحيى بن غانية غافلاً عما كان يدور بخلد المسؤولين الموحدين نحوه لا سيما بعد تحالفه مع زناتة وانتصاراته التي سنجلها في منطقة تلمسان. كما كانت تبلغه الاستعدادات التي هيأها الموحدون لمجابهته والتصدي لتحدياته. فما إن بلغته مسيرة أبي زيد بن يوجان (الوالي الجديد) نحو تلمسان حتى فكّر في الانسحاب من المنطقة التي استولى عليها فخرج من تاهرت بجيوشه وأتباعه عائداً أدراجه نحو الشرق من سلطنة الموحدين حيث يوجد عبد الواحد بن أبي حفص الوالي الجديد على إفريقية الذي سبق أن هزمه مرتين. والغالب على الظن أن انتقال ابن غانية من المغرب الأوسط إلى إفريقية لم يكن ناتجاً عن اغترار بما أحرزه من انتصارات في ولاية تلمسان، وما سبقه إلى إفريقية من أخبار انتصاراته حتى دخل الرعب أهاليها كما يقول صاحب البيان المغرب[114] وإنما لما ذكرناه من أن اقترابه من السلطة المركزية الموحدية وتعيين وال جديد على تلمسان من ناحية، وأن وجود عبد الواحد بن أبي حفص على إفريقية وهو ثاني شخصية موحدية ربما يقطع عليه خط الرجعة للفرار أو أن يصبح محاصراً بين القوتين الموحديتين في كل من المغرب الأوسط والأدنى. لعلّ كل ذلك هو الذي جعله يبادر بالإقلاع من تاهرت ويتجه صوب إفريقية. ولم تعين المصادر التاريخية النقطة التي كان يعتزم الذهاب إليها. وغاية ما تذكره أن عبد الواحد بن أبي حفص اعترضه

(114) البيان المغرب (3 :231).

في الطريق وهزمه مرة أخرى واستولى على الكثير من الغنائم والتجأ يحيى بن غانية إلى جبال طرابلس. وفرّ أخوه إلى مراكش فقبله الناصر الموحدي وأكرمه[115]. وظل يحيى بن غانية في جبال نفوسة يجمع الأعراب من حوله للهجوم بهم على إفريقية. إلا أن عبد الواحد بن أبي حفص أراد أن يبادره داخل معاقله بجبال نفوسة حتى التقى الجمعان سنة 606 هـ والتحم الفريقان التحاماً شديداً. وكاد الجيش الموحدي ينهزم لولا صمود عبد الواحد بن أبي حفص حيث ثبت بمركزه بقلب ساقة الجيش مع من كان معه فأعادوا الكرة من جديد حتى انهزم جيش ابن غانية ومن معه من الأعراب وقتل الكثير من مشائخهم مثل محمد بن مسعود شيخ الذواودة، وابن عمه حركات بن أبي الشيخ وشيوخ بني قرّة ومغراوة وغيرهم.

وينقل ابن خلدون عن ابن نخيل أن مغانم الموحدين من عساكر الملثمين كانت ثمانية عشر ألفاً من الظهر. فكان ذلك مما أوهن من شدته، ووطّى من بأسه[116].

وبعث عبد الواحد بن أبي حفص بالبشارة إلى الناصر سلطان الموحدين بمراكش بهذا النصر الجديد على أكبر مناهض للسلطنة الموحدية، فابتهج لذلك سلطان الموحدين، وهنأه الشعراء بذلك الانتصار. وكان من ذلك ما قاله أبو عبدالله الفزازي:

هذي فتوحٌ تفتحت أزهارُها ... وتدفقَتْ ملءَ الملا أنهارُها
وتأرجحت نفحاتها، وتبرجت ... صفحاتها، وتبلجت أنوارُها

ومنها قوله:

ظنّت لشقوتها بأنك نازحٌ ... تنأى عليك ـ إذا سمعت ـ ديارُها
فرميتها بكتائب ملمومة ... كالليل. لكن النجوم سِفارُها

(115) العبر (6: 404).
(116) العبر (6: 404).

تــركت رؤوس رؤوسهـا مبثــوثــة وطفت على بحــر بـه أُسفــارُهــا
ومضى الشقي، وقد تلبّس روعــه يــطفـو عليــه ذلّهــا وصغــارهــا
عصفت ريـاح جنـودكم بـرحـابــه فهفت جوانحها، وخفّ مطارها(117)

وبالانتصار على يحيى بن غانية حَسِبَ عبد الواحد بن أبي حفص أن مهمته بإفريقية انتهت طِبْقَ الاتفاق الذي تمّ بينه وبين الناصر السلطان الموحدي، فبعث إلى سلطانه يطلب منه العودة إلى مراكش بعد أن أنهى مهمته. إلا أن الناصر أبى عليه ذلك وطلب منه أن يواصل مهمته وإقامته في إفريقية.

(117) البيان المغرب (3: 232 - 233).

انقسام السلطنة الموحدية

إذا كان انتصاب عبد الواحد بن أبي حفص والياً على إفريقية سنة 603 هـ (1207 م) يمثل التمهيد لانفصال إفريقية واستقلالها عن السلطنة الموحدية فإن ذلك يعني ـ من جهة أخرى ـ مظهراً من مظاهر تفكك هذه الإمبراطورية الواسعة، وبداية لانحلالها النهائي.

وإذا كان انبعاث السلطنة الموحدية نفسها يمثل محاولة تاريخية لوحدة أقطار المغرب الإسلامي، فإن هذه المحاولة لم يكتب لها طول البقاء لأسباب عديدة أهمها الأسباب الداخلية التي سنعرض لها بالشرح والتحليل.

صحيح أن الدولة الموحدية امتدّ وجودها أكثر من مائة وخمسين سنة منذ أن أعلن عن قيامها الإمام المهدي محمد بن تومرت إلى أن سقطت مراكش تحت ضربات أبي يوسف المريني. ولكن تلك الفترة الطويلة لا تمثل الاتساع الأقصى وعهد الازدهار عندما امتدت رقعتها من وراء طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن درعة والسوس الأقصى وما وراءهما من الصحراء جنوباً إلى وادي تاجة بالأندلس شمالاً. وقد قضت الدولة الموحدية ـ إبان نشأتها ـ خمسين سنة في محاربة دولة المرابطين لتحلّ محلها في المغرب الأقصى والأندلس. ولم يكن عهد ازدهار «الموحدية» يشمل إلاّ عهود عبد المؤمن وأبي يعقوب والمنصور والناصر. كما أن عهد الوحدة والازدهار لم يكن سالماً من الاضطرابات والانتقاضات سواء في الأندلس أو في أقطار المغرب العربي. وكان من أعنف تلك الانتفاضات ثورة بني غانية

على الموحدين في إفريقية كما مرّ ذكره في الصفحات الماضية. ويمكن القول بأن بداية التراجع الفعلي لعظمة الموحدين كانت إثر هزيمة محمد الناصر في معركة العقاب سنة 609هـ (1212م) قرب حصن سالم في الأندلس إذ لم يكن الجيش الموحدي في تلك المعركة الحاسمة متحد القلوب، ولا متقد الإحساس. فرغم كثرة ذلك الجيش فإن كثرته لم تغنه شيئاً، إذ منذ الجولة الأولى انسحب الكثير من الجنود، ودخل الفزع والاضطراب صفوف الموحدين فأعمل فيهم الأسبان السيف وجندلوا منه الآلاف. وفرّ محمد الناصر منهزماً ناجياً بنفسه من الموت. واهتزت إسبانيا النصرانية لذلك الانتصار واعتبرته أخذاً بثأر معركتي الزلّاقة والأرك، وأرسلت التحف والهدايا للبابا برومة وجعلت من يوم 16 جويلية 1212 عيد انتصار الصليب[118].

(118) الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (171).

ضعف الأخلاق

لم تطل الحياة كثيراً بالناصر الموحدي بعد معركة العقاب فتوفي بعد سنة ونصف من تلك الهزيمة الكبرى. ولم تتعظ العائلة المالكة الموحدية بتلك الهزيمة حتى تعمل على التدارك والاستفادة من المحنة بل نجد الوهن والانحلال يتسربان إلى العائلة المالكة نفسها، فبعد وفاة محمد الناصر تولّى الأمر من بعده ابنه يوسف. وكان صبياً لا يزيد عمره على العشر سنوات. واستغِلّ صغر هذا «السلطان» من رجال الدولة والقواد وأصحاب المطامع فكثر الارتشاء والاستبداد، واندلعت الفتن الداخلية في الأندلس والمغرب على حدّ سواء. ثم انشق البيت المالك على نفسه وحارب بعضهم بعضاً. وكان الأنكى من كل ذلك أن أصبح هؤلاء المتحاربون من البيت الموحدي يستنجدون ويتحالفون مع عدوّهم المشترك ضدّ بعضهم بعضاً مثل تحالف العادل ضد أخيه المأمون مع مملكة قشتالة وتسليمه لعدة أراضٍ من الأندلس في سبيل ذلك التحالف. ومن قبله فعل مثله «البيّاسي» الذي لم يكتف بالتحالف مع أعدائهم النصارى، فأعلن انسلاخه من الإسلام واعتناقه للنصرانية حسب الرواية الإسلامية التي ذكرها البيان المغرب: 3، 249، 250.

وهذا موحدي آخر يعلن تنصره في مشهد حافل بحضور الفونصو العاشر ملك قشتالة. وقد قال في ذلك الحفل:

«.. أشهدكم يا من حضر من المسلمين والنصارى واليهود أنني قدمت

على دين النصرانية منذ أربعين سنة. وكنت أكتمه. وأنا ـ الآن ـ أبحثه وأظهرته، وأن دين المسيح بن مريم هو الدين القويم الأزلي[119].

ثم تحدث بعده ملك قشتالة وهنأه على تنصره.

ولم يكن هذا المتنصّر إلاّ حفيداً لعبد المؤمن بن علي. وشقيقاً لأبي دبوس آخر خليفة موحدي، وهو أبو زيد بن السيد عبد الله الذي لجأ إلى ملك قشتالة الفونصو العاشر. وفي أواخر سنة 1261/659 أعلن تنصره في ذلك الحفل وعلى تلك الصورة إلى غير ذلك من الصور والمآسي.

وإن دلّ هذا على شيء فإن أهم ما يدلّ عليه هو مدى الانحلال والتفسخ الذي أصاب أحفاد عبد المؤمن بن علي الذين شغلتهم الأهواء والأغراض الخاصة عن الحفاظ على مجد الدولة وتراث الأجداد. وكان الانحراف عن شروط القيادة التي تأسست عليها الدولة الموحدية من أهم الأسباب التي أدت إلى ذلك التفسخ، بالإضافة إلى الانحراف عن أصول الدعوة الموحدية التي نادى بها محمد بن تومرت في خصوص الإمامة والإمام وما يجب أن يتوفر فيهما من شروط[120].

(119) عصر المرابطين والموحدين (2 :561).

(120) انظر تحليلاً لذلك عند عبدالله عنان في «عصر المرابطين والموحدين» (1 :192 - 217).

تمزّق السلطنة

ومهما يكن فإن النتيجة التي آلت إليها السلطنة الموحدية الواسعة قد تمثّلت في تمزيق أواصر تلك الإمبراطورية وضياع وحدتها. وإذا كان ذلك التمزق يتمثل في حركات انفصالية عن الموحدين في المغربين الأوسط والأدنى، وفي القضاء على الدولة الموحدية نفسها في المغرب الأقصى، فإن الأمر بالأندلس كان أخطر من ذلك، لأن الثورة في الأندلس تعني تهيئة الظروف والفرص لتقوم كلّ من مملكة قشتالة ومملكة أرغونة بتحقيق أحلامها التوسعية على حساب السيادة الإسلامية في الأندلس. وهكذا لم تنقض سنوات قليلة على انفكاك الوحدة، واندلاع الثورات بالأندلس حتى سقطت مدن بلنسية وقرطبة وإشبيلية ولم تبق إلا رقعة ساحلية ضيقة عرفت بمملكة غرناطة تحت سيادة ملوك بني الأحمر. وهي المملكة الصغيرة التي سوف تستمر أكثر من قرنين ونصف لتزول بعد ذلك نهائياً، وينتهي بها تاريخ إسبانيا الإسلامية.

وكان انفصال المغرب الإسلامي عن السلطنة الموحدية يختلف من قطر إلى قطر، ففي المغرب الأوسط استطاع بنو زيان (من بني عبد الواد) أن يكونوا إمارة مستقلة على يد زعيمهم جابر بن يوسف خضعت - أول الأمر - للسلطنة الموحدية إلى أن استبدّ بها يغموراسن بن زيان وأعلن انفصاله عن الدولة الموحدية.

أما في المغرب الأقصى (مركز السلطنة) فإن قبيلة بني مرين التي كانت

تقيم في جهات بسكرة أول الأمر، استطاعت أن تتقوى شيئاً فشيئاً في جنوب المغرب الأقصى حتى شقت عصا الطاعة في وجه الموحدين وأن تخوض ضدهم معارك استمرت أكثر من نصف قرن من سنة 613 هـ إلى 668 عندما احتلّ يعقوب بن عبد الحق المريني مدينة مراكش وقضى نهائياً على شبح «الخلافة» الموحدية وأزاله من الوجود.

انبعاث الدولة الحفصية

تعتبر ولاية عبد الواحد بن أبي حفص على إفريقية تمهيداً لانبعاث دولة جديدة في تونس بعد تبعيتها السابقة للسلطنة الموحدية وعاصمتها مراكش. وقد رأينا في السابق أنَّ عبد الواحد بن أبي حفص لم يكن راغباً في تلك الولاية لولا إلحاح الناصر الموحدي حتى يقبل تلك الولاية التي انحصرت فيه دون بقية رجالات السلطنة الموحدية إذ كان لا يستبعد أنَّ ذلك التعيين كان المقصود منه إبعاد أقوى شخصية موحدية ـ بعد السلطان ـ عن حاشية البلاط الموحدي حتى يخلو لها الجو.

والواقع أنَّ تلك الحاشية كانت تعلم ما يتمتع به بنو حفص من المنزلة والاحترام لما لهم من دالَّة في بناء الدولة الموحدية، وإرساء قواعدها، وامتداد نفوذها؛ فبعد عودة محمد بن تومرت (المهدي) من المشرق الإسلامي وشروعه في نشر دعوته بين قبائل المصامدة في جبل الدرن[121]. كان أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي من أوَّل المستجيبين لدعوته، ومن أقواهم دعاية لها، ودفاعاً عنها بين قبائل مصمودة البربرية حتى أصبح يطلق عليه منذ ذلك التاريخ لقب «الشيخ أبو حفص». وكان أحد العشرة الذين انبنت عليهم دعائم الدعوة الموحدية، أولائك الذين بايعوه بالإمامة وأطلقوا عليه لقب «المهدي» في الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة 515 (نوفمبر

(121) ما يسمى الآن جبل الأطلس.

1122). وكان الشيخ أبو حفص أقوى العشرة، وأنفذهم كلمة، وأوسعهم نفوذاً. ولا أدل على ذلك من أنَّه عندما توفّي المهدي (ابن تومرت) وأوصى بالأمر من بعده لعبد المؤمن بن علي فإنَّ موت.المهدي أخفي مدة ثلاث سنين خوفاً من عدم استجابة قبائل المصامدة لذلك لأنَّ أبا حفص الهنتاتي لم يبايعه بعدُ. وبعد ثلاث سنوات قال الشيخ أبو حفص لعبد المؤمن بن علي: نقدمك كما كان الإمام يقدمك. وإذ ذاك فقط اطمأنَّ عبد المؤمن وأشياخ الموحدين، وأعلنوا للناس عن وفاة المهدي ابن تومرت وتولية عبد المؤمن بن علي «الخلافة» من بعده.

ويقول ابن خلدون متحدثاً عن منزلة الشيخ أبي حفص: ثمَّ أعلن [أبو حفص] بيعةَ عبد المؤمن، وأمضى عهد الإمام بتقديمه، وحمل المصامدة على طاعته فلم يختلف عليه اثنان. وكان [أبو حفص] محلّ الحل والعقد في المهمات في أيام عبد المؤمن وابنه يوسف. وكان عبد المؤمن يقدمه في المواقف فيجلّي فيها، وبعثه على مقدمة الجيش حين زحف إلى المغرب الأوسط قبل فتح مراكش.

ولما اعتزم عبد المؤمن الرحلة إلى إفريقية حركته الأولى لم يقدّم شيئاً على استشارة [الشيخ] أبي حفص. وعندما ذهب إليها مرة ثانية استخلف أبا حفص على المغرب كما كلَّفه بعدَّة أعمال عسكرية أخرى مثل التوجه إلى الأندلس وتوطيد دعائم الدولة الموحدية فيها إلى غير ذلك من الأعمال العسكرية الهامة(122).

وعندما توفِّي عبد المؤمن بن علي وتولّى بعده ابنه يوسف أبو يعقوب لم يستطع أن يتلقب بلقب «أمير المؤمنين» لامتناع الشيخ أبي حفص من مبايعته حتى يختبر أمره ويعرف مدى صلاحيته لتولِّي خلافة الموحدين. وقد ظلَّ الأمر كذلك خمس سنوات حتى جرَّبه الشيخ أبو حفص الهنتاتي واستصوب

---

(122) انظر العبر (5 :579 - 580).

رأيه وأعماله فبايعه وجددت له البيعة[123] وكان أبو يعقوب لا يتجرأ على مخالفته تبعاً لوصية عبد المؤمن التي أوصى فيها بنيه بأبي حفص الهنتاتي دون من بقي من المشائخ العشرة الذين بايعوا محمد بن تومرت المهدي.

وتوفي الشيخ أبو حفص الهنتاتي سنة 571 هـ (76، 1175 م). وكان أبناؤه من قبل ذلك ومن بعد يتداولون الإمارة بالأندلس والمغرب وإفريقية مع السادة من بني عبد المؤمن[124] وقاموا بعدَّة أعمال كان من أهمها ما قام به عبد الواحد بن أبي حفص من القضاء على أكبر ثورة جابهت الموحدين أي ثورة ابن غانية في إفريقية.

ويبدو أنَّ استبقاء عبد الواحد بن أبي حفص في إفريقية لم يكن لمجرد الاطمئنان على إفريقية، أو لمجرد الاستجابة لرغبة حاشية السلطان محمد الناصر في ذلك، لأنَّ تتبع الأحداث التي ذكرناها، ومنزلة بني حفص عند قبائل البربر، وقوة شخصية عبد الواحد نفسه جعلت السلطان محمد الناصر يقدِّر الحسابات الكبيرة عندما يكون عبد الواحد بن أبي حفص موجوداً قربه في البلاط الموحدي. فلعلَّه أصبح يشعر بقوة شخصيته، ويخشى منها على نفسه وعلى مستقبل عائلة عبد المؤمن بن علي في الاستئثار بالسلطنة ووراثة الحكم فيها. ولهذا عجل محمد الناصر بالاستجابة لرغبة الحاشية - ولو ظاهراً - ليبقى عبد الواحد بن أبي حفص بعيداً عنه. ولا أدلّ على ذلك التخوف من أنَّ الناصر الموحدي لم يَفِ بما تعهد لعبد الواحد بن أبي حفص بالعودة إلى مراكش بعد مضي الوقت المحدد والقضاء على ثورة ابن غانية. وهكذا يبقى عدم وفاء الناصر بتعهداته لعبد الواحد بن أبي حفص غير معلَّل بسبب أصيل إذا لم نربط ذلك بتخوف محمد الناصر من قوَّة شخصية عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي.

ومهما يكن فإن عبد الواحد بن أبي حفص خضع للأمر الواقع فقبل

(123) الفارسية (102 - 103).

(124) العبر (6 :581)

البقاء في إفريقية رغم كرهه لذلك. وشرع في ترتيب أمورها وتدبير شؤونها دون أن يظهر عليه ما يدل على رغبة في الانتقاض أو شق عصا الطاعة في وجه السلطة المركزية للدولة التي ناضل هو وأسرته في سبيل قيامها وتوطيد دعائمها.

ولم يحدث بينه وبين السلطة المركزية الموحدية ما يعكر صفو العلاقات إلاَّ موقفه من مبايعة المستنصر بالله الموحدي الذي تولَّى السلطنة بعد وفاة والده محمد الناصر بيوم واحد في الحادي عشر من شعبان 610 (ديسمبر 1213م). وكان المستنصر - إذ ذاك - طفلاً في السادسة من عمره على أقصى التقديرات[125]. فقد تأخرت بيعة أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص من إفريقية لصغر سن المستنصر. ثمَّ وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته[126] وهذا الموقف يذكرنا بموقف الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي الذي لم يبايع أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلاَّ بعد خمس سنوات حتى جرَّبه الشيخ أبو حفص واستصوب رأيه فبايعه[127] مما يدل على شدَّة تمسك بني حفص في صلاحية من يتولَّى قيادة السلطنة الموحدية. وسوف يكون لموقف عبد الواحد بن أبي حفص أثر واضح على العلاقات بين إفريقية ومركز السلطنة بعد وفاته سنة 618 هـ (1211 م).

(125) المعجب (323) وفي البيان المغرب أنَّه ابن عشر سنوات (3 :243).
(126) العبر (6 :523 - 524) وتاريخ الدولتين (19).
(127) انظر الحاشية رقم (123).

تدخُّلُ مراكش في شؤون إفريقية

كانت وفاة عبد الواحد الحفصي في غرة محرم سنة 618 هـ (فيفري 1211 م). وبعد أخذ وردّ بين شيوخ الموحدين في تونس وقع الاتفاق بينهم على أن يكون الوالي بعده على إفريقية ابنه عبد الرحمان أبا زيد فبايعه المشائخ الموحدون وأقسموا له يمين الولاء، فجلس مكان أبيه عبد الواحد على ولاية إفريقية «وسكن الثائر، وشمّر للقيام بالأمر عزائمه، وأفاض العطاء، وأجاز الشعراء» كما يقول ابن خلدون[128] وبعث إلى المستنصر في مراكش يعلمه بما تمّ بشأنه من شيوخ الموحدين بإفريقية. فما كان من المستنصر الموحدي إلاّ أن بعث بعزله عن الولاية بعد ثلاثة أشهر من تولّيها، طالباً منه القدوم إلى مراكش مع إخوته. وعيّن بدله أبا العلاء بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن بعد أن عزله من ولاية إشبيلية جبراً لخاطره، وتلبية لرغبة الوزير ابن المثنى.

والواقف على هذا الخبر يسترعي انتباهه أمران اثنان:

الأول: لماذا وقع عزل عبد الرحمان الحفصي عن ولاية إفريقية بعد أن أجمع شيوخ الموحدين على انتخابه.

والثاني: لماذا وقعت دعوة أبناء عبد الواحد بن أبي حفص حتى يعودوا إلى مراكش؟ ثمّ لماذا وقعت إنابة إبراهيم بن إسماعيل في الولاية ريثما يصل

(128) العبر (6 :587).

الوالي الجديد أبو العلاء بن أبي يعقوب؟.

والواقع أنَّ ضعف السلطان الموحدي (المستنصر) يكمن وراء ذلك، فقد كان هذا الطفل ألعوبةً بين أيدي الوزراء والمنتهزين. وكان عهده بدايةَ التراجع لتلك الدولة التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ المغرب الإسلامي. وبدأ سلّم القيم ينعدم في تعيين المسؤولين. وكانت الرغبة في استرضاء الأشخاص والمقربين هي المعيار والأساس لتلك التعيينات ولو كانت على حساب المصلحة العليا للأمة، والكفاءة الذاتية مفقودة.

فمنذ انتصاب الطفل المستنصر على حظوظ السلطنة الموحدية بدأت حركة واسعة النطاق في تغيير الولاة بالأندلس وبعث بأبي العلاء إدريس المذكور إلى تونس للإقامة فيها بجانب عبد الواحد بن أبي حفص ربما ليكون رقيباً عليه. ولكن لم تطل إقامته بتونس إذ عيِّن على إشبيلية حتى إذا توفِّي عبد الواحد بن أبي حفص أعيد تعيينه على إفريقية جبراً لخاطره كما يقال، ولو كان ذلك على حساب إغضاب أبناء عبد الواحد بن أبي حفص وأهل الحلّ والعقد من مشيخة الموحدين.

ويبدو أنَّ هنالك غاية أخرى من إرسال أبي العلاء إدريس إلى إفريقية هي الفتك بمحمد بن أحمد بن نخيل كاتب عبد الواحد بن أبي حفص المشهود له بالجود وحسن الوساطة وحسن التدبير، فأصلح الأحوال، ورتب الأجناد، واخترع زمام التضييف للوفود، كما يقول الزركشي[129]. وكانت الوشايات قد وصلت للمستنصر الموحدي تفيد بأنَّ ابن نخيل كان يتكلّم فيه وينال منه[130]، ولعلَّ أبا العلاء إدريس نفسه كان له عدم انسجام مع ابن نخيل عندما جاء في المرة الأولى مزاحماً لعبد الواحد بن أبي حفص. ولهذا انتهز الفرصة للفتك به. فبعد شهرين من وصوله قبض على الكاتب ابن نخيل

(129) ص 18 ـ وانظر الفارسية لابن قنفذ (105).
(130) العبر (589).

وعلى أخويه أبي بكر ويحيى وأودعهم السجن وصادر أموالهم، واستولى على عقاراتهم وضيعاتهم.

وحاول ابن نخيل وأخوه يحيى الفرار من السجن فقبض عليهما وقتلا. أما أخوهما أبو بكر فحمل إلى سجن المطبق بالمهدية[131]. وإذا أضفنا إلى هذا ما فعله إبراهيم بن إسماعيل بن عبد الواحد بأفراد عائلة بني حفص من إهانة وتنكيل في المدة القصيرة التي تولّى فيها ولاية إفريقية بالنيابة[132] حتى يصل أبو العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن، أدركنا الحالة النفسية التي كان عليها المسؤولون في إفريقية بعد وفاة عبد الواحد بن أبي حفص، وأنّ للبلاط الموحدي المسؤولية الأولى في إحداث الجو الخانق الذي أعقب وفاة جدّ سلاطين بني حفص في تونس.

(131) العبر (6 :589) وينظر عن ابن نخيل إعتاب الكتاب (235 - 249) لابن الآبار.
(132) المصدر السابق (588).

ابن غانية ينتهز الفرصة

وكان الجو الخانق الذي عقب وفاة عبد الواحد بن أبي حفص قد شجع يحيى بن غانية على الظهور من جديد على مسرح الاضطرابات في إفريقية بعد أن كان لائذاً بالصحراء طيلة وجود عبد الواحد بن أبي حفص. فما إن سمع بوفاته حتى عاوده الطمع في الظهور من جديد.

ولعلّ سماعه بالجوّ الخانق الذي أصبحت عليه إفريقية مما شجّعه على ذلك.

وكان على الوالي الموحدي الجديد (أبو العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن) أن يتصدّى ليحيى بن غانية وما جمعه حوله من العربان فبادر بالتوجه إلى قابس ونزل بقصر العروسين حتى يقطع الطريق على يحيى بن غانية. وبعث بولده أبي زيد في جيش كبير إلى غدامس، كما بعث بجيش آخر إلى ودّان. وتفاقم من جديد خطر يحيى بن غانية. وكانت له مع خصومه في إفريقية جولات عديدة امتدّت من طرابلس إلى بسكرة وتونس والقيروان فعاد الهلع والاضطراب إلى البلاد وكثر فيها السلب والنهب. وكان المتصدي ليحيى بن غانية في تلك المعارك هو أبا زيد بن أبي العلاء الموحدي، إلى أن وقعت معركة قرب قرية مجدول بين قفصة والقيروان استطاع فيها أبو زيد ـ بمساعدة قبيلة هوارة ـ أن يكبِّد يحيى بن غانية خسائر فادحة فانهزم ابن غانية والتجأ إلى الصحراء من جديد. ولم يعد في إمكان أبي زيد متابعة ابن غانية لا لتوغل ابن غانية في الفيافي فقط بل لعدّة أحداث جدّت في كل من تونس

ومراكش أهمها وفاة والده أبي العلا إدريس (والي إفريقية). وعين المستنصر بدله أبا يحيى بن أبي عمران. إلاّ أنَّ المستنصر قتل قبل أن يصل الوالي الجديد إلى إفريقية، فتولَّى بعد المستنصر عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن المشهور بلقب «المخلوع» فأبطل ولاية ابن أبي عمران على إفريقية وأبقى أبا زيد عليها الذي يقول عنه ابن خلدون «.. إنَّه أرسل عنانه في الولاية، وبسط يده في الناس بمكروهه، وتنكرت له الوجوه، وانحرف عنه الناس» [133]. وأشرفت إفريقية على موجة أخرى من السخط والاضطراب كان السبب فيها التدخل الارتجالي، من خلفاء بني عبد المؤمن، وتفاقم أوضاعهم الداخلية مما كان له انعكاس على أوضاع إفريقية في المستقبل.

(133) العبر (6 :591).

تدهور الوضع في
مراكش وانعكاسه على إفريقية

يتحدَّث ابن خلدون عن تدهور الأوضاع الداخلية لسلطنة الموحدين بقوله: وقام بأمر الموحدين من بعد محمد الناصر ابنه يوسف المستنصر فنصبه الموحدون غلاماً لم يبلغ الحلم، وشغلته أحوال الصبي وجنونه عن القيام بالسياسة وتدبير الملك فأضاع الحزم، وأغفل الأمور، وتوكَّل الموحدون بما أرضى لهم من طيل الدالة عليه، ونفَّس عن مخنقهم من قبضة الاستبداد والقهر، فضاعت الثغور، وضعفت الحامية، وتهاونوا بأمرهم، وفشلت ريحهم»[134].

وكانت نهاية المستنصر سنة 620 هـ (1224 م) تمثل وجهاً آخر من المأساة سواء بتصديق الرواية التي تقول بأنَّه قتل مسموماً بتدبير من وزيره أبي سعيد بن جامع، أو الرواية التي تقول بأنَّه كان مولعاً بالحيوانات فتوسط يوماً قطيعاً من البقر فشكَّته بقرة بقرونها وقضت عليه[135] دون أن يترك خلفاً له ولا أوصى بولاية عهده لصغر سنِّه من ناحية، وللصورة التي مات عليها من ناحية أخرى. واستقرَّ رأي أصحاب الاستبداد في البلاط الموحدي على تولية أبي محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، وهو رجل تجاوز الستين من العمر. ويتساءل بعض المهتمين بتاريخ الموحدين عن سرِّ اختيار هذا الشيخ،

(134) ع. عنان (2 :345).

(135) تاريخ الدولتين (20) نقلاً عن ترجمان العبر وابن الخطيب.

وعن السرعة التي تمّت بها بيعته في اليوم الموالي لوفاة المستنصر. فيذهب البعض إلى أنَّ سر ذلك يعود إلى حاشية البلاط الموحدي حتى يستمروا في تسيير شؤون البلاد حسب هواهم مع هذا الشيخ كما فعلوا مع سلفه الصبي. لا سيما أنَّ هذا الشيخ عرف ببعده عن المهمات السياسية وقلّة دربته فيها، فكان أقرب إلى الصلاح والزهد منه إلى الدهاء السياسي. وقد وصفوه بأنَّه كان «.. صوَّاماً قوَّاماً، مجتهداً في دينه، شديد البصيرة في أمره، قوي العزيمة، شديد الشكيمة، لا تأخذه في الحق لومة لائم، أرطب الناس لساناً بذكر الله، وأتلاهم لكتاب الله»[136] وأنَّ سيرته تلك جعلت الكثير يتوقعون منه أنَّه إذا وصلَ «الخلافة» فسوف «يملأ الأرض خيراً وعدلاً، وتزكو الأرض، وتخرج بركاتها، وترسل السماء مدرارَها بيمن نقيبته، وحسن سيرته، وحميد سريرته»[137] وتلك بقايا من عقيدة الموحدين في الإمام أو المهدي. ولكن واقع الحال مع هذا «الخليفة» كان عكس ما توهموا فيه: فلم يكتب له طول البقاء، ولم يعم الأرض في عهده الرخاء. وكان أوَّل «خليفة» موحدي تكون نهايته بدايةً لمآسي أخرى تتلوها؛ فقد كان أوَّل من خلع وقتل بعد ذلك حتى أصبحت لفظة «المخلوع» لقباً له. ويبدو أنَّ طيبة هذا الرجل وبعدَه عن الدهاء السياسي مما عجّلا بإزالته ونهايته. وكان من أول أعماله محاسبة بعض المسؤولين عن تصرفاتهم المالية، كما أمر بإطلاق سراح الوزير بن يوجان الخصم اللدود للوزير ابن جامع صاحب الفضل على «المخلوع» في توليه منصب الخلافة.

وبعد أحداث ليس هنا مقام ذكرها وتفصيلها ثارت الأنـدلس ضدَّ مراكش بزعامة والي مرسية أبي عبدالله محمد فأعلن عن نفسه «خليفة» وتلقب بلقب «العادل». وبدأت دعوته في التوسع والانتشار حتى استجابت مراكش لدعوته وهو مقيم بالأندلس. واقتحم جماعة من الموحدين بلاط «الخليفة»

(136) المعجب للمراكشي (331).

(137) المصدر السابق.

وأجبروه على التنازل في شهر شوال من سنة 621 هـ. وبعد أيام قليلة داهمته جماعة ثانية وخنقوه حتى مات، ونهبوا قصره وسبوا حريمه. وهكذا ابتدأت الحلقات الدموية في بلاط الموحدين من أبناء عبد المؤمن بن علي. ولم يكن حظّ «الخليفة العادل» صاحب هذه البدعة الدموية بأحسن حظاً من سلفه «المخلوع» إذ كانت نهايته على أبشع صورة فقد شق عصا الطاعة في وجهه أخوه أبو العلاء إدريس في الأندلس مثلما فعل هو من قبل. واقتحم البلاط الموحدي وقتل «الخليفة العادل» وتلقب بلقب «الخليفة المأمون» وكان ذلك في شوال سنة 624 هـ.

وكان من الطبيعي أن يكون لتلك الأحداث انعكاس على إفريقية التونسية ما دامت هي ولاية تابعة للسلطنة الموحدية. وقد تجلّت تلك الأحداث ـ منذ البداية ـ في تعيين المسؤولين عن إفريقية.

ويذكر ابن خلدون سبباً طريفاً في تولية «الخليفة العادل» لوالٍ جديد على إفريقية، فبعد أن ثار في الأندلس وعبر المجاز إلى مراكش دخل عليه عبد الله عبّو ـ وهو في قصر المجاز ـ لتحيته ومبايعته فسأله عن أحواله. وكان جوابه أن قال له:

حال متى علم ابن منصورٍ بها جاء الزمان إليه منها تائبا

فتأثر «الخليفة العادل» لإجابته إذ التقت في ذلك الجواب رغبتان:

الأولى: أنّ «الخليفة العادل» كان في حاجة ماسة إلى كسب الأنصار في أقطار المغرب العربي وإفريقية بعد أن وجد له أنصاراً في الأندلس.

الثاني: أن عبدالله عبّو كان صاحب طموح في الولاية على إفريقية واستعادة مجد والده عبد الواحد بن أبي حفص الذي ناضل هو وأبوه من أجل تركيز السلطنة الموحدية دون أن يلقوا الجزاء الملائم من البلاط الموحدي.

ولكن هل يكفي ذلك لتضميد تلك الجراح التي لم تشمل أبناء أبي

حفص فقط بل شملت أهل الشورى من ذوي الحلّ والعقد من مشيخة الموحدين في إفريقية؟

إنَّ تعيين عبدالله عبّو على إفريقية حسب تلك الصورة الارتجالية والانتهازية سوف لا يكون له أي ضمان في استقرار أوضاع إفريقية وعودة الهدوء إليها، والتفاف مشيخة الموحدين حول الوالي الجديد على إفريقية.

تعيين المسؤول
بين رغبة القمة ورضى القاعدة

إنَّ تعيين عبدالله عبّو على إفريقية بالرغم من أنّـه من أبناء عبـد الواحد بن أبي حفص سوف لا يضمِّد الجراح التي سبَّبها البلاط الموحدي نظراً لموقفه من أبناء عبد الواحد أبي حفص رغم التضحيات الجسام والنضال الطويل اللذين قام بهما هو وأبناؤه في سبيل تركيز الدولة الموحدية وإرساء قواعدها.

وإنَّ المشاورات التي وقعت بعد وفاة عبد الواحد بن أبي حفص كانت تدور ـ أول الأمر ـ حول اثنين لم يكن عبد الله عبّو واحداً منهما؛ فقد اختلفت آراء أهل الحلّ والعقد ـ إذ ذاك ـ بين اختيار عبد الرحمان بن عبد الواحد وبين ابن عمه إبراهيم بن إسماعيل. ثمَّ اتَّفقت كلمتهم ـ آخر الأمر ـ على أبي زيد عبد الرحمان. وتمَّ حول ذلك إجماعهم. ويعني كلّ ذلك أنَّ تعيين عبدالله عبو سلِّط عليهم من فوق دون أن يكون لهم رأي فيه. وبذلك يكون من الصعب عليه أن يجد قوَّة من الأنصار يمكن له الاعتماد عليها إذا جـد الجدُّ يوماً مَّـا إذ لم يكن موجب لترشيحه للولاية على إفريقية إلاَّ ذلك البيت الشعري الذي قاله للسلطان العادل بقصر المجاز. وكان أوَّل عمل بادر به عبدالله عبو أن بعث إلى ابن عمه موسى بن إبراهيم الحفصي ليتولى ـ نيابةً عنه ـ تدبير شؤون إفريقية ريثما يرتب ـ هو ـ شؤونه مع البلاط الموحدي ويقدم إلى إفريقية. وقد ظلَّ موسى بن إبراهيم ينوبه في إفريقية حوالي ثمانية أشهر[138] إذ وصل هذا الوالي الجديد في السابع والعشرين من ذي القعدة

(138) العبر (6: 591).

سنة 623 هـ (نوفمبر 1294). وكان قبل ذلك قد بعث بأخيه أبي زكرياء يحيى ليهيء له الأمر ويستقبله الناس. وقد وصل أبو زكرياء هذا في شهر شعبان من نفس السنة.

أما عبدالله عبو فإنَّه واجه نوعاً من الصعوبات حتى قبل وصوله إلى عاصمة إفريقية؛ فقد اعترضته قبائل أولاد شداد تريد صدَّه عن مواصلة السير إلى مركز ولايته عندما كان متوجهاً إليها وهو ما يزال في جهات عنَّابة (بونة) فبعث بأخيه أبي زكرياء إلى تأديب أولاد شداد من ناحية، وإلى تهيئة استقباله في تونس استقبالاً رسمياً من ناحية أخرى. وقد أمكن لأبي زكرياء أن يقوم بالمهمتين فأدب أولاد شداد ثمَّ قدم إلى تونس في شعبان 623 هـ كما مرَّ ذكره قبل حين.

وفي شهر رمضان خرج أبو زكرياء ومعه مختلف طبقات الناس لاستقبال واليهم الجديد. وتمَّ التقاؤهم به في مدينة سطيف[139] ومن هناك توجهوا ـ جميعاً ـ إلى تونس. وكان أوَّل عمل إداري قام به عبد الله عبو هو تعيين أخيه أبي زكرياء على قابس وما والاها، ثمَّ تعيين أخيه الآخر إسحاق على الواحات الغربية من بلاد الجريد.

(139) العبر (6 :592).

يحيى بن غانية من جديد

لم يجابه عبدالله عبّو - في بداية ولايته - أولاد شداد فقط بل فوجيء بظهور يحيى بن غانية من جديد واكتساحه مناطق بجاية وبعض السواحل الأخرى من المغرب الأوسط. ولهذا عزم عبدالله عبو على مطاردته قبل أن يستفحل أمره ويشتد ساعده، ويتمكّن في بعض الجهات كما تمكن من قبل. وخرج عبدالله عبو في محلّة كبيرة يطارد يحيى بن غانية. وكانت سياسة هذا الأخير أن يتجنّب اللقاء والمجابهة مع والي إفريقية. وذلك ما ساعد عبدالله عبّو على استعادة بجاية ومليانة ومتيجة لنفوذه.

أمّا يحيى بن غانية فقد فضّل الاتجاه صوب سجلماسة متوغلاً في الفيافي والصحاري. ورأى عبدالله عبو أنّه من الحكمة عدم متابعة ابن غانية خوفاً من البعد والانقطاع، ومن تلك المراوغات التي أصبح يسلكها ابن غانية الذي كانت خطته أن يكتفي باكتساح المدن والقرى وسلبها ونهبها دون أن يعتزم الاستقرار فيها. وهكذا عاد عبدالله عبّو إلى عاصمة إفريقية بعد أن أبعد خطر ابن غانية من التمكن أو الاستفحال.

سلوك بني عبد المؤمن
يسبِّب انفصال إفريقية

كـان من غير المستبعد أن تستقرَّ أمور الوالي عبدالله عبو على تونس لو أنَّ هذه الولاية لم تكن مرتبطة بالبلاط الموحدي في مراكش، ولو لم تكن عرضة للتحولات والتدخلات من مركز البلاط الموحدي. وبـالفعل فـإنَّ تطورات الأحداث في هذا البلاط لم تمهل عبدالله عبو طويلاً إذ ظهر ثائر جديد من بني عبد المؤمن وفي الأندلس بالذات. وقد استطاع هذا الثائر الجديد أن يستبد بالأمر وأن يقتل «الخليفة» العادل الذي عيَّن عبدالله عبو والياً على إفريقية. وكان هذا الثائر الجديد هو أبا العلاء إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي؛ فقد شقَّ عصا الطاعة في وجه أخيه العادل وهو بالأندلس، وتلقب بلقب المأمون سنة 624 هـ (1226 م). وكانت نهاية «الخليفة» العادل مأساة فظيعة تمثل القساوة والوحشية إذ لم يكتف الثوار بخلعه وقتله كما سبق للسلطان المخلوع قبله بل مثلوا به وعذَّبوه، فما إن امتنع هذا «الخليفة» من خلع نفسه حتى بادر الثوار بقتله بوضع رأسه في خصة تفور بالماء، وشنقوه بعمامته حتى مات[140].

وكان تبديل «الخليفة» ـ خاصة على تلك الصورة الشنيعة ـ ذا تأثير كبير على إفريقية لا محالة؛ لأنَّ «الخليفة» الجديد سوف يطلب من ولاته في الأمصار والأقاليم أن يبايعوه. ويبدو أنَّ الموحدين في تونس أصبحوا غير

---

(140) ع. عنان (3: 365 عن روض القرطاس).

مرتاحين لهذا الارتباط مع نظام أصبح يعوم في الدم، واتجهت فيه سيوف الموحدين إلى صدور الأخوة يقتل بعضهم بعضاً. وكانت مجزرة «الخليفة» العادل ومن قتل بسبب الانشقاقات في البلاط الموحدي في مختلف الجهات من الأسباب التي دفعت موحدي إفريقية إلى التفكير في جدوى الارتباط الذي لم يجلب الخير ولم يأت بالاستقرار. ومهما اختلفتِ الآراء في البحث عن أسباب فكّ هذا الارتباط [141] فإنَّ الخلاف دبَّ عنيفاً بين والي إفريقية عبدالله عبو وبين أخيه أبي زكرياء يحيى نائبه في قابس.

ولعلَّ أقرب التبريرات التي تتماشى مع منطق الوضع النفسي بالنسبة لعبدالله عبّو هي أنَّ «الخليفة» المأمون ـ بعد أن أعلن عن نفسه «خليفة» ـ بعث إلى عبدالله عبو يطلب مبايعته، فامتنع هذا الأخير؛ لأنَّ «الخليفة» المقتول كان وليّ نعمته. ولعلَّ سرعة تطور الأحداث، وعدم استقرار الأوضاع في البلاط الموحدي شجَّعاه على اتخاذ ذلك الموقف. ولم يكن في وسع هذا «الخليفة» إلَّا أن بعث إلى أبي زكرياء بقابس يطلب منه المبايعة مقابل توليته على إفريقية كلها. وقبل أبو زكريا يحيى هذا العرض المقدم من «الخليفة» المأمون فبايعه وناصب العداء لأخيه عبدالله عبو.

وبادر أبو زكرياء يحيى بالتوجه إلى مدينة تونس خاصة بعد أن سانده في ذلك ابن مكّي كبير مشيخة الموحدين في قابس. واستعدَّ الأخوان للمجابهة. وكانت عامة الناس وأعيانهم إلى جانب أبي زكرياء يحيى؛ فقد انفضَّ الناس من حول عبدالله عبّو ـ وهو في جهة القيروان ـ وعاتبوه على مجابهة أخيه، وعزلوه عن ولاية إفريقية، وبعثوا إلى أبي زكرياء يحيى يعلمونه بذلك فوصلها ودخلها في الرابع والعشرين من رجب 625 هـ (1228 م). وأصبح بذلك أبو زكرياء يحيى صاحب إفريقية كلِّها. وظنَّ «الخليفة» المأمون أنَّ أبا زكرياء يحيى كان على صدق معه فبعث إليه من مراكش عمَّالاً ليعينهم

(141) انظر مثلاً: الفارسية (107) تاريخ الدولتين (21) البيان المغرب (3: 174) العبر (6:593).

في مختلف جهات إفريقية. أمَّا أبو زكرياء يحيى فكان له موقف آخر فردٌ أولائك العمَّال من حيث أتوا. وأخذ يستعدُّ لفكِّ الارتباط مع مراكش والانفصال عن السلطنة الموحدية.

أسباب الانفصال

إنَّ أسباب الانفصال ترجع - أساساً - إلى الوهن الذي أصاب سلطنة الموحدين حتى نجمت فيها الفتن الداخلية والثورات والاضطرابات. وبدأت الحركات الانفصالية تتضح شيئاً فشيئاً حتى في المغرب الأقصى نفسه بظهور بني مرين على مسرح تلك الحركات.

أمَّا حركة الاسترجاع الإسبانية فقد أخذ نطاقها يتسع يوماً بعد يوم بعد أن وجد المسؤولون عن تلك الحركة أكبر مساعد من بني عبد المؤمن أنفسهم على اقتطاع الأراضي الإسلامية من بلاد الأندلس وضمها إلى مملكة قشتالة أو مملكة أرغونة.

وإذا تركنا - جانباً - العوامل السياسية والعسكرية التي ساعدت على تقوية النزعة الانفصالية لدى أمراء إفريقية من بني حفص فإنَّ هنالك سبباً آخر أعظم وأشد إلى التمسك به والاستناد عليه في شرعية أبي زكرياء يحيى بن أبي حفص. وهو سبب يتصل - جوهراً - بالأسس والفلسفة التي بعثت على أساسها «الخلافة» الموحدية إلى الوجود.

وقد حصل هذا في عهد «الخليفة» المأمون الذي ثار ضدَّ أخيه العادل وأعلن «الخلافة» سنة 624 هـ (1226 م) وهو في الأندلس. ولكن الموحدين في مراكش - بعد أن ساندوه وبايعوه - قلبوا له ظهر المجن قبل عبوره من الأندلس إلى مراكش، وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر الذي تلقب بلقب

«المعتصم». وكان هذا الأخير فتى لا يتجاوز عمره ست عشرة سنة. وكان ردّ فعل «الخليفة» المأمون أن فكّر - جدياً - في القضاء على ذلك الانتقاض، وإزاحة ذلك «الخليفة» الفتى الذي نصّبه أعيان الموحدين في مراكش. وأخذ يبحث عن مناصر له ضدّ ابن أخيه فلم يجد إلاّ العدوّ التقليدي للمسلمين في الأندلس، وهو ملك قشتالة فتحالف معه وجدّد الهدنة. وكان هذا «الحليف العدو» هو «فردينادو الثالث» ملك قشتالة. وهل أبلغ من هذا الموقف زرايةً بقيمة الدولة، وإهانةً لشرف السلطة والسيادة عندما يستنجد المسؤول بعدوّه الذي يعمل على قتله في سبيل مناصرة موقوتة، وانتصار مزيف؟.

ولكن الذي حصل هو هذا. ورغم اختلاف المؤرخين في قيمة وكمية المساعدة العسكرية التي قدّمها «فردينـاندو الثالث» للخليفة المأمـون من خمسمائة جندي إلى اثني عشر ألفاً، فإنّ الحقيقة المرة تتمثل في ذلك التحالف مع المصرّين على الاستيلاء على الأندلس من الأعداء الدائمين التقليديين.

ولعلّ الأنكى من ذلك كلّه المعاهدة التي تمّت بين المأمون الموحدي وفرديناندو الثالث. وكان أهم بنود تلك المعاهدة يتمثل في ما يلي: [142].

1 - أن يتنازل المأمون الموحدي لفرديناندو الثـالـث عن عشرة من الحصون الإسلامية واقعة على حـدود الطرفين، وأن يكـون اختيار تلك الحصون من فرديناندو نفسه.

2 - بناء كنيسة في مدينة مراكش - عاصمة الخلافة - ليقيم فيها النصارى شعائرهم الدينية.

3 - ألاّ يقبل الموحدون إسلام أي نصراني. وإذا أظهر أي نصراني إسلامه فعلى السلط الموحدية أن تعيده إلى إخوانه ليتبينوا في أمره حسب الذي يرونه صالحاً. وعلى العكس من ذلك إذا تنصّر أحد المسلمين فإنّه

(142) انظر تفصيل ذلك في (2 :368) من عصر المرابطين الموحدين لعبدالله عنان.

يسمح له بذلك وليس لأحد الحق في إرجاعه إلى الإسلام.

4 ـ وفوق هذه الشروط فإنَّ الهدنة مع ملك قشتالة تفرض على «الخليفة» الموحدي المأمون دفع ثلاثمائة قطعة فضية.

ويبدو أن المعونة العسكرية التي قدمها ملك قشتالة إلى «الخليفة» الموحدي كانت مكونة من فرسان مختارين. وكان إخلاصهم للهدف البعيد الذي يرمي إليه ملكهم دافعاً بهم إلى أن يكونوا أبرز قوة في الهجوم الذي شنه المأمون على مراكش للاستيلاء عليها. وأن مهمتهم كانت تستهدف ـ أولاً وبالذات ـ يحيى بن الناصر المدعي للخلافة الموحدية.

ويتحدث صاحب البيان المغرب واصفاً ذلك بقوله: «.. وكان المأمون قد وصل من الاندلس بنحو خمسمائة فارس من الروم، وبمن كان معه من العرب والموحدين والجنود والحشود، فقصد الروم القبة الحمراء (مركز قيادة يحيى بن الناصر) فمزقوها، ووقعت الهزيمة على عساكر يحيى بن الناصر، وهرب فارّاً بنفسه، وهزمه عمه هزيمة فظيعة قتل فيها من الموحدين وأتباعهم من العرب وأشياعهم أُمَماً لا تحصى. وأمر بتعليق رؤوسهم مع كل شرافة من سور مراكش حتى ملأت الرؤوس أكثر شرافات السور. ولم يكتف المأمون بذلك بل عمد إلى تصفية رجالات الموحدين وأعيانهم بمراكش فتظاهر لهم بالأمان ودعاهم إلى الاجتماع به، والسلام عليه، وقبول مبايعتهم. فلما اكتمل جمعهم قال لقاضيه المكيدي:

ـ ما تقول يا فقيه في قوم بايعوا شخصاً، ثم نكثوا عليه وخلعوه. ثم قتلوه. ثم بعثوا بيعتهم هذه إليّ ثم أيضاً نكثوا عليّ؟.

فقال القاضي المكيدي:

ـ وجب عليهم القتل أجمعين، يا أمير المؤمنين.

ثم قرأ سورة «المنافقون» إلى أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها. والله خبير بما تعملون﴾.

فأمر المأمون بضرب كل رقاب الحاضرين وكانوا نحو مائة شخص. ودفنوا في حفير واحد. ثم وقع تتبع من بقي وقتلوا جميعاً كبيرهم وصغيرهم[143].

وانتشى المأمون بانتصاره وتنكيله، واعتقد أنه قضى على عناصر الفساد، واستأصل أسباب الشر حتى قال في ذلك منتشياً مفاخراً:

ففساده فيه الصلاح لغيره ... بالقطع والتعليق في الأشجار
ذكراهم ذكرى إذا ما أبصروا ... فوق الجذوع وفي ذُرَى الأسوار
لو عمّ حلم الله كافة خلقه ... ما كان أكثرهم مِن أهل النار[144]

وهكذا كانت عملية المأمون مع الموحدين عملية تصفية فعلية للقوة المناضلة أو للحزب الذي أسس تلك الدولة. وماذا كانت ترجو الممالك النصرانية في الأندلس أكثر من هذا؟ إن القوة التي كادت ترجح الكفة ضدهم وتقضي عليهم كانت قوة ذلك الحزب ـ حزب الموحدين ـ وهو في عنفوان شبابه، وشدة إيمانه وقوة اندفاعه. وأن أي قضاء على تلك «القوة» يعني ـ أساساً ـ إخلاء الجوّ أمام حركة الاسترجاع الإسبانية حتى تصفّى السيادة الإسلامية نهائياً من الأندلس. فهل يمكن أن نطلق على «الخليفة» المأمون لفظة «العميل» بلغة عصرنا الحديث؟ وماذا تعني «العمالة» غير أن يكون صاحبها مطية لتنفيذ أغراض ومخططات ـ ولو بعيدة المدى ـ حاصراً هدفه في مصلحة شخصية عاجلة على مصلحة الأمة كلها خدمة لعدوّ خارجي؟.

إن البناء السياسي لا تكتب له السلامة إلاّ إذا كان مستنداً على مقومات ذاتية سليمة لا على أسس خارجة عن تلك المقومات. ولعل ما أستند إليه المأمون الموحدي من مساعدة تلقاها لا من حليف صديق بل من مناوىء عدو خير مثال على ذلك؛ فأية حرمة تبقى لدى جماهير الشعب عندما ترى دخوله

(143) البيان المغرب (3: 265).
(144) البيان المغرب (3: 266).

لمراكش وانتصابه «خليفة» فيها إنما كان بحراب النصارى الإسبان لأنه لا يملك السند الشعبي الذي يعتمد عليه.

ثم ماذا يعني دخول الجيوش الأجنبية لعاصمة الدولة؟ أليس في ذلك مس بسيادتها، وانتهاك لحرمتها، وهتك لمهابتها؟.

ثم هذا الشرط الذي اشترطه فرديناندو الثالث من بناء كنيسة مسيحية في عاصمة «الخلافة» الموحدية. ألا يعني ذلك ما يهدف إليه فرديناندو من غايات بعيدة، ومن نيّة توسعية لا يقتصر مداها على الأندلس فقط وتحويل مساجدها إلى كنائس بل يمتد ذلك إلى ما وراء حدود الأندلس من بلاد المغرب الإسلامي.

إن بناء كنائس في المدن الإسلامية لا ينافيه الدّين تماشياً مع تسامحه المعروف. ولكن بناء كنيسة في مراكش على تلك الصورة، وحسب تلك الشروط، هو الذي يثير استغراب المتتبع لأحوال الدولة الموحدية وظروفها التاريخية، وهي تسرع إلى السقوط في الهاوية.

وليس هذا فقط ما يدعو إلى الاستغراب من سلوك «الخليفة» المأمون. ذلك أن موقفه من الموحدين لم يشمل ذواتهم فقط بل تجاوزها إلى مبادئهم وعقيدتهم الإمامية نفسها. فقد صمم هذا «الخليفة» على التخلص من الدعوة الموحدية وإلغائها. ولكن في سبيل أي شيء كان ذلك. وماذا كانت نتائج ذلك الإلغاء؟.

المأمون يتنكّر
لمبادىء الدولة الموحدية

كانت الخطوة الثانية التي تقدم بها المأمون في تصفية الموحدين هي إبطال الدعهوة الموحدية التي بنيت على الإمام المعصوم والمهدي المنتظر. وبشيء من التجوز يمكن القول ـ منذ البدء ـ إن ما أقدم عليه المأمون كان عملاً ثورياً في صلب العقيدة الموحدية، وأن القول بعصمة الإمام وبالمهدي المنتظر تتنافى مع أصول العقيدة الإسلامية الصحيحة. وكانت الفكرة تخامر ذهن والده «المنصور» إلّا أن الظروف لم تساعده على إبرازها وتحقيقها حتى أدركه الأجل. وقد تبدو ـ في موقف المأمون ـ إيجابية وشجاعة. ولكن الناقد السياسي لا يمكن أن يعتبر تلك الإيجابية الساذجة كافية لتغطية ما في الموقف من سلبيات قوية، نافذة المفعول؛ لأن التغيير الثوري ينبغي أن يكون قائماً على بديل يستطيع أن يتدارك الخلل، ويداوي العلل، ويملأ الفراغ، وأن نجاح الخطة ينبغي أن يكون معتمداً على القوى المتماسكة والظروف الملائمة.

وإذا كان «الخليفة» المنصور ـ وهو واسطة عقد الدولة الموحدية ومن أبرز قادتها ـ لم يستطع أن يقوم بذلك التغيير ـ نظراً لخبرته وبعد نظره السياسي وسبره لما يترتب على ذلك من نتائج ـ فكيف يحصل ذلك من «خليفة» نصّبه العدوّ الأول للدولة على عرش «الخلافة»، والأحوال السياسية للسلطنة في غاية الاضطراب والوهن والانحلال؟.

إن التغيير الثوري لا يعني مجرّد التنكيل، وضرب الرقاب، والاستناد

على القوى الخارجية؛ فمهما بلغت درجة التنكيل والعنت فإن غاية ما تصل إليه هي تغطية لهيب النار دون القضاء على الجمر الموجود تحت الرماد.

وهكذا كان حال «الخليفة المأمون». فقد كان جلّ اعتماده على النجدة الإسبانية التي أتى بها معه من الأندلس. وقد لازمته إلى أن أدركته الوفاة. وكانت تلك «النجدة» تبعث الرعب والفزع حيثما اتجهت وأينما حلّت. وكانت عمدته في إصداره وإيراده كما يقول ابن عذاري[144م] الذي يصف مدى الرعب الذي يحدثه قدوم جنود الإسبان بقوله: فلما وصل المأمون مع أجناده إلى «أم الربيع» جرّع كأس المنية قبل بلوغ الأمنية فشرب المسلمون الخائفون من الروم سلسبيلاً. ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً[145].

ومهما يكن فإن «الخليفة المأمون» ـ بعد استيلائه على مراكش واستقراره فيها ـ اتخذ موقفه من مؤسس الدولة الموحدية فنفى عنه العصمة، وعدّل من صيغة الأذان، فبعد أن كانت تختم ببعض الكلمات البربرية أصبحت تختم بـ «ولله الحمد» وما أشبه ذلك[146] وأصدر في ذلك منشوراً بخط يده بعث به إلى مختلف الأمصار يقول في بدايته:

«.. من عبدالله إدريس أمير المؤمنين إلى الطلبة والأعيان والكافة ومن معهم من المؤمنين والمسلمين، أوزعهم الله شكر أنعمه الجسام، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام..».

ثم يقول فيها:

«.. ولتعلموا أنا نبذنا الباطل، وأظهرنا الحق. وأن لا مهدي إلاّ عيسى بن مريم، وما سمّي مهدياً إلا أنه تكلم في المهد. وتلك بدعة قد أزلناها.

(144م) البيان المغرب (3 :267).
(145) المصدر نفسه.
(146) المصدر نفسه.

والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها. وقد أزلنا لفظ «العصمة» عمّن لا تثبت له عصمة. فلذلك أزلنا عنه رسمه، فتسقط وتبتّ، وتمحى ولا تثبت. وقد كان سيدنا المنصور ـ رضي الله عنه ـ همّ أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرقع للأمة الخرق الذي رقّعنا، فلم يساعده لذلك أمله، ولا أجلّه إليه أجله. . ».

ثم يتحدث عن العصمة التي كان المهدي بن تومرت يتمسك بها فيقول:

«. . وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه. . أفّ لهم قد ضلوا وأضلّوا. ولذلك ولّوا وذلّوا. . اللهم اشهد أننا تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار، ونعوذ بك ـ يا جبار ـ من فعلهم الرثيث، وأمرهم الخبيث، إنهم في المعتقد من الكفار»[147].

والقارىء للرسالة ـ دون أن يعرف الظروف والأسباب التاريخية ـ قد يبهره ما يبدو فيها من مخايل الصدق والإيمان، ومن الغيرة على أصول الدين، ومبادىء الإسلام. ولكنه إذا استقرأ الظروف والأسباب فسوف تناله الدهشة من هذا التناقض بين القول والفعل، وبين إعلان التمسك بمبادىء الدين وفعل ما يأباه الدين.

ولعل مما يلفت النظر في تلك الرسالة هو إثبات «المهدية» لعيسى عليه السلام، ونفيها عن ابن تومرت من شخص اعتمد على قوة نصرانية لتثبيت أقدامه على عرش «الخلافة الموحدية»، وسلّم للنصارى عشرة حصون يختارونها في الأندلس الإسلامية، وأباح لجنودهم أن يفتكوا بمدينة مراكش وسكانها المسالمين من المسلمين إرضاء للنصارى وجبراً لخاطرهم لأن خصمه السياسي (يحيى بن الناصر) استطاع أن يهاجم المدينة المذكورة، وأن

---

(147) انظرها كاملة في البيان المغرب (3 :268).

يهدم الكنيسة التي بناها المأمون طبقاً لما اشترطه عليه فرديناندو الثالث[148].

وإذا أضفنا إلى كل ذلك أن أم المأمون كانت رومية نصرانية، وأن البعض من أحفاد عبد المؤمن بن علي التجأوا إلى مملكة قشتالة وتنصروا، وإن البعض منهم كان متنصراً منذ عهد بعيد ولم يعلن عن تنصره إلا عندما سنحت له الفرصة، إذا أضفنا كل ذلك إلى ما تقدم من أعمال المأمون فإن تساؤلات عديدة يمكن أن تثار حول الأسباب التي دعت المأمون الموحدي إلى استئصال الموحدين، وإلى الإعلان عن بطلان عصمة المهدي، وإلغاء عقيدة المهدي المنتظر.

ومهما يكن فإن المأمون الموحدي أقدم على كل ذلك ـ بقطع النظر عن الدوافع والأسباب ـ ولم يعدم من الشعراء من يسجل له ذلك الحادث كمنقبة من مناقبه التي تستحق الإشادة والمدح. من ذلك ما قاله أبو الحسن الرعيني في قصيدة طويلة:

تتيه بك الدنيا ويزهو بك الملك ... ويعزى إليك الفضل والدين والنسك
وتتّسِقُ الأمداح فيك تتابعا ... بباهِرِ أوصافٍ كما انتظم السلك
وتشهد أملاك الزمان إذا رأوا ... سناك الذي يجلو الدجى أنك الملك
وما ذاك إلاّ أن سبقت وقصّروا ... وأدلجت إذ باتوا، وحققت إذ شكّوا
أنال بك الإسلام أقصى مراده ... وقد سعد التوحيد إذ شقي الشرك[149]

وقال شاعر آخر يمدحه أيضاً:

وأنتم بني المنصور أولى بخطّة ... هي الملك إذ طرّزتم مجدها طرزا
ألا إنما في كل حال لك العلى ... فدم يا أباها تكسب المجد والعزّا
فأنت لها ما دمت في الأرض إنما ... نراك عليها من نوائبها حرزا[150]

---

(148) البيان المغرب (3 :281).
(149) البيان (3 :268).
(150) البيان (3 :269).

وإذا لاحظ البعض أن موقف المأمون الموحدي من الدعوة الموحدية لم يثر ضجة ولا صدى، ولم تترتب عليه أية معارضة أو بوادر انتقاض[151] فإن مرد ذلك ـ فيما نحسب ـ يعود إلى شدة الصدمة التي أصابت الناس بالتدلّي والانحطاط اللذين أصبح عليهما البلاط الموحدي، وإلى الغلوّ في الاعتساف والتنكيل الذي أخذ به المأمون كلّ من حدثته نفسه بالتمرد والانتقاض، وما صحب ذلك من قساوة بعيدة كل البعد عن الرأفة والإنسانية. وذلك مبدأ اتخذه المأمون شعاراً له لا يحيد عنه. وكان يراه السبيل الوحيد للارتداع وحسم الشغب والانتقاض. ولا أدلّ على ذلك ممّا حصل في بعض الوقائع بينه وبين أخيه (يحيى بن الناصر) خاصة بعدما انتصر عليه وعلّق على أسوار مراكش أربعة آلاف رأس من أتباع يحيى بن الناصر. وكان الوقت قيظاً فاشتدت رائحة الجيف والنتونة على الناس. وعندما اشتكوا إلى المأمون طالبين إزالة تلك الرؤوس النتنة قال لهم المأمون: إن هامات المحاربين هي إحراز لهم، وروائحها عطرة عند المحبّين، ونتنة عند المبغضين[152].

وقد قام المأمون بتلك الأعمال الفظيعة كي يبقى ست سنوات في الحكم يخوض الدماء، ويفتك بالأبرياء، ويزيد من تعميق الخلاف بينه وبين الرعية، ويعمل على تمزيق سلطنة أجداده الموحدين. وقد جدّت في تلك السنوات الستة (624 - 630هـ) عدة أحداث كان من أهمها الانفصال النهائي لإفريقية عن الموحدين.

---

(151) ع. عنان (2 :372).

(152) البيان (3 :271).

أبو زكرياء الحفصي
يحقق انفصال إفريقية

يلخص ابن خلدون في كتابه «العبر» الأسباب التي اعتمدها أبو زكرياء الحفصي في انفصاله عن «الخلافة الموحدية» في مراكش بقوله:

«.. لما اتصل به (أبي زكرياء الحفصي) ما أتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش وخصوصاً من هنتاتة وتينملّل، وكان منهم أخواه: أبو محمد عبد الله المخلوع وإبراهيم. وأنه أشاع النكير على المهدي في العصمة، وفي وضع العقائد، والنداء للصلاة باللسان البربري، وإحداث النداء للصبح، وتربيع شكل الدرهم، وغير ذلك من سنته، وأنه غيّر رسوم الدعوة، وبدّل أصول الدولة، وأسقط اسم الإمام من الخطبة والسكة وأعلن بلعنه ووافق بلوغ الخبر بذلك وصول بعض العمال إلى تونس بتولية المأمون فصرفهم وأعلن بخلعه سنة ست وعشرين»[153].

وكان أبو زكرياء على جانب من الدهاء والحكمة وبعد النظر، فسلك سبيل التدرج وطيّ المراحل؛ ففي أول الأمر اكتفى بالإعلان عن خلع الخليفة المأمون. ولكنه ـ في نفس الوقت ـ أعلن عن مبايعة خصمه يحيى بن الناصر الذي كان ـ إذ ذاك ـ محتمياً بقبائل هسكورة، معتصماً بجبالها. فهل كان هذا الموقف من أبي زكرياء الحفصي يمثل آخر أمل في بني عبد المؤمن أم كان سياسة منه وجسّاً لنبض الموحدين الموجودين حوله في إفريقية؟.

---

(153) العبر (6 :594).

إن الموقف الذي اتخذه أبو زكرياء فيما بعد قد يساند ـ ولو شكلياً ـ الجانب الأول من ذلك التساؤل؛ لأن أبا زكرياء الحفصي ظل مدة يترقب انتصار يحيى بن الناصر وتغلّبه على «الخليفة المأمون» عسى أن يتدارك الوضع المتدهور الذي أصبحت عليه «الخلافة الموحدية». إلّا أن هذا الانتظار لم يستمر كثيراً لأن الأخبار والمعلومات التي كانت ترد على أبي زكرياء الحفصي من المغرب الأقصى كانت تتواتر بأن يحيى بن الناصر لا يعتمد عليه، وأنه كان عاجزاً عن تغيير تلك الأوضاع السيئة، وأنه لا أمل في انتصاره على «الخليفة المأمون». وهكذا يكون أبو زكرياء الحفصي قد خاب أمله في يحيى بن الناصر كما خاب في المأمون من قبل. ونتيجة لتلك الخيبة المزدوجة خطا أبو زكرياء الحفصي الخطوة الثانية فأغفل يحيى بن الناصر من خطبه واقتصر على ذكر الإمام المهدي «وتلقب بالأمير ورسم علامته به في صدور مكتوباته» كما يقول ابن خلدون[154] وظل على ذلك حوالى ثماني سنوات إلى سنة 634هـ عندما جدد البيعة لنفسه، وأثبت ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الإمام مقتصراً على التحلية بلقب الأمير. وحاولت حاشيته ـ على لسان بعض الشعراء ـ الإيعاز له بالتحلّي بلقب «أمير المؤمنين» فامتنع من ذلك إلى آخر حياته. ذلك أن بعض الشعراء افتتح بعض قصائده بقوله:

ألا صل بالأمير المؤمنينا فأنت بها أحقّ العالمينا

فزجرهم عن ذلك وأبى عنه[155]. ويذكر الزركشي أن أبا زكرياء الحفصي عقب على ذلك بقوله: ما للشعراء والدخول في هذا الفضول[156].

---

(154) المصدر السابق.

(155) العبر ((6 :595) وجاء صدر البيت في الزركشي (ألا صلني أمير المؤمنينا).

(156) تاريخ الدولتين (27).

أبو زكرياء الحفصي
يوسّع دائرة نفوذه

عندما أعلن أبو زكرياء الحفصي انفصاله عن «الخلافة الموحدية» كان في عز شبابه في سنّ السابعة والعشرين. وكان عليه أن يستجيب لمطامحه في بناء دولة مستقلّة جديدة. وكان أول عمل قام به هو استرجاع حدود إفريقية إلى ما كانت عليه في عهد الدولة الصنهاجية الموحدة. ولهذا توجه إلى قسنطينة وناصبها الحصار مدة حتى استسلمت له، وقبض على واليها الموحدي (ابن أبي عبدالله بن يعقوب المنصور) بعد أن خرج إليه من قسنطينة الشيخ ابن علناس أحد بقايا الصنهاجيين وفاوضه في الأمر. ثم اتجه إلى بجاية وقبض على واليها الموحدي أبي عمران شقيق والي قسنطينة السابق[157] كما قبض على بعض زعماء الأعراب من مشائخ مرداس بن عوف والذواودة وبعث بهم جميعاً إلى المهدية حيث سجنوا بالمطبق[158]. ولم يكن أبو زكرياء قاسياً مع حفيدي يعقوب المنصور إذ يذكر ابن القنفذ أنه أسكنهما دارين جليلتين بتونس وجعل لكل واحد منهما راتباً بألف دينار ذهباً[159].

وهذا السلوك الذي انتهجه أبو زكرياء الحفصي مع الواليين السابقين

---

(157) الفارسية لابن القنفذ (108).

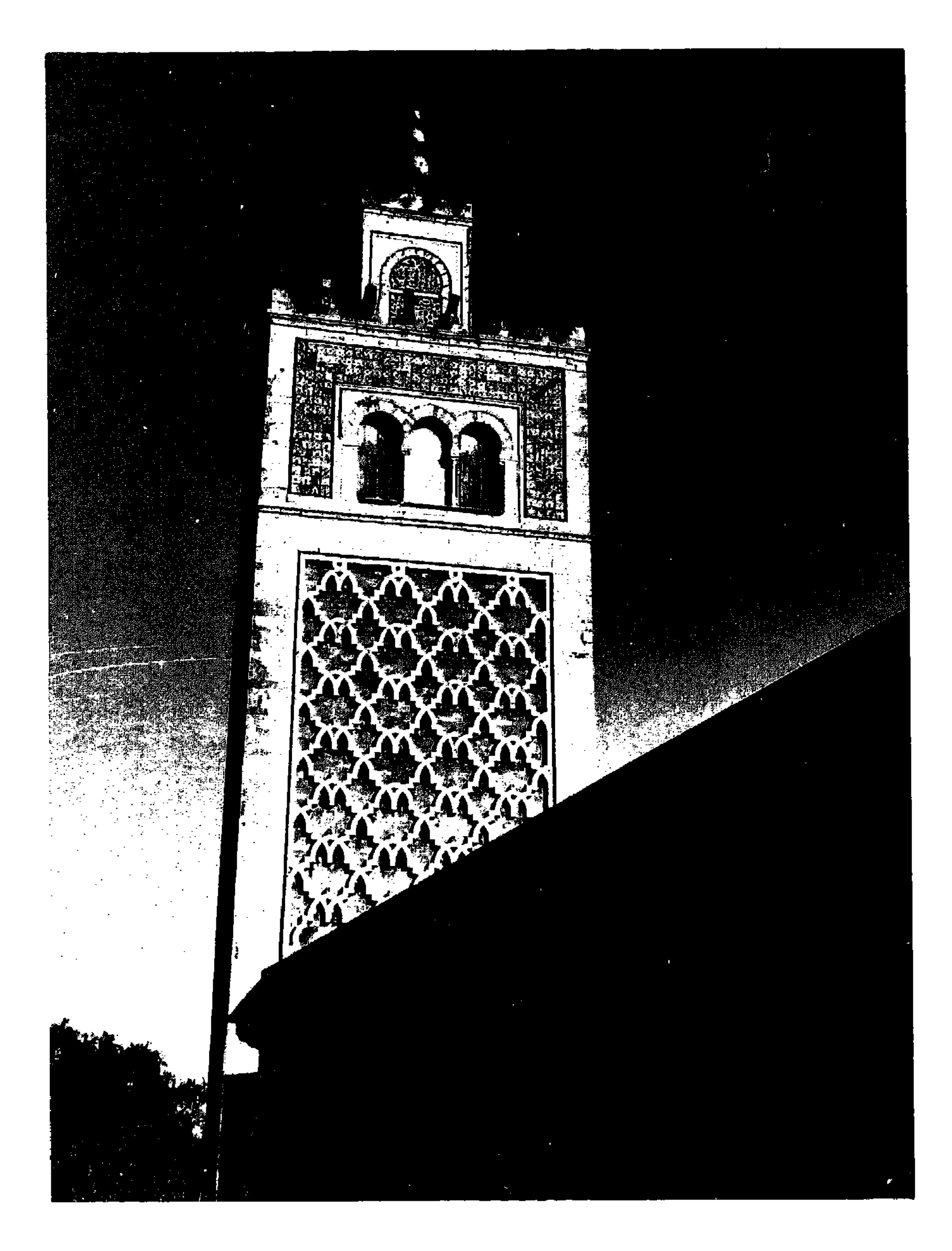
(158) العبر (6 :595 - 596).

(159) الفارسية (108).

على قسنطينة وبجاية هو السلوك العام الذي انتهجه منذ بداية تأسيس دولته: فقد كان يعمل على «استجلاب محبة الناس بالمعاملة المشكورة والإحسان» كما يؤكد ذلك ابن القنفذ في كتابه «الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية»[160].

---

(160) المصدر السابق.



جامع القصبة بتونس العاصمة بناه أبو زكرياء الأول

(*) أمدنا بهذه الصور المعهد القومي للآثار فشكراً لمديره الدكتور محمد حسين فنطر ومساعديه.

نهاية بني غانية

إن استيلاء أبي زكرياء الحفصي على جهات قسنطينة وبجاية كان يمثل زيادة تحدّيه لمركز «الخلافة الموحدية» لأنه كان لا يخشى ردّ الفعل منها نظراً للوضع السيء الذي كانت فيه، ولا تحسد عليه.

ولكن الذي كان يخشاه أبو زكرياء الحفصي ويتوجس الخيفة منه إنما هو يحيى بن غانية الذي كان ما يزال معتصماً بالفيافي والجبال، ولا يكفّ عن الظهور وبث الاضطراب والفوضى كلما سنحت الفرصة أو أحسّ بضعف السلطة في إفريقية. ولهذا كانت سياسة أبي زكرياء الحفصي أن يبادر بمطاردة يحيى بن غانية تدليلاً منه على أن الوضع الجديد في إفريقية لا يشكو الضعف أو الوهن، وأملاً منه في القضاء النهائي على الخصم التقليدي لكلّ من تولّى شؤون إفريقية من الموحدين.

وبعد مطاردات عديدة ليحيى بن غانية وأنصاره من أعراب بني هلال وسليم وغيرهم من طرابلس الغرب إلى ورقلة بالجنوب الجزائري هلك يحيى بن غانية في مكان مّا لم يحدده المؤرخون[161] وبذلك انقطع عقبه فانقطع ذكره ومحا الله آثار فتنته من الأرض حسب تعبير ابن خلدون[162].

وبالقضاء النهائي على يحيى بن غانية سنة 631هـ أصبح الأمير

(161) انظر مثلاً العبر (6: 596).

(162) المصدر نفسه.

أبو زكرياء الحفصي متولّياً على إفريقية دون منازع، وامتدت رقعة نفوذه من مدينة الجزائر غرباً إلى ما وراء طرابلس شرقاً. وبذلك استولى على أكبر نصيب من تركة «الخلافة الموحدية» كما أصبح محط أنظار المغرب الإسلامي باعتباره أكبرَ قوة فيه.

فهل ستخلف الدولة الحفصية «الخلافة الموحدية» في السيادة على المغرب الإسلامي؟ وهل سيكون لهذه الدولة الجديدة من المناعة وأسباب القوة، وإحكام التنظيم ما يؤهلها لتحقيق تلك الآمال؟.

لقد ظل الأمير أبو زكرياء الحفصي سلطاناً على إفريقية ما يناهز العشرين سنة من سنة 626 هـ إلى 647. وقد جرت في تلك السنوات أحداث أليمة جدّاً في المغرب الإسلامي جعلت من أبي زكرياء الحفصي محط الأنظار ومعقد الآمال من «الرؤساء» المتنافسين والمتنازعين في كل من المغرب والأندلس فبعثوا بالبيعة والتبعية، وطلبوا منه المعونة والنجدة ضد أعداء من الداخل والخارج على حدّ سواء.

فهل سيكون أبو زكرياء الحفصي في مستوى تلك الآمال والتطلعات من مختلف أقطار المغرب الإسلامي وخاصة من الأندلس؟.

أبو زكرياء الحفصي
والتشتت في الأندلس

إن التدهور الذي أصاب «الخلافة الموحدية» جعلها تركة مهملة يتنافس الطامعون على اقتسامها وانتهابها. وكانت مأساة الأندلس ـ على الخصوص ـ أفظع ما نتج عن مأساة تلك الدولة. وقد أعان على ذلك عاملان اثنان:

العامل الأول اندلاع الثورات في الأندلس بغية اقتسامها بين «زعماء» أندلسيين شقوا عصا الطاعة في وجه «الخلفاء» الموحدين بدايةً من عهد المأمون المتحالف مع ملك قشتالة. وكان من أبرز هؤلاء الثوار أبو عبدالله محمد بن يوسف المنحدر من سلالة بني هود أصحاب سرقسطة في عهد ملوك الطوائف. ومنهم زيّان بن أبي الحملات بن مردنيش الذي اتخذ بلنسية عاصمة له. ومنهم ـ أيضاً ـ محمد بن الأحمر الذي أسس ـ فيما بعد ـ مملكة غرناطة[163].

أما العامل الثاني فهو تحالف مملكتي قشتالة وأرغونة على تصفية الوضع الإسلامي في الأندلس بعد الانهيار الذي أصيبت به «الخلافة» الموحدية، وانعدام قوة في المغرب الإسلامي تستطيع نجدة مسلمي الأندلس مثلما حصل في عهد المرابطين والموحدين في أول نشأتهم.

وفي هذه الظروف السيئة بالمغرب الإسلامي اتحدت نوايا ممالك

(163) الحروب الصليبية للمؤلف (178 - 179).

إسبانيا النصرانية على مهاجمة تلك الإمارات الإسلامية المتنازعة في الأندلس؛ فكانت إمارة بلنسية هدفاً لمطامع «خايم الأول» ملك أرغونة، فأخذ يكيل لها الضربات، ويشنّ عليها الغارات حتى استسلمت بلنسية سنة 636 هـ (1238 م). ثم تتابع سقوط مدن تلك الإمارة الواحدة بعد الأخرى. وانتهى وضع بلنسية بطرد جميع المسلمين الموجودين فيها، وفرّوا ملتجئين إلى غرناطة.

أما «فرديناندو الثالث» ملك قشتالة فكان هدفه الوسط والجنوب حيث يوجد محمد بن هود في غرناطة وقرطبة. وابتدأ «فرديناندو الثالث» بمهاجمة قرطبة. وبعد حصار طويل استسلمت عاصمة بني أمية إلى ملك قشتالة سنة 633 هـ (1236م) وخرج أهلها فارّين إلى الجنوب.

أما محمد بن الأحمر - الذي كان مسيطراً على مناطق جيّان ووادي آش - فقد انتهز فرصة هزيمة محمد بن هود ليضم إليه غرناطة وما حولها في جنوب الأندلس. وخاف «فرديناندو» أن يقوى نفوذ محمد بن الأحمر ويتجمّع المسلمون الهاربون لديه فبادر بالتوجه إليه، وتسديد الضربات نحوه. وكان حرص ابن الأحمر على سلامته وتكوين إمارته دافعاً به إلى الاتفاق مع «فرديناندو» ومصالحته. وقد تم ذلك سنة 643 هـ على أن يسلّم لملك قشتالة مدينة جيّان في مقابل الاعتراف به ملكاً على غرناطة وما حولها. بل الأنكى من ذلك أنه تحالف معه ضدّ بقية المسلمين في الأندلس.

وعلى أساس هذا التحالف المقيت اتجه «فرديناندو» بهجماته ضدّ إشبيلية. وقد مثلت هجماته تلك وحدة الممالك الإسبانية ضدّ مسلمي الأندلس إذ كان في جيش (فرديناندو) وليّا عهد كل من البرتغال وأرغونة. وحاصرت الجيوش الإسبانية مدينة إشبيلية ثمانية عشر شهراً أبدى فيها المسلمون ضروباً من الصبر والشجاعة دون مدد وارد ولا إعانة مساعد مما جعل صبرهم ينتهي بعد ذلك الثبات الطويل فاستسلمت إشبيلية سنة 646 هـ (1248 م) وخرج من فيها من المسلمين ملء العين دمعاً والقلب حسرة. ثم

تابع «فرديناندو» زحفه إلى مدينة قادس.

أما البرتغال فكان نصيبها الأراضي - الإسلامية - التي بقيت بغرب الأندلس. وبذلك لم تبق إلا مملكة غرناطة وما حولها تحت سيادة ابن الأحمر في شريط صغير بالجنوب الشرقي من شبه جزيرة إيبيريا، يمتدّ من ألبيرة شرقاً إلى رندة غرباً، محصور بين الوادي الكبير والبحر الأبيض المتوسط في مسافة يبلغ عرضها مرحلة واحدة[164].

(164) المصدر السابق (179 - 180).

موقف أبي زكرياء الحفصي

فماذا كان موقف أبي زكرياء الحفصي من مأساة الأندلس؟ وماذا كان موقف أصحاب تلك المأساة من أبي زكرياء الحفصي؟.

أما أصحاب تلك المأساة الذين اشتدّ عليهم الكرب من بعضهم ضد البعض، ومن أعدائهم، فقد كانوا يؤملون في أبي زكرياء الحفصي أن يكون منقذهم وملاذهم بعد أن يئسوا من بني عبد المؤمن بن علي وهو الموقف الذي لخصه ابن خلدون بقوله: «.. وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم، وظهر أمر بني حفص بإفريقية فأمّل ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الأمير أبا زكرياء، وبعثوا إليه بيعتهم»[165].

وكان القصيد الذي ألقاه ابن الأبّار بين يدي أبي زكرياء الحفصي خير ما يصف المأساة التي أصبحت عليها الأصقاع الإسلامية بالأندلس؛ فقد بعث ابن مردنيش إلى تونس وفداً يستنجد أبا زكرياء الحفصي عندما اشتد عليه الضغط من ملك أرغونة. ولم يكتف ابن مردنيش بذلك فبعث إلى أبي زكرياء الحفصي بولائه وبيعته. وانتظم في مدينة تونس حفل كبير تليت فيه بيعة ابن مردنيش، صاحب بلنسية. وألقى في ذلك الحفل ابن الأبّار قصيدة مطوّلة يستحث فيها أبا زكرياء الحفصي، ويصف فيها ما أصبح عليه مسلمو

(165) العبر (6 :601).

الأندلس من ضعف وتقهقر أمام العدوّ. ومما جاء في تلك القصيدة قول ابن الأبار:

أدرِكْ بخيلك، خيلِ الله، أندلسا   إنّ السبيــل إلى منجــاتهــا درسـا
وهبْ لها من عزيز النصر ما التمست   فلم يزل منك عـزّ النصر ملتمسـا
وحـاش ممـا تعـانيـه حشـاشتهـا   فـطالما ذاقت البلوى صبـاحَ مسـا
يـا للجزيـرة أضحى أهلهـا جَـزَراً   للحـادثات، وأمسى جَـدّهـا تعسـا

ويستمرّ ابن الأبّار في وصف ما لحق مدائن المسلمين وساكنيها. ثم يستنجد أبا زكرياء الحفصي بقوله:

صِلْ حِبْلها ـ أيها المولى الرحيمُ ـ فما   أبقى المراسُ لها حبلاً ولا مرسـا
وأحيِ ما طمست منها العداة كما   أحييت من دعوة المهديّ ما طمسا
أيـام سـرت لنصـر الحق مستبقـا   وبتّ من نور ذاك الهدي مقتبسـا

* * *

هــذي رسائلهـا تدعـوك عن كثب   وأنت أفضــل مـرجــوّ لمن يئسـا

* * *

ويختم القصيدة بقوله:

يـا أيها الملك المنصـور أنت لها   عليـاء تُوسِـعُ أعداء الهـدى تعسا
وقـد تـواتــرت الأنبـاء أنــك من   يحيـي بقتل ملوك الصفر أنـدلسـا
طهّــر بـلادك منهــا. إنهم نجس   ولا طهارة ما لم تغسل النجسا[166]

ولم تكن بلنسية فقط هي التي بايعت أبا زكرياء الحفصي وطلبت منه المعونة والمدد، فقد بايعه ـ كذلك ـ أهل إشبيلية والكثير من أمصارها[167]

---

(166) أزهار الرياض للمقري (3 :207 - 208) والديوان ص 395 - 400.
(167) العبر (6 :611).

كما بايعه أهل المرية[168]حتى محمد بن الأحمر بعث بمبايعته إلى أبي زكرياء الحفصي بعد وفاة الرشيد الموحدي[169].

وكان موقف أبي زكرياء الحفصي من استنجاد الأندلس به وطلبها المعونة منه موقفاً لا يتلاءم مع خطورة الوضع الذي كانت عليه الأندلس مما لم يأت بأية نتيجة إيجابية لتدارك ذلك الوضع لأنه لم يكن لأبي زكرياء من القوة والتمكّن ما يجعله في منزلة المنقذ الفعلي لحالة التدهور في الأندلس. إذ لا يتمثل الإنقاذ إلّا بالقضاء على أصل الفساد وبؤرة الضعف. ولا يحصل ذلك إلّا باقتحام الأندلس، والاستيلاء عليها، وإزالة رؤوس الشغب والشقاق فيها. وهو ما لا يستطيعه أبو زكرياء الحفصي. وغاية ما فعل ـ عندما استنجد به ابن مردنيش ـ أن بعث إليه أسطولاً مشحوناً بمدد الطعام والأسلحة والمال بقيادة أبي يحيى بن أبي حفص. وكانت قيمة ما بعث به مائة ألف دينار[170]. ولكن هذا المدد لم يصل إلى المحصورين في بلنسية لأنه لا توجد معه قوة تفك ذلك الحصار إلى أن استسلمت المدينة وخرج منها ابن مردنيش. كما بعث أبو زكرياء الحفصي بمدد آخر أثناء حصار إشبيلية. ولكن المدد استولى عليه العدو كما استولى على إشبيلية فيما بعد. وفوق هذا وذاك فإن القضية ليست قضية مدد بقدر ما هي قضية فساد أوضاع وانعدام قيم. إذ بينما كان أهل إشبيلية يستنجدون بأبي زكرياء الحفصي كان محمد بن هود يساعد ملك أرغونة على حصار إشبيلية حتى تم الاستيلاء عليها سنة 646 هـ[171]؛ فماذا يكون الموقف لو كان مسلمو الأندلس صفّاً واحداً لمجابهة الممالك النصرانية. أغلب الظن ـ إذا لم يكن يقيناً ـ أنهم يكونون ـ إذ ذاك ـ في غير حاجة إلى نجدة خارجية. ولكن العلة تكمن في التشتت والتخاذل فيما بينهم.

(168) العبر (6: 615).
(169) العبر (6: 616).
(170) العبر (6: 604).
(171) العبر (6: 613).

أبو زكرياء الحفصي ومستوى الاستغاثة الأندلسية

ويمكن أن نتساءل: لماذا لم يكن أبو زكرياء الحفصي في مستوى الاستغاثة الأندلسية به ما دام المدد الذي بعث به إليها لم يأت بأية نتيجة إيجابية؟ تمكن الإجابة عن ذلك التساؤل ـ منذ البدء ـ بأن ذلك يعود إلى ماهية الأسس التي انبنت عليها الدولة الحفصية ذاتها.

ذلك أن هذه الدولة الناشئة بنيت ـ منذ البداية ـ على حركة انفصالية داخلية في هيكل «الخلافة» الموحدية. ومعنى ذلك أنها لم تكن حركة انبعاث جديد تعتمد على العناصر الأساسية لتكوين الدولة القوية في تلك العصور. أهمها العصبية الدموية ـ أو القبلية ـ كما يقول ابن خلدون، حتى إذا فقد الجانب الروحي لتلك الدولة تكون علاقة الدم ـ في القبيلة أو القبائل ـ هي الخيط الماسك للتلاحم والارتباط بين مختلف عناصر القوة الماسكة بزمام الأمور.

وإذا كانت دولة المرابطين اعتمدت ـ أساساً ـ على قبيلتي لمتونة ومسوفة البربريتين، وأن الدولة الموحدية اعتمدت هي أيضاً ـ أساساً ـ على قبيلة المصامدة البربرية؛ فإن أبا زكرياء الحفصي ـ في تأسيس دولته ـ لم يكن له مثل ذلك الاعتماد. بل اعتمد ـ أساساً ـ على اسم عائلته، وعلى بعض الأشياع من بقايا الموحدين. ولهذا فلم يكن له من قوة الدفع والتماسك ما من شأنه أن يستطيع به القضاء على الدولة الموحدية أو أن يحتل مكانتها، ويرث جميع ما كان تحت سلطانها مثلما فعل الموحدون مع المرابطين وغاية

ما وصل إليه أبو زكرياء الحفصي أنه حاز أكثر ما يمكن من تركة «الخلافة» الموحدية المتهاوية إلى السقوط والاضمحلال.

وكان هذا النصيب الكبير من التركة يقتضي وفرة الجيش التي تستطيع السيطرة الكاملة على تلك الرقعة الواسعة من الأقطار. وبالرغم مما ذكره البعض من أن جيش أبي زكرياء الحفصي بلغ سبعين ألف فارس[172] فإن هذا العدد يعتبر قليلاً جدّاً بالنسبة لاتساع الرقعة الترابية من ناحية وبالنسبة لظروف تأسيس الدولة من ناحية ثانية، وبالقياس - من ناحية ثالثة - إلى مئات الألوف التي أسست عليها الدولتان الكبيرتان من قبل؛ فقد اعتمدت المرابطية والموحدية على قوة القبائل وكثرة العدد. زيادة على ما تحمله كل منهما من مبادىء ومذاهب آمن بها الأتباع، وتحمسوا للدفاع عنها ونشرها ولو في الفترة الأولى على الأقل.

ومعنى كل ذلك أنّ أبا زكرياء الحفصي لم تكن له العدّة الكافية لتحقيق مطامحه الكبيرة، وآماله الواسعة لا في الاستبداد بإفريقية فقط بل في الأهداف البعيدة التي كان يرمي إليها من الاستيلاء على كامل المغرب الإسلامي، وجمع كلّ ما كان تحت نفوذ الموحدين. هذا بالإضافة إلى أن أبا زكرياء الحفصي - فيما يبدو - لم يقرأ حساباً للقوى الانفصالية الجديدة التي ظهرت في المغرب الإسلامي وخاصة بني مرين في المغرب الأقصى، وبني عبد الواد في المغرب الأوسط. وكل من القوتين يملك من العصبية الدموية ما لا يملكه هو إذ هما من قبائل زناتة المشهورة بكثرة العدد وشدة البأس[173].

(172) الفارسية (113).

(173) انظر عنها خاصة «قبائل المغرب» تأليف عبد الوهاب بن منصور ص 119 وما بعدها.

أبو زكرياء الحفصي يضم تلمسان

لخص ابن خلدون مطامح أبي زكرياء الحفصي في وراثة بني عبد المؤمن بن علي في العبارة التالية:

«.. كان الأمير أبو زكرياء الحفصي ـ .منذ أن استقلّ بأمر إفريقية واقتطعها من بني عبد المؤمن ـ متطاولاً إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسي الدعوة»(174). وقد كرّر ابن خلدون هذه العبارة عدة مرّات أثناء حديثه عن أبي زكرياء الحفصي.

وإذا كانت لأبي زكرياء الحفصي مطامح في الاستيلاء على ملك بني عبد المؤمن فإن الطريق كان مسدوداً أمامه. وكانت تسدّه قبيلة زناتة نفسها. وقد حاول أبو زكرياء الحفصي أن يستميل إليه بعض زعماء زناتة بالتحالف معهم عسى أن يجد منهم ما يتدارك به نقصه في العصبية الدموية حتى يحقق أحلامه في الانتصاب على عرش «الخلافة» الموحدية في مراكش. إلاّ أن استبداد أحد أمراء زناتة بتلمسان وانتصابه عليها كان أعظم حاجز يحول بين أبي زكرياء الحفصي ومراكش. فقد استبد بتلمسان يغموراسن بن زيان وأعلن نفسه ملكاً عليها دون أن يقطع صلته نهائياً بالسلطة المركزية في مراكش. بل كانت تلك الصلة قوية متينة في بعض الأحيان. وخاصة في عهد الرشيد الموحدي. ولا يستبعد أن يكون هذا الأخير قد سعى في تقوية الصلات بين

(174) العبر (6 :607).

تلمسان ومراكش حتى يكون يغموراسن بن زيان خير حاجز يحول بينه وبين أبي زكرياء الحفصي بعد أن قطع صلته بـ «الخلافة» الموحدية وبانت مطامحه ونواياه نحوها. ولذلك عزم أبو زكرياء الحفصي على إزالة ذلك الحاجز حتى ينفتح أمامه طريق مراكش.

لقد ظل أبو زكرياء الحفصي ينتظر الفرصة السانحة حتى يكتسح تلمسان ويقضي على يغموراسن بن زيان في سبيل تمهيد الطريق إلى مراكش. وقد سنحت تلك الفرصة عندما جاءه وفد من بني توجين وبني منديل ـ بقيادة عبد القوي التوجيني ـ يستصرخونه ضد يغموراسن بن زيان ويستنجدون به، ويعدونه بالطاعة والانقياد ومساعدته على السيطرة على تلمسان، وجمع زناتة تحت سيادته[175] فقويت آمال أبي زكرياء. واستعدّ لذلك أكبر الاستعداد. وأعلن النفير العام في الموحدين والجنود. وحرّض على الانضمام إليه من كانوا تحت سيادته من أعراب رياح وسليم. ثم خرج في شوال سنة 639 هـ (1242 م) قاصداً تلمسان في جيش يبلغ أربعاً وستين ألف فارس[176] وبعث قبله عبد القوي التوجيني ومن جاء معه يحرّضون زناتة على الاستجابة لنصرة أبي زكرياء الحفصي والتخلي عن صاحب تلمسان يغموراسن بن زيان.

وحاول الأعراب التلكؤ والتثاقل عن متابعة السير مع أبي زكرياء الحفصي. لكنه ـ في النهاية ـ حملهم على السير معه بما قدّم لهم من عطايا ووعود. وحاصر أبو زكرياء مدينة تلمسان وجرت حولها عدة معارك. ولكن يغموراسن استطاع أن يحدث ثغرة في الحصار الشديد المضروب عليه، وأن يفرّ هو وحاشيته وأهله متوغلاً في الجبال بعد أن جندل من الجنود المحاصرين عدداً كبيراً[177]. ودخل أبو زكرياء مدينة تلمسان من باب كشّوطة

(175) العبر (6 :608).

(176) الفارسية (109).

(177) العبر (6 :609).

في شهر ربيع الأول من سنة 640 هـ (جويلية 1242 م)[178].

وخيل إلى أبي زكرياء الحفصي أن انتصاره على يغموراسن كان حاسماً. ولكن الصعوبات ظهرت ـ أمامه ـ منذ الأيام الأولى لاستيلائه على تلمسان. وقد تحدث عن ذلك ابن خلدون بهذه العبارات:

«.. ولما تجلّى غشي تلك الهيعة، وحسر تيّار الصدمة، وخمدت نار الحرب، راجع الموحدون بصائرهم، وأنعم أبو زكرياء نظره فيمن يقلّده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة بني عبد المؤمن والمدافعة عنها، واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه، وتبرأ أمراء زناتة ضعفاً عن مقاومة يغموراسن علماً بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله، ولا يصدّ عن فريسته»[179].

كان الموقف ـ إذن ـ موقفاً حرجاً، فأمراء زناتة صرّحوا بأنهم لا يستطيعون مقارعة بطل زناتة المغوار يغموراسن بن زيان، وأكابر الموحدين لم يقبلوا الولاية على تلمسان لعلمهم بأنها ولاية مخسورة ما دام يغموراسن ـ صاحبها ـ معتصماً بالجبال ولم يقع القضاء عليه. وأن الزناتيين ليسوا مستعدين للتنازل عن سيادتهم على تلسمان وتسليمها لقائد من قواد أبي زكرياء الحفصي أو لواحد من أفراد أسرته، وأن والي هذه المدينة مفروض عليه ـ من أول يوم ـ أن يجابه قوات «الخلافة» الموحدية إذا هي جاءت لنجدة تلمسان.

كانت كلّ هذه الاعتبارات قد جعلت أبا زكرياء الحفصي يبحث عن كيفية ينقذ بها الموقف. أما يغموراسن فقد ظلّ يناوش القوات الحفصية في مدينة تلمسان. واستطاعت طلائع من أتباعه أن تقتحم المعسكر الحفصي، وأن تختطف منه بعض الأسرى. وهكذا أصبح الأمر أشد تعقيداً مما كان يتصوره

(178) الفارسية (109).

(179) العبر (6 :609).

أبو زكرياء. ولم يكن إنقاذ الموقف ميسوراً إلّا بشيء من التنازل ويقبول التفاوض مع يغموراسن نفسه. وفعلاً تمَّ هذا التفاوض. وجاء وفد يغموراسن تقوده أمّه «سوط النساء» فاقتبلها أبو زكرياء وأحسن إكرامها. وكانت أهم شروط ذلك التفاوض أن يعود يغموراسن إلى تلمسان على أن يعترف بسلطنة أبي زكرياء الحفصي عليه، وأن يتخلّى عن «الخلافة» الموحدية في مراكش. وعلى ذلك الأساس تمت المصالحة وانتصب يغموراسن - من جديد - على تلمسان. واستعدّ صاحب إفريقية للعودة إلى تونس بعد أن أقام في تلمسان سبعة عشر يوماً[180] وبعد أن أصبحت تابعة له. ولكن السؤال الوارد هو: هل ستكون عملية تلمسان هذه كافيةً لفتح طريق مراكش أمام أبي زكرياء الحفصي؟.

---

(180) العبر (6 :610).

تبعية تلمسان باهتة لم تحقق الهدف

إن السؤال الذي طرحناه وهو «هل ستكون عملية تلمسان هذه كافية لفتح طريق مراكش أمام أبي زكرياء الحفصي؟» يجرّنا إلى تساؤل آخر هو: «هل الصورة التي انتهت إلى تبعية تلمسان لأبي زكرياء الحفصي كافية لفتح ذلك الطريق؟».

نحن نعرف أن تلك التبعية لم تكن ناتجة عن انهزام حقيقي ليغموراسن بن زيان. بل لا يبعد القول بأنها كانت تعني انتصاره أكثر من هزيمته؛ لأن أبا زكرياء الحفصي اضطر إلى إعادة يغموراسن أميراً على تلمسان، لأنه لم يجد عوضاً عنه ممن يسدّ مسدّه أو ممن يكفّ شغبه. وأن مجرد تحويل التبعية عن مراكش إلى تونس لم يكن إلا أموراً شكلية لا تمس من قوة يغموراسن، ولا تحد من سطوته، أو تنقص من زعامته على بني قومه. ولهذا فإن تلك التبعية سوف لا تكون لها النجاعة التي من شأنها أن تحقق المطامح البعيدة لسلطان إفريقية بالرغم مما قال ابن خلدون: «من أن أبا زكرياء الحفصي أغذّ السير إلى تونس قرير العين بامتداد ملكه، وبلوغ وطره، والإشراف على إذعان المغرب لطاعته، وانقياده لحكمه، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته، فدخل الحضرة، واقتعد أريكته، وأنشده الشعراء في الفتح، وأسنى جوائزهم، وتطاولت إليه أعناق الآفاق»[181].

(181) العبر (6 :610)

ولعلّ مما يؤيد ضعف تلك التبعية موقف مستشاري أبي زكرياء الحفصي مما تمّ بينه وبين يغموراسن بن زيان.

ففي طريق العودة إلى تونس حذّر شيوخ الموحدين أبا زكرياء مما تم بينه وبين صاحب تلمسان. وأعلمه أولائك المستشارون بأنه لا أمان لهم فيه، ولا ثقة لهم بعد انتقاضه عليه. ولهذا أشاروا على أبي زكرياء الحفصي بإقامة منافسين له من زناتة وأمراء المغرب الأوسط حتى لا يخلو له الجو في المنطقة، ولا يتقوى نفوذه فيها. وحتى يكون أولائك الأمراء «. . شجى في حلقه، ومعترضاً عن مرامه»[182]. واقتنع أبو زكرياء بموقف مستشاريه فعين قادة حلفائه من الزنانتيين أمراء على مناطقهم وجعلهم في مستوى يغموراسن نفوذاً، ومرتبة، ومراسم تشريفات. وكان من هؤلاء الأمراء عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المغراوي. وقد تم تنصيب أولائك الأمراء في مشهد حافل في المستوى الذي تحدثنا عنه.

وهذا مما يؤيد عدم الثقة في يغموراسن، وأن إعلانه التبعية لسلطان تونس ليس سوى موقف أملته الظروف التي أجبرت أبا زكرياء نفسه على اعتبارها.

وهكذا يبدو أن المرحلة الأولى التي خطاها أبو زكرياء الحفصي نحو عرش الموحدين بمراكش لم تكن مرحلة الثبات، وبداية السير السليم نحو تحقيق الهدف بالرغم مما أحدثه إلحاق تلمسان من شهرة لأبي زكرياء الحفصي، وتطلع الآفاق إليه في أنحاء المغرب الإسلامي، فبالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً عن مبايعة بعض الأمصار الأندلسية لأبي زكرياء، فقد بعث إليه أهالي طنجة وسبتة بالمبايعة والتبعية بعد مهلك «الخليفة» الرشيد سنة 640 هـ. وكذلك وردت عليه البيعة من سجلماسة. وأهمّ من ذلك موقف بني

(182) العبر (6 :610).

مرين عندما شقوا عصا الطاعة في وجه السلطة المركزية في مراكش، واستبدّوا بالمناطق النازلين بها مثلما صنع بنو عبد الواد في تلمسان، فعندما استولى أبو زكرياء على تلمسان خاف بنو مرين أن يتوجه إليهم، ويظاهرهم «فألانوا له في القول، ولاطفوه ـ على البعد ـ بالطاعة، وخاطبوه بالتمويل، وأوجبوا له حق الخلافة، ووعدوه أن يكونوا أنصاراً لدعوته، وأعواناً في أمره، ومقدمة في عسكره إلى مراكش وزحفه. وحملوا من تحت أيديهم من قبائل المغرب وأمصاره على طاعتهم، والاعتصام ببيعتهم»(183).

وكان بنو مرين ـ إذ ذاك ـ بقيادة عثمان بن عبد الحق وأخيه محمد من بعده. وانقاد أهل مكناسة إلى بني مرين فحملوهم على مبايعة أبي زكرياء الحفصي فبعثوا إليه بيعتهم سنة 643 هـ من إنشاء قاضيهم أبي المطرّف بن عميرة(184).

ولكن كل هذه المبايعات لم تكن إلّا مظاهر عابرة دفع إليها إما الخوف من أبي زكرياء الحفصي، وهو ما فعله بنو مرين، وإما الخوف من غيره، وهو ما فعله أهالي سبتة وطنجة وسجلماسة عندما يشعر كل مستبدّ بمدينة من تلك المدن بخطر يداهمه. ولهذا يتغير الموقف بمجرد تغيّر الظروف، وتنتهي المبايعة والتبعية؛ فبنو مرين وعدوا بأن يكونوا في مقدمة الجيش الذي سيستولى على مراكش لكنهم سرعان ما تراجعوا عن مبايعتهم عندما بلغهم أن «الخليفة» السعيد الموحدي سوف يقوم بحملة عسكرية ضدهم «.. فخامرهم الرعب، وراجعوا طاعته، وأوفدوا إليه علماءهم وصلحاءهم، يعتذرون ويستغفرون»(185).

ولم يكن موقف سجلماسة بقيادة عبدالله بن زكرياء الخزرجي أكثر ثباتاً؛ فقبل وصول «الخليفة» السعيد إليها استطاع أحد أتباع الخزرجي أن يغدر به،

(183) العبر (6 :618 - 619).

(184) العبر (6 :919) وعن ابن عميرة انظر أحدث دراسة عنه تأليف محمد بن شريفة.

(185) العبر (6 :619).

ويقبض عليه، ويسلّمه مصفّداً إلى «الخليفة» السعيد فأعدمه سنة 642 هـ. وانقادت إليه المدينة بعد أن كان واليها الثائر يدعو للأمر أبي زكرياء الحفصي «.. ويستجلب إليه العرب من كل صوب، وقد فوّض إليه أبو زكرياء الأمور، ووعده بالعون والأمداد»[186].

تلك ـ إذن ـ هي الصورة الباهتة من تطلع آفاق المغرب الإسلامي إلى أبي زكرياء الحفصي، وإرسالهم إليه بالمبايعة والتبعية ووعده لهم بالمدد والمناصرة.

(186) عبدالله عنان (2 :519).

انتقاضات تشغل أبا زكرياء

وإذا أضفنا إلى ما تقدم الانتقاضات الداخلية التي شغلت أبا زكرياء الحفصي أدركنا ـ أكثر ـ ماهية الطاقة التي كانت عند أبي زكرياء الحفصي حتى يظهر استعداده ليكون وارث الإمبراطورية الواسعة التي كانت تحت سيادة الموحدين في أيام قوتها وعزتها.

وكانت أهم تلك الانتقاضات الداخلية ـ بعد نهاية يحيى بن غانية ـ انشغال أبي زكرياء بتأديب قبيلة هوّارة سنة 636 هـ التي شقت عصا الطاعة عندما استبدّ أبو زكرياء بإفريقية وقد امتنعت عن دفع الجباية، وأضرت بالأمن. وأظهر أبو زكرياء بأنه متوجه إلى أهل أوراس. واستدعى هوارة إلى مناصرته والانضمام إليه. وانطلت الحيلة على قبيلة هوّارة فاستجابوا لدعوته. وعندما انضموا إلى جيشه فاجأهم على حين غفلة وفتك بهم فتكاً ذريعاً «حتى خضد شوكتهم وأزال بطشهم»[187]. وكانت هوّارة مشهورة بالانتقاضات منذ عهد بني عبيد تعيش في المناطق الممتدة من جبال أوارس إلى تبرسق وسبيبة. وكانت بربريـة الأصل إلا أنها ـ بعد الزحفة الهلالية ـ تعرّب أفرادها وامتزجوا بالعربان حتى نسوا لغتهم.

ومما انشغل به أبو زكرياء الحفصي ـ كذلك ـ ثورة يعقوب بن يوسف

---

(187) العبر (6 :598).

الهرغي[188] الذي عقد له أبو زكرياء على طرابلس وجهاتها فحاول الانتقاض عليه. ولكن ثورة الأهالي ضده، وخوفهم من اتصاله بالأعراب فيعظم شأنه جعلهم يدبرون له مكيدة انتهت بقتله وقتل أنصاره.

وكان من هذه المشاغل أيضاً قضية محمد بن محمد الجوهري الوافد على تونس من سبتة. فقد «.. ورد على تونس وتعلّق بأعمال السلطان (أبي زكرياء) ونظر فيما يقربه منه، ويرفع من شأنه عنده، فوجد جباية أهل الخيام بإفريقية من البرابرة الموطّنين مع الأعراب غير منضبطة ولا محصّلة في ديوان، فنبّه على أنها مأكلة للعمّال ونهبة للأموال»[189] واغترّ له أبو زكرياء الحفصي ـ ربما للحاجة إلى من ينظم له تلك الجبايات ـ فكلّفه بتنظيم تلك الجباية حتى أصبحت عملاً قائماً بذاته أطلق عليه «عمل العمود». وشيئاً فشيئاً أخذ نفوذ الجوهري يتقوى ويزداد تمكناً من أبي زكرياء الحفصي حتى تولّى منصب «صاحب الأشغال». كل ذلك وهو يقوم بالسعاية وجمع الأموال. وكوّن لنفسه قوة عسكرية خاصة به. وكان بالطبع أن يُحْدِث كل ذلك تنافساً بينه وبين أصحاب النفوذ خاصة مع أبي علي بن النعمان، وأبي عبدالله بن الحسين حتى تطور التنافس إلى عداوة مستحكمة. وكان كل من ابن النعمان وابن الحسين يحذران أبا زكرياء من سوء نوايا الجوهري، إلا أن أبا زكرياء لم ينقد إلى تلك النصائح حتى اكتشف ذلك بنفسه. ويذكر لذلك ابن خلدون عينتين جعلتاه يصدّق ما يقال في الجوهري. الأولى: أن أبا زكرياء عندما عين عبد الحق بن ياسين «صاحب أشغال» على بجاية بعث إليه محمد الجوهري يقول له: إنه هو الذي سعى في تسميته «صاحب الأشغال» في بجاية، وعهد إليه بالوقوف عند أمره والعمل بكتابه. فبعث عبد الحق بذلك إلى أبي زكرياء الحفصي يعلمه بمراسلة محمد الجوهري له. فغضب لذلك أبو زكرياء واعتبر ذلك دليلاً على نوايا الجوهري في اكتساب الأنصار. أما

(188) قبيلة المهدي بن تومرت (انظر قبائل المغرب 326).
(189) العبر (6 :605).

العينة الثانية فإن أبا زكرياء استشار ذات يوم محمد الجوهري في قمع بعض مظاهر الانتقاض والخلاف. فقال الجوهري عندي ببابي ألف من الجنود ارم بها من تشاء من أمثالهم فأعرض عنه أبو زكرياء واعتدّها عليه[190]. ولم يكن من أبي زكرياء إلا أن يوقف هذا الطموح فقبض على الجوهري وأودعه السجن في موضع بالقصبة. يقول الزركشي في تاريخ الدولتين: إن الموضع معروف باسمه إلى زمن تأليف كتابه[191] وأوكل أمر تعذيبه إلى عدوين من أعدائه الكثيرين. وتفننوا في تعذيبه حتى اختار الانتحار فخنق نفسه بعمامته حيث وجده الحراس ميتاً ذات صباح. وجرّت جثته حتى خارج العاصمة ليتفرج عليه الناس ويشمت فيه الشامتون[192].

وتمثل قضية الجوهري ـ من ناحية أخرى ـ عينة عمن ورد على إفريقية من المهاجرين سواء من الأندلس أو من بقية المغرب الإسلامي مما قد نعرض له في الصفحات القادمة.

(190) العبر (6 :606)، وانظر الزركشي (29 - 30).
(191) الدولتين (30).
(192) العبر (6 :607) الزركشي (30).

علاقات أبي زكرياء الحفصي بالمشرق الإسلامي

رأينا أن علاقات أبي زكرياء الحفصي مع دول المغرب الإسلامي يسودها شيء من الميوعة أو الاضطراب أو الخلاف سواء مع بقايا المسلمين في الأندلس، أو مع بني مرين في المغرب الأقصى، أو مع بني زيان في المغرب الأوسط، وكذلك مع البلاط الموحدي في مراكش.

أما علاقات أبي زكرياء خارج الإمبراطورية الموحدية المتلاشية فقد تمثلت خاصة مع بني أيوب في المشرق الإسلامي، ومع بعض دول البحر الأبيض المتوسط لا سيما صقلية وجمهوريات المدن الإيطالية.

أما عن علاقاته ببني أيوب فإن ابن القنفذ في كتابه «الفارسية» وابن الشماع في كتابه «الأدلة البينة النورانية» قد ذكرا أن علاقة صداقة ومودة كانت تربط بين أبي زكرياء الحفصي والملك الصالح أيوب[193]. وبالرغم من فقدنا للتفاصيل عن تلك العلاقات الحسنة بين صاحب تونس وصاحب مصر فإن منطق الأحداث التاريخية لا يستبعدها نظراً لما ذكرناه في السابق بشأن عطف بني أيوب على أية حركة انفصالية عن «الخلافة» الموحدية التي يعتبرونها مناوئة للخلافة العباسية التي كان سلطانهم تحت شعارها.

وقد حاول ابن القنفذ أن يعطي بعض الأضواء عن تلك العلاقة فذكر أنه لما وصلت الأخبار إلى أبي زكرياء الحفصي تفيد أن لويز التاسع (ملك

(193) الفارسية (112)ـ الأدلة (53).

فرنسا) يعتزم غزو مصر في حملة صليبية بعث إلى الملك الصالح الأيوبي يخبره بذلك. وأوفد له رسولاً خاصاً في هذا الشأن صحبة كتاب قبل أن تصل أخبار تلك الحملة إلى الصالح الأيوبي. وكان الكتاب ـ بالإضافة إلى ما فيه من عزم لويز التاسع على محاربة مصر ـ فيه الاعتذار عن عدم مبادرته بنفسه لنجدته لأنه يخشى من صاحب صقلية المجاور له، كما يخشى من انتقاض الأعراب بإفريقية، فأخذ الملك الصالح في الاجتهاد لملاقاة العدو[194].

هذا ما يقوله ابن القنفذ. إلاّ أن بعض المصادر المشرقية والغربية تذكر أن الذي أخبر الملك الصالح أيوب بعزم لويز التاسع على مهاجمة مصر هو الإمبراطور «فريدريك الثاني» صاحب صقلية والإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ فقد ذكر كل من المقريزي في «المواعظ والاعتبار»[195] وسبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»[196] أن الإمبراطور فريدريك الثاني أرسل رسولاً متخفياً في زيّ تاجر إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وأخبره بأن لويز التاسع يعتزم الهجوم على مصر. فسار الملك الصالح من دمشق ـ رغم مرضه ـ وتوجه إلى مصر استعداداً لملاقاة لويز التاسع.

وموقف فريدريك الثاني من المسلمين فيه الكثير من اللطف والملاينة «.. وهو الذي نشأ في صقلية في كنف الحضارة الإسلامية، وشبّ على حبّ المسلمين وحضارتهم.

وقد ذكر صاحب «مفرج الكروب» أن فريدريك الثاني «كان متميزاً، محبّاً للحكمة والمنطق والطب، مائلاً إلى المسلمين، لأن مقامه في الأصل، ومرباه صقلية.. وأهل الجزيرة غالبهم مسلمون»[197].

(194) الفارسية (112).
(195) الخطط (1 :385).
(196) الحركة الصليبية (1055).
(197) الحركة الصليبية (996).

ولكن الدافع الأقوى من ذلك هو الخلاف الكبير الذي كان بينه وبين البابا في رومة. وهو الخلاف الذي كانت نتيجته تسليط عقوبة الحرمان مرتين على فريدريك الثاني. وكان من أهم أسباب ضغط البابا عليه عدم استجابته في القيام بحملة صليبية جديدة بعد اشتداد الخلاف بين الإمارات الصليبية، وبعد الانتصارات التي سجلت ضدّهم في الشام وآسيا الصغرى.

ومهما يكن من أمر فإنه لا تستبعد الرواية التي ذكرها ابن القنفذ حول إعلام الملك الصالح الأيوبي من قبل أبي زكرياء الحفصي عن عزم لويز التاسع على مهاجمة مصر نظراً لمختلف الصلات التي كانت بين صقلية وتونس، وكذلك الصلات التجارية والقنصلية التي كانت موجودة بين أبي زكرياء الحفصي وفريدريك الثاني مما لا يستبعد معه أن يبعث فريدريك الثاني بالخبر إلى أبي زكرياء الحفصي كما بعث به إلى الملك الصالح أيوب. كما لا يستبعد أن أبا زكرياء توصل إلى معرفة الخبر بوسائله الخاصة نظراً لقربه من المنطقة، ونظراً لطول المدة التي قضاها لويز التاسع في تحضير حملته التي استمرت ثلاث سنوات، ونظراً ـ كذلك ـ لمدة السفر الطويلة التي قضاها لويز التاسع حتى وصل مصر إذ امتدت تلك المدة من سبتمبر 1248 إلى ماي 1249. فبعد أن أرسى أسطول لويز التاسع مدة بصقلية وتزود منها بالمؤونة أقلع منها ليقضي عدة أشهر بجزيرة قبرص دون أن يعلن عن مقصده الأصلي هل هو بلاد الشام أم هو البلاد المصرية.

ومهما يكن فإن المهم بالنسبة لأبي زكرياء الحفصي هو أنه اكتفى بإبلاغ الخبر، والاعتذار للملك الصالح الأيوبي عن نجدته بقوة عسكرية لأسباب داخلية وخارجية هي خوفه من أن يغدر به صاحب صقلية، وخوفه من انتقاض الأعراب عليه إذا هو بعث بقواته إلى مصر أو ذهب بنفسه على رأس تلك القوة.

وهذا مما يزيد تأكيداً على أن الأوضاع التي كانت عليها إمارة الحفصيين في عهد مؤسسها الأول لم تكن تساعد مساعدة فعلية على نجدة

المستغيثين بها في الأندلس، كما أنها لم تكن في حالة تمكنها من نجدة مصر المهددة بغزوة صليبية، وهي الغزوة التي عرفت بالحملة السابعة، أو حملة لويز التاسع على مصر.

علاقات أبي زكرياء مع دول البحر الأبيض المتوسط

أما علاقات أبي زكرياء مع قوى البحر الأبيض المتوسط فقد تمثلت خاصة في العلاقات التجارية والقنصلية التي انتصبت وقامت بينه وبين جمهوريات البندقية وجنوة وبيزا وكذلك مع مدينة مرسيليا وصقلية سواء كان ذلك في مدينة تونس أو بونة (عنابة) أو بجاية.

وكانت السيادة البحرية في غربي البحر الأبيض المتوسط لأصحاب تلك العلاقات التجارية مع أبي زكرياء الحفصي. وقد اشتد بينها التنافس على استغلال المياه الإقليمية التونسية وموانيها البحرية دون أن تستطيع دولة أبي زكرياء الحفصي أن يكون لها دور إيجابي في ذلك الصراع وتلك المنافسة. وقد بلغ الاستهتار بالسيادة الإقليمية البحرية لأبي زكرياء الحفصي أن الجنويز قاموا بهجوم على ميناء بجاية، واستولوا على سفينة تجارية تابعة لجمهورية بيزا الإيطالية، كما أحرقوا عدة سفن أخرى كانت راسية هناك. وكان هذا رد فعل من الجنويز لأن تجاراً من بيزا استولوا على سفينة تجارية كانت تقوم برحلاتها بين تونس وموانىء الأندلس. وكان صراع المدينتين الإيطاليتين من أجل استغلال تلك الموانىء دافعاً بأبي زكرياء الحفصي إلى عدم تجديد الاتفاقية التي كانت معقودة بينه وبين الجنويز.

ولعل الأهم من كل ذلك هي علاقة أبي زكرياء بالإمبراطور فريدريك الثاني صاحب صقلية والإمبراطورية الرومانية المقدسة[197م]. فقد عمل أبو

(197م) انظر برنشفيك (1 :34 - 35).

زكرياء الحفصي على أن تكون علاقاته مع هذا الإمبراطور علاقات طيبة رغم أن هذا الإمبراطور قام بالحملة الصليبية السادسة. وهي الحملة التي انتهت باسترجاع الصليبيين لبيت المقدس بعد أن تنازل عنها السلطان الأيوبي (الملك الكامل) تطبيقاً لاتفاقية وقعت بينهما سنة 626 هـ (1229 م) مما جلب له السخط من كافة أنحاء العالم الإسلامي[198].

وواقع الأمر أن العلاقات التي كانت بين أبي زكرياء الحفصي وبين فريدريك الثاني كانت أشبه ما تكون بعلاقة غالب مع مغلوب. وقد توطّدت هذه العلاقات بعد عودة فريدريك من حملته الصليبية. وقد توّجت تلك العلاقات باتفاقية يدفع بموجبها ـ سنوياً ـ أبو زكرياء الحفصي ضريبة لفريدريك الثاني تقدر بثلاثة آلاف قطعة ذهبية.

فلماذا كانت هذه الضريبة؟ هل هي مقابل حماية موانىء إفريقية التجارية من قراصنة جنوة وغيرها، وفي مقابل حرية التجول التجاري في البحر؟ أم هي الخوف مما تذكره بعض المصادر الغربية[198م] من أن شخصاً حفصياً يسمى عبد العزيز ويزعم أنه ابن أخي أبي زكرياء، التجأ إلى فريدريك الثاني واحتمى به. وأن أبا زكرياء كان يخشى أن يجهز له فريدريك الثاني قوة يهاجم بها إفريقية ليطيح بنظام أبي زكرياء؟.

مهما اختلفت التأويل، ومهما كانت درجتها من الصحة فإن الثابت هو أن أبا زكرياء كان يدفع تلك الضريبة سنوياً لصاحب صقلية، وأن ذلك كان ناتجاً عن عجزه عن حماية مراسيه وتجارته البحرية حتى وصل به الأمر إلى اكتساب الحامي الخارجي ودفع الضريبة له.

وهكذا يبدو أن بناء الدولة الحفصية كان ينقصه الكثير من وسائل التمكن الصحيح. ولعلّ رغبة التوسع كان لها الأثر الكبير في ذلك.

---

(198) السلوك للمقريزي (1 :231).
(198م) انظر برنشفيك (1 :645).

إنجازات أبي زكرياء الحفصي

بالرغم من الفشل الذي رأيناه في السياسة الخارجية لأبي زكرياء الحفصي فإنه استطاع ـ مدة إمارته ـ أن ينجز عدة مشاريع عمرانية ما يزال البعض منها قائم الذات حتى الآن. وكان من أهم تلك المنجزات جامع القصبة الموجود حالياً بصومعته ذات الطابع المعماري الممتاز. وقد شرع في بناء هذا المسجد الجامع سنة 629 هـ. وانتهى سنة 633 هـ. وكان أول من صدع فيه بالأذان عندما انتهت صومعته أبا زكرياء نفسه. وذلك في شهر رمضان من سنة 630 هـ[199].

ومن تلك الآثار التي اندثرت المصلّى الذي بناه خارج «باب المنارة» وجعل له أبراجاً وشرائف كأنه بلد صغير. وقد قدّر الزركشي مساحته بمساحة مدينة بنزرت في ذلك الوقت[200] ويذكر ابن أبي الضياف أن محلّ ذلك المصلّى أصبح رباطاً للعسكر النظامي في عهد الحسينيين[201] كما عرف أيضاً بقشلة المركاض حيث يشغله حالياً الحرس الوطني قرب حديقة القرجاني[202]. هذا بالإضافة إلى تجديد رسوم القصبة وبناء سوق العطارين، والمدرسة الشماعية[203] مما يدل على أن أبا زكرياء الحفصي كان مصمماً

(199) الدولتين (27 - 28).

(200) المصدر السابق.

(201) الاتحاف (1: 157).

(202) محمد ماضور حواشيه على الزركشي (25).

(203) الاتحاف (1: 157).

على بناء الدولة، وأن انشغاله بالحروب والأحداث الخارجية لم يحل بينه وبين الإنشاء والتعمير.

وقد نوّهت بهذا الأمير المراجع التاريخية التي تحدثت عنه. وكان من أبرزها ما قاله فيه ابن القنفذ في كتابه «الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية» حيث وصفه بأنه كان «. . ملكاً جزلاً، سعيداً حليماً، فاضلاً مدركاً، عالماً مجيداً، شاعراً محسناً، فصيحاً كاتباً، صليب الرأي. وله أحوال جميلة لم تكن في غيره من الملوك. وكان معدوداً من العلماء وفي الشعراء. وله شعر مدوّن. وكان ـ مع هذا كله ـ حسن العهد، وفيّاً للقديم من المعرفة، بلّغ رجالاً من أهل معرفته آمالاً عظيمة، وأكسبهم أموالاً جمّة، وولّاهم الخطط الرفيعة.

وكانت أيامه خير أيام وأكثرها سعادة، وأدرّها أرزاقاً، وأكثرها أفراحاً. ونام الناس معه على مهاد العافية، وأكثر الغراسات. وجمعت دولته من رؤساء العلماء، وأهل الرئاسات من الموحدين، وفحول الشعراء، وجباة الأموال.

وكان عنده من الصناع، وأصحاب المعارف، وأرباب البصر ما لم يكن عند غيره. وكان يجالس طلبة العلم، ويشاركهم أحسن مشاركة من غير مماراة، ولا إظهار إيالة على أحد منهم. وللشعراء فيه أمداح كثيرة. وله معهم أخبار عجيبة»[204].

ثم يضيف ابن القنفذ أن أبا زكرياء الحفصي «. . جمع بعدله وسياسته أموالاً لا تحصى إلا بالبيت. والبيت عبارة عن ألف ألف. وذلك مائة ألف عشر مرات[205]. وذكر بعضهم أنه ترك سبعة عشر ألف بيت. وترك ستة وثلاثين ألف سفر من الكتب. ورغم ذلك فقد كان لباسه جبّة وإحراماً من صوف[206].

(204) الفارسية (113).
(205) يعني مليوناً.
(206) الفارسية (114).

عزوف أبي زكرياء الحفصي عن الألقاب

بالرغم من أن أبا زكرياء الحفصي انفصل عن «الخلافة» الموحدية انفصالاً تاماً فإنه اكتفى بلقب «الأمير». ولم يذكر اسمه في خطب الجمع والأعياد إلا بعد ثماني سنوات من استبداده بإفريقية أي عند بيعته الثانية؛ ففي المرة الأولى (سنة 624 هـ) اكتفى بذكر الإمام المهدي في خطبه، أما في بيعته الثانية (634 هـ) فقد ذكر اسمه بعد ذكر الإمام مقتصراً على لفظ «الأمير» ولم يتجاوزه إلى «أمير المؤمنين» حسب عبارة ابن خلدون[207] بالرغم من أن رجال دولته كانوا حريصين على إثبات ذلك. وقد أوعزوا إلى بعض الشعراء أن يقترح عليه ذلك اللقب في قصيدة ألقاها بين يديه. وقال فيها:

ألا صِــل بــالأمـيـر «المـؤمنـينـا» فــأنـت بهــا أحـق العـالـمينـا

ولكنه أبى وأنكر ذلك الاقتراح. وظلّ مقتصراً على لقب «الأمير» إلى وفاته[208].

ويمكن التساؤل عن سرّ ذلك الموقف. وما هو تعليل ذلك الإنكار للقب «أمير المؤمنين»؟ إن المصادر التاريخية التي تعرضت لذلك الحادث لم تعط تفسيراً لأسباب ذلك الإنكار. بل كانت تذكر ذلك الموقف في مقام التدليل على تواضعه وزهده في ذلك اللقب.

(207) العبر (6 :594 - 595).

(208) العبر (6 :595).

ويبدو أن الظروف السياسية هي التي لم تكن سامحة بذلك. وأن الوقت لم يحن بعد ليتحمل - عن جدارة - ذلك اللقب لا سيما أن «أمير المؤمنين» الموحدي ما يزال موجوداً. واستنتاج الأحداث لا يبعد حصول ذلك لو تمكن أبو زكرياء الحفصي من احتلال مراكش والقضاء النهائي على بني عبد المؤمن، أو لو أن العمر طال به إلى أن قضى بنو مرين على آخر «خليفة» موحدي.

ولعلّ أبا زكرياء الحفصي - وهو الذي وصفوه بالعقل وحسن الإدراك - كان يرى أن إطلاق لقب «أمير المؤمنين» عليه لا يتماشى - بعد - مع وضع مملكته أو إمارته، وهي ما تزال في حالة تكوين، وما تزال في حاجة إلى استقرار يحقق الاطمئنان.

ومن جهة أخرى فإن الزهادة في لقب «أمير المؤمنين» لم تكن تعني الرغبة عن الملك أو الزهد فيه، بل إن واقع الأحداث السياسية كان يؤكد رغبة أبي زكرياء الحفصي في ذلك، واستمراره في أولاده من بعده. وهو ما حصل - فعلاً - بالنسبة لولاية العهد؛ فبعد أربع سنوات من إثبات اسمه في الخطب أي سنة 638 هـ عقد ولاية العهد لابنه أبي يحيى زكرياء الذي كان في ذلك الوقت والياً على بجاية «.. وجعل له النظر إلى سائر أعمالها من الجزائر وقسنطينة، وبونة (عنابة) وجنوب تلك المناطق منذ سنة 633 هـ[209]». وحسب المفهوم من تعبير ابن خلدون فقد استنجب أبو زكرياء ابنه الشاب فعقد له ولاية العهد رغم صغر سنّه دون أن يعتبر غيره من بقية إخوته وأبنائهم. وتمت ولاية العهد في حفل مشهود حضره رجالات الدولة وأعيانها. وأمر أن يذكر اسمه في الخطبة بعد اسمه هو.

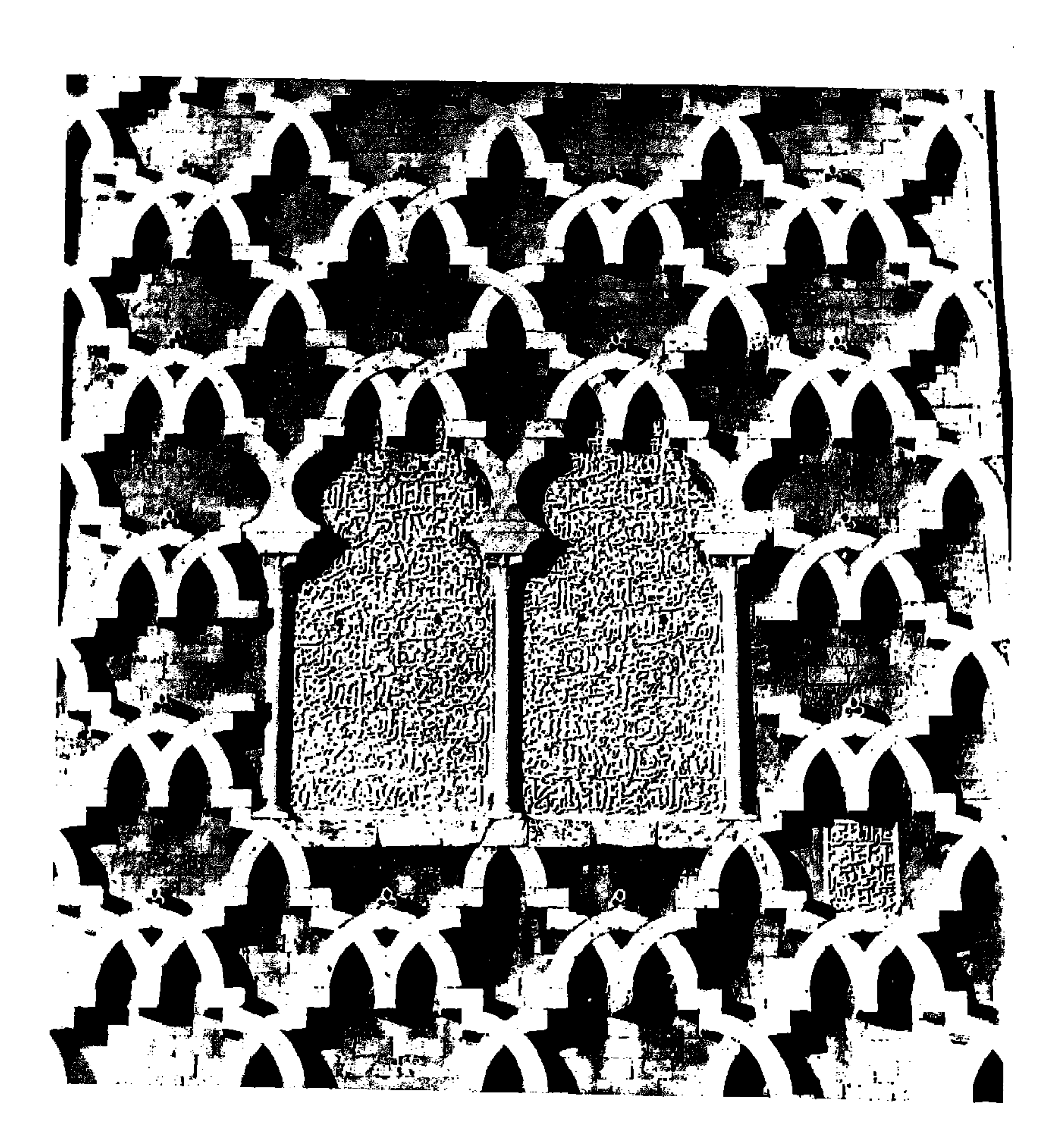
وقد نوهت المصادر التاريخية بنجابة هذا الشاب، وعلوّ كعبه في الدولة، وعقد الأمل عليه، وجنوحه إلى الدين، ومحبته للعلم وأهله. وظلّ

---

(209) العبر (6: 619 - 620).

أبو يحيى ولياً للعهد من سنة 638 إلى سنة 646 هـ حيث وافاه الأجـل المحتوم، فتأثر لذلك والده بالغ التأثر. ثم عقد لأخيه محمد على ولاية العهد.

ألا يمكن أن يستروح من كل ذلك أن عزوف أبي زكرياء الحفصي واستنكافه من لقب «أمير المؤمنين» لم يكن عزوفاً عن الملك، أو تواضعا منه، وأنه لا يبعد أن يكون نتيجة لما ذكرناه من أن الاعتبارات السياسية والظروف الآنية كان لها دخل في كل ذلك.



نص نقيشة مئذنة جامعة القصبة بها تاريخ التأسيس

أبو زكرياء وولاية العهد

إن التساؤل عن ماهية موقف أبي زكرياء الحفصي من ولاية العهد من بعده التي فضل فيها ولديه عن بقية إخوته، وهم أكبر سنّاً، وأكثر تجربة وحنكة يدعو إلى التساؤل ـ أيضاً ـ عن نتيجة ذلك الموقف وما كان له من انعكاسات على الوضع الداخلي والخارجي في البلاد.

وواضح أن موجب هذا التساؤل يعود ـ فيما يعود ـ إلى جوهرية الحكم لا إلى شكليته من أن استقرار أوضاع الحكم لا تتمثل في تولية الأقرب بقدر ما تتمثل في تولية من هو أكثر كفاءة وجدارة بممارسة السلطة، وتسيير شؤون الدولة.

وإذا كان الاتجاه الذي سلكه أبو زكرياء الحفصي يلتقي مع تقاليد الوراثة والملك العضوض التي أصبحت بدعة في أنظمة الحكومات الإسلامية تجافياً وتنافياً لقاعدة الشورى والاختيار في أصول الحكم الإسلامي، فإن تلك البدعة أقرّت في أنظمة الحكومات الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن الأول للهجرة. وبالتحديد منذ سنة 50 هـ. وهي السنة التي جعل فيها معاوية بن أبي سفيان ابنه يزيد ولياً للعهد ليكون «الخليفة» من بعده. وبما أن ذلك كان أول بادرة (أو بدعة) في نظام الحكم فقد سلك معاوية وابنه يزيد مسلك الحيلة والمؤامرة في ذلك. ففي كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني أن معاوية بن أبي سفيان كان يتهيّب الإعلان عن تلك الرغبة مخافة «.. ألا يمالئه الناس لحسن البقية فيهم، وكثرة من يرشح للخلافة، فأمر يزيد مسكيناً

الدارمي أن يقول أبياتاً وينشدها لمعاوية في مجلسه إذا كان حافلاً، وحضره وجوه بني أمية. فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه، وهو جالس، وابنه يزيد عن يمينه، وبنو أمية حواليه وأنشده قصيدة جاء فيها قوله:

إذا المنبر الغربيّ خلّاه ربّه فإن أمير المؤمنين يزيد

فقال له معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله. قال (راوي الخبر): ولم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة»[210].

(210) الأغاني (20 :176) طبع بيروت.

الدعوة الموحدية والوراثة

لقد بنى الموحدون دعوتهم على الشورى ومجالس النظر لتحقيق دعوتهم حتى يأتي المهدي المعصوم الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وما كانت العصمة تنبني على الوراثة. ورغم ذلك فإن «إرث السلطة» وقع إقراره منذ عهد «الخليفة» الأول لمحمد بن تومرت، وهو عبد المؤمن بن علي.

وإذا كانت الدولة الحفصية بنيت ـ في سنواتها الأولى ـ على الإمامية وكلمة التوحيد فإنها ـ أي الدولة الحفصية ـ لا تقلّ تمسكاً ببدعة الوراثة عن الدولة الموحدية نفسها. وهي الدولة الأم بالنسبة لها في هذا المضمار.

ولم تكن وصية محمد بن تومرت في تولية عبد المؤمن بن علي من بعده تشير من قريب أو بعيد لنظام الوراثة. وإنما كانت توكل الأمر لشيوخ الموحدين حتى يختاروا من يرونه صالحاً. ولا تعني تلك الوصية توريث أبناء عبد المؤمن بن علي للخلافة إذا وقع عليه الاختيار من مؤسس المذهب والدولة؛ لأن اختياره واقتراحه كانا مبنيين على اختبار وكفاءة لمن أوصى له بتولّي الأمر من بعده. وقد قال محمد بن تومرت في ذلك الموقف مخاطباً مشيخة الموحدين:

«. . وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً عليكم. هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله، من ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه. واختبرنا سريرته

وعلانيته فرأيناه في ذلك كلّه ثبتاً في دينه، متبصراً في أمره. وإني لأرجو ألا يخلف الظن فيه. . . فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه؛ فإن بدّل أو نكص على عقبه، أو ارتاب في أمره ففي الموحدين ـ أعزهم الله ـ بركة وخير كثير. والأمر أمر الله يقلده من يشاء من عباده. . »[211].

تلك هي فلسفة ابن تومرت في اختيار المسؤول عن الموحدين حتى يتحقق ما يؤمله من ظهور الإمام العادل المعصوم. إلا أن تلك الفلسفة وقع الابتعاد عنها ابتداء من خلفه الأول عبد المؤمن بن علي كما تقدم.

وإذا كانت كلمة «التوحيد» مؤمنية وحفصية[212] فمعنى ذلك أن الحفصية مطالبة بنفس المبادىء التي أقرها إمام الموحدين محمد بن تومرت. إلا أن هذه الفلسفة نالها التحريف كذلك من الحفصيين مثلما نالها ـ سابقاً ـ من عبد المؤمن بن علي وأبنائه وأحفاده؛ فقد أقر أبو زكرياء الحفصي أمر الوراثة في أبنائه كي يتولوا شؤون الدولة الحفصية الموحدية من بعده. إنها ـ إذن ـ فلسفة الملك العضوض السائدة في تلك العصور. وهي السمة التي تنعدم فيها القيم، وتهمل الكفاءات. ولن تجدي فيها النصيحة مهما حاول الموصي أن تتبع تعليماته إذا لم تكن الكفاءة نابعة من الذات.

(211) المعجب للمراكشي (196).
(212) الفارسية (108).

وصية أبي زكرياء الحفصي لولي عهده

ولعلّ أبا زكرياء الحفصي حاول أن يتدارك ما كان ينقص وليّ عهده الذي اختاره، وهو شاب صغير قليل التجربة والخبرة، فكتب إليه وصيته المشهورة، وكأنها إشارة واضحة عنده أن هذا الذي اختاره ليكون خليفته في إمارة إفريقية ما يزال في أمس الحاجة إلى منهج يشب عليه، وإلى مبادىء يستنير بهديها؛ لأن صغر سنّ الوارث المنتظر وقلة تجربته لا يؤهلانه بعد لممارسة السيادة، وتسيير شؤون الحكم.

وكانت أهم بنود تلك الوصية دعوة أبي زكرياء ابنه إلى الإقدام على ما يرضي الله، والإحجام عما يسخطه، وأن يكون عمله وسعيه وذبّه عن المسلمين وحربه وجهاده للمؤمنين بعد التوكل على الله، والبراءة من الحول والقوة إليه.

كما دعاه إلى التحلّي بصفات التريث ورباطة الجأش فيما يفاجئه من الأحداث والأمور. وأنه إذا ضاق به الأمر، وقصّر عن مقاومته رجاله فليجعل مفتاح حلّ مشاكله الصبر والحزم، والأخذ مع عقلاء الجيش وذوي التجارب من نبهاء الناس. وطلب منه أن يحسن إلى رجال جيشه، وأن يعتبر كبيرهم أباً، وصغيرهم ابناً. وأن يخفض لهما جناح الذل من الرحمة ويشاورهم في الأمر.

وعليه ألا يغترّ بما هو فيه من منصب وجاه، وأن يتفقد أحوال رعيته

وشؤونها. وأن يبحث عن سيرة عمّاله وتصرفات قضاته. وأن يتخذ حاشيته ومساعديه من الصادقين المصدقين، وأن يسألهم فرادى لأنه متى اقتصر على شخص واحد فربما تجنّب الحق، وترك قول الصدق. وعليه أن يستمع إلى المظلوم ويتتبع قضيته حتى يتضح له أمره.

وليعلم أن دماء المسلمين حرام إلاّ بحق أوجبه الكتاب والسنة أو اقتضاه العيث في طرقات المسلمين وأموالهم. وشدّد عليه في ألاّ يقيل عثرة الحسود. وعليه أن يحسم داءه قبل انتشاره، ويتدارك أمره قبل استفحاله.

ثم ينهي أبو زكرياء الحفصي وصيته إلى ابنه بألاّ يغترّ بالدنيا وأن يلزم القناعة، ويتمسك بالإيثار لأنه أرفع المكاسب وأنجح المطالب[213].

وهكذا تبدو الوصية إقراراً لولي عهده، خلواً من مبدأ الاختيار والشورى، ولا تقيم وزناً لأهل الرأي من مشيخة الموحّدين، ولا تخيفه بأنه لا سلطان له على رعيته إذا حاد عن المنهج، وتنكب عن سبيل الحق، ومبادىء الحكم الرشيد.

وكانت الوصية - في أول الأمر - موجهة لأبي يحيى زكرياء فلما توفي وأصبح وليّ العهد أبا عبدالله محمد أصبحت موجهة إلى هذا الأخير خاصة أنه ما يزال في بداية شبابه.

(213) انظر نص الوصية في العبر (6 :620 - 623).

وفاة مؤسس الدولة الحفصية

ولم يطل الأمد بأبي عبدالله محمد وليّاً للعهد فقد توفي أبو زكرياء الحفصي سنة 647 هـ (1249 م) بينما كان يقوم بجولة تفقدية في عنابة (بونة) في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة. فدفن بجامعها قرب ضريح الولي أبي مروان اليحصبي. ثم بعد سنوات ـ وأثناء نزول لويز التاسع بتونس ـ نقل رفاته من عنابة إلى قسنطينة لأسباب يأتي شرحها في الإبّان.

وكانت وفاة أبي زكرياء المفاجئة في التاسعة والأربعين من العمر كاشفة عما ذكرناه بخصوص وَهَنِ سياسته الخارجية وانفراط عقد تلك المبايعات الواردة عليه من أقطار مغربية مختلفة. وقد اهتم ابن خلدون ـ أكثر من غيره ـ بتلك النتيجة، فذكر أنه لما شاع خبر وفاة أبي زكرياء الحفصي انتقض كثير من أهل القاصية ونبذوا الدعوة الحفصية فعطّل ابن الأحمر الدعوة لبني حفص من فوق منابره في إمارته بغرناطة. وثار أهل سبتة على أبي يحيى بن الشهيد الموالي لأبي زكرياء، كما تبعهم أهل طنجة. ولم يبق على عهده لبني حفص إلا يغموراسن بن زيان في تلمسان[214] وهو بقاء سوف لا يطول أمره كثيراً حتى تلتحق تلمسان ببقية المتنصّلين من الدعوة الحفصية بعد وفاة مؤسسها أبي زكرياء الحفصي.

وكان من نتائج وفاة أبي زكرياء اشتداد الضغط على البقية الباقية من

(214) العبر (6 :624 - 625).

المسلمين في صقلية وجزيرة مالطة فعندما بلغ خبر وفاته إلى صقلية نقض العهد الذي أبرمه أبو زكرياء مع صاحب صقلية. وهو العهد الذي كان يقتضي التعايش بين المسلمين والنصارى الموجودين في مدينة بلرم وما حولها. فما إن وصل نعي أبي زكرياء حتى بادر النصارى - حسب تعبير ابن خلدون - بالعيث فيهم. فلجأ المسلمون إلى الحصون والجبال، ونصّبوا عليهم ثائراً من بني عبس. وشدّد الصقليون عليهم الحصار حتى أجبروهم على الاستسلام والنزول من معاقلهم. ثم أخرجوهم من الجزيرة. وبعد ذلك اتجه صاحب صقلية إلى مالطة وأخرج بقية من كان فيها من المسلمين. وانتهت بذلك - نهائياً - كلمة الإسلام في تلك الجزر.

هذا هو ردّ الفعل الخارجي والنتيجة الأولى لوفاة أبي زكرياء الحفصي.

الفصل الثالث

المستنصر الحفصي وشبح الخلافة

أول عهد المستنصر الحفصي

عندما توفّي أبو زكرياء الحفصي ودفن في عنابة كان معه ـ إذ ذاك ـ ابنه محمد وليّ عهده ـ فتولّى عمُّه محمد بن عبد الواحد المعروف باللحياني أخذَ البيعة له من أهل الحلّ والعقد الذين كانوا موجودين معهم في عنابة. وكانت تلك البيعة هي البيعة الأولى الخاصة. ثم ارتحل محمد بن أبي زكرياء إلى تونس فدخل العاصمة في الثالث من شهر رجب من نفس السنة».. فجدّدَ بيعتَه يوم وصوله. وتلقّب «المستنصر بالله».. ثم جدّد البيعَة بعد حين، واختار لوضع علامته (الحمد لله والشكر لله)[215] واحتفظ بلقب «الأمير» مقتصراً عليه مثل والده. وكانت سنّ المستنصر اثنين وعشرين عاماً.

وبمناسبة وفاة أبي زكرياء الحفصي قيلت عدّة قصائد في رثائه. وكان من بين تلك المراثي القصيد الذي أنشد عثمان بن عتيق المهدوي. وقد قال عنه ابن القنفذ: إن كلّ بيت منه جمع رثاء الأمير (أبي زكرياء) وهناء ولده المستنصر[216] كأنه على حدّ ما يقال عند بعض الأمم «مات الملك عاش الملك».

وكان مطلع القصيد المذكور قول عثمان المهدوي:

يـأتي الزمـان الغضُّ ثُمّتَ يـربـعُ ويضـرّ هـذا الـدهـر ثمت ينفـعُ

(215) العبر (6 :626).

(216) الفارسية (113).

ورغم استحسان ابن القنفذ للقصيد المذكور فلم يذكر منه إلّا الأبيات التالية:

فلئن طوى بدرَ الإمارة مغربُ فلقد جلا شمسَ الخلافة مطلعُ
فأضاء بالمرحوم ذلكُمُ الثَّرى وأنار بالمنصور ذاك المربعُ
بسطوا لسانَ الشكر فيمن بايعوا وثنوا عنان الصبر عمّن ودّعوا
ورأَوْا خلال محمّدٍ فتباشروا وتذكّروا يحيى الرضى فتفجعوا[217]

(217) الفارسية (113).

بداية الصعوبات ولماذا؟

كان أول ما جابهه المستنصر الحفصي المؤامرات الداخلية ضدّه. وكان لتركيب المجتمع الذي تكوّن في عهد أبي زكرياء الحفصي الأثر الأكبر في ذلك: فبالإضافة إلى ما كان في إفريقية من شخصيات موحدية وتونسية مرموقة فإنّ أبا زكرياء الحفصي جعل بلاطَه محطّ آمال شخصيات كثيرة علمية وأدبية وسياسية وردت من الأندلس أو من بقية أنحاء المغرب الإسلامي. هذا زيادة على ما اتخذه أبو زكرياء من علوج النصارى خاصة في جيشه وبلاطه. ولم يكن يجمع بين تلك الشخصيات المختلفة المنازع والأهواء هدف مشترك أو مصلحة عامة، بل كانت أشتاتاً متناثرة الأهواء والمطامع. وكان الكثير منها قد سبق له العيش في مجتمعات تسودُها الدسائس والمؤامرات والغدر.

وإذا كانت شخصية أبي زكرياء الحفصي لها من القوة والمران والحكمة وكثرة التجربة ما ساعدها على صهر تلك المتناقضات في بوتقة واحدة، فإنّ خليفته المستنصر بالله كان ما يزال شاباً خالياً من أسباب تلك المناعة التي تحول بين ظهور انعكاسات تلك التناقضات. وكان الموحّدون ـ بصفة خاصة ـ يشعرون بما أصبحوا عليه من ضيق وضعف مكانة أمامَ أولائك الوافدين المحظوظين. كما كان يشعر أولائك الوافدون بضرورة زحزحة الموحّدين عن مناصب القوة والسيطرة، وهم المعتزون بمجد النضال القديم والدالّة السابقة. وهكذا بدأت تظهر نتائج ذلك المجتمع المتناقض منذ الأشهر الأولى من تولّي المستنصر بالله إمارة إفريقية.

المظاهر الأولى للتصدّع الداخلي

لقد تمثلت بداية التصدع والصراع عندما استوزر المستنصر بالله أبا عبدالله محمد بن أبي مهدي الهنتاتي الذي كانت له مطامح، يمكن أن نصفها بشيء من التجوز بالمطامح الوطنية، ذلك أن الأمير الشاب كان يخضع في سياسته وإدارته لسيطرة شخصيات وافدة من خارج إفريقية لا سيما من الأندلس، ومن العلوج النصارى. والملاحظ أن المستنصر بالله كانت أمّه رومية الأصل اسمها «عطف»[218] ولو أن الإكثار من أولائك العلوج واصطناع الكثير من وافدة الأندلس ابتدأ منذ عهد أبي زكرياء الأول نفسه. وقد زاحم هؤلاء الوافدون الموحّدين في مراكزهم من الدولة[219] فعمل ابن أبي مهدي الهنتاتي على إقصائهم، بل عمل حتى على زحزحة المستنصر عن إمارة إفريقية؛ فقد أجرى ابن أبي مهدي اتصالات سرية مع أعمام المستنصر. خاصة أبا إبراهيم إسحاق وأبا عبد الله محمد اللّحياني. وكانت خطته أن يتآمر مع أحدهما ضدَّ المستنصر، وتحول الإمارة والبيعة له حتى يتداركا ما فاتهما من الإمارة بسبب حصر ولاية العهد في أبناء أبي زكرياء الحفصي دون أن يشرك إخوته فيها. ولكن الأخوين لم يستجيبا لتحقيق خطة ابن أبي مهدي الهنتاتي، فتحول هذا الأخير عنهما إلى أحد أبناء محمد اللحياني فاستجاب له. واتفقا على تنفيذ الخطة، وبايعه ابن أبي مهدي سرّاً ووعده بالتأييد والمناصرة[220].

(218) الزركشي (33).

(219) العبر (6 :627).

(220) المصدر السابق.

وكان محمد اللّحياني قد عرف سرّ هذا التآمر الذي يقوم به ابنُه صحبةَ ابن أبي مهدي، ولعلّه خاف حدوث فتنة لا يدري مداها فذهب إلى ابن أخيه (الأمير المستنصر) وحذّره مما يقوم به ابنه من التواطؤ ضده مع ابن أبي مهدي الهنتاتي. كما أكد القاضي أبو زيد التوزري للمستنصر صحة التحذير الذي تقدم له به عمّه محمد اللّحياني.

وحدّد المتآمرون يوم العشرين من جمادى سنة 648 هـ (أوت أو سبتمبر 1250) موعداً لتنفيذ خطتهم، فبادر ابن أبي مهدي الهنتاتي بالقبض على الوزير أبي زيد بن جامع. وخرج مع مشيخة الموحدين لمبايعة ابن محمّد اللحياني. ولكن المستنصر وأنصاره ـ وخاصة قواد جيشه من العلوج ـ استعدّوا للأمر. وكلف العلج القائد ظافر بمجابهة الموقف. وقد التقى الجمعان بالمصلّى خارج باب المنارة. ونظراً إلى أن القوة والجيش كانا تحت قيادة ظافر فقد استطاع هذا الأخير أن يهزم ابن أبي مهدي الهنتاتي ومن معه من الموحّدين. وبعد المعركة ذهب القائد ظافر إلى دار محمد اللحياني، ولم يكتف القائد ظافر بقتل ابنه الذي دبّر المؤامرة وقبل البيعة، بل قتل كذلك والده محمد الذي كان ضدّ ابنه في موقفه، وذهب إلى أكثر من ذلك فأسْرَعَ إلى المستنصر يخبره بما تمَّ بين ابنه وبين الوزير أبي مهدي الهنتاتي. وزاد القائد ظافر ـ على ذلك ـ عندما توجه إلى العمّ الثاني للمستنصر ـ وهو أبو إبراهيم بن عبد الواحد ـ وقتله هو وابنه كذلك. ثم نظمت حملة نَهْب ضدّ منازل الموحّدين فوقع تخريبها والاستيلاء على ما فيها. وابتهج المستنصر بتلك الأعمال ضدّ أعمامه وضدّ مشيخة الموحدين فأكرم القواد والجنود الذين قاموا بتلك الأعمال. وقدّم لهم الهبات والعطايا.

وهكذا حاول المستبدّون على المستنصر ـ من العلوج والوافدين ـ تصفية قضية الموحدين وعائلة عبد الواحد بن أبي حفص حتى يخلو لهم الجو، ويستبدّوا بالأمر دون منازع.

ولكن بعد الانتهاء من نشوة الانتصار وعملية التصفية للعناصر التي

يمكن أن يخشى منها وتعيين ابن أبي الحسين في الوزارة إثر مقتل ابن أبي مهدي. بعد كل ذلك اقتنع المستنصر بالله بإفراط قائده ظافر في التنكيل والقتل والنهب لا سيما في قتل عمّيه محمد وإسحاق اللذين قتلا ظلماً وبدون مبرر. ولهذا تحولت نقمة المستنصر إلى قائده ظافر، فعزم على الانتقام منه. وبلغت نية المستنصر إلى القائد ظافر قبل أن يتمكن منه ففرّ عنه ملتجئاً عند قبائل الذواودة في جنوب المغرب الأوسط.

والذي أوغر صدر المستنصر على قائده ظافر علج آخر اسمه هلال؛ فقد استطاع هذا الأخير أن يوغر صدر سيّده على قائده ظافر حتى يصبح هو صاحب الحظوة الأولى. ومن المحتمل جداً أن يكون قد تم ذلك بتعاون مع الوزير محمد بن أبي الحسين الذي كان من أصل أندلسي، وتولّى عُلْيا المناصب في عهد أبي زكرياء الحفصي حتى «غلبه على هواه. وكان مبخّتاً في صحبة الملوك. ولما ولي المستنصر أجراه على سننه برهة، ثم تنكر له إثر كائنة اللّحياني. وعظمت سعاية أعدائه من البطانة. وأشاعوا بمداخلته لأبي القاسم ابن مخدومه أبي زيد بن الشيخ أبي محمد، فنكبه السلطان واعتقله بداره تسعة أشهر. ثم سَرحه وأعاده إلى مكانه. وثأر من أعدائه»[221].

(221) العبر (6 :672).

ثورة أبي إسحاق إبراهيم

لم تكن مؤامرة ابن أبي مهدي الهنتاتي هي العقبة الأولى الداخلية التي جابهت مشكل استقرار الدولة الحفصية، وقضية مكانتها كقوة سياسية ظهرت بعد تشتت الموحدين وانفراط عقد سلطتهم.

فبعد انتهاء المستنصر من إحباط مؤامرة ابن أبي مهدي الهنتاتي وقتل عميه وابنيهما بدأ الشقاق يدبّ بين أبناء أبي زكرياء الحفصي وأحفاده لا سيّما بين المستنصر وأخيه أبي إسحاق إبراهيم[222]، فقد كان هذا الأخ يشكو سوء خلق المستنصر وسوء تصرفاته وكان إبراهيم يتحدث بذلك أمام خاصته فتصل تلك الأحاديث إلى المستنصر مما جعله يخشاه من أن يقلب له ظهرَ المجن يوماً مّا. ولهذا نصب المستنصر على أخيه مراقبة شديدة حول تصرفاته وحركاته[223]. وضاق إبراهيم ذرعاً بتلك المضايقة فأخذ يفكر في الفرار مخافةَ البطش به. وقد تمكن من ذلك سنة 651 هـ (1253 م) بعد سنتين من مراقبته وتضييق الأمر عليه. ونزل أبو إسحاق إبراهيم عند الذواودة من قبيلة رياح فانقادوا إليه وبايعوه بزرايا من نواحي نقاوس. وكان يوجد فيهم ـ كما تقدم من قبل ـ القائد ظافر الذي فرّ ـ هو أيضاً ـ من قبضة المستنصر عندما أراد الفتكَ به بعد مقتل عمّيه وابنيهما. ولهذا كان من الطبيعي أن ينضم القائد ظافر إلى أبي إسحاق إبراهيم مما قوّى جانبه، وعزز صفّه، وشجعه على مواصلة

(222) العبر (6 :632).

(223) الزركشي 118).

الانتقاض، والسعي في استجلاب الناس من حوله، وتوسيع دائرة نفوذه. وكان أول عمل قام به أبو إسحاق إبراهيم هو التوجه إلى بسكرة ومناصبتها الحصار؛ لأنها حاولت منعَه وصدَّ الأبواب في وجهه. ولكن فضل بن علي ابن مزني (أحد شيوخ بسكرة)؛ مال إليه وأخذ يدعو السكان إلى استجابة دعوته حتى تآمروا عليه وكادوا يقتلونه؛ ففرّ منهم وانضم إلى أبي إسحاق إبراهيم بأنصاره مما جعل سكان بسكرة ـ آخر الأمر ـ يضطرون إلى إلقاء السلاح ومبايعته. وبعد بسكرة توجه أبو إسحاق، إلى قابس فاستولى عليها واجتمعت إليه الأعراب من كل مكان. وبذلك بدأ المستنصر يشعر بالخطر الذي يهدده من ثورة أخيه إبراهيم فقبض على أبنائه في تونس وحبسهم في سجن القصبة وشدد عليهم الحراسة[224].

وكان البلاط الحفصي يجزم بأن التغلب على الثائر إبراهيم صعب المنال ما دام متحالفاً مع القائد ظافر مما يجعل أية مجابهة بين الأخوين لا تضمن رجحان كفة المستنصر. ولهذا كان لا بد من إيجاد خطة تستهدف إبطال التحالف بين أبي إسحاق إبراهيم والقائد ظافر بإفساد العلاقات الحسنة بينهما.

(224) العبر (6 :632).

حيلة ابن أبي الحسين

كان الوزير ابن أبي الحسين «في رئاسته صليب الرأي، قوي الشكيمة، عالي الهمة، شديد المراقبة والحزم في الخدمة» بهذه النعوت يصفه ابن خلدون في كتاب العبر[225]. ولهذا فلا يستغرب منه أن ينجح في تدبير خطة إفساد العلاقات بين القائد ظافر وأبي إسحاق إبراهيم؛ فقد بعث ابن أبي الحسين إلى أخت أبي إسحاق يحذرها من سوء المغبة التي سوف ينالها أخوها من القائد ظافر المتحالف معه. وأنه يتربص به الدوائر، ويتحيّن الفرص للقضاء عليه في النهاية. وأكدت ذلك السابقة التي أقدم عليها القائد ظافر حين قتل عدة شخصيات من عائلة بني حفص دون جريرة ارتكبوها لا سيما أن هؤلاء القتلى كان من بينهم أخواها. ولهذا فإن التحذير الذي بعثه إليها ابن أبي الحسين وجد لديها القبول والاقتناع. فبادرت هي الأخرى بالتحذير وأرسلت به إلى أخيها أبي إسحاق إبراهيم، تنذر بالغدر الذي يبيّته القائد ظافر. ومما لا شك فيه أن إبراهيم نفسه لا يجد ـ نفسياً ـ ما يحول بينه وبين التصديق بذلك التحذير. وهكذا انطلت الحيلة على إبراهيم فأساء الظن بالقائد ظافر، وأخذ يحتاط منه إلى أن انتهى الأمر بتخلّي القائد ظافر عنه والتوجه إلى المغرب الأقصى.

وكان هذا الافتراق بين المتحالفين ذا أثر كبير في أبي إسحاق إبراهيم

(225) العبر (6 :672).

إذ صحّ لديه أنه لا يستطيع مجابهة أخيه المستنصر بمفرده فقرر هو ـ أيضاً ـ الانسحاب من الميدان. وغادر إفريقية متوجهاً ـ بدوره ـ إلى المغرب الأقصى. ومن هنالك عبر المجاز (مضيق جبل طارق) إلى مملكة غرناطة بالأندلس. ونزل عند صاحبها محمد بن الأحمر الذي أكرم وفادته «.. ورعى له عهد أبيه أبي زكرياء وأسنى له الجراية»[226] وشارك أبو إسحاق إبراهيم مع ابن الأحمر في المعارك التي خاضها ضد أعدائه النصارى في إسبانيا، وأبلى البلاء الحسن.

أما المستنصر بالله الحفصي فإن خروج أخيه على تلك الصورة لم يسمح له بالاطمئنان خاصة أنه انضم إلى ابن الأحمر وأصبح من خاصته، فخاف أن يتحالف معه ويجهزه لغزو إفريقية لهذا سلك المستنصر مسلك المسالمة والمهاداة مع ابن الأحمر. وكان «يوجه إليه الهدايا الضخمة، ويبعث إليه بالأموال الكثيرة ليمسك عنه أخاه. ويرسل الأرسال من كبار الموحدين في السفارة عنه لابن الأحمر»[227].

وواضح أن المقصود من كل ذلك هو تتبع نشاط أبي إسحاق إبراهيم وحركاته حتى يكون على بينة من أمره، وعلى استعداد لمجابهة أي خطر. وسوف يرينا مجرى الأحداث ـ فيما بعد ـ أن أبا إسحاق إبراهيم كانت له خطة أخرى. وسوف يظل في كنف ابن الأحمر، صاحب غرناطة، إلى وفاة المستنصر. وإذ ذاك يعود إلى إفريقية ويكون له فيها شأن.

(226) العبر (6 :632) والإحاطة (1 :316).
(227) الفارسية (118).

حركات تمرد أخرى

لــم يكن فرار أبي إسحاق إبراهيم مانعاً من وقوع عدة أحداث أخرى؛ فبعد خروجه بقليل ظهرت حركة تمرد وعصيان في بني النعمان، وهم من أعيان قبيلة هنتاتة ومشائخها. وقد كان بنو النعمان من ذوي الحظوة والمكانة عند أبي زكرياء الحفصي. وكانت منطقة قسنطينة تحت ولايتهم وتصرفهم. وقد استمروا على ذلك إلى أوائل إمارة المستنصر على إفـريقية. ولكن المحاولة الانقلابية التي دبرها ابن أبي مهدي مع ابن محمد اللحياني كان لها تأثير كبير على علاقات بني النعمان مع المستنصر الحفصي، فقد أظهروا تأييدهم لحركة ابن أبي مهدي الهنتاتي. ولهذا فما إن تم القضاء على المؤامرة حتى توجه المستنصر إلى قسنطينة وقبض على رؤساء بني النعمان فنفى البعض منهم إلى الإسكندرية، وقتل البعض الآخر. واعتبر ابن خلدون أنه بذلك تمّ استصفاء أمر هذه العائلة المشاغبة.

وبعد ذلك ظهر ثائر آخر بمناطق الجنوب الشرقي الجزائري عرف بلقب «أبو حمارة» فخرج إليه المستنصر وقبض عليه. وبعث برأسه إلى مدينة تونس فنصب بها للترهيب والاعتبار. ثم قام بحملة تأديبية ضد بني مرداس وبني دبّاب في جبال الحضنة، وقبض على عدد من رؤوسائهم، وبعث بهم إلى سنجن المطبق بالمهدية[229].

(228) العبر (6: 633).
(229) الفارسية (119).

وفي المغرب الأوسط من نواحي تلمسان استبدّ أبو علي الملياني وخلع طاعة بني حفص، ودعا لنفسه بالإمارة على عدة مناطق، فأرسل إليه المستنصر حملة عسكرية بقيادة أخيه أبي حفص صحبة الأمير أبي زيد بن جامع(230). ومما يدعو إلى الاستغراب أن هذه الحملة كان فيها أخو ملك قشتالة الإسبانية بعدما وصل إلى تونس مغاضباً لأخيه فاقتبله المستنصر أحسن قبول(230) وأصبح يستعين به في مثل هذه الأحداث. واستطاع الأمير أبو حفص أن يتغلب على أبي علي الملياني، وأن يجبره على الفرار إلى المغرب الأقصى. وعاد أبو حفص إلى تونس بعد أن رفض عرض أخيه في ولايته على بجاية.

وجابه المستنصر خلافاً عائلياً آخر تمثل في عزم ابن عمّه (أبي القاسم بن أبي زيد) على الخروج ضدّه. فالتجأ إلى الذواودة من قبائل رياح وبايعه أهلها بقيادة رئيسهم شبل بن موسى (231). لكن هذا الثائر الجديد لم يكن له كبير خطر. فما إن علم بأن المستنصر يستعد لملاحقته، وما إن أحس بتململ الأعراب من حوله حتى بادر بالتحوّل عنهم. وانتهى به المطاف إلى غرناطة عند ابن الأحمر حيث يوجد أبو إسحاق إبراهيم. ويبدو أن هذا الثائر الجديد كان مجرد مغامر بدون أهداف فانقاد إلى الملذات والاستهتار حتى خرج من غرناطة هائماً إلى أن أدركه الموت في تلمسان.

ولم يكتفِ المستنصر بخروج أبي القاسم بن أبي زيد من المغرب الأوسط وتخلّيه عن الذواودة فقرر أن يتجه إلى تلك القبائل لتأديبها محاولاً استئصال بذور الفتنة والانتقاض من تلك المناطق النائية خاصة في المسيلة وجبال الحضنة. وهكذا خرج من تونس سنة 664 هـ «في عساكر الموحّدين وطبقات الجند لتمهيد الوطن ومحو آثار الفساد منه، وتقويم العرب على الطاعة. وتنقَّلَ في تلك الجهات إلى أن وصل قبيلة رياح فدوّخها ومهد

(230) العبر (6 :657).

(231) العبر (6 :659).

أرجاءها»[232] وفر شبل بن موسى رئيس الذواودة إلى الصحراء. واحتل المستنصر مدينة المسيلة. وأدّب القبائل وشرّدها مما جعل البعض من زعمائها يلتجؤون إلى بني زيّان وبني مرين «.. فأجاروهم وأوسعوهم حباء، وملأوا أيديهم بالصلات، ومرابطهم بالخيل، وأحياءهم بالإبل، فرجعوا من جديد إلى مناطقهم واستقروا فيها»[233] وإن دلّ موقف بني مرين وبني زيان على شيء فإنما يدلّ على أن العلاقات التي كانت قائمةً بينهم وبين بني حفص لم تكن علاقات تحالف حقيقي بل كانت علاقات فرضتها الظروف الخاصة سرعان ما ينالها الوهن والتبديل.

هذه ـ إذن ـ هي أهم الأحداث الداخلية التي جدث في عهد المستنصر. وهي أحداث تزيد تأكيداً على أن أسس الدولة التي بناها أبو زكرياء الحفصي لم تكن راسية على أُسس الثبات. ولم تكن النخبة التي تولّت الحكم ممسوكةً بالحبل المتين، ولا مستهدفة مصلحةً عامةً مشتركة تقتضي التساند والتكاتف ونكران الذات. وهو ما ستبقى تعانيه الدولة الحفصية إلى آخر عهدها مهما طال بها الأمد وامتدَّتْ بها السنون. وليست العبرة بطول العمر ـ كما يقولون ـ وإنما العبرة بعرضه لأن الطول الضعيف الواهي أقلّ جدْوَى وثباتاً من العرض المخصب المثمر.

(232) العبر (6 :660).
(233) العبر (6 :662 - 663).

العلاقات الخارجية في عهد المستنصر

أ ـ مع بني مرين:

ذكرنا في السابق أن هنالك مخايل من الإشعاع الخارجي للدولة الحفصية في عهد المستنصر بالله الحفصي. وأنّ مخايل ذلك الإشعاع لعلّها تبدو أكثر إشراقاً وأعظم اتساعاً مما كان في عهد سلفه ووالده أبي زكرياء. وكان هذا الإشعاع يتمثل في العلاقات الخارجية التي كانت للدولة الحفصية سواء أكانت علاقات تطلّع أو علاقات تبعية. وكان من مظاهر ذلك الإشعاع العلاقات التي كانت موجودة بين بني حفص في تونس، وبني مرين في المغرب الأقصى؛ فقد أعلن بنو مرين مبايعتهم للمستنصر طالبين منه المعونةَ والمساعدةَ. ولكن موقف بني مرين لم يكن إلاّ مناورة سياسية قاموا بها رغبة في البحث عن حليف مساند، وإرهاباً للمرتضى الموحّدي الذي كانت له مع بني مرين محاربات كثيرة[234].

وقد تعرض أحمد الناصري (صاحب كتاب الاستقصاء) لموقف بني مرين بقوله:

«.. ولما نبغ بنو مرين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون إلى أبي زكرياء الحفصي تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضاتهم، وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في

(234) العبر (6: 542).

قلوبهم، فلو دعوا إلى غيرها من أول الأمر لحاصوا عنها حيصة حُمُرِ الوحش. ولما لم يمكن لبني مرين أن يدعوا إلى بني عبد المؤمن لأنهم أقتالهم وإياهم يتنازعون، ولهم يحاربون، ويجادلون، دعوا إلى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم، والدعوة إلى الفرع كالدعوة إلى أصله، فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها. وإنما كان بنو مرين يسرون حسواً في ارتغاء»[235].

ومعروف أن بني مرين أصبحوا أخطر عدوّ على بقايا الخلافة الموحدية لأنهم يناوؤنها في عقر دارها، ويعملون على الإطاحة بعرشها. لهذا كان من الطبيعي أن يحاول الموحدون صدّ هذه القوة المعادية ومحقها. كما كان من الطبيعي أن يبحث بنو مرين عن حليف لهم ضد الخلافة الموحدية، وأن يجدوا أكثر استجابة لذلك عند بني حفص، أول المنفصلين عن تلك الخلافة، وأكثر المستولين على أجزاء من تركتها.

وقد اشتد ذلك الصراع في عهد «الخليفة» المرتضى فبعث بنو مرين سنة 652 هـ (1254 م) إلى المستنصر الحفصي ببيعة أهل فاس يحملها وفدٌ هامّ من مشيختهم. وكان لهذه البيعة أثرها الكبير على السلطان الحفصي فاقتبلهم بالترحاب والتكريم، وأجزل لهم الهبات والعطايا [236]. وعندما تولّى يعقوب المريني ـ بعد وفاة أخيه أبي يحيى ـ أرسل مبايعته للمستنصر الحفصي في وفد كبير وهدايا ثمينة، وطلب من المستنصر إعانته ومساعدته في حروبه ضدّ الموحدين.

وكان المستنصر شديد الاحتفاء بالقادمين عليه مبايعةً أو مهاداةً. ويصف لنا ابن خلدون مظهراً من مظاهر الحفاوة التي يقتبل بها المستنصر وفود القادمين لمبايعته بما فعله المستنصر حين قدم عليه وفد من بني توجين بعد احتلاله المسيلة وفرار شبل بن موسى زعيم الذواودة. يقول ابن خلدون:

(235) الاستقصاء (3 :28).
(236) العبر (6 :651).

«.. ووافاه هنالك أمير بني توجين من زناتة مجدّداً لطاعته، ومتبركاً بزيارته، فتلقاه من البرور تلقّي أمثاله، وأثقل كاهله بالحباء والجوائز. وجنّب له الجياد المقرّبات بالمراكب المثقلة بالذهب واللّجم المحلاّة. وضرب له الفساطيط الفسيحة الأرجاء من ثياب الكتان، وجدل القطن إلى ما يتبع ذلك من المال والظهر والكراع والأسلحة وأقطع له مدينة مقّرة (وغيرها) وانقلب عنه إلى وطنه..»[237].

وإذا قلنا: إن مواقف بني مرين لم تكن إلا مناورات سياسية فإن ذلك يعود إلى أن بني مرين يلتقون التقاءَ الندّ للندّ أمام موقف بني حفص من الدولة الموحدية في أنّ كلًّا منهما ثائر ضد الدولة الأم، مقتطعٌ لأجزاء من أملاكها. وإذا كان المجد القَبَلي دعا الهنتاتيين إلى تكوين الممالك فإن الزناتيين ليسوا أقلَّ حَظاً من الحصول على ذلك الشرف، واكتساب ذلك المجد.

ب ـ بيعة الحجاز للمستنصر:

ومن مخايل الإشعاع الخارجي لدى المستنصر بالله الحفصي ما اعتنت به كتب التاريخ ونوّهت بشأنه هو أمر البيعة التي وردت عليه من مكة المكرمة. وقد اعتبر أولائك المؤرخون أن حصول ذلك كان من أهم الأحداث التاريخية التي تمت في عهد المستنصر، وأكسبته وأكسبت دولته حسنَ السمعة وطيبَ الذكر.

إلا أن دراسة الظروف التاريخية والنفسية التي أحاطت بذلك الحادث لا تجعله في مستوى القيمة الإشهارية التي صاحبت تلك البيعة. كما أن تلك البيعة لم يكتسب منها المستنصر إلا لقباً تشريفاتياً ليس له أيّ مفعول إيجابي على قوة الدولة ومناعتها. بل لعلّه كان أدعى إلى التناقض مع مدلول الخلافة الإسلامية في هيبتها وعظمتها والتزاماتها تجاه المجتمع الإسلامي بصفة

(237) العبر (6 :660).

عامة، وبين الواقع الذي آلت إليه منذ أن أصبح «الخلفاء» في عهد بني العباس ألعوبةً بين أيدي القواد وملوك الأطراف المقتطعة من صلب رقعة تلك الخلافة، حتى أصبح أولائك «الخلفاء» متاعاً يحرزه كل من غزا بغداد واستولى عليها فيكون «الخليفة» من جملة مكاسبه.

جـ ـ المستنصر والشبح الهزيل للخلافة:

لقد كان سقوط الخلافة العباسية في بغداد تحت الضربات القاسية من هولاكو سنة 656 هـ (1258 م) مزيلاً لذلك الشبح الهزيل من «خلفاء» بني العباس. ورغم ذلك فقد اهتز لذلك الحادث العالم الإسلامي أيّما اهتزاز، وجعل المسلمين يتألمون لفقدهم نقطةَ التقاء أنظارهم، ولانعدام العاصمة التي كانت تجمع ـ ولو رمزياً ـ بينهم.

ويبدو أن أهل الحجاز ـ الذين هالهم الفراغ الذي أحدثه سقوط الخلافة العباسية في بغداد ـ أخذوا يتطلعون إلى أنحاء العالم الإسلامي يبحثون عمّن يمكن أن يحمل لقب «الخلافة»، ويحدّد رسومها ليسدّ ذلك الفراغ الذي حصل بعد سقوط بغداد. وكانت أقرب الدول الإسلامية إليهم وأقواها هي الدولة المصرية. ولكن انتقال السلطة فيها إلى المماليك البحرية أبعد الأمل في تقليد الخلافة لواحد منهم أو عرضها عليه. وذلك يعود أولاً إلى الخلافات الناشبة في ذلك العهد بين شريف مكة والمسؤولين في مصر، وثانياً للاعتقاد السائد بأن الخلافة إنما تكون في قريش. وليس المماليك سوى خليط من الرقيق جلبوا من أقطار أعجمية مختلفة فاستبدّوا على بني أيوب وافتكوا منهم السلطة. وهكذا لم يبق أمام شريف مكة إلا الدولة الحفصية في تونس التي تجاوزت سمعة صاحبها (محمد المستنصر) الآفاق ولو على تلك الصورة التي ذكرناها في الصفحات السابقة.

على أنه ـ من جهة أخرى ـ يوجد عامل خارج عن شريف مكة لا يمكن إغفاله، وكان له دخل كبير في إرسال بيعة الحجاز إلى أمير تونس. هذا العامل هو وجود أبي محمد عبد الحق بن سبعين في مكة المكرمة،

وصلته المتينة بشريفها؛ لأن ابن سبعين هو الذي تولّى إنشاء كتاب البيعة لأمير تونس.

د ـ ابن سبعين وبيعة الحجاز:

وعبد الحق بن سبعين هذا أصلُه من مرسية بالأندلس، هاجر إلى تونس مثل كثير غيره هروباً من الإرهاب النصراني المسلّط على مسلمي الأندلس باعتبار أن أمير تونس الحفصي أصبح محطّ آمال المهاجرين الأندلسيين. وبعد تونس توجه عبد الحق بن سبعين إلى الحجاز وأقام مجاوراً بمكة المكرمة. وقد بقيت صورة أمير تونس ماثلة في ذهنه، لعلّها ظلت مثلما كانت عندما خرج مهاجراً من مرسية إلى إفريقية. ولهذا كان أكبر محرّض لشريف مكة (أبي نمي بن قتادة) على بعث مبايعته للأمير الحفصي فوافقه على ذلك. وأرسلت البيعة للمستنصر سنة (657 هـ 1259 م) أي في السنة الموالية لسقوط الخلافة العباسية في بغداد.

ولم يكن ابن سبعين رجل سياسة حتى تكون له مهمة أو مزية الاختيار لمن تبايعه «شرافة» الحجاز وتعهد إليه بالخلافة بل كان ابن سبعين ـ كما يصفه ابن خلدون ـ سالكاً مرتاضاً ـ بزعمه ـ على طريقة الصوفية، ويتكلّم بمذاهب غريبة منها، ويقول برأي الوحدة، ويزعم بالتصرف على الأكوان في الجملة، فأرهق عقيدته، ورمي بالكفر والفسق في كلماته. وأعلن بالنكير والمطالبة له شيخ المتكلمين بإشبيلية ثم بتونس أبو بكر بن خليل السكوني فتنمّر له المشيخة من أهل الفتيا وحملة السنّة، وسخطوا حاله، وخشي أن تناله البيّنات فلحق بالمشرق ونزل بمكة»[238].

وقد تضمنت تلك البيعة الكثير من طرائق الصوفية في التفكير والتعبير. ولعلّه من الطريف الإشارة إلى ما قاله ابن أبي الضياف تعقيباً على رسالة

(238) العبر (6 :634 - 635).

البيعة المذكورة من أن «.. مشربها صوفي لا تتوصل إليه عقول أمثالنا»[239].

وقد وقع التصريح في رسالة البيعة بلقب «الخليفة» للمستنصر الحفصي، والتذكير بما يدّعيه بنو حفص من أنهم من سلالة عمر بن الخطاب[240] وأن الملّة الحنفية المضرية تنصرها السيرة العمرية المحمدية المستنصرية[240] وعرّضت الرسالة بحكم الأتراك المماليك في الديار الشامية والمصرية[241]. واستدلّت بالآثار الموضوعة في تفضيل الأقطار المغربية من مثل ما قيل: إذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد، ويستقيم ملك المغرب، وتبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر بني العباس، وأنه لا خليفة لأهل الملة في ذلك الوقت غير الذي قصد وهو المستنصر بالله الحفصي[242].

وقد أطنب منشىء الرسالة في تمجيد أخلاق المستنصر وعمله حتى جعله في مقام الإمام المجتهد. ودعت الرسالة بأن تصبح كلمته غالبةً للضد والجند، ويبلغ صيته السند والهند.

وتختم الرسالة بأنها كتبت تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف[243].

وكان حامل الرسالة من مكة المكرمة إلى تونس أبا محمد بن برطلة الإشبيلي[244] فعقد لها مجمع حافل وقرئت على الناس. وكان يوماً مشهوداً في الدولة حسب تعبير ابن خلدون.

---

(239) الاتحاف (1 :160).
(240) العبر (6 :236).
(241) العبر (6 :637).
(242) العبر (6 :640).
(243) انظر الرسالة كاملة في العبر (6 :634 - 651).
(244) الفارسية (120) والدولتين (37).

هـ ـ مكسب المستنصر من بيعة الحجاز:

لقد كان حادث بيعة الحجاز محققاً لرغبة كامنة في بني حفص فاعتبروا أنفسَهم جديرين بلقب «الخليفة» ولقب «أمير المؤمنين». وقد علّق ابن القنفذ ـ بعد الحديث عن وصول الرسالة ومخاطبة المستنصر فيها بأمير المؤمنين بقوله ـ: وكان هذا من أكبر آمال المستنصر وأحبها إليه. وهنأه بعض الشعراء بقوله:

اهنأ ـ أميرَ المؤمنين ـ بـدعـوة	وافتـك بـالإقبـال والإسـعـاد
فلقـد حباك بملكـه ربّ الـورى	فـأتـى يبشّـر بـافتتـاح بـلاد
وإذا أتـت أمُّ الـقـرى مـنـقـادة	فمن المبـرة طـاعـة الأولاد[245]

ولكن السؤال الوارد هو: هل كان تلقّب المستنصر بلقب الخلافة وإمارة المؤمنين محققاً لأهداف إيجابية متجاوزاً للناحية التشريفاتية، مواكباً لما يقتضيه هذا المنصب الجليل من مواجهة الأحداث في نطاق العالم الإسلامي؟ إن مجرى الأحداث يجيب بالسلب عن كل ذلك.

والملاحظ ـ قبل كل شيء ـ أن تلك البيعة الواردة من الحجاز لم يكن لها الصدى المنتظر في المشرق الإسلامي. ويعود ذلك ـ في الأساس ـ إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي صاحبت تلك البيعة، وأنها لا تعدو أن تكون بادرةً فرديةً من عبد الحق بن سبعين استجاب لها شريف مكة الذي كان في نزاع داخلي حول «الشرافة». وكان ـ كذلك ـ في نزاع مع المماليك في كل من مصر والشام. ولهذا فـإن المؤرخين المشارقـة اعتبروا الخـلافة الإسلامية ـ على ما هي عليه ـ ظلـت منقطعة ثلاث سنوات ونصفاً أي من سقوط بغداد (656 هـ) إلى أن جددت الخلافة العباسية في القاهرة (659 هـ) على يد السلطان المملوكي بيبرس البندقداري.

(245) الدولتين (37).

و ـ مهزلة الخلافة العباسية في القاهرة:

وكان تجديد الخلافة العباسية في القاهرة على صورة من الوهن ـ وأكاد أقول الزراية ـ أكثر وأشد مما كانت عليه الخلافة العباسية في بغداد مما يجعل الناقد للتاريخ يتساءل عن جدوى هذا التجديد وعن عوامله وأسبابه.

أما كيف تمَّ هذا التجديد فإنه يتمثل في هروب أحد أبناء الخلفاء العباسيين من بغداد بعد استيلاء المغول عليها والتجائه عند أعراب بني خفاجة في بادية العراق. وهذا الشخص هو أحمد بن الخليفة الظاهر لدين الله العباسي. وقد ظل هذا العباسي لاجئاً عند بني خفاجة إلى سنة 658 هـ وحصلت معركة «عين جالوت» بين المماليك والمغول. وقد استطاع القائد المملوكي (بيبرس البندقداري) أن يوقع هزيمة ماحقة للمغول حتى اعتبرت معركة «عين جالوت» من المعارك الحاسمة لإيقاف الزحف المغولي على بقية العالم الإسلامي. واكتسب بيبرس ـ بذلك ـ شهرة كبيرة لم يلبث بعدها أن تغلّب على السلطان المملوكي المعروف بـ «المظفر» وانتصب عوضه على عرش المماليك في القاهرة.

ويبدو أن الموقف البطولي أمام المغول من القائد بيبرس جعله محطَّ آمال ذلك الطريد العباسي (أحمد ابن الخليفة الظاهر) فغادر بادية العراق واتجه إلى الشام في طريقه إلى مصر. وعندما سمع بيبرس بقدومه «.. ركب للقائه، ومعه القضاة ورجال الدولة؛ فشق مدينة القاهرة. ثم أثبت نسبهُ على يد قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز. ثم بويع بالخلافة في الثالث من شهر رجب سنة 659»[246].

ولم تكن الصورة الباهتة الهزيلة التي جدّد بها الظاهر بيبرس الخلافة العباسية في القاهرة سوى سند معنوي استعمله لتركيز نفوذه واكتساب شرعية سلطته. وهي السلطة التي افتكّها بالثورة على سلفه المظفر المملوكي.

(246) تاريخ الخلفاء للسيوطي (477) وانظر فيه صورة التنصيب.

وسوف تبقى تلك الصورة الباهتة للخلافة العباسية بالقاهرة يستمد منها كل سلطان مملوكي شرعيةَ نفوذه إلى أن يحتلَّ السلطان سليم العثماني مدينة القاهرة سنة 923 هـ ويزيل سلطنة المماليك والخلافة العباسية معاً.

ز ـ ما وراء تجديد الخلافة العباسية؟

وإذا ذكرنا أن الظاهر بيبرس جدّد الخلافة العباسية لاكتساب شرعية سلطته فهل يعني ذلك انعدام العوامل الخارجية في إبراز ذلك التجديد لخلافة بني العباس؟ وبعبارة أخرى: هل كان لإعلان الخلافة الحفصية في تونس سنة 657 هـ أثر في تجديد الخلافة العباسية في القاهرة، وهي الخلافة التي لم تعترف بها سلطنةُ المماليك بمصر، والتي يصر مؤرخوها على التنصيص بشغور منصب الخلافة الإسلامية إلى أن تم تجديدها بمصر؟ إن أحداً من المؤرخين ـ فيما رجعنا إليه ـ لم يشر إلى ذلك. ولكن يمكن لنا أن نتساءل عن العوامل والأسباب التي جعلت هذا الطريد العباسي يتلقّب بلقب «المستنصر بالله» وهو نفس اللّقب الذي يحمله المستنصر بالله الحفصي.

وإذا كان الجلال السيوطي يكتفي بقوله: «.. ولقب بلقب أخيه»[247] أي المستنصر بالله الذي تولّى الخلافة في بغداد من سنة 623 إلى 640 هـ، فإننا نجد المقريزي ـ مثلاً ـ في كتابه «السلوك» يذكر هذه العبارة: «.. واتفق له (أي لهذا الخليفة الجديد في القاهرة) ما لم يتفق لغيره. وهو أنه لقب بالمستنصر لقب أخيه باني المدرسة المستنصرية ببغداد. ولم يقع لغيره أن خليفة لقب بلقب أخيه سواه..»[248].

ويشير المقريزي بذلك إلى أن السبعة والثلاثين خليفة عباسياً الذين سبقوا لم يتلقب أي واحد منهم بلقب سبق لأحد إخوانه أن تحلّى به. وليس هنالك ما يدعو إلى هذا اللقب خاصة أن المستنصر توفّي حتف أنفه، ولم

(247) تاريخ الخلفاء (477).

(248) السلوك للمقريزي (1 :451).

يكن له مطمع في الخلافة كما كان لأخيه المشهور بلقب الخفاجي والذي أبعد عنها بنفوذ الوزراء المتسلطين[249].

فلماذا كان هذا الاختيار والتكرار؟ هل يمكن أن نستروح منه أن فيه ردّاً غير مباشر على إعلان الخلافة بتونس الحفصية، وعلى تسمية أول خليفة حفصي بلقب المستنصر ولو أن ذلك كان قبل قضية الخلافة؟ لماذا ـ إذن ـ بدعة التكرار إذا لم يكن لها هدف سياسي معين؟ قد يكون من الموضوعية أن يقع الاكتفاء بطرح ذلك السؤال ريثما ينفي مزيد البحث ذلك التساؤل أو يؤكده.

ومهما يكن فإن تجديد الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659 هـ جعل لقب «الخليفة» يتلقّب به ـ على الأقل ـ في ثلاث أقطار من العالم الإسلامي: الموحدية في المغرب الأقصى، والموحدية الحفصية في إفريقية، والعباسية في مصر والشام. وهي كلّها أبعد ما تكون عمّا تعنيه «الخلافة الإسلامية» من المناعة والقوة مما يذكرنا بما قاله ابن رشيق في ملوك الطوائف بالأندلس:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتصم فيها ومعتضدِ
ألقاب سلطنة في غير مملكة كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ

وإذا الخلافة الموحدية كانت تعاني ـ إذ ذاك ـ سكرات الموت لانقضاض بني مرين عليها وإنهائها سنة 668 هـ، وإذا كانت «الخلافة» العباسية في القاهرة صورة باهتة وألعوبة بيد سلاطين المماليك، فإن «الخلافة» الحفصية قد تبدو أقرب وأشد التصاقاً بشبح ذلك اللقب؛ لأن «الخليفة الحفصي» كان صاحب السلطة والنفوذ رغم كل الاعتبارات الأخرى.

وإذا كانت الحروب الصليبية تعتبر منتهية بفشل حملة لويز التاسع على

---

(249) تاريخ الخلفاء (461).

مصر سنة 648 هـ فإن تلك الحروب ـ في مفهومها الواسع ـ ما زالت مستمرة في المغرب الإسلامي متمثلة في حركة الاسترجاع الإسبانية، وفي المحاولة الصليبية التي قام بها لويز التاسع نفسه على تونس في عهد «الخليفة» المستنصر بالله الحفصي. وهو ما سيواجه به أول امتحان بعد تحلّيه بذلك اللقب الكبير.

المستنصر الحفصي أمام الامتحان

أ ـ لويز التاسع والحروب الصليبية:

إن الحملة الصليبية التي قام بها لويز التاسع (ملك فرنسا) على تونس لم تكن هي المـرة الأولى التي يتزعم فيها هذا الملك حملة صليبية؛ فقد قام سنة 646 (1248) بالحملة الصليبية السابعة إثر الانتصار الذي سجله الملك الصالح أيوب ضد الصليبيين بالبلاد الشامية. وهو الانتصار الذي تـوج باسترجاع بيت المقدس للمرة الثانية سنة 642 هـ فهاج الرأي العام في أوروبا، ونظمت حملة صليبية جديدة بزعامة لويز التاسع الفرنسي. وبما أن سلاطين بني أيوب هم الذين قاموا بعمل إيجابي ضد الصليبيين فقد استقر رأي لويز التاسع على أن يهاجم الأيوبيين في عقر دارهم، وأن يستولي على مراكزهم الأصلية بالهجوم على مصر، ومن هناك يذهب إلى بيت المقدس ويستعيد الأماكن النصرانية المقدسة. وهكذا اتجه لويز التاسع من جزيرة قبرص إلى مصر، فاستولى على دمياط، ثم اتجه مع النيل صوب القاهرة. ولكن هذه الحملة انتهت بهزيمة منكرة للويز التاسع، فأُسِرَ وسجن في دار القاضي ابن لقمان في مدينة المنصورة، وظل سجيناً إلى أن افتدى نفسه ومن معه بغرامة مالية قدّرت بأربعمائة ألف دينار[250]. وتعهد بعدم العودة إلى محاربة المسلمين، فأطلق سراحه وتوجه إلى إمارة عكّا الصليبية حيث بقي

(250) المقريزي ـ السلوك (1 :365).

أربع سنوات قضاها في تنظيم ما بقي من الإمارات الصليبية على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وعقد ـ أثناء إقامته في المشرق ـ حلفاً مع سنان شيخ الجبل زعيم الطائفة الإسماعيلية بالشام، كما عقد الصلات مع المغول الذين كان خطرهم يزداد يوماً بعد يوم على العالم الإسلامي. وفي شهر ماي سنة 1254 م (652 هـ) جاءه نعي أمه فغادر الشام عائداً إلى فرنسا[251].

ولكن بعد ستة عشرة سنة من ذلك يعود لويز التاسع إلى تزعم حملة صليبية جديدة عندما جاءته الأخبار معلمة بالضربات القاسية التي كان يوجهها الظاهر بيبرس إلى بقايا الصليبيين بالمشرق؛ فاشتد الحماس بلويز التاسع، وتغافل عما قطعه من عهود بعدم العودة إلى محاربة المسلمين، وتناسى ما لقيه من هزيمة في حملته السابقة، وقرر أن يقوم بهذه الحملة الصليبية الجديدة رغم كل ما حصل له في المرة الأولى.

كان المقصد الأصلي ـ إذن ـ من الحملة الصليبية الثامنة هو الاتجاه إلى المشرق الإسلامي دون أن يعرف ـ بالضبط ـ هل سيكون النزول بالشام أو بمصر. ولكن هذا الاتجاه تحوّل إلى منطقة أخرى بعيدة عن الأماكن النصرانية المقدسة إذ تحول اتجاهها إلى تونس عاصمة السلطنة الإفريقية الحفصية.

لماذا اتجه لويز التاسع إلى تونس؟

اختلفت التأويلات في الأسباب التي جعلت لويز التاسع يحوّل اتجاه حملته من المشرق الإسلامي إلى تونس. ويسود البعضَ من تلك التأويلات الكثيرُ من الغموض سواء في المصادر العربية أو في المصادر الغربية. ولكن أوضحها وأقربها إلى القبول هي التأويلات التي ركزت موجبات التحوّل على العلاقات المضطربة التي كانت قائمة بين صقلية وإفريقية أي بين المستنصر بالله الحفصي وبين «شارل دانجو» صاحب صقلية. وقد رأينا في السابق أن

(251) م. ع. المطوي (الحروب الصليبية ص 91).

العلاقات بين صقلية وإفريقية كان يسودها شيء من الانسجام خاصة في عهد الإمبراطور «فريدريك الثاني» الذي عقد مع المستنصر الحفصي هدنة تقتضي ـ خاصة ـ حرية التعايش بين سكان صقلية والبقية الباقية من الجالية الإسلامية في مدينة بلرم ونواحيها. وأن المستنصر الحفصي يدفع بموجب تلك الهدنة أداء سنوياً لصاحب صقلية. ولكن بعد وفاة «فريدريك الثاني» ساءت تلك العلاقات لسوء المعاملة التي أصبح يلقاها المسلمون، وسياسة الإبادة والتهجير التي اتخذت ضدهم في صقلية ومالطة. وفوق ذلك فإن الخلاف على السيادة في صقلية زاد من توتر العلاقات بينها وبين إفريقية، فبعد موت «فريدريك الثاني» المتهم عند البابا بعطفه على المسلمين، ومحبته للغة العربية والحضارة الإسلامية لأنه من عائلة «هُوهُو نْشتَاوْفِنْ» النرمانية فإن البابا كان عازماً على عدم استمرار سيادة تلك العائلة على صقلية، لذلك عمل على تنصيب «شارل دانجو» أخي لويز التاسع، ملكاً عليها. وقد اندلعت بموجب ذلك الحرب بين خلفاء «فريدريك الثاني» و«شارل دانجو». وكان للمستنصر الحفصي دور كبير في مساعدة خصوم «شارل دانجو» سواء في قبوله لهم كلاجئين، أو مساعدتهم عسكرياً، وبمساعدة المتطوعين النصارى على الذهاب إلى صقلية ليحاربوا ضد «شارل دانجو»، وكان من جملة أولائك النصارى أخوا ألفونصو العاشر، ملك قشتالة اللذان التجآ إلى المستنصر واستعملهما في حروبه الداخلية. ولعلنا ما زلنا نذكر مدى اعتماد المستنصر على العلوج الذين أصبحوا قادة في جيشه وحرسه الخاص.

حتى من الناحية العاطفية فإن المستنصر الحفصي لا يكون بجانب «شارل دانجو» الذي لقي المسلمون في عهده أشدّ الاضطهاد، والذي سبق له أن شارك في الحملة الصليبية السابعة على مصر صحبة أخيه لويز التاسع. وكانت نتيجة الصراع على صقلية لفائدة شارل دانجو في الوقت الذي اشتد فيه الخلاف مع المستنصر بعد امتناعه من دفع الأداء الذي كان يقدمه ـ سنوياً ـ للإمبراطور فريديرك الثاني.

وهكذا يكون من الطبيعي أن يعمل شارل دانجو ـ عندما سنحت له الفرصة ـ على تحويل وجهة الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس انتقاماً من خصمه المستنصر الحفصي، وتحقيقاً لأحلامه التوسعية حتى لا يبقى نفوذه محصوراً في صقلية وجنوب إيطاليا. ولن يعدم شارل دانجو التبريرات التي يقوي بها وجهة نظره، وهو العليم بأحوال إفريقية ومدى استعدادها لمقاومة حملة صليبية منظمة؛ فزيادة على المجاعة الحاصلة في إفريقية وكثرة الموتان فيها ـ كما يقول ابن خلدون ـ فإن مهاجمة مَنْ أصبح يحمل لقب «الخلافة وإمارة المؤمنين» فيها ما يكسب تلك الحملة معنى القداسة وخدمة الدين، وأن الانتصار على بني حفص في تونس يمهد السبيل للاستيلاء على مصر. وهو الانتصار الذي تكون من نتائجه الحتمية استرجاع الأماكن النصرانية المقدسة. وأنه إذا تمَّ الانتصار على بني حفص ـ الأضعف نسبياً ـ فقد يكون ذلك حافزاً لقادة الحملة وجيوشها عل مواصلة الهجوم نحو المشرق الإسلامي إذ في ذلك ما يبعث الرعب والمخاوف في قلوب الجيش المقابل من المماليك.

بعض التأويلات الأخرى:

وبعض التأويلات الأخرى تجعل لويز التاسع نفسه متهيئاً نفسانياً لتحويل اتجاهه عن المشرق إلى إفريقية. وهذا يعود إلى عدة عوامل. منها: أن بعض التجار المرابين الفرنسيين ادعوا أنهم أقرضوا ما لا يقلّ عن ثلاثمائة دينار إلى اللُّلياني، الموظف الكبير عند المستنصر الحفصي والذي انتهى أمره إلى القتل واستصفاء أمواله، فطالب أولائك المرابون بالديون التي لهم عليه بدون أن تكون لديهم حجج في ذلك، فألغي طلبهم ولم تقع استجابته مما دعاهم إلى التشكي إلى لويز التاسع حتى اضطر المستنصر إلى إرسال سفارة حفصية إلى فرنسا للتفاوض في الموضوع[252]. وتشير بعض

(252) العبر (6: 665).

المصادر أن الوفد الذي أرسله المستنصر الحفصي حضر حفلة تنصير أحد اليهود[253].

وتتصل هذه الإشارة بما افترض من أن لويز التاسع كان يؤمل في نجاح حملة تبشيرية في إفريقية التي كان يقيم بها عدد من الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان. وأن البعض منهم كان موجوداً في صفوف لويز التاسع نفسه، وأن هذا الأخير الذي كان يعمل على جلب قادة المغول إلى المسيحية لا يبعد أن تكون له نفس الرغبة مع قادة إفريقية الحفصية. بل تذكر بعض المصادر أكثر من ذلك فتوهم أن المستنصر الحفصي وعد باعتناقه النصرانية. ونظراً لشدة حماس لويز التاسع لعقيدته وشدة اندفاعه في الانتصار لها وتوسيع انتشارها ونفوذها فإن تلك النظريات والاحتمالات لا يستبعد أن تؤثر فيه، وأن تغريه على تغيير اتجاهه من المشرق الإسلامي إلى إفريقية الحفصية. كما لا يستعبد أن يكون لأخيه «شارل دانجو» ضلع كبير في تهيئة ذلك الجو النفسي عند أخيه لويز التاسع حتى يتمكن من تحقيق مطامحه وأحلامه[254]. وكان اعتماد المستنصر الحفصي على النصارى العلوج والإكثار منهم في حاشيته وجيشه مما يساعد على قبول تلك التأويلات أو مناقشتها على الأقل.

ومهما تكن التأويلات وتحليل الأسباب فإن الثابت الأكيد هو أن «شارل دانجو» تمكن من تحقيق البعض من مطامحه، ووجد الوسيلة التي تمكنه من مهاجمة عدوّه الحفصي في عقر داره بإفريقية. وهكذا تهيأت الأسباب وتم الاستعداد للقيام بالحملة الصليبية لغزو تونس والنزول بقرطاجة.

تكهنات الشعراء بهزيمة لويز التاسع:

كانت الأخبار قد وصلت ـ قبل بدء الحملة ـ إلى كل من القاهرة وتونس تفيد بعزم لويز التاسع على القيام بحملة صليبية أخرى. وقد تكلم

(253) برنشفيك (1 : 57).

(254) المصدر السابق.

شاعران في العاصمتين مهددين بمآل لويز التاسع إذا هو نفذ عزمه. أما الشاعر المصري (جمال الدين بن مطروح) فقد هدد بأن دار القاضي ابن لقمان في المنصورة ما تزال على عهدها لتقبل من جديد لويز التاسع أسيراً بين جدرانها:

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى من قتل عبّاد يسوع المسيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح:
دار ابن لقمان على حالها القيد باق والطواشي صبيح[255]

وأما الشاعر التونسي (أحمد بن إسماعيل الزيات) فقد قال منذراً ومحذّراً:

يا فرنصيص هذه أخت مصر فتهيَّأ لما إليه تصيرُ
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير[256]

وإذا دار ابن لقمان لم يكتب لها أن تستقبل مرة أخرى لويز التاسع لأنه لم يتجه إلى مصر فإن تكهن الزيات أثبتته الأحداث فيما بعد.

الحملة الصليبية الثامنة في تونس:

استعدَّ لويز التاسع لحملته الصليبية الجديدة استعداداً كبيراً. واستجاب لندائاته الكثير من زعماء أوروبا الغربية في ذلك الوقت. وكان في حملته هذه مصحوباً بأبنائه الثلاث: فيليب، وبطرس، وجان تريستان، وابنته إيزابيلا، وصهره طيبو ملك نفارا، والكاردينال رادولف دالبانو، وأقماط بو، وبروطانيا، وفلاندر، واللوكسبورڤ. وقد وصل لويز التاسع وجيشه إلى ساحل مدينة قرطاجة في شهر ذي الحجة وجويلية 668 هـ ـ 1270 م. ولم يكن «شارل

(255) السلوك للمقريزي (1 - 363 - 364) وابن الشماع (66).
(256) السلوك (1 - 365) وابن المشاع (67) ولم يذكر اسم الشاعر.

دانجو» معهم ـ إذ ذاك ـ فقد وعد باللحاق بهم. وطلب منهم أن ينتظروا وصوله قبل الشروع في أي عمل إيجابي[257] ولكن الصليبيين نزلوا بقرطاجة يوم 18 جويلية بعد أن طردوا منها من كان موجوداً فيها من السكان التونسيين وبعد ستة أيام من نزولهم في قرطاجة وصلتهم رسالة ثانية من شارل دانجو يطلب منهم فيها تأجيل هجومهم على تونس[258]. وقد استجاب لويز التاسع لطلب أخيه أملاً في توفير قوة أكثر للتوغل داخل البلاد. بل يقدّر البعض أنه استجاب بعد أن يئس من أن المستنصر سوف يعترف بالمسيحية[259] مما يحول دون استسهال نزوله بإفريقية تمهيداً لتحقيق أمله الكبير في استعادة الأماكن المقدسة عن طريق البر ابتداءً من إفريقية، فاستيلاءً على مصر، وانتهاءً إلى الديار الشامية. ويذكر ابن خلدون ـ نقلاً عن والده عن جده ـ أن الجيش الصليبي كان زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين ألفاً من الرجالة. وأن سفنهم كانت تعدّ ثلاثمائة بين كبار وصغار[260].

استعدادات المستنصر الحفصي:

أما عن استعدادات المستنصر الحفصي فيذكر ابن خلدون: أن السلطان الحفصي.. نادى في الناس بالنذير بالعدوّ والاستعداد له، والنفير إلى أقرب المدائن. وبعث الشواني والسفن للاستطلاع والتعرّف على تحركات الصليبيين قبل وصولهم. وأمر في سائر عمالاته بالاستكثار من العدة، وأرسل بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب[261]. وجمع المستنصر أهل الشورى من الأندلسيين والموحدين لبحث الموقف، وكيفية المجابهة. وساد نقاش مجلس الشورى رأيان متقابلان: الرأي الأول يقول بالتصدّي للغزاة

---

(257) برنشفيك (1 : 58).
(258) المصدر السابق (59).
(259) المصدر السابق.
(260) العبر (6 :668).
(261) العبر (6 :668).

ومحاربتهم حتى ينفد ما عندهم من الزاد والذخيرة، ويضطروا إلى الإقلاع والعودة. أما الرأي الثاني فكان يرى السماح لهم بالنزول في قرطاجة، لأنه يخشى - إذا وقع صدّهم عن النزول بها - أن يتجهوا إلى منطقة أخرى لا يكون لها من القوة والمناعة ما يصدّهم عن النزول فيها وامتلاكها.

وكان موقف المستنصر الحفصي بجانب الرأي الثاني الذي يترك الباب مفتوحاً للصليبيين حتى ينزلوا[262]. ولكن المستنصر سوف يندَم على هذا الموقف بعد أن تنزل القوات الصليبية في المدينة العتيقة من قرطاجة. وكانت قرطاجة - إذ ذاك - قائمة الجُدْران فوَصّل الصليبيون ما فعله الخراب من أسوارها بألواح الخشب، ونضدوا شرفاتها، وأداروا على السور خندقاً عميقاً وتحصنوا بذلك[263] وأصبحوا في مناعة من أي هجوم. وهكذا ندم المستنصر الحفصي على إضاعة الحزم في تخريب سور قرطاجة أو في الدفاع عن النزول بها كما يعبر ابن خلدون[264].

وكان هذا الموقف من المستنصر يدلّ على الضعف الذي كان يشعر به أمام مجابهة الحملة الصليبية الثامنة. ولو أن مجيئهم كان مفاجئاً لالتُمِسَ له من الأعذار ما يبرّر تمكّنهم من النزول على بضعة أميال من مقر إقامته. إما أن يكون هذا الموقف بعد أن وصلت الأخبار من قبل، وبعد أن عقدوا مجلساً للشورى وتبادلوا الآراء، فلا يفهم منه إلا الخوف من المجابهة، والوهن عن المقاومة. وسوف نرى من مجرى الأحداث ما يزيد من تأييد هذا الرأي الذي بنيَ على حسن الظن بالمستنصر الحفصي. أما إذا وقعت مسايرة أقوال المؤرخين الغربيين من أن لويز التاسع كان يؤمل من المستنصر اعتناق المسيحية فإن الموقف الذي رجحه في مجلس الشورى يثير الكثير من التساؤلات والشكوك حول الدوافع الأصلية التي جعلته يرجح الرأي الذي

---

(262) العبر (6 :668).

(263) العبر (6 : 668).

(264) العبر (6 :669).

يسمح للقوات الغازية بالنزول دون اعتراض أو مقاومة.

صدى موقف المستنصر الحفصي:

وكان للموقف الضعيف الذي وقفه المستنصر صداه السيء حتى خارج إفريقية ولا سيما في المشرق الإسلامي، وفي سلطنة المماليك بالذات. فقد ذكر المقريزي في كتاب «السلوك»[265] أن المستنصر بالله الحفصي بعث سنة 670 هـ بهدية إلى السلطان المملوكي «الظاهر بيبرس» صحبة رسالة اعتبرت في أسلوبها مقصرة في مخاطبة السلطان. فلم يتقبل «بيبرس» شخصياً تلك الهدية بل وزعت على الأمراء والقواد، ووجهت رسالة استنكار إلى المستنصر الحفصي في التظاهر بالمنكرات، واستخدام الإفرنج، وأنه لم يخرج إلى مجابهة الصليبيين عندما نزلوا في قرطاجة. وكان مستخفياً. وأنه قيل له: مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين. وخوّفَ وأُنذِر بسبب ذلك.

ويبدو أن الظاهر بيبرس أصيب بخيبة أمل من موقف المستنصر الحفصي في مجابهة الحملة الصليبية الثامنة. وكان يؤمل منه أن تكون مجابهته لهم لا تقلّ عن مجابهة المماليك للصليبيين سواء في صدّ هجماتهم، أو في استرجاع الأراضي التي استولوا عليها. ونتيجة لذلك الأمل الذي كان يخامر فكر بيبرس بعث هذا الأخير إلى المستنصر الحفصي برسالة يخبره فيها بأنه سيبعث له بنجدة عسكرية تساعده على مجابهة الغزاة الإفرنج. وكتب إلى أعراب برقة وبلاد الغرب يأمرهم بالمسير إلى تونس لنجدة صاحبها، وأن يحفروا آبار المياه في الطرقات التي سوف تسلكها النجدة العسكرية في مسيرتها صوب تونس. وقد شرع فعلاً في تعبئة النجدة العسكرية لولا وصول الأخبار عن رحيل الصليبيين عن تونس حسب الصورة التي سنعرفها فيما بعد.

---

(265) السلوك (1 :601).

استعدادات المستنصر بالداخل:

كانت استعدادت المستنصر الحفصي الداخلية لمجابهة حملة لويز التاسع وحلفائه أن عبّأ سواحل رادس بالمرابطين والأندلسيين والمتطوعين. وقد بلغت هذه التعبئة زهاء الأربعة آلاف فارس جعلوا تحت قيادة وزيره الأكبر محمد بن أبي الحسين[266]. وعقد لسبعة من الموحدين على سائر الأجناد الواردين على تونس خاصة بعد وصول المدد من المغرب الأقصى من قبائل زناتة وبني توجين[267] كما جاءت نجدة من بجاية بقيادة الأمير أبي هلال. أما المستنصر بالله الحفصي فيقول عنه ابن خلدون: إنه التزم القعود بإيوانه مع بطانته وأهل اختصاصه[268].

ويبدو أن قلة التنظيم في الجيوش الصليبية من ناحية، وتأخر «شارل دانجو» من ناحية أخرى، وتردد لويز التاسع من ناحية ثالثة كان لذلك أثره في اكتفاء الصليبيين بالنزول والتحصن وراء أسوار قرطاجة دون أن يحاولوا ـ جديّاً ـ التوغل داخل البلاد أو مهاجمة العاصمة تونس مما ساعد المستنصر بالله الحفصي على الاتصال بالنجدات المختلفة حتى اجتمع منها عدد لا يحصى حسب تعبير ابن خلدون[269]. ولكن هذا العدد الذي لا يكاد يحصى لم تكن له نتائج إيجابية في اقتحام تحصينات الصليبيين أو في جعلهم ينهزمون ويعودون أدراجهم.

ولعلّنا لا نبعد عن الصواب إذا افترضنا أنه ـ من الأساس ـ كان لا يؤمن بقوته، ولا يأمل في التغلب على الغزاة رغم كثرة ما اجتمع لديه من المسلمين الوافدين عليه من مختلف جهات إفريقية ومن المغرب الأوسط.

(266) العبر(1 :668).
(267) العبر (1 :669).
(268) العبر (1 :670).
(269) العبر (6 :670).

فما هي موجبات هذا الافتراض؟ وما هي مظاهر عدم إيمان المستنصر الحفصي بالانتصار؟.

عندما تحدثنا عن وفاة أبي زكرياء الحفصي ذكرنا أنه وافاه الأجل المحتوم في بونة (عنابة) سنة 647 هـ فوقع دفنه بجامعها قرب ضريح أبي مروان اليحصبي. وعندما علم ابنه المستنصر بقدوم الصليبيين، وأنه لا مانع من أن ينزلوا ببونـة أمر بنقل رفات والده إلى قسنطينة خوفاً على ذلك الرفات من أن يعبث به الغزاة لأنه في قسنطينة يكون بعيداً عن السواحل ومواطن الغزو البحري. ومثلما خاف المستنصر على رفات والده فإنه خاف كذلك على نفسه عندما اعتزم الارتحال عن تونس والاستقرار بالقيروان بعيداً عن السواحل وعن مواطن النزول الصليبي[270].

ومن جهة أخرى فماذا تعني عبارة ابن خلدون «.. إن المستنصر التزم القعود بإيـوانه مـع بطانته وأهل اختصاصه»؟ أليس في ذلك ما يدلّ على أنه كان لا يؤمن بالنصر، وأنه كان متهيئاً للفرار عندما يحين وقته؟.

لقد رأيناه في السابق يتولّى قيادة الجيوش بنفسه في قمع الثورات الداخلية وتأديب القبائل. ألا يعني ذلك ـ على الأقل ـ قلة الحزم وقصر النظر والتقدير لمجريـات الأحداث هذه المرة.

ولعل هذا الموقـف «المائع» من المستنصر الحفصي هو الذي جعل الصلحاء والفقهاء والمرابطين يخرجون لمباشرة الجهاد بأنفسهم حسب تعبير ابن خلدون.

إن الكثرة الكاثرة من الجموع الإسلامية التي احتشدت لمجابهة الغزاة الإفرنج كـانت تستجيب للدعاة والمحـرضين غير الـرسميين من الفقهاء والصلحاء. وهي كثرة لا تمثل القوة النظامية ولا الجيش السلطاني. وما عسى أن يجديَ حماس الجماهير الحاشدة إذا لم تكن معها قيادة حكيمة منظمة

(270) العبر (6 :270).

ومتحمسة في نفس الوقت حتى تجعل من ذلك الحماس قوة إيجابية رادعة، أو سلاحاً قوياً مهاجماً.

ولهذا فإنه ـ رغم الحماس الذي كان مستولياً على تلك الجماهير الشعبية، وما صاحبه من مناوشات ـ وحتى بعض المعارك ـ لم يحقق ما كان يؤمله أولائك المتحمسون من طرد الغزاة أو الانتصار عليهم. وكان من أبرز المحرضين لتلك الجماهير أبو علي عمار المعروفي، وأبو علي سالم القديدي، فقد جاءا من القيروان يحرضان الأعراب على الجهاد حتى اجتمع حولهما خلق كثير. ولما وصلوا إلى تونس نزلوا بأريانة، وضربوا خيامهم، فكانوا يمشون منها كلّ يوم للجهاد إلى أن انقضت الحرب بين الفريقين[271].

الوباء يغيّر مجرى الأحداث:

ولكن الذي غيّر مجرى الأحداث ـ لا سيما بعد معركة «المنصف» في منتصف المحرم[272] ـ هو مرض الوباء الذي تفشى في كلّ من الجيشين المتقابلين فأتى على الكثير من الناس، ولم يسلم منهم لا خاصة الناس ولا عامتهم بما في ذلك لويز التاسع نفسه فقد مات ـ أولاً ـ ابنه الأصغر «جان تريستان» ثم الكاردينال، ثم لويز التاسع نفسه في الخامس والعشرين من أوت 1270 (محرم 669 هـ) في نفس الساعات التي كان فيها «شارل دانجو» فوق سفينته يستعد للنزول بميناء قرطاجة[273].

وبموت لويز التاسع ووصول «شارل دانجو» بدأت صفحة جديدة من هذه الحملة الصليبية؛ فقد أصبح «شارل دانجو» هو المتزعم للحملة خاصة أن خليفة لويز التاسع «فيليب الثالث» لم يكن في المستوى الذي ينافس به عمّه بالإضافة إلى ما كان يعانيه من مرض الوباء أيضاً. وهكذا أصبح زمام

(271) معالم الإيمان (4 : 25 - 26).
(272) ينظر العبر (6 :670).
(273) برنشفيك (1 :59).

المبادرة لصاحب صقلية، العدو القديم للمستنصر الحفصي.

وكان من أول أعمال «شارل دانجو» أن قام بعملية رفع بها معنويات الجيش الصليبي؛ ففي الرابع من شهر سبتمبر - أي بعد تسعة أيام من وصوله - قام بحملة على المحتشدات الحفصية أجرى بها معركتين أرضية ومائية في بحيرة تونس. لكن المحاولة - كما ذكرنا - لم تكن إلّا للرفع من معنويات الجيوش الصليبية لا سيما الجموع الجديدة الواردة. كما قام الحفصيون بمعركة مقابلة في منتصف المحرم من سنة 669. بقيادة يحيى بن صالح الهنتاتي وهي أبرز معركة سجلت في تلك الحملة. وقد تكبد فيها الجانبان خسائر فادحة. وقدر ابن خلدون خسائر الغزاة بخمسمائة قتيل. وساد الهلع سكان العاصمة، وظنوا الظنون، «واتهم السلطان بالتحوّل عن تونس إلى القيروان»[274]. ولكن أي من الجانبين لم يستطع أن يرجح الكفة العسكرية إلى جانبه فابتدأ التفاوض بين الفريقين. وكان كلّ منهما يجنح لقبول التفاوض والوصول إلى اتفاق تنتهي به الحرب.

فبالإضافة إلى عدم إيجابية المستنصر الحفصي في تلك الحرب فإن قدوم الشتاء جعل الأعراب يعتزمون العودة إلى مشاتيهم[275] وبذلك سيخسر المستنصر الصفقة لا محالة، لأنه - حسب الراجح - لم تكن له قوة نظامية يستطيع بها مجابهة الموقف. ولهذا جنح للمسالمة وقبول الشروط التي اشترطها عليه «شارل دانجو» ومن معه. ولم يكن الجو - من جهة أخرى - يساعد الصليبيين على الاستمرار والبقاء فالملك الفرنسي الجديد (فيليب الثالث) لم تبق له رغبة في البقاء والاستمرار، والكثير من الصليبيين أصبح يفكر في العودة قبل قدوم فصل الشتاء. وبذلك لا يستطيع «شارل دانجو» وحده الصمود والمجابهة. ولهذا فما إن شعروا باستعداد المستنصر لقبول الشروط حتى استجابوا للتفاوض وعقد معاهدة مع صاحب إفريقية. وكان وفد

(274) العبر (6: 670).

(275) العبر (1: 671).

التفاوض الحفصي برئاسة أبي زيان محمد بن عبد القوي التوجيني وبشهادة عبد الحميد بن أبي البركات الصدفي، وعلي بن إبراهيم التميمي وأبي القاسم بن أبي بكر اليمني. وكانت الهدنة معقودة باسم الملك الفرنسي فيليب الثالث «وشارل دانجو» ملك صقلية، وطيبو ملك نفارا. وكان الذي تولّى كتابة العقد القاضي ابن زيتون بحضور وشهادة أبي الحسن بن عمرو وأحمد بن الغماز.

اتفاقية الصلح بين المستنصر والصليبيين:

كان أهم ما اشتملت عليه اتفاقية الصلح عقد هدنة بين الطرفين مدتها خمسة عشر عاماً شمسياً ابتداءً من أول نوفمبر 1270 يدفع ـ أثناءها ـ المستنصر الحفصي غرامة مالية قدرها مائتان وعشرة آلاف أوقية ذهباً تدفع أقساطاً حددها البند الثاني عشر من الاتفاقية. وأن يؤدي المستنصر إلى «شارل دانجو» ملك صقلية الغرامة التي كان يدفعها للإمبراطور فريدريك الثاني بما في ذلك الخمس سنوات الماضية.

ومما جاء في تلك الاتفاقية أيضاً اعتبار رهبان النصارى وقساوستهم الموجودين في البلاد سكاناً فيها يعطيهم السلطان الحفصي أراضي للبناء وإقامة الكنائس والمقابر، وأن يسمح لهم بإقامة شعائرهم الدينية جهراً. وتضمنت الاتفاقية احترام رعايا الطرفين، وضمان المصالح التجارية، وعدم الاعتداء على الأراضي التابعة للمستنصر الحفصي حاضراً ومستقبلاً.

تلك هي أهم الشروط التي تضمنها اتفاق الصلح المعقود بين المستنصر الحفصي والملوك والزعماء الذين شاركوا في الحملة الصليبية الثامنة على تونس. وهي شروط نال منها «شارل دانجو» نصيب الأسد إذ يعتبر هو المستفيد الأول من تلك الاتفاقية. كما تُظِهْرُ تلك الشروط المستنصر الحفصي في مقام المنهزم إذ قَبل دفع الغرامات الحربية والأتاوة التي كان ممتنعاً من دفعها في حالة اختياره. وحمَّلَ الرعايا دفع تلك الغرامة. وعن ابن

خلدون أن الرعايا دفعوا تلك الغرامة عن طواعية[276] وقدرت بعشرة أحمال من المال. ثم أمر المستنصر بتخريب قرطاجة واجتثاث بنيانها من قواعده حتى أصبحت أبنيتها طامسةً نتيجة اعتصام الغزاة بتلك الأبنية واحتمائهم بأسوارها وذلك مما يؤسف له لفقدان معالم قرطاجة التي كانت قائمة الذات في عهد ذلك الغزو. وكان في إمكان المستنصر أن يتجنب تلك الكارثة لو أنه وقف موقف الحزم واستعدّ لمجابهة الصليبيين وصدِّهم عوض أن يتركهم ينزلون في قرطاجة دون مقاومة منه. وقد رأينا أن نزولهم في تونس لم يكن على درجة من القوة التي لا يستطيع المستنصر هزمها لو أنه كان على أهبة تامة، وقوة داخلية متماسكة. وهكذا يمكن القول ـ مرة أخرى ـ بأنه ليست العبرة بالتحلّي بلقب الخلافة وإمارة المؤمنين، والسعي لاكتساب الفخر الزائل والألقاب الجوفاء بل العبرة أن تكون للدولة حرمتها وهيبتها ممًا يجعلها في مناعة حقيقية تبعدها عن مظاهر التدلّي والخنوع أمام المعتدين. وهو الشيء الذي فقده المستنصر عندما حصر همّه في التوسع غير المبني على الأساس الثابت، وفي الاكتفاء «ببيّعات» هزيلة أو مشكوك فيها تَرِدُ عليه من الأقطار البعيدة دون أن يكون لها دورٌ في البناء السليم للدولة أو الدعامة الأصيلة للأمة.

هل نهاية الحملة كانت نهاية للنزعة الصليبية؟

في نهاية الحديث عن تلك الحملة يقول ابن خلدون: «.. ورجع الفرنجة إلى عَدْوَتِهم فكان آخر عهدهم بالظهور والاستفحال. ولم يزالوا في تناقص وضعف إلى أن افترق ملكهم عمالات، واستبدّ صاحب صقلية لنفسه، وكذلك صاحب نابلي، وجنوة وسردانية، وبقي بيت ملكهم الأقدم[277] لهذا العهد على غاية من الفشل والوهن»[278]. فهل يعني كلام ابن

(276) العبر (6 :671).

(277) يعني بذلك المملكة الفرنسية.

(278) العبر (6 :671).

خلدون أن الحروب الصليبية انتهت بانتهاء تلك الحملة؟ يكون ذلك صحيحاً إذا اعتبرنا أن الحملات الصليبية هي الحملات التي اتخذت أرقاماً عددية لها. أما الواقع فإن الحملات ذات النزعة الصليبية هي أكثر من ذلك العدد؛ فقد بقيت الإمدادات الصليبية ترد إلى المشـرق الإسلامي طيلة قرنين من الزمن، وكانت الاتصالات بين الصليبيين بالشام والنصارى بأوروبا لا تعرف الانقطاع طيلة تلك المدة.

وإذا كانت الحروب الصليبية هي الحروب التي كانت تدعو إليها البابوية وتباركها أو أنها كانت تتخذ الصليب شعاراً لها فإن الحروب الكثيرة التي أثيرت ضد العثمانيين لا تخرج عن نعتها بالحروب الصليبية. كما لم تكن الحروب التي أثيرت ضد المسلمين بالأندلس بعيدة عن ذلك. بل كانت تبدو فيها تلك النزعة واضحة جلية.

وإذا كانت الحروب الصليبية انتهت في المشرق بـالخيبة والفشـل والقضاء على الإمارات اللاتينية التي انبعثت هنالك نتيجة تلك الحروب، فإن الحروب الصليبية في المغرب الإسلامي انتهت إلى انتصار صليبي حاسم، إذ انتهت بزوال الإسلام والمسلمين من الأنـدلس وانتصار المسيحيـة فيها، وحاولت النزول والاستقرار في بقية المغرب الإسلامي.



الحنايا الحفصية بناها المستنصر الأول

أثر الهجرة الأندلسية في المجتمع الحفصي

ذكرنا مرات أنه ـ بعد انتصاب السلطنة الحفصية في إفريقية، وما صاحب ذلك الانتصاب من شهرة وسمعة ـ جاء إلى إفريقية وعاصمتها تونس عدد وافر من رجالات الأندلس وعلمائها وأدبائها أمَلاً في الاستقرار والاطمئنان، وطمعاً في طيب الإقامة وتوفير الرزق، والعمل في كنف الدولة الحفصية التي كانت في حاجة إلى مثل تلك الشخصيات. وفعلاً جاء العديد منهم من أمثال ابن الأبّار، وحازم القرطاجني، وأبي المطرف بن عميرة، وابن عصفور، وابن أبي الحسين وغيرهم.

ومعلوم أن أولائك المهاجرين كانوا قد عاشوا في أسوء عهود الأندلس لا من الناحية السياسية فقط بل كذلك من ناحية فساد الأوضاع الاجتماعية والأخلاق الإدارية. إذ كان المجتمع الأندلسي ـ رغم العدوّ الّلدود المتربص بهم وبالسيادة الإسلامية في الأندلس ـ يعيش عيشة التآمر والخيانة والغدر على مختلف درجات المسؤولية والمسؤولين. وجاء أولائك الوافدون إلى إفريقية بتلك النفسية المتعفنة، بالإضافة إلى مركّب الغرور والعظمة الذي كان يسود الكثيرَ منهم خاصة أمام الإطارات الإفريقية موحّدين كانوا أو تونسيين. وأصبحوا يكيد بعضهم لبعض، ويتدخّلون في شؤون الحفصيين أنفسهم. وإذا أضفنا إلى كل ذلك الموالي والعلوج الذين أكثر منهم الأمير أبو زكرياء الحفصي ثم ابنُه المستنصر من بعده، وأصبح لهم من النفوذ في الجيش والإدارة ما جعلهم قوة يخشى جانبها ـ إذا أضفنا هذه الطبقة إلى طبقات

المجتمع الحفصي ـ أدركنا ما كان يسود ذلك المجتمع ـ في إطاراته العليا ـ من التفكّك والتباعد والانقسام دون أن تكون لهم مصلحة مشتركة تدعوهم إلى الانسجام والتلاحم. وتلك حالة لها ـ دون ريب ـ أسوأ الأثر على المجتمعات التي ينالها الضعف بعد القوة والمناعة. فما بالك بحالة مجتمع يُبْنَى من أول أمره على أمثال تلك العلل والأمراض..

وإذا كان من غير المناسب ـ في مثل هذا المجال ـ أن نتعرض بالذكر لمختلف تلك الشخصيات الوافدة من الأندلس على البلاط الحفصي إلا أن ذلك لا يمنع من التعرّض للبعض منها ممن كان له تأثير ـ سلبي أو إيجابي ـ في السياسة والإدارة، والعلوم والآداب.

نماذج أندلسيـة

1 ـ من أبرز الشخصيات الأندلسية التي هاجرت إلى إفريقية، وكان لها مقام ودور كبيران في الدولة الحفصية، رئيس الدولة أبو عبدالله بن أبي الحسين. وأصل الرجل من بني سعيد أصحاب قلعة بني سعيد القريبة من مدينة غرناطة. وقد ارتبطت هذه الأسرة في العمل مع الموحّدين ثم مع بني حفص. وجاء محمد بن أبي الحسين إلى تـونس في عهد أبي زكـرياء الحفصي فاتصل به، وتقرّب منه حتى أصبح من خـاصته. ويقـول ابن خلدون: إن محمد بن أبي الحسين كان مبخّـتاً في صَحـابة الملوك. وقد ظلّ على مكانته تلك إلى عهد ثورة ابن اللّحياني التي تقدم الحديث عنها؛ فكان لابن أبي الحسين ميلٌ ومساندةٌ لهذا الثائر مما جعل المستنصر الحفصي يعتقله مدةَ تسعة أشهر. ثم عفا عنه وأعاده إلى منصبه فرجع له النفوذ والسطوة من جديد وانتقم من خصومه. وكان ابن أبي الحسين ـ كما ينعته ابن خلدون ـ متفنّناً في العلوم، مجيداً في اللغة، يقرض الشعر فيحسن، ويرسل فيجيد. وله تأليف في اللغة سماه «الخلاصة» اعتنى فيه بترتيب كتاب «المحكم» لابن سيده على نسق «الصحاح» للجوهري[279]. وكان إلى جانب ذلك قويَّ الشكيمة، عالي الهمة، شديد المراقبة والحزم في الخدمة، صليبَ الرأي في رئاسته وإدارته. وقد ظل ابن أبي الحسين الرجل الأول في الدولة بعد

(279) العبر (6: 673).

المستنصر إلى أن توفّي سنة 671 هـ[280].

2 ـ وهنالك شخصية أندلسية أخرى لعبت دوراً كبيراً في البلاط الحفصي هي شخصية أبي عبدالله بن الأبّار: الذي كان من أعيان بلنسية، والذي عرفنا ـ في حينه ـ أنه قدم على رأس وفد من بلنسية مستنجداً بأبي زكرياء الحفصي لانقاذهم من الخطر الإسباني.

وعندما سقطت بلنسية في يد الاسبان هاجر ابن الأبّار إلى تونس فاستخدمه البلاط الحفصي حتى أصبح من رجالات الدولة المرموقين. فقد ضمه أبو زكرياء الحفصي إلى بلاطه وأسند إليه رئاسة ديوان الإنشاء و «كتابة العلامة» في صدر المراسلات والمكاتبات. وكلمة «العلامة» تعني ـ في ذلك الوقت ـ كلمة «التوقيع» التي تضاف إلى المكاتبات السلطانية وترفع إلى السلطان ليضع عليها ختمه وتكتسي بموجبها الرسالة أو الأمر صبغتهما الرسمية؛ فصاحب العلامة ـ إذن ـ هو بمثابة رئيس الديوان في اصطلاح عصرنا الحاضر. وهو ـ بهذه الصفة ـ يكون على اتصال مباشر ومستمرّ بصاحب الدولة. ولكنّ هذا المنصب الحساس يقتضي من السياسة والخلق وحسن التدبير عكس ما كان عليه ابن الأبّار، فقد كان ـ كما يصفه ابن خلدون ـ صاحب أنفة وعجب وضيق خلق[281]. ولهذا كانت حياته الإدارية محاطة بالتنافس والتآمر خاصةً من أصيلي الأندلس الذين كانوا معه في البلاط الحفصي. وكان ابن الأبّار يكتب «العلامة» بالخط المغربي فأشير على أبي زكرياء الحفصي بأن تحوّل كتابتها إلى أبي العباس الغسّاني الذي كان يكتب بالخط المشرقي. وقد صادف ذلك هوًى في نفس أبي زكرياء الحفصي إلاّ أن موقف ابن الأبّار كان التحدّي، وعدم الامتثال مما دعا أبا زكرياء الحفصي إلى إبعاده عن كتابة الرسائل وألزمه المكث ببيته. ثم اعتذر ابن الأبّار لأبي

---

(280) العبر (6 :672 ; 673).

(281) العبر (6 :654).

زكرياء وألّف له كتاباً سمّاه «إعتاب الكتاب» فعفا عنه. وأرجعه إلى منصبه بواسطة ابنه المستنصر الذي كان أثيراً عنده إذ ذاك. ولم يتعظ ابن الأبّار بهذا الحادث؛ فعندما تولّى الأمر المستنصر الحفصي وبقي ابن الأبّار في منصبه لم يظهر الاحترامَ والتقديرَ للمستنصر. فكان يستنقصه ويزدري به، ويفاخر بدالّة الأندلسيين على الدولة الحفصية. وقد انتهز ابن أبي الحسين الفرصة ـ لعداوة قديمة بينهما ـ فاتّهمه عند المستنصر بالتآمر، وباحتقاره العائلة الحفصية مما دعا بالمستنصر إلى القبض عليه وسجنه، وبعث رجاله إلى منزله ليجروا فيه التفتيش الدقيق. وتقول الرواية: إنهم وجدوا بين كتبه وأوراقه قصيدة، يهجو بها المستنصر الحفصي يقول في أولها:

طغى بتونسَ خَلْفٌ سمّوه ظلماً «خليفَهْ»

ويشك ابن خلدون في نسبة تلك الأبيات إلى ابن الأبّار مما لا يستبعد معه أن تكون القضية مؤامرة مدبرة ضد ابن الأبّار من منافسيه وخصومه. ومهما يكن فقد كانت تلك الأبيات القطرة التي فاضت بها كأس غضب المستنصر الحفصي، فأمر بقتل ابن الأبّار على أبشع صورة. ثم حرقت جثته مع كتبه وأوراقه يقول عنها أبو الوليد بن الأحمر: إنها كانت تشتمل على أمهات الدواوين وأصول كتب الأندلس[282].

تلك هي مأساة ابن الأبّار التي لم تشمل ذاته فقط بل تجاوزتْها إلى إنتاجه الفكري والأدبي، وما كان عنده من تراث أندلسي. وقد ألّف ابن الأبّار أكثر من أربعين كتاباً لم تصلنا منها إلاّ ستة فقط. وبذلك ندرك مدى الخسارة العلمية والحضارية التي أُصيب بها التراث الأندلسي والتونسي معاً بسبب تلك المأساة.

ومأساة ابن الأبّار ـ بقطع النظر عن مسبباتها الذاتية والشخصية ـ تمثل صورةً من ذلك الصراع الذي كان يسود النخبة في حاشية البلاط الحفصي،

(282) مستودع العلامة (28).

وأن الظروف التي جمعت تلك النخبة المتنافرة ساعدت كثيراً على خلْق ذلك الجوّ المتعفن، جوّ المؤامرات والدسائس ضد بعضهم البعض.

3 ـ ولعلّه من المبكيات المضحكات ما حصل لشخصية أندلسية أخرى من طرف المستنصر الحفصي هي شخصية النحوي المشهور «ابن عصفور»؛ فقد هاجر ابن عصفور إلى تونس مثل الكثير من علماء الأندلس وأدبائها. ونال الحظوة والمقام المرموق، وأصبح من جلساء المستنصر. ولكن ذات يوم من ذي القعدة سنة 669هـ (أوت 1299 م) بينما كان المستنصر جالساً برياض أبي فهر في القبة التي بناها على الجابية الكبيرة أعجبه المنظر وأحس بعظمة السلطان. فقال لجلسائه مفتخراً: «.. قد أصبح ملكنا الغداة عظيماً..» وكان من بين الحاضرين أبو الحسن علي بن مؤمن المعروف بابن عصفور فقال: «.. بنا وبأمثالنا..» فأسرّ المستنصر الكلمة في نفسه لما فيها من تطاول الأندلسيين على بني حفص. وعندما خرج ابن عصفور أمر المستنصر بعض رجاله بأن يلقي بابن عصفور في جابية الماء بثيابه، وألا يتركه يصعد ويخرج من الجابية؛ فكان كلّما حاول الخروج أُعيد إلى الجابية على أساس أنهم يمزحون معه. وكان من نتيجة ذلك أن أُصيب ابن عصفور ببرد وحمّى شديدَيْن حتى توفي بعد ثلاثة أيام من ذلك[283].

(283) الزركشي (39).

أشتات عن المستنصر الحفصي

1 ـ القائد هلال:

كثيراً ما أشرنا إلى طبقة العلوج التي تكونت في البلاط الحفصي في عهد كلّ من أبي زكرياء الأول، وفي عهد ولده المستنصر بالله، كما أشرنا إلى ما كان لتلك الطبقة من حظوظ عند الأمراء الحفصيين، وما كان لهم من واسع النفوذ، وعظيم الثروة. ويمكن اعتبار القائد هلال أعظمَهم شأناً، وأكثرَهم حظوة عند المستنصر. وقد توفّي هذا القائد سنة 645 (1266م)[284] فتأثر المستنصر لوفاته شديد التأثر. ولا يعرف عن هذا القائد سوى أنه أحد علوج النصارى العتقاء. وأخذ في الترقي شيئاً فشيئاً حتى أصبح من أبرز رجالات البلاط الحفصي في عهد سيده المستنصر. ولهذا أحدث موته فراغاً كبيراً في البلاط[285]. ويتحدث عنه ابن خلدون فيذكر أنه «.. كان له في الدولة مكان بما كان تِلاداً للسلطان وكان شجاعاً، خيّراً، محبّباً، سهلاً، مقبلاً على أهل العلم وذوي الحاجات. وله في سبيل الخير آثار منقولة طار له بها ذكره، فارتمض السلطان لمهلكه»[286].

ويصفه ابن القنفذ في كتابه «الفارسية» بأنه «.. كان له بتونس ست

---

(284) هذه رواية ابن خلدون، أما ابن القنفذ (127) فقد جعل موته سنة 644هـ.

(285) برنشفيك (1 :68).

(286) العبر (6 :660).

ديار للسكنى. فإذا دخل واحدة وضع بين يديه ما صنع من الطعام في الديار الست. وتوضع بين يديه خريطة[287] بألف دينار في كل يوم[288].

وللقائد هلال ألّف ابن عصفور كتاباً في النحو حلّاه باسمه فسمّاه «الهلالية»[289]، وهو أحد الكتب الكثيرة التي ألّفها ابن عصفور لكنه مفقود الأصل لحد الآن مثل الكثير من الكتب التي ألّفها هذا العالم الأندلسي في النحو واللغة والأدب. وتأليف ابن عصفور كتاب «الهلالية» دليل آخر على المكانة التي كانت للقائد هلال، وعلى سعة كرمه، وعلوّ منزلته السياسية والإدارية. ولا تدرى أهمية الكتاب بالنسبة لكتبه الأخرى خاصة كتاب «المقرّب» في النحو الذي ألّفه بإشارة من أبي زكرياء الحفصي. ومن حسن حظ هذا الكتاب أنه سلم من التلف فنشر سنة 1391هـ (1971) في بغداد بتحقيق الأستاذين أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري. ويعتبر «المقرّب» من أهم آثار ابن عصفور «وقد أصاب شهرةً رفيعة وصيتاً بعيداً»[290] وأثار عاصفة من النقد عند نحاة الأندلس وغيرهم من نحاة المشرق[291]. وقد ألّف ابن عصفور شرحاً لكتابه المذكور ألّفه كذلك بطلب من أحد الملوك الحفصيين لعلّه المستنصر نفسه.

وقد عرفنا ـ في حينه ـ النهاية المؤلِمَة لهذا الأديب العالِم الذي توفيّ إثر برد أصابه بعد أن أُلقي به في جابية الماء بجنان أبي فهر.

2 ـ جنان أبي فهر:

وجنان أبي فهر برأس الطابية التي كانت مسرحاً لمأساة ابن عصفور تعتبر من أهم الإنجازات التي أحدثها المستنصر الحفصي، والتي ـ مع

(287) وعاء من جلد توضع فيه الأشياء.

(288) الفارسية (127).

(289) سمّاه ابن شاكر «الهلال» الفوات (3: 110).

(290) مقدمة تحقيق الكتاب (15).

(291) المصدر السابق صفحة (18).

الأسف الشديد ـ اندثرت ولم يبق منها شيء الآن. وكانت هذه الجنان عبارةً عن متنزه كبير في رأس الطابية على مقربة من مدينة تونس. ويتحدث ابن خلدون حديثاً مطولاً عن تلك الجنان مِمَّا جاء فيه قوله:

«.. واتخذ (المستنصر) بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف بأبي فهر، يشتمل على جنات معروشات اغترس فيها من شجر كلّ فاكهة من أصناف التين، والزيتون، والرمان، والنخيل، والأعناب، وسائر الفواكه وأصناف الشجر. ونضد كل صنف منها دوحةً حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البرّي. وسمّى دوح هذه بالشعراء. واتخذ ـ وسطها ـ البساتين والرياض بالمصانع والحوائز، وشجر النور، واللّيم، والنارنج، والسرو، والريحان، والياسمين الخيري، والنيلوفر وأمثاله.

وجعل وسط هذه الرياض روضاً فسيح الساحة. وصنع فيه بحيرةً كبيرة جلب إليها الماء من الحنايا القديمة التي تجلب الماء من زغوان إلى قرطاجة بعد أن بنى لها حنايا جديدة ما تزال آثارها ماثلةً إلى اليوم وراء باب سعدون وقرب رأس الطابية. وكان الماء ينبعث فوّاراً في البحيرة بهندسة عجيبة فتضطرب أمواج هذا الصهريج الكبير فيصبح مثل البحر. ونظراً لعمق الماء حتى في حافات البحيرة فإن الجواريَ المتنزهات كنَّ يتجنَّبْنَ خوض غماره إلاّ على المراكب الشراعية متباريات متنافسات.

وبنيت بطرفي البحيرة قبّتان متقابلتان على أعمدة من المرمر شيدت جوانبها بالرخام المنجّد، ورفعت سقوفها الخشبية على أبنية محكمة، وأشكال منمّقة إلى آخر ما اشتملت عليه تلك الرياض من القصور والأواوين والحوائز والمقاصير غرفاً من فوقها غرف تجري من تحتها الأنهار»[292].

هذا أهم ما جاء في حديث ابن خلدون عن ذلك المتنزه الكبير. وقد أطنب الشعراء في وصفه ووصف الحنايا التي بنيت لجلب المياه إليه. وكان

(292) انظر العبر (6: 630 - 631) وعن أبي فهر قارن «مدينة تونس» ص 257. لعبد العزيز الدولاتلي.

من أشهر ما قيل في ذلك ما جاء في «مقصورة» حازم القرطاجني التي مدح بها المستنصر الحفصي منَ ذلك قوله:

وطودَ زغوان دعوتَ ماءه فلم يزغ عن طاعة ولا وَنى
وانساب في قصر أبي فهر الذي لِكلِّ قصرٍ في الجمال قد زَرَى
قصرٍ تراءى بين بحر سلسل وسجسج من الظلال قد ضفا
بحيرة أعلى الإِلَه قدرَها قد عذب الماء بها وقد رَها

ولكن رغم ما بذل من جهود وأنفق من مال لتشييد ذلك المتنزه(293) الكبير فقد انعدمت آثاره ولم يبق إلاّ جزء من الحنايا التي كانت تجلب إليه مياه زغوان. ولا يفهم من كلام ابن خلدون أنه اندثر في عصره إذ هو يتحدث عنه حديث المشاهد كما أنه لم يشر إلى اندثاره مما يجعل التحديد الزمني لذلك الاندثار أو أسبابه غير ميسور.

وإذا نحن سايرنا ذلك الوصف الممتع ـ حسب نص ابن خلدون ـ وقدّرنا بقاءه ماثلاً لأمكن لنا أن نتصوره في مستوى قصر الحمراء في غرناطة، أو حدائق الشاليمار في لاهور.

والذي يبدو أن بناءه لم يكن على درجة من القوّة والإحكام التي تسمح له بالبقاء ومقارعة العصور، ونوائب الدهور. وأن السرعة في بنائه وإنجازه، وقلّة الصيانة والعناية، كان لها دخل في ذلك الخراب والاندثار مما جعله ميسور التلاشي والزوال، ومما يذكرنا بمآل قصر «المحمدية» الذي بناه المشير أحمد باشا باي محتذياً لقصر فرساي بباريس الذي ما يزال إلى اليوم قائم الذات في روعته وبهائه.

3 ـ هواية الصيد ونهاية المستنصر:

كان المستنصر الحفصي مغرماً بالصَيد والقنص حتى أنه أنشأ لذلك مصيداً خاصاً به في نواحي بنزرت. وكان مصيداً كبير المساحة جداً جعل ابن

(293) انظر الفارسية (128) ومقصورة حازم (23 - 24).

خلدون يقول: إن مساحته يصعب تحديد نطاقها. وأن سرب الوحش لا يرى إذا كان في آخره. وكان هذا المصيد مسيجاً بسياج محكم لا يسمح لأي وحش باجتيازه». ويبدو أن هذا المصيد كان قريباً من عين غلال؛ فإن الزركَشيَ يذكر في تاريخ الدولتين[294] أن المستنصر بدأه المرض الذي مات به يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة 675 (نوفمبر 1276) فرجع من عين أغلال إلى تونس محمولاً على محفة إلى أن وصل قصره بالقصبة[295]. إلّا أنّ ابن خلدون ينص على أن المستنصر ـ بعد عودته من الجزائر ـ خرج من تونس للصيد، وتفقد العمالات فأصابه في سفره مرض ورجع إلى تونس. على أن الزركشي نفسه ذكر موضوع الصيد في صيغة عدم اطمئنان وشيء من كرامة الأولياء. وربط إصابة المستنصر بالمرض بأنه كان يطارد وحشاً فدخل الوحش مغارة كان بها مرابط صالح يتعبد، فحاول المرابط حمايته فدخل رجال المستنصر وراء الوحش فوجدوا المرابط يصلّي فسلّم من صلاته وقال لهم: هذا دخيل الفقراء اتركوه. فذهبوا للمستنصر وعرفوه بما قاله المرابط. فقال لهم: ائتوا بالصيد وإن منعكم الرجل أعطوه الرماح. وعندما رجعوا للمرابط وكلّموه بما قال المستنصر أجابهم بقوله: وأنا قد أمرت للسلطان بالرماح. وكانت كلمته في نفس الوقت الذي سقط فيه المستنصر مغشيّاً عليه. ولم يفق إلّا بعد زمان[296].

ومهما يكن على الحكاية من رائحة الوضع والمبالغة فإنها تؤكد إصابة المستنصر بمرض خطير أثناء مطاردته لأحد الوحوش. وامتد المرض بالمستنصر من جمادى الآخرة سنة 675 إلى عيد الأضحى من نفس السنة. وكان مرضه مصحوباً بالأراجيف والشائعات عن موته من حين لآخر حتى اضطر إلى الخروج إلى الناس في محفة من خشب، وأصعد إلى قبته ورآه

(294) الزركشي (40).
(295) العبر (6 :675)..
(296) الزركشي (40).

الناس. وتجلّد لإظهار حركة علم منها أنّ فيه بقية حياة. ثم عاد إلى قصره ومات في نفس الليلة التي تلت ذلك المشهد[297].

وهكذا انتهت حياة المستنصر الحفصي الذي يعتبر ابن خلدون أيامه أعزَّ أيام الدولة الحفصية عظمت فيها حضارة تونس وكثر تَرَفُ سكانها، وتأنّق الناس في المراكب والملابس والمباني والماعون والآنية فاستجادوها، وتناغوا في اتخاذها إلى أن بلغت غايتها. ثم رجعت من بعده أدراجَها[298].

(297) الفارسية (134) وقارن العبر (6: 675).
(298) العبر (6: 676).

الفصل الرابع

بداية الضعف وعهد الاضطرابات

بداية ضعف الدولة الحفصية

إنّ إشارة ابن خلدون بقوله: «ثم رجعت من بعده أدراجَها» تعني الحالة التي أصبحت عليها الدولة الحفصية بعد وفاة أميرها المستنصر، والمتمثلة ـ خاصة ـ في انطفاء ذلك الإشعاع الباهت الذي جعل منها محط آمال الكثير من الدول والشعوب في المغرب الإسلامي، وبعض أقطار المشرق أيضاً. وإذا كان عهد أبي زكرياء يمثل فترة التأسيس، والانفصال عن «الخلافة» الموحدية، وقمع الثورات، وأن عهد المستنصر كان يمثل أقصى الاتساع في النفوذ والإشعاع، فإن عهد الأمير الثالث «يحيى الواثق» كان يمثل فترة التحوّل وبداية النزول من القمة. ولم تكن أسباب ذلك النزول بعيدة الصلة بعهد المستنصر نفسه. بل سوف نرى أن أهمّ أسباب ذلك كان نتيجةً حتميةً لأوضاعٍ داخليةٍ وخارجيةٍ لا يمكن لعهد المستنصر التفصّي منها أو إبعادها عنه.

وإذا كانت قوة الشخصية ـ بالنسبة للحاكم ـ لها دور كبير في مجابهة الأحداث والتصدّي للأزمات، فإن ضعف شخصية الحاكم يكون له دور كبير في جعل ذلك الحاكم ينهار بسهولة أمام تلك الأحداث وتلك الأزمات. ومن هنا يُدْرَكُ مدى ما تَضْمَنُه الكفاءة الذاتية في تولّي زمام الحكم وتسيير شؤون الدولة. ولا ضامنَ لتوفير كفاءة المسؤول أكثر من الانتقاء والاختيار. وذلك لا يتماشى مع أسلوب الوراثة في الحكم خاصةً في عهد الحكم المطلق بالنسبة للأنظمة الملكية السابقة.

وكنّا تعرضنا في السابق إلى قضية الانحراف التي سلكتها كلٌّ من «الخلافة» الموحدية والسلطنة الحفصية عندما تنكبتا عن أسلوب الشورى واختيار الأصلح حسب المبادىء التي بنى عليها محمد بن تومرت دعوته التوحيدية.

يحيى الواثق والانحراف

لقد بدأ الانحراف الحفصي منذ أبي زكرياء الأول ـ مؤسس الدولة ـ عندما صرف إخوتَه وأعمامه وكبار الموحدين عن تولّي أمر السلطنة من بعده وجعل ذلك في أولاده بقطع النظر عن كفاءتهم ومقارنتها بكفاءة أهل الشورى من الموحدين بما فيهم أبناء عبد الواحد بن أبي حفص.

وإذا استطاع المستنصر أن يتغلّب على ثورة أخيه أبي إسحاق إبراهيم، وأنْ يجبره على الخروج من البلاد والالتجاء إلى الأندلس؛ فإن هذا الأخ الثائر لم يفكر في التخلّي عن طلب حقّه في الملك، فقد ظل بالأندلس يترقب الفرصة السانحة حتى يعودَ إلى إفريقية ويستوليَ على عرش السلطنة.

وكان موقف المستنصر من ولاية العهد من بعده يعتريه الكثير من الغموض، فلم يعيّن وليّاً للعهد من بعده كما فعل أبوه المستنصر من قبل. ورغم المرض الذي طال به عدّةَ شهور فإنّ كُتُبَ التاريخ لم تذكر أن خلفه (يحيى الواثق) تولّى الأمر بتوصية مباشرة من أبيه. وإنما تذكر تلك الكتب أنه ـ بعد موت المستنصر ـ بويع ابنه يحيى الواثق من الموحدين وسائر الناس على مختلف طبقاتهم[299] وأنه بويع في الليلة التي مات فيها أبوه. ثم بايعه بقية الناس صباح الغد[300].

(299) العبر (6: 676).

(300) الفارسية (134) والزركشي (40).

ويبدو أن مبايعته ليلاً كانت تهدف إلى منع أيّ انتقاض أو اختلاف ممن تحدثهم أنفسُهم بذلك. وأن الشائعات والأراجيف التي سبقَتْ موتَ المستنصر كان لها مفعولُها في ذلك التعجيل. وقد لعب سعيد بن يوسف بن أبي الحسين (وزير المالية في عهد المستنصر) الدور الأول في تلك المبايعة. ولا يستبعد أن تكون أعمال سعيد بن أبي الحسين تستهدف أغراضاً شخصية أكثرَ مما تستهدف مصلحةَ الدولة لما يعرفه عن يحيى الواثق من ضعف الشخصية، وقلّة التدبير، ووهن العزيمة[301]. وبذلك يمكن له أن يستبدَّ بالأمر من دونه، ويصبح الملك غير المتوج في عهده، أو أن يستمرّ ـ على الأقل ـ في نفس المنزلة التي كان يتمتع بها في عهد سلفه المستنصر. وهو العهد الذي تمكن فيه سعيد بن أبي الحسين من نيل الحظوة الكبيرة، واكتساب المال الكثير كما يقول ابن القنفذ[302].

والواقع أنّ هناك علّة أخرى كانت لا تقلّ في تأثيرها السيء عن علّة ولاية العهد واختيار الخلف وهي ذلك التطاحن الخطير الذي كان بين الشخصيات الأندلسية التي احتضنها البلاط الحفصي وأعطاها المناصب الحساسة في الدولة. وهي شخصيات وردت من مجتمع انعدم فيه الضمير، وساد فيه التآمر والغدر من أجل المناصب واكتساب النفوذ.

وقد استفحل خطرُ علّة الأندلسيين المهاجرين في عهد يحيى الواثق بالذات فأصبح هذا السلطان ألعوبةً بين أيديهم، ومطيةً لأغراضهم، وضحيةً ـ فيما بعد ـ لسياستهم.

وسعياً من مستشاري يحيى الواثق في اكتساب الرأي العام ـ بعد توليته ـ أمر الواثق برفع المظالم، وأحسن إلى رجال الجيش والجند، وأبطل الكثير من الضرائب والأداءات، وأمر بإحراق دفاترها وأزمتها. وكان أبوه

(301) الفارسية (137).
(302) الفارسية (135).

المستنصر قد افتك الأراضي التي كانت على ملك أصحابها في مكان يعرف بـ «حـومة اليهودية» وقطع أشجارها، فأمر يحيى الواثق بإرجاع تلك الأراضي إلى أصحابها، كما أمر بالعناية بالمساجد لا سيما جامع الزيتونة.

ولكن هل يكفي مجرد تلك العواطف الكريمة للنجاح في تسيير شؤون الدولة وتدبير الحكم؟ لو كان يحيى الواثق يجمع مع طيبة القلب ونبل العاطفة العقلَ المدبِّرَ والحزم الماسك لاستقام به السير وطال به أمدُ الحكم. ولكن فقده لذلك لم يجعله يستمر في الحكم إلّا سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً. فقد أجبرته الأحداث على التنازل عن الملك لفائدة عمه أبي إسحاق إبراهيم كما سنرى فيما بعد.

بداية نهاية الواثق الحفصي

كان الذي عجل بنهاية الواثق الحفصي هو الصراع الشديد بين رجال الدولة الحفصية من الأندلسيين لا سيما الصراع المحتدم بين سعيد بن أبي الحسين وبين يحيى بن عبد الملك الغافقي المعروف بـ«ابن الحبَبِّر».

ذلك أن سعيد بن أبي الحسين ـ وهو الذي تولّى قضية مبايعة الواثق ـ لم تبق له المكانة التي كانت له منذ عهد المستنصر الحفصي إلاّ ستة أشهر فقط؛ فقد دخل في صراع على الاستبداد بتسيير شؤون الدولة مع كاتب العلامة يحيى بن عبد الملك الغافقي المشهور بابن الحبّبر. والغريب في الأمر أن الغافقي هذا ـ بعد قدومه من الأندلس ـ كان في خدمة ابن أبي الحسين نفسه إذ كان ـ في أول أمره ـ كاتباً عنده. ثم رقّاه إلى ديوان الإنشاء. إلاّ أنه في أثناء ذلك ـ وفي حياة المستنصر ـ توثقت الصلة بينه وبين الواثق حتى أصبح أقربَ خاصته، وأكثرَهم تأثيراً فيه. فلما تولّى يحيى الواثق الحكم ولّاه منصب «كاتب العلامة» وسرعان ما بدأ التنافس بينه وبين سعيد بن أبي الحسين وزير المالية. ولم يكن الغافقي في المستوى الذي يؤهله لذلك المنصب الذي تولّاه؛ فقد كان يحسن الكتابة. ولم يكن له من الخلال سواها كما يقول ابن خلدون[303]. وكان كثير الإعجاب بنفسه، مفرط التعسف، مشتغلاً بأمور الضخامة والبناء، وأنواع الملابس، واقتناء الذخائر[304]. ورغم

---

(303) العبر (6 :677).

(304) الفارسية (135).

ذلك فقد كان يحيى الواثق في يديه كالمحجور. وكان عجولاً غير متّبت في آرائه[305]. وكان أهم ما يشغل باله هو التخلص من سعيد بن أبي الحسين والقضاء عليه حتى يتم له الاستبداد بالأمر ويصبح أمر الدولة كلّه بيده. ولهذا أخذ الغافقي يوغر صدر يحيى الواثق ضد ابن أبي الحسين، ويحيك له الدسائس والمؤامرات، ويغري يحيى الواثق على الفتك به حتى يقع الاستيلاء على الأموال الكثيرة التي كانت عند سعيد بن أبي الحسين. وأمكن للغافقي أن يحقق غرضه فاستجاب الواثق لخطته فأمر بالقبض على سعيد بن أبي الحسين واستصفاء أمواله بعد عزله عن وزارة المال. وأوكل لامتحانه ومصادرة أمواله أبا زيد عبد الرحمان بن أبي الأعلام (من الموحدين وأحد خَدَم يحيى بن عبد الملك الغافقي). وبعد ستة أشهر من التعذيب مات سعيد بن أبي الحسين بعد أن استصفي من ماله ستمائة ألف دينار عدا الأثاث والمتاع الآخر. وردمت جثته في مكان مجهول إلى اليوم. وبذلك خلا الجو للغافقي وأصبح هو المسيّر الفعلي للدولة. وبلغ من تحكمه بالواثق والاستيلاء عليه ما لم يبلغه أحد قبله وأذلّ الموحدين بوقوفهم على بابه، والتوسل إليه بحجّابه[306]. وعيّن في وزارة المالية أحد العلوج المسمّى «مدافع» وبعث أخاه إدريس أبا علي مكلفاً بأشغال بجاية وأموالها، فأساء هو أيضاً السيرة، وأخذ الأموال، وأذل الرجال. ودخل في خلاف مع والي بجاية محمد بن أبي هلال الهنتاتي حتى دبّر له مؤامرة انتهت بقتله. وخاف والي بجاية من الانتقام فبعث إلى أبي إسحاق إبراهيم يستنجد به، ويبايعه.

---

(305) المصدر السابق.

(306) الفارسية (135).

قدوم أبي إسحاق إبراهيم

عنـدما بعث محمد بن أبي هلال والي بجاية مستنجداً بأبي إسحاق إبراهيم كان هذا الأخير قد وصل إلى مدينة تلمسان، لأنه ـ بعد فراره من أخيه المستنصر والتجائِه إلى الأندلس ـ ظل هنالك يتحيّن الفرصة التي تمكنه من حقه في الملك. وعندما مات المستنصر فكّر في العودة إلى إفريقية وانتزاع السلطة من يحيى الواثق ابن أخيه. فتردّد ـ أول الأمر ـ حتى يسبر غور الحالة السياسية في إفريقية. وكان للتفكّك الداخلي، وضعف يحيى الواثق، وغضب الموحدين عليه وعلى رجاله، كان كل ذلك مشجعاً لأبي إسحاق إبراهيم على مغادرة الأندلس والقدوم إلى تونس؛ فنزل ـ أولاً ـ بمـدينة تلمسان حيث استقبله صاحبها «يغمـوراسن بن زيان» بكل حفاوة وترحيب لائقين به[307]. وعندما جاءته بيعة والي بجاية ومشائخها جهز جيشاً وسار به إلى بجاية فدخلها آخر ذي الحجة (677هـ) فبايعه واليها والموحدون والملأ من أهلها[308]. ثم اتجه ألى قسنطينة وحاصرها أياماً. إلاّ أنها امتنعت عليه فأقلع عنها ريثما تحين فرصة احتلالها. وكانت قسنطينة ـ إذ ذاك ـ تحت إدارة عبد العزيز بن عيسى بن داود صهر يحيى الغافقي (ابن الحبّبر).

وكانت أخبار أبي إسحاق إبراهيم وتحركاته تصل تباعاً إلى العاصمة فاهتمّ لها كافة المسؤولين لا سيما يحيى الواثق ووزيره الغافقي، فاستعدّا

(307) العبر (6 :679).

(308) المصدر السابق.

لمجابهة الزحف المنتظر من أبي إسحاق إبراهيم. وجهزا جيشين لمواجهته: الأول بقيادة أبي حفص عمر عم الواثق والثاني بقيادة الوزير أبي زيد بن جامع.

ويبدو أن الحالة السيئة التي أصبحت عليها البلاد من جرّاء السياسة الخرقاء التي سلكها ابن الحبَّبر، ونتيجة الصراع الطبقي بين الأندلسيين الوافدين من جهة، وبين الموحدين والحفصيين من جهة أخرى[309]، كانت تلك الحالة غير مشجعة لتفاني كلّ من أبي حفص عمر وأبي زيد بن جامع في الدفاع عن يحيى الواثق وحكومته. وخاف ابن الحبَّبر من أبي حفص عمر ومن احتمال انضمامه إلى أبي إسحاق إبراهيم أو من إعلانه هو نفسه العصيان فاتفق ابن الحبّبر مع يحيى الواثق أن يثير الضغينة بين الجيشين وأن يغري كلّ قائد منهما ضد الآخر. ولكن القائدين تفطنا للمكيدة. وعوض أن يحارب كل منهما الآخر اتفقا على الانضمام معاً إلى أبي إسحاق إبراهيم فبعثا إليه من باجة يعلمانه بذلك الاتفاق، ويبايعانه على الولاية[310] فعجل أبو إسحاق بالقدوم إليهما، وتقوية صفوفه بجيشهما. ووصل الخبر إلى يحيى الواثق ـ الذي تصفه المصادر التاريخية بأنه كان معتزلاً عن الناس ـ فأسقط في يده وأيقن بزوال ملكه وهزيمته، وقلّة نصيره. ولم ير فائدة في الإصرار ـ وهو الضعيف الإرادة القليل الحزم ـ فجمع إليه أهل الحلّ والعقد، وأعلن تنازله عن السلطة لفائدة عمه أبي إسحاق إبراهيم.

وحصل هذا في الوقت الذي كان فيه أبو إسحاق إبراهيم يتقدّم من العاصمة دون أن يجد مقاومة. وعندما اقترب من مدينة تونس خرج إليه أهل المدينة على مختلف طبقاتهم للترحيب به ومبايعته. وكان دخوله الحاضرة في منتصف ربيع الثاني سنة 678 (أوت 1279).

---

(309) برنشفيك (1 :74).

(310) العبر (6 :681).

مقتل ابن الحَبَّر والواثق

وكان أول عمل قام به أبو إسحاق إبراهيم إطلاق سراح أبنائه الخمس من السجن. وهم الذين حبسهم أخوه المستنصر عندما قام بالثورة ضده. كما كان من أول أعماله التنكيل بالوزير ابن الحبّر، فقد كلف أبو إسحاق إبراهيم موسى بن محمد بن ياسين بمصادرة أمواله وامتحانه على غرار ما استعمله هو مع خصمه السابق سعيد بن أبي الحسين. وتذكر المصادر التاريخية الاتفاق العجيب الذي حصل في مقتل هذين الخصمين؛ فقد سجن ابن الحبّر في نفس المكان الذي سجن فيه ابن أبي الحسين. ويذكر ابن القنفذ أن ابن الحبّر عندما دخل غرفة السجن رأى دماً يابساً على أحد الجدْران فسأل عنه فقيل له: إنه دم سعيد بن أبي الحسين فتشاءم ابن الحبّر من ذلك، وجزع أشدَّ الجزع، وخاف أكبر الخوف. وقد صح تشاؤمه. فعندما قتل تناثر دمه على الجدار واختلط بدم ابن أبي الحسين الذي أمر هو ـ سابقاً ـ بتعذيبه وقتله[311]. ويذكر ابن خلدون: أنه لما قبض على ابن الحبّر وجدوه يحمل حروزاً وطلاسم مختلفة الأشكال والصور. وفسر ذلك بعض السذج بأنه كان يستعملها ليسحر بها يحيى الواثق[312].

ولكن ما ذكرناه من المستوى الثقافي لهذا الرجل، وأنه لا يجيد سوى

---

(311) الفارسية (136).

(312) العبر (6: 682).

الكتابة، يجعلنا نفترض ـ على الأقل ـ أنه كان يعلّق تلك التمائم والحروز اعتقاداً منه في أنها تحميه من المكائد، وتبعد عنه الشدائد. ومهما يكن فإن المأساة تتمثل في اختلاط دم ذينك الأندلسيين اللّذين هاجرا من الأندلس ـ كما هاجر غيرهم ـ ليكيد بعضهم إلى بعض، وليسهموا في زراعة الشوك في أرضية الأخلاق الإدارية والسياسية لعدة قرون في البلاد.

أما مصيرُ يحيى الواثق فإنه يمثّل ـ هو أيضاً ـ مأساة أخرى؛ فبعد أن تنازل لفائدة عمه أبي إسحاق خرج من قصور الإمارة بالقصبة، وسكن في وسط المدينة في دار الغوري بسوق الكتبيين[313] مع أولاده الثلاث: الفضل، والطاهر والطيب. إلاّ أنه لم يقم في تلك الدار إلاّ ثلاثة أيام فقط إذ لم تكن العلاقات السيئة والمسيلة للدماء بين أفراد العائلة الحفصية لتسمح بالاطمئنان إلى بعضهم البعض. وهذا ما جعل أبا إسحاق إبراهيم يسرع بالتصديق لما أشيع عن ابن أخيه المتنازل أنه يعمل على تدبير انقلاب ضده بالاتفاق مع أحد القادة العلوج؛ فأمر أبو إسحاق بنقل ابن أخيه وأولاده من دار الغوري إلى سجن القصبة، واعتقلوا أربعتهم في نفس المكان الذي اعتقل فيه أبناؤه الخمس منذ عهد أخيه المستنصر. ولم يطل السجن بالواثق وأبنائه إذ بعث إليهم في اللّيلة الأولى من دخولهم سجن القصبة من ذبحهم جميعاً. وكان ذلك في شهر صفر (679هـ) (1280م)[314].

وهكذا انتهى أبو إسحاق إبراهيم من خصميه الرئيسيين: يحيى الواثق وابن الحبّبر. إلاّ أن ذلك لم يكن كافياً لاستئصال بذور الشقاق والانتقاض. ولعلّ في السيرة الذاتية لأبي إسحاق إبراهيم ما لم يساعد على ذلك.

---

(313) العبر (6 :682) وتحديد مكان الدار من المؤنسْ (123).

(314) العبر (6 :682).

أبو إسحاق إبراهيم زاد ضغثاً على إبَّالة

يصف ابن القنفذ أبا إسحاق إبراهيم بأنه كان «.. فيه غلظة وشجاعة وخفة وغيبة عن مجلسه في لهوه وأنسه، وكان لا ينظر في عواقب الأمور»[315] وأرخى لأبنائه الخمس العنان ليتفرغ هو للذاته وشهواته. وكان آثر أولاده عنده أبا فارس عبد العزيز (أو عزوز) الذي رشحه لولاية العهد من بعده. وعين أبناءه الآخرين في مناصب إدارية وعسكرية.

وإذا اكتفى أبو إسحاق إبراهيم بلقب الأمير دون لقب «الخليفة» استنكافاً من تقليد أخيه المستنصر وابنه الواثق فإنه كان حريصاً ـ من جهة أخرى ـ على إثبات صفة «المجاهد» في العملة التي أصدرها في عهده[316] اعتزازاً بهذا اللقب الذي اكتسبه جدّه عبد الواحد، وجده الأعلى الشيخ أبو حفص عمر منذ ابتداء الدعوة الموحدية في عصر مؤسسها ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي. وقد تحلّى أبو إسحاق بهذا اللّقب لقب «المجاهد» بناءً على ما قام به من غزوات وجهاد في الأندلس، وعلى ما أظهره من جلد وثبات في مقارعة النصارى وحروبهم ضد محمد بن الأحمر صاحب غرناطة.

ولكنّ أبا إسحاق إبراهيم أخلد إلى الراحة والملذات بعد تغلّبه على يحيى الواثق فانصرف إلى ذاته ووفّر له من الوقت ما يسمح له بالتهام لذاته

(315) الفارسية (139).

(316) الفارسية (139).

وإشباع نهمه كأنه يستعيض عمّا فاته في عهد شبابه، وما ناله من عنت التشرّد وإرهاق النضال.

فهل اطمأنّ أبو إسحاق إبراهيم إلى هذا؟ وهل سلك ما يوفر له هذا الاطمئنان؟ إن مستقبل ما يحدث سوف يفنّد مخايل ذلك الاطمئنان؛ فقد بلغت حالة الإمارة في عهده إلى ما يشبه الترهّل والانحلال. وكان أبلغ نقد وجّه إلى عهده من مؤرخي تلك الفترة ما قاله عنه ابن القنفذ في كتاب «الفارسية» من أن الأعراب استولوا في أيامه بتونس على القرى والمنازل، ونهبوا الأموال والحريم. وهو أوّل من كتب البلاد الغربية للعرب بالظهائر، وزاد في العوائد ليجد الرّاحة في لذاته بعد تقدم غزواته، وقلت المجابي في أيامه، وكثر الإخراج والإنفاق[317].

وفوق ذلك فإن عهده استمرت فيه علّة التطاحن والتآمر والغدر حتى بالنسبة لمن أعانوه وساعدوه على الفوز بإمارته على إفريقية. ولعلنا ما زلنا نذكر أن أبا إسحاق إبراهيم ما كان يكتب له الانتصار على ابن أخيه (يحيى الواثق) ـ أو على الأقل التعجيل بذلك الانتصار ـ لولا المساعدة الفعّالة التي لقيها من محمد بن أبي هلال الهنتاتي والي بجاية الذي قتل أخا الوزير ابن الحبِّر، وبعث إلى أبي إسحاق ببيعته له فجاء مسرعاً من تلمسان إلى بجاية وكان ذلك أهم ما عجل بقدومه إلى إفريقية ومن تمكنه من السيطرة عليها. ولكن بعد سنتين من ذلك الحادث فإننا نجد والي بجاية (محمد بن أبي هلال) تنتهي حياته بالقتل ذبْحاً في اللّيل بأمر من أبي إسحاق إبراهيم[317] وجوزي جزاء سنمار. فلماذا حصل ذلك؟ لا تعليل لذلك سوى تفشّي داء السعاية والتحاسد الذي قضى على الكثير من الشخصيات مذنبها وبريئها على حد سواء.

---

(317) الفارسية (139).

مقتل ابن سيّد الناس

وإذا كان فتك أبي إسحاق إبراهيم بعبد الرحمان بن ياسين المعروف بابن أبي الأعلام لأنه كان صاحب شرطة المستنصر، وأنه هو الذي أفسد بين المستنصر وأبناء أبي إسحاق إبراهيم حتى أودعوا السجن، فماذا يقال عنه عندما أقدم على قتل أحمد بن سيّد الناس بدعوى أنه يتآمر عليه مع ابنه وولي عهده أبي فارس عبد العزيز.

الواقع أن هذه التهمة لم تخرج كذلك عما ذكرناه ـ عدة مرات ـ عن أخلاق المهاجرين الأندلسيين وتدبيرهم المكائد ضد بعضهم بعضاً، أو الصراع بينهم وبين الموحدين الأفارقة: فقد كان عبد الوهاب بن قائد الكلاعي كاتباً للعلامة لأبي إسحاق إبراهيم. وعندما وقع الاختيار على أبي فارس عبد العزيز وليّاً للعهد كان أحمد بن سيّد الناس ـ الأندلسي الأصل ـ يحتلّ المكانة الأولى عنده واختصه بلقب حجابته، فحسدته بطانة أبي إسحاق إبراهيم على تلك المنزلة، وأرادوا التخلّص منه قبل أن يؤُول أمر السلطنة إلى أبي فارس عبد العزيز فيحول بينهم وبين السلطان الجديد. وجعل أولائك الوشاة وليَّ العهد نفسه متواطئاً مع أحمد بن سيد الناس ضد والده أبي إسحاق إبراهيم فأغروا السلطان بابنه وخوّفوه شأنه[318].

ولعل أبا إسحاق إبراهيم انتحل لابنه الأعذار فغضّ الطرف عن تهمة

(318) العبر (6 :684).

اشتراكه في التآمر ضده مع ابن سيّد الناس. أما هذا الأخير فقد بادر أبو إسحاق إبراهيم باستدعائه إلى رأس الطابية «.. فجاء مسرعاً. فلما حضر خرج عليه رجال شهروا سيوفهم، فأيقن بالموت فتشهد، فقتل على حالته، وحفرت له حفرة رمي فيها»[319].

وبلغ مقتل ابن سيد الناس إلى وليّ العهد أبي فارس عبد العزيز فاستاء للنبأ أشد الاستياء، ولبس لباس الحزن، وذهب إلى مقابلة أبيه السلطان أبي إسحاق إبراهيم. وكان هذا الوالد يعرف المكانة التي يحتلها ابن سيّد الناس في قلب ابنه فتظاهر له بالأسى والتعزية. ثم بيّن له أن ابن سيد الناس كان يظهر خلاف ما يبطن، وأنه مجبول على المكر والخديعة، وأنه كان يعتزم قلب نظام الدولة والقضاء على العائلة الحفصية المالكة. وتذكر مختلف المصادر التاريخية أن أبا إسحاق إبراهيم بالغ في استرضاء ابنه، ومسح الضغينة من صدره بأن عقد له على بجاية وأعمالها، وبعثه إليها أميراً مستقلاً فيها[320].

ويبدو أن في هذا التعيين معنىً سياسياً آخر قصده أبو إسحاق إبراهيم هو إبعاد التهمة عن ابنه أبي فارس عبد العزيز من أنه كان متواطئاً مع أحمد بن سيد الناس[321] كما فيه تطمين أكثر لابنه من أنه لا يشك في إخلاصه وصدق ولائه له، أي أنه لو كان يضمر نحوه أي شك لما عهد إليه بتلك الولاية في جهة بعيدة عن العاصمة، وفي منطقة يسهل فيها الانتقاض والعصيان.

ومهما يكن فإن أبا فارس عبد العزيز قبل الولاية على بجاية. وسافر إليها مصحوباً بحاجبه الجديد محمد بن أبي الحسن بن خلدون، جد العلاّمة عبد الرحمان بن خلدون.

---

(319) الدولتين (44).

(320) العبر (6 :685).

(321) يذهب صاحب الإحاطة: أنه أراد بذلك إبعاده عن العاصمة.

ثورة ابن الوزير

والغريب أن أبا إسحاق إبراهيم بقدر ما رأيناه يأخذ بالظنة، ويستمع إلى الوشاية فإنه في أحيان أخرى لا يهتمّ بما يدبّر ضده في الحقيقة والواقع. من ذلك ثورة ابن الوزير في قسنطينة. وهو المسمى أبو بكر بن موسى بن عيسى. وقد ولي ابن الوزير على قسنطينة منذ عهد المستنصر بالله. واستمرّ على ذلك طيلة عهد يحيى الواثق. ثم أقره أبوإسحاق إبراهيم على ولايته. ولكنّ ابن الوزير كان طموحاً جموح الأمل ـ كما يقول ابن خلدون ـ[322] فكان يفكّر في الانتقاض إذا سنحت له الفرصة معتمداً على حصانة قسنطينة من ناحية، وبحثاً عن حليف خارجي من ناحية ثانية. وفعلاً وجد هذا الحليف في شخص «بيدرو» ملك أرغونة الذي وعده بالمساعدة والتأييد على أن يكون داعية له[323]. وابتدأ ابن الوزير استعداداته للعصيان والانتقاض. واكتشف أهالي قسنطينة مخططه في ذلك فبعثوا برسالة مكتوبة إلى سلطان إفريقية (أبي إسحاق إبراهيم) ينذرونه ويحذّرونه. ولكن أبا إسحاق لم يعر اهتماماً لذلك الانذار مصدقاً الرسالة المضادة التي بعث بها إليه ابن الوزير، يفنّد فيها ما كتبه أهالي قسنطينة. ثم أعلن ابن الوزير ثورتَه في قسنطينة أواخر سنة 680هـ، إلاّ أنّ هذه الثورة لم يكتب لها النجاح لأسباب منها: إنها كانت تحمل الفشل في ذاتها عندما كان أهالي قسنطينة غير مؤيدين لهذا الثائر.

(322) العبر (6 :686) وينظر برنشفيك (1 :80 - 83) عن ثورة ابن الوزير.

(323) المصدر السابق.

ومنها وجود أبي فارس عبد العزيز والياً على بجاية، وتأخر وصول النجدة الاسبانية مما عجّل بالقضاء على ابن الوزير رغم شدة بلائه وصموده، فقتل هو وأخوه وأتباعهما، ونصبت رؤوسهم فوق أسوار قسنطينة. وبعث الأمير أبو فارس عبد العزيز بانتصاره إلى والده في تونس فأعلنت معالم الزينة والابتهاج.

أما صاحب أرغونة فقد برَّ بوعده في القدوم مناصراً لابن الوزير. ولكن بعد فوات الأوان؛ فقد نزل بأسطوله في مرسى القل وجرت بينه وبين أهالي المنطقة عدة معارك ومناوشات. ولم يتوغل داخل البلاد لأنه كان يترقب النجدة والمساعدة من البابا مارتان الرابع. إلّا أنّ هذا الأخير لم يستجب لرغبته نظراً للخلاف القائم بين صاحب أرغونة «وشارل دانجو» صاحب صقلية الذي كانت له مع البابا علاقات طيبة بالإضافة إلى أن البابا المذكور كان فرنسي الأصل مثل «شارل دانجو». وهكذا اضطر الملك الاسباني إلى الإقلاع عن مرسى القل في النصف الثاني من أوت 1282 عائداً إلى بلاده دون أن يحقق ما كان يهدف إليه من تحالفه مع ابن الوزير ضدّ السلطان الحفصي أبي إسحاق إبراهيم.

ثورة الدّعي ابن أبي عمارة

لقد مرّ في صفحات سابقة أن مؤرخي هذه الحقبة التاريخية يكادون يجمعون على أن أبا إسحاق إبراهيم كان منصرفاً إلى لذاته أكثر من انشغاله بتصريف شؤون الدولة حتى استولت الأعراب في أيامه بتونس على القرى والمنازل، ونهبوا الأموال والحريم، وزاد في العوائد ليجد الراحة في لذاته. وقلّت المجابي في أيامه وكثر الإخراج والإنفاق[324]. هذا بالإضافة إلى سفك دماء الأبرياء من كبار المسؤولين والعلماء مما جعل الناس يشعرون بالضيق والاشمئزاز.

ولعل ظاهرة الحج التي حصلت سنة 680هـ كان لها صلة بذلك الشعور. وهو الموسم الذي عرف باسم (ركب المشايخ) والذي قيل في شأنه: إنه لم يذكر أنه خرج ركب من تونس فيه من أهل الخير والعلم والصلاح ما كان في الركب المذكور[325] وفيهم الكثير ممن كان يعتمد عليه في التدريس والفتوى والتحقيق. أفلا يمكن أن يكون ذلك دليلاً على تململ أهل الرأي من الوضع السائد في عهد أبي إسحاق إبراهيم؟ فكثيراً ما كانت الهجرة والارتحال إلى الأماكن المقدسة تهدف إلى التنفيس عن النفس والتفريج من الكرب أملاً في البقاء والاستقرار هناك، أو طمعاً في تبديل الأوضاع، وتحسن الأحوال.

---

(324) الفارسية (139).

(325) الفارسية (140).

وإذا كانت حركة انتقاض ابن الوزير قبرت في المهد ولم يطل بها الأمد فإن فشلها لا يقوم دليلاً يمكن الاسترواح منه مدى إخلاص الأهالي لأبي إسحاق إبراهيم. لا سيّما أن مدة تلك الانتقاضة لم تطل، ولم تكسب من النتائج ما يجعلها تبعث الأمل في المترددين، أو تدعو المراوغين والمنافقين إلى الظهور في مظهرهم الحقيقي، أو تحرض الغاضبين والساخطين على الاستجابة لصوتٍ جديد يحاول إصلاح الأوضاع، أو يدعو إلى ذلك على الأقل.

وقد حصل كل هذا في حركة الانتقاض التي تزعمها ابن أبي عمارة الملقب بالدعيّ في الوقت الذي حاول فيه أبو إسحاق إبراهيم تقوية صفّه في الجانب الغربي من سلطنته بعد انتقاضة ابن الوزير. وقد تمثلت محاولة تلك التقوية في المصاهرة بين العائلة الحفصية في تونس، والعائلة الزيانية في تلمسان. ففي سنة 681 (1283م) تم زفاف إحدى بنات أبي إسحاق إبراهيم إلى أبي سعيد عثمان بن يغمـوراسن المنتظر تولّيه على تلمسان بعد وفاة والده. وقد تمّ الوعد بتلك المصاهرة منذ أن كان أبو إسحاق إبراهيم في تلمسان أثناء عودته من الأندلس[326]. وقد تولّى أبو سعيد عثمان (صهر أبي أسحاق) إمارة بني زيان في نفس السنة التي زُفّت إليه فيها الأميرة الحفصية، أي سنة 681هـ (1283م). فهل يكون هذا الصهر الجديد ـ وقد أصبح بيده أمر تلمسان ـ سنداً قوياً يعتمد عليه أبو إسحاق إبراهيم عندما ثار ضده ابن أبي عمارة؟.

(326) العبر (6 :688).

هويّة ابن أبي عمارة

وقبل الإجابة عن هذا السؤال وما يتصل به من أحداث يحسن أن نتعرض لمعرفة هذا الدعي حسبما جاء في المصادر التي تحدثت عنه[327] فقد ذكرت تلك المصادر أن اسمه أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة. ولد في المسيلة. ثم انتقل مع أهله إلى بجاية حيث اشتغل بصناعة الخياطة دون أن يكون له صدى أو ذكر في بجاية. وكان أثناء ذلك على صلة بالعرّافين، والمنجمين، وأدعياء صناعة الكيمياء وتحويل المعادن. ويبدو أن هذه الصلة كونت فيه الطموح والمغامرة فبعثت فيه حرفة التنجيم والأمل في أن يصبح شيئاً ما مذكوراً في التاريخ، خاصة أن بعض أولئك العرافين تنبأ له بذلك المستقبل، وأنه سوف يصبح صاحب إفريقية وكان هو ـ أيضاً ـ يستهدي خطّ الرمل فكان خطه يؤيد أقوال العرّافين والمنجمين[328]. ولا تحدد تلك المصادر التاريخ المضبوط لذلك التحول الذي انتاب ابن أبي عمارة عندما غادر مدينة بجاية ملتحقاً بالصحراء في مناطق سجلماسة. وهناك اختلط بعرب «المعقل»[329] وانتسب إلى أهل البيت. وادّعى أنه الفاطمي المنتظر، وأنه يحيل المعادن إلى ذهب. ويبدو أن اختياره للظهور بادعاء الإمامة في تلك المناطق كان مبنياً على حكمة منه فهي: بعيدة عن العمران وجيوش

(327) انظر مثلاً العبر (6 :689) الزركشي (45).
(328) العبر (6 :681).
(329) انظر قبائل المغرب (424).

السلطـان، وادعاء بني معقل أنهم هاشميون من ذرية جعفر بن أبي طالب[330] بالإضافة إلى غلبة الأمية والجهالة في تلك القبائل مما جعل الرعاع ينخدعون بترّهاته، ويصدقون ادعاءاته.

ولم تطل إقامة ابن أبي عمارة في بني معقل رغم التفاف العامة حوله في أول أمره لأنه انكشف حاله، وأبطلت دعاويه. ويذكر ابن خلدون أن طلحة بن مظفر (أحد شيوخ العمارنة من بني معقل) أخبره أنه رأى ابن أبي عمارة ـ أيـام ظهـوره في بني معقل ـ ملتبساً بتلك الدعوة حتى فضحه العجز[331] ولم ييأس ابن أبي عمارة بعد افتضاح أمره وعجزه عن جمع بني معقل حوله فتحول عنهم متوغلاً في المناطق الجنوبية من إفريقية حتى وصل بني دبّاب في طرابلس الغرب، وأخذ يبث دعوته بينهم. وصادف أن كان موجوداً في بني دباب أحد عبيد يحيى الواثق الحفصي يدعى «نصير». وتقول تلك المصادر: إن «نصير» مولى الواثق الحفصي رأى في ابن أبي عمارة شبهاً بالفضل ابن سيّده يحيى الواثق الذي قتله أبو إسحاق إبراهيم مع أبيه وأخويه الطاهر والطيب. ولكن «نصير» اشتبه عليه الأمر فعندما رأى ابن أبي عمارة أخذ يبكي ويقبل يديه. واستغرب ابن أبي عمارة موقف العبد «نصير» منه فسأله عن موجب فعله ذاك، فأخبره بما اشتبه عليه من أمره. وانتهز ابن أبي عمارة هذه الفرصة الذهبية التي لم يكن يحلم بها فاتفق مع العبد «نصير» على أن يصدقه في ادّعاء نسبه ليحيى الواثق، وأنه سوف يأخذ له بثأر مولاه الذي قتل ظلماً مع أبنائه. وهكذا تحول ابن أبي عمارة عن دعوته الأولى من أنه الإمام الفاطمي المنتظر. وأعلن أنه الفضل بن الواثق بشهادة العبـد «نصير».

وكان من تمام التخطيط في هذا الإدعاء الجديد أن «نصير» قص على ابن أبي عمارة ما وقع لسيده الواثق مع الأعراب من أخبار فكان ابن أبي

(330) المصدر السابق.

(331) العبر (6 :689).

عمارة يذكرها كدليل على أنه بحق الفضل بن يحيى الواثق، وأنه نجا من الموت الذي كتب على أبيه وأخويه. واستجاب لدعوة ابن أبي عمارة أمير بني دبّاب «مرغم بن صابر» فأعلن تأييده وتصديقه له. وجمع له الأعراب من قبيلته. وهكذا أصبحت لهذا الدّعي قوة يستطيع بها الدفاع عن نظريته ودعواه، ويحقق بها مطامحه وآماله.

وكان أول عمل إيجابي قام به هو محاصرة مدينة طرابلس. ولكن واليها محمد بن عيسى الهنتاتي الملقب بـ«عنق الفضة» دافع عن المدينة ولم يستسلم[332] فترك ابن أبي عمارة مدينة طرابلس، واتجه إلى ما حولها من قبائل هوّارة فانقادوا إليه وأطاعوه. ومن هنالك اتجه إلى مدينة قابس، وكان واليها عبد الملك بن مكي، فاقتبله بحفاوة وفتح له أبواب المدينة، وأعلن له بالخلافة. ثم تتالت البيعات من مختلف أنحاء الجنوب بقسميه الشرقي والغربي فبايعته جربة والحامة ونفزاوة وقفصة وبلاد الجريد. هكذا في مدة قليلة أصبح كل الجنوب التونسي وعمالة طرابلس تحت سلطة ابن أبي عمارة دون أن يجد في ذلك مقاومة تذكر. فلماذا كلّ هذا التسرع في الاستجابة لمن شق عصا الطاعة في وجه أبي إسحاق إبراهيم؟ ألا يدل ذلك على أن سيادته لم تكن مستندة على قوة معنوية قبل القوة المادية، وأن الطريقة التي استولى بها على الحكم، وما صاحبها من أعمال القتل والغدر لم تكن لتلقى الاستحسان والتأييد. هذا بالإضافة إلى ما عرفناه من طبيعة التركيب الاجتماعي في البلاد وقابلية الأعراب للالتفاف حول كلّ ناعق جديد. وهكذا استجاب الناس لهذا الدعي ولم يبق يهمهم - في الأساس - أكان فعلاً من أبناء يحيى الواثق أم كان دعيّاً في نسبه.

وكان من الطبيعي أن يهتز أبو إسحاق إبراهيم لهذه الانتصارات التي تحققت لابن أبي عمارة، فكان عليه أن يستعدّ لملاقاته عند زحفه على الشمال بعد أن أصبح كلّ الجنوب يدين له بالطاعة والولاء.

---

(332) الفارسية (141).

هزيمة أبي إسحاق إبراهيم أمامَ الدّعي

كان استعداد أبي إسحاق إبراهيم - لملاقاة الدعي - يتمثل في تجهيز جيش بقيادة ابنه أبي زكرياء يحيى، فنزل - أولاً - بالقيروان، وجبى منها الأموال لمواجهة لوازم القتال والارتحال. ثم اتجه إلى ملاقاة الدعي ابن أبي عمارة حتى وصل قمودة فبلغته الأخبار أن الدعي تمكّن من الاستيلاء على مدينة قفصة فأُسْقِطَ في يد قائد الجيش الحفصي. ودخل الاضطراب في صفوف الجيش فانفض من حوله[333] وتركه في قلّة لا تستطيع مجابهة أو مقاومة. فلم يسَع الأمير أبا زكرياء يحيى إلاّ الإسراع بالعودة إلى تونس حيث وصلها آخر رمضان سنة 681 (ديسمبر 1282) فزاد ذلك من سمعة ابن أبي عمارة، ومن التفاف الصفوف حوله، ومن انفتاح الأبواب أمامه، فغادر قفصة متجهاً إلى القيروان التي فتحت له أبوابَها وبايعه أهلُها. وسارت على منوال القيروان المهدية وصفاقس وسوسة. وتوالت أخبار انتصاراته على العاصمة تونس فكثرت فيها الشائعات. وتجاهر الناس بالتأييد والمساندة لابن أبي عمارة.

وحاول أبو إسحاق إبراهيم تنظيمَ فلول جيشه، والشدّ من عزيمته، والوقوف أمام الدعي ابن أبي عمارة. ولكنّ صفوفَه كانت تختل يوماً بعد يوم على عكس ما كان عليه خصمه من تقوي جيشه يوماً بعد آخر، واكتساح

(333) العبر (6 :691).

المدن والجهات دون قتال، فانهارت معنويات جيش أبي إسحاق، وأيقن الناس باستحالة انتصاره.

ولا أدل على ذلك الانهيار من هذه العبارات التي قالها ابن القنفذ، وهو يتحدث عن ثورة ابن أبي عمارة. يقول ابن القنفذ: «.. وكثرت الأقوال في تونس. فخرج الأمير أبو إسحاق منها في جيش عظيم. وذلك في شوال من السنة المذكورة، ونزل المحمدية، وأخرج من الدّروع والجواشن، والبيضات والسيوف المحلاّة ما حمل على تسعين بغلاً، وأخرج من الدّروع اللمطية، والقسي الدمشقية ما حمل على أعداد من الإبل، فنهب ذلك كلّه مع غيره من المال والثياب في منزل المحمدية. ثم فرَّ إلى الدعي شيخ الموحّدين أبو عمران موسى بن ياسين في جماعة كبيرة. ورجع الأمير أبو إسحاق، ونزل السبخة حتى أخرج نساءه وأولاده من القصبة، وارتحل عن تونس مغرّباً تحت خوف وهول»[334]. أما ابن خلدون فيعلّق على ذلك الانهيار وانفضاض الناس من حول أبي إسحاق إبراهيم بأنه راجع إلى هذا الرضى الذي عمّ الناس عن الثائر الجديد. وهذا الانقياد الذي دفعهم إليه استجابتهم لأبناء المستنصر بالله الحفصي «.. خليفتهم الطويل أمد الولاية عليهم، ورحمة لما نال الواثق وأبناءه من عمّهم»[335] ويشير ابن خلدون في القسم الأول من الفقرة التي أثبتناها له أن من أسباب هذا الانفضاض ما أصبح عليه عامة الناس من شعور بقلة استقرار المسؤولين عن الدولة الحفصية. فإذا استطاع أبو زكرياء الأول أن يمسك بزمام الحكم اثنتين وعشرين سنة، وأن ابنه المستنصر استمرّ على رأس الدولة تسعة وعشرين عاماً، فإن يحيى الواثق لم يبق إلا ثلاث سنين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً كما أن أبا إسحاق إبراهيم لم يبق إلاّ ثلاث سنوات ونصفاً. وموجب هذا الشعور يعود إلى أن المسؤولين، ـ بعد الاثنين الأولين ـ لم يقصر من مدتهما

(334) الفارسية (142).
(335) العبر (6 :691).

أمر عادي طبيعي بل عزل الواثق وقتل، وأجبر أبو إسحاق على التنازل. ومعنى ذلك أن ولاة البلاد لم يبق لهم من السطوة والنفوذ ما يضمن لهم البقاء أطول. وفي ذلك ما فيه من دخول عهد الفوضى وانعدام الاستقرار مما لا يساعد على الاطمئنان، ومن ثمة على الإنشاء والبناء.

أما القسم الآخر من فقرة ابن خلدون فيوضح أن سياسة الحكم وضمان الاستقرار فيه لا يكفي فيهما مجرّد الانتصار بالسيف، والانتقام من الخصوم، لأن السيطرة بالقهر تكون مبنية على نسبة ما لقوة القهر من نفاذ، وأن بقاءها رهين ما يحيط بتلك القوة من ظروف وعوامل، حتى إذا أتى ما ينافيها أو يعاكسها تلاشت واضمحلت بسهولة ويسر.

موقف الولد من الوالد

إذا كان انفصال شيخ الموحدين وكبير الدولة (موسى بن ياسين) عن أبي إسحاق إبراهيم يعتبر من أبرز مظاهر ذلك الانهيار فإن ما حصل لأبي إسحاق إبراهيم من ابنه أبي فارس عبد العزيز يعتبر أدهى وأمرّ؛ فبعد أن غادر أبو إسحاق إبراهيم العاصمة تونس ـ طريداً مع أهله في شدة البرد وتهاطل الأمطار، وقلة القوت، ومرّ على مدينة قسنطينة فمنعه عاملها من الدخول إليها ـ توجه إلى بجاية مستعطفاً القبائل والقرى في مدّه بالقوت حتى وصل بجاية في ذي القعدة من نفس السنة. وكان على بجاية ابنه أبو فارس عبد العزيز المرشح للولاية من بعده.

فماذا كان موقف هذا الولد من والده؟. إنه لم يجد منه لا عطفاً ولا تأييداً؛ فقد منع أبو فارس والده من النزول بقصره في بجاية، وطلب منه أن يتنازل له عن الإمارة قبل كل شيء. ولم يجد هذا الوالد الطريد سوى الإذعان لمشيئة ولده فتنازل له عن الإمارة، وأشهد عليه بذلك الملأ من الموحدين ومشيخة بجاية[336] فبايعوا أبا فارس عبد العزيز على ذلك. وتلقب بلقب «المعتمد». وخيل إلى أبي فارس عبد العزيز أنه بتنازل والده الطريد تحقق له ما كان يصبو إليه، وأن الفرصة سنحت للتعجيل بالوصول إلى المطلوب.

وبماذا يفسر هذا الموقف؟ هل كان ردّاً على ما فعله أبوه بحاجبه

(336) العبر (6: 693).

الخاص أحمد بن سيّد الناس؟ وهو الذي انتهى أمره بالقتل، وانتهى به هو إلى إبعاده عن العاصمة وتولّيه عمالة بجاية؟ إن واقع الخلق الإداري والسياسي - إذ ذاك - لا يبعد هذا الاحتمال. مهما يكن فقد كان هذا هو موقف أبي فارس عبد العزيز من والده المنهزم أمام زحف الدعي ابن أبي عمارة.

معركة مرماجنّة قرب قلعة سنان

أخذ أبو فارس عبد العزيز يستعدّ لملاقاة ابن أبي عمارة دون أن يتعظ بالتجارب المرة التي عاناها أبوه؛ فترك والده ساكناً في بجاية بقصر الكوكب، واستخلف عليها أخاه أبا زكرياء يحيى. واستعدّ ابن أبي عمارة من جهته لمجابهة أبي فارس عبد العزيز حتى التقى الجمعان في المنخفض الذي تقع فيه «مرماجنة» قرب قلعة سنان[337] في الثالث من ربيع الأول سنة 682 (جوان 1283) واستمر القتال إلى أن دبّ الذعر والانخذال في صفوف القوات الحفصية. وانتهت المعركة بمقتل أبي فارس عبد العزيز وإخوته عمر وخالد وعبد الواحد ومحمد بن عبد الواحد. وتنص المصادر على أن ابن أبي عمارة تولّى بيده قتل عبد الواحد بن أبي إسحاق إبراهيم[338] وقطعت رؤوسهم، وأرسلت إلى تونس حيث طيف بها على الرماح. ثم علقت بأسوار المدينة[339] ولم ينج من هذه المعركة من بني حفص إلا أبو حفص عمر أخو أبي إسحاق إبراهيم. وقد اعتبرت هذه المعركة حاسمة بالنسبة للصراع ما بين ابن أبي عمارة وأبي إسحاق إبراهيم. وما إن وصل خبر هذه الهزيمة إلى مدينة بجاية حتى سادتها الاضطرابات والفوضى. وحاول قاضي المدينة (عبد المنعم بن عتيق) تهدئة خواطر السكان، وجمع شملهم فثاروا ضده وقتلوا

---

(337) سمى الزركشي (48) المكان باسم فج الأبيار وفي الفارسية (143) (وطاية قلعة سنان).

(338) الفارسية (143) والعبر (6 :693).

(339) العبر (6 :694).

ابنه، وأمروا بطرده من المدينة[340]. وخاف الأمير المعزول (أبو إسحاق إبراهيم) من سوء المصير فتسلّل هارباً من بجاية صحبة ابنه أبي زكرياء قاصداً تلمسان حيث يوجد صهره أبو عثمان سعيد بن يغموراسن. ولكن والي بجاية الذي عينه السكان الثائرون بادر بمطاردة أبي إسحاق إبراهيم وتعقبه، فأرسل وراءه الجند حتى أدركوه في بني غبرين «.. وقد سقط عن فرسه وتألم فخذه» فقبضوا عليه وحملوه إلى بجاية حيث أودع السجن إلى أن جاء الإذن بقتله من ابن أبي عمارة على يد مبعوثه الخاص محمد بن عيسى بن داود فقتله[341]. وبذلك كاد يقضي ابن أبي عمارة على كافة أبناء العائلة الحفصية لو لم يفرّ من معركة مرماجنة أبو حفص عمر شقيق أبي إسحاق، ولو لم يتمكن أبو زكرياء يحيى من الإفلات من قبضة مطارد أبيه فتمكن من الوصول سالماً إلى تلمسان والتجأ إلى صهره سعيد بن يغموراسن.

(340) هذه رواية ابن خلدون (6 :694) أما صاحب الفارسية (143) فكانت روايته «.. فاجتمع الناس بالجامع فكلمهم رجل فغضبوا منه وقتلوه في المقصورة..».

(341) العبر (6 :694).

ابن أبي عمارة ينفرد بالسلطنة الحفصية

كانت معركة «مرماجنّة» كافية ليصبح ابن أبي عمارة وارثاً لسلطنة بني حفص الممتدة من شرقي طرابلس إلى غربي بجاية. ولم يتعب كثيراً في الحصول على هذا الإرث الواسع فأصبح هو صاحب الحول والطول بعد أشهر معدودات من مجابهته للحفصيين. ولم تكن سرعة انتصاراته ـ حسب الإشارات السابقة ـ تعود إلى قوة جيشه، أو حكمة تدبيره بقدر ما كانت تعود إلى تفشي روح التخاذل في القيادة الحفصية والأسرة الحاكمة، وإلى شدة تبرّم الأهالي من سوء الإدارة، وإلى المجازر الوحشية التي ارتكبها أبو إسحاق إبراهيم سواء مع أفراد أسرته أو مع سامي الشخصيات الإدارية والسياسية والعلمية. ومثل هذا يدعو ـ بطبيعته ـ إلى التساؤل عن مدى استعداد ابن أبي عمارة للحفاظ على تلك السلطنة الواسعة بعد أن رأى ما حلّ بخصومه من الانبهار والتداعي نتيجة قلة التماسك وانعدام التلاحم في صفوف القوى العاملة في الإدارة الحفصية وجيشها نظراً لسوء التصرف في التسيير وعدم تقدير العواقب.

والواقع أن ابن أبي عمارة أحد أولائك المغامرين الذين لا يملكون من حنكة التجربة، وطول الخبرة ما يسمح لهم بالحفاظ على المكاسب الكبيرة التي كانت حصيلة مغامراتهم.

وكان أول عمل قام به ابن أبي عمارة ـ عندما تمكن من قيادة إفريقية واستسلمت له البلاد خاصة العاصمة ـ هو إبدال كبار المسؤولين في البلاد.

وبما أنه لم يكن من أولي العصبة، ولا صاحب عقيدة أو مذهب، فإنه كان يعتمد على من ساندوه في العصيان وخانوا العهد الذي كان بينهم وبين الحكام السابقين، لا سيما أولائك الذين كانت لهم مسؤوليات في عهد خصمه أبي إسحاق إبراهيم. ولكن هل إن أولائك الذين خدعوا من كانت لهم بهم سابق صلة لا يخدعون من أتت به الصدفة، ولم تسبق لهم معه التجربة التي توطّد العلاقة أو تبعث على الاطمئنان؟.

قد يكون ابن أبي عمارة على علم بذلك. ولكن ماذا عساه أن يفعل، وهو لا يكسب من يعتمد عليه إلاّ من أتى به الطريق أو جاءت به المصلحة الخاصة.

صفات الدّعي وسلوكُه

هذا بالإضافة إلى صفات ابن أبي عمارة الخلقية التي سجلها بعض المؤرخين، والتي - مهما أحيطت بالتحفظ والاحتراز- فإنها خير ما ينطبق على المآل الذي انتهى إليه هذا الدعي.

يقول ابن القنفذ - في كتاب الفارسية - متحدثاً عن هذا الرجل: «. . وكان الدعي يتظاهر بمعرفة رجال من الصالحين كالمرجاني والزبيدي والخلاسي وغيرهم. وهو على خلاف ما أظهر من شرب الخمر وغيره. ومن تعدّيه وجرأته أنه كان يقطع المنكر ويرتكبه، ويأمر بالمعروف ويجتنبه. وكان قتّالاً سفاكاً للدماء، ظالماً، خسيساً، بخيلاً، فاجراً، كذاباً مخلفاً للوعد، بعيداً عن خصال أبناء الملوك. ولم تعلم له منقبة سوى أنه رفع «النزول» عن أهل تونس. وكانوا يلقون منها أمراً عظيماً. وبنى جامعاً - خارج باب البحر -[342] للخطبة. ومن عدم سياسته أنه أخذ الحفصيين كلّهم وسجنهم، وسلبهم أموالهم، وصرفه الله عن قتلهم[343].

هذا ما أثبته ابن القنفذ من صفات للدعي ابن أبي عمارة. فهل كان على حق فيما قاله وهو صاحب هوى حفصي ومن رجال الدولة الحفصية وعلمائها؟.

(342) عن المؤنس (124).
(343) الفارسية (144).

إن بعض من يكتبون التاريخ كثيراً ما يشوّهون الحقائق·إذا عرضوا بالحديث لمن شق عصا الطاعة في وجه الدولة أو السلطان الذي يدينون له بالولاء. ولكن ما رأيناه من رأي ابن القنفذ في أبي إسحاق إبراهيم يجعلنا نميل إلى أن حكمه على ابن أبي عمارة لا يبعد كثيراً عن الواقع، ولا يتنافى مع منطق الأحداث التي حصلت مع هذا الدعي في الفترة القصيرة التي استبدّ فيها بالسلطنة الحفصية.

الدّعي يُبْعِدُ القُوَى من حوله

كان دخول ابن أبي عمارة إلى مدينة تونس ـ بعد فرار أبي إسحاق إبراهيم ـ يوم الخميس السابع والعشرين من شوال سنة 681 هـ[344] وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً تكاثر فيه المتطلعون والمتفرجون والمتزاحمون حتى مات من الزحام في باب المنارة ثلاثة عشر رجلاً منهم القاضي حسن بن معمّر الهواري الطرابلسي[345] كما عاث الأعراب يوم دخوله فكثر منهم السلب والنهب. واشتكى إليه الناس مما أصابهم فأخذ ثلاثة من الأعراب وضرب أعناقهم وصلبهم.

أما المناصب الإدارية فقد عيّن لوزارته أبا عمران موسى بن ياسين الذي كان كبير الدولة في عهد أبي إسحاق إبراهيم، والذي خذل مخدومه السابق وانضم إلى هذا المنتزي الجديد مع عدد كبير من رجال الدولة والقواد. كما عيّن في خطة الحجابة عبد الملك بن مكّي الذي كان والياً حفصياً على قابس، فخذل ـ هو أيضاً ـ الحفصيين، وفتح أبواب مدينته في وجه الدعي، وبايعه على إمارة إفريقية. أما كتابة العلامة فأسندها إلى أبي القاسم أحمد بن أبي يحيى بن الشيخ. وكان مما سجل ـ أول دخول الدعي لتونس ـ أنه عزل صاحب الأشغال أبا بكر بن الحسين بن خلدون، وسجنه

---

(344) الزركشي (46).

(345) الزركشي (47).

واستصفى أمواله ثم أمر بقتله خنقاً[346].

ولم يهدأ لابن أبي عمارة بال بعد استيلائه على العاصمة لما أشاعته الأعراب من فوضى واضطراب في النواحي والجهات فجهز لهم جيشاً بقيادة شيخ الموحدين عبد الحق بن تافراجين وأمره بقتل كلّ من يظفر به منهم.

وأسرع ابن أبي عمارة في عملية تصفية كبيرة أملاً منه في استقرار الوضع له، وتأمين حكمه، سالكاً سبيل الظنة، مبالغاً في الاحتياط والإحراز. ويذكر الزركشي أن ابن أبي عمارة شرع في عملية التصفية تلك بعد دخوله العاصمة بأسابيع قليلة «ففي الخامس والعشرين من يوم دخوله أخذ أمراء العرب الملاقين له وكانوا نحواً من ثمانين. وفي يوم السبت بعده أخذ الزناتيين، وأخرجوا من القصبة عراة وكانوا نحواً من ثلاثمائة وخمسين. وفيه أخذ النصارى وكانوا نحواً من مائة وثمانين فارساً. وفي الثالث والعشرين من ذي الحجة أخذ قرابة السلطان أبي إسحاق كلّهم وسجنهم، واستأصل أموالهم. وهمّ بقتلهم فمنعهم الله منه[347].

ألا يدلّ كل هذا على الحالة النفسية العصبية التي كان يعيشها هذا الدعي؟ مُوسِعاً بذلك الهوّةَ بينه وبين القوى التي كان في إمكانه الاعتماد عليها إذا جدّ الجدّ وحزب الأمر؟. فبماذا سيواجه حركات الانتقاض إذا ظهرت؟ وبماذا سيجابه بقايا بني حفص إذا ظهروا مطالبين بحقهم في ملك إفريقية؟.

إن ابن أبي عمارة إذا احتاط للأمر بسجنه كلّ من يمت بصلة أو قرابة لأبي إسحاق إبراهيم فإنه يعلم ـ أيضاً ـ أن بعضاً من أفراد العائلة الحفصية فرّ من قبضته وأفلت من يده. وأنه لا مانع من ظهوره متى سنحت له الفرصة بذلك.

(346) الزركشي (47) وصاحب الأشغال هو وزير المالية.

(347) الزركشي (47).

وإذا وقف صاحب تلمسان (عثمان بن يغموراسن) موقف المتفرج من مجزرة أصهاره بتونس وضياع ملكهم فإن الأمير أبا حفص عمر ـ أخا أبي إسحاق إبراهيم ـ استطاع أن يلجأ إلى قبيلة هوارة في قلعة سنان صحبة ثلاثة من رجال الدولة الحفصية الذين ساعدوه على الفرار راجلين. يقول ابن خلدون إن هؤلاء الثلاثة كانوا يتبادلون حمله على ظهورهم إذا ظهر عليه كلل أو تعب. وكان من بين هؤلاء الثلاثة الجدّ الأقرب لابن خلدون (محمد بن أبي بكر)[348].

(348) العبر (6 :694 - 695).

ظهور عمر الحفصي وانهزام الدّعي

ما إن تمكّن أبو حفص عمر من الإفلات من قبضة ابن أبي عمارة في معركة مرماجنة، والتجأ إلى هوّارة حتى أخذ خبره ينتشر في المدن والبوادي. وبدأ أمره يشيع ويكثر أنصاره لا سيما من قبل الأعراب الذين سارعوا بالانضمام إليه لكثرة ما نالهم من إرهاق وعسف الدعي ابن أبي عمارة.. وعندما وصلت أخبار عمر الحفصي إلى تونس اشتد جزع الدعي وأصبح يشك في أقرب رجال دولته. وفي الخامس عشر من محرم 683 (أفريل 1284) قبض الدعي على موسى بن ياسين شيخ دولته، وموطّد أمره. وكان قد نمي لابن أبي عمارة أن موسى بن ياسين كاتب عمر الحفصي واعتزم الغدر بابن أبي عمارة كما غدر في السابق بأبي إسحاق إبراهيم[349] كما قبض ـ معه ـ على الشيخ أبي الحسن بن ياسين وابن واندوين، والحسن بن عبد الرحمان الزناتي. وسلط العذاب على جميعهم، وضرب ابن ياسين بالسياط عدة مرات حتى انتهى تعذيبه بقتله. وقتل ابن واندوين عشية الخميس ثاني صفر سنة 683[350].

وقد نفذ ابن أبي عمارة القتل في أكبر عضد له في نفس اليوم الذي خرج فيه من تونس لمواجهة عمر الحفصي بعد أن بلغته الأخبار تنبىء باقترابه

(349) الفارسية (144).

(350) الفارسية (144) والزركشي (49).

من العاصمة زاحفاً عليها. إلاّ أن حظ الدعي مع جنوده لم يكن بأحسن من حظ أبي إسحاق إبراهيم من قبله إذ انفضّ من حوله الناس فرجع منهزماً إلى العاصمة. وأخذ عمر الحفصي يطارده حتى نزل قريباً من تونس بسبخة السيجومي، والدعي معتصم بأسوار المدينة وبظاهر البلد أمامه. وجرت بين الطرفين عدة مناوشات كان الدعي يفقد فيها كل مرة الأنصار والمؤيدين إلى أن كان يوم الأحد 22 ربيع الآخر أحس فيه الدعي بانهزامه الأكيد ففرّ من الميدان ودخل العاصمة واختبأ في دار فرّان أندلسي يقال له أبو القاسم القرموني[351] ودخل عمر الحفصي مدينة تونس في ليلة الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة 683 بعد أن حكم الدعي المملكة الحفصية سنة وبضعة أشهر[352]. وأخذ رجال عمر الحفصي يبحثون عن الدعي المختفي حتى دلتهم عليه امرأة بعد سبعة[352م] أيام من اختفائه. وأوتي به إلى عمر الحفصي «.. فقرّره بحضرة الشهود والقضاة فاعترف بنسبه الأصلي، وأنه أحمد بن مرزوق المسيلي. ثم أمر بضربه فضرب مائة سوط. ثم ضربت عنقه، وطيف بجثته على حمار أشهب، وجرّ إلى السبخة خارج باب البحر فرمي بها وطيف برأسه على عصا. وكان الذي تولّى قتله الشيخ أبا محمد بن يغمور بسيف كان أعطاه له الدعي نفسه. وقد تمّ ذلك يوم الثلاثاء ثاني جمادي الثانية من نفس السنة[353]. وهكذا أسدل الستار على مأساة من الحكم قال عنها ابن الخطيب:

غـريبـةٌ من لُعَبِ اللّيـالي ما خـطرت لعـاقـل ببـال

(351) الزركشي (50) وفي نسخة العبر (6: 696) القرمادي ولم يسمه ابن القنفذ (145).
(352) الزركشي (50).
(352م) في الفارسية تسعة (145).
(353) انظر نهاية الدعي في الفارسية (145) العبر (6: 696) ـ الزركشي (50).



نهج الأندلس بتونس العاصمة.

عودة بني حفص إلى الحكم وعودة الانقسام

بعد هزيمة ابن أبي عمارة تمت بيعة عمر بن أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص يوم الأربعاء 26 ربيع الثاني 683 (1284 م) مستعيداً بذلك مجد آبائه الحفصيين في إنشاء دولة مستقلّة بهم. وقد ساعده سوء تصرف الدعي على استعادة ذلك المجد بعد أن انقطع عنهم مدة استبداد الدعي بن أبي عمارة. وهي مدة لا تتجاوز السنة والنصف على أقصى التقديرات. وقد حدّدها الزركشي بسنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً[354].

ويبدو أن عمر الحفصي حاول أن يسلك سياسة داخلية على عكس من سبقه، متباعداً عن نفسية الانتقام التي أضرت كثيراً بالدولة الحفصية. فقد كان هذا الأمير ـ كما يقول ابن القنفذ ـ: ملكاً مدركاً، عاقلاً فاضلاً، كاملاً كريماً، متغاضياً، لم تحدث منه عقوبة لأحد بعد دخوله تونس على الدعي»[355]. ولا أدل على ذلك من الموقف الذي اتخذه مع حاجب الدعي الفقيه أبي القاسم بن الشيخ؛ فقد اختفى هذا الحاجب بعد انتصار عمر الحفصي على الدعي خوفاً من التنكيل به. وبعث مع أحد الصلحاء مستشفعاً، مستعطفاً. وما كان من عمر الحفصي إلا أن قال لذلك الوسيط:

(354) الزركشي (50) وفي الفارسية (145): سنة وشهران وسبعة وعشرون يوماً.
(355) الفارسية (146).

حاجتنا إليه أعظم من حاجته إلينا، وتفويت مثله أو إبعاده لا فائدة فيه إلاّ الندم»، وفعلاً جاءه الحاجب ابن الشيخ فسكن روعه، وأمّنه، وقرّبه. ولازم خدمته عشر سنين[356].

ولعلّ هذا الموقف من عمر الحفصي لم تمله صفاته الخلقية فقط بل أملته كذلك الرغبة في الإبقاء على العناصر الصالحة والإطارات العليا للدولة بعد أن كادت تقضي عليها ـ نهائياً ـ نفسية الانتقام والأخذ بالظنة والغدر. وهي النفسية التي عاشها البلاط الحفصي عشرات العقود من السنين، والتي قضت على الكثير من ذوي النباهة والكفاءة. ويبدو أن هذا الموقف وأمثاله هو الذي جعل بعض المؤرخين يصف عهد عمر هذا بأنه كان عهد «هناء وأمن وعدل»[357].

وقد يصدق هذا إذا وقع قصر النظر على تلك الزاوية، والمسلك الخلقي الذي لازم عمر الحفصي طيلة المدة التي بقي فيها أميراً على الدولة الحفصية. ولكننا إذا نظرنا إلى الوضع العام للسلطنة الحفصية، وظروفها السياسية والخارجية فإننا نجد عهد عمر الحفصي يمثل عهد التمزق لوحدة السلطنة، وعهد طمع الغزاة الخارجيين في الاستيلاء على بعض أجزائها لما أصبحوا يعتقدونه من تفشي الوهن والضعف في وسائل دفاع هذه السلطنة عن أجزائها وأطرافها. كما أن عهده لم يسلم من عاهة الانشقاق التي أصيبت بها العائلة الحفصية وجرّت عليها الكثير من الويلات. وكان من أخطر مظاهرها ما قام به أبو زكرياء بن أبي إسحاق في القسم الغربي من السلطنة.

---

(356) المصدر السابق.

(357) المصدر السابق (148).

أبو زكرياء بن إبراهيم ضدّ عمّه عمر الحفصي

لعلّنا ما زلنا نذكر أن أبا إسحاق إبراهيم ـ عندما فرّ من بجاية خوفاً من ثورة الأهالي ضده بعد انتصار الدعي ـ حاول الفرار صحبة ابنه أبي زكرياء. ولكن الجنود أدركوا أبا إسحاق إبراهيم فعادوا به إلى بجاية، وقطعوا رأسه وبعثوا به إلى الدعي في تونس. أما ابنه أبو زكرياء فقد استطاع الإفلات من مطاردة الجنود له حتى تمكن من الوصول إلى تلمسان ملتجئاً عند صهره أبي سعيد عثمان بن يغموراسن. وظل لاجئاً هناك إلى أن انتصر عمر الحفصي على الدعي وأعاد للعائلة الحفصية ملك إفريقية. ولكن التنافس بين المسؤولين في حاشية عمر الحفصي جعل أبا زكرياء بن إبراهيم يتحوّل من لاجيء في تلمسان إلى ثائر يطالب بالسلطنة ضد عمر.

ذلك أن عمر الحفصي عندما تمكن من الفرار في معركة قلعة سنان ساعده على فراره ثلاثة من رجال الدولة الحفصية: أبو الحسن بن أبي بكر بن سيد الناس، ومحمد بن أبي بكر بن خلدون الجدّ الأقرب لابن خلدون، ومحمد بن القاسم بن إدريس الفازازي[358]. وظهر ـ منذ البداية ـ أن عمر الحفصي كان يفضل الفزازي على زميليه مما يدعو إلى التكهن بأنه سوف يكون صاحب الدولة إذا تمّ النجاح لعمر الحفصي. ولم يحتمل ابن

(358) تختلف الروايات في ضبط هذا اللقب. وقد اعتمدنا رواية ابن القنفذ عند ذكره لعيسى الفازازي ـ الفارسية (ص 150).

سيّد الناس هذا التمييز فغادر حاشية عمر الحفصي، وتوجه إلى تلمسان حيث يوجد حفصي آخر يمكن أن يجد عنده الحظوة والمكانة الممتازة. وكان ذلك هو السبب في اتصال ابن سيد الناس بأبي زكرياء بن إبراهيم، منتهزاً ما عند الأمير اللاجىء من طموح[359]، فحرضه على المطالبة بملك بني حفص لأنه أولى بذلك من عمه عمر. واستجاب الأمير اللاجىء لهذا التحريض والإغراء فأخذ يستعدّ للتوجه إلى إفريقية ومحاربة عمّه، فاقترض المال من تجار بجاية في تلمسان وأنفقه في أبهة الملك، وجمع الرجال، واصطناع الأولياء كما يقول ابن خلدون[360]. وبلغ خبر هذا الاستعداد إلى عثمان بن يغموراسن، صاحب تلمسان، فحاول منعه من حركته، وصدّه عن عزمه نظراً للعلاقات والعهود التي كانت بين بني زيان والحفصيين. ولكن أبا زكرياء بن إبراهيم لم يستجب لرغبة عثمان بن يغموراسن فتظاهر بالخروج إلى الصيد ـ كما كان يفعل أثناء التجائه في تلمسان ـ والتحق بداود بن هلال أمير بني يعقوب وكافة بني عامر من قبائل زغبة. وبعث أبو سعيد عثمان إلى داود بن هلال ليرد إليه أبا زكرياء بن إبراهيم إلّا أنه امتنع من ذلك؛ لأنه التجأ إليه وأعطاه ذمته وعهده. ولم يكتف ابن هلال بذلك بل انضم إلى أبي زكرياء ودعا بني زغبة إلى طاعته. ومن هناك ذهبوا إلى عطية بن سليمان من رؤساء الذواودة فتلقاهم بالطاعة والانقياد. وبذلك أصبح لأبي زكرياء من الأنصار والأتباع ما يدفعه ويشجعه على تحقيق آماله. وأمكن له أن يستقل بكامل القسم الغربي من السلطنة الحفصية باستيلائه على بجاية وقسنطينة والجزائر، وإعلانه استقلاله في تلك المناطق، وتلقبه بـ«المنتخب لإحياء دين الله»[361]. ثم طوّحت به الآمال إلى ضمّ القسم الشرقي من السلطنة الحفصية فعزم على احتلال تونس لولا أنها امتنعت عليه. إلّا أن ذلك لم يدفع به إلى اليأس

(359) العبر (6: 699).

(360) العبر (6: 699).

(361) العبر (6: 700).

فاتجه صوب الجنوب واستولى على قابس بعد معارك كبيرة أحرق أثناءها منازلها وغابة نخيلها، وهدم ربضها[362]. ثم واصل زحفه مشرقاً حتى وصل مصراتة. إلا أن حدثاً هامّاً دعاه إلى الإقلاع عن مواصلة زحفه، وأسرع بالعودة به إلى بجاية.

(362) العبر (6 :701).

تدخّل صاحب تلمسان في الصراع الحفصي

لم يبق أبو سعيد عثمان، صاحب تلمسان، مكتوف الأيـدي أمام الصراع الداخلي الجديد في السلطنة الحفصية. ويعود ذلك إلى أمرين اثنين: الأول أن صاحب تلمسان كان ـ منذ البداية ـ ضد حركة أبي زكرياء بن إبراهيم الذي كان ملتجئاً عنده. وقد حاول صدّه عن حركته تلك دون جدوى. ولهذا فإنه أصبح يشعر نحوه بشيء من السخط على الأقل. أما الأمر الثاني فهو استنجاد عمر الحفصي وأهالي تونس بصـاحب تلمسان ضـدّ المنتقض عليهم عندما بعثوا إليه يحرضونه على مهاجمة بجاية حتى يخفف عنهم وطأة أبي زكرياء بن إبراهيم. وفعلاً توجه أبو سعيد عثمان سنة 686 هـ يهدد مدينة بجاية بالاحتلال. وبعث قبل ذلك برسول إلى عمر الحفصي يجدد له المبايعة حسب المألوف من الزيانيين مع بني حفص. وعندما علم أبو زكرياء بن إبراهيم بتوجه صاحب تلمسان إلى بجاية عدل عن مواصلة زحوفه في طرابلس وعاد إلى بجاية عاصمة ملكه التي لم يتمكن أبو سعيد عثمان من الاستيلاء عليها.

وحركة صاحب تلمسان، وإن لم تأت بنتائج إيجابية في القضاء على مطامح أبي زكرياء بن إبراهيم، إلا أنها خففت من الخطر الذي كان يهدد ملك عمر الحفصي بالزوال، كما أنها دلّت على مدى الضعف الذي أصبحت عليه السلطنة الحفصية عندما أخذت تستنجد بالخارج لردّ حركة انشقاق داخلي عجزت عن التغلّب عليها.

التدخل الإسباني في السلطنة الحفصية

إن ما قام به أبو زكرياء بن إبراهيم ضد عمه عمر الحفصي كان في الواقع يمثل انقساماً للسلطنة الحفصية يذكرنا بالانقسام الذي حصل في عهد الدولة الصنهاجية عندما أصبحت دولتين: إحداهما شرقية عاصمتها القيروان فالمهدية، والأخرى غربية عاصمتها بجاية. وإذا كان الانقسام في عهد الدولة الصنهاجية لم يكتب فيه الرجحان لصاحب بجاية، فإن هذا الانقسام الأخير انتهى ـ بعد أحداث وتطورات ـ إلى رجحان كفة المستقلين ببجاية حسب الذي يرد فيما بعد.

عندما قتل آخر بني عبد المؤمن «الخليفة أبو دبوس» سنة 668 هـ (1269 م) بانتصار أبي يوسف المريني عليه تفرّق أبناء أبي دبوس مشردين في الآفاق. وقد التجأ البعض من أولائك الأبناء إلى إسبانيا النصرانية؛ فذهب أولاً عبد الواحد بن إدريس، ثم أخوه عثمان بأولادهما ونسائهم إلى بلاط «الفونصو الثالث» صاحب مملكة أرغونة حيث يوجد أبناء عمهم أبي زيد الذي تنصّر وانضم إلى بلاط أرغونة، وأصبح هو وأبناؤه محلّ الرعاية والاعتبار عند هذا الملك النصراني. وتذكر بعد المصادر التاريخية[363] أن أبناء أبي زيد احتفوا باللاجئين الجدُد من أحفاد عبد المؤمن، وتوسطوا لهم لدى ملك أرغونة فأغدق عليهم العطايا، وأصبحوا في خدمته وتحت رعايته[364].

(363) العبر (6 :703).

(364) العبر (6 :703) برنشفيك (1 :98).

ثـم تتطور الأحداث في أرغونة عندما اعتلى عرشها «بيدرو الثالث» سنة 1274 م إذ امتدّ نفوذ هذه المملكة إلى صقلية وجنوب إيطاليا (مملكة نابلي)، لأن «بيدرو الثالث» تزوج بالأميرة «كونستاس» بنت «مانفرد» صاحب صقلية وجنوب إيطاليا فطالب «بيدرو» بإرث زوجته[365]. وبما أن صقلية وجنوب إيطاليا استولى عليهما «شارل دانجو» بمساعدة البـابا «مارتان الرابع» فإن صاحب أرغونة دخل في صراع مسلح مع «شارل دانجو». وكانت الوضعية الجغرافية لصقلية من إفريقية هي التي جعلت «بيدرو الثالث» يسعى إلى وضع قدمه بإفريقية تسهيلاً لغزو صقلية، وأملاً في الوصول حتى إلى المشرق الإسلامي بعد ذلك. وهذا ما جعله يناصر حركات الانتقاض في السلطنة الحفصية سعياً في تركيز حليف له فيها. وقد مرّ سابقاً أن صاحب أرغونة نزل بأسطوله في ميناء القل مناصراً لثورة ابن الوزير في قسنطينة ضد أبي إسحاق إبراهيم. إلا أن التعجيل بالقضاء على ثورة ابن الوزير جعل نزول «بيدرو الثالث» في ميناء القل لا يأتي بنتيجة، كما ساعد أبا إسحاق إبراهيم نفسه في ثورته ضد الواثق بن المستنصر، ثم انشغل «بيدرو الثالث» في حروبه مع شارل دانجو. وشهدت المرحلة الأخيرة من تلك الحروب الأشهر الأخيرة من عهد أبي إسحاق إبراهيم وفترة الدعي ابن أبي عمارة. ونتج عن كل ذلك أن عمر الحفصي عندما انتصر على «الدعي» وجد نفسَه وجهاً لوجه مع «بيدرو الثالث» الذي انتصر في حروبه على «شارل دانجو». وبالرغم مما بدا على «بيدرو الثالث» كأنه زهد في غزو جديّ لإفريقية الحفصية إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من أن تصبح السلطنة الحفصية عرضة لاعتداءات متكررة يقوم بها بحارة صقلية وقراصنتها.

(365) نهاية الأندلس (176).

احتلال جربة وهجومات على السواحل

كان أهمّ حادث سجل في هذه الفترة هو احتلال جزيرة جربة الذي حصل سنة 683 هـ (1284 م) بقيادة أمير البحر الإسباني «روجير دولوريا» إلا أن هذا الاحتلال ـ حسب بعض المصادر التاريخية ـ كان أقرب ما يكون إلى البادرة الشخصية من ذلك الأميرال إذ لم يتلقَّ أوامر تلك الغزوة من الملك «بيدرو الثالث»، وإنما كان ذلك حسب اتفاق حصل بينه وبين أحد أبناء «بيدرو» هو الأمير «جاك» حاكم مسّينا[366]. ولم يجد «روجير دولوريا» مقاومة تذكر في نزوله بجربة من أهاليها الموجودين فيها. وتنصيص ابن خلدون على أن سكانها ـ إذ ذاك ـ كانوا من الخوارج والنكارة[367] قد يوهم بأن خلافهم المذهبي مع المسؤولين الحفصيين كان له دخل في السهولة التي احتلت بها الجزيرة، بينما يجعل البعض الآخر بُعْدَ الجزيرة عن مركز السلطنة من أسباب التعجيل والسهولة لاحتلالها[368]. ولكن السبب الرئيسي في ذلك هو ضعف السلطنة الحفصية في الدفاع عن نفسها، وردّ المغيرين عليها في عهد سلطانها أبي حفص عمر؛ لأننا لا نجد في المصادر التاريخية أيّ أثر لردود الفعل من السلطنة الحفصية. بل إن الأحداث التي ستتبع ذلك الاحتلال تؤكد مدى الضعف الذي كانت عليه تلك السلطنة، إذ لم يكتف أولائك

(366) برنشفيك (1 :93).
(367) العبر (6 :697).
(368) برنشفيك (1 :93).

الغزاة باحتلال جربة بل شنّوا غارات كثيرةً على عدد من مدن السواحل بما فيها مدينة تونس. وأن أهالي الساحل استطاعوا الصمود أمام محاولة النزول بالمهدية دون أن يكون لهـم سند من السلطة المركزية الحفصية. ويمكن أن يستروح ذلك مما جاء في كتاب معالم الإيمان عند ترجمة الشيخ سالم القديدي(369) فقد جاء فيه أن العدو لما نزل بثغر المهدية وعلم بذلك الشيخ سالم القديدي فزع في جمع كبير من أهل القيروان وبني جرير وغيرهما للجهاد فوجد العدوّ نازلاً بساحتها فنزل بقراضة إلى أن اجتمع عليه خلق كثير. ثم نهض بهم إلى مقاتلة العدو. فلما أقبل بمن معه على قصر الرباط ـ وهو قريب من المرسى الذي كان فيه العدو ـ فرّ من كان من العدوّ بالساحل لقتال الناس وانهزموا مبادرين إلى أجفانهم. وقتل منهم من قتل. ثم انحازوا عن المرسى بأجفانهم وأقلعوا بعد أن عاينوا من الرعب ما أدهشهم وأذهلهم عن مقصدهم»(370). على أن منطق الأحداث ـ إذ ذاك ـ يرجح أن أساس تلك الغزوات الساحلية لم يكن يراد به النزول فيها بقدر ما كان يراد منه القرصنة والنهب وبثّ الرعب. بينما احتلال جزيرة جربة كان مقصوداً به الإقامة فيها حيث استمروا أكثر من نصف قرن إذ لم يقع استرجاعها إلا في أواخر الأربعين والسبعمائة حسب تعبير ابن خلدون(371). وقد صاحب ذلك الاحتلال التنكيل بالأهالي والإرهاق بالضرائب. يقول ابن خلدون: «.. ثم تغلّبوا عليها فانتهبوا أموالها، واحتملوا أهلها أسرى وسبيا. يقال: إنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالأطفال الرضع في الجبوب (الآبار)؛ ثم بنوا بساحلها حصناً(372) واعتمروه وشحنوه حامية وسلاحاً وفرضت على الأهالي ضريبة بمائة ألف دينار في السنة(373).

(369) المعالم (4 :69).

(370) يجعل ابن خلدون (6 :698) أن مدداً جاء لأهل المهدية من الجم كان سبباً في الانتصار.

(371) العبر (6 :698).

(372) انظر وصفه في رحلة التجاني (128 وما قبلها).

(373) العبر (6 :697).

حفيد مؤمني يطالب بالخلافة الموحدية

كان احتلال جزيرة جربة من طرف القائد الإسباني «روجير دو لوريا» يحمل عنصراً آخر له دور كبير على مجرى الأحداث في إفريقية التي جدت في عهد عمر الحفصي. وكان هذا العنصر الجديد يتمثل في ظهور أحد أحفاد عبد المؤمن بن علي مطالباً بحقه في وراثة الخلافة الموحدية. وكانت إفريقية أكبر نصيب في ذلك الميراث. وتعود أسباب ظهور هذا العنصر الجديد إلى ما يلي:

I أسْر شيخ بني دباب:

كان من ضمن الأسرى الذين قبض عليهم بعد احتلال جزيرة جربة وأرسل بهم إلى صقلية وأرغونة شخصية هامة، هو مرغم بن صابر بن عسكر شيخ بني دباب، صاحب مدينة زنزور التي أقطعها له الواثق الحفصي سنة 676 هـ[374] استجلاباً له وتقرّباً منه. وكانت صورة القبض عليه وأسره أن كوكبة من الجيش الإسباني عبرت من جزيرة جربة إلى الأرض الكبيرة فصادفته متوجهاً إلى تونس فقبضت عليه وأسرته. ثم أرسل به إلى أرغونة بعد أن عرفت مكانته لاستخدامه يوماً مّا ضد السلطنة الحفصية لا سيما أنّ شيخ بني دبّاب معروف بعدائه للسلطنة الحفصية وتأييده للدّعي ابن أبي عمارة إذ

(374) رحلة التجاني (217).

كان أكبرَ مناصر له في طرابلس. ومن هنالك زحف إلى الشمال وقضى على السلطنة الحفصية مدة عام ونصف.

II امتيازات جديدة لمملكة أرغونة:

قبل أن يقع استخدام شيخ بني دباب ضد السلطنة الحفصية جرى حادث بسيط ـ في حد ذاته ـ لكنه كان شديد الخطر على الدولة الحفصية[375] ففي شهر أفريل 1285 (684 هـ) تلقّى «بيدرو الثالث» شكايةَ اثنين من رعاياه كانا مقيمين في تونس، يعلمانه فيها باستيلاء بعض موظفي الدولة الحفصية على أموالهما، فأذن ملك أرغونة بالاستيلاء على أملاك الرعايا الحفصيين والإتيان بها إلى قطلونية حتى يقع استيفاء ما حصل لرعاياه من أضرار. ويبدو أن عمر الحفصي خاف سوء العاقبة وردّ الفعل لا سيما بعد أن أصبحت القوات الإسبانية منتصبة في كل من جزيرة جربة وجزيرة صقلية. وكلّ من الجزيرتين تعتبر قاعدة هجوم على السلطنة الحفصية. وهذا ما جعل عمر الحفصي يبعث بسفارة إلى «بيدرو الثالث» مكونة من أربعة أشخاص للتفاوض مع ملك أرغونة وعقد معاهدة جديدة معه تمتد خمسة عشرة سنة. وكان أهم ما تضمنته تلك المعاهدة ـ بالإضافة إلى النواحي التجارية، والملاحة البحرية ـ ما يلي:

1 ـ أن يمارس النصارى شعائرهم الدينية بكل حرية في أراضي السلطنة الحفصية، وأن يسمح لهم بقرع أجراس كنائسهم.

2 ـ السماح للصقليين والقطلونيين ببناء الفنادق والمتاجر في أي مكان يختارونه.

3 ـ حرية ملك أرغونة في تعيين من يراه من القناصل في مختلف أنحاء السلطنة.

---

(375) ينظر برنشفيك (1 :94 - 95).

4 ـ وله ـ أيضاً ـ حق تعيين قائد الفرقة العسكرية النصرانية التي تعمل في البلاط الحفصي منذ القديم.

5 ـ حق القناصل التابعين لملك أرغونة في مقابلة الملك الحفصي مرة في الشهر على الأقل.

6 ـ التزام السلطنة الحفصية بآداء ضريبة سنوية تدفعها لأرغونة تبلغ حوالي أربع وثلاثين قطعة ذهبية. وأن ملك «صقلية وأرغونة» يعوض «آل دانجو» في استخلاص الضريبة التي التزمت بها الدولة الحفصية لشارل دانجو بموجب المعاهدة التي عقدت إثر حملة لويز التاسع على تونس.

وواضح أن هذه المعاهدة المعقودة بين عمر الحفصي و«بيدرو الثالث» تمثل مستوى الضعف والانحلال الذي أصبحت عليه السلطنة الحفصية. وأن هذه المكاسب التي أحرزها «بيدرو الثالث» بدون حرب أوضح دليل على ذلك. ورغم موت «بيدرو الثالث» في نفس السنة وانقسام مملكته إلى مملكتين بانتصاب ابنه «الفونصو الثالث» على قطلونية وأرغونة وبلنسية، برغم ذلك فإن صاحب أرغونة الجديد لم يكفّ عن التدخل في شؤون السلطنة الحفصية. وقد انتهز فرصة وجود حفيد لعبد المؤمن بن علي فاستعمله لتحقيق مطامحه وتدخله في شؤون إفريقية.

III تحالف الفونصو الثالث وابن أبي دبوس:

عندما قتل أبو دبّوس آخر خلفاء الموحدين سنة 668 هـ خرج أبناؤه هاربين خوفاً من بني مرين. والتجأ البعض منهم إلى مملكة أرغونة حيث يوجد في بلاطها أبناء عمهم أبي زيد المتنصّر كما تقدم في السابق. وأكرم صاحب أرغونة مثوى هؤلاء الفارّين إلى أن انتصب على أرغونة الملك «الفونصو الثالث» الذي تابع سياسة أبيه في مطاردة إفريقية الحفصية ومشاغبتها خاصة أن ابن أبي دبوس كان يحلم باستعادة مجد آبائه، بني عبد المؤمن بن علي. وانتهز «الفونصو الثالث» ذلك الطموح فعقد معه اتفاقاً

يتعهد بموجبه الفونصو الثالث بتجهيز جيش وأسطول يغزو بهما ابن أبي دبوس إفريقية ملتزماً بدفع أتأوة سنوية لصاحب أرغونة، وإرجاع نفقات الحملة عند انتصاره، وانتصابه على عرش إفريقية. وطلب «الفونصو الثالث» من مرغم بن صابر أن ينضم إلى جيش ابن أبي دبوس على أن يتعهد بدفع فدية فكّه من الأسر، وأن يناصر ابن أبي دبوس في حملته ضد عمر الحفصي.

وكان الاختيار أن يقع النزول في طرابلس لأمرين: الأول بعد طرابلس عن مركز السلطنة الحفصية، والثاني استغلال زعامة مرغم بن صابر على بني دباب في نواحي طرابلس. وأوكلت قيادة الحملة للأميرال الإسباني «روجير دولوريا» غازي جزيرة جربة. وكان وصول الحملة إلى طرابلس سنة 688 هـ (1289 م). ولكن التفصيلات عن هذه الحملة قليلة جدّاً ولا تخلو من غموض واختلاف الروايات حول ابن أبي دبوس المطالب بميراث «الخلافة الموحدية». فبينما نجد ابن خلدون يجعله عثمان بن أبي دبوس[376] نجد غيره[377] يجعله ـ أولاً ـ أبا مالك عبد الواحد ثم تولّى الأمر من بعده أخوه أبو سعيد عثمان كما يأتي بعد قليل.

ومهما يكن فإن الجيش الإسباني لم يبق طويلاً في طرابلس بسبب خلاف نشب بين قادته وبين مرغم بن صابر فغادر الأسطول الإسباني طرابلس، وبقي عبد الواحد بن أبي دبوس مع مرغم بن صابر وما ضم إليه من الأعراب مسيطرين عدة شهور على نواحي طرابلس. وكان ابن مكي والي قابس قد استجاب إلى الدعوة الموحدية الجديدة التي نادى بها أبو مالك بن أبي دبوس. ثم توفي أبو مالك فتولّى الزعامة بعده أخوه أبو سعيد عثمان[378] إلا أنه لم يتمكن من تحقيق أيّ مأرب إذ انفضّ عنه أنصاره الدبابيون فأقلع

(376) العبر (6 :703).

(377) برنشفيك (1 :100) وقد سايرنا رواية هذا المصدر.

(378) عد إلى حاشية (377).

عن مواصلة المطالبة بملك بني عبد المؤمن وعاد إلى أحلافه النصارى بجزيرة جربة لعلّ فرصة أخرى تسمح له بالعودة.

وهكذا نرى مرة أخرى وَهَنَ السلطة المركزية للسلطنة الحفصية وعجزها عن التصدي للأخطار المهددة لكيانها، فهي لم تحرك ساكناً لهذا النزول العدواني في جزء من ترابها. ولو قدر لابن أبي دبوس أن يستمرّ معه بنو دبّاب فإنه لا يوجد ما يمنع أن ينازل مدينة تونس العاصمة ويزيل منها عمر الحفصي وقد رأينا أن عبد الملك بن مكي، والي قابس، اعترف به، وكان على استعداد لتأييده ومناصرته. كما أنه ليس هنالك ما يمنع غيره من العمال أن يقفوا مثل موقفه. وهو ما حصل عدة مرات كلما قامت حركة انتقاض أو ظهر دعيٌّ جديد.

عندما يئس عبد الملك بن مكّي من وجود منتقض قوي في الجنوب ـ وبعد أن أعلن تأييده لابن أبي دبوس ـ تطلّع إلى أبي زكرياء يحيى صاحب بجاية فأعلن انفصاله عن عمر الحفصي وبايع صاحب بجاية سنة 1294/639. وهي نفس السنة التي تمّ فيها انفصال جنوب شرقي الجزائر (بلاد الزاب) عن عمر الحفصي وانضمت إلى أبي زكرياء صاحب المملكة الحفصية الغربية الذي أصبح له من امتداد النفوذ واتساع الملك أكثر مما بقي لأبي حفص عمر صاحب المملكة الحفصية الشرقية.

اختيار أبي عصيدة لولاية العهد

كان أبو زيد عيسى الفازازي هو صاحب الدولة وشيخ الموحدين في عهد عمر الحفصي. وكان يرجع إليه الفضل في صدّ أبي زكرياء صاحب بجاية عندما عزم على احتلال تونس. كما كان له الفضل في قمع العصيان الذي ظهر في بلاد الجريد بزعامة أحمد بن يملول. إلّا أنه توفّي وهو عائد من بلاد الجريد على مرحلتين من تونس في ذي االقعدة سنة 693 هـ ودفن ببلدة رادس.

ويبدو أن الفراغ الذي أحدثه موت أبي زيد الفازازي هو الذي دعا عمر الحفصي إلى التوجه للجنوب مما قد تكون له صلة بموقف عبد الملك بن مكي في قابس. ولكن كتب التاريخ لا تعطينا تفاصيل كثيرة عن هذه الرحلة إلى الجنوب. وغاية ما تذكره أن عمر الحفصي أدركه المرض ـ وهو بالحامة ـ فبادر بالرجوع إلى العاصمة، واهتم بمصير الدولة من بعده. وكان إلى ذلك الوقت لم يعلن عمّن يكون وليّاً للعهد وخلفاً له. وعندما أحس بالمرض فكر جدياً في الأمر فلم يَرَ أمامه إلّا ابنه عبدالله. وهو طفل صغير لم يبلغ الحلم. إلّا أن رجال الدولة ـ خاصة أهل الشورى من الموحدين ـ أعلنوا عدم رضاهم عن ذلك الاختيار، وتحدثوا كثيراً في ذلك حتى وصلت أقوالهم إلى عمر الحفصي. وكان حرصه على جمع الكلمة التي أضر انقسامها بالدولة ـ إلى جانب مسالمته ـ دافعاً به إلى العدول عن تولية العهد لابنه من بعده بعد عشرة أيام من إعلانه عن ذلك.

وكان المفروض ـ في مثل هذا الموقف ـ أن يستشير أهل الحل والعقد من رجال دولته، وأن يأخذ برأيهم في اختيار الشخص الذي يرونه صالحاً لمنصب الإمارة بعد وفاته. وإذ ذاك يكون عُدُولُه عن تولية ابنه نتيجةَ حرصه على المصلحة العامة، ورغبته في جمع الكلمة وتوحيد الصف. إلاّ أن عمر الحفصي ـ بدل أن استشار أهل الحل والعقد ـ بعث يستشير الشيخ عبدالله المرجاني أشهر الصوفية والصلحاء في وقته. وكانت نتيجة هذه الاستشارة أن الشيخ المرجاني رشح لولاية العهد الأمير محمد بن الواثق بن المستنصر بالله الحفصي، فوافقه عمر الحفصي على ذلك. وقبل الموحدون اقتراح الشيخ المرجاني. وبعد ثلاثة أيام فقط توفي أبو حفص عمر في الرابع والعشرين من ذي الحجة 694 (نوفمبر 1295 م). وبايع أهل الحل والعقد محمد بن الواثق وتلقب بالمستنصر فكان ثاني (خليفة) حفصي يحمل ذلك اللقب.

ولم يكن هذا المرشح من الشيخ المرجاني وارتضاه أهل الحل والعقد في مستوى المسؤولية كذلك؛ فقد كان شاباً صغيراً لا يتجاوز عمره الخامسة عشرة. ولم يكن ترشيحه من قبل الشيخ المرجاني نتيجة اختبار أو كفاءة دلت عليها التجربة وإنما كان لصلة عاطفية ربطت بين هذا «الخليفة» الجديد وبين الشيخ المرجاني.

من هو محمد أبو عصيدة؟

عندما انتصر أبو إسحاق إبراهيم على يحيى الواثق، وقتله مع ثلاثة من أبنائه فرت إحدى جواري يحيى الواثق إلى زاوية الشيخ المرجاني، وكانت حاملاً، فاقتبلها الشيخ في بيته وحماها من التشرد إلى أن وضعت حملها ـ وكان ولداً ـ فسمّاه الشيخ المرجاني «محمداً» وأولم لميلاده فطبخ عصيدة قمح وأطعمها الفقراء. وأطلق على المولود لقب «أبو عصيدة» فلازمه ذلك اللقب طول حياته وبعد مماته. ثم توسط له الشيخ المرجاني حتى يعود إلى قصور بني حفص، فنشأ بينهم. وظلّت علاقته متينة بالشيخ المرجاني حتى إذا جاءت استشارته فيمن يتولّى «الخلافة» بعد عمر الحفصي اختار أبا عصيدة حسب الصورة التي رأيناها من قبل. وقد صاحب هذا الترشيح شيء من التبريك البعيد عن الروح الإسلامية بل لعلّه كان أقرب إلى ما كان يفعله البابا مع ملوك الإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ فقد جاء في كتاب «الفارسية» لابن القنفذ أن محمد بن الواثق أُخْرِجَ للشيخ المرجاني فبرّك عليه. ودعا له. وقال: فيه البركة إن شاء الله[379]. ولعلّ الأغرب من تعيين ولاية العهد تلك هو موقف أهل الحل والعقد من كيفية ذلك التعيين ومبايعة «أبي عصيدة» على «الخلافة» إذ يقول ابن خلدون (.. لما هلك السلطان أبو حفص اجتمع الملأ من الموحدين والأولياء والجند والكافة إلى القصبة فبايعوا

(379) الفارسية ص 152.

بيعة عامة لولي عهـده السلطان أبي عبدالله محمـد.. فانشـرحت لبيعته الصدور، ورضيته الكافة»[380] فعلى أيّ أساس انشرحت لبيعتـه الصدور ورضيته الكافة؟ إن هذا الموقف لا يرجع ـ لا محالة ـ إلى كفاءة محمد ابن الواثق فهو طفل صغير لم يجرّب الحياة، ولم يتحمل المسؤوليات، ولم يكن منظـوراً إليه نظرة التتبع والملاحظة لبعد احتمال أن يصبح وليّاً للعهد. فهل يرجع ذلك الموقف إلى استجابة رغبة الشيخ المرجاني وهو ـ في وقته ـ من أعلام المتصوفة المرموقين، والاعتقاد في الأولياء والصالحين قد اشتد أمره لدى العامة والخاصة معاً؟ أم يعود إلى أن في ذلك التعيين تطييباً لخاطر الناس الذين استاؤوا أشد الاستياء لمقتل الواثق وأبنائه الأبرياء فاعتبروا ذلك تعويضاً عن تلك المأساة، وتضميداً لجراح الرأي العام من أهـل الحل والعقد؟ وقد تنتحل الأسباب لتعليل ذلك الموقف بأن فلسفة الحكم ـ إذ ذاك ـ لا تتماشى مع القول بضرورة اختيار الأصلح والأكفأ للحكم، والأدرى بشؤون الناس، والأحرص على مصالحهم..

ومهما يكن فلم يكن ما حدث في تعيين «أبي عصيدة» على عرش السلطنة الحفصية خارجاً عما ذكرناه عدة مرات من أن أساس السلطنة الحفصية لم يكن راسياً على ما يضمن لها الاستقرار البنّاء، والثبات الخلّاق.

---

(380) العبر (6: 710).

الفصل الخامس

السلطنة الحفصية بين الانقسام والوحدة

الصراع بين بجاية وتونس الحفصيتين

إذا كان أبو عصيدة لا يتحمل ما حصل في أول عهده ـ نظراً لصغر سنه ـ فإنّ صغر تلك السن كان مساعداً كبيراً لحاشيته فيما ارتكبته من أعمال. وكان أول ما فعلته حكومته قتل الطفل عبدالله بن عمر الحفصي دون أن يرتكب ذنباً أو جريرة. وإنما قُتِل مخافة أن يصبح منافساً لأبي عصيدة فيما بعدُ عندما يدرك أنه كان ـ في أول الأمر ـ المرشَّحَ لولاية العهد، ثم زحزح عنها لأن أهل الرأي من مشيخة الموحدين وقفوا ضدّ ذلك الترشيح. كأن هذا الطفل البريء هو الباقي الوحيد من عائلة بني حفص يهدّد أبا عصيدة يوماً مًا ويفتكُّ منه السلطة، بينما يوجد في القسم الغربي من السلطنة الحفصية من يمثل المنافس الحقيقي والفعلي لصاحب القسم الشرقي من تلك السلطنة.

والواقع أن قتل ذلك الطفل البريء إنما كانَ حلْقة أخرى من الصراع على النفوذ بين أفراد حاشية البلاط الحفصي. وهو الصراع الذي جرّ الكثير من الويلات، وأسال الكثير من الدماء. وقد تمثل هذا الصراع الأخير بين عبد الحق بن سليمان وزكرياء ابن اللحياني. وقد كان عبد الحق بن سليمان الشخصية الأولى في عهد عمر الحفصي. وكان حريصاً على أن تكون ولاية العهد لابنه عبدالله. وعندما صرفها الموحدون عنه، ورشح لها أبو عصيدة من طرف الشيخ المرجاني أنكر عبد الحق بن سليمان عمل الموحدين ووقف ضدّهم. وما إن تَمَّ الأمر لأبي عصيدة حتى شرع خصوم عبد الحق بن سليمان في التآمر عليه فوقعت البداية بقتل الطفل (عبدالله بن عمر) حتى لا

يكون سنَداً ـ يوماً مَّا ـ لعبد الحق بن سليمان. وفي صفر من سنة 695 هـ تمكّن خصوم عبد الحق من زحزحته عن رئاسة الموحدين فوقع القبض عليه وأُودِعَ السجن إلى أن قُتِل في سجنه بعد خمس سنوات من ذلك. وبذلك خلا الجو لابن اللحياني في رئاسة الموحدين وتدبير شؤون الدولة.

ويذكر ابن خلدون أنه كان لعبد الحق بن سليمان ولـدان (محمد وعبدالله) فرَّا من تونس عند نكبة أبيهما، فالتحق عبدالله بأبي زكرياء صاحب بجاية، والتحق محمد بيوسف بن يعقوب المريني أثنـاء حصاره لمـدينة تلمسان[381]. ولكن محمداً عاوده الحنين إلى الوطن، ونزع إلى التصوف وأصبحت له حرمة وحظوة حتى أنه أُوفِدَ عدة مرات على ملوك بني زيان. أما أخوه عبدالله فعاد هو ـ أيضاً ـ إلى تونس. إلاّ أنه جاء إليهـا صحبة أبي البقاء خالد الحفصي الذي يمثل صفحة أخرى من التاريخ التونسي سوف يأتي الحديث عنها.

(381) العبر (6 :712).

الاضطرابات في كامل المغرب الإسلامي

وإذا تمثلت السلطة الإدارية ـ في عهد أبي عصيدة ـ في أيدي الموحدين ـ ما عدا ابن الدباغ الذي كان من أصل أندلسي ـ فإن عهد أبي عصيدة كان يمثل ـ من ناحية أخرى ـ عهد الصراع والحروب بين كافة دول المغرب الإسلامي أي بني مرين في المغرب الأقصى، وبني زيان في المغرب الأوسط وبني حفص في المغرب الأدنى.

ويبدو أن رئيس الدولة ابن اللحياني حاول أن يستعيد وحدة الدولة الحفصية باسترجاع بجاية ونواحيها خاصة بعد أن بدا على الحفصية الغربية شيء من الاضطراب والوهن عندما انتقض أهل الجزائر على أبي زكرياء بن إبراهيم وانفصلوا عنه بزعامة محمد بن علان، وبعد أن استولى صاحب تلمسان على بعض الجهات من إمارة بجاية الحفصية[382]. وقد شجع كلُّ ذلك أبا عصيدة الحفصي ـ أو على الأصح ـ حكومته ورئيسها ابن اللحياني على مهاجمة إمارة بجاية. وقد تمكنت جيوش أبي عصيدة أن تتوغل في الحفصية الغربية حتى وصلت ميلة مرتكبة أعمالاً فظيعة من التنكيل بالأهالي وبث الرعب والهلع في النفوس[383]. ولكن هذا

(382) العبر (6: 713).

(383) برنشفيك (1: 112).

الهجوم لم يأت بنتيجة إذ بادر أبو عصيدة بالعودة إلى عاصمته دون أن تعرف أسباب ذلك التغيير الفجائي في خطة هجومه. وقد أغفلت المصادر التاريخية ذكر تلك الأسباب(384). واكتفى ابن خلدون بهذه العبارة عندما قال: وتجاوز تخوم عمله إلى أعمال قسنطينة، وأجفلت أمامه الرعايا والقبائل، وانتهى إلى ميلة. ومنها كان منقلبه إلى حضرته في رمضان من سنته(385) أي سنة 695 هـ (جويلية 1296 م).

فهل كان أبو عصيدة وحكومته يتوقعون انفضاض الناس من حول أبي زكرياء صاحب بجاية، وترحيبهم بالقادمين عليهم من الحفصية الشرقية، وأن حركة الانتقاض في مدينة الجزائر كانوا يتوهمونها شعوراً عاماً في الحفصية الغربية ضد صاحب بجاية؟ إذا صح ذلك فإنهم يكونون ممن يتعلّق بالسراب، ويرمى بسوء التقدير. ولعل عبارة ابن خلدون التي تقول: «وأجفلت أمامه الرعايا والقبائل» تؤكد هذا الاستنتاج عن سرعة التراجع في هجوم أبي عصيدة على بجاية وأعمالها. ويرى بعض المعلّقين أن الخوف من حركة انتقاض في تونس ضد أبي عصيدة وحكومته قد تكون سبباً في ذلك التراجع السريع(386).

على أن توتر العلاقات بين بني مرين وبني زيان لا يبعد أن يكون هو ـ أيضاً ـ من أهم الأسباب التي أجبرت أبا عصيدة وحكومته على العدول عن غزو بجاية؛ فبالإضافة إلى عدم استجابة رعايا الحفصية الغربية وقبائلها لأبي عصيدة فإن المساعدة الأساسية التي كان يترقبها من بني زيان ضد صاحب بجاية لم تحصل. بل على العكس من ذلك فقد أصبح التقارب قويّاً بين أبي سعيد عثمان صاحب تلمسان وبين أبي زكرياء يحيى صاحب بجاية. وكان هذا التقارب مدفوعاً بتقارب مضاد لهما هو التقارب بين تونس الحفصية

(384) المصدر السابق.
(385) العبر (6 :713 - 714).
(386) العبر (6 :714).

ومراكش المرينية. ذلك أن الخطة الجديدة التي سلكتها حكومة تونس ضد حكومة بجاية المنشقة عنها تمثلت في تحريض تونس لصاحب مراكش ـ الذي جاهر بعدائه لبني زيان واستولى على عاصمتهم تلمسان ـ أن يهاجم بجاية وأعمالها. وتبودلت المراسلات والسفارات والهدايا بين تونس ومراكش بغية القضاء على الدولة الزيانية وبجاية الحفصية معاً. وهدد المرينيون ـ فعلاً ـ إمارة بجاية بالزوال عندما استطاعوا الوصول إلى بجاية نفسها وضايقوها بالحصار عدة أيام. ولكن شدّة الدفاع التي أبداها المحصورون حالت دون استيلاء بني مرين على بجاية فتجاوزوها إلى غيرها من نواحيها، وعاثوا في جهاتها فساداً، وملؤوها رعباً، ثم عادوا أدراجهم إلى تلمسان حيث يوجد فيها السلطان المريني يوسف بن يعقوب[387].

وهكذا يبدو جلياً أن العقد الأخير من القرن السابع الهجري كان يمثل فترة من أحلك فترات التضعضع والانقسام والتشتت لا في إفريقية الحفصية فقط بل كانت شاملة لكل الدول المغربية التي انبعثت بعد اندثار «الخلافة» الموحدية، وتشتت ملكها الواسع إلى سلطنات وممالك متعادية متقاتلة.

---

(387) العبر (6 :714).

أبو البقاء خالد وإعادة الوحدة الحفصية

إذا كان بنو مرين ـ أصحاب مراكش ـ في نزاع مع بني زيان ـ أصحاب تلمسان، وكانت لا تجمعهم روابط القرابة العائلية التي كانت تجمع بين عائلة بني حفص التي انشقت على نفسها، وأصبح القتال يدور فيها بين الأخوة والأعمام ـ وحتى بين الوالد وابنه ـ فإن ذلك يعني أن مأساة الانشقاق والتناحر في إفريقية الحفصية كانت أنكى مما كان يدور في بقية أقطار المغرب الإسلامي.

وكان موت أبي زكرياء صاحب بجاية سنة 700هـ (1301م) فرصة مهيئة لتصفية الأوضاع والعلاقات بين تونس وبجاية. وقد توفرت لذلك عدة عوامل. ذلك أن أبا زكرياء هو الذي قام بالحركة الانفصالية واستقلَّ ببجاية. ولم يكتف بذلك بل حاول ضمَّ كل السلطنة الحفصية إليه لأنه كان يرى نفسه أحقَّ بها من غيره. وكان ـ كما يصفه ابن خلدون ـ عَلى غاية من الحزم واليقظة والصرامة لم يبلغها سواه. وكان كثير الإشراف على وطنه والمباشرة لأعماله بنفسه وسدِّ خلله[388]. ولهذا لم يكن من السهل عليه أن يمدّ يد الصلح لمن انشق من بني عمومته الحفصيين؛ فلما توفي أبو زكرياء سنة 700هـ وتولى إمارة بجاية أبو البقاء خالد فإن هذا الأخير لم يكن يحمل نفسية والده نحو الحفصية التونسية. ومن هذه الناحية كان يسهل عليه أن يخاطب

(388) العبر (6 :718).

أصحاب تونس لإزالة الخلاف، والدخول في مسالمة تعمّ المملكتين الشقيقتين. وكان من سياسته أن العدو المشترك بينهما - يعني بني مرين المستولين على تلمسان والمهددين لبجاية - ينبغي إضعاف شأنه، وإبعاد التقارب الموجود بينه وبين الحفصية التونسية خاصة مع رئيس الموحّدين أبي يحيى ابن اللحياني الذي كان سلطان بني مرين يعتبره أولى بالخطاب والمراسلة من أبي عصيدة نفسه[389]. وكان أبو البقاء خالد لا تخفى عليه نوايا بني مرين التوسعية. وهم الذين اعتبروا أنفسَهم أقوى دولة مغربية تولدت عن تلاشي السلطنة الموحدية، وأن التقارب الحاصل بين يوسف بن يعقوب المريني وأبي عصيدة الحفصي لا يمنع - أبداً - أن يقلب يوسف المريني ظهر المجن للحفصية التونسية إذا هو تمكّن من القضاء على الحفصية الغربية المستبدّة ببجاية وأعمالها.

ولكل هذه المعطيات حاول أبو البقاء خالد أن يعمل على التقارب والمصالحة بين المملكتين الحفصيتين المهددتين بخطر بني مرين. وفعلاً قام بعدة محاولات في ذلك. ولكن البعض من حاشيته كانوا لا يرغبون في قيام التصالح بين المملكتين، كما انتهزوا تلك المحاولات لتنفيذ مطامعهم الخاصة وأغراضهم الشخصية، وكانت البادرة الأولى التي قام بها أبو البقاء خالد للتصالح مع ابن عمه أبي عصيدة أنه بعث بوفد إلى تونس يتركب من شيخ القرابة ببابه أبي زكرياء الحفصي، ومن الشيخ أبي العباس الغبريني كبير أهل بجاية من الموحدين وصاحب الشورى فيها[390]. وقد أدّى الوفد مهمّته بتونس وعاد إلى بجاية، ولكن - أثناء تلك السفارة - عملت الوشايات والمناورات مفعولها في صاحب بجاية من قبل رجال حاشيته الذين لم تكن لهم رغبة في إقرار المصالحة بين المملكتين الحفصيتين؛ فقد عملت تلك الحاشية على إيغار صدر أبي البقاء خالد ضد أبي العباس الغبريني باعتبار أنه

---

(389) العبر (6: 715).

(390) العبر (6: 719).

خانه في سفارته، وأنّه تواطأ مع البلاط الحفصي في تونس ضد ملكه على بجاية، وأنه سوف يقوم بالانتقاض عليه في سبيل ذلك. ثم ذكرته تلك الحاشية بما قام به الغبريني في شأن أبيه أبي زكرياء وجدّه أبي إسحاق. وأنه هو الذي أغرى بني غبرين بالقبض على جدّه إبراهيم عند فراره من بجاية فأعيد إليها حيث قتل بأمر الدعي ابن أبي عمارة سنة 682هـ. واقتنع أبو البقاء خالد بما دبر ضد أبي العباس الغبريني فأمر باعتقاله سنة 704هـ. ثم أمر بقتله في سجنه في السنة نفسها. ويذكر ابن خلدون أن الذي تولّى تدبير المؤامرة ضد الغبريني، وكان له فيها الدور الرئيسي هو (ظافر الكبير) أحد العلوج المحظوظين في البلاط الحفصي ببجاية، وأن الذي تولّى قتله يسمّى منصور التركي(391).

(391) العبر (6 :719).

تصالح وقتي بين الحفصيتين

لم يستجب أبو عصيدة لرغبة التصالح التي أبداها أبو البقاء خالد نتيجة تأثير ابن اللّحياني على أبي عصيدة. وقد ظلّ بلاط هذا «السلطان» يحرض بني مرين على مهاجمة بجاية واحتلالها. وبالرغم من فشل محاولة التصالح الأولى فإن أبا البقاء خالد لم ييأس من محاولات أخرى ممهّداً لها باتصالات عديدة مع السلطان المريني في تلمسان. وهكذا بعد ثلاث سنوات استطاع أبو البقاء خالد أن يضعف من مفعول التقارب بين أبي يعقوب المريني، وبين أبي عصيدة في تونس. وبذلك تهيأت الظروف للقيام بمحاولة ثانية للتصالح مع أبي عصيدة. وكان الذي قاد هذه المحاولة الثانية كبير حجاب أبي البقاء خالد، وصاحب النفوذ الكبير في الدولة ابن أبي جبي الذي كان ـ حسب رأي ابن خلدون ـ مهتماً كثيراً بتسوية الخلاف بين تونس وبجاية، فتولّى مباشرة الموضوع بنفسه. وعندما وصل العاصمة اهتزت له الدولة، وتلقي بما يجب له ولمرسله من البر والتقدير وأنزله شيخ الموحدين ومدبر الدولة ابن اللّحياني بداره مبالغة في تكريمه[392].

ويبدو أن موقف تونس ـ هذه المرة ـ كان إيجابياً أكثر، نظراً ليأسها من مساعدة فعّالة أو من عمل حاسم يقوم به بنو مرين ضد بجاية الحفصية. إلاّ أن ما حدث في بجاية بعد ذلك لم يساعد على التقدم في ذلك التقارب فقد

(392) العبر (6: 720) وقارن برنشفيك (1: 113) ومناقشة سنة توجه ابن أبي جَبي إلى تونس.

أعيدت مأساة المحاولة الأولى للمصالحة. ذلك أن حاشية أبي البقاء خالد انتهزت غياب كبير حجابه ابن أبي جبي فدبرت مؤامرة ضده، زحزحت ثقة أبي البقاء خالد فيه بمَا لفَّقُوه حوله من تآمر مع صاحب تونس ضده، وأنه سوف يعمل على تمكينه من بجاية وقسنطينة، خاصة أن عامل قسنطينة (أبا الحسن علي الهمذاني) كان صهراً لابن أبي جبي، وهو الذي ولّاه عليها[393]. وصدَّق أبو البقاء خالد مقال خصوم ابن أبي جبي فاستراب منه، وشك في أمره، وتنكّر له بعد عودته من تونس[394]. وخاف ابن أبي جبي أن يكون مآله مآل أبي العباس الغبريني فطلب من أبي البقاء خالد أن يسمح له بالرحلة لأداء فريضة الحج فسمح له بذلك. وخرج من بجاية على أنه ذاهب إلى الحج إلاّ أنه بقي في تونس عدة سنوات قبل أن يتوجه فعلاً إلى المشرق حتى يحضر قدوم أبي البقاء خالد إلى تونس.

وكان من نتائج إقصاء ابن أبي جبي من بلاط أبي البقاء خالد أن صهره علي الهمذاني ـ عامل قسنطينة ـ قام برد فعل حادّ إذ خاف أن يقع التنكيل به بعد إقصاء صهره خاصة أن الوشاة ربطوا بين اتهام ابن أبي جبي بالتآمر على أبي البقاء مع صاحب تونس وبين الوعد بتسليمه قسنطينة التي يتولاّها الصهر المذكور. ولهذا بادر علي الهمذاني بخلع طاعة أبي البقاء خالد وإعلان تبعيته لأبي عصيدة. واهتمّ البلاط الحفصي في تونس بهذه التبعية فتوجه إلى قسنطينة زكرياء بن اللحياني لإثبات هذه التبعية بصورة رسمية مما جعل أبا البقاء خالد يغتاظ لهذه المبادرة فترأس حملة عسكرية لاسترجاع قسنطينة والقضاء على الثورة فيها. وفي آخر سنة 704هـ (1304/5) غادر بجاية لمحاصرة قسنطينة التي قاومت حصاره حتى همّ بفّك الحصار عنها لولا خيانة أحد قوادها، هو أبو الحسن بن عثمان من مشيخة الموحدّين والمعروف بابن موزة. فقد اتفق ابن موزة مع المهاجمين على أن يتيح لهم فرصة اقتحام سور

(393) العبر (6 :723).
(394) العبر (6 :723).

المدينة. وبما أن أبا الحسن بن عثمان كان مسؤولاً عن الجيش المدافع بمنطقة باب الوادي فإنه عندما اقترب المهاجمون على منطقته تخلّى هو وجيشه عن مكانهم وتمكّن المهاجمون من اقتحام السور والاستيلاء على مدينة قسنطينة، ومن القبض على ابن الهمذاني، فحملوه على برذون مستدبراً وقدموه لأبي البقاء خالد فأمر بقتله وصلب جثته.

وهكذا استطاع أبو البقاء خالد الصمود أمام محاولات تونس الحفصية الرامية إلى التغلب عليه رغم ما كان بيديه من استعداد للتعايش والمصالحة بين الحفصيتين الشقيقتين. وقد صاحب انتصاره في مدينة قسنطينة حادث آخر أوْهَنَ شوكة أبي عصيدة ورجال دولته هو موت حليفهم أبي يعقوب المريني الذي كانوا يعوّلون عليه في مشاغبة مملكة بجاية الحفصية، وعلى مساعدته لهم على استرجاعها.

وهنا فقط عاد إلى أهل الحلّ والعقد في تونس رشدهم، وندموا على رفض المبادرات السلمية التي تقدم بها إليهم أبو البقاء خالد. ولعلهم أصبحوا يخشون سطوته وهجومه عليهم فانقلبوا الساعين إلى الصلح والمسالمة معه. وبعثوا بوفد إلى بجاية لمفاوضة صاحبها في ذلك؛ ولم يكن من أبي البقاء خالد إلّا الاستجابة والاستعداد للمصالحة. وكان شرطه الأساسي في ذلك هو: أن من يموت منهما (أبي البقاء، وأبي عصيدة) قبل صاحبه يصبح ملكه تابعاً للآخر وتكون البيعة له. فقبل وفد أبي عصيدة الشرط، وحضر الملأ من الناس ومشيخة الموحدين ببجاية ثم بتونس فأشهدوا على أنفسهم بذلك. وتمّ التوقيع على الاتفاق[395].

---

(395) العبر (6: 729 - 730).

قبل نقض التصالح بين الحفصيتين

يمكن للناقد التاريخي أن يتساءل - من أول وهلة - عمّا إذا كان التصالح الذي تم بين تونس وبجاية الحفصيتين سوف يأتي بثماره المرجوة، وعمّا إذا كان المسؤولون في المملكتين سوف يلتزمون بما جاء فيه من شروط. ويمكن له أيضاً أن يتشكك في ذلك - من أول وهلة - استنتاجاً من سوء الخلق السياسي والإداري الذي كان يسود النخبة المتحكمة إذ ذاك، وأن نقض الشروط كثيراً ما كان يحصل من صاحب الشرط نفسه. فما بالك ممن لم يكن طرفاً أصلياً في ذلك.

وهكذا يمكن القول بأن ما تمّ من صلح بين أبي عصيدة وأبي البقاء خالد كان محفوفاً بالكثير من الأخطار، فهو غير محدد الزمن لأنه موقوف على الأجل المحتوم الذي لا يعلمه إلاّ الله وحده. وهو مستهدف إلى أي تآمر يقع على أحد الأميرين فيودي بحياته.

إن خبث الطوية قد يدفع إلى الإجرام بالقتل من أجل الإرث البسيط فما بالك به إذا كان متعلقاً بسلطة واسعة أو ملك عريض. . . .

ومهما يكن فإن الاتفاق الذي تمّ بين صاحب بجاية وصاحب تونس ضمن - ولو لفترة قصيرة - عدم المواجهة الحربية، وعدم المجاهرة بالعدوان إيقافاً للوضع المتعفّن الذي استمرت عليه المملكتان الشقيقتان منذ انفصال أبي زكرياء بن أبي إسحاق واستقلاله في بجاية سنة 683هـ.

ثورة الكعـوب

وكانت الوضعية في المملكتين تختلف من ناحية القوة، ومن ناحية التماسك النسبي. وكان من أبرز الحوادث الداخلية التي حصلت في تلك الفترة بالذات في تونس الحفصية الانتقاض الذي حدث من قبيلة الكعوب (من أعراب بني سليم)[396]. الذين اصطنعتهم الدولة الحفصية منذ تأسيسها، وأغدقت عليهم الهبات والعطايا حتى داخلهم الغرور والإعجاب، وبطرتهم النعمة، وكثر عيثهم، وعظم إضرارهم في الطرقات والمسالك، وانتهبوا المزارع والحقول، وأفسدوا الأجنّة والغلال ممّا جعل عامة الناس يكرهونهم ويحقدون عليهم[397]، إلى أن حصل حادث بسيط سنة 705هـ فتطور إلى عصيان وانتقاض؛ ففي سنة 705هـ (1306) جاء إلى تونس شيخ قبائل الكعوب هداج بن عبيد فأحدث مجيئه شيئاً من الاضطراب والهيجان. وأخذ عامة الناس يبحثون عن أي سبب للفتك به إلى أن كان يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان وجاء هداج بن عبيد إلى جامع الزيتونة لأداء صلاة الجمعة إلاّ أنه دخل المسجد منتعلاً خفّيْهِ فلما نهاه بعضهم عن ذلك أجابه بقوله: إني أدخل به مسجد السلطان. . فاعتبر ذلك تطاولاً على السلطان وامتهاناً للمسجد. وبعد انتهاء الصلاة ثارت به العامة وقتلوه، وسحبوا جثته في شوارع المدينة. فاغتاظ لذلك الكعوب وأعلنوا العصيان من جديد، وأشاعوا

(396) معجم القبائل العربية (987).
(397) العبر (6: 715).

النهب والفساد في البلاد. وخلعوا بيعة السلطان أبي عصيدة. وكان يتولّى زعامتهم في هذا العصيان أحمد بن أبي الليل. وفكر هذا الأخير في قوة معنوية يستند عليها في عصيانه فتذكر أن الأمير الموحدي الذي حاول القيام بدعوة الموحدين بإعانة الاسبان ما يزال موجوداً بنواحي طرابلس فبعث إليه يستقدمه ويبايعه على الخلافة الموحدية. وجاء أبو سعيد عثمان بن أبي دبوس وقبل البيعة من الكعوبيين عسى أن يحقق أحلامه في هذه المرة بعد أن باءت بالفشل في المرة الأولى.

وعندما تمَّ اللقاء بين ابن أبي الليل وابن أبي دبوس توجها نحو العاصمة تونس. إلّا أن حكومة أبي عصيدة تصدت للهجوم بقيادة الوزير أبي عبد الله محمّد بن أزرقان الذي تمكن بسهولة من صدّ هجوم ابن أبي الليل و«خليفته» ابن أبي دبوس.. ثم واصل الوزير الحفصي زحفه داخل البلاد لإقرار الأمن في مختلف الجهات وفي النهاية اضطر أحمد بن أبي الليل إلى الخضوع وإعلان الطاعة، والاستسلام لقائد الحملة التأديبية الحفصية. أما ابن أبي دبوس فترك وشأنه. وعاد إلى طرابلس حيث قضى بقية حياته شريداً منسياً.

ورغم استسلام أحمد بن أبي الليل فإن قبائل الكعوب استمرت على العصيان وإثارة الفوضى والشغب أكثر من قبل ممّا جعل الرعايا يزدادون تذمّراً من سوء الوضع خاصة في مدينة تونس، محمّلين حكومة أبي عصيدة عجزها عن إيقاف الشغب وإقرار الأمن، والضرب على أيدي العابثين. وقد بلغ ذلك الغضب قمته في رمضان سنة 708 (1309م) فقاموا بمظاهرات صاخبة وهاجموا القصبة محاولين افتتاحها للفتك بالحاجب ابن الدباغ؛ لأنهم يحمّلونه مسؤولية تلك الاضطرابات والفوضى التي عمت البلاد. إلّا أنّ أبا عصيدة تدخل في الأمر، وسكّن من غضب العامة وأنقذ حاجبه ابن الدباغ من هلاك محقق. ثم وقع تتبع المسؤولين عن تلك المظاهرات وعوقبوا على ذلك، لكن دون أن تتوصل حكومة أبي عصيدة إلى قطع دابر الشغب وإزالة الفوضى التي يقوم بها الأعراب في مختلف الجهات لا سيما قبائل الكعوب.

تخلي ابن اللحياني

وناحية ثانية لها أهميتها الإدارية والسياسية ظهرت في الحفصية الغربية ـ بعد عقد الصلح مع بجاية ـ. هي تخلي أكبر رجل في الدولة الحفصية عن رئاسة الحكم، وهو أبو يحيى زكرياء بن اللحياني الذي رأيناه ـ سابقاً ـ يركن إلى الصلح مع صاحب بجاية، وينزل رئيس وفد التصالح في مسكنه الخاص مزيداً في تكريمه وإجلاله. ذلك أن ابن اللحياني راجع نفسه بعد التوقيع على شروط الصلح، وأعمل فكره في الخلاص من أنشوطته كما يقول ابن خلدون[398].

لكن ما هي العوامل والأسباب التي جعلت رئيس الدولة ابن اللحياني ينسحب من ميدان السياسة الحفصية؟ لم تعط المصادر أي توضيح شاف لذلك، وأغلب الظن أنه ندم على عقد الصلح مع صاحب بجاية، وأنه كان يخشى وفاة أميره أبي عصيدة الذي كان مصاباً بداء الاستسقاء فيكون ـ إذ ذاك ـ مجبراً ـ حسب شروط الصلح، على مبايعة أبي البقاء خالد فيحول ذلك بينه وبين تحقيق مطامحه التي سوف تظهر فيما بعد، مما لا يجعلنا نقول بأن ابن اللحياني تخلّى عن رئاسة الدولة يأساً في الإصلاح أو زهداً في الحكم، أو غضباً على سوء الأوضاع الإدارية والسياسية وما صاحبها من عدم استقرار، ومن قلّة الأمن في مختلف جهات البلاد.

(398) العبر (6 :730).

وفي الوقت الذي كان فيه ابن اللحياني يفكر في التخلّي عن رئاسة الدولة كانت أوضاع الاحتلال الاسباني لجزيرة جربة تسترعي أنظار المسؤولين الحفصيين في تونس، إذ بعد وفاة الأميرال «روجير دو لوريا» وتولّى ابنه السلطة من بعده اندلعت الثورة في جزيرة جربة ضد الاحتلال الاسباني، فانتهز ابن اللحياني الفرصة وأعلن للسلطان أبي عصيدة أنه يعتزم السفر إلى جزيرة جربة حتى يساعد الثوار، ويخلص الجزيرة من الاحتلال الاسباني. ويعد ذلك يتوجه إلى بلاد الجريد لتمهيد الأحوال فيها[399].

واستجاب أبو عصيدة لرغبة كبير وزرائه ابن اللحياني فجهز له جيشاً خرج به من تونس سنة 706هـ (1307م) في طريقه إلى جربة. وعبر ابن اللحياني المجاز ثم نزل الجزيرة، وتوجه إلى القلعة الاسبانية «حصن القشتيل» وناصبها الحصار ولكن بدون جدوى نظراً لمناعة القلعة وشدة استحكاماتها. ويصف لنا التجاني ذلك الحصن الذي رآه إبّان الحملة نفسها لأنه كان ضمن حاشية رئيس الدولة ابن اللحياني، يصفه بأنه حصن يهول الناظر إتقاناً وحسناً وهو مربع الشكل. وفي كل ركن منه برج، فاثنان منها مستديران واثنان مثمنان وبين كلّ برجين من هذه في وسط الحائط برج صغير مربع. ويدور به فصيل صغير. ويدور جميع ذلك حفر متسع[400].

كان هذا وصف التجاني لحصن القشتيل الذي وصفه على بُعْدِ نظر إذ كان على مقدار ميل من الحصن المذكور[401]. وحاصر الجيش الحفصي حصن القشتيل مدة شهرين حتى نفد الزاد فأقلع ابن اللحياني عن الحصار مفضلاً الاتجاه إلى قابس دون أن يحصل على أية نتيجة من حملته العسكرية إلى جزيرة جربة.

فعلام يدل كلّ هذا؟ ألاَ يدلّ ذلك على مدى ضعف القوة العسكرية

(399) العبر (6 :730).
(400) رحلة التجاني (128).
(401) المصدر السابق.

الحفصية؟ وما معنى أن ينقطع عنه المدد والقوت حتى ينفد زاده كأنه لا يحارب باسم دولة تمتد حدودها من شرقي الجزائر إلى شرقي طرابلس. لكأن ابن اللحياني ـ في موقفه ذلك ـ كان مجرد عصابة من الجنود مفصولة عن غيرها من القوة المساندة والمدد المستمر؟.

ولعلّ رئيس الدولة ابن اللحياني لم تكن عنده صورة طبق الأصل عن استحكامات حصن القشتيل، وعن قوته الدفاعية، وعن قدرة مَنْ فيه على مواصلة الدفاع ومقاومة الحصار لما ادَّخروا فيه من الأقوات والسلاح مقدرين بعد المسافة وبطء المواصلات في تلك العصور. وهكذا اكتفى ابن اللحياني بتلك المحاصرة الواهية لحصن القشتيل فعاد أدراجه ونزل عند عبد الملك بن مكي صاحب قابس. وفي قابس أعلن ابن اللحياني عمّا لم يفصح عنه في البداية فأمر الجيش بالعودة إلى تونس، وصرح هو بأنه سيبقى في قابس لأنه يريد التوجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج. وهكذا أخفى ابن اللحياني مقصده الأصلي عن عامة الناس مخافة أن يصدّوه عنه لما رأوا فيه وفي عهده من حسن النذير ودقة التسيير لشؤون البلاد (فرأى أن كتم الحج أصلح، وأنه الآكد في طريق السياسة والأصلح)[402] وهكذا لم يعلم بأمر الحج في تلك الرحلة إلاّ أناس قليلون غير أن العامة ربما كان حصل لهم به شعور فكانوا يشيعونه ولا يتحققونه[403].

هكذا كان يقول أبو محمد التجاني في رحلته وهو صاحب رسائله ومستودع أسراره مِمّا يمكن اعتباره من أهم المصادر عنه وأصحها في بيان النوايا الحقيقية لابن اللحياني. إلاّ أن كل ذلك لا يمنع ـ إطلاقاً ـ تصور السبب الحقيقي وهو أنه بجانب كل ذلك توجد فكرة سياسية كان لها الأثر الأول فيما أقدم عليه ابن اللحياني سواء أكان للتباعد عن مسؤولية الحكم، أو للتفصّي من شروط الصلح التي عقدت مع صاحب بجاية، أو لانتهاز أية

(402) الرحلة (4).
(403) الرحلة (5).

فرصة أخرى تجعل ابن اللحياني يتحلّل من شروط ذلك التصالح دون أن يكون محجوجاً في موقفه.

ومهما يكن فإن ابن اللّحياني أعاد الجيش إلى تونس ولم يذهب به إلى بلاد الجريد، وظل مدة في قابس ينتظر وصول القافلة الواردة من المغرب الأقصى في طريقها إلى الحجاز. وعندما أبطأت تلك القافلة انتقل إلى طرابلس حتى وصلت القافلة المذكورة فانضم إليها وسافر معها إلى المشرق لأداء فريضة الحج.

وفاة أبي عصيدة

ومن جهة أخرى فقد صحت تخوفات ابن اللحياني في مستقبل السلطان أبي عصيدة إذ اشتدّ به مرض الاستسقاء حتى قضى عليه في ربيع الثاني من سنة 709 (سبتمبر 1309). وكشف موت أبي عصيدة عن مدى سوء النية المدبّرة من حاشية البلاط الحفصي في تونس عندما أشهدوا على عقد الصلح بين تونس وبجاية إذا مات أحد الأميرين قبل الآخر. وبدل أن يبادر الموحدون في تونس بمبايعة صاحب بجاية أبي البقاء خالد على مقتضى شرط الصلح فإنهم بادروا بمبايعة أحد الأمراء الحفصيين المغمورين هو أبو بكر بن عبد الرحمان حفيد أبي بكر بن أبي زكرياء الأول لأن أبا عصيدة توفيّ دون عقب وفي الثلاثين من عمره.

وعلّل هؤلاء الناقضون لشرط الصلح أنهم استرابوا من موقف أبي البقاء خالد عندما بلغه اشتداد المرض بابن عمّه أبي عصيدة. وهذا الموقف لا يخلو من ملابسات ولو أن المجابهة السياسية تقتضيه؛ فعندما بلغ أبا البقاء خالد مرض أبي عصيدة داخلته الظنة بأن ينقض أهل الحضرة (تونس) شرط الصلح خاصة بعد انفصال ابن اللحياني وتباعده عن ممارسة الحكم فعزم على النهوض والتوجه إلى تونس لتدارك الأمر قبل فواته[404] وقد سبق ذلك أن حمزة بن عمر بن أبي الليل، ـ أحد زعماء الكعوب ـ ذهب إلى بجاية

(404) العبر (733).

يحرّض أبا البقاء خالد على غزو تونس واعداً إياه بالتأييد والمساعدة من الأعراب لا سيما الكعوبيون منهم. وكان حمزة بن أبي الليل مدفوعاً إلى ذلك لأن سلط الحفصية التونسية لم تطلق سراح أخيه «مولاهم» الذي سجنه الحفصيون في حركة الانتقاض التي مرّ ذكرها من قبل.

أبو البقاء خالد يغزو تونس

وهكذا تجمعت الأسباب عند أبي البقاء خالد ليضمر القصد إلى تونس متظاهراً بأنه خرج من بجاية إلى مدينة الجزائر لقمع حركة انتقاض قام بها ابن علان حيث أعلن العصيان والانفصال عن بجاية. ولكنّ أبا البقاء خالد اتجه إلى قسنطينة وأناب عنه فيها الفقيه علي بن عمر ثم واصل سيره نحو تونس. وعندما اقترب منها ونزل قصر جابر تولّي السلطان أبو عصيدة فاجتمع كبار الدولة ومشيخة الموحدين لاتخاذ موقف والتشاور في الأمر: هل يقع الوفاء بشرط الصلح أم ينظرون فيمن يبايعونه لأنفسهم[405] ولعب كبير الحجاب (ابن الدباغ) دوراً كبيراً في نقض شروط الصلح بعدم مبايعة أبي البقاء خالد واختيار أبي بكر بن عبد الرحمان خلفاً لأبي عصيدة فبايعوه على ذلك. وأقرّ ابن الدباغ في منصب الحجابة وعلى كَتْبِ العلامة، كما أقرّ محمّد بن أزرقان على الوزارة. ولم يطل الوقت حتى استفحل التنافس بين الحاجب ابن الدباغ وبين الوزير ابن أزرقان بينما أصبحت جيوش أبي البقاء خالد قرب العاصمة. وهكذا وجد «السلطان» الجديد نفسه وجهاً لوجه أمام أبي البقاء خالد. والتقى الجمعان على مشارف مدينة تونس. وكان يقود جيش بجاية أبو البقاء نفسه، أما جيش تونس فقد أبى قادته أن يتولّاه هذا السلطان الجديد إمّا لعدم خبرته أو لعدم الاطمئنان إليه. وكانت قبائل

---

(405) الزركشي (58).

الأعراب موزعة بين الجيشين المتقابلين فبينما كان أولاد أبي اللّيل مع أبي البقاء خالد كان أولاد مهلهل وطائفة من الأعشاش مع جيش أبي بكر بن عبد الرحمان.

انتصار أبي البقاء ومقتل الشهيد

لم يدم القتال بين جيش تونس وجيش بجاية إلّا يوماً واحداً انتهى بهزيمة جيش الحفصية التونسية ومقتل الوزير ابن أزرقان الذي نكل به الأعراب ومثلوا بجثته وحرقوها. وتواصلت فلول المنهزمين إلى أسوار المدينة. وحال غروب الشمس دون دخول أبي البقاء خالد للعاصمة. وفي صباح الغد توجّه أبو البقاء إلى العاصمة فخرج إليه أبو بكر بن عبد الرحمان ووقف عند جامع الهواء ومعه فئة قليلة من الجند، وبين يديه جمعٌ من المشاة فالتقى الجمعان بسبخة السيجومي. ومنذ الجولة الأولى فرّ الناس إلى أبي البقاء خالد حتى أصبح أبو بكر بن عبد الرحمان وحده فألقى بتاجه وفرّ هارباً والناس من ورائه يحاولون القبض عليه فكان يلهيهم بإلقاء ما عليه من ثياب وأموال ومجوهرات إلى أن تمكن من الإفلات منهم ملتجئاً إلى ضيعة لعلي بن صابر تقع خارج درب الخضراء شمال العاصمة.

وما إن التجأ أبو بكر بن عبد الرحمان إلى ضيعة علي بن صابر حتى ذهب هذا الأخير يخبر عنه ويعرّف بموضعه. فأمر أبو البقاء بإرسال كوكبة من الخيالة لجلبه إلى المحلّة وضرب له خباء بات فيه. ولما أصبح جلس أبو البقاء خالد في خباء للبيعة العامة فجاءه الموحّدون والقضاة وسائر أشياخ تونس للمبايعة. وبعد أن أتمُّوا بيعتهم عنّفهم أبو البقاء على تخاذلهم ونقضهم للصلح الذي كان بينه وبين أبي عصيدة. ثم أمر الموحدين بمعاينة أبي بكر بن عبد الرحمان هل هو نفسه الذي بايعوه بالإمارة على إفريقية أم لا.

فلما عاينوه واعترفوا بأنه سلطانهُم بالأمس أخرج أبو بكر بن عبد الرحمان من الخباء. وأمر بضرب عنقه فتقدم منه صاحب الركاب ليضرب عنقه بعدما عقد شعره بيده. ولكن «السلطان» المهزوم انتهر صاحب الركاب، واستنكف أن يقتله من ليس بكفء. وإذ ذاك أمر أبو البقاء خالد ابن عمّهم المزوار أبا زكرياء يحيى فضرب عنقه. وتم ذلك يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الثاني سنة 709هـ (1309م) بعد ولاية دامت سبعة عشر يوماً. وأطلق الناس والمؤرخون على هذا «السلطان» القتيل لقب «الشهيد». ويقول ابن خلدون[406] والزركشي[407]: إنه سمى «الشهيد» إلى آخر الدهر.

أما لماذا لقب بالشهيد فما أحسب أن له وجهاً يعلّل تلك التسمية اللهم إلّا أن يكون أنصاره أرادوا الرفع من منزلته والنيل من سمعة أبي البقاء خالد باعتباره قد ارتكب خيانةً لا مبرر لها. وأن أبا بكر بن عبد الرحمان قتل دون جريرة أو ذنب بينما مسرد الأحداث يؤكد أن قبول ابن عبد الرحمان للبيعة إنما هو قبول لكل ما ينجرّ على تلك البيعة التي جاءت مخالفة للتصالح الذي وقع إبرامه مع أبي عصيدة، وأنه بقبول تلك البيعة شارك في تلك المخالفة وأشهر حرباً على صاحب الحق الشرعيّ في ضمّ المملكتين الحفصيتين في مملكة واحدة. وأنه بذلك سعى إلى حتفه بظلفه.

(406) ص 59.
(407) العبر (6 :734).

عودة الوحدة الحفصية
وظهور الاضطرابات من جديد

بالقضاء على «الشهيد» أعاد أبو البقاء خالد السلطنة الحفصية إلى وحدتها التي كانت عليها. ولكن السؤال الوارد هو (. . هل سيكون أبو البقاء خالد في مستوى هذا التوحيد الجديد للسلطنة الحفصية بأن يُعِيدَ للدولة هيبتَها التي كانت لها أيام مؤسسها أبي زكرياء الأول، وأن يبعد بها عن مظاهر الوهن والانقسام والتخاذل، تلك المظاهر التي أضرت بها، وجعلتها لا تعرف الاستقرار، ونزلت بها عن مستواها الذي كانت عليه أيام مؤسسها الأول، أو حتى أيام خلفه المستنصر إذْ كانت متجه الأنظار وملاذ المضطهدين واللاجئين لا سيما من مهاجرة الأندلس)؟.

قد يحصل كل ذلك لو أن أبا البقاء استأصل الداء العضال الذي أصيبت به السلطنة الحفصية، داء تنازع الأسرة المالكة على العرش والتفرّد بالنفوذ. وهو داء استفحل أمره وصعب علاجه وجعل أبا البقاء خالد لا ينعم بالاستقرار طويلاً.

لم يلبث أبو البقاء خالد أن ظهر له منافسون على العرش الحفصي مما سوف يزيد من عدم الاستقرار، ومما سوف يزيد من إضعاف قوى الدولة، وتشتيت صفوفها. ومما شجّع على ظهور المنافسين هو ما نال أبا البقاء خالد من انحراف في السلوك وإخلاد إلى اللذات، والانغماس في الشهوات، والفتك بالكثير من رجال الدولة وزعماء القبائل والأعراب[408] وليس لكل ذلك

(408) العبر (6 :736).

من تفسير سوى انحطاط الشعور بالمسؤولية وعدم اعتبارها ملزمة لمتولّيها بواجبات تفرضها مصلحة الأمة التي تقلّد زمام أمورها، ومصلحة الدين الذي تولّى تلك المسؤولية باسمه وتحت ظلاله.

أما أولئك المنافسون فكان أولهم يحيى بن خالد بن السلطان أبي إسحاق إبراهيم، فقد ظهر هذا الأمير في جهات قسنطينة بعد أن كان من قبل من جملة أتباع أبي البقاء خالد. ولم تكشف المصادر عن الأسباب التي جعلته يغادر حاشية أبي البقاء خالد ويهاجر إلى أقصى الجنوب ملتحقاً بمنصور بن مزني المتولّي على مناطق الزاب وما حولها. وغاية ما يذكره ابن خلدون[409]: أن الدولة تنكرت له لبعض النزعات فخشي البادرة وفرّ، ولحق بمنصور بن مزني الذي كان هو الآخر في خلاف مع ابن غمر حاجب أبي البقاء خالد فانتهز فرصة لجوء الأمير الحفصي إليه واستجاب لدعوته بعد أن عيّنه حاجباً له. وهكذا اجتمع غضب الأمير الحفصي مع غضب والي مناطق الزاب فتعاونا على القيام بأول حركة انتقاض تعتبر ضدّ الوحدة الحفصية أكثر مما هي ضد أبي البقاء خالد. إلّا أن هذه الحركة الانتقاضية الأولى قضي عليها في المهد. وكان من أهم أسباب ذلك أن التحالف الذي حصل بين منصور بن مزني ويحيى الحفصي سرعان ما تلاشى؛ فقد اكتشف ابن مزني أن الأمير الحفصي يكنّ له الغدر في صورة انتصاره على أبي البقاء خالد، وأنه أفضى إلى الأعراب المناصرين له بذلك حتى بلغ الخبر إلى منصور بن مزني. ولم يكن من هذا الأخير إلّا أن نفض يديه من الأمير الحفصي الثائر وعاد إلى طاعة أبي البقاء خالد، وإلى مصالحة خصمه الحاجب ابن غمر. أما يحيى ففضل الاتجاه إلى صاحب تلمسان (محمّد بن عثمان) الذي توفّي بعد أيام قليلة من مقدم الثائر الحفصي عليه، ولكن ذلك لم يمنع الأمير الجديد على تلمسان (موسى بن عثمان) من أن يتولّى مناصرة الأمير الحفصي فأمدّه بجيش زحف به للمرة الثانية، على قسنطينة دون جدوى. وهذا ما جعله

(409) العبر (6 :735). ويلاحظ غموض في نسب يحيى الحفصي هذا.

يبأس من مواصلة الانتقاض والعصيان فعاد إلى مناصرة الأول (منصور بن مزني) وعاش تحت كنفه ورعايته بقية حياته.

وإذا انتهت ثورة حفيد أبي إسحاق إبراهيم إلى فشل ذريع لأنها حملت الفشل في ذاتها وفي ذات قائدها، فإن المحنة الثانية التي واجهها أبو البقاء خالد كانت أشدَّ عنفاً وأعظم قوة.

ثورة أبي بكر الحفصي ضد
أخيه أبي البقاء خالد

كانت المحنة الثانية التي واجهها أبو البقاء خالد تتمثل في حركة العصيان التي قام بها أخوه أبو بكر. وكان أبو بكر قد عيّنه أخوه أبو البقاء خالد على قسنطينة بإشارة من حاجبه ابن غمر. وكان هذا الأخير يضمر العداء والغدر بمولاه أبي البقاء متى سنحت له الفرصة. وقد تحققت تلك الفرصة عندما استجاب أبو البقاء خالد لنصيحة حاجبه في تعيين شقيقه أبي بكر على عمالة قسنطينة. واتفق ابن غمر مع أبي بكر ـ سرّياً ـ على أن يصبح ابن غمر حاجباً له في صورة تولّيه زمام السلطنة الحفصية. وأخذ ابن غمر يحرض والي قسنطينة على الانتقاض وشقّ عصا الطاعة في وجه أخيه أبي البقاء حتى استجاب لذلك فأعلن العصيان ضد أخيه، وأعلن عن نفسه «خليفة» للسلطنة الحفصية مضفياً على نفسه لقب «المتوكل على الله». وكان ذلك سنة 711هـ (1311م). واهتز أبو البقاء خالد لحركة الانتقاض هذه؛ لأنها تهدّد ـ مرة أخرى ـ السلطنة بالانقسام بعد أن وحُدها. ولهذا بادر بتجهيز جيش لمجابهة أخيه في قسنطينة أوْكَلَ قيادته إلى العلج ظافر الكبير. وعسكر هذا القائد بجيشه في باجة منتظراً الفرصة لمجابهة المتوكل صاحب قسنطينة. وقد رأى المتوكّل أن اقتصاره على قسنطينة وجهاتها لا يشفي غليله، ولا يخوّل له التهديد الفعلي لأبي البقاء خالد ولهذا عزم على احتلال بجاية وضمّها إليه، وهي التي كانت تمثل مركز الحفصية الغربية إبّان الانقسام. واتجه المتوكل ـ فعلاً ـ صوب بجاية إلاّ أنه لم ينجح في تحقيق أمله نظراً إلى أن واليَها كان

ـ من ناحية ـ ما يزال على ولائه لأبي البقاء خالد، وأنه ـ من ناحية أخرى ـ قوي الشخصية متزعمٌ لقبيلة صنهاجة الشديدة البأس، وكان ـ كما يقول ابن خلدون: طموحاً لجوجاً، مدِلاًّ ببأسه وقوته ومكانه من الدولة[410] فامتنع من مبايعة المتوكل نكايةً في حاجبه ابن غمر الذي أصبح له النفوذ والمكانة عند المتوكّل. ولهذا لم ينجح المتوكّل في محاولته الاستيلاء على بجاية لِمَا لقيه من شدة المقاومة بزعامة ابن خلوف وأتباعه من صنهاجة وحلفائهم من مغراوة. وكاد ينقلب هجوم المتوكل على بجاية إلى هزيمة حتى هوجمت قسنطينة وأوشك أن يستولي عليها ابن خلوف لولا أن حدثاً جد في أقصى شرق الحفصية التونسية غيّر مسيرة النزاع على بجاية وقسنطينة.

(410) العبر (6 :738).

ابن اللحياني يطالب بحقه في السلطنة الحفصية

بينما كان الصراع على أشدّه بين أبي البقاء خالد وشقيقه أبي بكر عاد زكرياء بن أحمد بن اللحياني من أداء فريضة الحج ونزل طرابلس، وعرف تـردّي الأوضاع في إفريقية منذ أن تولاّها أبو البقاء خالد. وأخـذ الانتهازيـون يحرضونه على منازلة تونس وإقصاء أبي البقاء خالد عنها فاستجاب لذلك، وأعلن عن مطالبته بحقه في السلطنة الحفصية. وهكذا أصبح يوجد ثلاثة أشخاص يتنازعون على سلطنة بني حفص.

1 ـ أبو البقاء خالد في تونس.
2 ـ وأبو بكر أخوه في قسنطينة.
3 ـ وابن اللحياني في طرابلس.

وقد لعب أبو بكر صاحب قسنطينة دوراً سياسياً كبيراً في مسرح هذه الأحداث الجديدة إذ ما إن علم بظهور ابن عمّه (ابن اللحياني) في طرابلس مطالباً بتونس حتى بعث إليه بحاجبه يعقوب بن غمر يحرضه عل غزو تونس ويسهل عليه أمرها بما أصبح عليه أبو البقاء خالد من ضعف، ومن انصراف إلى اللّهو والملذات، ومن تكدّر نفوس الناس منه[411] ومن تطلّعهم إلى من ينقذهم. وزيادة في الحيلة والمكر أخفيت المهمة الأصلية التي اتفق عليها سرياً بين أبي بكر الحفصي وحاجبه ابن غمر فأشاعـوا في الأوساط أن

(411) الفارسية ص 156.

الخلاف اشتدّ بين أبي بكر وحاجبه ابن غمر. وأن هذا الأخير خرج من قسنطينة مغاضباً، وذهب ملتجئاً إلى ابن اللحياني في طرابلس. وزيادة في ترويج الإشاعة أسند أبو بكر خطة الحجابة إلى حسن بن إبراهيم بن ثابت عوضاً عن يعقوب بن غمر بدعوى أنه أصبح ساخطاً عليه متنكّراً له.

وكانت هذه الخطة تستهدف شيئاً آخر هو القضاء على أكبر خصم لأبي بكر الحفصي في الجزء الغربي من السلطنة الحفصية، وهو عبد الرحمان بن خلوف والي بجاية الموالي لأبي البقاء خالد. ونظراً إلى أن موالاة ابن خلوف لصاحب تونس وتنكره لصاحب قسنطينة إنما كانا نتيجة لاحتضان أبي بكر لابن غمر وجعله صاحب الحجابة والنفوذ، فإن هذا السبب زال الآن ولم يبق ما يوجب خلافاً بين صاحب قسنطينة ووالي بجاية عبد الرحمان بن خلوف فعمل هذا الأخير على التقرّب من أبي بكر الحفصي لا سيما بعد أن تردت الأوضاع في تونس، وضعف أبو البقاء خالد المهدّد من ابن اللحياني في طرابلس. وهكذا انطلت الحيلة على ابن خلوف وأصبح يطمع في الحصول على منصب الحجابة لأبي بكر عوض يعقوب بن غمر. وأخذ يسعى إلى ذلك، ويبعث بالوساطات لأبي بكر حتى تظاهر له هذا الأخير بالرضى والعفو. وأعطاه الأمان، وأنه مستعّد لاقتباله. وعجل ابن خلوف بالتوجه إلى أبي بكر الحفصي فأدركه في مناطق سدويكش من بربر كتامة فكان كالساعي إلى حتفه بظلفه إذ دبرت ضده مؤامرة انتهت بقتله وجرِّ جثته حتّى ألقيت بين الخيام والفساطيط. وقد نفذ تلك المؤامرة بعض العلوج من حاشية أبي بكر الحفصي. وهكذا تخلص صاحب قسنطينة من أكبر خصومه. وسهل عليه ـ بعد ذلك ـ ضم بجاية إلى نفوذه. ثم اتسعت مطامحه وآماله في أن يصبح السيد الأول في السلطنة الحفصية إذا تهيأ له القضاء على منافسَيْهِ فيها: ابن اللّحياني (ابن عمه) وأبي البقاء خالد (أخيه) أو أن يصبح ـ على الأقل ـ صاحب الحفصية الغربية ويعود الانقسام إلى السلطنة مثلما حصل من قبل.

مقتل أبي البقاء خالد وعودة الانقسام

كانت خطة أبي بكر الحفصي هي مساندة ابن عمه (ابن اللحياني) ضد أخيه أبي البقاء خالد في زحفه على تونس. ومن أجل ذلك بعث إليه بحاجبه يعقوب بن غمر يحرضه ويقوي عزمه على ذلك. وأرسل معه هدية سنية ووعده بأنه «. . مُمِدُّهُ ومظاهره على شأنه، فأحكم ذلك من عقدته، وشد من أمره. . » ثم توافدت إليه رجالات قبيلة الكعوب من أولاد أبي الليل وغيرهم فبايعوه واستحثوه للحضرة. ولما تمّ الاستعداد لابن اللحياني عزم على غزو تونس. وبعث في مقدمة جيشه بأولاد أبي الليل. وطارت الأخبار إلى أبي البقاء خالد تعلمه بزحف ابن اللحياني وتوجهه إلى العاصمة فبعث إليه قائده العلج ظافر الكبير قبل وصوله إلى تونس. إلّا أن جيش ابن اللحياني أوقع بجيش أبي البقاء وتمكن من اعتقال قائده ظافر الكبير ثم واصل الجيش زحفه نحو العاصمة فدخلها في جمادى الآخرة 711 (1311م). وجرت فيها عدة معارك قتل فيها رئيس الدولة الشيخ أبو زكرياء ابن أبي الأعلام. أما أبو البقاء خالد فقد أظهر غاية الاستسلام إذ أشهد على نفسه بالتنازل عن السلطنة وحلّ البيعة التي عقدت له. إلّا أن ذلك لم يجده نفعاً فقد اقتحم محمّد المزدوري قصر الإمارة بالقصبة وقبض على أبي البقاء خالد وقتله قبل وصول ابن اللحياني[412].

وبما أن أبا البقاء خالد تنازل عن السلطنة دون أن يبايع أَحَداً ـ وصادف

(412) الفارسية ص (160).

ذلك يوم خميس ـ فإن صلاة الجمعة التي أدِّيتْ غداً كانت غفلاً من أي إمام أو اسم أي سلطان معين. وكان دعاء الخطيب فيها «. . اللهمّ وارض عمن يقوم بأمر عبادك، ويصلح ما ظهر من الخلل في بلادك»[413].

ولم يلبث ابن اللحياني أن وصل العاصمة. وفي الثاني من شهر رجب 711هـ (نوفمبر 1311م) بويع في المحمدية البيعة العامة. ثم نزل بقصر رأس الطابية مدة من الزمن ثم إلى قصر الإمارة بالقصبة. وبعدما تمّ له الأمر اعتبر يعقوب بن غمر أن مهمته انتهت فاستأذن من ابن اللّحياني في العودة إلى صاحبه أبي بكر الحفصي في بجاية بعد أن اتفق مع ابن اللّحياني على المهادنة والمصالحة بين الجانبين. وبذلك عادت السلطنة الحفصية إلى الانقسام بصفة رسمية متفق عليها: الحفصية الشرقية وعاصمتها مدينة تونس وأميرها ابن اللّحياني، والحفصية الغربية وعاصمتها بجاية وأميرها أبو يحيى أبو بكر الحفصي. ولكن هل يستمرّ هذا التقسيم الجديد؟ وهل يقع الوفاء بالتعهد الذي تم بين الحفصيتين؟ إنّ شيئاً جديداً لم يطرأ على ما يمكن اعتباره تغييراً للنفسية والظاهرة الاجتماعية التي كانت تسود القيادة والنخبة إذ ذاك. ولهذا فلا يمكن الجزمُ بإمكانية الاستقرار والانسجام لا سيما أنّ الاختلاف في السن والطموح، وطريقة كلٍّ واحد منهما في الوصول إلى الإمارة والسلطة لا تدعو إلى الاطمئنان.

وإذا كان انتصار ابن اللّحياني على أبي البقاء خالد قاضياً على أحد المنافسين لأبي بكر الحفصي فإن ذلك الانتصار ـ كان في واقع الأمر ـ يمثل انتصاراً غير مباشر له، لا لمجرد أن حاجبه ابن غمر كان من أكبر المخططين لذلك الانتصار، بل لأن انتصاب ابن اللّحياني على الحفصية التونسية لم يعتبره صاحب بجاية إلاّ تمهيداً لاستيلائه هو عليها لا سيما أن ابن اللّحياني ما كان ليتجرأ على مهاجمة أبي البقاء خالد لو لم يجد التأييد والمساندةَ من أبي بكر.

(413) الفارسية (159) الدولتين (62).

نقاط الضعف عند ابن اللّحياني

كان ابن اللّحياني ـ عندما تولّى السلطنة الحفصية ـ في الستين من عمره. وكان ـ كما تصفه بعض المصادر ـ بعيداً عن المهارة السياسية التي تمكنه من الصمود أمام خصمه الشاب الطموح أبي بكر صاحب بجاية. ويصف الزركشي ابن اللّحياني بأنه كان: «.. مشاركاً في العلم والأدب، ولذلك كان يألف أهل العلم. وكان في أول أمره كثير التمنّع من الأمر. وكان أحبّ الأمور إليه أن يكون نائباً عن خليفة يكون قابلاً لكلامه، مؤثراً له عمن سواه، عاملاً بمقتضى السياسة. فلذلك ردَّ فعال من كان قبله. واسترجع البلاد التي سوّغت. ثم عرض عليه الجيش وأسقط منه من لم يكن له أصل ثابت في القبائل. وسار في الناس سيرة حسنة. ومكن ولده للحكم عند القاضي أبي إسحاق بن عبد الرفيع في دَمٍ ادُّعِي عليه به»[414].

تلك هي صفات ابن اللّحياني التي لخصها الزركشي وهي صفات تجعله أقربَ إلى التنفيذ منه إلى المبادرة، وأقربَ إلى المسالمة منه إلى الحزم. وهي صفات لا تتلاءم مع الأوضاع المترهلة التي كانت عليها الدولة، ومع التفكّك الذي يسود رجالات الدولة وزعماءَ القبائل. وفوق ذلك فهي صفات لا تتلاءم مع وجود منافس له جمع إلى الفتوة والشباب قوّةَ الإرادة، ومهارة الحيلة، والقبض على زمام الأمور بكل صلابة وبأس. وزيادة على

(414) الدولتين (62).

ذلك فإن منافسه (صاحب بجاية) كان أقرب إلى التمسك بأحقية السلطنة الحفصية التي كانت على ملك أخيه وشقيقه أبي البقاء خالد بينما لم يكن ابن اللّحياني سوى حفيدٍ للشيخ عبد الواحد بن أبي حفص من فرع لم يكن له شأن في التسلطن على المملكة الحفصية. وكل هذه المعطيات تهيء للقول بأن انتصاب ابن اللّحياني على الحفصية التونسية لم يكن إلاّ أمراً متوقفاً إلغاؤه أو استمراره على إرادة خصمه أبي بكر صاحب بجاية.

عودة الوحدة الحفصية بعد انقسامها الثاني

أ ـ ابن غمر يستعيد مكانته:

عندما عاد ابن غمر إلى بجاية ـ بعد انتهاء مهمته في مساعدة ابن اللّحياني على التغلب على أبي البقاء خالد وانتصابه على عرش الحفصية التونسية ـ أخذ يسترجع مكانته في بلاط أبي بكر الحفصي كشخص له النفوذ الأول في المملكة، فما إن عاد إلى بجاية حتى شرع في إبعاد الشخصيات التي تمكنت ـ أثناء غيبته ـ من النفوذ عند مولاه أبي بكر. ولم تكن له من وسيلة في ذلك إلّا التآمر على تلك الشخصيات فأخذ يوغر صدر أبي بكر الحفصي عليها حتى تمكن من تحقيق ما يهدف إليه، وقد تمثل ذلك خاصة في القضاء على بني ثابت الذين كان لهم مركز ممتاز في الحجابة والنفوذ على منطقة قسنطينة إذ تمكن في النهاية من التنكيل بحسن بن ثابت وأخيه عبد الله ومن مصادرة أموالهما. واستمرّ ابن غمر في زحزحة أصحاب النفوذ حتى وقع إقصاء العلج ظافر الكبير عن ولاية قسنطينة وإبعاده إلى الأندلس[415].

وبذلك استرجع ابن غمر كامل نفوذه السابق، وكامل سطوته في مملكة بجاية الحفصية مثلما كان عليه قبل أن يذهب إلى ابن اللّحياني في طرابلس، ويخطط معه الاستيلاء على تونس والقضاء على أبي البقاء خالد.

---

(415) العبر (6 :744).

ب ـ **توتر العلاقات** بين تلمسان الزيانية وبجاية الحفصية:

من الأحداث الخارجية التي أخّرت زحف أبي بكر الحفصي على ابن اللّحياني في تونس توتر العلاقات بين صاحب بجاية الحفصية وبني زيّان في تلمسان. وكنا عرفنا ـ في حينه أثناء الحديث عن النزاع بين أبي البقاء خالد وأبي عصيدة ـ أن أبا عصيدة تحالف مع صاحب تلمسان وأغراه بمهاجمة بجاية واحتلالها حتى يكفَّ عنه شغَب أبي البقاء خالد. وكان ذلك الاغراء موجباً لتدخل بني زيّان في الحروب الداخلية في إفريقية الحفصية. وأن ذلك التدخل كان نقطة انطلاق لسلسلة من الأحداث والتدخلات من أصحاب تلمسان في الشؤون الداخلية للسلطنة الحفصية. وقد تمكن بنو زيّان من محاصرة بجاية وتهديدها بالاحتلال، ثم تجاوزوها إلى جهاتها الشرقية فاستولوا على جبل ثابت سنة 713هـ (1313م) وابتنوا لهم هناك حصناً منيعاً، وهو ما جعل أبا بكر الحفصي يبذل جهوداً كبيرة لاسترداد نفوذه على أطراف مملكته الحفصية وتخليصها من سيطرة بني زيان.

وكان الحاجب ابن غمر ـ أثناء ذلك ـ يزداد سطوة واستبداداً بالنفوذ؛ فكان يرى نفسه ـ حسب عبارة ابن خلدون ـ أن زمام أبي بكر الحفصي بيده، وأن أمره متوقف على إنفاذه! وصار يغريه ببطانته فيقتلهم ويغرّبهم. وربما كان السلطان يأنف من استبداده عليه. وحاول البعض من أهل قسنطينة التآمر على ابن غمر وإغراء أبي بكر الحفصي به. وكادوا يغتالونه إلاّ أنه تفطن لذلك. وقلب لهم ظهر المجن فأوقع بهم ونال منهم العذاب والتنكيل[416].

إلاّ أن أبا بكر الحفصي بدأ يشعر بشدة وطأة ابن غمر بعد أن أصبح له من الخبرة والمراس ما يستطيع أن يكبح به جماحَ حاجبه. وكانت المرحلة الأولى التي خطاها أبو بكر الحفصي أنْ عمد إلى بعض أنصار ابن غمر فأقصاهم عن المسؤولية وقتل البعض منهم مثل محمد بن فضل المزني إرهاباً

(416) العبر (6 :747).

لابن غمر وإنذاراً له حتى أصبح يخشى ترجيح كفّة خصومه عليه. ولكن دهاءه وسعة حيلته جعلاه لا يفكّر في شيء يشغل به بال السلطان عنه ويجنّبه التنكيل به؛ فأخذ يزين له غزو إفريقية، ويسهّل عليه أمرَها حتى يفتكّها من ابن اللّحياني الذي لم يظهر حزماً، ولم يستطع بسط نفوذه الفعلي عليها، وكبح جماح الأعراب والقبائل. ومما لا شك فيه أن مطامح أبي بكر الحفصي كانت تتلاقى مع إغراءات ابن غمر وتحريضاته. ولهذا استجاب لخطة حاجبه وأظهر استعدادَه لتنفيذها دون أن يعرف ما يهدف إليه ابن غمر منها. وتكفل ابن غمر بتجهيز جيش كبير مما يضمن لأبي بكر الفوزَ والانتصار على ابن اللحياني. وإلى جانب إبعاد تفكير السلطان فيه هدف ابن عمر إلى البقاء وحده في بجاية مطلقَ التصرف والنفوذ.

وهكذا شرع أبو بكر الحفصي في تنفيذ خطة حاجبه الأكبر أو الأعظم ـ كما يقول ابن خلدون ـ فخرج على رأس الجيش صَوْبَ قسنطينة أولاً لتمهيد الأحوال فيها. وقد كلّفه ذلك أن قضى حوالى سنتين قبل التوجه إلى تونس، تاركاً ابنَ غمر صاحب النفوذ المطلق في بجاية وأعمالها بعد أن عيّن حاجباً له أثناء رحلته تلك وهو محمد بن القالون.

فرار ابن اللّحياني ومأساة التراث

عندما استقر الأمر لابن اللّحياني في تونس اكتفى بتعيين مسؤولين جدد في الحكم دون أن يكون لديه من القوة والفعالية ما يسيطر به على الأوضاع، أو يركّز به سيادته على المناطق النائية خاصة حيث توجد القبائل التي اشتهرت بالمشاغبة، وإثارة الفتن، وإشاعة الفوضى.

وقد رأينا في السابق كيف أنّ ابنَ اللّحياني كان مزاجه أقربَ إلى التنفيذ منه إلى المبادرة، وأنه كان أميلَ إلى المسالمة منه إلى المجابهة. وإذا كان كبر سنّه ذا دخل في هذا فإننا نجده من جهة أخرى حريصاً على تجميع الأموال والذخائر.

وعندما اشتدَّ عليه اضطراب الأمور بداخل البلاد وافتتان القبائل والاعراب دون أن تكون له القوة والطاقة على استتباب الأمن توقّع ابن اللّحياني أن أبا بكر الحفصي المتربِّصَ في قسنطينة ربما انتهز الفرصة للزحف على تونس. وليس من المستبعد أن يكون قد علم بما دبّره صاحب بجاية حسب مخطط حاجبه ابن غمر. ولهذا عزم ابن اللّحياني على الفرار والنجاة بنفسه. فخرج من العاصمة متستراً بالإعلان أنه ذاهب إلى قابس لتمهيد الأحوال هناك والإقامة فيها مرتكباً جريمة حضارية لا يغفرها له التراث الحضاري والثقافي في تونس. فقد ذكر كلّ من ابن خلدون والزركشي[417].

(417) العبر (6 :749) والزركشي (63) والنص من الزركشي. وينص الزركشي أن خروجه كان أوائل عام سبعة وسبعمائة. وعبارة ابن خلدون: «.. فاتح سابع عشرة».

أن زكرياء بن اللّحياني لما عزم على مغادرة العاصمة «.. جمع الأموال وباع جميع الذخائر التي في القصبة حتى الكتب التي كان أبو زكرياء الأول جمعها واستجاد أصولها ودواوينها أخرجت للكتبيين فبيعت بدكاكينهم، وزعموا أنه جمع قناطير من الذهب تجاوز العشرين قنطاراً وجولقين (غرارتين) من حصى الدر والياقوت». وهكذا أفرغ خزانة الدولة وذخائرها كما بدد ثروة لا تقدر من التراث العلمي والأدبي سواء من التآليف التونسية أو ما أتى به المهاجرون الأندلسيون منذ عهد أبي زكرياء الأول وابنه المستنصر من بعده. ولعلّ الكثير من عيون التراث التونسي التي لم تبق إلّا أسماؤها كانت من جملة تلك الكتب التي بيعت في الأسواق وتلاشت عند الناس بطول الزمن، أو خرجت من البلاد إلى أقطار أخرى.

خرج ابن اللّحياني مع أهله وولده إلى قابس صحبة ألف فارس. ولم يتخلف عنه إلّا ولده محمد المعتقل في سجن القاضي بسبب جناية قَتْلٍ تعلقت به. وقبل مغادرته تونس أوكل ابن اللحياني لمن بقي فيها من المسؤولين مهمة الدفاع عنها وعن جهاتها وعين لذلك أربع مراكز دفاعية منها ألف فارس في المدينة بقيادة نائبه أبي الحسن بن واندوين وجيشاً بحمام الأنف، وآخر بدخلة المعاوين ورابعاً بطريق باجة. وكان اختياره قابس لبعدها عن العاصمة وأنها طريق الفرار إلى المشرق من جهة، ولأنها قريبة من جزيرة جربة الرازحة تحت الاحتلال الاسباني من جهة أخرى. وهو الاحتلال الذي ربما يلتجىء إلى مساعدته يوماً مّا.

بيادق الشطرنج وسلطنة أبي ضربة

كان كلٌّ هذا يجري في الحفصية التونسية في الوقت الذي تحرك فيه أبو بكر الحفصي من قسنطينة في طريقه إلى تونس. وعندما وصل هذا الأخير نواحي باجة أخذت وفودُ الأعراب تتقاطر عليه، وتنضم إليه مؤيدةً ومبايعةً مما جعل حامية مدينة باجة ومنطقتها تسارع بالعودة إلى العاصمة منذرةً بزحف أبي بكر الحفصي عليها فسادَهَا الخوفُ والاضطرابُ وعمّ أهلَها الرّعبُ. وكان قادتها بعثوا ـ قبل ذلك ـ إلى ابن اللّحياني بقابس يطلبون منه النجدة والمدد، ويعلمونه بتحركات أبي بكر الحفصي؛ فما كان من ابن اللّحياني إلاّ الاعتذار عن الاستجابة وبعث يقول لهم: المال عندكم والأجناد. وما فعلتم قد أمضيتُه فوجدوا عندهم من المال المتجمّع من يوم سفره مائة وخمسين ألف دينار، ووجدوا من الأجناد سبعمائة فارس؛ ثم ذهبوا إلى السجن وأخرجوا ابنه محمد المعتقل بسجن القاضي ابن عبد الرفيع، وخرجوا مغادرين تونس متجهين صوب القيروان. ومحمد هذا هو الذي اشتهر بلقب «أبو ضربة».

وقد لعب بعض زعماء بني أبي الليل من قبيلة الكعوب أدواراً كبيرة في هذه الفترة التي كان المسؤولون الحفصيون فيها بمثابة بيادق الشطرنج. فعندما وصل أبو بكر الحفصي إلى باجة اقتبله مولاهم بن أبي الليل بعد أن غادر مدينة تونس وأبى مصاحبة محمد أبي ضربة ومن معه متجهين إلى القيروان. وكان مولاهم ابن أبي الليل مدفوعاً إلى مناصرة أبي بكر الحفصي حقداً منه على ابن اللّحياني الذي كان يؤثر أخاه حمزة عليه. وسار

مولاهم بن أبي الليل صحبة أبي بكر الحفصي إلى أن وصل تونس «فنزل روض السّناجرة من رياض السلطان في شعبان سنة 717. وخرج إليه الملأ. وتردّدُوا في البيعة بعض الشيء انتظاراً لشأن أبي ضربة وأتباعه»[418]. وظل أبو بكر الحفصي ينتظر حتى تتم له البيعة من أهل العاصمة ليدخلها. أمّا أخوه حمزة المذكور فكان له دور آخر فعندما خرج محمد أبو ضربة من تونس ومن معه في طريقهم إلى القيروان التقى بهم حمزة بن أبي الليل فسألهم عن مقصدهم فأخبروه بأنهم ذاهبون إلى القيروان. ومن هناك يكاتبون ابن اللّحياني بقابس ويعلمونه بما تمّ من أمر أبي بكر الحفصي. ولكن حمزة بن أبي الليل غير وجهة الجماعة فأعلن مبايعة محمد أبي ضربة سلطاناً على إفريقية فتابعه من كان معه وبايعوا أبا ضربة واجتمعت عليه كلمة الأعراب والموحّدين[419].

وهكذا عادت المأساة من جديد بوجود ثلاثة من بني حفص يدّعون التسلطن على إفريقية: أبو بكر في تونس، وابن اللّحياني في قابس، وأبو ضربة في الطريق بين القيروان وتونس. وكان أبو ضربة هو البيدق الثالث الذي حركه زعماء الأعراب إذ ما من واحد من هؤلاء «السلاطين» إلاّ مدين للأعراب في مساعدته وارتقائه على عرش السلطنة الحفصية التونسية ولو كان ارتقاء صورياً أو إلى حين. وتعود لعبة البيادق من جديد عندما اتفق الأخوان مولاهم وحمزة على تصريف الأمور حسب هواهما؛ فقد استقرّ رأيهما على ألا يتمّ احتلال تونس من قبل أبي بكر الحفصي إذ طلب حمزة من أخيه مولاهم أن يرجع صاحبه (أبا بكر) من حيث أتى. وفعلاً أقلع أبو بكر الحفصي من رياض السناجرة بعد سبعة أيام من وصوله عائداً إلى قسنطينة، وقد رافقه صاحبه مولاهم إلى الحدود حتى يطمئن على عودته سالماً إلى قسنطينة[420].

(418) العبر (6 :751) والزركشي (64).
(419) الزركشي (65).
(420) الزركشي (65).

وعاد محمد أبو ضربة إلى العاصمة وتلقّى البيعة من عامة الناس وتلَقب بالمستنصر. أما أبوه زكرياء بن اللّحياني فإنه عندما وصلت الأخبار بفرار ابنه وقدوم أبي بكر الحفصي إلى تونس غادر قابس متوجهاً إلى طرابس مع بقية جيشه وخمسين فارساً من رماة الأنـدلس فأقـام بطرابلس وبنى لـه فيها مجلساً[421]. وهكذا يتجلّى التخاذل بين الوالد والولد أمام عدوّهما المشترك أبي بكر الحفصي. ولم يكن كل ذلك إلاّ لأنهما لا يملكان من القوة الذاتية ما يساعدهما على ضمّ الصفوف إليهما وتكوين جبهة واحدة قوية تستطيع مجابهة أيّ حادث.

أما أبو بكر الحفصي فعندما عدل عن الاستيلاء على تونس توجه إلى قسنطينة دون أن يتمكن من الذهاب إلى عاصمته بجاية لأن حاجبه ابن غمر منع قائده ابنَ سيّد الناس من الدخول إلى بجاية وتنكّر له. وأيقن أبو بكر الحفصي بصلابة موقف ابن غمر فلم يجابهه، وغض الطرف عن ذلك الموقف، وطلب منه أن يبعث إليه بالمدد حتى يعيد الكرة من جديد على تونس بعد أن استفاد من تجربته الأولى، وعرف أن اعتماده على العربان لا يضمن له تحقيق أهدافه إذ لا يأمن تحوّلهم عنه لأي سبب من الأسباب.

أما ابن غمر فحرص هو كذلك على إمداد «سلطانه» بجيش قوي حتى يتمكن من القضاء على أبي ضربة ويستقرّ في تونس. ومن ثمة فإنه سوف لا يزاحمه عن استبداده ببجاية وأعمالها. وفي سبيل ذلك جنّد له سبعة من رجال الدولة بسبعة جيوش معززين بعدد من فحول قبيلة زناتة وعظمائها من بينهم عبد الحق بن عثمان المريني الوارد على بجاية من الأندلس، وكذلك أبو رشيد محمد بن يوسف من أبرز رجالات بني عبد الـواد. واجتمـع كلّ هؤلاء لدى أبي بكر الحفصي في مدينة قسنطينة فلما استكمل عددهم، وتهيأت عدتهم خرج بهم أبو بكر الحفصي في صفر سنة 718هـ (1318م) مستعملاً

(421) عبارة الزركشي (65): وبنى بها موضعاً لجلوسه يقال له: الطارمة بناه بالجليز والرّخام.

على حجابته محمد بن القالون[422].

أما محمد أبو ضربة فقد حاول الاستعداد لمجابهة أيّ هجوم يقوم به أبو بكر الحفصي من جديد. وطلب أهالي مدينة تونس أن يقيموا سوراً يحمي المدينة وأرباضَها فأجابوه لذلك ووقع الشروع في بناء السور الكبير إلاّ أن الأعراب أرهقوه بمطالبهم، واشتطّوا عليه في شروطهم مما جعله يشعر بعسر الإجابة والعجز عن إحكام مرافق الدفاع. وكيف يتم له ذلك وقد أفرغ أبوه خزانة القصر والقصبة من الأموال والذخائر، والأعراب لا تقف مطالبهم عند حدّ، ولا يشبع لهم نهم[423].

(422) العبر (6: 752).
(423) العبر (6: 751).

هجرة ابن اللحياني وانهزام ابنه أبي ضربة

وهكذا تهيأت لأبي بكر الحفصي الأسباب الداخلية والخارجية ليقوم بجولته الثانية قصد الاستيلاء على تونس. ولم يلاقِ في سبيل ذلك مشقة كبيرة خاصة ان الأعراب بدأوا ينفضّون من حول أبي ضربة وينضمّون إليه. وكان أبو ضربة قد استعدَّ لمجابهة أبي بكر الحفصي فارتحل إلى باجة ونزل بها ثم ارتحل عنها تهيّباً من لقاء خصمه فطارده أبو بكر إلى أن وصل القيروان فخرج أهلها لمبايعته. ثم أقلع عن مطاردة أبي ضربة مفضلاً - أولاً - الاستيلاء على تونس. وقد تمكن منها ونكّل بأنصار آل اللحياني. وكانت المعركة الحاسمة بين الطرفين معركة فجّ الحمام التي انهزم فيها أبو ضربة رغم النجدة التي بعث بها إليه أبوه من طرابلس فهرب في قلة من أنصاره إلى المهدية الباقية على ولائها له واعتصم بها.

وعندما بلغت أخبار هزيمته إلى أبيه ابن اللّحياني عزم على الهجرة من طرابلس «وبعث إلى النصارى في أسطول يحمله إلى الإسكندرية فوافوه به فاحتمل أهله وولده، وركب البحر ومعه حاجبه أبو زكرياء بن يعقوب إلى الإسكندرية. فنزل بها على السلطان محمد بن قلاوون واستقدمه إلى مصر (القاهرة) فعظّم من مقدمه واهتز للقائه، ونوّه من مجلسه، وأسنى من جرايته وإقطاعه»[424].

(424) العبر (6 :755) الزركشي (65) وظل ابن اللّحياني مقيماً بمصر إلى أن توفي بالإسكندرية سنة 727.

وفاة ابن غمر المستبدّ ببجاية

بهجرة ابن اللحياني وانهزام ابنه أبي ضربة أعاد أبو بكر الحفصي السلطنة الحفصية إلى وحدتها باستثناء المهدية المعتصم بها أبو ضربة، وعمالة طرابلس التي استخلف عليها ابن اللحياني عند هجرته صهره وقريبه أبا عبدالله بن أبي عمران. ولكن هل يكتب لهذا التوحيد الجديد للسلطنة الحفصية البقاء والاستمرار؟ وهل يتعظ أبو بكر الحفصي بما حصل لأسلافه من هفوات، وما حدث لهم من انتقاضات فيعمل على تلافي كل ذلك، ويكون بذلك مجدداً حقاً للدولة، باعثاً لرسومها، محيياً لعظمتها؟ إن ذلك يتوقف ـ لا محالةَ ـ على ما للقائم الجديد من السيطرة والهيبة، وعلى ما لديه من الجرأة لاستئصال عوامل الفساد والانحلال التي استشرت في هيكل السلطنة ونخرت عظامها. ومجرى الأحداث سوف يبين أن أبا بكر الحفصي لم يكن في ذلك المستوى. ولعلّ أول مظهر من مظاهر ضعف هذا السلطان هو موقفه من ابن غمر الذي ظل مستبدّاً ببجاية مكتفياً بذكر اسم السلطان الحفصي في الخطبة، وضرب اسمه على السكة دون أن يقدر سلطانه على زحزحته أو عزله.

والواقع أنّ العلاقات السيئة القائمة ـ إذ ذاك ـ بين بني عبد الواد الزيانيين في تلمسان وبين بني حفص في إفريقية كان لها أثر كبير في الموقف المسالم أو السلبي الذي وقفه أبو بكر الحفصي من حاجبه السابق ابن غمر. ذلك أن ابن غمر وإن أظهر استبداده ببجاية فإنه كان سدّاً منيعاً ضد بني عبد

الواد نظراً لشدة بأسه ومقاومته الصامدة لمحاولات أصحاب تلمسان في الاستيلاء على الجزء الغربي من السلطنة الحفصية خاصة بجاية وأعمالها. وكان الزيانيون ينتهزون أيَّ مظهر للخلاف بين بجاية وتونس الحفصيتين فيحاولون ضمّ بجاية إليهم سواء عن طريق التحالف مع شق من الحفصيين مثلما حصل في عهد زكرياء بن اللّحياني، أو أثناء الخلافات الحفصية الداخلية ولو بدون تحالف مع أي من الشقين.

وكان آخر تلك المحاولات في بداية توحيد الحفصية من جديد ما قام به أبو تاشفين بن أبي حمّو موسى الذي ارتحل إلى بجاية وحاصرها سنة 719 هـ. ولكن صمود ابن غمر في وجهه جعله يعود أدراجه إلى تلمسان دون أن يتمكن من احتلال بجاية بعد أن «.. بدا له من حصانتها وكثرة مقاتلتها وامتناعها ما لم يحتسب»[425] ولم يقدّره. إلّا أنه ـ إثر حملة أبي تاشفين على بجاية ـ لم يلبث ابن غمر أن توفّي بمرض لم يمهله طويلاً. واهتز أبو بكر الحفصي لموت ابن غمر، وخاف على مصير بجاية المهددة منذ سنوات باستيلاء الزيانيين عليها، فرأى أن يقوّي جهاز دفاعه ويكثف الحامية في الثغور الغربية من السلطنة (بجاية وقسنطينة وأعمالهما) فعيّن ولديه عليهما إذ عقد لابنه محمد على بجاية، وعقد لابنه يحيى على قسنطينة رغم صغر سنّهما مما جعله يتخلّى عن حاجبه ابن القالون ليكون مع ولديه على أن يقيم في بجاية، ويكون صاحب النفوذ على كلّ من بجاية وقسنطينة حتى يتمكن من صدّ أي هجوم يحتمل أن يقوم به حكّام تلمسان.

ومما سهل على أبي بكر الحفصي هذا التحوير الإداري أن ابن غمر لم يكن يفكّر ـ حسب الظاهر ـ في الانفصال الفعلي عن السلطنة الحفصية إذ لم يظهر شيء مما يدلّ على ذلك إلى زمن وفاته. وعندما أصيب بمرضه المميت بعث ابن عمّه علي بن غمر ـ وكان متولّياً قسنطينة ـ أرسل إليه بالإشراف على

(425) العبر (6: 756 - 757).

عمالة بجاية إلى أن يصل إليه أمر السلطان[426]. وبعث أبو بكر الحفصي بابن سيد الناس مع قهرمانة داره لتحصيل ما في دار ابن غمر من أموال وتراث وذخائر. ويذكر ابن خلدون أنهم وجدوا عنده الكثرة من الصامت والذخيرة[427].

(426) العبر (6 :757).
(427) العبر (6 :757).



بيت الصلاة من جامع التوفيق (الهواء) بنته الأميرة عطف زوجة أبي زكرياء الأول أم المستنصر.

عزل ابن القالون وعودة الفتنة

إذا وقع تعويض ابن غمر بمحمد بن القالون فإن العلّة القاتلة في الدولة الحفصية لم تجعل ابن القالون يشعر بالاستقرار والاطمئنان في منصبه الجديد. فما إن التحق ببجاية حتى دبّت عقارب الدسائس والتآمر من جديد بين رجالات الدولة الحفصية وقادتها كأن الأحداث السابقة والمآسي المتكررة لم تكفهم اتعاظاً وعبرة بما حصل. وقد انصبّت تلك الدسائس ـ منذ البداية ـ ضدّ الحاجب محمد بن القالون عندما تولّى الحجابة في الحفصية الغربية ليتولى تدبير شؤون بجاية وقسنطينة تحت إمارة ابني السلطان أبي بكر. ونجحت حاشية السلطان في الدس والوشاية بالحاجب ابن القالون حتى أوغرت صدر السلطان ضده فعزله من منصبه وولّى عوضه محمد بن سيّد الناس مما جعل ابن القالون يقوم بمحاولة انتقاض ضد السلطان الحفصي أبي بكر لولا أن مشيخة الموحّدين في قسنطينة لم تستجب لتحريضاته، فقلب لهم ظهر المجن واتهمهم بالتآمر ضد السلطان أبي بكر، وبعث بهم إلى تونس نكاية فيهم وتنكيلاً بهم[428].

وبالرغم من أن أبا بكر الحفصي اكتشف حقيقة ما كان يعتزمه ابن القالون، وما قام به من تغطية لذلك باتهام مشيخة قسنطينة، فإنه لم يظهر لابن القالون شيئاً عندما رجع إلى تونس، بل أسرّ الأمر في نفسه إلى أن

(428) العبر (6 :259).

تحين فرصة الانتقام من ابن القالون.

وإذا كان أبو بكر الحفصي قد اختار محمّد بن سيّد الناس ليتولّى الحجابة في كل من قسنطينة وبجاية فإن مشيخة الموحدين في قسنطينة رفضوا ذلك الجمع فاضطر أبو بكر الحفصي لتعيين العلج ظافر الكبير ليتولّى حجابة ابنه يحيى أمير قسنطينة[429].

والمعروف أن العلج ظافر الكبيز كان له دور سابق في الإدارة الحفصية؛ فقد كان ـ في بداية أمره ـ من موالي الأمير أبي زكرياء يحيى. ثم استمر في منزلته عند ولده أبي البقاء خالد. وهو الذي كان يتولّى قيادة الجيش المرابط في بجاية لصدّ هجمات أبي بكر الحفصي ضدّ أخيه أبي البقاء خالد كما تولى صَدَّ الجيش الزاحف على تونس بقيادة محمد المزدوري وزير ابن اللّحياني ضدّ أبي البقاء خالد، فانهزم ظافر الكبير وقبض عليه جيش ابن اللحياني. ثم أطلق سراحه فالتحق بالسلطان أبي بكر صاحب بجاية إذ ذاك أي قبل أن يصبح جامعاً لشقّي الدولة الحفصية، فولّاه على قسنطينة. ولكن استبداد ابن غمر بالحفصية الغربية انتهى بعزل ظافر الكبير ونفيه إلى الأندلس. ومن الأندلس انتقل إلى عدوة المغرب ونزل عند أبي سعيد عثمان المريني حتى إذا بلغه خبر موت خصمه ابن غمر رجع إلى تونس، وعيّنه السلطان أبو بكر حاجباً لابنه يحيى أمير قسنطينة كما مر ذلك.

وإذا كان عزل محمد بن القالون عن حجابة بجاية وقسنطينة لم يكن له ردّ فعل واضح في بداية الأمر ـ سوى محاولة ابن القالون الفاشلة مع مشيخة قسنطينة ـ فإن ابن القالون لم ينس ما دبّر ضده من عزل وإقصاء عن الحجابة. وظل يترقب فرصة تمكنه من إبراز نواياه. وكانت ظروف السلطنة ـ رغم ما يبدو عليها من توحيد لأغلب أجزائها ـ مهيأة لبروز أحداث وانشقاقات تساعد محمد بن القالون على الانتماء إليها، وشق عصا الطاعة

---

(429) المرجع السابق.

في وجه سيّده السابق أبي بكر الحفصي.

والواقع أن مدة السلطان أبي بكر الذي يعتبر من أطول بني حفص جلوساً على عرش السلطنة الحفصية، إذ تمتدّ سيادته حوالي عشرين سنة، فإن مدته ـ لا سيما في عهدها الأول ـ كانت من أعقد الظروف وأشدها ارتباكاً واضطراباً، وأحداثاً وفتناً. وكان توحيده للسلطنة الحفصية غير مزيل لأوكار الانشقاق والانتقاض بالإضافة إلى من تحدثهم أنفسهم بالثورة والعصيان، وهم تحت نفوذه، وفي رقعة دولته. ولقد مرّ بنا أن محمد أبا ضربة التجأ إلى المهدية، وأن السلطان أبا بكر لم يستطع اقتحام المهدية وإقالة أبي ضربة منها لحصانتها واستماتة أهلها في الدفاع حتى اضطر إلى مهادنة صورية مع أبي ضربة فرضتها عليه شدة المقاومة المذكورة.

وإذا لم يستطع أبو بكر الحفصي أن يتغلّب ـ عقب انتصاره ـ على المهدية وإخراج أبي ضربة منها فإنه أبعد ما يكون عن استطاعته مهاجمة طرابلس، والتغلب على محمد بن أبي عمران الذي تركه ابن اللّحياني متولياً عليها. هكذا ـ إذن ـ بقي جيبان كبيران من جيوب مقاومة خلفاء ابن اللّحياني. وكان لكلّ من الجيبين متزعّم لـه من صلة النسب والسلالـة الحفصية ما يجعله يشعر بحق المقاومة والمطالبة معاً.

ولقد عرفنا محمد أبا ضربة عن كثب باعتباره ابن السلطان المنهزم زكرياء بن اللّحياني وأن مقاومته لأبي بكر الحفصي تعتبر ـ إلى حدّ مّا ـ شرعية. أما الخصم الآخر (محمـد بن أبي عمران المنتصب في مـدينة طرابلس) فحسب الذي يذكره ابن خلدون[430] فإنه هو نفسه من سلالة بني حفص تولّى آبـاؤه وأجداده مسؤوليات في الدولة الحفصية منذ عهد الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص. إلاّ أن تلك المسؤوليات لم تصل بأفراد ذلك الفرع الحفصي إلى درجة الملك أو الإمارة، بل ظل ذلك الفرع يعيش في

---

(430) العبر (6 :760).

ظلّ الدولة الحفصية إلى عهد زكرياء بن اللّحياني الذي قرّب إليه محمد بن أبي عمران وصاهره بالعقد لابنه محمد على بنت ابن أبي عمران. وعندما يئس ابن اللّحياني من الانتصار وقرر الهجرة إلى الشرق استخلف على طرابلس صهره المذكور ليطالب بسيادته على السلطنة الحفصية متى أتيح له ذلك.

الصراع بين أبي بكر الحفصي وخصومه

لم يكن لمحمّد بن أبي عمران في البداية شأن يذكر في الخلافات التي حدثت مع السلطان أبي بكر إلى أن تمكن حمزة بن عمر، أحد زعماء الكعوب المناهضين لأبي بكر الحفصي من الاستفحال وشق عصَا الطاعة في وجه أبي بكر الحفصي، وتجميع الأعراب من حوله، فوجه - إذ ذاك - إلى محمد بن أبي عمران يستدعيه من طرابلس لمبايعته حتى يكون على رأس القوة المناوئة للسلطان أبي بكر. وبذلك تهيأت الفرصة لصاحب طرابلس فاستجاب لنداء حمزة بن عمر وتحالف معه، وزحفا معاً على مدينة تونس سنة 721هـ (1321م). وكان هذا الزحف مفاجئاً للسلطان أبي بكر فلم يتمكن من استنفار القوة الكافية لصدّ ذلك الهجوم. ولهذا غادر مدينة تونس متجهاً إلى قسنطينة قبل أن يحاصره خصومه في مدينة تونس. وقد اصطحب معه حليفه الكعوبي مولاهم بن أبي الليل الذي كان منحازاً إليه.

وانتهز خصم آخر للسلطان أبي بكر الفرصة فانضمّ إلى الزاحفين على تونس وهو حاجبه السابق محمد بن القالون، فعندما غادر السلطان أبو بكر العاصمة تخلف ابن القالون عن ركب السلطان. ثم خرج من الغد يدعو سكان العاصمة إلى الانضمام لابن أبي عمران، ويعلن مبايعته على السلطنة الحفصية حتى إذا وصل ابن أبي عمران وجد العاصمة متهيئة لاستقباله ومبايعته وكان ذلك في رمضان من نفس السنة.

مدينة تونس بين الكرّ والفرّ

باحتلال ابن أبي عمران لمدينة تونس فتحت صفحة جديدة من سجل الصراع حول السيادة الحفصيية. وكانت مدينة تونس ميدان كر وفرّ بين السلطان أبي بكر والثائر عليه محمد بن أبي عمران الذي بقي مستولياً على تونس من رمضان 721هـ إلى صفر 722هـ. ذلك أن السلطان أبا بكر عندما غادر تونس وتوجه إلى قسنطينة أخذ يستعد لشن هجوم جديد على العاصمة؛ فحشد الحشود، ونظم الجيش، وزحف ثانية على تونس وجرت بينه وبين خصومه عدة معارك انتهت باستيلائه على تونس في صفر 722هـ. وقتل من صفوف ابن أبي عمران عدد من المسؤولين منهم شيخ الموحدين أبو عبد الله بن أبي بكر[431]. إلاّ أنّ السلطان أبا بكر لم يبق في تونس إلاّ أربعين يوماً لأن ابن أبي عمران أعاد عليه الكرة بمساعدة الأعراب وعلى رأسهم حمزة بن عمر. وكان سبب ضعفه هو سيطرة الأعراب عليه، ومطامح زعمائهم لا سيما مولاهم بن أبي الليل الذي كان متحالفاً معه. فقد بلغ إلى السلطان أبي بكر أن مولاهم ينوي الشرَّ به والتآمر عليه مما جعله يفتك بهم ويستأصل رؤوس الفتنة منهم، فازداد الأعراب التفافاً حول أخيه حمزة حليف ابن أبي عمران. وأقبلوا من جديد إلى تونس العاصمة. ومثل المرة السابقة فضّل السلطان أبو بكر مغادرة العاصمة والتوجه إلى قسنطينة. وظل ابن أبي عمران مستولياً على العاصمة ستة أشهر فقط لأن السلطان أبا بكر أعاد ترتيب

(431) العبر (6 :762).

جيشه وتجميع قواه وأمكن له من جديد طرد ابن أبي عمران والدخول للعاصمة في صفر 723 (فيفري 1323).

ويبدو أن حمزة بن عمر بن أبي الليل لم يجد من محمد بن أبي عمران الرجل الذي يحقق له أحلامه ومطامحه فصرفه عنه وأعاده إلى طرابلس، ثم التفت إلى جيب المقاومة الثاني في المهدية حيث محمد أبو ضربة فبعث إليه يستدعيه ليذهب معه إلى تلمسان كي يحرضا صاحبها ويشجعاه على مهاجمة الدولة الحفصية وإضعاف شوكة السلطان أبي بكر. ولم يتردد أبو تاشفين، صاحب تلمسان، في الاستجابة لرغبة حمزة بن عمر ومحمّد أبي ضربة سعْيًا في تحقيق آمال الزيانيين في الاستيلاء على بجاية فجهز لهما جيشاً كبيراً بقيادة موسى بن علي. إلاّ أن السلطان أبا بكر استعدّ لذلك استعداداً كبيراً واستطاع أن يلحق بأخصامه هزيمة منكرة بين عنابة وقسنطينة في شعبان سنة 723 (أوت 1323) فرجع محمد أبو ضربة وموسى بن علي مهزومين إلى تلمسان. وتنتهي محاولات أبي ضربة بتلك الهزيمة فيقضي بقية حياته في تلمسان إلى أن وافاه أجله.

ورغم نهاية محمد أبي ضربة فإن صاحب تلمسان ما انفكّ يستعمل الأنصار من المناوئين للسلطان أبي بكر الحفصي فجهز جيشاً جديداً بقيادة موسى بن علي مستعملاً في هذه المرة شخصية حفصية أخرى وهو إبراهيم بن الشهيد أبي بكر بن أبي الخطاب الحفصي. وقد استطاعت هذه الحملة الجديدة أن تستولي على مدينة تونس في رجب 725 (1325م) فانتصب إبراهيم بن الشهيد سلطاناً على تونس متخذاً لحجابته محمد بن القالون. ومثل العادة فإن هذا الاحتلال لم يدم إلاّ أشهراً قليلة إذ لم يأت شهر شوال من نفس السنة حتى تمكن السلطان أبو بكر من استعادة مدينة تونس. وكان مما سهل عليه هذا الانتصار أن القائد التلمساني (موسى ابن علي) اشتغل بمحاصرة قسنطينة فلما امتنعت عليه رفع عنها الحصار ورجع إلى تلمسان تاركاً إبراهيم الشهيد يجابه وحده هجومات السلطان أبي بكر.

ولم يسلم السلطان أبو بكر حتى من أقرب الناس إليه، فقد أغرت الحالة السيئة وكثرة الانتقاضات أخاه أبا فارس عبد العزيز على أن يقوم هو الآخر بمحاولة انتقاض سرعان ما أخمد لهيبها. وسبب هذا الانتقاض أن أبا فارس عبد العزيز كان طموحاً إلى تولي السلطنة مترقباً التربص بالدولة[432]. وصادف أن أحد بني مرين (عبد الحق بن عثمان) وفد على العاصمة من الأندلس، فأكرموا وفادته ونال الحظوة والاعتبار عند السلطان أبي بكر. إلاّ أن سوء تفاهم بينه وبين الحاجب ابن سيد الناس أوجب مغاضبته فذهب إلى منزل أبي فارس عبد العزيز، وحرضه على العصيان والانتقاض ضد أخيه. وغادر العاصمة لتأليب الأعراب. وكان ذلك في ربيع سنة 729هـ. «ومرّوا ببعض أحياء العرب فاعترضهما أمير الحي فعرض عليهما النزول [عنده] فأما عبد الحق بن عثمان فأبّى وذهب لوجهه إلى أن لحق بتلمسان. وأما الأمير أبو فارس فأجاب ونزل [عند الشيخ المذكور][433] وما إن بلغ الخبر إلى السلطان أبي بكر حتى جهز له جيشاً بقيادة محمد بن الحكيم. ولم يجد هذا القائد صعوبة في القضاء على هذا المنتقض فقد فاجأه صباحاً في الحي المذكور وأحاط الجيش المكوّن من العرب والنصارى بالبيت النازل فيه. ولمّا امتنع من الاستسلام اقتحموا عليه البيت وقتلوه طعناً بالرماح، ثم أتوا بجثته إلى العاصمة حيث دفن بها[434].

(432) العبر (6 :774).

(433) نفس المصدر.

(434) المصدر السابق.

تلمسان بين شقّي الرحا

تحالف ومصاهرة:

لم يفتأ أبو تاشفين ـ صاحب تلمسان ـ يتابع محاولاته المتكررة للتدخل في شؤون إفريقية الحفصية. وكان من أهم دوافع ذلك التدخل إلحاح بني عبد الواد في ضمّ بجاية وعمالتها إلى تلمسان. وكان من أبرز تلك المحاولات ما حصل سنة 729هـ. ذلك أن عبد الحق بن عثمان ـ الذي تخلّى عن أبي فارس عبد العزيز والتحق بتلمسان ـ أخذ يحرض أبا تاشفين على إعادة مهاجمة السلطنة الحفصية. ثم التحق به حمزة بن عمر بن أبي الليل فساند رأي عبد الحق بن عثمان، وأعلم صاحب تلمسان أن الأعراب سوف يناصرون قواته، فاستجاب أبو تاشفين لتلك التحريضات، وجهز جيشاً من زناتة بقيادة يحيى بن موسى. وزيادة في الاستعداد المعنوي نصّب عليهم محمد بن أبي عمران الفاشل في محاولاته السابقة ضد السلطان أبي بكر الحفصي. وهكذا اجتمع في هذا الجيش ثلاثة عناصر مناوئة للسلطان الحفصي هم: محمد بن أبي عمران، وحمزة بن عمر، وعبد الحق بن عثمان وقد شارك هذا الأخير «.. بمن في جملته من بنيه وعشيرته ومواليه وحاشيته. وكانوا أحلاس حرب، وفتيان كريهة» حسب وصف ابن خلدون لهم[435].

---

(435) العبر (6 :774).

وأمام هذه التحدّيات من أصحاب تلمسان لم ير أبو بكر الحفصي مندوحةً عن اكتساب حليف يتقوّى به على خصومه التقليديين لذلك قرر التقرب من بني مرين في المغرب الأقصى حتى يجعل تلمسان بين شقّي الرحا. وبعث بوفد إلى فاس لمقابلة سلطان بني مرين أبي سعيد عثمان. وقد ضمّ الوفد أحد أعيان مشيخة الموحدين هو الشيخ أبو محمد بن تافراجين «لساناً لخطابه، ونجيّاً لشواره» كما يقول ابن خلدون[436]. وقد اقتبل الوفد الحفصي في فاس بالحفاوة والإجلال. واستجاب أبو سعيد عثمان لرغبة التحالف الحفصية ضد أصحاب تلمسان. وضرب المتحالفان موعداً يلتقون فيه حول تلمسان. وقد عزّز هذا التحالف العسكري بالمصاهرة التي تمت بين الأسرتين المرينية والحفصية. وهي مصاهرة كان يرغب فيها أبو سعيد عثمان منذ سنة 721هـ عندما بعث إلى تونس بقائد أسطوله بسبتة يطلب من أبي بكر الحفصي مصاهرته في إحدى بناته لأحد أبنائه. إلاّ أن أبا بكر الحفصي لم يستجب ـ إذ ذاك ـ للطلب لشدة انشغاله في حروبه الداخلية خاصة مع محمد بن أبي عمران المستبدّ بطرابلس. ولعل خطر تلمسان الذي لم يرهبه في ذلك الوقت هو الذي جعله يتغاضى عن مصاهرته لبني مرين، أما هذه المرة فإن الوضع تغيّر. ولهذا استجاب أبو بكر الحفصي لرغبة بني مرين في مصاهرته بعد أن أصبحوا حلفاءه ضد بني عبد الواد الزيانيين، ولما أظهره السلطان المريني من جدية في موقفه. فقد نقل السلاوي في كتاب الاستقصاء، أن السلطان المريني ـ لما جاءه الوفد الحفصي مستنجداً به ضد بني زيان ـ قال للوفد: والله لأبذلنّ في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي. ولأسيرنّ بعساكري إلى تلمسان فأنازلها»[437].

واستعدّ فعلاً أبو سعيد عثمان لمنازلة تلمسان على أن يلتقي مع أبي بكر الحفصي حولها وسار من فاس في جيش كبير صحبة الوفد الحفصي

---

(436) العبر (6 :777).

(437) الاستقصاء (3 :116).

صوب تلمسان إلّا أنه عندما وصل وادي ملوية بلغه أن أبا بكر الحفصي عاد إلى تونس بعد أن استرجعها من مناوئيه الداخليين. وكانت ـ إذ ذاك ـ فاطمة الحفصية في طريقها إلى خطيبها أبي الحسن المريني وليّ العهد. وعندما بلغ أبا سعيد عثمان نبأ اقترابها خرج بنفسه لاقتبالها في وادي تازا «.. ليشارف أحوالها كرامة لها ولأبيها وسروراً بها». ولكن المرض عاجله فأدركه هناك. وعجل ابنه أبو الحسن بالعودة به إلى فاس إلّا أنه لم يصلها حيّاً لأن الموت أدركه في الطريق. وتأجلت حفلة زفاف فاطمة الحفصية إلى أبي الحسن المريني بعض الوقت.

وبوفاة أبي سعيد عثمان ازداد التقارب بين فاس وتونس، فقد أصبح أبو الحسن المريني صهر أبي بكر الحفصي، سلطاناً على المغرب الأقصى. ولهذا لم يتردد في تنفيذ التحالف الذي عقده أبوه مع صهره أبي بكر فجهز جيشاً كبيراً قاده بنفسه صوب تلمسان وناصبها الحصار. وبعث إلى صهره أبي بكر الحفصي بنجدة عسكرية لأنه كان ـ إذ ذاك ـ مشغولاً بحصار بجاية وإبعاد خطر بني عبد الواد عنها[438]. وكانت الخطة أن يلتقي أبو الحسن المريني وصهره أبو بكر الحفصي حول أسوار تلمسان. ولكن أحداثاً جدّت في كلّ من السلطتين المرينية والحفصية حالت دون إنجاز الخطة المتفق عليها.

(438) الاستقصاء (3: 119).

أبو تاشّفين يحبط التحالف ضدّه

عندما تحقق أبو تاشفين الزياني أن بني مرين مجدّون في تحالفهم مع أبي بكر الحفصي التجأ إلى التآمر والحيلة حتى يقضي على خطر التحالف ضده.

ولهذا شرع يبحث عن مشاغب لأبي الحسن المريني حتى يصدّه عنه، ويفكّ حصاره لمدينة تلمسان. ولم يكن هذا المشاغب إلّا شقيق أبي الحسن المريني أبا علي المتولّي على سجلماسة. واستطاع أبو تاشفين أن يفرق بين الأخوين وأن يشعل نار الحرب بينهما.

وكان السلطان أبو سعيد عثمان عهد بالأمر من بعده لابنه أبي الحسن. وكان كثيراً ما يوصيه بحسن معاملة أخيه أبي علي ورعايته. وعندما أصبح أبو الحسن صاحب الملك بعد وفاة أبيه ذهب إلى أخيه بسجلماسة ليتفقد أحواله هناك، وليوطّد العلاقة معه. وتمّ الاتفاق بين الأخوين على إثبات ولاية سجلماسة وأعمالها لأبي علي. وأشهد على ذلك الملأ من بني مرين وسائر زناتة والعرب[439]. ولم يتجه أبو الحسن المريني إلى محاربة أصحاب تلمسان إلّا بعد ما تمّ الاتفاق بينه وبين أخيه الحسن صاحب سجلماسة.

إلّا أن أبا تاشفين لما بلغه توجه صاحب فاس إليه «.. أعمل الحيلة بأن دسّ إلى أخيه الأمير أبي علي صاحب سجلماسة في اتصال اليد به

(439) الاستقصاء (3: 119).

والاتفاق معه على أخيه أبي الحسن، وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه، ويشغله عنه حتى يتمكنا من أبي الحسن[440]. وكان محور «سجلماسة ـ تلمسان» مبنياً على أن أبا تاشفين يساند أبا علي المريني في انتقاضه على أخيه أبي الحسن، وفي استبداده بالسلطة المرينية، وفي اعتراف أبي تاشفين له بذلك عند انتصاره. وشرع أبو علي المريني في محاربة أخيه أبي الحسن حتى استولى على الكثير من الجهات بينما كان أخوه أبو الحسن نازلاً بـ «تاسالة» في انتظار قدوم صهره أبي بكر الحفصي حتى يقوما بهجوم مشترك على تلمسان، ويقضيا على أبي تاشفين. ولكن استفحال خطر أبي علي المريني واستيلائه على مدينة درعة ثم تقدمه صوب مراكش ـ قصد الاستيلاء عليها ـ جعل كل ذلك أبا الحسن المريني يشعر بالخطر الداهم فأقلع عن انتظار صهره أبي بكر الحفصي وغادر «تاسالة» عائداً إلى فاس لمواجهة شقيقه أبي علي الذي أصبح خطره يزداد استفحالاً يوماً بعد يوم. وبعد وصوله إلى فاس، واستكمال العدّة توجه إلى سجلماسة وناصبها الحصار. وظلّت الحرب سجالاً بين الأخوين سنة كاملة إلى أن تمكن أبو الحسن من احتلال سجلماسة في 19 محرم سنة 734 (سبتمبر 1333). وانتهى أمر أبي علي بالقبض عليه وقتلِهِ في نفس السنة.

وكان أبو تاشفين الزيّاني ـ أثناء الحرب الداخلية في سلطنة بني مرين ـ يحاول تعزيز صفوف حليفه أبي علي المريني فشنّ عدة غارات على شرقي السلطنة المرينية لكنه ردّ على أعقابه إلى تلمسان دون أن يتمكن من تقديم مساندة إيجابية لحليفه أبي علي المريني.

وكان الأمير المريني المحصور في سجلماسة قد حاول استعطاف أخيه أبي الحسن ناسياً ما كان من نَقْضِهِ للعهد، والتحالف مع خصم السلطنة المرينية فبعث إليه بقصيدة يستعطفه فيها، ويتوسل إليه بالعفو عنه، والتجاوز

---

(440) الاستقصاء (3 :120).

عن ذنبه. إلاّ أن أبا الحسن المريني ألقى بذلك الاستعطاف عرض الحائط ونفّذ في أخيه عقوبة القتل. وكان مما جاء في قصيدة الاستعطاف قوله:

فلا يغرنّك الدهر الخؤون فكم	أباد من كان قبلي يا أبا الحسَنِ
الدهر مذ كان لا يبقي على صفة	لا بدَّ من فرح فيه ومن حزنِ
أين الملوك التي كانت تهابهم	أسد العرين؟ ثووا في اللّحد والكفنِ
بعد الأسرّة والتيجان قد محيت	رسومها، وعفت عن كل دي حسنِ
فاعسل لأخرى. وكن بالله مؤتمراً	واستغن بالله في سرّ، وفي علنِ
واختر لنفسك أمراً أنت آمرُهُ	كأنني لم أكن يوماً. ولم تَكُنِ[441]

(441) الاستقصاء (3: 121).

عبد الواحد بن اللحياني يشاغب أبا بكر الحفصي

أما بالنسبة لأبي بكر الحفصي فقد استعدَّ فعلاً للقاء صهره أبي الحسن المريني حول أسوار تلمسان. إلّا أنّ ذلك اللقاء لا يتم له إلاّ بعد تصفية أوضاع الحفصية الغربية من خطر بني زيان وحلفائهم من زعماء القبائل والأعراب في المغرب الأوسط. ولهذا اتجه أبو بكر الحفصي ـ أولاً ـ إلى بجاية وأمكن له تخليصها من جيوش أبي تاشفين. ثم اتجه بعد ذلك جنوباً إلى المسيلة وجهاتها التي أقطعها أبو تاشفين إلى زعماء أولاد سبّاع من الذواودة واستطاع أبو بكر الحفصي التوغل في أراضي الحُضنة والزاب، والاستيلاء على مدينة المسيلة وتخريب أسوارها. إلّا أن أحداثاً جدّت في الحفصية الشرقية جعلت أبا بكر الحفصي يُقْلِعُ عن متابعة حركته التطهيرية لمناطق الحفصية الغربية، ويعود إلى عاصمة تونس لمجابهة ما حصل من انتقاض؛ فقد ظهر حفصي آخر يطالب بالسيادة على السلطنة الحفصية، ويقوم بحركة انتقاض وعصيان في وجه السلطان أبي بكر. إذ بينما كان هذا الأخير يقوم بحركته التطهيرية جنوبَ المغرب الأوسط ـ وقبل أن يتجه إلى تلمسان ـ بلغه أن عبد الواحد بن أبي يحيى زكرياء بن اللحياني عاد من المشرق بعد وفاة أبيه، ونزل على قبائل دبّاب بالجنوب التونسي. ثم أعلن عن نفسه سلطاناً حفصياً وبايعه عبد الملك بن مكي المتولّي على قابس بعد أن انضمت إليهما العربان من كل ناحية.

وكان خلوّ إفريقية من العساكر المشغولة في جنوب المغرب الأوسط مع

السلطان أبي بكر خير مشجع لعبد الواحد بن اللّحياني على القيام بالدعوة لنفسه وإعلانه السلطنة على إفريقية وتعيينه لعبد الملك بن مكي حاجباً له. كما اغتنم حمزة بن عمر (زعيم الكعوب) الفرصة فبعث إلى عبد الواحد بن اللحياني ببيعته، وحرضه على القدوم إلى تونس واحتلالها. وقد تم له ذلك في شوال سنة 732هـ (1432م) بينما كان أبو بكر الحفصي يحث خطاه عائداً إليها من المسيلة عندما بلغته حركة الانتقاض تلك. وبادر بإرسال جيش يسبقه إلى العاصمة بقيادة محمد البطرني اختار جنوده من ذوي الحزم والشجاعة[442] وقد استطاع البطرني أن يسترجع مدينة تونس بسهولة، لأن عبد الواحد بن اللّحياني ما إن تأكد لديه قدوم الجيش الحفصي حتى بادر بالجلاء عن تونس والهروب من واجهة طليعة الجيش الحفصي بعد أن مكث فيها خمسة عشر يوماً فقط. وفي عيد الفطر 732هـ دخل أبو بكر الحفصي مدينة تونس فاقتبله السكان بالحفاوة وجدَّدُوا له البيعة. وهي المرة السابعة التي بايعته فيها تونس حيث كانت ميدان كرّ وفرّ بينه وبين خصومه ومنافسيه. وسوف تكون هذه المرة الأخيرة التي تفتك فيها تونس من أبي بكر الحفصي مما جعل الزركشي في تاريخ الدولتين يستشهد في حديثه عن ذلك بالبيت المشهور:

فألقت عصاها واستقرت بها النَّوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافر[443]

وأبو بكر الحفصي باسترجاعه لمدينة تونس، وإقصاء عبد الواحد بن اللّحياني حقق كسباً ثانياً لسيادته على السلطنة الحفصية بعد الكسب الأول الذي أجلى فيه جيوش بني زيان عن بجاية وأعمالها، وأدّب القبائل المستعصية في أقصى جنوب المغرب الأوسط في المسيلة ونواحيها.

---

(442) الزركشي (69).
(443) الزركشي (69).

الفتك بابن سيّد الناس

وبالكسبين المذكورين دخل السلطان أبو بكر الحفصي في عهد ثان من سيادته على الدولة الحفصية. وهو ما يمكن أن يسمّى ـ ولو نسبياً ـ بعهد الاستقرار إذ لم يتمكن السلطان أبو بكر من القضاء على الثورات والانتقاضات ضده إلّا بعد خمس عشرة سنة من الحروب والقتال. وكان أبرز عمل إداري قام به بعد ذلك هو التخلّص من حاجبه محمد بن سيّد الناس المعتبر ـ إذ ذاك ـ أقوى شخصية سياسية وإدارية في تلك الفترة من حكم السلطان أبي بكر الحفصي.

والحاجب محمد بن سيّد الناس كان من أقرب الناس إلى أبي بكر الحفصي، فهو ـ من ناحية ـ ابن حاجب أبيه أبي زكرياء عندما كان متولّياً على بجاية، وهو ـ من ناحية ثانية ـ أخوه من الرضاع، ونشأ في كنف ابن سيّد الناس الوالد ورعايته، فتوثقت الصلات بين الطفلين حتى إذا أصبح أبو بكر الحفصي صاحب الملك والنفوذ عهد إلى محمد بن سيّد الناس بالمهمات وكلفه بقيادة بعض جيوشه. وعندما توفّي ابن غمر المستبد ببجاية وعزل عنها محمّد بن القالون ولّاه عليها حتى يحول بينها وبين مطامع بني زيان مثلما كان يفعل ابن غمر.

ويبدو أن ولاية محمد بن سيّد الناس على بجاية وبُعْدَه عن البلاط الحفصي جعله كل ذلك يفكر في تحقيق بعض مطامحه الشخصية ناسياً العشرة والتربية والرعاية والفضل. وقد ذكرنا ـ في عديد المرات ـ أن الخلق السياسي

والإداري كان في ذلك العهد على غاية من التعفّن. وأن الغدر من أجل السلطة والملك كان يقع بين الأخ وشقيقه، والابن ووالده فما بالك ممن كان أخا من الرضاع أو لم يكن أخاً أصلاً. ولهذا فلا غرابة من محمّد بن سيّد الناس المكلف - أساساً - بحماية بجاية أن يتواطأ مع القائد موسى بن علي الزناتي ليتآمرا معاً على صاحبيهما: أبي تاشفين الزياني وأبي بكر الحفصي. واكتشف كلّ من هذين الأخيرين ما كان يدور برأس ابن سيد الناس وموسى بن علي الزناتي فعزم كل واحد منهما على الانتقام من المتآمر عليه. إلاّ أن الظروف لم تكن سانحة - إذ ذاك - لأبي بكر الحفصي بالانتقام من محمد بن سيّد الناس فاكتفى بعزله عن بجاية واستدعائه إلى العاصمة وتوليته خطة الحجابة في المحرم من سنة 728 (نوفمبر - ديسمبر 1327) عسى أن يكون في ذلك ما يبعد بينه وبين التآمر. و«أسكنه بقصور ملكه، وفوض إليه أمر سلطانه تفويض الاستقلال. وأرخى له عنان السلطة والإدارة»[444] وكان السلطان أبو بكر يضمر في نفسه شيئاً آخر مترقباً استقرار الأحوال والتغلّب على خصومه حتى يجابه محمد بن سيّد الناس بما يضمره نحوه. ولهذا فما إن سجل أبو بكر الحفصي انتصاراته واستقرت له الأمور حتى التفت إلى حاجبه محمد بن سيّد الناس كي يأخذ بثأره منه فاعتقله «.. ثم امتحنه بأنواع العذاب لاستخراج المال منه فلم ينبس بقطرة، فما زال يستغيث ويتوسل بسوابقه من الرضاع والمربى، وسوابق أبيه عند سلفه حتى لذعه العذاب فأفحش، ونال من السلطان وأقذع فقتل شَدْخاً بالعصي. وجُرَّ شلوه فأُحرق خارج الحضرة، وعفا رسمه كأن لم يكن»[445].

(444) العبر (6 :781).

(445) العبر (6 :782).

سياسة توزيع النفوذ

بعد الفتك بمحمد بن سيّد الناس اختار السلطان أبو بكر الحفصي لحجابته أبا القاسم أحمد بن عبد العزيز الغساني. ويتحدث ابن خلدون عن هذا الحاجب الجديد فيذكر أنه «.. قدم من الحمّة عند مبايعة ابن مكّي لعبد الواحد بن اللّحياني فلحق بالسلطان (أبي بكر) في طريقه إلى تيمزوغت، فلم يزل معه إلى أن دخل حضرته وتقبّض على ابن سيد الناس فولّاه الحجابة. وكان مضعفاً لا يقوم بالحرب، فعقد السلطان على الحرب، والتدبير لصنيعته وكبير بطانته يومئذ محمد بن الحكيم، وفوض له فيما وراء الحضرة»[446]. وبذلك نعرف أن المرجّح الوحيد لتولّيه هذه الحجابة هو مناصرة أحمد بن عبد العزيز للسلطان أبي بكر ضد ابن اللّحياني، والتحاقه به في الحفصية الغربية أثناء حملته على بجاية لتخليصها من محاصرة بني زيان. وبذلك نعرف أيضاً لماذا لم يعطه كامل النفوذ مثلما كان لسلفه محمد بن سيّد الناس. أما محمد بن الحكيم فهو الذي تولّى تنفيذ المؤامرة التي دبّرت ضد الحاجب ابن سيّد الناس إذ نَصَب له كميناً في بعض غرف رياض رأس الطابية، وأعلم ابن سيّد الناس بأن السلطان أبا بكر يستدعيه لأمر، وجعل الطريق الذي يمرّ منه على مقربة من الكمين حتى إذا وصل المكان المذكور انقضّ عليه الكمين. ثم جرى له من التعذيب والامتحان بإشراف ابن الحكيم كما سبقت الإشارة إليه.

(446) العبر (6 :782).

ولكن هذا التقسيم الإداري للشؤون العليا في الدولة بين ابن عبد العزيز وابن الحكيم هل يحقق الاستقرار الإداري، ويقلّل من التآمر والتنافس حتى يساعد على تقوية السلطنة الحفصية، ويدفعها إلى الإنشاء والبناء، أم أنه سوف يزيد من حدة التنافس والتآمر بين رجالات تلك الدولة؟.

وإلى جانب ذلك فإن السلطان أبا بكر الحفصي استمرّ على تولية أبنائه في مختلف الأقاليم دون اعتبار للكفاءة والقدرة على التسيير. وكنا عرفنا في صفحات سابقة أنه عَقَد لابنه يحيى أبي زكرياء على بجاية، وعقد لابنه أبي عبد الله محمد على قسنطينة دون أن تكون لهما الكفاءة ومسؤولية الحكم فأوكل أمرهما إلى من اختاره من رجال دولته وكبار حاشيته مثل محمد بن القالون، والعلج ظافر الكبير. وقد سلك أبو بكر الحفصي نفس السلوك في الحفصية الشرقية. فبعد أن تخلّص من الحاجب محمد بن سيّد الناس عقد «.. لولديه أبي فارس عزوز وأبي البقاء خالد على سوسة والبلاد الساحلية، وأنزلهما بمدينة سوسة، وأنزل معهما محمد بن طاهر أحد صنائع الدولة الحفصية من بيوتات الأندلس المهاجرين إلى تونس[447] ليقوم بتدبير شؤون تلك الجهات. كما جعل قيّماً عليهما محمد بن فرحون وظلّ هذان الأميران الصغيران مشتركين في إمارة الجهات الساحلية مقيمين في مدينة سوسة إلى سنة 744هـ عندما نكب السلطان أبو بكر بمحمد بن الحكيم، وإعلان قريبه محمد بن الركراك[448] العصيان في مدينة المهدية فوقع التغلب عليه. وعقد السلطان أبو بكر لابنه أبي البقاء خالد على المهدية، وبقي أبو فارس عزوز منفرداً بإمارة سوسة.

---

(447) العبر (4: 787) والزركشي (72).

(448) في الزركشي «الدكداك».

الاضطرابات في الجنوب

وإذا كان انتصاب أبناء أبي بكر الحفصي ميسوراً في الجهات الساحلية فإن مناطق الجنوب كانت أعسرَ تمكُّناً، وأقلَّ استقراراً. ذلك أن مناطق الجنوب ـ نظراً لبعدها عن مركز السلطنة ـ ظلّت إلى حدٍّ كبير بعيدةً عن السيطرة عليها أو التمكّن المباشر فيها من قبل السلطة المركزية الحفصية، وقد ظلّت بلاد الجريد ـ منذ عهد أمراء الطوائف في أواخر الدولة الصنهاجية ـ لا تعرف الانقياد للسلطة المركزية إلّا قليلاً وفي فترات متقطعة. وعندما جاء عبد المؤمن بن علي إلى إفريقية كانت مناطق الجنوب موزّعة على أولئك الأمراء من أمثال بني الرَّنْدِ في قفصة، وبني وطّاس في توزر، وبني جامع في قابس. وقد عانى الموحّدون كثيراً في إخضاع تلك الجهات لا سيما في عهد ثورة بني غانية. وكان لضعف السلطة المركزية الحفصية بعد أبي زكرياء الأول وابنه المستنصر ما زاد من استبداد تلك الأطراف القصية، ومن كثرة حركات العصيان والتمرّد فيها. ولم يكن العهد الأول من سلطنة أبي بكر الحفصي يسمح له بالتوجه إلى الجنوب وخضد شوكة المتمرّدين. أما في عهده الثاني ـ الذي وصفناه بعهد الاستقرار النسبي ـ فإن أبا بكر الحفصي فكّر في بسط نفوذه على مختلف جهات سلطته وتركيز نفوذه فيه. ونظراً للوضع الشائك في جهات الجنوب فقد عزم على أن يتولّى بنفسه التوجُّهَ إليه والعمل على تركيز نفوذه، وقطع أواصر الانشقاق في تلك الجهات.

وقد تكلّم ابن خلدون بشيء من العنف والقساوة على المستبدّين بتلك الجهات. فقد قال متحدثاً عن السلطان أبي بكر «.. وصرف السلطان نظرَهُ في أعطاف ملكه، ومحو الشقاق من سائر أعماله، وسمت همَّتُه إلى تدويخ القاصية من بلاد الجريد، واستنفاذ أهلها من أيدي الذئاب العاوية، والكلاب العادية، زعماء أمصارها وأعراب فلاَتها»[449].

(449) العبر (6: 785).

إخضاع الجنوب الغربي للسلطة المركزية

كان المستبدّ في قفصة - إذ ذاك - يحيى بن محمد بن عبد الجليل من بني العابد فتوجه إليه السلطان أبو بكر وناصبه الحصار أياماً، وأحاط المدينة بالمنجنيق. وصمد المحصورون ولم يستجيبوا لنداءات السلطان الحفصي. فالتجأ هذا الأخير إلى التهديد بقطع النخيل والأشجار إذا استمر المحصورون ممتنعين عن الاستسلام. وهذا التهديد جعل المحصورين يشعرون بالخطر ويخافون من سوء العاقبة. وأيقن ابن عبد الجليل بأن الدائرة ستكون عليه من الأهالي إذا أصر على مواصلة المقاومة، وأنه سوف يبقى وحده في الميدان. وهكذا اضطر ابن عبد الجليل إلى الكف عن المقاومة، والخروج إلى السلطان أبي بكر، وطلب الأمان فأمنه وبعث به مع جملة من قومه بني العابد إلى تونس، كما فرّ الكثير من أسرته إلى قابس حيث يوجد ابن مكي المستبد بها.

ولم يشأ السلطان أبو بكر أن يسلك القساوة مع بقية الناس فشملهم بعطفه وإحسانه «.. وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم بالإسهام والإقطاع، وتجديد ما بأيديهم من المكتوبات السلطانية»[450] كما أن السلطان أبا بكر آثر أهالي قفصة بأن عيّن عليهم والياً أحظى أبنائه لديه وهو ابنه أبو العباس أحمد المرشح لولاية الأمر من بعده، وعيّن لحجابته أبا القاسم بن عتّو من مشيخة

(450) العبر (6 :786).

الموحدين. ثم عقد لابنه المذكور على بلاد قسطيلية وما إليها. وعاد إلى تونس فدخلها في رمضان من سنة 735 هـ (1335 م).

وشرع أبو العباس أحمد، والي قفصة الجديد، في تمهيد أحوالها وتوطيد أركان الاستقرار والولاء في نواحيها. وكان متولّي ذلك حاجبه أبا القاسم بن عتّو الذي استطاع أن يقضي على بني مدافع المستبدين بنفطة. وكان بنو مدافع أربعة إخوة استطاعوا ـ أثناء انشغال السلطنة الحفصية بخلافاتها وحروبها ـ أن يستبدّوا بنفطة ويتحكموا فيها إلّا أن ابن عتّو استطاع إرهاقهم بحصاره. وكان لسوء معاملتهم للسكان أثر كبير في انهزامهم، وسرعة القضاء عليهم. ولم ينج منهم إلا أخوهم الأصغر «علي» الذي خالف إخوته وانحاز إلى جيش أبي القاسم بن عتّو فسلم من مآل إخوته حيث صلبوا على جذوعهم آية للمعتبرين. حسب تعبير ابن خلدون[451].

وبالرغم من أن أمير قفصة الجديد ضمّ إليه الكثير من بلاد نفزاوة بقيادة حاجبه ابن عتّو فقد ظلت مدينة توزر ممتنعة عليه بزعامة محمد بن يملول الذي كان ـ قبل ذلك ـ حاول التواطؤ مع الوزير ابن الحكيم إلا أن هذا الأخير لم يستجب له. وظل ابن يملول مستبدّاً بتوزر إلى أن توفّي، فاضطرب أمرها من بعده إذ تقاتل أبناؤه وأشقاؤه على الاستبداد بشؤونها. وحاول السلطان أبو بكر الحفصي استعمال صنيعة لإخضاع توزر التي لم يتمكن من أمرها ابنه أحمد، فعمد إلى أبي بكر بن يملول المعتقل عنده في تونس وأطلق سراحه. ثم اتفق معه على أن يعيده إلى توزر ويوليه عليها مقابل الطاعة والجباية. وأخذ عليه العهود والمواثيق في ذلك. إلا أنّ أبا بكر بن يملول ـ بعد أن تمكّن من ولاية توزر ـ امتنع من الانقياد لأبي العباس أحمد أمير قفصة. وبعث هذا الأخير يعلم أباه بالوضع الذي آل إليه أبو بكر بن يملول، ويطلب من السلطان أبيه القدوم بنفسه من جديد إلى الجنوب الغربي حتى يتلافى الأمر قبل استفحاله. وفعلاً تجهز السلطان أبو بكر في جيش

(451) العبر (6 :799).

كبير. وسار نحو الجنوب الغربي. وما إن سمع أبو بكر بن يملول بوصوله إلى قفصة ـ وقد انفرط الناس من حوله ـ حتى بادر بالتوجه إلى قفصة طواعيةً على أساس تقديم الطاعة والانقياد وطلب العفو من السلطان أبي بكر إلاّ أنه عدل عن ذلك مخافةَ أن يبطش به السلطان نظراً لخيانته السابقة ونكثِهِ للمواثيق والعهود التي أبرمها معه في تونس. وبسبب ذلك فضل الالتجاء إلى بسكرة عند صاحبها يوسف بن منصور بن مزني الذي بالغ في الترحيب به وإكرامه.

وبفرار أبي بكر بن يملول تمَّ ضمّ كافة مناطق بلاد الجريد إلى السلطنة الحفصية تحت إمارة أبي العباس أحمد ولي العهد بالرغم من المحاولات العديدة التي قام بها ـ فيما بعد ـ لاسترجاع سيادته على توزر. وبذلك لم يبق خارجاً عن نفوذ أبي العباس الحفصي إلاّ قابس ونواحيها بزعامة عبد الملك بن مكّي.

إخضاع قابس للسلطة المركزية

من المعروف أن بني مكّي استطاعوا ـ لفترة طويلة ـ أن يكونوا أصحاب السيادة على قابس وجهاتها. وقد بلغت مطامح عبد الملك بن مكّي أكثر من ذلك عندما تساند مع عبد الواحد بن اللّحياني وهاجموا مدينة تونس وأصبح ابن مكي حاجباً لابن اللّحياني. إلاّ أن ذلك لم يدم إلاّ خمسة عشر يوماً إذ فرّ ابن اللّحياني عن العاصمة عندما بلغه قدوم محمد البطرني طليعة جيش السلطان أبي بكر. ورجع عبد الملك بن مكي إلى معقله قابس مكتفياً بما كان له عليها من قبل ريثما تتجلّى الأحداث عن مصير السلطان أبي بكر. وكانت انتصارات السلطان أبي بكر على خصومه أصحاب تلمسان دافعة بابن مكّي إلى تغيير موقفه فبعث أخاه أحمد إلى السلطان أبي الحسن المرينـي ـ المناصر الأول للسلطان أبي بكر ـ مظهراً له ندمَه على ما حصل منه، راغباً منه أن يكون شفيعاً له ووسيطاً بينه وبين السلطان أبي بكر. واستجيبت رغبة ابن مكي وقام السلطان المريني بالوساطة فعفا أبو بكر الحفصي عن عبد الملك بن مكي، وأقره على رئاسته بقابس «.. واستقام هو على الطاعة، وعدل عن سنن الطغيان والفتنة»[452].

ويبدو أن نجاح أحمد بن مكي في سفارته لدى البلاط المريني يرجع إلى مهارة أحمد بن مكي وقوة تأثيره في نفوس مخاطبيه. ويمكن استرواح

(452) العبر (6 :801).

ذلك من وصف ابن خلدون له من أنه كان له: «.. حظ من الخلال والأدوات ونفس مشغولة بالرئاسة والسرو، وكان يقرض الشعر فيجيد، ويرسل فيحسن. وكان خط كتابه أنيقاً ينحو به منحى الخط الشرقي ـ شأن أهل الجريد ـ فيمتع به ما شاء»[453].

وبإقرار عبد الملك بن مكي على قابس وإعلانه الانقياد للسلطة المركزية الحفصية ازداد نفوذ الأمير أبي العباس أحمد اتساعاً بانقياد الجنوب الشرقي إلى نفوذه كذلك. ولكن مطامحه كانت تهدف إلى توسّع أكبر. وبما أن جزيرة جربة تمكّن الحفصيون من استعادتها سنة 738 هـ بقيادة مخلوف بن الكمّاد فإن هذا الأخير بقي حاكماً عليها مستبدّاً بها. وكانت رغبة الأمير أبي العباس أن يضمّها إلى نفوذه. وقام بدور كبير في تحقيق ذلك، فأقنع ـ أولاً ـ والدَه السلطان أبا بكر بأن تكون جزيرة جربة تابعة لمنطقة نفوذه. وعمل ـ ثانياً ـ على التقرب من أحمد بن مكي وإقناعه بأن ينوب أخاه عبد الملك في الجزيرة. وكان أحمد بن مكي لا يميل إلى أبي العباس أحمد إذ كان يستريب في أمره ويشك في صدق معاشرته[454] بينما كان الأمير أبو العباس يعمل على إزالة ما عند أحمد بن مكي من مخاوف إلى أن سنحت الفرصة. فقد صادف أن عمّته أخت السلطان أبي بكر[455] عادت من الحج ونزلت بقابس فاجتمع في مجلسها أبو العباس أحمد وأحمد بن مكي. وأمكن للأمير الحفصي ـ أثناء ذلك الاجتماع ـ أن يزيل المخاوف التي كانت مستبدة بأحمد بن مكي «وأحكم له عقد مخالصته واصطنعه لنفسه فحلّ من إمارته بمكان غبطة واعتزاز، وعقد له السلطان على جزيرة جربة»[456] عوضاً عن القائد مخلوف بن الكمّاد. بينما بقي أخوه عبد الملك متولياً قابس. وبذلك تحقق

(453) العبر (6: 801).
(454) العبر (6: 801).
(455) سماها ابن خلدون «أمة الواحد».
(456) العبر (6: 802).

حلم الأمير أبي العباس ولي العهد عندما أصبح كامل الجنوب تحت نفوذه، كما تحققت خطة السلطان أبي بكر في أن تصبح السلطنة الحفصية بكاملها موزعة على أبنائه يتولّون شؤونها ولو تحت كفالة شخصيات سياسية عليا.

استيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان

إذا اعتبرنا استعادة الوحدة الحفصية من المكاسب التي تولّدت عن التحالف بين البلاط المريني والبلاط الحفصي، فإن مكاسب أبي الحسن المريني من ذلك التحالف كانت أكثر من مكاسب أبي بكر الحفصي. وإذا استفاد أبو بكر الحفصي من ذلك التحالف بتوحيد السلطنة وإبعاد خطر بني زيان فإن صهره أبا الحسن المريني لم يكتف بالقضاء على أخيه «علي» المتحالف مع أبي تاشفين صاحب تلمسان، بل بمجرد ما انتهى من ذلك «.. تفرغ لشأن تلمسان والانتقام من صاحبها أبي تاشفين الذي ضايق أصهاره من بني حفص، ونازعهم في ملكهم..»[457] وكان هذا السلطان قد «.. بعث لأول بيعته شفعاء إلى أبي تاشفين في أن يتخلّى عن عمل الموحدين (الحفصيين) ويرجع إلى تخوم أعماله التي ورثها عن سلفه، وقال له في جملة ذلك: كفّ عنهم ولو سنة واحدة ليسمع الناس أني نافحت عن صهري، ويقدروا قدري، فاستنكف أبو تاشفين من ذلك، وأغلظ للرسل في القول، وأفحش بعض السفهاء من عبيده في الرد عليهم بمجلسه. ونالوا من السلطان أبي الحسن بمحضره»[458] وكان هذا الموقف المتصلّب من صاحب تلمسان دافعاً بأبي الحسن المريني إلى الزيادة في الإصرار على نجدة

(457) الاستقصاء (3: 123).

(458) الاستقصاء (3: 123 - 124).

أصهاره الحفصيين والانتقام من أبي تاشفين الزياني. فجهز جيشاً جرّاراً سنة 735 وناصب مدينة تلمسان حصاراً شديداً. واستمات أبو تاشفين في الدفاع عن عاصمة ملكه ثلاث سنوات إلى أن كان اليوم السابع والعشرون من شهر رمضان 737 (أكتوبر 1337) استطاع بنو مرين فيه اقتحام الأسوار والاستيلاء على المدينة. وظل أبو تاشفين يقاتل أمام قصره مع أولاده إلى أن استشهدوا عن آخرهم في اليوم المذكور.

ماذا بعد استيلاء المريني على تلمسان؟

1 ـ مقتل حمزة بن عمر:

باستيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان تحقق حلم قديم كان يخامر أسلافه منذ تأسيس الدولة المرينية إذ تمّ بذلك القضاء على خصم تقليدي لتلك الدولة.

وقد ابتهج كثيراً أبو الحسن المريني باستيلائه على تلمسان وتغلّبه على بني زيّان فبعث برسائل الفتح إلى سلطان المماليك بمصر وغيره مصحوبة بهدايا ثمينة، وبعث له الملك الناصر محمد بن قلاوون، سلطان المماليك بمصر بهدية فاخرة عظيمة الشأن. وقد تحدثت ـ بإطناب ـ كتب التاريخ عن تلك الهدايا[459].

وأغرى هذا الانتصار المريني بعض خصوم السلطان أبي بكر الحفصي فأخذوا يحرضون أبا الحسن المريني على مواصلة انتصاراته شرقاً فيضم إليه السلطنة الحفصية مثلما فعل مع بني زيّان في تلمسان. وبذلك يصبح الوارثَ الفعليُّ لسلطنة الموحدين التي كانت تضم أقطار المغرب الإسلامي. وكان المتزعم لهذا التحريض حمزة بن عمر الذي وفد على أبي الحسن المريني وأخذ يحرّضه على امتلاك إفريقية مثلما فعل مع أبي تاشفين من قبله. ولكن أبا الحسن المريني لم يستجب لرغبته بل كان على العكس من ذلك إذ أخذ

(459) انظر الاستقصاء (3 :128 وما بعدها) وفيه نقول عن مصادر أخرى.

ينصحه بالكف عن مشاغبة الحفصيين. وضمن له سلامة عودته، وبعث بشفاعته فيه إلى السلطان أبي بكر الحفصي. وفعلاً تمّ له ذلك، وأجزل له أبو بكر الحفصي في العطاء، وأغدق عليه في الإحسان وأصبح حمزة بن عمر من الخاصة المقربين لدى البلاط الحفصي إلى سنة 742 هـ حيث مات قتيلاً بطعنة من أحد أبناء قبيلة الكعوب: فاغتاظ أبناؤه لذلك واتهموا السلطنة الحفصية بقتله فأعلنوا الانتقاض على الدولة واستنصروا ببني مهلهل ليقووا صفوفهم. وقد تمكنت القوات الحفصية ـ بعد عدة شهور ـ من القضاء على حركة الانتقاض تلك. وكان لانسحاب بني مهلهل من الميدان وانضمامِهم إلى طاعة السلطان الحفصي تأثير كبير في ضعف أولاد حمزة بن عمر وانهزامهم. وفي الأخير عادوا إلى الطاعة والانقياد للسلطة الحفصية.

2 ـ مطامح أبي الحسن المريني:

وفشلُ تحريضات حمزة بن عمر ضدّ أبي بكر الحفصي قد يدعو إلى التساؤل عمّا إذا كان أبو الحسن المريني عزوفاً فعلاً عن ضمّ السلطنة الحفصية إليه.

الواقع أن مطامح أبي الحسن المريني كانت أوسعَ من اقتصارها على رقعة المغرب الأقصى. فقد عبر نفوذه إلى الأندلس حيث توجد مملكة بني الأحمر في غرناطة، وهي المملكة التي ما فتئت تتعرّض لهجمات إسبانيا النصرانية قصد القضاء عليها نهائياً. وكانت مملكة قشتالة بزعامة (فرديناندو) الرابع قد استولت على جبل طارق منذ أواخر سنة 709 (مارس 1310). واعتبر سقوط جبل طارق في أيدي القوات القشتالية «أعظم نكبة منيت بها الأندلس منذ سقوط قواعدها الكبرى»[460] وأصبح وجود القشتاليين فيه شجىً في حلق الدولتين المرينية والأحمرية معاً[461]. ولم يكن وضع بني الأحمر في غرناطة

(460) نهاية الأندلس عبدالله عنان (122).
(461) الاستقصاء (3 :121).

على مستوى الأحداث والأخطار المحدقة بهم. بل كان تخاذلهم، وخلافاتهم الداخلية، وتآمر بعضهم ضد البعض من أهم الأسباب التي مهدت لسقوط جبل طارق، ولِمَا سوف ينتابهم فيما بعد.

وقد جرت الأحداث الداخلية في غرناطة إلى تدخل مباشر من السلطان أبي الحسن المريني في الأندلس؛ ففي سنة 732 هـ (1332) وفد على أبي الحسن المريني محمد بن إسماعيل بن الأحمر مستنجداً به ضدّ طغيان حركة الاسترجاع الإسبانية بقيادة «الفونصو الحادي عشر» ملك قشتالة، طالباً منه النجدة لاستعادة جبل طارق، واستجاب أبو الحسن المريني لتلك النجدة بجيش كبير جعل قيادته لابنه أبي مالك. واستطاع هذا الجيش استعادة جبل طارق واستقرّ في جنوب الأندلس. وقد رأت الممالك الإسبانية في ذلك تجديداً لما قام به المرابطون والموحدون من نجدة المسلمين بالأندلس ولهذا عزمت تلك الممالك على درء خطر بني مرين عنها فجهزت سنة (740 هـ 1339 م) أسطولاً مشتركاً من سفن قشتالة وأرغونة والبرتغال. واتجه الأسطول إلى مياه جبل طارق بقيادة الدون «جوفري تنوديو» ليمنع الإمدادات المرينية للجيش المغربي المقيم في الأندلس. وقد اعتبر البابا أن ذلك التكتل تحوطه القداسة الدينية فبارك الحملة المشتركة التي قامت بها ممالك إسبانيا النصرانية[642]. وقد انتهت تلك الحملة الإسبانية بهزيمة بني مرين ومقتل أبي مالك بن أبي الحسن المريني مما جعل هذا الأخير يقرر التوجه بنفسه إلى الأندلس، ويستعد لذلك أكبر استعداد. وبعث إلى صهره السلطان الحفصي يستنجد بمساعدته، فبعث إليه عدة أساطيل من طرابلس وجربة وقابس، وتونس وعنابة، وبجاية بقيادة زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية[463].

3 ـ هزيمة أبي الحسن المريني في معركة طريف:

وبالرغم من الاستعداد الكبير الذي اشتركت فيه أساطيل إفريقية

(462) نهاية الأندلس (127).

(463) الاستقصاء (3: 135).

الحفصية مع قوات بني مرين ومملكة بني الأحمر فقد انهزم المسلمون هزيمة شنعاء في جمادى الأولى وأكتوبر (741 هـ 1340 م) قتل فيها ما لا يحصى من المسلمين. واقتحم العدو فسطاط السلطان المريني، وفيه نساؤه وحريمُه والبعض من أولاده فقتلوا عن آخرهم ومثل بهم[464]. وفرّ أبو الحسن المريني ناجياً بنفسه إلى المغرب الأقصى، كما فرّ يوسف بن الأحمر إلى غرناطة. وقد اشتهرت هذه المعركة باسم «معركة طريف» التي تذكر بهزيمة الموحّدين في معركة العقاب سنة 1212/609 م.

وقد صادف أن هزيمة طريف أحدثت صلة أخرى بين البلاط الحفصي والبلاط المريني ذلك أن فاطمة بنت أبي بكر الحفصي وزوجة أبي الحسن المريني كانت من جملة النساء اللائي قتلن في معركة طريف. وسواء سايرنا صاحب الاستقصاء من أن أبا الحسن المريني لما فقد فاطمة الحفصية «بقي في نفسه منها حنين إلى ما شغفته به من خلالها ولذاذة العيش في عشرتها فسما أمله في الاعتياض عنها ببعض أخواتها»[465]، أو أن السلطان المريني أراد أن يبقى على صلةٍ متينةٍ بالبلاط الحفصي ليستغلّ تلك الصلة يوماً مّا في تحقيق مطامحه السياسية، فإن الذي حصل هو أنه بعث وفداً من خاصة رجاله يخطب له بنتاً ثانية من بنات السلطان أبي بكر الحفصي. وحاول هذا الأخير الامتناع من تجديد المصاهرة «.. صوناً لحرمه من جولة الأقطار وتحكم الرجال مثلما وقع في ابنته الأولى» حسب تعبير السلاوي في الاستقصاء[466] إلّا أن حاجبه ابن تافراجين «.. لم يزل يخفض عليه الشأن، ويعظم عليه حقّ السلطان أبي الحسن في ردّ خطبته مع ما بينهما من الصهر السابق، والمخالصة القديمة والعهود المتأكدة»[467] إلى أن استجاب أبو بكر الحفصي

(464) الاستقصاء (3 :136).
(465) الاستقصاء (3 :153).
(466) المصدر السابق.
(467) المصدر السابق.

واقتنع في نهاية الأمر فوافق على تزويجه بابنته عزّونة شقيقة ابنه أبي العباس الفضل المتولّي على عناية[468]. وأوكل لابنه الفضل أن يصاحب أخته عزونة حتى تزف إلى أبي الحسن المريني بعد أن بذل الحاجب ابن تافراجين كل الجهود في تجهيز العروس أتمَّ تجهيز أناقةً واحتفالاً وكثرةً.

(468) المصدر السابق.

وفاة أبي بكر الحفصي وعودة الفوضى

ومن غريب الاتفاق أن يحصل بهذه المناسبة ما يشبه ما حصل في الخطبة الأولى؛ فقد ذكرنا - إذ ذاك - أن والد العريس (أبي الحسن المريني) توفّي عند اقتباله لفاطمة الحفصية وقبل أن تزف إلى ابنه، وهي في طريقها إلى فاس. أما هذه المرة فقد توفي والد العروس (أبو بكر الحفصي) وابنته عزونة ما تزال في طريقها إلى أبي الحسن المريني، وقبل أن تزف إليه؛ فقد توفي السلطان أبو بكر الحفصي فجأة في اليوم الثاني من رجب 747 (أكتوبر 1346 م) والناس - كما يقول ابن خلدون - في غفلة من الدهر، وظلٍّ ظليل من العيش وأمنٍ من الخطوب تحت سرادق من العز وذمة واقية من العدل، إذ ريع السرب، وتكدّر الشرب، وتقلصت ظلال العز والأمن، وتعطل فناء الملك، ونعي السلطان أبو بكر فجأة من جوف الليل، فهبّ الناس من مضاجعهم متسائلين إلى القصر يستمعون نبأ النعي. وأطافوا به سائر ليلتهم تراهم سكارى وما هم بسكارى»[469].

هذا ما قاله ابن خلدون عن موت السلطان أبي بكر الحفصي. وكان هذا الإطناب - وحتى المبالغة - يرجع إلى ما ذكرناه من وجود استقرار نسبي خاصة في العهد الثاني من مدّة حكم هذا السلطان التي امتدت من 718 هـ إلى 747 هـ تنفّس فيها الناس الصعداء لهول ما كان قبله من فتن وثورات،

(469) العبر (6: 807) وانظر الزركشي (79).

وتقلّبات ونزاع على الحكم، ورؤوس تطالب بالسيادة على العرش الحفصي دون أن يتمكّن واحد منهم من الحفاظ على وحدة الدولة والتغلب على المنشقين والثائرين.

وبقطع النظر عما تعرضنا إليه من مظاهر الوهن أو الضعف التي كانت تنتاب عهد السلطان أبي بكر فإنَّ ما قام به من إعادة توحيد السلطنة وقمع الثورات، وخضد شوكة القبائل والأعراب، واسترجاع جزيرة جربة من الاحتلال الأجنبي كان كلٌّ ذلك خيرَ مبرر للتنويه الكبير الذي أضفاه المؤرخون ورواة الأحداث على السلطان أبي بكر الحفصي حتى اعتبر عندهم واسطة عقد السلطنة الحفصية، وساد الرخاء والأمن في عهده. وقد ذكر ابن أبي دينار في «المؤنس» أنه كان في عهده أزيد من سبعمائة حانوت للعطارة. وكان يصنع بتونس كل يوم أربعة آلاف قفيز من القمح: ألف تبلّ، وألف تطحن، وألف تغربل، وألف تعجن. وزهت البلاد في أيامه»[470].

مرّ علينا في الصفحات السابقة أن أبا بكر الحفصي أقرّ أبناءه ولاةً على مختلف عواصم السلطنة الحفصية بقسميها الشرقي والغربي على حدّ سواء. وكان قد جعل ولاية العهد لابنه أبي العباس أحمد المتولّي على مناطق الجنوب بكاملها. ولكن ما إن توفّي السلطان أبو بكر فجأة حتى دبرت المؤامرات ضدّ ولي العهد الذي كان موجوداً في الجنوب. ولعلّ هذا لم يكن ليحصل لو أن المرض طال بالسلطان أبي بكر حتى يجتمع حوله أبناؤه، لا سيما ولي العهد. ولكن المفاجأة وغياب ولي العهد سهّلا تدبير المؤامرة ومخالفة وصية السلطان الهالك فحوّلت ولاية العهد عن صاحبها الأول. وقد تولّى تدبير هذا التحويل الحاجب ابن تافراجين مع أحد أبناء السلطان هو أبو حفص عمر الذي كان موجوداً إذ ذاك بالعاصمة. ويتحدث عن ذلك الزركشي بقوله: «لما مات السلطان بادر [أبو حفص عمر] بملك القصر. وضبط أبوابه وبعث للقاضي ابن عبد السلام وقاضي الأنكحة الآجمي فقال لهما:

(470) المؤنس (128).

تبايعانني. فقالا له: نحن شهدنا في بيعة أخيك أحمد صاحب قفصة فأعطنا شهادتنا نقطعها فحينئذ نشهد في بيعتك. قال الشيخ ابن عرفة فخاض الناس بعضهم في بعض وهم جلوس في القبة الكبرى فأمر الحاجب (ابن تافراجين) ألّا يخرج أحد من القبة، وفسخ المجلس بقوله للقاضيين: نحن نمشي نشتغل بمؤنة دفن السلطان. وحينئذ نجتمع. واستدعى وجوه الموحدين وبعض وجوه البلد. وأخرج لهم الأمير عمر فبايعوه. وما شعر القاضيان ومن معهما حتى سمعوا جلبة الطبول والبوقات والسلام. فقالوا: ما هذا؟ فقيل: قد بايع الناس الأمير عمر. واستدعي القاضيان ومن معهما فرأوا تمام القضية، ووقوع البيعة وانعقادها من الجم الغفير. فكتبت وثيقة بعقد البيعة للأمير عمر لاختيار العامة والخاصة إياه عن وليّ العهد..»[471].

تلك هي الصورة التي تمت بها عملية تحويل البيعة عن ولي العهد الأصلي أبي العباس أحمد المتولي على قفصة والجنوب بكامله. فإلى ماذا كان يهدف ابن تافراجين بتلك المؤامرة. هل كان يهدف إلى إبقاء حجابة السلطان عنده مثلما كانت في عهد أبي بكر الحفصي أم كانت له أهداف أخرى؟

وفي الوقت الذي دبّرت فيه مؤامرة البيعة الحفصية لفائدة أبي حفص عمر كان أحد إخوته موجوداً في العاصمة هو الأمير أبو البقاء خالد المتولي على المهدية إذ كان في زيارة استراحة مقيماً برياض أبي فهر برأس الطابية. وما إن بلغه ما تمّ من أمر البيعة حتى بادر بالهروب «في نفر من أتباعه وخدّامه فتبعه عرب أولاد منديل من قبيلة الكعوب مظهرين أنهم في خدمته. فلما أصبح قبضوا عليه وجاؤوا به إلى أخيه أبي حفص عمر فاعتقله وأودعه السجن»[472].

وببيعة أبي حفص عمر، الذي تلقب بلقب «الناصر لدين الله» دخلت

(471) الزركشي (80) والعبر (6: 808).
(472) الزركشي (80).

البلاد من جديد في الفوضى والاضطرابات. لأن أبا العباس أحمد لم يقف مكتوف اليدين أمام حادث البيعة فما إن بلغه الخبر حتى استعدّ لاسترداد حقه في السلطنة الحفصية، فدعا الأعراب إلى مناصرته فالتفّت حوله جموع غفيرة سار بهم من قفصة صوبَ تونس. وفي القيروان التقى به أخوه أبو فارس عزوز المتولّي على سوسة فبايعه وانضم إليه بمن معه من القوات.

واستعد أبو حفص عمر لصدّ هجوم أخويه أبي العباس وأبي فارس. ولكن فرار حاجبه ابن تافراجين عنه ـ قبيل التقاء الجمعين ـ واختلال صفوف جيشه جعلاه يبادر بتغيير خطته، ويفضل عدم مجابهة جيوش خصومه فانحاز إلى باجة تاركاً الطريق مفتوحة إلى تونس العاصمة فدخلها أبو العباس أحمد في الثامن من رمضان سنة 747 (ديسمبر 1346 م) ونزل برأس الطابية. وبادر بإطلاق سراح أخيه أبي البقاء خالد. وتقبّل البيعة من الناس وتلقب بالمعتمد على الله[473] وظلّ سبعة أيام برأس الطابية. ثم انتقل إلى القصر السلطاني بالقصبة.

(473) الزركشي (81).

الفصل السّادس

استيلاء أبي الحسن المريني على الحفصيّة التونسيّة

تدخل أبي الحسن المريني في شؤون إفريقية

1 ـ أبو حفص عمر يقتل إخوته:

كان انتقال أبي العباس الحفصي إلى القصر السلطاني يحمل مفاجأة لعلّه لم يكن يتوقعها، أو لم يحسب لها حساباً، ذلك أن أبا حفص عمر ـ الذي لم يجابه جيوش أخويه وفضّل الانحياز إلى بجاية ـ إنما كان يهدف من وراء ذلك إلى تنظيم جيشه الذي اختلّ بعد خيانة حاجبه ابن تافراجين. ولهذا فما إن تمّ له الاستعداد والتنظيم حتى قرر الزحفَ على تونس دون أن يكون أخوه (أبو العباس أحمد) متفطّناً لذلك، ففي فجر السادس عشر من رمضان كان أبو حفص عمر محاصراً للعاصمة «.. وفرّق خيْله ورَجْلِهِ على أبواب المدينة. وكسرت الأقفال وفتحت الأبواب[474] واقتحمت جيوشه المدينة واستولت عليها فانقاد إليه عامّة الناس وانضمّوا إليه». ويعلّل ابن خلدون انضمام العامّة إلى أبي حفص عمر بما كان يتمتّع به هذا الأخير عندهم من محبّة له، وعطف عليه؛ لأنه كان يغشى أسمارهم، ويطرق منازلهم أيامَ جنون شبابه وقضاء لذاته[475] فكان هذا ـ إذن ـ من الأسباب التي ساعدت أبا حفص عمر على احتلال العاصمة بتلك السهولة. ولم يأت وقت الضحى حتى استولى عليها، واقتحم القصر وقتل أخاه الأمير أحمد، ونصب رأسه على قناة. وقطع أيدي أخوَيْه الآخريْن: أبي البقاء خالد وأبي فارس

(474) الزركشي (81).

(475) العبر (6 :809).

عزّوز فمات عزوز في الحين وأجهز على خالد حتّى قتل[476] ويذكر الزركشي أنه «قُتِل في ذلك اليوم في المدينة وفي الرّبض نيّف وثمانون رجلاً من العرب الواصلين صحبة أبي العباس أحمد بتونس منهم أبو الهول بن حمزة بن عمر بن أبي الليل[477]. وهكذا أُسْدِلَ الستار على سلطنة أبي العباس أحمد التي لم تدم إلّا سبعة أيام. وظن أبو حفص عمر أن الأمر استتبّ له غير متوقع لما قد يترتّب على فتكه بإخوته سواء داخلَ البلاد أو خارجَها. وكان أهمّ شيء في ذلك هو موقف أبي الحسن المريني من الحالة في السلطنة الحفصية. وقد ذكرنا سابقاً أن المصاهرة الثانية التي تمّت بين أبي الحسن المريني وأبي بكر الحفصي لم تكن تهدف إلى مجرّد نزعة عاطفية، بل كانت فرصة أخرى لتجعله ذَا صلةٍ وُثْقَى بالبلاط الحفصي يستغلّها يوماً مّا في سبيل تحقيق مطامحه السياسية باعتباره الشخصية الأولى في رجالات المغرب الإسلامي إذ ذاك. ولم يكن هذا الهدف خافياً على الكثير من مؤرخي تلك الفترة. وقد أفصح عن ذلك ابن خلدون عندما قال: كان السلطان أبو الحسن يحدِّث نفسه ـ منذ ملك تلمسان وقبْلَها ـ بملك إفريقية، ويتربّص بالسلطان أبي بكر، ويسرّ له حسواً في ارتغاء [478]. وكان يتمنّى تحقيق ذلك لولا مكانةُ صهره أبي بكر الحفصي عنده[479]. وقد أعلَنَ عن اهتمامه بما حصل في إفريقية منذ بلوغ الخبر إليه. وأعلم الفضلَ بن أبي بكر الحفصي ـ الذي جاء صحبة شقيقته عزّونة ـ بأنه ـ سوف يساعده على اكتساب تراث أبيه.

2 ـ تحريضات ابن تافراجين:

كان أول الواصلين إلى قصر أبي الحسن المريني ـ قصد طلب التدخل

---

(476) الزركشي (81).

(477) المصدر السابق.

(478) العبر (6: 811).

(479) الاستقصاء (3: 155).

في إفريقية وامتلاكها ـ أبا محمد عبدالله ابن تافراجين، الحاجب السابق لأبي بكر الحفصي ثمّ لابنه أبي حفص عمر من بعده. وقد رأينا ـ في حينه ـ أن هذا الحاجب هو الذي سعى إلى نقض وثيقة ولاية العهد حتى تولّى السلطنة أبو حفص عمر ليستمرّ هو في خطة الحجابة. إلاّ أن ابن تافراجين سرعان ما قلب لسيِّده ظهر المجن وفرّ عنه عندما جاءت جيوش أبي العباس أحمد من الجنوب لاحتلال العاصمة. وسرعة انتقال ابن تافراجين إلى أبي الحسن المريني لتحريضه على غزو إفريقية الحفصية توجب وضع علامة استفهام كبيرة حول دور ابن تافراجين وحول علاقاته بالبلاط المريني. وقد مرّ علينا كيف أن المصاهرة الثانية إنما تمّت إثر جهود كبيرة بذلها ابن تافراجين ليقنع أبا بكر الحفصي بقبول تلك المصاهرة. وكان على صلةٍ وثيقةٍ بالوفد المريني الذي قدم إلى تونس خاطباً عزونة الحفصية، فهل تمّ بينه وبين الوفد المريني ـ منذ ذلك الوقت ـ الاتفاق على إحداث الشغب والشقاق بين أبناء أبي بكر الحفصي حتى يجد السلطان المريني ذريعةً للتدخل؟ إن الشبهة قوية في توجيه تلك التهمة، ولو أن المؤرخين القُدَامى لم يشيروا إلى ذلك، وهي تهمة لا تستبعد الأحداث التي جرت توجيهها إلى ابن تافراجين.

ومهما يكن فقد أحسن السلطان المريني اقتبالَ ابن تافراجين واتخذ من مقدمه حجة أخرى لتحقيق مطامحه في امتلاك إفريقية الحفصية إذ «قوي عزمه على ذلك»[480].

3 ـ استعداد المريني وتحريضات أخرى:

بعد وصول ابن تافراجين إلى تلمسان التحق به خالد بن حمزة بن عمر شقيق أبي الهول الذي قتل مع أحمد الحفصي. وأخذ هو بدوره يحرّض أبا الحسن المريني في الاستعداد على غزو إفريقية واعداً إياه بالتأييد والمساعدة. وشرع السلطان المريني في الاستعداد الكبير لهذه الحملة

(480) الزركشي (82).

الواسعة المدى والبعيدة المسافة».. وفتح ديوان العطاء ونادَى في الناس بالمسير إلى إفريقية. ثم عسكر بظاهر تلمسان حتى اجتمعت عساكره وتهيأت جنودُه. وفي شهر صفر من سنة 748 تحرّك الجيش المريني يجرّ الدنيا بما حملت[481] في اتجاه إفريقية الحفصية. وفي الطريق تقاطر عليه المبايعون والمؤيدون من قادة القبائل وولاة الجهات في السلطنة الحفصية، ففي وهران جاءه وفد مشترك يضم ابنَ مكيّ صاحبَ قابس، وابنَ يملول صاحبَ توزر، وابنَ العابد صاحب قفصة، ومولاهم ابن أبي عنان صاحبَ الحامّة وابنَ الخلف صاحب نفطة. وتخلّف صاحب طرابلس لبعده فنابوا عنه في التأييد والمبايعة[482].

وفي قسنطينة وفد عليه بنو حمزة بن عمر بن أبي الليل ومشائخ قومهم من قبيلة الكعوب وأخبروه بأن أبا حفص عمر المتولّي على سلطنة إفريقية غادر مدينة تونس عندما سمع بتوجهه إليها. وقد فرّ عنها صحبة جماعة من أولاد مهلهل. وطلبوا من السلطان أبي الحسن المريني أن يرسل معهم الأمداد حتى يدركوا أبا حفص عمر وَمَنْ انضمّ إليه قبل أن يتوغّلوا في القفار ويصعب اللحاق بهم فاستجاب أبو الحسن المريني لطلبهم وأرسل معهم جيشاً بقيادة حمّو العشري من مواليه.

(481) العبر (6 :812).

(482) العبر (6 :812).

زحف أبي الحسن المريني على إفريقية

تابع أبو الحسن المريني سيرَه في الحفصية الغربية ولم يجد امتناعاً من سكّانها والمسؤولين فيها إلاّ في مدينة بجاية حيث كان عليها ـ إذ ذاك ـ أبو عبدالله محمد بن أبي زكرياء الحفصي. فقد حاول هذا الأمير مع أتباعه الامتناع عن فتح أبواب بجاية أمام الجيوش المرينية. وهو امتناع لم يستمرّ إلاّ قليلاً إذ سرعان ما أعلن صاحبُ بجاية طاعته وانقيادَه لأبي الحسن المريني. وكان هذا الموقف المتردّد من أمير بجاية الحفصي دافعاً بأبي الحسن المريني إلى اتخاذ الحذر من أفراد العائلة الحفصية فقرر إبدالَ المسؤولين من تلك العائلة بمن له فيهم ثقة من أتباعه وقادته. وبموجب ذلك بعث بمحمد بن أبي زكرياء الحفصي وإخوته إلى المغرب الأقصى «وأنزله ببلد ندرومة، وأقطع له الكفاف من جبايتها» وهو نفس الشيء الذي فعله مع أحفاد السلطان أبي بكر في قسنطينة عندما بعث بهم إلى المغرب وأنزلهم بمدينة وجدَة وأقطع لهم جبايتها[483].

وفي قسنطينة أخذ أبو الحسن المريني يستعدّ للمرحلة الأخيرة من توجهه إلى تونس فبعث ـ قبله ـ بجيشين في سبيل التمهيد لذلك. أمّا الجيش الأول فكان بقيادة حمّو بن يحيى مصطحباً معه أولاد حمزة بن عمر أحد زعماء الكعوب الذين جاؤوا إلى السلطان المريني ـ وهو في قسنطينة ـ طالبين

(483) العبر (6 :813).

تدخّله في شؤون السلطنة الحفصية، عارضين عليه مساعدتَهم له في تعقّب آثار عمر الحفصي. وسار هذا الجيش إلى الجنوب التونسي حيث يوجد عمر الحفصي فأدركوه بموضع يعرف بـ«المباركة» بقرب جبل السباع[484] فأدركه في جهات حامّة قابس حيث جرت معركة حاسمة انتهت بهزيمة عمر الحفصي بعد أن خذله من كان معه من الجنود. وحاول عمر الحفصي النجاة بنفسه. لكنّ كبوة جواده في حفرة أحد اليرابيع جعلته يواصل الفرار على رجليه فقبض عليه حمّو بن يحيى مع مولاه ظافر السنّان وقتلهما ذبحاً. ثم بعث برأسيهما إلى السلطان أبي الحسن عندما وصل مدينة باجة وهو في طريقه إلى مدينة تونس.

وكان مآل الذين فرّوا من تلك الهزيمة والتجأوا إلى قابس - وهم كبراء دولة عمر الحفصي - أن قبض عليهم عبد الملك بن مكّي صاحب قابس، وبعث بهم مقيّدين في الأصفاد[485] إلى السلطان أبي الحسن الذي قطعهم من خلاف وعاملهم معاملة الحرابة حسب الفتوى التي أفتاها له الفقهاء[485]. وكان على رأس أولائك الذين نالهم العقاب والتنكيل. أبو القاسم بن عتّو وصخر بن موسى، وعلي بن منصور[486] وغيرهم من كبار مشيخة الموّحدين.

(484) الزركشي (83).
(485) الاستقصا (3 :156).
(586) المصادر السابقة. والعبر (6 :814).

استيلاء أبي الحسن المريني على تونس

كانت معركة «المباركة» منهية لسلطنة عمر الحفصي. وهي سلطنة استمرّت عشرة أشهر وخمسة وعشرين يوماً منها الأيام السبعة التي تولاّها أخوه أبو العباس أحمد.

أمّا الجيش الثاني الذي بعث به السلطان أبو الحسن المريني فكانت وجهته تونس العاصمة. وكان هذا الجيش بقيادة زوج ابنته يحيى بن سليمان العسكري ولم يجد هذا الجيش مقاومةً تذكر بعد أن أحاط برّاً وبحراً بمدينة تونس التي فتحت له أبوابها. وخرج الوجهاء والعلماء والأعيان يترقبون وصول أبي الحسن المريني في جمادى الثانية وسبتمبر سنة 748 هـ/1347 م. وكان دخوله لتونس في احتفال كبير وأبّهة فاخرة. وينقل صاحب «الاستقصا» وصف ذلك الدخول بقوله: «.. وتلقاه وفد تونس وشيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشورى فآتوه طاعتهم وانقلبوا مسرورين بولايته، مغتبطين بملكه». وكانت تونس ـ يومئذ ـ مشحونة بالأعلام الأكابر منهم: ابن عبد السلام، وابن عرفة، وابن عبد الرفيع، وابن راشد القفصي، وابن هارون، وأعلام آخرون. ثمّ عبأ السلطان أبو الحسن ـ يوم السبت ـ مواكبه لدخول الحضرة، فصفّ جنودَه سماطين من معسكره بالسّيجومي إلى باب البلد نحو أربعة أميال. وركبت بنو مرين من مراكزهم من جموعهم وتحت راياتهم...، وهدرت طبوله، وخفقت راياته. وكانت يومئذ نحو المائة. وجاء السلطان والمواكب تجتمع عليه صفّاً صفّاً إلى أن وصل البلد، وقد ماجت الأرض بالجيوش حتى قال

ابن خلدون: وكان يوماً لم يُرَ مثله فيما عقلناه. وقد كان ابن خلدون ـ إذ ذاك ـ فتى في السادسة عشرة من عمره[487].

ودخل السلطان المريني مدينة تونس صحبة ابن تافراجين. وأعطاه فرسه ولجامه. ثم دخل معه غرف قصور بني حفص في القصبة فطاف بها غرفةً غرفةً ومن قصر القصبة اتجه ـ في الطريق الخاص بآل بني حفص ـ إلى رياض أبي فهر برأس الطابية، واطلع على ما فيها من عجائب وآثار. ثم نصّب حاكماً على تونس قائدَه وصهره يحيى بن سليمان الذي كان قد سبقه على رأس جيش لاحتلال العاصمة. ولم يطل مكث أبي الحسن المريني في مدينة تونس فارتحل عنها بعد مدّة قليلة[488] ليقوم بجولة داخل البلاد فزار القيروان وسوسة والمهدية كأنه يريد بذلك الإطلاع على العواصم الإسلامية الأولى لإفريقية خاصة القيروان والمهدية، ولو أن المصادر التاريخية تحيط تلك الزيارة بهالة من التبرّك بزيارة الأولياء والصالحين[489] وقد استمرّت تلك الجولة إلى غرّة رمضان من نفس السنة. ثم عاد إلى العاصمة وشرع في ترتيب شؤون سلطنته الواسعة التي امتدّت من مصراتة إلى السوس الأقصى وإلى رندة بالأندلس.

---

(487) الاستقصا (3: 156/157).

(488) الزركشي (83) وفي الاستقصاء (3: 157) «بعد يوم».

(489) الاستقصا (3: 157).

المريني يجمع تراث الموحدين

وباستيلاء أبي الحسن المريني على السلطنة الحفصية يكون قد جمع مخلّفات الدولة الموحّدية في عز مجدها. واكتسب شهرةً عريضةً في العالم الإسلامي حتى أصبحت سلطنة المماليك ـ في مصر والشام ـ تخشى بأسه وتحذر قدومَه[490] نظراً لاتساع مطامحه نحو المشرق بالذات. وهو المعنى الذي ذكره أحد الشعراء الذين امتدحوه بمناسبة انتصاراته في المغرب الإسلامي فقد قال الشاعر أبو القاسم الرّحوي في مطلع قصيدة له:

أجابك شرقٌ إذ دعاك ومغربُ فمكة هشّت للقاء ويثربُ[491]

ولكن مهما كانت الافتراضات حول طموح أبي الحسن المريني إلى المشرق الإسلامي فإن ذلك الطموح لم يصل إلى الدرجة التي كانت عند عبد المؤمن بن علي، كما أنّ سمعةَ المريني لم تصل إلى المستوى الذي وصلت إليه سمعة «الخليفة» الموحّدي. هذا بالإضافة إلى اختلاف الأوضاع السياسية والعسكرية في كلّ من المشرق والمغرب، ففي المشرق الإسلامي استطاع سلاطين المماليك أن يحققوا الكثير من الانتصارات على بقايا الصليبيين في الديار الشامية، ولم يبقوا في حاجة إلى التطلّع نحو المغرب الإسلامي وما فيه من قوى لتساعدهم على درء الخطر مثلما كان الأمر من

---

(490) المصدر السابق.

(491) الاستقصا (3: 158).

قبل. أمّا الوضع في المغرب الإسلامي فكان على العكس من ذلك إذ لم تستطع الدولة المرينية ولا الدولة الحَفصية مساعدةَ مسلمي الأندلس على الصمود أكثرَ أو على الاحتفاظ بأراضيهم مثلما فعل المرابطون والموحّدون إبّان مجدهم وعزّ سلطانهم. وكان أبو الحسن المريني نفسُه يمثل الهزيمةَ والتراجع أمام حركة الاسترجاع الإسبانية. وكانت هزيمة «طريف» تمثل المعركة الحاسمةَ التي أوقفت زحف بني مرين على الأندلس، وخضدت شوكتهم وفلّت من طموحهم في الأندلس. هذا بالإضافة إلى أن سيطرةَ أبي الحسن المريني على المغرب الإسلامي لم يكتب لها من البقاء والطول ما يسمح لها بأن تصبح محطّاً للآمال أو مجلبةً للأنظار كما يأتي بيانه.

أبو الحسن المريني في تونس

1 ـ صعوبة الاستقرار والتنكر للعهد:

رغم كثرة الانقسامات، وكثرة الوفود التي ذهبت إلى أبي الحسن المريني في تلمسان تحرّضه على غزو إفريقية الحفصية، وضمّها إلى سلطنته الواسعة فإن أبا الحسن المريني لم ينعم بالاستقرار، ولم تطل مدّة استيلائه على سلطنة بني حفص. ولعلّ أهمّ الأسباب في ذلك تعودُ إلى سياسة أبي الحسن المريني نفسه في أسلوب معاملته لرجال السلطنة الحفصية حتى أولائك الذين كانوا ينظرون إليه باطمئنان، أو كانوا طامعين في تلقّي المعونة منه، أو إحلالهم المناصبَ العليا في الدولة والإدارة. وكان موقف أبي الحسن المريني مع أصهاره (أولاد أبي بكر الحفصي) يتلاقى مع نقطة الضعف التي سلكها نحوَ رجال الدولة الحفصية مِمّن لم يناصبوه العداء أو ممّن انقادوا إليه عن طواعية.

وكانت سياسته مع أصهاره الحفصيين تتمثل في إبعادهم عن مباشرة السلطة والابتعاد بهم عن مركز السلطنة الحفصية. وهذا ما فعله مع حفصييي بجاية الذين أرسل بهم إلى ندرومة، وحفصييي قسنطينة الذين أرسل بهم إلى وجدة. ولعلّ موقفه من صهره أبي العباس الفضل بن أبي بكر الحفصي كان من أهم الأسباب التي ساعدت على التعجيل بانقضاء سيادة المريني على إفريقية.

ومعلوم أن أبـا العبـاس الفضل هو الذي صاحب شقيقتَه عزونة عندما زفّت إلى أبي الحسن المريني. وعندما بلغت أخبار الفتنة إلى تلمسان بعد وفاة السلطان أبي بكر وعَد أبو الحسن المريني صهرَه أبا العباس بأنه سوف يساعده على اكتساب حقّه في ملك أبيه. وعلى ذلك العهد سارا معاً إلى إفريقية. وذلك يعني أن المريني سوف لا يفعل مع أبي العباس الفضل ما فعله مع إخوته وأبنائهم عندما أبعدهم إلى المغرب الأقصى على الأقل. لكن غاية ما فعله معه أنه أبقاه أميراً على عنابة مثلما كان أميراً عليها في حياة والده. واعتبر أبو العباس الفضل أن ذلك لا يتماشى مع الاتفاق الذي تمّ بينه وبين السلطان المريني، وأنّ هذا الأخير تنكّر لعهده مستنكفاً أن يعيد له ملك آبائه وأجداده فأسرّ الأمر في نفسه واقتنع - مؤقتاً - بإمارته على عنّابة، مترقّباً الفرصة السانحة التي تسمح له بالإعلان عن موقفه، والتصريح بما يكنه لصهره السلطان المريني[492].

2 - ابن تافراجين أيضاً:

شخصية أخرى كانت تعقد الآمال العريضة على أبي الحسن المريني هي شخصية ابن تافراجين التي «كان يظن أنّ السلطان أبا الحسن سيكل إليه أمر إفريقية، وينصب معه [أبا العباس] الفضل للملك. وربما زعموا أنه عاهده على ذلك»[493]. ولكن ابن تافراجين خابت آماله عندما أُبْعِدَ الفضل عن تولّي السلطنة على إفريقية بإبقائه أميراً على عنّابة فقط وفوق ذلك فإن ابن تافراجين كان متعود النفوذ الواسع والتفويض الكامل في مباشرة الإدارة عندما كان حاجباً للسلطان أبي بكر. وعندما استولى السلطان المريني على تونس وقلد منصب الوزارة لابن تافراجين لم يعطه من النفوذ والسطوة مثلما كان تعوّده في عهد السلطان أبي بكر. ولكلّ هذه الاعتبارات فإنّ ابن تافراجين لم يكن راضياً عن الوضـع الجديد، وأصبح يشعر بالكراهية والحقـد على

(492) العبر (6 :815).
(493) العبر (6 :818).

السلطة الجديدة[494]. وهكذا قَبِلَ الاستمرارَ في منصبه على مضض. وظل ينتظر الفرصة السانحة للانتقاض مثلما ينتظر ذلك أمير عنّابة الحفصي.

3 ـ موقف النخبة والقبائل:

يضاف إلى ما تقدم شعور النخبة من رجالات الدولة الحفصية بأن بني مرين كانوا يعتمدون ـ أساساً ـ على رجالهم يولونهم الحظوةَ والامتيازات في المناصب والوجاهة. وفي ذلك إبعادٌ لتلك النخبة، وتنقيصٌ من شأنها مما ولّد شيئاً من الاحتراز ـ على الأقل ـ ضد السيادة المرينية على إفريقية[494].

وهكذا يبدو أن الجوّ النفسي لدى المسؤولين الحفصيين كان يترقّب الشرارة الأولى التي توقد النّار حتى يزيدوا من إذكائها. ولم تكن الشرارة المنتظرة سوى العلّة المزمنة التي تولّدت عنها الأزمات، وتوالت بها الفوضى والاضطرابات. وهي موقف القبائل والأعراب من الحكم في البلاد. فقد كان هؤلاء الأعراب شجىً في حلق كلّ حاكم لا يقرّ لهم قرار ولا تقف مطالبهم عند حدّ مِمّا جعلهم يتمتّعون بالكثير من العطايا والنفوذ على مناطقهم تملّقاً لهم من السلطة المركزية وخوفاً من بأسهم وتسكيناً لثائرهم وكان وضع القبائل والأعراب في إفريقية على عكس وضعهم في المملكة المرينية مِمّا جعل السلطان أبا الحسن المريني غير قابل لهذا الوضع الذي عليه القبائل في إفريقية، فعزم على أن يجعل حدّاً لذلك بمنعه الإقطاعات التي كانت لهم من ملوك بني حفص، وتعويضها بعطايا تفرض لهم من ديوان السلطنة مثل بقية الجنود، كما استكثر الجبايات التي كانوا يفرضونها على النّاس فنقّص منها «بعد أن شكت إليه الرّعية من أولائك الأعراب وما ينالونهم به من الظلامات، وضروب الأتاوة التي يسموّنها «الخفارة» فقبض أيديهم عن ذلك كلّه وتقدّم إلى الرّعايا بمنعهم منها[495].

---

(494) انظر برنشفيك (1 :167).

(495) الاستقصا (3 :158).

ومن الطبيعي أن هذا الإجراء الجديد سوف لا يرضى عنه العربان فبدأت الحالة تسوءُ بينهم وبين السلطان المريني، وتهيأ زعماء تلك القبائل لانتهاز أيّة فرصة لتغيير الوضع الجديد. وكانت الأخبار ـ أثناء ذلك التوتر ـ تتوارد على السلطان المريني من أن الأعراب زادوا من إشاعتهم للفوضى واضطراب الأمن حتّى وصل بهم التحدّي إلى الإغارة على ضواحي مدينة تونس، واستولوا على دوابّ بني مرين بما فيها دوابّ ومواشي أبي الحسن المريني نفسه، فعظم ذلك في نفسه ورأى أنّ تحدّي الأعراب له بلغ منتهاه فازداد حقداً عليهم. وخاف زعماء الأعراب من بطشه بهم فجاءه وفد منهم ـ أيّام عيد الفطر ـ يهنؤونه بالعيد ـ، ويلتمسون الأعذار لما فعله السفهاء منهم. وقبل أبو الحسن المريني اعتذارهم و«أحسن لقاءهم غاضّاً الطرف عمّا حصل من غوغائهم»[496] وكان وفد التهنئة يتكوّن من خالد وأحمد ابني حمزة من أولاد أبي اللّيل، وخليفة بن مسكين، وخليفة بن أبي زيد من أولاد حكيم[497].

4 ـ الأعراب يبحثون عن زعيم حفصي:

وبالرّغم من حسن الوفادة وكرم القبول اللذين قابل بهما أبو الحسن المريني زعماء الأعراب فإن هؤلاء توجسوا منه خيفة ولم يطمئنوا إليه، وإلى ما وعدهم به من قبول العذر والتسامح معهم، ولهذا أخذوا يبحثون عن نوع آخر من الشغب يتمثل في البحث عن بقايا العائلة الحفصية ممّن يمكن أن يستجيب لهم في الانتقاض على أبي الحسن المريني بمبايعته سلطاناً حفصيّاً على إفريقية، واتخاذه ذريعةً شرعية لمحاربة بني مرين. وصادف أن كان يوجد في تونس، وصحبة السلطان المريني، عبد الواحد بن اللّحياني فحاولوا استمالتَه، واستعمالَه لتنفيذ خطتهم. ويجدر أن نعيد إلى الأذهان أن عبد الواحد بن اللّحياني قام بثورة ضد السلطان أبي بكر واستطاع احتلال تونس لفترة قصيرة. ثم فرّ عنها والتجأ إلى صاحب تلمسان. وأثناء محاصرة أبي

(496) الاستقصا (3 :159).

(497) العبر (6 :816) والزركشي (83 - 84).

الحسن المريني لتلمسان خرج إليه عبد الواحد بن اللّحياني وانضمّ إليه وأصبح من خاصته، وقدم معه إلى تونس[498] ولهذا رأى زعماء الأعراب أنّ خير من يتوجهون إليه ليحاربوا باسمه هو عبد الواحد بن اللّحياني فاتصلوا به وكاشفوه بخطتهم. وتظاهرَ لهم ابن اللّحياني بالموافقة إلاّ أنه كان مرتاباً من صدقهم وأمرِهم معه، وأنه يخاف من بطش أبي الحسن المريني إذا اكتشف أمرَه. ولهذا بادر هو بالكشف عن المؤامرة، وأعلم أبا الحسن المرينى بذلك فأمر بالقبض عليهم وأجرى بينهم وبين ابن اللّحياني مكافحة بُهِتوا لها[499] فاعتقلهم أبو الحسن المريني وقرّر معاقبة الكعوبَ والهجومَ عليهم في عقر دارهم.

5 ـ تحالف القبائل وبيعة ابن أبي دبوس الخياط:

كان اعتقال زعماء الكعوبيين من قبل أبي الحسن المريني مما زاد في توّتر العلاقات بينه وبين قبائل الأعراب لا سيما أولاد أبي الليل من قبيلة الكعوب، فقد كان ذلك الاعتقال مثيراً للكعوبيين، ودافعاً بهم إلى القيام بعمل إيجابي ضد السلطان المريني فأخذوا يحزّبون الأحزاب، ويجمعون الأنصار ويبحثون عن الأحلاف. وقد دفعهم ذلك حتّى إلى التحالف مع أعدائهم ومنافسيهم أولاد مهلهل الذين كانوا أكبر سند اعتمد عليه عمر الحفصي عندما استولى على الحكم عوض أخيه أبي العباس أحمد وليّ العهد الأصلي للسلطنة. وعندما انهزم عمر الحفصي أمام الاحتلال المريني خاف أولاد مهلهل أن يقع الانتقام منهم فارتحلوا إلى القفر من بلاد الجريد، واعتصموا هنالك متحفّزين لرد أي خطر يداهمهم، محتمين بالفيافي الشاسعة في صورة الانهزام أو عدم استطاعة ردّ الهجمات عليهم لا سيما أنهم يعرفون أن سلطان بني مرين غير راضٍ عنهم لشدة صلتهم بعمر الحفصي. وقد مرّ

(498) العبر (6 :816).

(499) المصدر السابق.

أنّ هزيمة عمر الحفصي وأنصاره أولاد مهلهل في معركة «المباركة» إنما كانت نتيجةً لتحالف أولاد أبي الليل مع حمّو بن يحيى أحد قواد الجيش المريني، وهكذا يبدو أن العداء كان مستحكماً بين أولاد أبي الليل وبين أولاد مهلهل. ورغم ذلك فإن الكعوبيين ـ بعد أن فسدت العلاقة بينهم وبين أبي الحسن المريني ـ تغاضوا عن تلك العداوة، وأرسلوا إلى خصومهم (أولاد مهلهل) وفداً فيه قتيبة بن حمزة وأمّه ونساء أبنائها ليصالحوا أولاد مهلهل ويعتذروا لهم، ويطلبوا مناصرتهم وتحالفهم معهم ضدَّ السلطان أبي الحسن المريني. ونجح هذا الوفد النسائي في مهمته فاستجاب أولاد مهلهل للمصالحة مع خصومهم. وأخذت القبائل تتجمّع في بلاد الجريد. وهكذا اجتمعت أحياء سليم من بني كعب وبني حكيم مع أولاد مهلهل في توزر، وتعاهدوا على الاستماتة، وأهدروا الدماء بينهم، وتبايعوا على الموت.

وحسب عادة تلك القبائل في انتقاضاتهم فإنهم أخذوا يبحثون عمّن يقاتلون باسمه وتحت رايته من ذوي الملك والسلطنة. وإذا كان اعتمادهم الأول على عبد الواحد بن اللّحياني قد باء بالفشل فإنهم اهتدوا ـ وفي مدينة توزر بالذات ـ إلى أحد أحفاد عبد المؤمن بني علي كان يشتغل خياطاً، فذهبوا إليه وبايعوه بالسلطنة وعاهدوه على الاستماتة في مناصرته[500].

أمّا هذا السلطان الخيّاط فهو أحمد بن عبد السلام بن عثمان بن أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش. ولا يستبعد أن يكون الكعوبيّون هم الذين رشحوه لمهزلة هذه السلطنة إذ كانت لهم محاولة سابقة تشبه هذه المحاولة مع آل أبي دبوس. ولعلّنا ما زلنا نذكر ما حصل في عهد السلطان الحفصي أبي عصيدة سنة 705هـ. (1306م) عندما قتل هداج بن عبيد شيخ الكعوب ـ بعد دخوله جامع الزيتونة منتعلاً حذاءه ـ فهاجت العامة ضده وقتلوه فاغتاظت لذلك الكعوب، وأعلنوا العصيان، وأشاعوا الفساد والنّهب في البلاد، واتهموا

(500) العبر (6: 817) والزركشي (84).

السلط الحفصية بقتله، وخلعوا طاعة أبي عصيدة بزعامة أحمد بن أبي الليل. وفكر هذا الأخير في قوة معنوية يستند عليها في عصيانه فتذكر أنه يوجد في طرابلس أبو سعيد عثمان ابن أبي دبوس فدعا إليه وبايعه بالخلافة. ثم زحفا معاً على مدينة تونس. إلّا أن قوات أبي عصيدة تصدت لذلك الزحف بقيادة الوزير محمد بن إزْرِفان فانهزم أحمد بن أبي الليل وسلطانه عثمان بن أبي دبّوس، ثم طاردهما الجيش الحفصي حتى استسلم ابن أبي الليل وأعلن انقياده لأبي عصيدة أمّا عثمان بن أبي دبّوس فترك وشأنه فعاد إلى طرابلس حيث ظلّ شريداً منسياً إلى أن توفي في جزيرة جربة ثمّ استقر أبناؤه في تونس العاصمة إلى أن اعتقلهم أبو بكر الحفصي وغرّبهم إلى الإسكندرية فأقاموا فيها وأقبلوا على الحِرف والأعمال الحرّة. وكان من ضمنهم أحمد بن عبد السلام بن عثمان المذكور ففضّل العودة إلى إفريقية واستقر بمدينة توزر، واشتغل خياطاً فيها[501] حتّى جاءته القبائل المناوئة لأبي الحسن المريني، وأزالت عنه حرفة الخياطة، وألبسته لباس السلطنة. وتهيأ الأعراب بزعامته للزحف على تونس ومحاربة أبي الحسن المريني، كما استعدّ هذا الأخير - من جهته - عندما بلغته الأخبار عما حصل في توزر. والتقى الجمعان في نصف الطريق بين تونس والقيروان. وكان جيش بني مرين يعد ثلاثين ألفاً أو أكثر. ولهذا تجنب ابن أبي دبّوس ومن معه مجابهة الجيش المريني فتراجعوا القهقرى إلى أن وصلوا القيروان. وأيقنوا ألّا مَهْرَب لهم من الجيش المريني المطارد لهم «.. فعزموا على الثبات وتحالفوا على الاستماتة»[502].

6 ـ معركة القيروان بداية التراجع المريني:

وهكذا تهيّأ الفريقان للمجابهة في المحرم من سنة 749 (أفريل 1348) وهي المجابهة الأولى التي سيمتحن فيها أبو الحسن المريني منذ احتلاله

---

(501) العبر (6 :817).

(502) الاستقصا (3 :163).

للسلطنة الحفصية وكانت هذه المجابهة ـ من ناحية أخرى ـ بداية التراجع لنفوذ هذا السلطان الذي امتد من مصراطة شرقاً إلى السوس الأقصى غرباً إذ انهزم المريني انهزاماً ساحقاً ونجا بنفسه متحصناً بأسوار القيروان. وقد اعتبرت هذه المعركة أشد وقعاً عليه من معركة طريف التي جرت في الأندلس أمام الجيوش الإسبانية المتحالفة رغم كثرة جيشه ورغم بدائية أعدائه أولاد الكعوب وحكيم ومهلهل.



سـوق العطارين حول جامع الزيتونة

انسحاب أبي الحسن المريني من إفريقية

1 ـ تخاذل الجيش المريني:

يمكن إعادة انهزام أبي الحسن المريني في معركة الثنية[503] التي تقع غير بعيد عن القيروان من طريق تونس إلى ما كانت عليه وضعية الجيش المريني ذاته، إذ كان فيه عدد كبير من قبيلة زناتة الذين تغلب عليهم أبو الحسن المريني، واستولى على عاصمتهم تلمسان، كما كان يضم الجيش المذكور رجالاً من توجين ومغراوة ممّن يحمل نفس إحساس بني زيان، فانتهزوا كلّهم الفرصة، وتواطؤوا مع عربان الكعوب وحكيم ومهلهل على الخديعة وأوعزوا إليهم بالهجوم على الجيش المريني ـ وإذ ذاك ـ ينحازون إليهم، وينضمون إلى صفوفهم. وفعلاً تمت المؤامرة فما إن بدأ الأعراب بالهجوم حتّى انحازت إليهم جيوش زناتة ومغراوة وبني توجين فاختل نظام جيش السلطان المريني وانهزم هزيمة شنعاء». . وتسابقت العرب إلى معسكره فانتهبوه بما فيه من المضارب والعدد والآلات ودخلوا فسطاط السلطان فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه[504] وفر أبو الحسن المريني إلى مدينة القيروان محتمياً بأسوارها فطارده العربان، وحاصروا القيروان من جميع جهاتها.

---

(503) كذا في العبر (6 :818) والزركشي (84) وفي الاستقصاء (3 :160) التينة.
(504) الاستقصا (3 :160).

2 ـ ابن تافراجين متواطىء مع الأعراب:

وبينما كان الحصار مشدداً على القيروان كان ابن تافراجين ـ المحصور مع السلطان المريني ـ يتفاوض مع الأعراب حتّى ينضم إليهم بعد أن أيقن بأن الفرصة سنحت له الآن بالرغم من عدم استجابته لزعماء الأعراب عندما فاوضوه في السابق. أما بعد هزيمة السلطان المريني وتخاذل جيوشه عنه فإن الموقف تغير. ولهذا جرت بينه وبين زعماء الأعراب مفاوضات حول خطة هروبه. وقد تمثلت تلك الخطة في أن يبعث زعماء الأعراب إلى أبي الحسن المريني ليرسل إليهم بابن تافراجين ليتفاوضوا معه في رفع الحصار عن القيروان، وفي شروط انقيادهم وطاعتهم له. واغترّ هذا الأخير بذلك ـ وهو المنهزم المحصور ـ فسمح لابن تافراجين بالخروج إلى الأعراب بعنوان التفاوض معهم على شروط المصالحة. إلّا أن ابن تافراجين خرج ولم يعد. وتمّ الاتفاق بينه وبين الأعراب على أن يتولّى الحجابة لسلطانهم الجديد أحمد بن أبي دبّوس. وكان ذلك أعظم فرصة لابن تافراجين حتّى يحقق مطامحه وأحلامَه في السلطة والنفوذ إذ لم يكن هذا «السلطان» سوى رجل ساذج بسيط كانت حرفته الخياطة في توزر. ومعنى ذلك أنه إذا تمّ الأمر فسيصبح ابن تافراجين صاحب الأمر والنهي أكثر مما كان له ذلك في عهد السلطان أبي بكر الحفصي.

3 ـ ابن تافراجين يحاول احتلال قصبة العاصمة:

كانت المهمة الأولى التي عُهِدَ بها لابن تافراجين هي الإسراع بالتوجه إلى تونس واحتلال قصبتها التي اعتصم فيها بنو مرين. وذلك أن جماهير العاصمة عندما بلغتهم هزيمة أبي الحسن المريني وحَصْرِه في القيروان حاولوا اقتحام القصبة، والاستيلاء عليها، ونهْبَ ما فيها. وقد ترك فيها أبو الحسن المريني الكثيرَ من أبنائه وحرمه ووجوه قومه وأمناء بيت ماله وبعض الحاشية من جنده[505]. وكان قد انضمَّ إليهم أبو سالم إبراهيم بن السلطان

(505) الاستقصا (3: 160).

المريني الذي جاء من المغرب ملتحقاً بأبيه إلاّ أنه عندما بلغه خبر هزيمة أبيه انفضّ من حوله الجند ولم يحاول الوصول إلى القيروان، فرجع إلى تونس واعتصم بقصبتها هو كذلك. وحاصر ابن تافراجين قصبة العاصمة دون أن يتمكّن من اقتحامها لكثرة ما فيها من استحكامات، وشدة بأس المدافعين عنها من المرينيين.

4 ـ أبو الحسن المريني يستميل الأعراب:

بالرّغم من دهاء ابن تافراجين، وطول تجربته، وكثرة مناوراته وحِيَله، وعمق خبرته بأوضاع الأعراب فإنه انقاد إلى إغرائهم، واطمأنّ إلى ما أعطوه من عهود ومواثيق، متناسياً عدم ثباتهم على مبدأ، وأن غايتَهم لا تعدو أن تكون الحصول على الأرزاق والأموال مهما كانت الطرق والوسائل، وأن نكثهم للعهود، وتراجعَهم عن المواقف تشهد بهما الحوادث العديدة التي وقعت لهم مع الحكّام الحفصيين وغيرهم، والتي عاش الكثيرَ منها ابن تافراجين نفسُه. وهذا ما حصل لهم مع أبي الحسن المريني المحصور في القيروان، فقد أخذ يفاوضهم ويغريهم بالعطايا حتى أحدث بينهم الخلاف واستمال إليه قسماً كبيراً منهم دون أن يعرف ابن تافراجين شيئاً من ذلك إذ كان مشغولاً بحصار القصبة في تونس.

وكان أبو الحسن المريني قد اقتنع بأنه لا يمكن أن يقرّ له قرار أو ينجوَ من الهلاك إذا هو لم يرضَخْ لمطالب القبائل ولم يستمِلْهم إليه. ولهذا ركن إلى المساومة وشراء ولائهم له، والكف عن محاصرته، فاتفق مع أولاد مهلهل أن يبذل لهم الأموال التي اشترطوها مقابل الإفراج عنه والدخول في طاعته. كما تفاوض مع أولاد أبي الليل إلاّ أنهم لم يتفقوا فيما بينهم على ما عرضه عليهم السلطان المريني مما جعل أحد زعمائهم قتيبة بن حمزة[506] يتسلّل إلى أبي الحسن المريني ويدين له بالولاء مقابل أموال اشترطها،

(506) كذا في الزركشي والاستقصا؛ وفي ابن خلدون (قُتَيْتة).

والإفراج عن أخويه: خالد وأحمد اللذين كان السلطان المريني قد اعتقلهما في أول خلافه مع الكعوبيين. وبعد أن تمكّن أبو الحسن المريني من استمالة الكثير من زعماء الأعراب إلى جانبه اتفق معهم على الإفراج عنه والقيام معه حتى يصل إلى مأمنه.

5 ـ وصول المريني إلى تونس وفرار ابن تافراجين:

كانت الخطة أن يأتي ليلاً إلى السلطان المريني زعماء الأعراب الذين انضمّوا إليه، وأن يخرج معهم ليلاً من القيروان متسللاً حتى يصل إلى سوسة. ومن سوسة ركب البحر متجهاً إلى تونس[507]. وسرعان ما وصلت الأخبار إلى ابن تافراجين بانفلات أبي الحسن المريني من الحصار وتوجهه إلى تونس فارتاع لذلك. وكان «سلطانه» ابن أبي دبوس قد وصل العاصمة وانضمّ إليه. وأمام المقاومة الشديدة التي كان يبديها المرينيون المحصورون في القصبة خاف ابن تافراجين أن يدركه أبو الحسن المريني دون أن يجد ما يحميه منه فعزم على الفرار والنجاة بنفسه. وتسلّل خفية على أصحابه ممتطياً سفينة في اتجاه الإسكندرية.

فوجىء أصحاب ابن تافراجين باختفائه فداخلهم الوهن والاضطراب، وعمّتهم الفوضى، فرفعوا الحصار عن القلعة، وغادروا مدينة تونس مخافةَ أن يدركهم السلطان أبو الحسن. وفتح المحصورون أبواب القصبة واستولوا على المدينة في انتظار قدوم أبي الحسن المريني على طريق البحر.

وفي ربيع الآخر من سنة 749 هـ وصل السلطان أبو الحسن وشرع حالاً في إصلاح أسوار العاصمة، وإحاطتها بالخنادق، زيادةً في استحكاماتها الدّفاعية. وحاولت القبائل ـ بقيادة ابن أبي دبوس ـ استرجاع مدينة تونس إلاّ أن القوات المرينية صدّت الهجوم بقوّة[508]. ورغم رجحان كفة أبي الحسن المريني هذه المرّة فإنه أعاد الكرة في استمالة الأعراب وشراء ذمم قادتهم لا

(507) العبر (6 :820) الاستقصا (3 :161).
(508) العبر (6 :820).

سيّما أن قسماً من تلك القبائل ـ وهم أولاد مهلهل ـ بقي على إخلاصه وولائه معه. ثمّ لم يلبث أولاد أبي الّليل أن راجعوا موقفهم مع السلطان المريني فركنوا إلى مصالحته ومهادنته. وجاء منهم وفد «إلى تونس لذلك الغرض، وعقد مع المريني اتفاقَ صلح ومهادنة. إلاّ أن المريني ـ رغم كلّ ذلك ـ كان لا يشعر بالاطمئنان ما دام «السلطان الخيّاط» ابن أبي دبّوس يعيش حرّاً طليقاً مع الأعراب، وأنه لا يأمن أن ينكث العهد الذي أبرمه مع أولاد أبي الليل. ولهذا استبقى أبو الحسن المريني عنده حمزةَ بن عمر رهينة حتى يأتوه بسلطانهم ابن أبي دبوس للبرهنة على صدقهم وحسن نيّتهم فيما عقدوه معه من صلح. وإذ تبيّن لأولاد أبي الليل ألاّ فائدة ترجى من هذا الشخص الذي جعلوه سلطاناً يحاربون باسمه قبضوا عليه وسلّموه إلى أبي الحسن المريني فأودعه السجن.

وزاد المريني تقرّباً من أولاد أبي الليل فعقد لابنه «أبي الفضل» على بنت حمزة بن عمربن أبي الليل حتّى يأمن نكثهم للعهد، وانتقاضهم عليه.

6 ـ شيوع الانتقاض في السلطنة المرينية:

إذا اطمأنّ أبو الحسن المريني بعضَ الاطمئنان باستمالة قسم كبير من الأعراب إلى جانبه، والقبض على ابن أبي دبّوس فإن فرار ابن تافراجين إلى المشرق بقي يشغل باله مِمّا جعله يبعث برسالة إلى سلطان المماليك بمصر (النّاصر بن قلاوون) يرجو منه اعتقال ابن تافراجين. إلاّ أنّ استجارة هذا الأخير ببعض الأمراء من المماليك حَمَتْه من ذلك فغادر مصر وتوجّه إلى الحجاز لأداء مناسك الحج[509].

على أنّ أبا الحسن المريني ـ وإن انتصب من جديد في تونس ونجا من الهلاك، وتصالح مع أغلب زعماء الأعراب ـ فإن كلَّ ذلك لم يَحُلْ بينه وبين سقوط هيبته، وتفكك سلطنته الواسعة الأطراف. فما إن شاعت هزيمته وأشيع

(509) الاستقصا (3 :162).

موتُه سواء في واقعة القيروان، أو بالطاعون الذي اجتاح كافة أقطار المغرب الإسلامي ـ إذ ذاك ـ ما إن حصل ذلك حتى طلعت رؤوس الطّامعين بالاستيلاء على الحكم في أغلب جهات تلك السلطنة الواسعة. وكان في مقدمة أولائك الطامعين آل بيته من أبنائه وأحفاده.

أ ـ ففي مدينة تلمسان أعلن ابنه «أبو عنان» الاستبدادَ بالسلطنة المرينية، وأنه أولى بها من بقية إخوته لأنه كان المرشَّح للخلافة بعد أبيه[510]. وقد دفعه إلى ذلك أمران آخران:

الأول ما بلغه من أنّ ابن أخيه المسمّى «منصور بن عبد الواحد» أعلن الثورة بفاس، وفتح ديوان العطايا وأخذ يجهز الجيوش، ويستعدّ للتغلّب على المغرب الأقصى. وقد قام هذا الثائر بدعوته تلك مغطيّاً عمله بأنه يعتزم الذهاب إلى إفريقية لإنقاذ جدّه أبي الحسن من الحصار والانهزام[511].

أما الأمر الثاني فهو ما ذكر من أنه «.. كان عنده رجلٌ من بني عبد الواد اسمه عثمان بن يحيى بن جرار يدّعي الإطلاع على الغيب. وكان يقول لأبي عنان منذ أن توجّه أبوه إلى إفريقية: إن والده سوف لا يعود من إفريقية، وأن أمر السلطنة سيؤول إليه من بعده. فلمّا أشيع خبر وفاة أبي الحسن المريني صدّق ابنُه أبو عنان ما كان يقوله له عرّاف بني عبد الواد فأعلن عن نفسه سلطاناً. وأخذ يستعدّ لجمع أطراف سلطنة أبيه تحت لوائه مبتدئاً في ذلك بالتوجه إلى المغرب ومحاربة ابن أخيه (منصور بن عبد الواحد) الذي أعلن نفسه سلطاناً بفاس. كما استعدّ هذا الأخير إلى ملاقاة عمّه أبي عنان. إلّا أنه لم يستطع الثبات طويلاً إذ تغلّب عليه عمّه وقتله بفاس. وبذلك أصبح أبو عنان سيّد المغرب الأقصى. ودان له قومه (بنو مرين) بالطاعة والولاء إلّا من بقي منهم في تونس صحبة السلطان أبي الحسن،

(510) الاستقصا (3 :164).

(511) المصدر السابق.

الذي ظلّ مقيماً في إفريقية محاولاً ردء صَدْعِهِ، وتجميعَ قواهُ دون أن يتمكّن من ذلك، ودون أن يعرف ما كان يجري ضدّه من أحداث في المغرب الأقصى[512].

ب ـ وإذا قام ضد السلطان أبي الحسن ابنه أبو عنان وحفيده منصور بن عبد الواحد، فمن باب أولى أن يقوم ضدَّه خصومه من بني عبد الواد ومن بني حفص، فعندما بارح أبو عنان المريني مدينة تلمسان متجهاً إلى المغرب الأقصى لمحاربة ابن أخيه ولّي على مدينة تلمسان عثمان بن جرار من بني عبد الواد. إلّا أن هذا الأخير سرعان ما قلب لأبي عنان ظهرَ المِجَنّ، ودعا لنفسه أميراً على تلمسان[513] مجدّداً بذلك سيادة المملكة الزيّانيـة على تلمسان بعد انقطاع استمر من سنة 737 هـ. إلى سنة 749 (1337 ـ 1348 م). إلّا أن عثمان بن جرار لم يطل به الأمر في تلمسان. ذلك أن طائفة كبيرة من بني عبد الواد كانوا ضمن الجيش المريني في تونس. وعند انهزام أبي الحسن المـريني في واقعة القيـروان اجتمع بنـو عبد الـواد في تـونس «. . واتفقوا ـ بعد الشورى ـ على مبايعة عثمان بن عبد الرحمّان بن يغموراسن بن زيّان. ورحلوا إلى تلمسان فقام أهلها على ابن جرار وقبض عليه عثمان بـن عبد الرحمان وأودعه السجن إلى أن توفّي فيه»[514].

جـ ـ أمّـا بخصوص السلطنـة الحفصية فلم يكن بهـا ـ بعد واقعـة القيروان ـ من تحدثه نفسه بالانتقاض سوى أبي العباس الفضل بن أبي بكر الحفصي أمير عنّابة. وهو الذي ظل كذلك ينتهز الفرصة للانتقام من أبي الحسن المريني للأسباب التي مرّ ذكرها. إلّا أن الفضل الحفصي لم يبادر بعمل إيجابي ضدّ أبي الحسن المريني رغم إعلان انفصاله عنه. ولعلّ هذا يعود إلى قلة جيشه وصغر إمارته في عنّابة ونواحيها. ولكنّ تطوّر الأحداث في

(512) عن هذه الأحداث انظر الاستقصا (3 :162 - 169).

(513) الزركشي (85).

(514) الزركشي (85). وفي الاستقصا (3 :165) إنه قتل غرقاً.

الحفصية الغربية ـ لا سيما في قسنطينة ـ جعلَه يعمل على التوسيع في نفوذه قبل أن يقوم بأي عمل إيجابي ضدّ أبي الحسن المريني، فقد صادف أن وصل خبر واقعة القيروان إلى قسنطينة في الوقت الذي وصلتها فيه عدّة وفود وشخصيات كانت في طريقها إلى إفريقية لمقابلة السلطان أبي الحسن إذ جرت عادة هذا السلطان أن يفد عليه في آخر كلّ سنة عمّالُه في أقاصي سلطنته ليقدّموا له الجبايات، والمحاسبة على أعمالهم. وكان من ضمن الموجودين كذلك في قسنطينة ابن صغير لأبي الحسن المريني في طريقه إلى والده. كما كان يوجد فيها وفدان أجنبيان: وفد من مملكة مالي ـ محمّلاً بالهدايا ـ قدم ليهنىء أبا الحسن المريني على فتوحاته الواسعة، ووفد من مملكة قشتالة الإسبانية للتهنئة ـ كذلك ـ مصحوباً بهدية للسلطان. وقد اصطحب الوفد الإسباني معه الأمير «تاشفين بن أبي الحسن المريني» الذي أسره الإسبان في معركة طريف المشهورة، وأطلق سراحه بعد أن أصابه خبال في عقله[515] فأرسله ملك قشتالة مع هدية نفيسة لأبيه. هذا بالإضافة إلى وجود ابن مزني في قسنطينة الذي كان هو كذلك في طريقه إلى السلطان بتونس، فعندما وصل خبر هزيمة القيروان هاجت العامّة في قسنطينة وأرادوا نَهْبَ ما عند تلك الشخصيات والوفود من أموال وهدايا فاستنجد أعيان قسنطينة بالفضل بن أبي بكر الحفصي أمير عنّابة فجاء مسرعاً قصد ضمّ قسنطينة إليه. إلّا أن العامّة ازدادوا هيجاناً قبل دخوله المدينة واستولوا على جانب من الذخائر والأموال التي كانت عند عمّال آفاق السلطنة المرينية. وتمكن الوفدان المالي والإسباني صحبة تاشفين وعبدالله ـ ابني السلطان المريني ـ من الإفلات منهم تحت حماية ابن مزني فالتحقوا بمدينة بسكرة ليواصلوا سيرهم ـ فيما بعد ـ إلى تونس[516].

(515) الاستقصاء (3 :163) لكن ابن خلدون (6 :821) لم يشر إلى ذلك وجعل إطلاق سراح تاشفين نتيجة الهدنة التي وقعت بين الطرفين.

(516) العبر (6 :822).

وقد أتى ابن القنفذ بشيء من التفصيل عن كيفية استيلاء الفضل بن أبي بكر الحفصي على قسنطينة لا سيما أن والدَه كان هو الواسطة بين الفضل الحفصي وبني مرين المحصورين في قصبة قسنطينة. يقول ابن القنفذ عن ذلك: «. . وفي غرّة المحرم من سنة 749 (مارس 1348) دخل الأمير الفضل ومن معه قسنطينة. وقصد القصبة فغلقها مَن بها من بني مرين في وجهه، وعمّروا أسوارها بالمدرّعين من الرّجال والرّماة. وخاف الأمير الفضل من ذلك خوفاً شديداً، ورجع وقصد جامع البلد، وصلّى فيه الجمعة ولم يصلّها فيه «خليفة» حفصي قبله. وجلس بالمقصورة ليرى عاقبة القصبة. ثمّ أرسل إلى القصبة بأمانه ويمينه مع الخطيب والدي، رحمه الله. ولم يصلّ الجمعة بجامعها في ذلك اليوم. وصلّى مأموماً بجامع البلد، فقبل أمانه وفتحت القصبة له ودخلها الأمير الفضل في عصر يوم الجمعة المذكور.

ثم قامت بالقصبة نفرة شديدة بسبب طلب العامّة لمن بها من بني مرين. وسلِمَ الأمير الفضل من الموت في ذلك اليوم باختفائه بعد الطلب عليه. ثم أخرج مَن بالقصبة من بني مرين إلى خارج البلد. واحتوى الأمير الفضل على أموال كثيرة وجد بها هدايا بلاد المغرب لملكها على قرب من وصولها وأخرج في غير وجه أكثرها»[517].

ويبدو من هذا النّص أن الفضل بن أبي بكر الحفصي - في بداية عمله الإيجابي - لم يكن له من القوة وكثرة الأتباع ما يستطيع به أن يقوم بعمل حاسم في سبيل استعادة ملك أبيه. ولعلّ وجاهة الشيخ الخطيب حسين بن القنفذ كان لها الفضل الأكبر في استسلام بني مرين المحصورين في القصبة، وأنه لولا ذلك لامتنعت عليه قسنطينة واستمرّ فيها المرينيون.

ومهما يكن فقد اكتسب الفضل الحفصي - باستيلائه على قسنطينة - شهرة جعلت أهالي بجاية يقومون بالثورة على من فيها من بني مرين عندما

(517) الفارسية (171 - 172).

سمعوا بقدوم الفضل الحفصي إليهم مِمّا سهّل له الاستيلاء على بجاية. وبذلك أصبحت الحفصية الغربية بعواصمها الثلاثة (عنابة ـ بجاية ـ قسنطينة) تحت سيادة الفضل الحفصي «وأعاد ألقاب «الخلافة» الحفصية ورسومها»[518] بعد ثلاثة أشهر من استيلائه على قسنطينة.

انسحاب أبي الحسن المريني من إفريقية:

د ـ باستيلاء «الفضل» على الحفصية الغربية بدأ يشعر هذا الأمير بالقوة والقدرة على التوجه إلى تونس العاصمة، واستعادتها من أبي الحسن المريني ولكن «.. بينما هو يحدّث نفسه بذلك إذ وصل الخبر بقدوم أمراء بجاية وقسنطينة من المغرب»[519] وهم الأمراء الحفصيون الذين كانوا يتصرفون في المدينتين في حياة جدّهم السلطان أبي بكر، والذين أبعدهم المريني عندما استولى على بجاية وقسنطينة في بداية قدومه إلى إفريقية.

أمّا سبب رجوع هؤلاء الأمراء فيعود إلى سياسة أبي عنان المريني نفسه، فعندما علم بأن والدَه نجا من حصار القيروان، واستقرّ في مدينة تونس، خاف أن يعود أبوه إلى المغرب ويستعيد نفوذَه عليه. ولهذا أراد أبو عنان أن يقيم العراقيل في طريق والده، فأعاد الأمير محمد ابن أبي زكرياء الحفصي إلى بجاية، وأمدّه بالذخائر والأموال، وأخذ منه العهد والميثاق بأن يحول بين أبي الحسن المريني وبين عودته إلى المغرب الأقصى إذا مرّ به. وكذلك فعل مع الأمير أبي زيد بالنسبة لقسنطينة التي استولى عليها باسمه مولاه العلج «نبيل» وأقام بها دعوة سيّده أبي زيد بن أبي عبدالله الحفصي. وقد ساعده على ذلك الاستيلاء، ثورة أهالي قسنطينة ضدّ العامل الذي كان بها من قبل الفضل بن أبي بكر الحفصي. أما بجاية التي كان بها الفضل نفسه فقد ناصبها الحصار ابن أخيه محمد ابن أبي زكرياء، واستطاع اقتحام

---

(518) العبر (6: 822).

(519) العبر (6: 822).

أسوارها بما دبّره من شراء ضمائر حرّاسها حتى فوجىء الفضل - ذات ليلة من ليالي رمضان 749 - بهدير الطبّول، وصهيل الخيول، وصيحات الدّاخلين فهبَّ مذعوراً من نومه وخرج من قصره، وتسنّم الجبل المطلّ على بجاية. ثم تسلّل من شعاب الجبل فارّاً، متدرّعاً بظلام الليل. إلاّ أن جنود ابن أخيه أدركوه في الصباح وأتوا به إليه فأمّنه ولم يعاقبه. وبعد انقضاء شهر رمضان أركبه في سفينة وبعث به إلى عنّابة حيث كان نصيبه من الإمارة في عهد أبي الحسن المريني[520].

وبذلك انتهت المغامرة الأولى التي قام بها الفضل بن أبي بكر في محاولة استعادة وحدة السلطنة الحفصية كما كانت في عهد أسلافه الأسبقين وفي عهد والده أبي بكر. إلاّ أن فشل مغامرته الأولى لم ينته به إلى اليأس بل ظلّ متهيأً إلى أية مغامرة أخرى عسى أن يحقق له به بعض مطامحه وآماله. وقد تحققت تلك المطامح بازدياد التوتر بين السلطان المريني وقبائل الكعوب في الحفصية الشرقية.

هـ - انضمام أولاد أبي الّليل للفضل الحفصي:

لقد مرّ بنا في صفحات سابقة أن أبا الحسن المريني عدل عن سياسته الأولى نحو الكعوب، واقتنع بأن سياسة القوة التي استعملها معهم لم تزدهم إلاّ عناداً وتحدّياً، وأنه - بعد هزيمة القيروان - اضطرّ إلى مسالمتهم وبذْل ما في مستطاعه لهم من مال. وكان موقفه - خاصة - مع أولاد أبي الليل الكعوبيين يكاد يكون انقياداً واستسلاماً. ولكن رغم تقوية علاقاته معهم بالمصاهرة، وتسليمهم للسلطان الخيّاط ابن أبي دبّوس، رغم كلّ ذلك فإن أولاد أبي الليل لم يستمرّوا على ولائهم وانقيادهم لأبي الحسن المريني. وكانوا هذه المرّة بزعامة قتيبة[521] بن حمزة بن عمر رغم أن أخاه خالد خالفه في

---

(520) العبر (6 :824).

(521) كذا في الزركشي وفي العبر (6 :820) فتيته.

الرأي وانضمّ إلى أولاد مهلهل الذين استمرّوا على ولائهم لأبي الحسن المريني.

وتبعاً للعادة التي سار عليها أولاد أبي الّليل فإنهم اتجهوا ـ هذه المرّة ـ إلى أبي العباس الفضل صاحب عنّابة وفاوضوه على أنّهم يساعدونه في طلب حقّه من ملك آبائه وأجداده الحفصيين فاستجاب الفضل لإغراء أولاد أبي الليل له بامتلاك إفريقية وإخراج المريني منها وجاء الفضل ـ فعلاً ـ إلى إفريقية بعد أن بايعوه بالسلطنة، وعاهدوه على المناصرة. وفي أواخر سنة 749 هـ. هاجموا مدينة تونس وحاصروها مرّتين دون أن يتمكّنوا من التغلّب على القوات المرينية حتى يستولوا على العاصمة. إلّا أن ذلك الفشل في محاصرة العاصمة أتى بنتائج أخرى في أطراف السلطنة، فقد أعلن المتولّي على مناطق الجريد (أبو القاسم بن عتّو) مناصرتَه وتأييدَه للفضل الحفصي، ودعاه إلى الجريد، ووضع قواته ورجالَه تحت تصرفه، وتابعه في ذلك بنو مكي المتولون على قابس. ويعني ذلك أن كامل الجنوب التونسي أصبح مسانداً للفضل الحفصي مما جعل السلطان أبا الحسن المريني يوقن بخطر القوات الإفريقية المناوئة له، فأخذ يفكّر ـ جدّياً ـ في الانسحاب والرجوع إلى المغرب الأقصى لا سيما أن حاشيتهُ وأهل مشورته كانوا يلحّون عليه في العودة إلى المغرب حتى يسترجع نفوذَه عليه وكان ما أصابهم من هزائم، وكثرة من مات منهم بسبب الحروب أو الطاعون، والحصار الذي ضرب عليهم أكثر من سنة ونصف، كان كلّ ذلك دافعاً بالمرينيين إلى الإلحاح على سلطانهم حتى ينسحب من إفريقية، ويعودُ إلى المغرب الأقصى. ولعلّ خوف أبي الحسن المريني من سوء المآل إذا حاصره الفضل الحفصي من جديد ـ بعد انضمام الجنوب إليه ـ لعلّ ذلك هو الذي جعله يستجيب لإلحاح المرينيين عليه بالعودة، فقرر الانسحاب من تونس نهائياً. وجهّز أساطيله التي أقلعت في اتجاه المغرب أيام عيد الفطر من سنة 750 (1349 م) بعد أن عقد لابنه أبي الفضل على تونس «ثقةً بما بينه وبين عمر بن حمزة من المصاهرة،

وتفادياً بمكانه من معرّة الغوغاء وثورتهم به»[522].

و ـ قمّة المأساة:

كان إقلاع أبي الحسن المريني من ميناء تونس في اتجاه المغرب الأقصى يمثّل بدايةَ الفصل الأخير من مأساة هذا السلطان الذي بلغ اتساعُ ملكه في المغرب الإسلامي حدّاً لم يبلغه أيّ سلطان آخر من بني مرين.

وتذكر المصادر التاريخية المختلفة[523] أن أبا الحسن المريني غادر تونس «وركب البحر في فصل الشتاء وهيجان البحر، وكَلَب البرد في أسطول أوصله بعضُهم إلى ستمائة سفينة. وبعد خمس ليال من إقلاعهم من تونس احتاجوا إلى التزوّد بالماء ـ وكانوا مسامتين لبجاية ـ إلّا أن صاحبها الحفصي منع عنهم الماء. وبعث إلى كافة سواحله يأمرهم بذلك» وقد فعل هذا تنفيذاً لتعهّداته مع أبي عنان المريني الذي أعاده إلى إمارته ببجاية. ولكنّ الأسطول المريني ـ أمام شدّة العطش ـ اضطرَّ إلى النزول ومقاتلة المعترضين له حتى تزوّد بالماء وواصل السير. إلّا أن عاصفة هوجاء اعترضت الأسطول ـ والوقت ليل ـ «وجاءهم الموج من كلّ مكان وتكسّرت الأجفان، وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامّة النّاس. وقذف الموج بالسلطان (أبي الحسن المريني) فألقاه على حجر قرب الساحل من بلاد زواوة عاري الجسد مباشِراً للموت. وقد هلك من كان معه من الفقهاء والعلماء والكتّاب والأشراف والخاصة، وهو يشاهد مصارعهم، واختطاف الموج لهم من فوق الصخور التي تعلّقوا بها. ومكث أبو الحسن المريني والقـلّة التي كانت معه على حالتهم تلك إلى الصّباح حيث رآهم مركب سَلِمَ من الغرق فجاء لإنقاذهم وحملهم إلى مدينة الجزائر[524] وجاء في نفح الطيب[525] أن أسطول أبي الحسن المريني غرق

---

(522) الزركشي (89).

(523) انظر مثلاً: الزركشي (89) نفح الطيب (6: 214) الاستقصا (3: 170).

(524) الاستقصا (3: 171).

(525) نفح الطيب (6: 214 - 215).

كلّه ونجا هو على لوح. وهلك من كان معه من أعلام المغرب. وهم نحو أربعمائة عالم منهم أبو عبدالله محمد بن سليمان السطي، ومحمد بن الصباغ المكناسي وأبو العبّاس الزواوي، وغيرهم.

وأمكن لأبي الحسن المريني أن يستعيدَ شيئاً من مقامه في مدينة الجزائر فالتفّ حوله الكثير من الأعراب حاول بهم استعادة تلمسان. ولكنّ جيوش عثمان الزيّاني ردّته على أعقابه بعد أن استبيح معسكره، وانتهبت فساطيطه، وقتل ابنه النّاصر. وفرّ أبو الحسن المريني إلى الصحراء في الجنوب صوب سجلماسة التي اقتبلتْه بحماس كبير نظراً للسمعة التي كانت له في السابق.

ولم يغفل ابنه أبو عنان (سلطان المغرب) عن تحرّكات والده فتصدّى له في عدّة معارك. كان من أعنفها المعارك التي جرت بينهما في جبل هنتاتة من أجل الاستيلاء على مرّاكش. وهي المعارك التي انتهت باستسلام أبي الحسن المريني، وطلب الإبقاء على حياته مقابل تنازله عن الحكم لفائدة ابنه أبي عنان. ولم يمهله الموت كثيراً بعد ذلك الاستسلام ففارق الحياةَ في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة 752هـ[526] بعد حياة طويلة حافلة بالمجد والحروب والمغامرات استمرّت حوالي ثمانية عشر عاماً قضى منها بإفريقية حوالي سنتين ونصف السنة.

(526) الزركشي (89 - 90).

الفصل السّابع

عَودَة السِّيادة الحفصِيّة، وَبنُو مَرين مرّة ثانيَة

عودة السيادة الحفصية

أما بالنسبة لأبي الفضل المريني الذي تركه والده أبو الحسن والياً على تونس من بعده، واختاره هو بالذات نظراً لأنه صهر حمزة بن عمر أحد زعماء أولاد أبي الليل، فإنه اكتفى بالاختفاء والاحتماء بقصره عندما هاجت العامّةوهاجمته بعد أن بلغتها مسيرة الفضل الحفصي صوب العاصمة. وما إن وصل الفضل الحفصي من الجريد وحاصر أبا الفضل المريني حتى استسلم هذا الأخير فأمّنه الفضل ودفع به إلى أنصاره الكعوب فبعثوا معه من بلّغه مأمنَه ملتحقاً بأبيه أبي الحسن في الجزائر[526م].

ويتحدث صاحب العبر عن ذلك بقوله: «.. فلمّا أطلّت رايات المولى الفضل على تونس أيام الحج نبضت عروق التشيّع للدعوة الحفصيّة وأحاطت الغوغاء بالقصر ورجموه بالحجارة. وأرسل أبو الفضل إلى بني حمزة متذمّماً بصهرهم. فدخل عليه أبو اللّيل وأخرجه ومن معه من قومه إلى الحيّ. واستركب له من رجالات بني كعب من أبلغه مأمنه، وهداه السبيل إلى وطنه. ودخل الفضل إلى الحضرة وقعد بمجلس آبائه من الخلافة، وجدّد ما طمسه بنو مرين من معالم الدولة[527] وابتدأ ينظّم أموّره». واستطاع أن يوصل ما انقطع من تسلسل السيادة الحفصية على إفريقية.

(526م) الزركشي (89 - 90).
(527) العبر (6 :825 - 826).

ولَمْ تكن هذه النتيجة التي وصل إليها الفضل الحفصي عن عبقرية فيه، أو عن قوّة عتاد عنده. وإنّما الظروف العامّة الدّاخلية والخارجية هي التي هيأت له تلك النتيجة. ولعلّ أكبر هفوة ارتكبها أبو الحسن المريني تتمثل في رغبته الجامحة في توسيع نفوذه وسيادته على مناطق شاسعة دون أن تكون له القوة الكفوءة المساندة فعلاً أو حتى المتعصّبة التي تجعله يطمئنّ على بقاء سيادته إذا هو ابتعد عنها. يضاف إلى ذلك أن توسيع مناطق نفوذه جعله يعتمد على جيوش جنّدها من أتباع خصومه ومهزوميه ممّن لا يتوقّع منهم صدق اللّقاء عند الجدّ.

وقد مرّ كيف أن جيوش زناتة التي أتى بها بعد استيلائه على تلمسان هي التي سبّبت له الهزيمة في معركة القيروان، وزيادة على ذلك بُعْدُه عن مركز دولته في المغرب الأقصى؛ فإنّ عدم إخلاص أبنائه له ساعد على المزيد من توهين قواه والتعجيل بنهايته مِمّا سهل ـ كما قلنا ـ على الفضل الحفصي أن يستعيدَ نفوذ آبائه وأجداده على إفريقية.

عودة ابن تافراجين
ومقتل الفضل الحفصي

ما إن انتصب الفضل بن أبي بكر على السلطنة الحفصية حتى شرع في تنظيمها من جديد، فعيّن حاجباً له أبا القاسم بن عتّو صاحب بلاد الجريد، وهو الركيزة الأولى التي أوصلته إلى منصب السلطنة. وبما أن ابن عتّو كان ـ إذ ذاك ـ بعيداً في بلاده فقد سمّى الفضل حاجباً مؤقتاً نيابةً عنه ريثما يأتي إلى العاصمة، وهو أحمد بن محمد بن عتّو. وجعل قيادة الجيش لمحمد بن الشوّاش. أما الشخصية التي كانت أشدَّ قوةً وأكثرَ نفوذاً فهو قتيبة بن حمزة بن عمر إذ كان بمثابة السلطان غير المتوّج فكان الحاكم المستبدّ بأمر السلطنة دون منازع.

وإذا كانت الدسائس والمؤامرات لعبت دوراً كبيراً في البلاط الحفصي فجرّت الويـلات والفتـن فإن تلك المؤامرات تكون أشدّ خطراً وأكثر مفعولاً على نسبة ما للسلطان من قوة الشخصية وشدّة الشكيمة أو ضعفهما، وأنه بقدر ما يكون لشخصية مّا من النفوذ والسطوة تكون حدّة تلك المؤامرات والدسائس.

ومن أجل ذلك فإن قتيبة بن حمزة استهدف ـ من أول الأمر ـ للدسائس والمؤامرات لشدة سطوته واستبداده على السلطان الحفصي الجديد. فقد سعت بطانة السلطان إلى إبعاده وتعويضه بأخيه خالد بن حمزة. ولعب في ذلك ابن عتّو دَوراً كبيراً مستميلاً إليه خالداً بن حمزة. ولكنّ أخاه قتيبة استطاع أن يصمد أمام تلك الدسائس والمؤامرات وكادت تقوم الفتنة السافرة

بين الأخوين فأخذا يستعدان للحرب لولا قدوم كبير أولاد أبي الليل عمر بن حمزة ومعه أبو محمد عبدالله بن تافراجين. وقد سبق أن عرفنا الأدوار الكبيرة التي لعبها ابن تافراجين بعد وفاة السلطان أبي بكر حتى اضطر هذا الحاجب الكبير إلى مغادرة إفريقية والتوجّه إلى المشرق إثر انهزام ابن أبي دبّوس واستعادة أبي الحسن المريني لمدينة تونس. وأثناء موسم الحج التقى ابن تافراجين بكبير أولاد أبي الليل (عمر بن حمزة) فاتفقا معاً على أن يعودا إلى إفريقية، وأن يتعاونا ضد السلطان الحفصي الجديد. وعندما وصلا إفريقية كان الخلاف على أشدّه بين زعماء أولاد أبي الليل: قتيبة وخالد، فتدخل بينهما عمر بن حمزة حتى تصالحا، وأزالا ما بينهما من شحناء. ثم اتفق زعماء أولاد أبي الليل على إبعاد أبي القاسم بن عتّو على أن يتولّى حجابة الفضل (المتوكل على الله) ابن تافراجين. إلّا أن السلطان المتوكّل امتنع من إجابة ما عرضه عليه أولاد أبي الليل فالتجأ هؤلاء إلى التظاهر بالقوة، وأحاطت أحياؤهم ورجالُهم بالعاصمة، وطلبوا من السلطان الحفصي أن يخرج إليهم ويتفاوض معهم في شأن حجابة ابن تافراجين. ولم يكن ذلك إلّا فخّاً نصبوه للمتوكّل، فما إن خرج حتى قبضوا عليه وقادوه إلى مضاربهم وخيامهم. ثم أذنوا لابن تافراجين بالدخول للعاصمة والاستيلاء عليها. وقد تمّ ذلك في الحادي عشر من جمادى الأولى سنة 751 (جويلية 1350). وأعلن عزل السلطان «المتوكّل على الله». ثم ذهب إلى أحد إخوة السطان المعزول ـ وهو إبراهيم بن أبي بكر الحفصي، وكان طفلاً صغيراً لا يتجاوز عمره الثالثة عشرة[519] ـ فاستخرجه من عند أمّه «.. بعد أن بذل لها من العهود والمواثيق ما رضيتْه. وجاء به إلى القصر وأقعده على كرسي الخلافة، وبايع له النّاس خاصّةً وعَامّة وهو يومئذ غلام مناهز فانعقدت بيعته[520] ودخل بنو كعب وأعلنوا عن طاعتهم. ثم أوتي له بأخيه الفضل يستوثقه فاعتقل وقُتِل

(519) برنشفيك (1 :172).

(520) العبر (6 :828) والزركشي (92).

ليلتَه في ظروف غامضة يقول عنها ابن القنفذ: «الله أعلم بكيفيتها»[521] بينما يقول ابن خلدون وتابعه الزركشي «.. وغُطَّ بجوف الليل بمحبسه حتى فـاظ»[522]. وبذلك انتهت حياة الفضل بن أبي بكر بعد خمسة أشهر واثني عشر يوماً من انتصابه على عرش السلطنة الحفصية.

أما حاجبه ابن عتّو فقد حاول الفرار مختفياً في مجاهل المدينة إلّا أنه اكتشف أمره بعد ليلة من اعتقال سلطانه المتوكل. ونـاله من الامتحـان والتعذيب ما أودى بحياته هو كذلك.

(521) الفارسية (174).

(522) العبر (6 :828). الزركشي (92).

ابن تافراجين السلطان غير المتوّج

كانت نتيجة مؤامرة ابن تافراجين أن أصبح بيده كلّ شيء، وله التصرّف المطلق في شؤون الدولة. وماذا سيفعل معه هذا السلطان الغلام الذي جاء به من حجر أمّه وأضفى عليه لقب «المستنصر بالله».

وما إن استقرّ الأمر بابن تافراجين حتى كاتب عمّال السلطنة ليبعثوا بمبايعتهم وولائهم للسلطان الجديد. واستجاب عمّال الجنوب لرغبة ابن تافراجين فبعث عمّال توزر ونفطة بالبيعة ما عدا الجنوب الشرقي بزعامة أحمد بن مكيّ في قابس وجربة نظراً للخصومة القائمة بينه وبين ابن تافراجين منذ عهد السلطان أبي بكر.

ولم يقف بنو مكّي عند حدّ الإعراض عن المبايعة، بل أخذوا يؤلّبون الرأي العام ضدَّ ابن تافراجين وسلطانه الغلام، فاتصلوا بأولاد مهلهل خصوم أولاد أبي الليل ومنافسيهم في رئاسة الكعوب[523] فاستجابوا لبني مكي خاصة أن خصومهم أولاد أبي الليل كانوا متحالفين مع ابن تافراجين. واشتدّ أزر أولاد مهلهل بتحالفهم مع بني حكيم من قبائل علّاق. وشرعت هذه القبائل المتحالفة تشن الغارات على تونس العاصمة وضواحيها دون أن تتمكّن من التغلّب على ابن تافراجين وإزالة سلطانه «المستنصر بالله». ولهذا ـ ومثل العادة ـ فكّرت تلك القبائل في شخصية حفصية يحاربون باسمها، فكان

(523) العبر (6 :829).

اختيارهم على أبي زيد عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر الحفصي المتولّي على قسنطينة. فذهبوا إليه وأخذوا يستحثونه على النهوض إلى إفريقية واستخلاص ملك آبائه مِمَّن استبدّ عليه واحتازه[524] لنفسه. واستجاب أبو زيد عبد الرحمان لإغراءات القبائل فأرسل معهم جيشاً كبيراً. وأنفق عليه مالاً وفيراً، وجعله تحت قيادة العلج ميمون[525] واتجه الجيش صوب إفريقية. إلّا أن الحاجب ابن تافراجين - عندما بلغه ما فعله صاحب قسنطينة - استعدّ للأمر، ولم يترك الفرصة لذلك الجيش حتى يعبر الحدود فأرسل لصدّه جيشاً بقيادة قتيبة بن أبي الليل فالتقى الجمعان في بلاد هوّارة شرقي القطر الجزائري فكانت الدائرة على أولاد أبي الليل وقتل قتيبة. ورجع فلّهم إلى تونس وامتدت العساكر في البلاد والأوطان. وجبوا الأموال وانتهوا إلى المديّة. ثم قفلوا إلى قسنطينة: وتولّى على أولاد أبي الليل - مكان قتيبة - أخوه خالد بن حمزة[526] وبذلك يبدو أن جيش قسنطينة لم يكن على استعداد لمواصلة زحفه فعاد إلى قسنطينة بعد أن امتدت فيالقه في البلاد إلى أن بلغوا أُبّة[527].

(524) العبر (6: 829).
(525) الزركشي (93).
(526) العبر (6: 829) والزركشي (93).
(527) العبر (6: 829).

واقعة مرماجنّة وتدخل بني مرين

لم ينفكّ ابن مكّي ـ صاحب قابس ـ من جهته يحرّض أبا زيد عبد الرحمان على غزو إفريقية واحتلال تونس، متعهّداً له بالأمداد والأموال، وعطايا الأعراب، وتحزيب القبائل وتجميعها. وأنه وافدٌ عليه من أولاد مهلهل إذا هو قبل ذلك. وللمرّة الثانية استجاب الأمير أبو زيد عبد الرحمان للتحريض على غزو إفريقية. وفي ربيع الثاني سنة 753 هـ. وصل أحمد بن مكّي إلى قسنطينة مع أولاد مهلهل فاقتبله أبو زيد عبد الرحمان وقلّده منصبَ الحجابة، وأوكل إليه شؤون الإمارة، والاستعداد لغزو إفريقية. وبذلك يبدو واضحاً أن هذا الصراع بين الحفصية الشرقية وحفصية قسنطينة كان لا يدبّر أمرَه المستنصرُ صاحبُ تونس ولا أبو زيد صاحب قسنطينة وإنما هو صراع بين الحاجبين لهما: ابن مكّي حاجب أبي زيد، وابن تافراجين حاجب المستنصر.

والغريب أنّ ابن تافراجين لم يتولَّ هو قيادة الجيش المجابه لجيش قسنطينة، وإنّما جعل عليه السلطان الطفل (المستنصر بالله). إذ جهّز له جيشاً بكلّ العتاد والرّجال، وجعل قيادته لأحد الفقهاء هو الشيخ محمد ابن نزار الذي كان يعلّم أبناء العائلة الحفصية ويقرئهم القرآن. والتقى الجمعان في مرماجنّة. وسرعان ما اختلّ مصاف جيش المستنصر وفرّوا منهزمين. فلم يسعه هو إلا أن يهرب مع البعض من أتباعه عائداً إلى تونس. وكان جيش قسنطينة ـ هذه المرّة ـ أكثر عزماً على غزو إفريقية والاستيلاء على مدينة تونس؛

فقد تابع جيش قسنطينة فلول المنهزمين إلى أسوار تونس، وحاصرها أياماً. لكن المدينة «امتنعت عليهم فارتحلوا إلى القيروان ثمّ إلى قفصة»(528).

وكان سير الأحداث يقوّي احتمال تغلّب صاحب قسنطينة على المستنصر الحفصي وحاجبه ابن تافراجين لولا أن أحداثاً خارجية شغلت صاحب قسنطينة وجعلته يبادر بالعودة إلى عاصمته تاركاً بقية جيشه في قفصة تحت ولاية أخيه أبي العباس. وكان موجب ذلك أمرين هامّين:

الأمر الأول أن ابن تافراجين فتح واجهة غربية تهدد قسنطينة بالاحتلال عندما تحالف مع صاحب بجاية وحرّضه على مهاجمة قسنطينة حتى يجعل أبا زيد عبد الرّحمان بين موقفين إما استمراره على محاربة الحفصية التونسية ولو أدّى ذلك إلى سقوط عاصمته في يد صاحب بجاية وإمّا أن يعود أدراجه إليها وينقذها من ذلك الاحتلال.

الأمر الثاني هو تواتر الخبر أن أبا عنان سلطان بني مرين جدّد مطامح والده في الاستيلاء على كافة أقطار المغرب الإسلامي، وأنه استولى ـ فعلاً ـ على المغرب الأوسط فاحتلّ تلمسان، وأزال عنها دولة بني عبد الواد الزيانيين، وأنه يواصل زحفه نحو الشرق وأصبح غير بعيد عن قسنطينة.

تلك هي ـ إذن ـ الأسباب التي أجبرت أبا زيد عبد الرحمان على العودة إلى قسنطينة تاركاً مهمة القتال في إفريقية إلى حاجبه ابن مكّي وأولاد مهلهل بقيادة أخيه أحمد «يجتمعون إليه ويحاربون باسمه».

أما بخصوص السلطان المريني أبي عنان فقد عزم على استرجاع ما استولى عليه أبوه في المغربَيْن الأوسط والأدنى مبتدئاً في ذلك بمملكة تلمسان الزيّانية. وسواء أقدمَ على ذلك مباشرة، أو أن ملك تلمسان لم يستجب لشفاعته في بني مغراوة فالمهمّ أن أبا عنان أشهر الحرب على أبي سعيد عثمان واحتلّ عاصمته تلمسان، وقتله بعد تسعة أيام من اعتقاله بعد أن

(528) العبر (6: 830).

أفتاه الفقهاء وأربابُ الفتيا بحرابته[529] وأفلت أخوه أبو ثابت من الأسر ونزل بوادي شلف من مغراوة على عزم مواصلة المقاومة ضد أبي عنان وجيشه وانتدب أبو عنان وزيره فارس بن ميمون لمطاردته. إلّا أن أبا ثابت استطاع أن يفلت مرّة أخرى من الأسر، وأن يوغل في البعد عن عساكر بني مرين. وأيقن هؤلاء بأن لا يرتاح لهم بال ما دام أبو ثابت الزيّاني حيّاً يعمل على مقاومتهم فكاتبوا أمراءهم في الثغور يخطرونهم بفرار أبي ثابت، ويأمرونهم باعتقاله متى عثروا عليه.

وكان من بين أمراء الثغور الذين وقعت مراسلتهم الأمير أبو عبدالله محمد الحفصي صاحب بجاية. والمعروف أن هذا يدين بالفضل لأبي عنان المريني، لأنه هو الذي أعاده أميراً على بجاية بعد أن كان مبعداً في المغرب الأقصى من قبل أبي الحسن المريني، وأن درجة ولائه لأبي عنان أدت به إلى منع أبي الحسن المريني من التزود بالماء عندما كان عائداً من تونس إلى المغرب الأقصى تنفيذاً لأمر ولي نعمته عليه. وجاءت الفرصة الأخرى لصاحب بجاية لإظهار ولائه وصدق إخلاصه لوليّ نعمته أبي عنان المريني، فما إن وصلته رسالة أبي عنان الدّاعية إلى البحث عن أبي ثابت الزياني واعتقاله حتى «بعث العيون بالمراصد ومختلف جهات إمارته» فعثروا على بني زيّان الهاربين بضواحي بجاية واعتقلوهم. وجاؤوا بهم إلى أبي عبدالله الحفصي. وكان من ضمن المعتقلين محمد بن السلطان الزيّاني المقتول وأخوه الزعيم أبو ثابت، ووزيرهم يحيى بن داود فأرسل بهم جميعاً إلى السلطان أبي عنان[530].

وظن أبو عبدالله الحفصي أنه بعمله ذاك سوف يزداد حظوة واعتباراً عند أبي عنان المريني، وسوف يزداد تمكّناً وتوسُّعاً في إمارته. وإذا كانت

(529) الاستقصا (3 :183).

(530) العبر (6 :831 - 832) وفي الاستقصا (3 :183) أنه أبقاهم عنده حتى وفد بهم على أبي عنان بالمديّة.

المصادر المتوفرة الآن لا تشير إلى غير ذلك فإنه لا يستبعد أن أبا عبدالله الحفصي كانت نفسه تحدثه بأن أبا عنان سوف يجازيه على مواقفه معه بأكثر من ذلك، وأنه سوف يمكنه من السلطنة الحفصية بكاملها. ومهما يكن من أمر فإن أبا عبدالله الحفصي قرّر أن يفد على أبي عنان المريني بالمديّة بعد أن بعث إليه بخصومه الزيانيين في الأغلال. وعندما وصل اقتبله السلطان المريني أحسن قبول وعامله معاملة الندّ للندّ، فقد ذهب لاستقباله خارج المديّة. ولما تلاقت أنظارهما على بعد نزل أبو عبدالله الحفصي عن فرسه تعظيماً للسلطان أبي عنان فنزل كذلك السلطان المريني عَن فرسه تقديراً له وتعظيماً لمنزلته[531] وأكرم وفادته، وأجزل له في العطاء.

(531) الاستقصا (3: 183).

أبو عنان المريني يستولي على بجاية

في إحدى خلوات أبي عنان المريني مع الأمير أبي عبدالله الحفصي اشتكى هذا الأخير ممّا يعانيه في إمارته على بجاية وممّا «يلقاه من رعيته من الامتناع من الجباية، والسعي في الفساد، وما يتبع ذلك من شقاق الحامية واستبداد البطانـة».

وكان مقصد الأمير الحفصي من بث تلك الشكوى أن يلقى من السلطان المريني ـ على الأقل ـ ما يثبت به قدَمَه على إمارة بجاية، ويقوّي نفوذه فيها، بينما السلطان أبو عنان انتهز فرصة تلك الشكوى، وعرض عليه أن يتخلّى عن تلك الإمارة المشاغبة. وأنه سوف يعوضه بدلاً عنها بما هو خير. وهو أن يوليه على مكناسة الزيتون بالمغرب الأقصى. وفي ذلك الرّاحة له والاطمئنان، والتجلّة والتعظيم من السلطان. ولم يكن في إمكان أبي عبدالله الحفصي الرّفض والامتناع. ولهذا استجاب لعرض السلطان المريني «على اليأس والكره» حسب عبارة ابن خلدون[532]. ولم يكتف أبو عنان المريني بذلك فأوعز إلى أبي عبدالله الحفصي أن يعلن عن ذلك أمام الملأ من بني مرين. وأمره أن يكتب بخطه إلى عامله ببجاية بالتنازل عنها، وتمكين عمّال السلطان المريني منها. ولم يمكّن أبو عبدالله الحفصي حتّى من العودة إلى بجاية لجلب أهله وأمتعته وتوديع الناس. واكتفى بأن بعث مولاه «فارح» مع العامل المريني الجديد علي بن عمر الوطاسي ليأتيه بأهله وولده[533].

(532) العبر (6 :832) والزركشي (94).
(533) العبر (6 :832).

عودة بني مرين إلى تونس

1 ـ ما بعد بجاية:

لم يكن موقف الاستسلام أو التنازل الذي وقفه أبو عبـد الله الحفصي ـ راضياً أو كارهاً ـ محلّ القبول والاستحسان من أهل الحلّ والعقد في بجاية وحتى من مولاه «فارح» الذي كان له النفوذ والسطوة في عهده. ولهذا فمّا إن وصل فارح مع العامل المريني إلى بجاية حتى بدأ أهل الحلّ والعقـد فيهـا ـ بالتعاون مع فارح المذكور ـ في العمل على التخلص من الوالي المريني الجديد بقيادة منصور بن إبراهيم زعيم الصنهاجيين في بجاية. وكانت الخطة أنهم يذهبون إلى الوالي المريني بدعوى التسليم عليه في القصبة «.. وغدوا عليه بداره من القصبة فأكبَّ عليه منصور بن [إبراهيم] يناجيه فطعنه» ثم أجهز عليه بقية الدّاخلين فقتلوه كما طعن القاضي ابن فركان المشايع لبني مرين. فمات بمنزله. وشاعت الفوضى في المدينة. ونادت الجماهير بالدعوة لابن أبي زيد الحفصي صاحب قسنطينة. إلاّ أن هذا الأخير تريّث في أمره، ولم يستجب لدعوة أهل بجاية. وعندما بلغ الخبر إلى أبي عنان في تلمسان اتّهم أبا عبدالله الحفصي بذلك وأودعه السجن. واستمرّ عصيان بجاية أياماً حتى هدأت الضجة بعد أن تبين لأعيانها سوء المصير بعملهم ذلك خاصة أن صاحب قسنطينة لم يجارهم فيما فعلوه، ولم يلبّ تحريضهم للقدوم عليهم، فخافوا من بطش المريني بهم. ولهذا قاموا بثورة مضادة على فارح وقتلوه وبعثوا برأسه إلى أبي عنان في تلمسان، فأبعد التهمة عن أبي عبـدالله الحفصي وعيّن والياً جديداً على بجاية وبعث إليها بحاجبه محمد بن أبي

عمرو فعاقب المتآمرين وفرّ الكثير منهم إلى تونس(534). وهكذا تمّ إلحاق إمارة بجاية الحفصية بسلطنة بني مرين للمرّة الثانية.

وقبل إلحاق إمارة بجاية بسلطنة بني مرين ألحقت بهذه السلطنة مدن الجزائر ومتيجة والمديّة. أما بسكرة ونواحيها من الجنوب الشرقي الجزائري فقد انقادت إلى أبي عنان المريني رغم بعدها عنه إذ وفد عليه في المديّة واليها يوسف بن مُزَنِي ومشائخ الذواودة فبايعوه على الطاعة والولاء، ولو أنه استبقى أبناءهم رهينةً عنده توثيقاً لانقيادهم وخوفاً من انتقاضهم. وبذلك لم يبق من الحفصية الغربية خارجاً عن نفوذ أبي عنان المريني إلاّ إمارة قسنطينة.

2 ـ سقوط قسنطينة في يد المرينيين:

كلّف السلطان أبو عنان واليّه الجديد على بجاية بمهمة غزو مدينة قسنطينة بالإضافة إلى عمله الجديد في بجاية، فاستعدّ لذلك محمد بن أبي عمرو. وما إن بلغت أخبار ذلك مسامع أبي زيد الحفصي حتى أخذ يستعدّ لمجابهة المرينيين. وصادف أن كان محبوساً عنده أحد أبناء السلطان أبي الحسن المريني المسمّى أبا عمر تاشفين. وكان موسوساً في عقله، معروفاً بالجنون فأطلقه من سجنه ونادى به سلطاناً مرينياً نكايةً في أخيه أبي عنان. وجهز له جيشاً بالمعدات والرجال ليجابه جيوش بني مرين الزاحفة على قسنطينة. إلاّ أن هذه «اللعبة» التي قام بها أبو زيد عبد الرحمّان لم تجدِهِ نفعاً رغم انحياز بعض المرينيين إلى هذا الموسوس. وبعد جولات عديدة بين القوات المرينية وجيش أبي زيد صاحب قسنطينة اضطر هذا الأخير إلى عقد الهدنة والكفِّ عن المقاومة مقابل تسليمه للمريني الموسوس إلى عامل بجاية الذي بعثه بدوره إلى أخيه أبي عنان فأنزله ببعض الحجر ورتّب عليه الحرس(535) ورغم ذلك فقد أصرّ أبو عنان على عزمه بخصوص ضمّ عمالة

(534) انظر عن تلك الأحداث العبر (6 :831 - 833) ـ الاستقصا (4 :184 - 185).

(535) العبر (6 :835).

قسنطينة إلى سلطنته. ولهذا عندما توفّي عامله صاحب بجاية عيَّن بدَلَه في مفتتح سنة 755 هـ. (ديسمبر 1354) والياً جديداً على بجاية هو وزيره عبدالله بن علي بن سعيد، وأوكل إليه أيضاً مهمة القضاء على السلطنة الحفصية في قسنطينة إيماناً منه بأن الوصول إلى إفريقية لا يتم إلاّ بالاستيلاء الكامل على الحفصية الغربية. وبدأ الأمير أبو زيد يشعر بشدّة الضغط المريني عليه فبعث إلى أخيه أبي العباس أحمد يستنجد به ويطلب منه أن يقدم عليه من تونس.

ومعلوم أن أبا العباس أحمد الحفصي كان قد تركه أخوه أبو زيد في تونس ليواصل الحربَ ضد عمهما المستنصر وحاجبه ابن تافراجين. وكان يسانده في ذلك الحاجب أحمد بن مكّي صاحب عملي قابس وجربة[536] وقد قام أبو العباس هذا بعدّة أعمال في إفريقية أكسبته شيئاً من الشهرة والمهارة من أبرزها انتصاره على محمد بن ثابت صاحب طرابلس الذي حاول ضمّ جربة إلى عمله. ومنها كذلك أنّ صفَّهُ ضد ابن تافراجين والمستنصر الحفصي قد تقوّى بانضمام خالد بن أبي الليل إليه بعد أن فسدت العلاقة بينه وبين ابن تافراجين. وعندما دعاه أخوه أبو زيد إلى نجدته التحق به صحبة خالد بن أبي اللّيل لتتعزز بهما المقاومة الحفصية أمام القوات المرينية الضاغطة.

3 ـ تخاذل بني حفص أمام أبي عنان المريني:

بدل أن يتحد الحفصيون ضد عدوهم المشترك (بني مرين) فإننا نجد الأمير أبا زيد يترك أخاه أبا العباس في قسنطينة ويتوجه هو إلى تونس صحبة خالد بن أبي الليل ليستخلص تونس من عمّه المستنصر وابن تافراجين. ولكنّ الأمير أبا زيد خسر الصفقتين. وخرج صفر اليدين من مغامرته تلك فهو ـ من ناحية ـ لم يستطع أن يفعل شيئاً في تونس إذ صدّه ابن تافراجين

---

(536) العبر (6 :838).

ورجع على أعقابه يائساً من احتلال تونس، ومن ناحية أخرى تنكر له أخوه أبو العباس أحمد واستبدّ بالأمر دونه في قسنطينة. وكان موقف أهالي قسنطينة مشجعاً له على ذلك التنكّر والعصيان. وقد ذكر الزركشي في تاريخ الدولتين[537]: أن أهالي قسنطينة تمسكوا بواليهم أبي العباس أحمد لديانته وعقله، فوقف وباشَرَ المحاصرين قبل بيعته. وكُتِبَ رسمٌ شهد فيه جماعة من عدول البلد وكبرائها أنّ الأمير أبا زيد لا قدرة له على مدافعة ما وقع بالبلد، ولا على القيام بأمرها لعجزه عن ذلك. وأن أولى الأمراء بالمبايعة للمدافعة أخوه أبو العباس أحمد فبويع في شعبان سنة ستٍ وخمسين وسبعمائة.

وعندما رجع الأمير أبو زيد خائباً من حملته على تونس وجد أبواب عاصمته قسنطينة موصدة أمامه فتركها وتوجّه إلى عنّابة. ومن هناك ـ وقد انسدّت أمامه السبل ـ فضّل أن يلقي جانباً بعصًا المغامرات. وبعث إلى خصمَيْهِ بتونس: عمّه المستنصر وحاجبه ابن تافراجين يطلب منهما العفو والسماح له بالإقامة في تونس مقابل التنازل لهما عن مدينة عنّابة، وهي المدينة الوحيدة التي بقيت على ولائها له. وأجابه ابن تافراجين إلى طلبه ونزل ـ هذا الأمير الشريد ـ عند عمّه المستنصر فأوسع له المنزل، وأسنى له الجرايات والجوائز، وأقام في كفالته[538].

وظلّ أبو العباس أحمد يحاول صدّ الحملات المرينية على قسنطينة. واستطاع في الجولات الأولى أن يسجل عدّة انتصارات على الجيوش المرينية التي جاءت تحاصر قسنطينة خاصة المعركة التي سجل فيها انتصاراً باهراً على جيوش موسى بن إبراهيم بسبب تقاعس والي بجاية عن مساعدته.

وعندما بلغ خبر هذه الهزيمة إلى السلطان أبي عنان نزل عليه كالصاعقة وقرر أن يقود بنفسه حملة عسكرية ضد بني حفص في قسنطينة. ومن هناك يتوجه إلى تونس.

---

(537) الزركشي (95).

(538) العبر (6 :840).

4 ـ أبو عنان يستولي على قسنطينة:

ظل أبو عنان المريني عدّة أشهر يستعد لتلك الحملة، فلمّا تمّ له حشده توجه سنة 758هـ. إلى بجاية أولاً. ثمّ سار إلى قسنطينة التي باتت على خوف شديد لا سيما أن النجدة التي طلبها أبو العباس من عمّه صاحب تونس لم تجد آذاناً صاغية ولا وجهاً للاستجابة.

وحاصر أبو عنان بشدة أبا العباس الحفصي في قسنطينة حتى طلب هذا الأخير الأمان مستسلماً لسلطان بني مرين. ومُنِح الأمير الحفصي الأمان فخرج من الحصار ونزل عندَ أبي عنان نفسه حيث أبقاه عنده أيّاماً ثمّ «بعث به في الأسطول إلى سبتة واعتقل هناك»[539].

وهكذا سقط آخر معقل للمقاومة الحفصية في قسنطينة واستولى بذلك أبو عنان المريني على كامل الحفصية الغربية. وكان هذا الاستيلاء نتيجة حتمية للخلافات والانقسامات والفتن بين أفراد الأسرة الحفصية نفسها إذ بدَلَ أن يتحد أفراد تلك الأسرة ضد عدوّهم المشترك فإنهم كانوا يتقاتلون ويخون بعضهم بعضاً دأبهم في ذلك منذ زمان.

وتطايرت انتصارات أبي عنان إلى مختلف جهات إفريقية فجاءته البيعة من أقصى أطرافها إذ وصلته بيعات نفطة وتوزر وقابس وغيرها. ووفد عليه أولاد مهلهل وأبي الليل من الكعوب يستحثونه ويحرضونه على امتلاك تونس[540] وانتزاعها من بقية الحفصيين الممثّلين في السلطان المستنصر وحاجبه ابن تافراجين. وعادت من جديد صورة التخاذل التي ظهرت سابقاً في عهد أبي الحسن المريني. وإذا كانت نتائج تلك الصورة انتهت بهزيمة المرينيين وانسحابهم من إفريقية، وأن قبائل الأعراب وأمراء الأطراف لم يثبتوا على عهدهم، فإن تلك النتائج لم تكف لاتعاظ أبي عنان بما حصل لأبيه،

---

(539) الاستقصا (3: 202).

(540) الاستقصا (3: 202).

فقد استجاب هو ـ أيضاً ـ للنداءات والتحريضات الجديدة. وتقبَّلَ بيعة عمّال الأطراف. وعزم على غزو إفريقية الحفصية، وجَمْعِ أقطار المغرب الإسلامي تحت نفوذه كما حاول أبوه الحسن من قبله.

5 ـ استيلاء بني مرين على تونس:

ما إن انتهى أبو عنان المريني من الاستيلاء على الحفصية الغربية حتى أخذ يستعدّ لغزو الحفصية الشرقية. ولم يشأ ـ في بداية الأمر ـ أن يتجه إليها بقواته العسكرية بل سلك سبيل التفاوض. وحاول التواطؤ مع أقوى شخصية في البلاط الحفصي بتونس، فراسَلَ ابنَ تافراجين حاجب السلطان المستنصر يدعوه إلى الأخذ بطاعته والتنازل له عن تونس[541] اعتماداً على ما كان بينهما من مهاداة[542] وعلى التساند الذي كان قائماً بينهما ضدّ الأمير أبي زيد صاحب قسنطينة عندما سوّلت له نفسه محاربة عمّه المستنصر إذ كان من سياسة ابن تافراجين ـ إذ ذاك ـ تحريض أبي عنان المريني ـ بعد امتلاكه تلمسان ـ على مهاجمة قسنطينة حتى يضطر صاحبها (أبو زيد) إلى الإقلاع عن غزو إفريقية.

ولكن رغم كلّ ذلك فإن ابن تافراجين لم يستجب لرغبة أبي عنان في التنازل له عن تونس، لأن ذلك يتنافى مع مطامحه ـ منذ عهد أبي بكر الحفصي ـ في أن يكون صاحب الأمر والنهي في إفريقية. كما كانت تجربته الأولى مع أبي الحسن المريني قد أقنعته بأنه لا أمل له في تحقيق مطامحه مع بني مرين.

وناحية أخرى كانت لها صلة بفساد العلاقات بين أبي عنان وابن تافراجين هي أن أبا عنان أراد أن يسلك مسلكَ أبيه في التقرّب من البلاط الحفصي عن طريق المصاهرة. وبما أن ابن تافراجين هو الذي كان سبباً في

(541) العبر (6 :842) الزركشي (97).
(542) الفارسية (174).

إتمام المصاهرة بين أبي الحسن المريني وأبي بكر الحفصي، فقد أراد أبو عنان هو أيضاً أن يتزوج إحدى بنات السلطان أبي بكر. ولكنّ ابن تافراجين لم يقم بدور الوسيط ـ هذه المرّة ـ ولم تتمّ المصاهرة.

وأمام هذا الموقف السلبي الذي وقفه ابن تافراجين من رغبة السلطان أبي عنان قرّر هذا الأخير توجيهَ حملة عسكرية لاحتلال تونس. وتمثلت تلك الحملة في أسطول بحري بقيادة محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من بني الأحمر أصحاب غرناطة، وفي جيش برّي يقوده يحيى بن رحّو. وكان معه في جيشه أولاد مهلهل الوافدون على أبي عنان لحثه على غزو إفريقية.

وعندما وصلت الأنباء لتونس تفيد استعداد السلطان أبي عنان لغزو إفريقية، بقي هو في تونس، وجهّز جيشاً لسلطانه المستنصر مع أولاد أبي اللّيل ومن انضمَّ إليهم من الأعراب لملاقاة الجيوش البريّة القادمة من قسنطينة. وكان الأسطول المريني أسبقَ وصولاً إلى تونس فضرب عليها الحصار واستطاع الاستيلاء عليها بعد قتال يوم أو بعض يوم[543] إذ لم يستطع ابن تافراجين الثبات والمقاومة أمام الأسطول المريني فخرج هارباً من العاصمة والتجأ إلى المهدية. وقد تمّ ذلك في رمضان 758 (أوت 1357) ثمّ وصل الجيش البري بقيادة ابن رحو «..فدخل البلد وأمضى فيها أوامر السلطان المريني»[544].

(543) العبر (6 :842) الزركشي (97).
(544) العبر (6 :842).

فشل أبي عنان المريني
في السيطرة على الحفصية

يمكن إعادة فشل أبي عنان المريني في سيطرته واستيلائه على السلطنة الحفصية إلى عدّة أسباب منها:

1 ـ المصاهرة المرفوضة:

كان من ضمن رجالات الجيش المريني الذي وصل إلى تونس ـ عن طريق البر ـ الشيخ الفقيه ابن مرزوق التلمساني، فقد أوفده السلطان أبو عنان ليخطب له إحدى بنات السلطان أبي بكر الحفصي بعد أن فشلت مساعيه في ذلك مع الحاجب ابن تافراجين. وكأنَّ السلطان أبا عنان أراد بذلك أن تزف إليه عروس حفصية يوم أن تزف إليه مدينة تونس. ويذكر كلّ من ابن القنفذ والزركشي[545] أنّ ابنة السلطان أبي بكر الحفصي امتنعت من الاستجابة لتلك الرغبة. وأن والدتها قالت للشيخ ابن مرزوق: غداً إن شاء الله يكون الحديث بمحضر القاضي وغيره. ولم يكن ذلك الإمهال إلاّ وسيلة تتمكن بها بنت أبي بكر الحفصي من الإفلات والهروب من ذلك العرض. وفي الغد ـ عندما رجع ابن مرزوق ـ لم يجدها في المكان الذي وقف عليها فيه «إذ اختفت عنه. وجدّ الطلب عنها فلم يجدها». ويذكر ابن القنفذ أن امتناع البنت من قبول زواجها من أبي عنان المريني يعود إل موقف شخصي منها إذ قالت

(545) الفارسية (174) والزركشي (97) وانظر ترجمته في الوفيات لابن القنفذ (373 - 374).

عنه: بلغني أن فيه قلقاً يمنعني من عشرته[546] ولكنّ مجرى الأحداث قد يبعد أن يكون ذلك هو السبب الحقيقي لرفض تلك الخطبة لاختلاف الظروف التي تمت فيها المصاهرات السابقة بين العائلتين المرينية والحفصية، ففي عهد أبي الحسن كانت المصاهرة في وقت لم يكن فيه المريني مناهضاً سافراً لبني حفص، ولم يقدم بعد على إزالة سلطانهم. وكان التكافؤ بين المتصاهرين يكاد يكون تاماً. أما هذه المرّة فإن أبا عنان المريني كان قادماً إلى إفريقية غازياً محارباً، مسجلاً عدة انتصارات على بني حفص، مزيلاً لسيادتهم وملكهم عن بجاية وعنّابة وقسنطينة. ولم يكن قبول الزواج منه ـ إذ ذاك ـ إلّا تنفيذاً من المغلوب لرغبة الغالب، والمقهور لسطوة القاهر. ولهذا لا يستبعد أن يكون ذلك الرفض من بنت أبي بكر الحفصي يمثل موقفاً سياسياً أملاه الشعور بالعزّة والأنفة من المذلة. ولهذا عندما خافت أن يتم ذلك بالقهر لاذت بالفرار مخافة أن تصبح بمثابة الجارية أو المغتصبة.

هذا هو ـ إذن ـ الوجه المتماشي مع أحداث تلك الفترة الذي يمكن أن يفسر به رفض تلك المصاهرة. وفعلاً فقد اعتبر أبو عنان المريني ذلك الرفض خدشاً في هيبته وكان يعتزم تنفيذه بالقوة. وقد عاقب ابن مرزوق على ذلك لأنه لم يجد البنت ولم يقبض عليها. فقد قال له أبو عنان: لماذا لم تضع اليد فيها. وكان جواب ابن مرزوق قوله: بنت سلطان يخطبها سلطان كيف أضع يدي فيها. وقد حبسه ستة أشهر بسبب ذلك[547].

2 ـ انتقاض بني رياح:

بالرغم من وصول البيعة من أطراف إفريقية لأبي عنان وهو بقسنطينة ـ مثل نفطة وتوزر وقابس ـ، ورغم قدوم يعقوب بن علي شيخ رياح والمبالغة في استضافته رغم كل ذلك فإن الظروف لم تسمح لأبي عنان بالقيام بعمل

(546) الفارسية (174).

(547) الفارسية (175).

حاسم يمكنه من التمكّن والاستقرار في إفريقية. وكان المثل الذي يقول: «من مأمنه يؤتى الحَذِر» جديراً بالانطباق على أبي عنان المريني. ذلك أن قبيلة رياح التي جاءته طائعة منقادة بزعامة شيخها يعقوب كانت أول من انتقض عليه وخالفه من أنصاره ومؤيديه. ويعود ذلك إلى العلّة المزمنة لدى قبائل الأعراب. إذ ما كان تأييد قبيلة رياح للسلطان أبي عنان إلا طمعاً في الاكتساب، وإطلاق اليد في النهب وابتزاز الأموال والأرزاق. ولهذا فما إن أحس بنو رياح أن أبا عنان لا يماشيهم في رغباتهم الجامحة، وأنه يراوغهم عندما طلب منهم الرهائن توثقاً لطاعتهم وانقيادهم، ما إن أحسوا بذلك حتى جاهروه بالعصيان والمخالفة، ولاذوا بالفيافي والقفار في الجنوب الشرقي من بلاد الجزائر. وحاول أبو عنان إدراكهم وتأديبهم. ولكنّ توغلهم في القفار جنوب بسكرة حال بينهم وبين السلطان المريني فعاد هذا الأخير إلى قسنطينة بعد أن فقد سنداً كبيراً كان يعوّل عليه فيما كان ينتويه من أعمال وفتوحات.

3 ـ تخاذل الجيش المريني:

عندما عدل أبو عنان المريني عن مطاردة بني رياح ـ بعد أن توغلوا في الصحراء ـ عاد إلى قسنطينة. وعزم على التوجه إلى تونس فغادر قسنطينة حتى وصل سبيبة. وكادت المواجهة تتم بينه وبين أبي إسحاق إبراهيم الحفصي لولا حدوث خلافات بين صفوف الجيش المريني كان لها الأثر الحاسم في تغيير الموقف على المسرحين السياسي والعسكري بإفريقية الحفصية؟ فقد أجمعت المصادر التي تحدثت عن تلك الفترة أن المرينيين سئموا مواصلة الحرب، وخافوا أن يصيبهم في إفريقية ما أصابهم في المرّة الأولى مع أبي الحسن المر يني[548] فأخذوا يتصايحون: المغرب! المغرب! ويحرض بعضهم بعضاً على العودة إلى المغرب الأقصى. وشرعوا يتسلّلون

(548) الزركشي (98).

خفية منفضّين من حول أبي عنان المريني حتى وجد نفسَه في قلة لا يستطيع أن يواصل بها الزحف، أو أن يواجه بها أولاد أبي الليل وأبا إسحاق الحفصي.

عودة أبي عنان ووفاته

وكان من نتيجة كل تلك العوامل والأسباب أن قرر أبو عنان المريني ـ مكرهاً ـ العودة إلى المغرب الأقصى مكتفياً بمغامرة استمرت سبعين يوماً[548م] دون أن يكتسب ما يضفي عليه المجدَ أو مظاهرَ البطولة. وكان تخاذل جيشه وأنصاره أكبر الأسباب التي أدت به إلى الفشل. وقد وصل الأمر ببعض أتباعه ومناصريه إلى التآمر عليه بالاتفاق مع وزيره فارس بن ميمون، كما وصل الأمر بالبعض منهم إلى التفكير في اغتياله وتنصيب إدريس بن عثمان أبي العلاء بدله[549]. ولهذا فما إن وصل إلى عاصمته فاس حتى بادر بقتل وزيره فارس بن ميمون والكثير من شيوخ بني مرين[550] ولم يسلم الشيخ ابن مرزوق ـ كما قدمنا ـ من العقاب فحبسه ستة أشهر لأنه لم ينجح في خِطبته ابنة السلطان أبي بكر الحفصي[551].

ويبدو أن كل تلك الأحداث التي جرت على أبي عنان المريني لم تصل به إلى اليأس من الحفاظ على ما استولى عليه من ممتلكات السلطنة الحفصية لا سيما أن قسنطينة كانت مهددة بالخروج من سيادته من قبل

(548م) الزركشي (98).

(549) الزركشي (98).

(550) الاستقصا (203).

(551) الفارسية (175).

يعقوب بن علي الرياحي ومن معه من أعراب الذواودة فاستدعى «سليمان بن داود من مكانه بجبل طارق، وعقد له على وزارته وسرحه في عساكره إلى إفريقية»[552]. وارتحل أبو عنان إلى تلمسان حتى يكون على مقربة من أعمال وزيره في جهات قسنطينة لتأديب الأعراب المخالفين. وتعاون الوزير سليمان بن داود مع يوسف بن مزني، صاحب بسكرة، على خضد شكوة بني رياح والذواودة. وعاد إلى تلمسان حيث كان في انتظاره سلطانه أبو عنان. إلاّ أن الموت لم يمهل طويلاً أبا عنان فأدركه الأجل في ذي الحجة من سنة 759 (1358 م).

ويسود وفاةَ أبي عنان شيء من المأساة. ذلك أن المرض أدركه بعد صلاة عيد الأضحى فلم يتمكن حتى من الجلوس للناس لتقبل التهاني بالعيد. وتبدأ المأساة منذ ذلك اليوم، ويلعب الوزير حسن بن عمر دوراً كبيراً في ذلك؟ فقد كان بينه وبين ولي العهد (أبي زيان محمد) نفرة مستحكمة. واتفق هذا الوزير مع من كان على رأيه من خاصة السلطان على تحويل ولاية العهد من أبي زيّان إلى أخيه الطفل أبي بكر سعيد. ثم دبّرت مؤامرة انتهت بقتل أبي زيان محمد في إحدى غرف القصر السلطاني عندما كان أبوه على وشك الوفاة. واستبطأ أصحاب المؤامرة وفاة السلطان أبي عنان فدخل عليه وزيره حسن بن عمر فغطّه وخنقه حتى فاظت أنفاسه. وكان المتآمرون قتلوا قبله وزيرَيْه موسى بن عيسى وعمر بن ميمون[553].

(552) الاستقصا (3: 203).

(553) انظر العبر (7: 622).

الوضع في إفريقية بعد فشل أبي عنان

عندما وصلت إلى المهدية أخبار انسحاب أبي عنان المريني من إفريقية متوجهاً إلى فاس بادر الحاجب ابن تافراجين بالتوجه إلى تونس العاصمة. وما إن سمع سكانها بقدومه حتى ثاروا على من كان فيها من بني مرين فغادرها هؤلاء هاربين على السفن في طريقهم إلى المغرب الأقصى.

وإذا تخلصت الحفصية التونسية من الاحتلال المريني فإنها لم تتخلص من سوء أوضاعها الداخلية وانشقاق المسؤولين فيها عن بعضهم. ولم تستطع محنة الاحتلال توحيد صفوفهم حتى بالنسبة للعائلة الحفصية نفسها.

وعندما التجأ الحاجب ابن تافراجين إلى المهدية خوفاً من أن يقع في قبضة المرينيين عمل على تحصين المهدية فأصلح أسوارها، وملأها بالأقوات والأسلحة استعداداً لمقاومة الحصار إذا زحف المرينيون على المهدية، بينما كان السلطان الحفصي (أبو إسحاق إبراهيم) ملتجئاً في مناطق الجريد مع أولاد أبي الليل. وأخذ ابن تافراجين يعد أبا يحيى زكرياء (أخا السلطان) ويدرّبه على ممارسة السلطنة، فعقد له على المهدية، وجعل حجابته لأحمد بن خلف عندما قرر هو العودة إلى العاصمة. ولكنّ أمير المهدية (أبا يحيى زكرياء) قلب له ظهر المجن فقتل حاجبه أحمد بن خلف، واستدعى أحمد بن مكّي صاحب قابس وجربة ليتولّى حجابته. وقد اختار هذا الحاجب الجديد نكايةً في ابن تافراجين إذ يعتبر أحمد بن مكّي من أكبر خصومه.

ولم يكتف أمير المهدية بذلك، فبعث إلى السلطان المريني بفاس يعلمه بانتقاضه على ابن تافراجين والسلطان أبي إسحاق إبراهيم، وأنه داخل تحت طاعته مقرٌّ بمبايعته[554] ولا شك أن لأحمد بن مكّي الدور الكبير في ذلك. وهو المعروف بعدائه لابن تافراجين وأحد الوافدين على أبي عنان يحثونه على غزو إفريقية. ولو كانت ظروف أبي عنان المريني مواتية لتأييد حركة ذلك الانتقاض تأييداً إيجابياً لتغير مجرى الأحداث من جديد في إفريقية الحفصية. ولكن ـ مثلما مرّ سابقاً ـ فإن ظروف أبي عنان لم تسمح له بذلك بالإضافة إلى موته العاجل. ولم يمنع هذا من اهتمامه بشأن المهدية فبعث إليها بنجدة عسكرية إذ «جهّز إليها الأسطول وشحنه بالمقاتلة والرّجل» إلاّ أنهم وصلوها بعد فوات الأوان وعودتها إلى حظيرة السلطان الحفصي أبي إسحاق إبراهيم. ذلك أن ابن تافراجين لم يقف مكتوف الأيدي أمام حركة انتقاض المهدية فبعث إليها بجيش يقوده ابن الدكداك[555] ففرّ أبو يحيى زكرياء إلى قابس عاصمة حاجبه أحمد بن مكّي. وحاول هذان المتحالفان الهجوم على تونس فباء الهجوم بالفشل، فعاد أحمد بن مكّي إلى قابس. وذهب أبو يحيى زكرياء إلى الذواودَة فأقام عند يعقوب بن علي وزوّجه ابنة أخيه سعيد[556].

---

(545) العبر (6 :845).

(555) في العبر المطبوعة ابن الجكاجاك (6 :844).

(556) العبر (6 :845) وفي الزركشي (99) أنه سوف يكون للأمير زكرياء ظهور فيما بعد.

سعي ابن تافراجين
في توحيد السلطنة الحفصية

كان ابن تافراجين يشعر بمسؤولية توحيد السلطنة الحفصية واستعادة كامل أجزائها بعد انسحاب أبي عنان المريني. ولهذا كان لا يترك أيّة فرصة تمرّ دون أن ينتهزها في سبيل استعادة أطراف السلطنة. وكانت بجاية ـ وهي أهم عواصم الحفصية الغربية ـ ما تزال تحت سيطرة بني مرين بقيادة يحيى بن ميمون الذي كان أهالي بجاية ينقمون عليه لشدته معهم، وبطشه بهم. ولهذا ما إن استعاد ابن تافراجين تونس العاصمة، وظهر الاضطراب في السلطة المركزية المرينية حتى بعث أهالي بجاية إلى ابن تافراجين يحثّونه على استعادة بجاية إلى حظيرة السيادة الحفصية بعد أن وعدوه بالمساندة والتأييد فبعث إليهم بسلطانه أبي إسحاق إبراهيم مجهَّزاً بما يحتاجه من عتاد وسلاح[557]. وفي طريقه إلى بجاية عرّج أبو إسحاق إبراهيم على يعقوب بن علي فانضمَّ إليه وتقوَّى به صفّه. ثم اتجه صوبَ بجاية سنة 761هـ (1360م). وسهل عليه احتلالها والاستيلاء عليها بمساعدة أهالي بجاية الذين ثاروا ضد العامل المريني يحيى بن ميمون، فقبض عليه وعلى من كان من قومه، وأُرْسِلُوا برّاً إلى تونس حيث أودعهم ابن تافراجين السجن إلى أن أطلق سراحهم وبعث بهم إلى المغرب الأقصى. أما السلطان أبو إسحاق إبراهيم فقد ظل في بجاية يمدّه حاجبه ابن تافراجين بما يحتاج إليه من تونس. وعيّن

(557) العبر (6 :846).

له أحدَ ثقاته من مشيخة الموحّدين حاجباً له[558].

تلك هي الخطوة الأولى التي قام بها ابن تافراجين في سبيل توحيد السلطنة الحفصية. ولكنَّ أحداثاً جدّت في المغرب الأقصى سوف يكون لها تأثير في سيرة ذلك التوحيد الذي سعى إليه الحاجب ابن تافراجين.

وقد تمثلت تلك الأحداث خاصَّةً في استيلاء أبي سالم بن أبي الحسن المريني على الحكم في المغرب الأقصى بعد أن كان شبه المنفيّ في غرناطة عند بني الأحمر.

(558) العبر (6 :847).

أبو سالم المريني والسلطنة الحفصية

عندما بويع الطفل أبو بكر بن أبي عنان سلطاناً على عرش المملكة المرينية بتدبير الوزير حسن بن عمر دخلت السلطنة المرينية في عهد الفوضى والاضطرابات. وكان هذا السلطان الصبيّ أولَ سلاطين بني مرين يمثل الضعف والوهن وعدَمَ الكفاءة حتى قيل عنه «. . هذا السلطان أول من استُبِدَّ عليه من بني مرين»[559] فقد ظهر الانتقاض عليه في جهات مختلفة. وكان من أبرز الظاهرين عليه موسى بن يوسف الزياني ومنصور بن سليمان وغيرهما[560]. وهذا ما شجع عمّه أبا سالم إبراهيم على انتهاز الفرصة ليستوليَ على الحكم بعد أن ظل عدّة سنوات شبه منفي في الأندلس عند بني الأحمر في غرناطة حسب الاتفاق الحاصل بينهم وبين أخيه أبي عنان. وعندما لم يجد أبو سالم مساندةً من بني الأحمر التجأ إلى ملك قشتالة النصرانية واستنجد به «. . متطارحاً بنفسه عليه أن يجهّز له الأسطول للإجازة إلى المغرب فاشترط عليه وتقبَّلَ شرطه وأجازه في أسطوله»[561]. وبعد أن فشل أبو سالم في النزول بمراكش حاذى سواحل طنجة وسبتة ملتجئاً إلى قبيلة غمارة التي استجابت له وأيدته. وصادف أن كان بطنجة الأمير الحفصي أبو العباس أحمد صاحب قسنطينة سابقاً فانضمَّ إليه وناصره بمن معه من أتباع

(559) الاستقصا (4 :3).

(560) انظر العبر مثلاً: (7: ابتداءً من صفحة 621) والاستقصاء (4 :4).

(561) العبر (7 :633).

وحاشية منهم القائد بشير وغيره[562]. وكان أبو سالم في حاجة إلى المناصرة لقلّة من جاء معه من الأندلس[563]. وفي مقابل ذلك تعهد أبو سالم المريني بإعادة الأمير الحفصي إلى قسنطينة بعد انتصاره على خصومه. وعندما دَخل أبو سالم المريني مدينة فاس ـ صحبة الأمير أبي العباس الحفصي ـ كان يوجد في سجن فاس أميرٌ حفصيٌ آخر هو أبو عبد الله محمّد صاحب بجاية السابق الذي أقاله عنها أبو عنان المريني ونفاه مثل أبي العباس إلى المغرب الأقصى. ثمّ اعتقله ـ بعد ذلك ـ الوزير حسن بن عمر الفودودي فأطلق سراحه السلطان أبو سالم بعد دخوله مدينة فاس.

وأقام الأميران الحفصيان عند السلطان أبي سالم إلى أن عزم هذا الأخير على غزو تلمسان تبعاً لخطة والده أبي الحسن وأخيه أبي عنان، وتمهيداً لتحقيق آماله الواسعة في ضم السلطنة الحفصية إلى نفوذه مثلما فعل أبوه وأخوه من قبل.

---

(562) الزركشي (100).

(563) في الزركشي؟ (100) ليست معه إلاّ رجال من الأندلس نحو الثمانية.

أبو سالم المريني يغزو تلمسان

استند أبو سالم المريني في غزوه لتلمسان على وجود عبد الله بن مسلح الزردالي (العامل المريني السابق على درعة) في مدينة تلمسان فبعد انتصار أبي سالم في المغرب الأقصى فرّ الزردالي إلى تلمسان والتجأ إلى أبي حمو موسى بن يوسف الزيّاني الذي أكرم وفادته و «نزل منه خير منزل، وعقد له لحين وصوله على وزارته وباهى به وبمكانه. وفوض إليه في التدبير والحل والعقد»[564] فاعتبر أبو سالم المريني هذا العمل تحدِّياً له.. وبعث إلى أبي حمّو الزياني في شأن عبد الله بن مسلم إلاّ أن صاحب تلمسان لم يجبه وسكت عنه[565] فزاد ذلك من غضب أبي سالم المريني وصمم على غزو تلمسان تأديباً لصاحبها لتحدّيه وتعنُّتِهِ. إلاّ أن أبا حمّو الزياني لم يشأ أن يتصدّى لمواجهة أبي سالم المريني فغادر عاصمته تلمسان وأوغل مبتعداً عنها إلى الصحراء مصحوباً بجيشه وبوزيره عبد الله بن مسلم. ولذلك لم يجد أبو سالم المريني صعوبة في الاستيلاء على تلمسان. وبينما كان أبو سالم منتشياً باستيلائه على تلمسان فوجىء بأن أبا حمّو الزياني «..خالفه في عربه إلى المغرب فنزلوا آكر سيف ووطاط وبلاد ملوية وحطموا زروعها، وانتسفوا بركتها وخربوا عمرانها»[566]. واضطر بسبب ذلك أبو سالم المريني إلى

(564) العبر (7 :646).

(565) العبر (7 :646).

(566) العبر (7 :647) والاستقصاء ومنه النصّ (4 :33).

التعجيل بالعودة إلى المغرب الأقصى حتى يتصدّى لاكتساحات أبي حمو الزياني قبل أن يستفحل أمره ويصعب التغلّب عليه، فغادر تلمسان بعد أن عقد عليها لأحد صنائع بني مرين من بني زيّان، وهو محمد بن عثمان المشهور بلقب الفتى[567].

(567) العبر (7 :674).

عودة قسنطينة وبجاية إلى الحفصيين

في نفس الزمن الذي وردت فيه على السلطان أبي سالم أخبار اكتساح الأصقاع المغربية من أبي حمّو الزياني، وصلت أخبار بجاية تفيد أن أهالي هذه المدينة ثاروا على واليها المريني يحيى بن ميمون، فزاد ذلك من توقف أبي سالم عن زيادة التوسع ونفض يده من الأعمال الشرقية كما يقول ابن خلدون[568]. وتأكيداً لذلك لم يعد معه إلى فاس الأميران الحفصيان أبو العباس صاحب قسنطينة وأبو عبد الله صاحب بجاية، بل بعث بكل منهما إلى عمله الأصلي. وأعطى لكل منهما حملاً من المال[569]. إلاّ أنّ الوضع السياسي يختلف بالنسبة لكل من قسنطينة وبجاية.

فقد كانت قسنطينة ما تزال تحت سيادة بني مرين فأوعز أبو سالم المريني إلى عامله عليها (منصور بن خلوف) أن يتنزل عنها ويسلمها لصاحبها الأصلي أبي العباس أحمد الحفصي. وتنازل ـ فعلاً ـ منصور بن خلوف عن قسنطينة وسلّمها لصاحبها أبي العباس أحمد فدخلها في شهر رمضان سنة 761هـ (1360م). وبما أن هذا الأمير سوف يكون له شأن في تاريخ الدولة الحفصية فقد مهّد لذلك ابن خلدون بقوله «.. واقتعد سريرَ ملكه منها، وتباشرت بعودته مقاصر قصورها، فكانت مبدأ لسلطانه، ومظهراً لسعادته، ومطلعاً لدولته[570].

(568) العبر (6 :852).

(569) العبر (7 :647).

(570) العبر (6 :852).

أما بالنسبة للأمير الحفصي الآخر (أبو عبد الله محمد صاحب بجاية) فكان أمره يختلف عن أمر ابن عمّه صاحب قسنطينة، لأن بجاية أصبحت إذ ذاك تحت سيادة السلطان أبي إسحاق إبراهيم صاحب تونس إثر الثورة التي اندلعت فيها قبل شهور ضد واليها المريني. ولهذا كان على أبي عبد الله محمد أن يناضل طويلاً في سبيل استرجاعها، وإخراجها من نفوذ عمّه أبي إسحاق إبراهيم. وقد انضمّ إليه في حروبه التي أثارها في سبيل استرجاع بجاية أولاد سبّاع وسدويكش والذواودة. وكان أكثر استقراره عند أولاد سبّاع بالمسيلة بعد أن «. . تكفّلوا نفقة عياله ومؤنة حشيه، وأنزلوه ببلد المسيلة من أوطانهم، وتجافوا له عن جبايتهم. وأقام على ذلك سنين خمساً يتنازل بجاية في كلّ سنة منها مراراً. وتحوّل في السنة الخامسة إلى أولاد علي بن أحمد ونزل على يعقوب بن علي فأسكنه بمَقره من بلاده[571].

وكان مجرى الأحداث في الحفصية التونسية مساعداً للأمير أبي عبد الله محمد على استرجاع بجاية لحوزته وملكه، فقد بدأت الحالة الصحّية للحاجب ابن تافراجين تتدهور بعد أن بلغ به الكبر، وبعد أن ساسَ البلاد منذ ولاية السلطان أبي بكر الحفصي. وكانت له أدوارٌ كبرى في مسرح السياسة الحفصية سواء بالنسبة لشؤونها الداخلية أو بالنسبة لعلاقاتها مع السلطنة المرينية. وقد هيأت له ذلك شخصيته القوية، وخطة الحجابة التي يصفها ابن خلدون بأنها «. . الاستقلال بالدولة. والوساطة بين السلطان وأهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد. . »[572].

وكان السلطان أبو إسحاق إبراهيم المقيم في بجاية يعرف أن الفضل في تولّيه السلطنة إنما يعود لحاجبه ابن تافراجين، وأنّ بقاءه عليها هو رهين وجود هذا الحاجب على قيد الحياة. ولهذا فما إن بلغه تداعي صحة حاجبه،

---

(571) العبر (6: 854).

(572) التعريف (97).

وأن المنجمين كانوا يحدثونه بقرب أجله[573] حتى أخذ يستعد للعودة إلى تونس العاصمة، وأن يدرك ابن تافراجين قبل وفاته. وكان هذا في الوقت الذي لم ينفكّ فيه الأمير أبو عبد الله محمّد عن مناوشات عمّه ومحاولاته الاستيلاء على بجاية واسترجاعها. وراجت في بجاية الإشاعات حول مرض ابن تافراجين، وعَزْم السلطان أبي إسحاق على العودة إلى تونس فثارت ثائرة أهالي بجاية وأخذوا ينضمون تباعاً إلى الأمير أبي عبد الله محمّد. ثم قبضوا على أبي إسحاق إبراهيم وسلّموه إلى ابن أخيه الذي لم يشأ الانتقام منه فمنّ عليه بالسراح وخلّى سبيله حتى يعود إلى تونس.

ولم يكتف الأمير أبو عبد الله محمّد باستعادة بجاية بل قام ـ بعد شهرين من ذلك ـ بتوسيع إمارته عندما استولى على مدينة تدلس وافتكها من بني عبد الواد الزيانيين[574] الذين حاولوا استرجاعَها عدّة مرات دون جدوى.

وباسترجاع أبي عبد الله محمّد لمدينة بجاية عادت السلطنة الحفصية إلى ذويها من بني حفص. ولكنّها ظلت مقسمة موزعة مثل حالتها التي كانت عليها قبل احتلال أبي عنان المريني لها، فبجاية يتولّاها أبو عبد الله محمّد، وقسنطينة عليها ابنُ عمّه أبو العباس أحمد. أما إفريقية التونسية فكان يتولاها عَمُّهما أبو إسحاق إبراهيم. ولو أن الأعمَّ الأغلب منها يكاد نفوذه عليه يكون إسميّاً نظراً لاستبداد زعماء القبائل وأمراء الأطراف بما تحت أيديهم من مناطق وجهات. وهكذا عادت السلطنة الحفصية إلى التخلص من الاحتلال لكن دون أن تعود إلى الوحدة أو تُبْعَدَ عن التشتّت والانقسام.

(573) العبر (6 :854).
(574) العبر (6 :854 - 855).

ابن خلدون والتدخل المريني

كان ابن خلدون موجوداً في هذه الفترة من تاريخ الدولة الحفصية. ولم يكن يعيش على هامش أحداث تلك الفترة، بل كان يعيش صميمها مما هيّأ له الكثير من المناصب السياسية كما سبب له الكثير من الصعوبات.

ولد عبد الرحمان ابن خلدون في غرّة رمضان سنة 732هـ (1332م) والدولة الحفصية يحكمها السلطان أبو بكر. وإذا كان هذا السلطان يعتبر من ألمع سلاطين بني حفص، ومن أطولهم مدّة في الحكم فإن السلطنة بعد موته تعرضت للسقوط في يدي أبي الحسن المريني الذي جاء إلى تونس صحبة عدد كبير من علماء المغرب الإسلامي. وكان ابن خلدون ـ إذ ذاك ـ في مطلع فتوّته وشبابه. ونظراً لتربيته العلمية والأدبية على والده ومشائخ العصر في تونس فقد وجد من علماء المغرب ما زاده شغفاً بالعلم، وتطلُّعاً إلى المزيد منه فأخذ عن الكثير من أولئك العلماء الوافدين. ثم حدث فراغ كبير زاد من حرقة ابن خلدون وتطلعه إلى العلم فبالإضافة إلى الطاعون الجارف الذي أودى بحياة الكثير من شيوخه التونسيين، فإن انسحاب أبي الحسن المريني من تونس مصحوباً بمن جاء معه من العلماء جعل ابن خلدون يشعر بالغربة ويتطلع إلى خارج البلاد لاستكمال ثقافته. وكانت سلواه الوحيدة ملازمته لأكبر أساتذته الشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي التلمساني الذي لم يرحل مع أبي الحسن المريني نظراً لتشبث ابن خلدون ووالده به وتوسلهم لدى السلطان المريني حتى يبقى هذا الشيخ في تونس. وعلى ذلك الأساس

لازم ابن خلدون شيخه الآبلي ثلاث سنوات بعد نكبة الطاعون. ويمكن القول بأن الفترة التي لازم فيها هذا الشيخ كانت أهم فترات تكوينه الذهني والعقلي وتوسيع مداركه. إلّا أنّ انتصاب أبي عنان المريني بعد أبيه أبي الحسن غيّر من حياة ابن خلدون إذ دعا أبو عنان الشيخ الآبلي وضمّه إلى بلاطه في فاس. وبقي الشاب ابن خلدون وحده في تونس بعد أن بدت عليه مظاهر النجابة والتَفَتَتْ إليه الأنظار دون أن يكون له مطامح ذاتية في السياسة والمناصب الإدارية لولا أن الأحداث جرّته إلى ذلك عندما جهّز ابن تافراجين سلطانَه أبا إسحاق سنة 753هـ. (1352م) للقيام بحملة عسكرية ضدّ أمير قسنطينة واختار له عبد الرحمان بن خلدون لكتابة علامته. وكان ابن خلدون ـ إذ ذاك ـ في سنّ العشرين. ويصرح ابن خلدون أنه رضي بتلك الخطة لغاية أخرى هي إفلاته وخروجه من تونس والالتحاق بالمغرب الأقصى للكَرْعِ من مناهل العلم والعرفان. يقول ابن خلدون «. . وقد كنتُ منطوياً على مفارقتهم لمَا أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي وعطلتي عن طلب العلم»[575] وهي رغبة كانت تلحّ عليه منذ أن «. . رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب، وانحسر تيّارهم عن إفريقية. وأكثر من كان معهم صحابة وأشياخ ـ يقول ابن خلدون ـ فاعتزمت على اللّحاق بهم. وصدّني عن ذلك أخي وكبيري محمّد ـ رحمه الله ـ فلما دعيت إلى هذه الوظيفة سارعت إلى الإجابة لتحصيل غرضي من اللّحاق بالمغرب. وكذلك كان»[575]. وكانت الفرصة التي انتهزها ابن خلدون هي اختلال صفوف جيش سلطانه في فحص مرماجَنَّة ففرّ إلى أُبّهْ قرب الكاف ونزل عند صاحبها محمد بن عبدون. ثمّ انتقل إلى قفصة يترصد الطريق للذهاب إلى المغرب الأقصى حتى جاء إلى قفصة الشيخ الفقيه محمد بن منصور بن مزني أخو يوسف بن مزني صاحب بسكرة. ثم وصل يوسف المذكور عائداً من تونس صحبة الأمير أبي زيد صاحب قسنطينة بعد أن فكّ حصاره للعاصمة كما تقدّم في السابق. وارتحل

---

(575) التعريف (56).

ابن خلدون صحبة يوسف بن مزني إلى بسكرة. ومن هناك انتقل إلى تلمسان ملتحقاً بالسلطان أبي عنان المريني الذي استدعاه إلى مجالسه بعد أن بلغته أخباره من المغاربة الذين كانت لهم علاقة سابقة بابن خلدون في تونس. وكان السلطان أبو عنان حريصاً على جمع أهل العلم ومشائخه.. يقول ابن خلدون «.. فكتب إليّ الحاجب يستقدمني، فقدمت عليه سنة خمس وخمسين وسبعمائة، ونظمني في أهل مجلسه العلمي، وألزمني شهود الصلوات معه. ثمّ استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كره منّي، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي. وعكفت على النظر، والقراءة، ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة، وحصلت على الإفادة منهم على البغية[576].

(576) التعريف (58 - 59).

ابن خلدون
من سجن فاس إلى حجابة بجاية

لم تدم طويلاً علاقات الصفاء بين أبي عنان المريني وابن خلدون إذ سرعان ما دبّت الدسائس والوشايات لإفساد تلك العلاقات؟ وصادف أن كان يوجد بفاس الأمير الحفصي أبو عبد الله محمّد صاحب بجاية الذي أجبره السلطان أبو عنان على التنازل عنها لفائدة السلطنة المرينية. ونظراً للعلاقة المتينة بين عائلة ابن خلدون والعائلة الحفصية في تونس فقد توطدت تلك العلاقة ـ من جديد ـ بين عبد الرحمان بن خلدون وبين أبي عبد الله الحفصي. واتُّهِمَ الاثنان عند أبي عنان بأنه تمّ التآمر بينهما على فرار الأمير أبي عبد الله الحفصي حتى إذا تمَّ له ذلك الفرار التحق به ابن خلدون ليتولّى حجابته في بجاية. ويحاول ابن خلدون إبعاد تلك التهمة عنه بما لا يقنع الباحث المتقصّي. ومهما يكن من أمر فقد أمر أبو عنان المريني بالقبض عليهما وإيداعهما السجن. ويبدو أن مؤامرة رجال البلاط المريني كانت تستهدف ـ أساساً ـ عبد الرحمان بن خلدون. لأن الأمير الحفصي أطلق سراحه فيما بعد بينما ظل ابن خلدون رهين السجن إلى وفاة السلطان أبي عنان، وأنّ تهمة عَزْمِ الأمير الحفصي على الفرار كانت ضعيفة الدليل، أو إنها اتخذت تعلّةً فقط للنَيل من ابن خلدون وإقصائه عن حاشية السلطان أبي عنان لما كان يناله عنده من اعتبار وحظوة.

وهكذا ظل ابن خلدون في محبسه لم يخرجه منه إلّا الوزير الحسن بن عمر الفودودي بعد وفاة أبي عنان المريني، وأعاده إلى ما كان عليه سابقاً في

البلاط المريني بعد أن حاول ابن خلدون الامتناع من تلك المناصب والعودة إلى وطنه تونس[577]. وعندما نزل السلطان أبو سالم في المغرب استعان بابن خلدون في تأييده وجلب الأنصار إليه فاستجاب له ابن خلدون. وتقدم إلى شيوخ بني مرين وأمراء الدولة يدعوهم إلى تأييد أبي سالم فأجابوه إلى ذلك لما بينه وبينهم من محبة وائتلاف[578]. وكافأه السلطان المريني بعد انتصاره فاستعمله في كتابة سره، والترسيل عنه، والإنشاء لمخاطبته[579] كما ولّاه خطة المظالم فيما بعد ذلك[580]. ولم ينس ابن خلدون بهذه المناصب وطنَهُ تونس وعلاقاتِهِ بالأمراء الحفصيين، فعندما قرر أبو سالم المريني العودة إلى فاس ـ بعد استيلائه على تلمسان ـ بذل ابن خلدون جهده حتى يعيد أبو سالم المريني الأميرين الحفصيين إلى مناصبهما بقسنطينة وبجاية فيتنازل عن قسنطينة لصاحبها أبي العباس أحمد، ويعين أبا عبد الله محمّد على استرجاع بجاية وافتكاكها من عمّه أبي إسحاق إبراهيم وقد ذكرنا ذلك فيما مضى. ولكن المهم هنا هو أن الأمير الحفصي ـ بعد أن استرجع مدينة بجاية واستقرت أموره فيها ـ لم ينس ما كان بينه وبين ابن خلدون من مداخلة وتعاون وعشرة فأرسل إلى ابن خلدون يستقدمه من الأندلس ليتولّى منصب الحجابة عنده. وكان ابن خلدون قد التجأ إلى ملوك بني الأحمر بعد هزيمة أبي سالم المريني.

---

(577) التعريف (68).
(578) التعريف (69).
(579) التعريف (70).
(580) التعريف (77).

ابن خلدون وخلافات بني حفص

أبحر ابن خلدون من ساحل المريّة بالأندلس في منتصف سنة 766هـ. ونزل ببجاية بعد خمسة أيام من إبحاره ويصف وصوله بجاية بقوله «. . فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي وتهاطل أهل البلد عليّ من كل أوب يمسحون أعطافي. ويقبلون يدي. وكان يوماً مشهوداً. ثمّ وصلت إلى السلطان فحيًّا وفدّى وخلع وحمل. وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بَابِي، واستقللت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه. وقدّمني للخطابة بجامع القصبة، وأنا ـ مع ذلك ـ عاكف ـ بعد انصرافي في تدبير الملك غدوة ـ إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفكُّ عن ذلك»[581].

وعندما وصل ابن خلدون لبجاية كان الخلاف على أشده بين أبي العباس صاحب قسنطينة، وأبي عبد الله صاحب بجاية حول حدود الإمارتين. وكانت القبائل من الذواودة وغيرهم ضاربين بسهم كبير في تلك الخلافات وإضرام نار الفتنة. وكان صاحب بجاية أقلَّ حظوة واحتراماً لدى رعيته نظراً لتنكره لهم، وسوء سيرته فيهم بإرهاف الحدّ للكافة، وإسخاط الخاصة فكثر غضب الناس وحقدهم عليه وبعدت الشقة بينه وبينهم. وأخذ النّاس يتجهون بأنظارهم إلى ابن عمّه صاحب قسنطينة.

(581) التعريف (98).

وحاول ابن خلدون مساعدة سلطانه بجمع الأموال له من القبائل العربية والبربرية إخلاصاً له وتقويةً لصفوفه[582]. وأيقن هذا «السلطان» أن لا طاقة له بمحاربة ابن عمّه أبي العباس، وأن لا أمل له في الانتصار بقواته الداخلية. لهذا أخذ يبحث عن حليف يساعده فكان بنو زيان ذلك الحليف. وقد تمثل ذلك في تقرب أبي عبد الله محمّد من صاحب تلمسان بالتنازل له عن تدلس، وتزويجه ابنته «فعقد له عليها وزفّها إليه بجهاز أمثالها»[583] ولكن رغم ذلك فإن صاحب بجاية لم يستطع الثبات أمام خصمه لا سيما بعد أن تخلّى عنه أولاد سبّاع وانضموا إلى صاحب قسنطينة وكانت النتيجة انهزام صاحب بجاية نهائياً فقبض عليه ابن عمّه وقتله قصعاً بالرماح بجهة لبزو[584] ثم تقدم أبو العباس أحمد من بجاية واستولى عليها بعد أن تواطأ أصحابها معه ضد سلطانهم السابق أبي محمّد.

لم يكن ابن خلدون مع سلطانه أبي عبد الله في ميدان القتال بل ظلّ مقيماً في بجاية منصرفاً إلى أمورها الإدارية وإلى شؤونه العلمية. ويتحدث ابن خلدون عن هزيمة سلطانه أبي عبد الله بقوله:

«. . وجاءني الخبر بذلك وأنا مقيمٌ بقصبة السلطان وقصوره. وطلب منّي جماعة من أهل البلد القيام بالأمر، والبيعة لبعض الصبيان من أبناء السلطان فتفاديتُ من ذلك. وخرجت إلى السلطان أبي العباس فأكرمني وحبَاني، وأمكنتُه من بلده. وأجرى أحوالي كلّها على معهودها. ثمّ كثرت السعاية فيّ. والتحذير من مكاني. وشعرت بذلك فطلبت الأذن في الإنصراف بعهد كان منه فإذن لي بعد لأي[584] وخرجت إلى العرب. ونزلت عند يعقوب بن علي[585] أحد رؤوساء أولاد محمّد من الذواودة.

(582) العبر (6 :860).
(583) العبر (6 :859).
(584) التعريف (99).
(585) المصدر السابق.

وكان حذر ابن خلدون في محلّه فبعد خروجه من بجاية ازداد شك أبي العباس فيه. ولم تمض أيام قليلة على خروجه حتى أمر بالقبض على أخيه يحيى وزجّ به في السجن. وفتشت بيوت آل خلدون إذ كان «يظن بها ذخيرة وأموالاً فأخفق ظنه»[586]. ثم ارتحل ابن خلدون إلى بسكرة ونزل عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزني فأكرم وفادته للصداقة التي كانت تجمع بينهما وبين والده يوسف من قبل.

(586) العبر (6 :860).

بين أبي حمو الزياني
وأبي العباس الحفصي

كان انتصار أبي العباس الحفصي على ابن عمّه أبي عبد الله محمّد موجباً لتدخّل أبي حمّو الزيّاني في شؤون الحفصية الغربية. واعتمد أبو حمّو الزيّاني على المصاهرة التي كانت بينه وبين أبي عبد الله محمّد صاحب بجاية ليقوم بهجوم على الحفصية الغربية قصد الاستيلاء على بجاية أخذاً بثأر صهره أبي عبد الله والد زوجته. ولم يكن ذلك في الواقع ألاّ ذريعة اتخذها صاحب تلمسان لتوسيع مملكته وتحقيق مطامح أسلافه في ذلك ومحاولاتهم العديدة لضمّ بجاية إلى نفوذهم. ومن أجل ذلك زحف أبو حمّو من تلمسان يجرّ الشوك والمدر في آلاف من قومه وطبقات العسكر والجند كما يقول ابن خلدون[586م].

وقد استطاع أبو حمّو الزياني أن يتقدم في زحفه حتى وصل بجاية وناصبها الحصار، إلاّ أن أبا العباس الحفصي المحصور في بجاية استعدّ من قبل لمجابهة أبي حمّو بوسيلة طالما استعملت في تلك العهود. وكثيراً ما صادفها النجاح، فقد عمد أبو العباس الحفصي إلى أحد أقارب أبي حمو الزيّاني ونادى به ملكاً على بني عبد الواد بعد أن كان معتقلاً عنده في قسنطينة[587]، وهو أبو زيان بن عثمان بن عبد الرحمان.

وكان من خبر هذا الرجل أنه ـ إثر الاضطرابات التي حصلت في

(586م) العبر (6 :860).

(587) العبر (6 :860) والتعريف (100).

المغرب الأوسط ـ خرج من تلمسان والتجأ إلى تونس عند الحاجب ابن تافراجين والسلطان أبي إسحاق إبراهيم. وعندما استرجع أبو عبد الله الحفصي بجاية واستولى على تدلس بعث إليه يستدعيه من تونس ليوليه على تدلس ويكون درعاً يقيه أطماع الزيّانيين في استيلائهم على بجاية أو في استرجاعهم لمدينة تدلس. وإذا كان استدعاء أبي زيّان من تونس إلى بجاية يبدو مناورةً سياسية من أبي عبد الله الحفصي فإن ابن عمّه أبا العباس نظر إليها من زاوية أخرى تتصل بالموقف العدائي بينه وبين ابن عمّه صاحب بجاية. ولهذا فإنه إذا تمكن أبو عبد الله محمد من ضمّ أبي زيان إلى صفه فإنه سوف لا يقوّي به جبهتَه ضد بني زيان فقط بل إنه سوف يقوّي به ـ أيضاً ـ جبهته ضدّ ابن عمّه أبي العباس صاحب قسنطينة. ولكلّ هذه الاعتبارات عمل أبو العباس أحمد على الحيلولة دون وصول أبي زيّان بن عثمان إلى بجاية. ولهذا فما إن وصل أبو زيّان قسنطينة في طريقه إلى بجاية حتى قبض عليه أبو العباس أحمد واعتقله عنده مكرّماً ليستعمله يوماً مّا في تحقيق مطامحه وأهدافه. هذا هو خبر الأمير أبي زيّان بن عثمان الذي نادى به أبو العباس أحمد سلطاناً على بني عبد الواد عندما هاجمه أبو حمّو صاحب تلمسان.

ويبدو أن هذا الهجوم كان مباغتاً لأبي العباس الحفصي فلم يتمكن من حشد الجيوش التي يمكن له بها أن يجابه قوات تلمسان الزاحفة عليه. ولهذا بادر إلى الاحتماء بأسوار بجاية التي حاصرها أبو حمّو الزياني بجيش جرار كان يعتمد فيه بالخصوص على قبيلة زغبة الكثيرة العدد[588] وبعث أبو العباس الحفصي إلى قسنطينة آمراً بإطلاق سراح أبي زيّان بن عثمان وأمر مولاه وقائد عسكره «بشير» بأن يخرج معه في العساكر[589] لمضايقة أبي حمّو في محاصرته لبجاية. ونجحت خطة أبي العباس الحفصي في تحقيق أهدافها

(588) التعريف (100).
(589) المصدر السابق.

عندما أصبح لا يجابه وحده أبا حمّو الزياني وإنما أصبح معه في تلك المواجهة شخصية زيّانية مرموقة لها حسن السمعة والوجاهة لدى القبائل والعساكر التي يعتمد عليها أبو حمو في هجومه لا سيما بنو زغبة أقوى سند له في حروبه وغزواته. وفعلاً فإن بني زغبة انفضّوا من حول أبي حمّو الزياني وانضموا إلى صفوف أبي العباس الحفصي وصنيعته أبي زيان بن عثمان مما كبّد أبا حمّو هزيمة منكرة جعلته يقنع بالفرار ناجياً بنفسه إلى تلمسان بعد أن هلك الكثير من جنوده. «. . وخلفوا من الأثقال والعيال والسلاح والكراع ما لا يحيط به الوصف، وأسلم أبو حمّو عياله وأمواله فصارت نهباً. .»[590]. وبذلك أمكن لأبي العباس الحفصي أن يقضي على خصمه أبي حمّو فردّه منهزماً على أعقابه.

ولم يكتف أبو العباس أحمد بذلك بل توجّه إلى مدينة تدلس واستولى عليها وأعادها إلى ملكه الواسع في الحفصية الغربية بعد أن أصبحت كلّها تحت تصرّفه وسيادته مثلما كانت في ملك جدّه الأمير أبي زكرياء الأوسط عندما قام بدعوته الانفصالية عن الحفصية التونسية[591].

(590) العبر (6 :862).

(591) العبر (6 :862).

ظهور ابن خلدون من جديد

لقد مرّ بنا أن ابن خلدون ـ عندما تغلّب أبو العباس أحمد على بجاية فضل الانسحاب مرّة أخرى من الميدان السياسي مكتفياً بإقامته في البادية عند يعقوب بن علي ثم في بسكرة عند أحمد بن يوسف بن مزني. وقد حاول أبو حمّو الزيّاني أن يجلبه إلى جانبه خاصة بعد أن بلغه ما فعله أبو العباس الحفصي بأخيه وأهله وأموالهم بعد خروجه هو من بجاية. وبعث أبو حمّو يستقدمه من بسكرة. ولكن الأوضاع السياسية كانت على درجة كبيرة من الغموض لدى ابن خلدون فلم تسمح له باستجابة دعوة أبي حمّو الزياني.

وبعد فشل أبي حمّو الزياني في الاستيلاء على بجاية، وعودته خائباً إلى تلمسان بعث مرّة أخرى إلى ابن خلدون يستقدمه ليتولّى حجابته كما رجاه ـ في نفس الوقت ـ أن يجلب قبائل رياح إلى صفّ أبي حمو لما يعلمه من شدة مخالطة ابن خلدون لهم ووجاهته فيهم[592].

لم يقف ابن خلدون هذه المرّة موقف الإعراض التام عن الاستجابة لرغبة أبي حمو صاحب تلمسان فعمل على التقريب بين أبي حمّو ومشائخ الذواودة حتى استجاب البعض منهم لدعوته، وانحرف البعض منهم عن أبي العباس الحفصي وانضمّوا إلى خدمة أبي حمّو الزياني[593]. أمّا بخصوص

(592) التعريف (102).
(593) التعريف (103).

عرض الحجابة الذي قدمه أبو حمّو لابن خلدون فقد اكتفى هذا الأخير بأن يبعث إليه ـ نيابةً عنه ـ أخاه يحيى بعد أن أطلق سراحه من الاعتقال بأمر من أبي العباس الحفصي. ويعلّل ابن خلدون تمنُّعَه من وظيفة الحجابة بأنه فعل ذلك «. . متفادياً عن تجشم أهوالها، بما كنت نزعت عن غواية الرتب، وطال عليّ إغفال العلم، فاعترضت عن الخوض في أحوال الملوك وبعثتُ الهمّة على المطالعة والتدريس»[594].

ولكن هذا الموقف من ابن خلدون كان موقفاً آنياً، لأن ظروف السياسة في المغرب الإسلامي سوف تجرّه من جديد إلى ميدانها. ذلك أن أبا حمّو الزياني ظلّ على صلة وثيقة بابن خلدون رغم امتناعه من الحجابة له. وكانت رغبة صاحب تلمسان الملحة في الاستيلاء على بجاية، واستخدام نفوذ ابن خلدون وسمعته من الأسباب التي جعلت أبا حمّو الزياني حريصاً على إبقاء صلته بابن خلدون قوية متينة.

(594) التعريف (103).

ابن خلدون بين بني زيان وبني مرين

لم ييأس أبو حمّو الزياني من الاستيلاء على بجاية رغم فشله في ذلك من قبل. وكان عليه أن يخطط لتوفير أسباب نجاح ذلك الاستيلاء بإيجاد حليف له ضد أبي العباس أحمد الذي أصبح مسيطراً على كل من بجاية وقسنطينة ولم يجد لذلك أحسن من تقرّبه من أبي إسحاق إبراهيم سلطان الحفصية الشرقية. وبذلك يكون أبو العباس الحفصي في الحفصية الغربية بين واجهتين: شرقية من تونس وغربية من تلمسان. ويصف ابن خلدون دوره في التقريب بين صاحب تلمسان وصاحب تونس ضد صاحب بجاية وقسنطينة بقوله: «. . وكان أبو حمّو يوفد رُسُلَه عليّ في كلّ وقت، ويمرون بي ـ وأنا ببسكرة ـ فأوكد الوصلة بمخاطبة كلّ منهما. . »[595].

وعندما اتجه أبو حمّو الزياني إلى محاربة ابن عمّه أبي زيّان بن عثمان طلب من ابن خلدون أن يستجلب لصفّه أعرابَ الذواودة ليمنعوا أبا زيّان من الإفلات إلى الصحراء، كما طلب أبو حمّو من صاحب بسكرة ـ وكان ابن خلدون يقيم عنده ـ أن يساعده على مقاومة ابن عمّه أبي زيّان. واستجاب صاحب بسكرة لمناصرة أبي حمّو، فسار ـ صحبةَ ابن خلدون ـ إلى بجاية وجهاتها تأييداً لصاحب تلمسان. ثم وفد عليه ابن خلدون مع طائفة من الذواودة، أولاد عثمان بن يوسف، ليطلعوا على أحواله، ويطلعوا على ما يرسمه لهم في

(595) التعريف (131).

خدمته فالتقوا به في البطحاء بين بسكرة وتلمسان. ثمّ ضرب لهم موعد اللقاء به في مدينة الجزائر(596) . إلاّ أن هذا اللّقاء لم يتم لأن أحداثاً جدّت في الدولة المرينية بالمغرب الأقصى جعلت أبا حمو الزياني يكف عن تتبعه لابن عمّه أبي زيّان، وعن محاولاته المتكررة في التغلّب على أبي العباس الحفصي وضم بجاية ونواحيها إلى نفوذه.

أمّا تلك الأحداث التي جدّت في المغرب الأقصى فتتمثل في أن بني مرين الذين اضطربت أحوالهم ـ بعد موت السلطان أبي عنان ـ ظلّوا في حروب داخلية إلى أن تولّى أمورهم السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني. وكان هذا السلطان يعتبر مجدداً لعظمة سلاطين بني مرين، مزيلاً لوصمة الاستبداد عليهم من طرف الوزراء والحجاب، معيداً للسلطنة المرينية مهابتها(597) .

وبما أن أبا حمّو الزياني لم يكف عن مشاغبة الدولة المرينية في حدودها الشرقية ـ خاصة عندما كان أبو فارس عبد العزيز مشغولاً بمحاربة بعض المنتقضين عليه(598) ـ فقد قرر أبو فارس المريني أن يغزو تلمسان، وأن يقوم بحملة تأديبية ضد صاحبها الزيّاني. وما إن بلغت أخبار المريني صاحبَ تلمسان حتى قرر الفرار من عاصمته والإفلات من قبضة أبي فارس المريني مع من انضمّ إليه من بني زغبة. وأظلم الجو بالفتنة في وجه ابن خلدون فطلب من أبي حمّو الزيّاني أن يُخْلِي سبيله، وأن يسمح له بالتوجه ثانية إلى الأندلس، فأذن له بذلك، وحمّله رسالةً منه إلى ابن الأحمر صاحب غرناطة. واتجه ابن خلدون إلى مرسى هنين غربي تلمسان ليقلع منه إلى الأندلس في الوقت الذي كان فيه أبو فارس المريني قد وصل تازا في طريقه إلى تلمسان. وصادف أن الأحوال الجوية لم تساعد ابن خلدون على التعجيل بركوب البحر

(596) التعريف (132).

(597) الاستقصا (4 :52).

(598) هو عامر بن محمد الهنتاتي. انظر الاستقصا (4 :54 - 56).

فبقي في هنين أياماً ينتظر صفاء الجو. وأثناء ذلك الانتظار وصلت أخبارٌ إلى أبي فارس المريني أفادته بأن عبد الرحمان بن خلدون موجود في مرسى هنين، وأن عنده وديعةً حمّله أياها أبو حمو الزيّاني ليسلمها إلى صاحب غرناطة[599] فما كان من السلطان المريني إلاّ أن بعث بسرية عسكرية إلى هنين لتفتيش ابن خلدون وأخذ الوديعة منه. وبالرغم من أن السرية العسكرية لم تجد تلك الوديعة عند ابن خلدون وكانت أخبارها زائفة، بالرغم من ذلك فإن السرية المرينية لم تُخْلِ سبيلَه بل أخذته معها إلى سلطانها المريني حيث أدركته قرب تلمسان. وعندما مثل ابن خلدون أمام أبي فارس المريني سأله هذا الأخير عن سبب اعتزامه الفرار إلى الأندلس، فأعلمه بحقيقة أمره وما دعاه إلى التوجه نحو الأندلس، فأخذ أبو فارس المريني يلومه على مغادرته البلاط المريني والبعد عن خدمتهم. فاعتذر له ابن خلدون بما كان يلقاه من عمر بن عبد الله المستبدّ على السلطان المريني إذ ذاك. وزكّى قول ابن خلدون كبراءُ حاشية السلطان المريني كان من بينهم ونزمار بن عريف والوزير عمر بن مسعود، فصدَّقَ السلطان قولَه. وحفّت به الألطاف[600] من الانتقام حسب تعبيره. وبات ليلته في الاعتقال، ثمّ أطلق سراحه غداً. وهكذا تنفس ابن خلدون الصعداء بعد أن سلم من محنة لا يدري مداها، واتجه إلى رباط الشيخ أبي مَدْين الأندلسي لينزل بجواره مؤثراً التخلّي عن السياسة، مفضلاً الانقطاع للعلم لو ترك وشأنه[601].

ويذكر ابن خلدون أن أبا فارس المريني سأله عندما اجتمع به عن أمير بجاية وعن الأوضاع فيها، وأبان له أنه يعتزم احتلال بجاية وضمَّها إليه. ويقول ابن خلدون إنه هوّن عليه السبيل في ذلك[602] قال ذلك إما مجاملة

(599) التعريف (134).
(600) المصدر السابق.
(601) التعريف (134).
(602) المصدر السابق.

وخوفاً، وإما لموقفه من صاحبها أبي العباس الذي أهانه في شخص أخيه يحيى وتفتيشه لمنزله كما سبق ذكره. ومهما يكن فإن ابن خلدون حاول ـ مرّة أخرى ـ الابتعاد عن السياسة أملاً في الانقطاع إلى العلم والتأليف.

ابن خلدون يناصر بني مرين

يبدو أن حياة المغامرات السياسية التي سلكها ابن خلدون ـ من أول شبابه جعلته يحنّ إلى العودة إليها لأدنى سبب. وكان يمثل فيها ـ أحياناً ـ التنكّر لمن عمل معه في السابق حتى لو كان انفصاله عنه دون جفاء أو اختلاف. ونتيجةً لتلك النفسية فإن انقطاع ابن خلدون عن السياسة بإقامته في رباط أبي مدين الأندلسي لم يدم طويلاً، فعندما عزم أبو فارس المريني على مطاردة أبي حمّو الزيّاني استعمل ابنَ خلدون في إحداث فراغ حول أبي حمّو الزياني بالحيلولة بينه وبين تجمع القبائل ـ عربية أو بربرية ـ من حوله.

يقول ابن خلدون في ذلك: «. . ثمّ أعمل السلطان نظرهُ ورأى أن يقدمني أمامه إلى بلاد رياح لأوطّد أمره وأحملهم على مناصرته، وشفاء نفسه من عدوّه، فاستدعاني من خلوتي بالعبادة عند رباط الولي أبي مدين وأنا قد أخذت في تدريس العلم، واعتزمت على الانقطاع، فأنسني، وقربني ودعاني إلى ما ذهبت إليه من ذلك، فلم يسعني إلاّ إجابته، وخلع علي وحملني وكتبَ إلى شيوخ الذواودة بامتثال ما ألقيه إليهم به من أوامره. وكتب إلى يعقوب بن علي وابن مزني ـ صاحب بسكرة ـ بمساعدتي على ذلك، وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمّو من بين أحياء بني عامر، ويحوّلوه إلى يعقوب بن علي. فودعته وانصرفت في عاشوراء اثنتين وسبعين[603] وسبعمائة (جويلية 1370).

والتحق ابن خلدون بالوزير المريني أبي بكر بن غازي المكلّف

(603) التعريف (135 - 136).

بمطاردة أبي حمّو الزيّاني. ثم ذهب يطوّف في الآفاق بين القبائل إلى المسيلة وإلى بسكرة إلى أن عاد ملتحقاً بالسلطان أبي فارس المريني في تلمسان بعد أن انهزم أبو حمّو الزيّاني.

ثم بعثه - مرّة أخرى - إلى إخراج أبي زيّان بن عثمان من أحياء الذواودة وإبعاد الأنصار عنه حتى وصل بسكرة من جديد وانقطع فيها مدّة عن السلطان أبي فارس إلى أن جاءه أمره بالالتحاق به بعد أن فسدت العلاقات بين ابن خلدون وأحمد بن يوسف صاحب بسكرة بسبب وشايات الحساد والمغرضين، فارتحل ابن خلدون من بسكرة بأهله وولده في الثاني عشر من ربيع الأول سنة 764هـ (جانفي 1363م) قاصداً تلمسان. وفي الطريق - عند وصوله مدينة مليانة - بلغته وفاة أبي فارس عبد العزيز المريني وتولية ابنه أبي بكر السعيد الذي كان في الخامسة من العمر، فنصِّب سلطاناً تحت كفالة الوزير أبي بكر بن غازي[604]. لكن ابن خلدون تابع رحلته إلى المغرب الأقصى عن طريق الصحراء حتى وصل مدينة فاس بعد أن تعرض لأخطار كادت تودي به وبأهله خاصة عندما اعترضه أنصار أبي حمّو الزيّاني العائد من القفار قصد استرجاع تلمسان بعد أن بلغه نعي أبي فارس المريني[605]. وعندما وصل مدينة فاس أكرم وفادته الوزير أبو بكر ابن غازي نظراً للصحبة القديمة التي كانت بينهما منذ عهد السلطان أبي سالم. «.. فلقيه من برّ الوزير وكرامته، وتوفير جرايته وإقطاعه فوق ما احتسب وأقام بمكانه من دولتهم أثير المحل، نابه الرتبة عظيم الجاه، منوّه المجلس عند السلطان»[606] وهكذا - تخلّى من جديد - عبد الرحمان بن خلدون عن المسؤولية السياسية ذات الصلة المباشرة أو الوثقى بالسلطنة الحفصية بقسميها الشرقي والغربي. وهي السلطنة التي ظلت على انقسامها دون اتعاظ بالأحداث المرة التي مرّت عليها.

---

(604) التعريف (217).

(605) التعريف (218).

(606) المصدر السابق وأصل الحديث بضمير المتكلم.

وفاة ابن تافراجين
واستمرار الشقاق في السلطنة الحفصية

مما تجدر إعادته إلى الأذهان أن أبا العباس الحفصي ـ بعد استيلائه على بجاية وقبضه على عمّه أبي إسحاق ـ أطلق سراح هذا العمّ ليعود إلى عاصمته تونس ويدركها قبل وفاة حاجبه ابن تافراجين بعد أن تواترت الأخبار تؤكد مرضه وتتكهن بوفاته. ووصل إبراهيم أبو إسحاق مدينة تونس في رمضان سنة 765هـ (1364م) فاقتبله حاجبه ابن تافراجين بالحفاوة، مظهراً له من الإجلال والتقدير ما يتناسب مع مقامه كسلطان على الدولة الحفصية بتونس. وأعطاه بعض خصائص النفوذ التي لم تكن له من قبل مثل جباية الأموال.

وبقطع النظر عن الأسباب التي تحدثت عنها بعض المصادر التاريخية[607] بخصوص المصاهرة التي تمت بين أبي إسحاق إبراهيم وبين ابن تافراجين عندما تزوج أبو إسحاق إبراهيم ابنة حاجبه، فإنه لا يبعد أن يكون ابن تافراجين ـ عندما أحس بقرب أجله ـ أراد أن يرمي بتلك المصاهرة إلى غايات بعيدة، وأن يزيد من توطيد العلاقات بين السلطان أبي إسحاق وبين أسرة ابن تافراجين خاصة مع ابنه محمد الذي درّبه على الإدارة والقيادة فأظهر المهارة والاستعداد. وقد تجلّى ذلك ـ خاصّة ـ في استرجاعه لجزيرة جربة سنة 763هـ (1362م) وافتكاكها من أحمد بن مكّي العدّو التقليدي للحاجب ابن تافراجين، وللسلطة المركزية في الحاضرة التونسية.

(607) العبر (6 :856) ـ الزركشي (101).

ومهما يكن فقد تمّ زواج أبي إسحاق إبراهيم بابنة الحاجب ابن تافراجين في موكب غاية في الأبهة ومظاهر الاحتفاء[608]. ولم يلبث ابن تافراجين أنْ توفي سنة 776هـ (1364م) فاهتز السلطان الحفصي لوفاته «. . وشهد جنازته حتى وضع بملحده في المدرسة التي اختطها لقرّاء العلم إزاء داره جوفي المدينة[609] وقام على قبره باكياً، وحاشيته يتناولون التراب حثياً على جدثه فضرب في الوفاء معه بما تحدث به الناس. .»[609] وحدد الزركشي مكان تلك المدرسة بأنها كائنة بقنطرة ابن ساكن داخل باب سويقة وهي حالياً بأسفل نهج سيدي إبراهيم مِمَّا يلي حوانيت عاشور، وأصبحت محل سكن خاص في العصر الحاضر[610]. وتعتبر وفاة الحاجب ابن تافراجين من أهم الأحداث بإفريقية في تلك الفترة من حياة السلطنة الحفصية. فقد كان هذا الرجل أقوى شخصية في السلطنة حتى في عهد السلطان أبي بكر. وقد تعرضت البلاد بعد وفاة هذا السلطان إلى عدّة هزّات داخلية وخارجية، فقد احتلّت من طرف أبي الحسن المريني، وهددت بالاحتلال في عهد خلفه أبي عنان، بالإضافة إلى الانقسامات الداخلية، وانخذال القبائل وأمراء الأطراف عندما كانوا يرحّبون بكل وافد، بل الأنكى من ذلك عندما كانوا يحرّضون على احتلال البلاد. وقد استطاع الحاجب ابن تافراجين الصمود والمقاومة أمام كل تلك الأحداث حتى وافاه الأجل المحتوم تاركاً فراغاً كبيراً بعده.

وعند وفاة هذا الحاجب الكبير كان ابنه محمد خارج العاصمة يمهد الأحوال، ويجمع الجباية من بلاد الساحل، فلما بلغه نعي أبيه أساء الظن بالسلطان أبي إسحاق إبراهيم، وخاف أن ينتقم منه أو يبعدَه عن النفوذ. ولهذا عزم على عدم الاعتراف بالسلطان أبي إسحاق وشقّ عصا الطاعة في وجهه فأرسل ما كان معه من جند إلى العاصمة، وتحالف مع أولاد حكيم من

(608) برنشفيك (1 :180).

(609) العبر (6 :856).

(610) الزركشي (101) مع تعليق الشيخ محمد ماضور محقق الكتاب.

قبيلة بني سليم في الساحل. ثم اتجه يبحث عن أحلاف آخرين ممن يتوقّع منهم المساندة والتأييد لا سيما صاحب المهدية وجربة اللذين كان يتوقع استجابتهما له إلاّ إنهما قابلاه بالرفض لما أمله منهما. ورغم ذلك فإن أبا إسحاق إبراهيم كان يشعر بضرورة جلب ابن تافراجين الابن إلى صفّه مخافة أن يستفحل أمره، وتستجيب له قبائل الأعراب التي لا تثبت على قرار، ولا تستقر على حال. وكان ضعف السيطرة على أطراف السلطنة من أهم العوامل التي جعلت أبا إسحاق إبراهيم يسعى إلى جلب محمد بن تافراجين إليه رغم ما أبداه من محاولة تمرد وعصيان. ومن أجل ذلك بعث إليه بما يرضيه من الأمان[611] وأنه لا تثريب عليه إذا عاد وانضمّ إلى السلطة المركزية.

وكان ما لقيه محمد بن تافراجين من إعراض صاحبيْ جربة والمهدية عنه دافعاً به إلى قبول عَرْض السلطان أبي إسحاق إبراهيم فبادره بالعودة إلى العاصمة «. . وتلقّاه السلطان بالبر والترحيب وقلده حجابتَه وأنزله مراتبَ العزِّ والتنويه»[612].

(611) العبر (6: 856).
(612) المصدر السابق.

مساعي محمد بن تافراجين

يبدو أن ابن تافراجين (الابن) كان يأمل أن يصبح له ـ مع أبي إسحاق إبراهيم ـ ما كان لأبيه سابقاً ـ من السطوة والنفوذ ناسياً أمرين اثنين:

أمّا الأمر الأول فإن السلطان أبا إسحاق إبراهيم أصبح يشعر أن بإمكانه أن يسوس البلاد، ويدير شؤونها، وأن الدالّة التي كانت لابن تافراجين (الوالد) عليه لم يبق لها موجب مع ولده محمد. وفوق ذلك فإذا كان أبو إسحاق إبراهيم يشعر بأنه مدين لابن تافراجين (الوالد) بالجلوس على السلطنة والبقاء على كرسيها، فإن الأمر بالعكس بالنسبة لابن تافراجين (الابن) الذي يمكن اعتباره مديناً بالفضل لأبي إسحاق إبراهيم عندما صفح عنه وولّاه حجابته.

أمّا الأمر الثاني فهو أنّ الرصيد الذي كان لابن تافراجين (الوالد) من الحرمة والوجاهة عند الخاصة والعامة من رجال الدولة الحفصية لم يكن موجوداً هذا الرصيد بالنسبة لابن تافراجين (الابن) مما يجعل السلطان أبا إسحاق إبراهيم لا يخشى إذا اتخذ أمراً ضدّ هذا الحاجب متى اقتضى الحال. إلّا أن ابن تافراجين (الابن) لم يراع كلّ ذلك فقد أراد أن يكون مستبدّاً بالأمر والنفوذ مع السلطان أبي إسحاق. وكانت خطّة الحجابة ـ كما مرّ في السابق ـ تقتضي ألّا يكون أي اتصال بين السلطان ورجال دولته إلّا بواسطة حاجبه إلّا أن أبا إسحاق إبراهيم تخطّى ذلك التقليد وأصبح يباشر الأمور

بنفسه ويتصل بأي واحد مباشرة حتى جباة الأموال وعرفاء الحشم[613] فاستنكر محمد بن تافراجين هذا الإجرَاء المخالف للمعتاد والمألوف، وحصلت نفرة بينه وبين أبي أسحاق إبراهيم. واستغلَّ خصومه تلك النفرة وذلك الاستنكار فأوسعوا من شقة الخلاف بين السلطان وحاجبه محمد بن تافراجين الفاقد لقوة ردع خصومه وإيقافهم عند حدّهم مما جعله يتنكّر للسلطان أبي إسحاق إبراهيم، ويدبّر خطة للفرار إلى قسنطينة ملتجئاً إلى صاحبها أبي العباس أحمد الحفصي المنافس لأبي إسحاق إبراهيم في محاولة استجماع النفوذ والسيطرة على كامل السلطنة الحفصية.

ولم يكتف محمد بن تافراجين بمجرّد الفرار والالتحاق بصاحب قسنطينة بل أراد أن يكون أقوى كلمةً، وأقربَ إلى الاستجابة، فتوجّه ـ قبل ذهابه إلى قسنطينة ـ إلى أولاد مهلهل فاستمالهم إليه وذهبوا معه إلى قسنطينة. وهناك أخذُوا ـ جميعهم ـ يحرّضون أبا العباس أحمد على غزو تونس وامتلاكها. ولم يكن هذا التحريض منافياً لرغبات أبي العباس أحمد الطامح إلى جمع السلطنة الحفصية كلها تحت قبضته. لكن ظروفه ـ إذ ذاك ـ لا تسمح له بالاستجابة لذلك التحريض لأنه كان مشغولاً بإمارة بجاية التي كان يعمل على ضمها إلى نفوذه وطرد ابن عمّه (أبي عبد الله الحفصي) منها. ورغم ذلك فقد استجاب لرغبة ابن تافراجين وأولاد مهلهل بعد فراغه من أمر بجاية[614]. ولم يهمل أمر هؤلاء الوافدين بل ضمّهم إلى قواته التي زحف بها على بجاية حتى استولى عليها حسب الذي تقدم ذكره من قبل.

---

(613) العبر (6 :857).

(614) العبر (6 :857).

الصراع بين تونس وقسنطينة

ما إن تمّ لأبي العباس أحمد الاستيلاء على بجاية حتى فكر في غزو الحفصية التونسية. إلاّ أنه لم يباشر الأمر بنفسه نظراً لصعوبة أوضاعه السياسية بعد الاستيلاء على بجاية، وخوف الانتقاض عليه إذا هو غادرها بسرعة، وقبل أن يستحكم نفوذَه عليها. ولهذا اكتفى بإرسال جيشه بقيادة أخيه (أبي يحيى زكرياء) ومعه محمد بن تافراجين وأولاد مهلهل. وسار هذا الجيش حتى وصل تونس وناصبها الحصار. إلاّ أن المدينة استطاعت أن تصمد. وبعد أيام من الحصار اتفق الطرفان على الصلح والمهادنة فرفع الحصار عن مدينة تونس وعاد جيش الحفصية الغربية إلى منطلقه، فرجع أبو يحيى زكرياء إلى مقرّ عمله بعنابة، ورجع محمد بن تافراجين إلى أبي العباس أحمد في قسنطينة.

ولكن هذه المهادنة لم تدم طويلاً بين صاحب تونس وصاحب قسنطينة لا سيما بعد أن استطاع أبو إسحاق إبراهيم أن يضم إلى صفوفه منصور بن حمزة زعيم الكعوب، مما شجعه على أن يعقد لابنه خالد سنة 769هـ على جيش ويبعث معه منصور بن حمزة قصد الهجوم على بونة (عنابة) ونواحيها، ولكنّ واليَها أبا يحيى زكرياء ردّ المهاجمين على أعقابهم دون أن يحققوا شيئاً من أهدافهم اللّهمّ توسيع شقة الخلاف مع أبي العباس أحمد صاحب الحفصية الغربية. وكانت قيادة هذا الجيش موكولة لمحمد بن رافع الذي جعل له النظر على الأمير خالد بن أبي إسحاق.

وبعد عودة الجيش من غزو بونة ونواحيها تذكر المصادر التاريخية أنّ أبا إسحاق إبراهيم تنكر للقائد محمد بن رافع، وأودعه السجن دون أن تعلّلَ أسباب ذلك التنكّر[615].

(615) العبر (6 :864) ـ الزركشي (103 - 104).

وفاة السلطان أبي إسحاق فجأة ونتائجها

وصادف أن الموت فاجأ أبا إسحاق إبراهيم في العشرين من رجب 770 (فيفري 1369) بعد أن قضى جانباً من ليلته في السمر، وذهب لينام. وعندما أيقظه خادمه وجده ميتاً[616] فعمّت الدهشة رجالَ الحاشية والمسؤولين، واحتاروا ماذا يفعلون. ثم استقرّ رأيهم على أخذ البيعة لابنه أبي البقاء خالد، وهو طفل صغير لا يتجاوز عمره اثنتي عشرة سنة[617] وقد أخذ له البيعة العلج العتيق منصور، والحاجب أحمد ابن إبراهيم بن المالقي، وهما أكبر المتنفّذين في حياة والده أبي إسحاق وازداد نفوذهما واستبدادهما بعد تنصيبهما لهذا الطفل على الحفصية التونسية. وأخذا يسيّران شؤون البلاد حسب هواهما مما سيكون له أثر كبير على مجريات الأحداث في السلطنة. وكان أول عمل قام به العتيق منصور والحاجب ابن المالقي هو القبض على القاضي محمد بن خلف الله لسوء العلاقة التي كانت بينه وبين ابن المالقي فأودع السجن مع محمد بن رافع. ولم يكتف ابن المالقي بذلك فدبّر لهما مؤامرة دنيئة ليقضي عليهما نهائياً، إذ بعث إليهما في السجن من يزين لهما الفرار والهروب، ويعدهما بالمساعدة على ذلك فوافقاه على الخطة. ثم ادعى أنه وقع اكتشاف محاولة الفرار فأمر ابن المالقي بقتلهما خنقاً[618].

---

(616) العبر (6 :864).

(617) تقدير برنشفيك (1 :186 ـ ح ـ 2).

(618) العبر (6 :865).

ويمكن أن نستروح من هذه الحادثة أن ابن المالقي هو الذي دبّر المؤامرة السابقة ضد محمد بن رافع بعد عودته من غزوة بونة (عنابة) التي قلنا عنها ـ إذ ذاك ـ: إن المصادر التاريخية لم تعلّل أسباب تنكّر أبي إسحاق إبراهيم لمحمد بن رافع حتى عُزِل عن القيادة وسُجِن.

وواضح من تلك المؤامرة ـ أيضاً ـ أن الحاجب ابن المالقي والعتيق منصور أرادا التخلّص من الشخصيتين المذكورتين حتى يخلوَ لهما جوّ الاستبداد على السلطان الطفل (أبي البقاء خالد) نظراً للمنزلة التي كان يحظى بها كلٌّ من القاضي محمد بن خلف الله، والقائد محمد بن رافع.

وكان لمقتل القاضي محمد بن خلف الله ـ على الخصوص ـ صدى بعيد الأثر في البلاد لما له من مكانة علمية إذ هو من طبقة الفقهاء المرموقين[619] من ناحية ثمّ لإخلاصه مع أبي إسحاق إبراهيم وعدم ارتكابه لما من شأنه أن يوجب قتله على تلك الصورة الظالمة من ناحية أخرى. ولعلّ هذا هو موجب تعليق ابن خلدون على تلك الحادثة بقوله عن ابن المالقي: «.. والله متولّي الجزاء منه، معقباً بالآية الكريمة، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»[620].

وكان الفقيه القاضي محمد بن خلف الله جاء من بلده نفطة مغاضباً لصاحبها عبد الله بن علي بن خلف المناوىء للسلطة المركزية الحفصية، ونزل على السلطان أبي إسحاق إبراهيم فأكرم وفادته، وجهّز له جيشاً لتمهيد الأحوال في بلاد الجريد، واستخلاص الجباية، فأبلى البلاء الحسن في ذلك مما زاد من حرمته وحظوته عند أبي إسحاق إبراهيم. وعندما توفي قاضي الجماعة بتونس (عمر بن عبد الرفيع) سنة 766 هـ. وقع الاختيار على محمد بن خلف الله بترشيح من السلطان أبي إسحاق رغم ترشيح ابن عرفة

(619) العبر (6 :864).

(620) سورة الشعراء، الآية: 227.

لابن حيدرة قاضي الأنكحة بتونس حسبما جرت به العادة[621] وكذلك رغم ترشيح ابن القطان للخطة نفسها، ورغم موقف ابن المالقي الذي لم يفتأ يستنقص مقام محمد بن خلف الله في مجلس السلطان.

وبالإضافة إلى الأثر السيء الذي أحدثه مقتل الشيخ محمد بن خلف الله والقائد محمد بن رافع فقد أساء الحاجب ابن المالقي السيرة في الناس وأكثر من العسف والجور، وابتزاز الأموال حتى أخذ العامة يبتهلون إلى الله أن ينقذهم من تسلّطه واستبداده.

ومن سوء سيرة الحاجب ابن المالقي والعتيق منصور أنهما أفسدا العلاقة التي كانت بينهما وبين زعيم قبائل الكعوب (منصور بن حمزة) لأنهما أطمعاه في المشاركة في تسيير شؤون السلطنة ليقوى جانبهما به وبأتباعه. ثم قَلَبا له ظهر المِجَنّ بعد أن استقرت لهما الأمور، فكان ذلك موجباً لسخطه عليهما فارتحل هو وقومه عن حماية العاصمة، وتوجهوا إلى أبي العباس أحمد صاحب الحفصية الغربية، وحرضوه على غزو تونس وضمها إلى نفوذه.

(621) العبر (6 :865) والزركشي (102).

دعوة أبي العباس الحفصي إلى غزو تونس

لعل مقتل القاضي محمد بن خلف الله كان له تأثير أكثر مما ذكرناه في بلاد الجريد، لأننا نجد أهل الجريد يبعثون إلى أبي العباس الحفصي يستحثونه على امتلاك تونس، ويعدونه بالتأييد والمساندة، فبعث إليهم بمحمد بن تافراجين لاختبار أحوالهم والتطلع إلى صدق نواياهم في ميلهم إلى أبي العباس أحمد، ومناوأتهم للمتنفذين في الحفصية التونسية. وفي بلاد الجريد وجد محمد بن تافراجين صدق أهالي الجريد فيما يدّعون إذ أعلن يحيى بن يملول صاحب توزر، والخلف بن الخلف صاحب نفطة طاعتهما لأبي العباس الحفصي ومبايعتهما له سلطاناً على الدولة الحفصية[622].

هكذا بدأت تتهيأ الأسباب الإيجابية لنجاح أبي العباس الحفصي إذا هو أقدم على ضم الحفصية التونسية إليه. ولكنّه ـ قبل أن يقدم على ذلك ـ انشغل ـ مدّة من الزمن ـ في إخضاع المسيلة وما حولها من جنوب الأوراس ومناطق الحضنة، فقد ظهر حفصي آخر يجاهر بالعداء والمنافسة لأبي العباس الحفصي هو إبراهيم ابن عمّه أبي زكرياء الحفصي الذي أيّد دعوته أولاد سليمان بن علي من الذواودة. وإبراهيم هذا هو أخو أبي عبدالله الحفصي الذي تغلّب عليه أبو العباس أحمد وافتكّ منه مدينة بجاية.

ونظراً للمصاهرة السابقة بين أبي حمّو الزياني صاحب تلمسان وبين

---

(622) العبر (6: 866 - 867).

أبي عبدالله محمد، فإن أبا حمّو الزيّاني ـ بعد أن رجع من تلمسان، وخشي قوة أبي العباس صاحب الحفصية الغربية، واستولى على تدلس التي تعتبر امتداداً شرقياً لمملكة بني عبد الواد ـ بعد كلّ ذلك فإن أبا حمّو الزيّاني شجع إبراهيم أخا صهره أبي عبدالله الحفصي، على أن يقوم بالدعوة، وأن يطالب باسترجاع بجاية ملك أخيه واعداً إيّاه بالعون والمساندة.

ولم يجد أبو العباس الحفصي كبيرَ عناء في التغلّب على إبراهيم بن أبي زكرياء وإعادة المسيلة إلى نفوذه. وهكذا لم يبق أمَامه ما يحول بينه وبين القيام بحملته على الحفصية التونسية، وقد سبقته إليها سمعته الطّيبة، ورجاحة عقله، وحميد سيرته، وأمان أهل مملكته[623] حتى اعتُبِر «الأحقّ بالأمر لشرف نفسه، وجلاله، واستفحال ملكه وسلطانه» كما يقول ابن خلدون[624].

(623) العبر (6: 866).
(624) المصدّر السابق.

الفصل الثامن

عهد السلطان أبي العباس أحمد

عودة الوحدة الحفصية

كـان لسوء الأوضاع، واضطراب الأحوال في الحفصية التونسية (عدة عقود من الزمن) الأثر الكبير في السخط العام على الأوضاع في البلاد، وفي التطلّع إلى المنقذ الذي يشيع الأمن والعدل، ويوفّر الطمأنينة والاستقـرار. وكان ما سجّله أبو العباس الحفصي من انتصارات في الحفصية الغربية وجمع شتاتها بعد الانقسام والحروب، وطول مدّة حكمه في قسنطينة ثم في بجاية معها، كان كل ذلك خير أرضية لتركيز حسن سمعتـه في قلوب الناس بالحفصية الشرقية. ولكلّ هذه الاعتبارات لم يجد المتنفّذون في هذا القسم من السلطنة الحفصية ما يصدّون به الحملة التي قادها أبو العباس الحفصي بنفسه لاحتلال تونس. وقبل وصوله العاصمة «تلقته وفود إفريقية جميعـاً بالطّاعة»[625]. ثم ضرب حصاراً واسع النطاق على العاصمة وعلى القصور السلطانية في «رأس الطابية» التي تمكّنوا من اقتحام أسوارها واحتلاها، وفرّت حاميتها إلى تونس العاصمة مِمّا أدخل الرعب والفزع في صفوف الجيش المحصور، وتبرأ بعضهم من بعض. وكان المسؤولون الحفصيون ينظرون من أعلى سور «باب الغدر» من أبواب القصبة فلما رأوا أنهم أحيط بهم ولّوا الأدبار، وقصدوا باب الجزيرة فكسروا أقفاله. وثار عليهم أهل البلد جميعاً فخلصوا سلطانهم (أبا البقاء خالد «من البلد بعد عصب الرّيق»[626] متسلّلين

(625) العبر (6 :867).

(626) المصدر السابق.

به هاربين. ولكن جنود الحفصية الغربية طاردوهم حتى أدركوا الحاجب ابن المالقي فقتلوه، واحتجزوا رأسه وقبضوا على السلطان الطفل (أبي البقاء خالد) فاعتقلوه بالسجن ولم ينجُ من المتنفذين سوى العلج منصور. ودخل أبو العباس أحمد مدينة تونس في الثامن عشر من ربيع الأول 772هـ (9 - 11 ـ 1370م).

وباستيلاء أبي العباس أحمد على مدينة تونس تمّ له جمع شمل السلطنة الحفصية من جديد بعد ما نالها من تشتت وانقسام.

وكان يوم دخوله العاصمة شديد الوطأة على السكان، عمّ فيه السلب والنهب والإفساد لديار أصحاب الدولة في عهد السلطان السابق، بل وقع تجاوز ذلك إلى غيرهم ممن لم تكن لهم مسؤولية في الحكم. ويعلّل ابن خلدون ذلك العيث بأنه كان نتيجة لما كانت تحمله عامّة الناس على الحكام السابقين لشدّة تحاملهم على الرّعية واغتصاب أموالهم[627]. ولكن سرعان ما عاد الهدوء إلى نصابه بعد انقضاء ذلك اليوم، وبعد أن أشفى العامّة غليلهم، وانتقموا مِمّن كانوا يظلمونهم، ويكلّفونهم العنت والإرهاق. وحسب ابن خلدون فإن السلطان أبا العباس أحمد كان له الفضل في إخماد تلك الفتنة التي عمّت المذنب والبريء، إذ يقول في خاتمة حديثه عن ذلك اليوم: «. . ولاذ الناس منه بالملك الرّحيم، والسلطان العادل، وتهافتوا عليه تهافت الفَراش على الذبال يلثمون أطرافه، ويجأرون بالدعاء له، ويتنافسون في التماح محيّاه إلى أن غشيهم اللّيل. ودخل السلطان قصوره وخلا بما ظفر من ملك آبائه»[628].

(627) العبر (6 :868).
(628) المصدر السابق.



خـزف من العهـد الحفصـي

أبو العباس يعيد مجد بني حفص

1 ـ سياسة الحزم:

كان السلطان أبو العباس أحمد ـ عند دخوله مدينة تونس ـ قد تجاوز سنّ الأربعين، وبعد أن تمرّس على الحكم والإدارة مدّة طويلة مِمّا أهّله للقيام بدور فعّال في السلطنة الحفصية، وأشاع فيها الاستقرار مدّة من الزمن بعد أن عانت الكثير من الفوضى والاضطراب. وقد لوحظ على هذا السلطان اعتماده على رجال دولته الوافدين معه من الحفصية الغربية، لا سيما من مدينة قسنطينة. وقد قال ابن القنفذ في هذه النقطة «. . وقدّم من خدّامه الواصلين معه إلى الحضرة أربعة: الوزير أبا إسحاق إبراهيم الهنتاتي، وشقيقه الشيخ الرئيس أبا عبدالله محمد وهما قسنطينيان بالولادة، والكاتب العاقل أبا إسحاق إبراهيم ابن الكمّاد من وجوه بلدنا [قسنطينة]. وأول من كتب علامتَه بالحضرة الفقيه أبو زكرياء يحيى بن وحّاد الكومي القسنطيني»[629] أما حجابته فقد عقدها لأخيه أبي يحيى زكرياء الذي كان واليه على عنّابة، والذي عرفناه سابقاً قائداً للحملة العسكرية ضد تونس العاصمة، قبل أن يعتزم أبو العباس أحمد قيادة حملة أخرى بنفسه.

وهكذا كان اعتماد السلطان أبي العباس على من كانت له بهم خلطة وممارسة من رجال دولته في قسنطينة وبجاية باستثناء ابن تافراجين (الابن)

(629) الفارسية (178).

الذي فرّ من بلاط أبي إسحاق إبراهيم والتجأ إليه، وحرّضه على غزو تونس. ورغم ذلك فإن السلطان أبا العباس لم يطمئن إليه كلّ الاطمئنان، ولم يفرد له منصباً سياسياً خاصّاً بل جعله نائباً ورديفاً لأخيه وحاجبه أبي زكرياء يحيى. وهو منصب كان ـ بلا شك ـ دون آمال ابن تافراجين ومطامحه. ولعلّ ذلك سيكون من أهم الدّوافع إلى نكبته فيما بعد.

أما السلطان السابق (الطفل أبو البقاء خالد) فتذكر المصادر التاريخية[630] أن حياته انتهت بموته غريقاً في البحر صحبة أخيه بعد أن بعث بهما السلطان أبو العباس على ظهر سفينة إلى قسنطينة فاعترضتها عاصفة بحرية هوجاء وحطمتها.

وبالإضافة إلى ما نقلناه عن ابن خلدون من وصف للسلطان أبي العباس فإن ابن القنفذ يقول عنه ـ بعد حديثه عن دخول هذا السلطان لمدينة تونس ـ «وقوّم أمير المؤمنين ما تحوّل، وسكّن ما تزلزل، وبحث عن الأحوال المؤدّية إلى استخلاص الأموال، ورفع أنواع الفساد، وأمّن الطرق والبلاد، وأقام شكلاً جميلاً، ورتّب مجلساً جليلاً واختصّ خواصَّ لمجلسه يتسابقون إلى نصحه وأنسه»[631] وواضح من هذا النص أن السلطان أبا العباس عزم على القيام بحركة إصلاحية، وتنظيمات إدارية الهدف منها محاولة الوصول إلى استقرار الأحوال وإصلاح الأوضاع في السلطنة مِمّا مكّنه من الجلوس على عرشها أكثر من ربع قرن.

2 ـ مجابهة الأعراب:

كان أول ما اهتمّ به السلطان أبو العباس هو العمل على خضد شوكة الأعراب والقبائل، والحد من سطوتهم ونفوذهم «.. وكبح أعنّتهم عن

---

(630) العبر (6 :868) ـ الزركشي (106).

(631) الفارسية (177).

التغلّب والاستبداد، وانتزاع ما في أيديهم من الأمصار والعمالات التي كانت من قبل خالفة السلطان»[632].

وكان منزع الأعراب في كلّ تحرّكاتهم من تأييد أو انتقاض مدفوعاً بالسعي في الحصول على الامتيازات والمكاسب، وكذلك في الحصول على حرية عملهم فيما يبسطون عليه نفوذهم من المناطق والجهات. وقد تفاقم هذا المنزع عند بني حمزة الكعوبيين منذ أن استطاعوا التغلّب على السلطان أبي الحسن المريني، وأن يزعجوا وجوده في إفريقية حتى اضطر إلى مغادرتها فاستطالت أيديهم عليها وتقاسموها أوزاعاً[633].

وبالرّغم من التحالف الذي كان موجوداً بين السلطان أبي العباس وبني حمزة فإنه ـ بعد أن استقرّ له الأمر ـ لم يساير وضع الأعراب وما لهم من سطوة ونفوذ، فأخذ يعمل على كبح جماحهم، واسترداد ما للسلطة المركزية من سيطرة على سائر الجهات والعمالات والأمصار. ووجد الأعراب أنفسَهم في وضع غير الذي كانوا يؤمّلونـه خاصة بني حمزة وزعيمهم منصور، فقلبوا للسلطة المركزية ظهر المجنّ، وأعلنوا العصيان في وجه السلطان أبي العباس أحمد. وانضمّ إليهم أولاد حكيم بزعامة أبي صعنونة أحمد بن مسكين، وارتحلوا جميعاً إلى قبائل الذواودة حيث يوجد عندهم لاجىء حفصي هو أبو يحيى زكرياء بن أبي بكر عمّ السلطان أبي العباس.

وكان هذا العمّ قد ظاهر بالخلاف على أخيه أبي إسحاق إبراهيم وحاجبه ابن تافراجين فأعلن عصيانه في المهدية واستنجد بأحمد بن مكّي صاحب قابس، والسلطان أبي عنان المريني. ولكن جيوش الحاجب ابن تافراجين اضطرته إلى الانتقال والالتجاء إلى الذواودة حيث عاش معهم. وبذلك يتضح أن اختيار أولاد حكيم التحالف مع الذواودة ضد أبي العباس

---

(632) العبر (6 :869).

(633) المصدر السابق.

لم يكن اعتباطاً بل كان مبنياً على وجود هذا اللاجىء الحفصي عندهم إذ يمكن استمالته إلى صفهم بمبايعته والقتال باسمه جرياً على عادتهم في ذلك منذ عهود سابقة.

وفعلاً نجحت خطة الأعراب فاستجاب لهم أبـو يحيى زكرياء وبايعوه سلطاناً بمساندة حماته الذواودة. ثم أغذّوا السير متجهين إلى تونس. وفي تبسة التقى بهم بنو حمزة فانضمّوا إليهم. وبعثوا وفداً إلى يحيى بن يملول صاحب توزر «يستحثونه للطاعة والمدد»[634] فوافقهم على ذلك، وأعلن مبايعته لأبي يحيى زكرياء.

وعلى تلك الصورة تهيأت المجابهة الأولى بين السلطان أبي العباس وبين الأعراب المتحالفين. وهي مجابهة يتوقف عليها مصير هذا السلطان في تطبيق سياسته الجديدة مع الأعراب، فإمّا أن يخضد شـوكتهم ويصبحوا يخشون بأسه، ويحترمون سيادته، وإمّا أن يتغلّبوا عليه ويجبروه على إعطائهم الامتيازات التي كانت لهم في عهد أسلافه.

3 ـ فشل حصار الأعراب لتونس:

أقبلت القبائل المتحالفة ـ تحت راية العمّ أبي يحيى زكرياء ـ نحو تونس العاصمة، فتصدّى لهم جيش السلطان أبي العباس بقيادة حاجبه وأخيه أبي يحيى زكرياء. وأمكن للأعراب في الجولة الأولـى أن يهزموا الجيش الحفصي، وأن يزحفوا على تونس العاصمة ويناصبوها الحصار عدّة أيام. وفي هذه الأثناء اكتشف السلطان أبو العباس أن ابن تافراجين (الحاجب بالنيابة) ربط مع المهاجمين الصلةَ وهيّأ خطّة سرّية لتسليمهم المدينة وفتح أبوابها لهم فقبض عليه واعتقله. ثم بعثه في سفينة إلى قسنطينة حيث قضى بقية حياته. وكان موقف ابن تافراجين يفسر ما ذكرناه من قبل أنه لم يكن راضياً عن منصبه، وظل يترقب الفرصة للانتقام، مؤمّلاً أن الإطاحة بأبي العباس أحمد

---

(634) العبر (6: 870) ـ الزركشي (107).

قد تكسبه الحظوة والمنزلة المرموقة عند عمّه المحاصر للمدينة مع الأعراب.

وبالرّغم مما تفطن له السلطان أبو العباس من تآمر عليه فإنه لم يتمكّن من التغلّب بالقوة على المحاصرين له. ولهذا اضطر إلى مسلك آخر يتمثل في فكّ عقدة التحالف بين القبائل، واشتراء ضمائر بعض الزعماء منهم. واستغلّ المعرفة السابقة التي كانت بينه وبين منصور بن حمزة زعيم أولاد أبي الليل فبعث بالأموال توزع على أنصاره ومساعديه من بني قومه حتى انفضّوا من حوله ووجد نفسه لا يستطيع شيئاً. وما إن عرض عليه السلطان أبو العباس إعلان الطاعة والمكافأة حتى استجاب بسرعة. وخلع طاعة «سلطانه» أبي يحيى. وقدّم ابنه رهينة للسلطان أبي العباس تدليلاً على صدقِهِ، وضماناً لعدم انتقاضه. ورجع إلى بني قومه دون أن يحاول نكثاً لعهده إلى أن مات قتيلاً إثر شجار بينه وبين أخيه. وقام بأمر بني كعب ـ من بعده ـ ابن أخيه صولة بن خالد بعد أن عقد له السلطان أبو العباس على ذلك.

4 ـ استرجاع سوسة والمهدية:

إن القضاء على فتنة الأعراب بزعامة منصور بن حمزة لا يعني أن السلطان أبا العباس خلصت له إفريقية، واطمأن على امتداد سيطرته في مختلف جهاتها لأن التركة التي تسلّمها في الحفصية التونسية كانت على غاية من التشتيت والتمزيق وكثر فيها المستبدّون بالجهات والعمالات لا سيما في الساحل والجنوب. ولهذا فما إن انتهى أبو العباس من التغلّب على منصور بن حمزة و«السلطان» أبي يحيى زكرياء حتى التفت إلى أطراف السلطنة الحفصية عاملاً على إخضاعها لنفوذه وانتظامها في سلك سيادته مبتدئاً بسوسة والمهدية، ففي سوسة وجهاتها كانت السيادة عليها لأولاد حكيم بزعامة قائدهم الملقب بأبي صعنونة. وكانت لبني حكيم «في الرعايا آثار قبيحة، وملكات سيئة، ولم يزالوا يضرعون إلى الله في إنقاذهم من أيدي جورهم وعسفهم» كما يعبر ابن خلدون[635]. ولهذا فما إن بلغ سمع أولائك

(635) العبر (6: 872).

الرعايا خبر اعتزام أبي العباس إرسال الجيش إلى سوسة حتى ثاروا ضد أبي صعنونة المستبد عليهم. وعندما أيقن هذا المستبدّ بالجد في الثورة، وخاف أن يدركه جيش السلطان الحفصي، خرج من سوسة وتركها مفتوحة في وجوه العساكر السلطانية. «.. وثارت عامّتها بعمّالِهِ فأجهضوهم، ونـزل عمّال السلطان بها..»[636] دون أن يجدوا مقاومة.

وعلى مثل هذه السهولة في الاستيلاء على سوسة كان شأن مدينة المهدية التي فرّ عنها صاحبها المستبد بها محمد بن الرّكراك[637] منذ أن نصّبه عليها الحاجب ابن تافراجين بعد أن استرجعها من أحمد بن مكّي ويقول ابن خلدون عن موقف المستبدّ بالمهدية «.. فلمّا وخزته شوكة الاستطالة من الدولة، وطلع نحوه قتام العساكر، فَرِقَ من الاستيلاء عليه وركب أسطوله إلى طرابلس ونزل على صاحبها أبي بكر بن ثابت لذمّة صهر قديم كانت بينهما[638]. وهكذا تمت الخطوة الثانية من عزم السلطان أبي العباس أحمد على فرض سيطرته في الحفصية التونسية.

5 ـ استرجاع جربة:

بعد سوسة والمهدية جاء دور جزيرة جربة. وكان المستبدّ بها ـ إذ ذاك ـ محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون منذ أن ولّاه عليها الحاجب ابن تافراجين سنة 763 هـ. بعد أن أخذها من أحمد بن مكّي صاحب قابس. وقد تنكّر هو أيضاً للسلطة المركزية بالعاصمة واستبد بجزيرة جربة و«.. قد تقبّل مذاهب جيرانها من أهل قابس وطرابلس وسائر الجريد في الامتناع على السلطان، ومصارفة الاستبداد، وانتحال مذاهب الإمارة وطرقها، ولبوس شارتها» كما يقول ابن خلدون[639] فأعلن عصيانه واستبداده مدّة السلطان أبي

(636) المصدر السابق.
(637) في المطبوعة العبر «الجكجاك».
(638) العبر (6 :872).
(639) العبر (6 :873).

إسحاق إبراهيم وابنه الطفل أبي البقاء خالد. وعندما استولى أبو العباس أحمد على الحفصية التونسية خاف ابن أبي العيون من سوء المغبّة فأخذ يراسل أمراء بلاد الجريد حتى يكونوا جبهة واحدة ضد السلطان أبي العباس. ولهذا اتجهت نيّة هذا السلطان إلى ضمّ الجزيرة إلى نفوذه مثلما فعل بالنسبة لسوسة والمهدية، فبعث بابنه الأمير أبي بكر صحبة محمد بن علي بن أبي هلال شيخ الموحدين. ونزل الأسطول الحفصي بجربة وشرع في حصار القشتيل الذي احتمى به ابن أبي العيون بعد أن انفضّ من حوله شيوخ الجزيرة البرابرة، وتخاذلت عنه بطانته من الجند المستخدمين معه عندما أيقنوا بالهلاك، وأن لا قبل لهم بمدافعة هذا الجيش الذي ضيق عليهم الخناق براً وبحراً، فنزلوا عن الحصن وأسلموه لقائد الأسطول الحفصي. وقبض على ابن أبي العيون وأرسل إلى تونس حيث أركب إلى القصبة على بعير، وطيف به أسواق المدينة ثم أحضره السلطان أبو العباس فوبخه على عناده ومسارته لأهل الانتقاض في بلاد الجريد واكتفى بأن أودعه السجن إلى أن قضى نحبَهُ فيه[640].

6 ـ محاولة إخضاع بلاد الجريد:

كانت مناطق الجريد أكثر الجهات انتقاضاً وانفصالاً عن السلطة المركزية الحفصية مستعينة في ذلك بابتعادها عن مركز السلطة ووجودها على تخوم الفيافي والصحاري التي تساعد على الفرار والإفلات.

وقد تحدث ابن خلدون عن الأوضاع السياسية في تلك الجهات بكثير من العنف، والنقد اللاّذع، فعندما تحدث عن الفترة التي حاول ـ أثناءها ـ منصور بن حمزة كسب أهالي الجريد ضد السلطان أبي العباس وصف يحيى بن يملول صاحب توزر بأنه «.. شيطان الغواية المارد على الخلاف»[641] وعندما مهد بالحديث عن اعتزام السلطان أبي العباس إخضاع

(640) العبر (6 :874).

(641) العبر (6 :870).

بلاد الجريد قال ابن خلدون: «.. كان أمر هذا الجريد قد صار شورى بين رؤساء أمصاره فيما قبل دولة السلطان أبي بكر لاعتلال الدولة حينئذ بانقسامها كما مر. فلما استبدّ السلطان أبو بكر بالدعوة الحفصية وفرغ من الشواغل صرف إليهم نظره وأوطأهم عساكره ثم نهض بنفسه فمحا أثر الشورى منها وعقد لابنه أبي العباس عليها كما قلنا. فلما كان بعد مهلكه من اضطراب إفريقية وتغلّب الأعراب على نواحيها ما كان منذ هزيمة السلطان أبي الحسن وبني مرين بالقيروان، عاد أهل الشورى في الجريد إلى ديدنهم من التوثب على الأمر والاستبداد على السلطان. وتناغى رؤساؤهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذهب الملك وشاراته، يقتعدون الأرائك، ويعقدون في المشي بين السكك المواكب، ويهينون في إيوانهم سبال الأشراف، ويتخذون الآلة أيام المشاهد آيةً للمعتبرين في تقلب الأيام وضحكةً لأهل الشمات، حتى لقد حدثتهم أنفسهم بألقاب الخلافة. وأقاموا على ذلك أحوالاً والدولة في التياثها..»[642].

ولم يشأ السلطان أبو العباس أن يتجه إلى مناطق الجنوب الغربي إلاّ بعد أن تلوّم لهم كثيراً عسى أن يتعظوا بما حصل في مناطق أخرى. إلاّ أن ذلك لم يزدهم إلا إمعاناً في التحدّي وإصراراً على الانفصال فاستعدّ أبو العباس لغزوهم وخرج من تونس سنة سبع وسبعين وسبعمائة في جيش كبير من الموحدين، وطبقات الجند، والموالي، وقبائل زناتة ومن انضمّ إليه من العربان وأولاد حكيم ومهلهل. وفي طريقه إلى الجريد حاول أولاد أبي الليل اعتراض مسيرته فانتهز السلطان أبو العباس الفرصة للإيقاع بأولاد أبي الليل فاكتسح أراضيهم، وغنم أموالهم، وبعث برجالهم أسرى إلى سجون العاصمة. وحسب تعبير ابن خلدون فإن اكتساح أبي العباس لأولاد أبي الليل في معاقلهم كان قد قطع به «عنهم أعظم مادة كانت تمدهم فخمد

(642) العبر (6 :877).

بذلك من عتوّهم، وقصّ من جناحهم آخر الدهر، ووهنوا لها»[643] ويشير ابن خلدون بقطع المدد عن أولاد أبي الليل إلى ما كانوا يوظفون من مغارم وجباية على إحدى القبائل البربرية من بقايا بني يفرن كانوا قد عمّوا ضواحي إفريقية، وكانوا من نصيب أولاد أبي الليل عندما أقطعت البلاد إلى قبائل الأعراب وبذلك أصبحت «جبايتهم موفورة، ومالهم دثراً بما صاروا مدداً لهم بالمال والكراع والزرع والأدم. وبالفرسان منهم يستظهرون في حروبهم مع السلطان ومن قومهم..»[644]. ولعل أسباباً ـ لم تذكرها المصادر ـ جعلت السلطان أبا العباس يكتفي باكتساحه لأولاد أبي الليل فعاد أدراجه إلى العاصمة دون أن يواصل مسيرته إلى بلاد الجريد.

7 ـ إخضاع قفصة وتوزر:

يبدو أن عودة السلطان أبي العباس إلى العاصمة جعلت أولاد أبي الليل ـ رغم هزيمتهم ـ يتصورون أن وَهَناً أصاب الجيش الحفصي ففضّل العودة دون مواصلة السير إلى مناطق الجنوب الغربي. وقد أغراهم هذا التصور على جمع شملهم من جديد ومهاجمة السلطان الحفصي في عقر عاصمته. ومما شجعهم على ذلك أن الكثير من الأعراب أنصار أبي العباس انفضّوا عنه. وأن أبا صعنونة ـ صاحب سوسة السابق ـ تحالف مع أولاد أبي الليل واستقرّ رأيهم جميعاً على مهاجمة السلطان أبي العباس «فأجلبوا بساحها أياماً، وشنّوا الغارات عليها. ثم انفضّوا عنها»[645]. وخرج أبو العباس يتعقب آثارهم. ثم توجه إلى سوسة. وعرج بعد ذلك على القيروان في طريقه إلى قفصة. وحاول أولاد أبي الليل ـ من جديد ـ عرقلة سيره فاعترضوا طريقه بعد

---

(643) العبر (6: 878 - 879).

(644) العبر (6: 878).

(645) العبر (6: 879).

أن وزّع عليهم ابن يملول، صاحب توزر، الأموالَ الكثيرة. إلا أن مسعى أولاد أبي الليل باء بالفشل، فواصل السلطان أبو العباس سيره حتى وصل قفصة وناصبها الحصار ثلاثة أيام متتالية أظهر أثناءها المحصورون استماتةً في الدفاع ولجاجاً في المقاومة مما جعل السلطان أبا العباس يهددهم بقطع غابة قفصة ونخيلها. وشرع في ذلك فعلاً فخاف سكان قفصة سوء العاقبة بقطع نخيلهم فثاروا على أحمد بن العابد المستبد بالمدينة، وأجبروه على الاستسلام، والمثول أمام السلطان، وقبول ما اشترط عليه من الطاعة والخراج[646]. ثم خرج أهل المدينة إلى السلطان أبي العباس وقدموا له بيعتهم وطاعتهم. وعقد لابنه أبي بكر على قفصة وارتحل قاصداً توزر.

وما كاد ابن يملول يسمع باحتلال قفصة وسير السلطان أبي العباس نحو توزر حتى بادر بالفرار مع أهله وما خفّ من ذخيرته قاصداً جهة بسكرة (بلد الزاب). وعندما وصل أبو العباس مدينة توزر وجد الناس في انتظاره طائعين مبايعين، فدخل البلد، وأقام في قصور ابن يملول واستولى على ذخائره «.. فوجد بها من الماعون والمتاع، والسلاح، وآنية الذهب والفضة ما لا يعتدّ لأعظم ملك من ملوك الأرض وأحضر بعض النّاس ودائع كانت عندهم من نفيس الجواهر، والحلي، والثياب وسلموها إلى السلطان أبي العباس»[647].

ومثلما فعل في قفصة عقد السلطان أبو العباس لابنه المنتصر على توزر، وأنزله في قصور بني يملول. واستدعى الخلف بن الخلف، صاحب نفطة، وعقد له على بلده نفطة كما أولاه حجابة ابنه المنتصر، لأنه لم يظهر خلافاً وسارع بالاستجابة لدعوة السلطان أبي العباس.

هكذا ـ إذن ـ تمكن السلطان أبو العباس الحفصي من إخضاع بلاد

(646) العبر (6 :879).

(647) العبر (6 :880).

الجريد له. وحاول أن يتمكن منها بتولية أبنائه على أمصارها عندما عقد لابنه أبي بكر على قفصة، ولابنه المنتصر على توزر، مما يذكرنا بما فعله السلطان أبو بكر الحفصي في النصف الأول من هذا القرن الثامن للهجرة. ولكن هل يضمن مجرّد ذلك التعيين لأبناء السلطان الأمن والاستقرار في تلك الجهات؟ إن منطق الأحداث السابقة والمتسلسلة يؤكد أن الاستقرار لا يضمن له الثبات إذا كان مبنياً على مجرّد قوة الشخص الحاكم، لأنه بمجرد ما تزول تلك القوة أو يتبدّل ذلك الشخص تعود الحالة إلى ما كانت عليه نظراً لتأصل نزعة الخلاف والانتقاض في النفوس منذ أجيال وأجيال، ونظراً لفقدان الوازع الوطني الذي يأنف من التدخل الأجنبي ويسعى إلى الحفاظ على كيان الدولة. ولهذا فإن عمل السلطان أبي العباس في الجنوب الغربي من البلاد لم يكن إلّا مظهر استسلام موقوت فرضته الغلبة والقوة مِمّا لا يمنع من أن تتولّد حركات انتقاضٍ أخرى كلّما سنحت الفرصة.

8 ـ عودة الصراع مع الأعراب:

إن أولاد أبي الليل ـ ومن انضم إليهم من الأعراب ـ لم تكسر شوكتهم نهائياً الهزائم التي ألحقهم بها السلطان أبو العباس عندما اعترضوه ـ وهو في طريقه إلى بلاد الجريد ـ في المرّة الأولى والمرّة الثانية. وحتى في عودته من بلاد الجريد إلى تونس اعترضوا سبيله وحاولوا قتاله بعد أن غادروا السهول، وتمرّسوا بالتلول والهضاب. وللمرة الثالثة أوقع بهم السلطان أبو العباس، وطاردهم حتى أوغلوا في الجهات الغربية للبلاد. وكان ابن يملول ـ الفارّ من توزر ـ على صلة بأولاد أبي الّليل يشجعهم على المقاومة، ويحرضهم على الذهاب إلى صاحب تلمسان وتحريضه على مهاجمة أبي العباس الحفصي. وذهب منهم ـ فعلاً ـ وفد إلى تلمسان بقيادة منصور بن خالد، ونصر بن منصور إلا أنهم لم يجدوا عند صاحب تلمسان إلا المواعيد التي تبين لهم منها عجزه فقفلوا راجعين إلى إفريقية[648].

(648) العبر (6 :880 - 881).

وحاول صولة بن خالد ـ خليفة منصور بن حمزة على أولاد أبي الليل ـ أن يصالح بين السلطان الحفصي وبين قومه وعشيرته ووفد عليه في تونس واشترط له شروطاً على قومه إلا أنهم لم يرضوا بها ممعنين في الخلاف والعصيان مما اضطر معه أبو العباس الحفصي إلى إشهار الحرب عليهم من جديد وجرت له معهم ثلاث جولات انتهت بفرارهم والتحاقهم بالقيروان. ولعل أولاد أبي الليل أدركوا أن السلطان أبا العباس شديد المراس، وأنه مصمم على مطاردتهم حيثما كانوا فتراجعوا عن موقفهم المتصلّب الذي لم يأت لهم بنتيجة فأرسلوا وفداً منهم إلى تونس العاصمة ليعلنوا له الطاعة والانقياد، وليطبقوا ما يراه من الشروط. ولم يكن بوسع أبي العباس الحفصي إلاّ قبول تلك الطاعة وإصدار عفوه عنهم. وأبدى أولاد أبي الليل الطاعة والانقياد. واستمرّوا على ذلك إلى عهد كتابة ابن خلدون لتلك الأحداث في مطلع القرن التاسع الهجري[649] في سنة 803 هجرية.

وكان أبو العباس الحفصي مضطرّاً إلى قبول تلك المصالحة من الأعراب لأنه يعرف مدى تعلّقهم بالعناد، ومراسهم في القتال وإشاعة الفوضى خاصّة أن مهمّته الكبرى المتمثلة في إخضاع كافّة الأصقاع الإفريقية لم تنته بعد لا سيما الجنوب الشرقي حيث يوجد عبد الملك بن مكّي في قابس وأبو بكر بن ثابت في طرابلس. وكلاهما مستبدّ بما تحت نفوذه لا يقبل الخضوع للسلطة المركزية. ولكنّ توجّه السلطان أبي العباس إلى الجنوب الشرقي تأخّر بعض الوقت نظراً للأحداث التي جدّت في الجنوب الغربي ذاته. بسبب رداءة العلاقات التي حدثت بين الأمير المنتصر المتولّي على توزر وبين حاجبه الخلف بن الخلف صاحب نفطة. فقد بلغ إلى علم هذا الأمير الحفصي أن حاجبه ابن الخلف لم يكن مخلصاً للسلطنة الحفصية، وأنه ـ بسبب ذلك ـ ظلّ متواطئاً مع ابن يملول الذي فرّ من توزر إلى بسكرة وأنه كان يبعث إليه بالعيون والأرصاد، ويراسله في خطة الانتقاض، كما كان

(649) العبر (881:6 ـ وانظر كذلك 887).

يراسل يعقوب بن علي أمير الذواودة في نفس الغرض. ونتيجة لكل ذلك أمر المنتصر الحفصي بإجراء تفتيش على ابن الخلف أسفر عن وجود مراسالات بخطّ كاتبه إلى كلٍّ من ابن يملول ويعقوب بن علي يحرّضهما فيها على الفتنة، فأمر المنتصر الحفصي بالقبض على حاجبه ابن الخلف وإيداعه السجن، وبعث عمّاله إلى بلدة نفطة فاستولى على مكاسب ابن الخلف وذخائره[650] وأرسل إلى والده السلطان أبي العباس يخبره بما حصل، ويستطلع رأيه في شأن ابن الخلف. ويعني بذلك أن ابن الخلف يكون هو الشخصية الإفريقية الثانية التي اعتمد عليها السلطان أبو العباس الحفصي وأسندَ إليها المهمّات السياسية والإدارية دون أن يكون له منها الولاء والإخلاص بعد الشخصية الأولى أعني بها ابن تافراجين الابن. وذلك كلّه ممّا يساند سياسة السلطان أبي العباس في عدم اعتماده إلاّ على الشخصيات التي أتت معه من الحفصية الغربية وخاصة من قسنطينة.

9 ـ محاولة انتقاض في قفصة:

مثلما حدث في توزر من محاولة انتقاض ضد أميرها الحفصي حصل كذلك في مدينة قفصة، ولو أنه على صورة لا تشبه تمام الشبه الصورة الأولى.

كان يوجد في قفصة المسمّى أحمد بن أبي زيد من إحدى العائلات ذات الحرمة والوجاهة لدى السلطة الحفصية الحاكمة. وكان هذا الرّجل قد وفد على السلطان أبي العباس قبيل افتتاح مدينة قفصة متظاهراً له بالولاء والطاعة، وسار ضمن جيش السلطان أبي العباس إليها فراعى له أبو العباس ذلك الموقف وأوصى عليه ابنَه أبا بكر لرعايته واحترامه. فقرّبه الأمير أبو بكر وأصبح من أهل الشورى عنده. ولعلّ أحمد بن أبي زيد كان يطمح إلى أكثر من ذلك كأنْ يعيّنه أبو العباس حاكماً لقفصة بعد أن يغادرها ويستتب الأمن

(650) العبر (6 :881) ـ الزركشي (109).

فيها. ولهذا لم يقنع بأن يكون من أهل الشورى. وأسرّ الأمر في نفسه منتظراً الفرصة السانحة للانتقاض والاستيلاء على قفصة.

وصادف أن الأمير أبا بكر عزم على زيارة أخيه المنتصر في توزر فغادر قفصة مخلّفاً فيها حاجبَه عبدالله التريكي نائباً عنه، فانتهز أحمد بن أبي زيد الفرصة وجمع حوله النّاس وطاف في شوارع المدينة منادياً بالثورة على بني حفص ونقض طاعتهم. ثم تقدم إلى القصبة يريد اقتحامها والقبض على الحاجب التريكي. إلاّ أن هذا الحاجب أغلق أبواب القصبة دونه فلم يتمكن أحمد بن أبي زيد من اقتحام الأسوار وفتح الأبواب. وكان يوجد بالقصبة باب خلفي يفضي إلى غابة قفصة فَقُرِعَتْ حولَه الطبول حتى اجتمع حوله النّاس من أهل القرى، وأُدخِلُوا من ذلك الباب فتقوّى بهم جانب المحصورين حتى كثروا. وإذ ذاك هوجم الثائر أحمد بن أبي زيد - وقد انفضّ العامة عنه - وقبض على الكثير من متزعّمي حركة الانتقاض إلاّ أحمد بن أبي زيد الذي تمكّن من الاختفاء مع ثلّة من أصحابه.

ووصلت أخبار هذه المحاولة الفاشلة إلى توزر فأسرع الأمير أبو بكر إلى الالتحاق بمركز عمله في قفصة. وما إن وصل حتى أمر بضرب رقاب المعتقلين ونادى في النّاس بالبراء من ابن أبي زيد وأخيه «ولأيام من دخوله عثر بهما الحرس في مقاعدهم بالباب متستّرين بزي النساء فتقبضوا عليهما وتلّوهما إلى الأمير فضرب أعناقهما وصلبهما في جذوع النّخل»[651].

وكان لحركة الانتقاض هذه ردّ فعل عند صاحب توزر الأمير المنتصر فقد استند على ما فيها من مناهضة للسلطة الحفصية من قبل الأفارقة. وازداد ارتياباً في الخلف بن الخلف المعتقل عنده فأمر بقتله في سجنه[652] وبذلك انتظم الجنوب الغربي في سلك السلطة الحفصية المركزية انتظاماً مباشراً.

---

(651) العبر (6: 882).

(652) العبر (6: 883).

10 ـ إخضاع قابس وطرابلس:

بعد استسلام توزر وقفصة لم يبق خارجاً عن نفوذ السلطان أبي العباس الحفصي إلا الجنوب الشرقي لا سيما قابس وطرابلس. وكانت انتصارات هذا السلطان في الحفصية الغربية، وتغلّبه على أولاد أبي الليل، وإخضاعه لقفصة وبلاد الجريد ـ كان لكل ذلك ـ الأثر البعيد في انضمام بقية الجنوب إلى نفوذه لا سيما بعد أن تبين للمتنفذّين على قابس عدم الجدوى من التعويل على صاحب تلمسان الزيّاني بشأن مضايقته الإيجابية للسلطان أبي العباس. ثم ما حصل ـ بعد ذلك ـ من خلافاته مع بني أحمد أولاد دبّاب بمساعدة أبي بكر الحفصي أمير قفصة، وكذلك الشأن مع أولاد بني علي. وكلّ هذا جعل السلطان أبا العباس يوقن بأن الوقت مناسب لخضد شوكة بني مكّي المستبدّين بقابس منذ أوائل السلطنة الحفصية. ولهذا عزم على توجيه الضربة القاضية عليهم، فخرج من تونس في رجب سنة 781 هـ. (1379 م) بعد أن استجمع قواه وانضمّ إليه أولاد مهلهل وأحلافهم من سائر بني سليم. ومرّ في طريقه على القيروان. ثم ارتحل عنها في اتجاهه إلى قابس وقبل وصوله إليها تلقاه زعماء دبّاب والمحاميد معلنين الطّاعة والانقياد، فأُسْقِط في يد عبد الملك بن مكّي، ووجد الفراغ حوله فلم يكن أمامه إلّا الإذعان والانقياد بدوره. لكنه استنكف أن يبقى في قابس يحكمها غيره فاختار الخروج منها حاملاً أهله وذخائره، ونزل في أحياء بني دبّاب صحبة ابنه يحيى، وحفيده عبْد الوهاب. ودخل السلطان أبو العباس مدينة قابس دون مقاومة في ذي القعدة 781 (فيفرى ـ مارس 1380) مستولياً على منازل بني مكّي وقصورهم. وأقبلت عليه الخاصة والعامّة يهنؤونه بالفتح ويعلنون له بالولاء.

وكان شأن طرابلس أكثر يُسْراً وسهولة. فما إن علم أبو بكر بن ثابت (صاحبها) بتقدّم السلطان أبي العباس نحو الجنوب الشرقي حتى بعث إليه بالرسل ـ قبل وصوله قابس ـ يعلنون الطاعة والانقياد. وفي قابس جاءته وفود

أخرى بعثها أبو بكر بن ثابت محمّلة بالهدايا.

وهكذا ـ بعد عشر سنوات من الاستيلاء على مدينة تونس ـ استطاع أبو العباس الحفصي أن يجمع تحت رايته كامل الحفصية التونسية، وأن يجعل منها ومن الحفصية الغربية صورة تكاد تكون كاملة لما كانت عليه هذه السلطنة في أوسع امتدادها، وأوج سلطانها. ولم يبق خارجاً عنها إلا مناطق بسكرة أي أقصى الجنوب من الحفصية الغربية.

11 ـ بنو مزني في بسكرة وانقيادهم للسلطان أبي العباس:

إذا قلنا: إن بُعْدَ مناطق الجريد عن السلطة المركزية بتونس، ومتاخمتها للصحارى والقفار كان من أهمّ الأسباب لكثرة الانتقاض والاستبداد بالسلطة في تلك الجهات النائية، فإن تلك الاعتبارات تبدو أكثر وضوحاً، وأشدّ تأثيراً بالنسبة لعمالة بسكرة إذ ذاك، فبالإضافة إلى بعدها ومتاخمتها للصحارى والقفار، وما يتخلّلها من سلاسل الجبال والشعاب في أوراس والحضنة، فإن تلك الجهات تتاخم كلًّا من مملكة تلمسان الزيّانية، وسلطنة فاس المرينية والمعروف أن كلتا السلطنتين لها مواقف عدائية ومنافسة شديدة مع السلطنة الحفصية.

وقد كانت بسكرة وجهاتها محلّ تنافس وصراع بين القبائل المتساكنة فيها لا سيما بين بني رَمّان وبني مُزَني من أول إنشاء الدولة الحفصية. ثم أمكن لبني مزني أن يتغلّبوا على بني رمّان، وينتزعوا منهم الاستبداد بالمنطقة منذ أن تولّى أبو إسحاق إبراهيم الحكم، وخلع يحيى الواثق سنة 678 هـ. (1279 م).

ويرجع سبب ذلك إلى أنّ أبا إسحاق إبراهيم المذكور لمّا فرّ من وجه أخيه المستنصر الأول التجأ إلى بني مُزَني فأكرموا وفادَته، وأعلنوا تأييدَهم له بزعامة علي بن أحمد بن مُزني. وعندما قدمت عليهم جيوش المستنصر

وهزمتهم فرّ أبو إسحاق إبراهيم إلى الأندلس مصطحباً معه علي بن أحمد بن مزني حتى إذا توفّي المستنصر الأول وعاد أخوه إبراهيم من الأندلس عاد معه علي بن مزني فراعَى له إبراهيم الحفصي مواقفه، وعيّنه والياً على بسكرة ونواحيها، كما عيّن أخاه عبد الواحد على بلاد الجريد. ورغم تجدّد الصراع بين بني مزني وبني رمّان، واضطراب الأحوال باضطراب السلطنة الحفصية نفسها، فقد استطاع بنو مزني أن يثبتوا في الاستبداد ببسكرة إلى هذا العهد الذي نتحدث فيه عن السلطان أبي العباس الحفصي أي النّصف الثاني من القرن الثامن الهجري حيث استطاع فيه توحيد السلطنة الحفصية.

وعندما استولى السلطان أبو العباس على مدينة توزر وفرّ عنها صاحبها يحيى بن يملول نزل هذا الأخير لاجئاً عند جاره صاحب بسكرة طالباً حمايته ومساعدته. إلاّ أن يحيى بن يملول لم يلبث طويلاً فقد توفّي بعد سنة أو ما يقاربها من نزوله عند أحمد بن مزني[653] ورغم ذلك فإنّ صاحب بسكرة لم يتخلّ عن آل يملول، أو عن العمل على مناصرتهم، وانتهاز الفرصة التي تمكّنه من ذلك. وكان أحمد بن مزني مدفوعاً إلى هذا من أجل الحفاظ على سلطته واستبداده بالجهة، لأنه يعتبر سقوط بلاد الجريد في يد السلطة المركزية الحفصية سقوطاً للحاجز الذي يقوم بينه وبين تلك السلطة إذ بذلك السقوط يصبح مكشوف الجانب، وهدفاً مباشراً للحملات الحفصية الموجّهة ضدّه.

ولهذا كلّه كان من الطبيعي ـ بالنسبة إليه ـ أن يبحث عن تقوية ذلك الحاجز الذي يفصل بينه وبين السلطنة الحفصية. وما إن بلغته شائعات ترجف بمرض السلطان أبي العباس حتى جهّز جيشاً لطفل صغير خلّفه يحيى بن يملول صحبة عرب رياح ومرداس وأرسل به لاستعادة توزر وإخراج واليها الحفصي الأمير المنتصر بن أبي العباس، سَعْياً في عودة بني يملول إلى مركز عملهم. ولكنّ هذه المحاولة باءت بالفشل إذ تمكّن الأمير المنتصر

---

(653) العبر (6 :938).

من ردّ ذلك الهجوم «.. وانصرف ابن يملول بإخفاقٍ من السعي، وأليم من الندّم وتوقّعٍ للمكاره..»[654].

وبلغت أبا العباس الحفصي الأخبار تعلمه بما فعل صاحب بسكرة من مناوأة مكشوفة للسيادة الحفصية على توزر، ومساعدة لابن يملول على احتلالها، ومحاولة للقضاء على ابنه المنتصر، فقرر السلطان أبو العباس أن يقودَ بنفسه حملة عسكرية لتأديب ابن مزني، وأن ينتهز تلك الفرصة لإخضاع بسكرة وخَضْد شوكة صاحبها. وفي سبيل ذلك «.. أجمع النهوض إلى بسكرة وعسكر بظاهر الحضرة (تونس) وفتح ديوان العطاء وجهّز آلات الحصار»[655] واستعدّ للانطلا ق.

ووصلت الأخبار إلى ابن مزني فأُسْقِط في يده. وحاول أن يلعب ورقة أخيرة مع أبي حمّو صاحب تلمسان بالتحالف والتساند معه ضد أبي العباس الحفصي. ولكنّ أبا حمّو لم يستجب لرغبة ابن مزني. ويعود هذا الرفض إلى ما كان يشوب علاقات بسكرة وتلمسان من غموض ومساومات، فقد كان يوجد في بسكرة أبو زيّان بن أبي سعيد عثمان عمّ أبي حمّو الذي نافسه في السيطرة على تلمسان بمساعدة بني مرين، فبعد أن استرجع أبو حمّو تلمسان خرج عمّه أبو زيّان هارباً والتجأ إلى يحيى بن يملول صاحب توزر. وعندما فرّ هذا الأخير إلى بسكرة خوفاً من السلطان أبي العباس الحفصي انتقل معه أبو زيان واستقرّ ـ هو أيضاً ـ ببسكرة عند أحمد بن مزني الذي اتخذ من هذا اللاجىء التلمساني وسيلةً للمساومة والضغط على أبي حمّو واستعماله عند الحاجة. وكان أبو حمّو مضطراً إلى مصانعة بني مزني، ومَدِّهم بالمساعدة والتحالف إذا طرأ عليهم ما يخيفهم من السلطان أبي العباس الحفصي على شرط أن يُبْقُوا عندهم عمَّه أبا زيّان «.. وربّما دسّ

---

(654) العبر (6 :890).

(655) المصدر السابق.

إليهم بمشارطة اعتقاله، وإلقائه في غيابات السجون»[656] حتى ينجز لهم ما وعدهم به. ومن جهة أخرى فإن أبا حمّو الزياني لم يكن وضعه يسمح له بالوفاء بذلك التعهد مخافة أن يفتح على نفسه واجهتين كبيرتين: الواجهة الحفصية والواجهة المرينية، لا سيما أن بني مرين كانوا يهدفون دائماً إلى امتلاك تلمسان وضمّها نهائياً إلى نفوذهم.

تلك هي - إذن - أهم الاعتبارات التي جعلت أبا حمّو الزياني لا يستجيب لنداء صاحب بسكرة رغم أن هذا الأخير اعتقل عمّه أبا زيان وأودعه السجن تنفيذاً لاشتراط أبي حمّو الزيّاني.

وبعد فشل التحالف بين بسكرة وتلمسان لم يبق أمام أحمد بن يوسف بن مزني إلاّ مراجعة موقفه المتصلّب مع السلطان أبي العباس الحفصي فخلّى سبيل أبي زيان بن أبي سعيد عثمان وأطلق سراحه من الاعتقال نافِضاً يدَه من مساعدة أبي حمّو الزياني له.

وتدخّل يعقوب بن علي - شيخ قبيلة رياح - في المصالحة بين أبي العباس الحفصي وبين أحمد بن مزني فدعا أصحاب بسكرة إلى إعلان الطاعة والانقياد للسلطان الحفصي، وأوفد ابن عمّه يعلم السلطان بذلك. فقبل السلطان أبو العباس الوساطة. وأعلن عفوه عن ابن مزني. ثم أوفد كبيرَ دولته أبا عبدالله بن أبي هلال إلى بسكرة ليتأكّد من صدق طاعة أصحاب بسكرة، ويستوثق من حسن نواياهم، وكذلك ليقتنع أحمد بن مزني بأن السلطان أبا العباس جادّ في وعده، راغب في إزالة الخلاف وفي استقرار الأوضاع في تلك الجهات. واستقبل المبعوث الحفصي الكبير من طرف أحمد بن مزني بالحفاوة والتكريم. وبالغ ابن مزني في الإعلان عن طاعته وولائه، وزوّد المبعوث السلطاني بمختلف التحف والهدايا للسلطان أبي العباس الذي كان في نفس الوقت يقوم بجولة تفقّدية لتركيز نفوذه، والإطلاع

(656) العبر (6 : 889).

على شؤون المناطق المتاخمة لعمالة بسكرة. وبعث ابن مزني مع الهدية وفداً كبيراً لملاقاة السلطان الحفصي حيث كان مُعَسْكِراً في تبسّة. وفي مفتتح سنة 783 هـ. (1381 م) «جلس لهم السلطان جلوساً فخماً، ولقّاهم قبولاً وكرامةً، فعرضوا الهدية، وأعربوا عن الطّاعة وحسن موقع ذلك من السلطان وشمِلَهم بإحسانه وجوائزه»(656م) وبذلك يكون السلطان أبو العباس الحفصي قد حقق أملاً كان يراوده منذ عدّة سنواتٍ بأن يعيد للسلطنة الحفصية كامل ترابها، وأن يقضي على بذور الشقاق والخلاف والانقسام فيها. ولكنّ السؤال الوارد هو: هل ما قام به أبو العباس الحفصي سيضمن استقرار الأوضاع، واستتباب الأمن، ووحدة الصفّ والكلمة؟ ويمكن ـ منذ البدء ـ توقع الإجابة السلبية عن هذا التساؤل لأن ذلك التوحيد للسلطنة الحفصية لم يكن مدعّماً بالقضاء على أسباب الانتقاض وشقّ عصا الطّاعة، وانعدام الانقياد سواء بالنسبة للتركيب الاجتماعي في البلاد، أو لقلّة حسن التدبير في تسيير شؤون الدولة واختيار الأكفاء لذلك التسيير.

(656م) العبر (6 :889).

عودة الاضطراب للسلطنة الحفصية

لم يمنع توحيد السلطنة الحفصية من عودة الاضطرابات فيها لما ذكرناه من أن ذلك التوحيد لم يكن مدعّماً بالقضاء على أسباب الانتقاض.

وكانت أول بادرة انتقاض ـ بعد توحيد السلطنة ـ من أولاد أبي اللّيل الكعوبيين رغم اضطرارهم ـ بعد صراع طويل ـ إلى إعلان الطاعة والانقياد للسلطان أبي العباس، وتقديمهم البعض من أبنائهم رهائن حتى يبرهنوا على صدقهم فيما يدّعون. وتظاهروا بعد ذلك بالتعاون مع السلطنة الحفصية عندما ارتحلوا مع الحاجب الأمير أبي زكرياء يحيى ـ شقيق السلطان ـ في عساكره لاقتضاء المغارم والجباية من قبيلة هوّارة التي استأثروا بها، وسيطروا عليها أثناء الفتن التي أثاروها ضد السلطة المركزية الحفصية[657] كما ارتحلوا مع هذا الأمير صحبة أولاد حكيم في جولات أخرى بأنحاء البلاد لنفس الغرض. وعندما عادوا مع الأمير أبي زكرياء يحيى إلى العاصمة توسّلوا إلى السلطان أبي العباس أن يرسل معهم العساكر إلى بلاد الجريد لاقتضاء مغارمهم حسب العادة واستيفاء إقطاعاتهم، فجهّز لهم السلطان أبو العباس جيشاً بقيادة ابنه أبي فارس عزّوز[658]. فعلام يدلّ كل هذا؟ ألا تستنتج منه ماهية السيطرة والانقياد التي تلاحظ في العلاقات بين السلطان الحفصي وبين أولاد أبي

(657) العبر (6 :892).

(658) العبر (6 :892).

الليل مِمَّا لا يتماشى مع جوهر السيادة، وهيبة الدولة، وحرمة السلطان! فما معنى أن يبقي لهم حقّ فرض المغارم والضرائب على جهات من البلاد تابعة له. أليس في ذلك ما يدلّ على أنهم هم الرّابحون، إن لم يكونوا هم الغالبين؟ وأن شعور السلطان بالضعف، وقلة السيطرة الحقيقية هو الذي جعلهم يقفون معه ذلك الموقف. وهو موقف ـ إن دلّ على شيء ـ فإنّما يدلّ على مَدَى تمسكهم بعاداتهم وتقاليدهم التي جرّت إلى البلاد الويلات، وجعلت الفوضى تسودها عدّة قرون؟.

ولهذا فلا يستغرب من أولاد أبي الليل ـ رغم علاقاتهم الجديدة مع السلطان أبي العباس ـ أن يظلّ هواهم يحنّ إلى الانتقاض، وأن أيّة فرصة تتهيّأ لهم فسوف لا يجدون من تقاليدهم وعاداتهم ما يمنع من انتهازها كما لا يستغرب منهم أن يظلوا ـ رغم كل شيء ـ على اتصال بخصوم السلطان أبي العباس سواء داخل حدود السلطنة أو خارجها. ولهذا فلا غرابة إذا بقوا على اتصال بابن مزني صاحب بسكرة، ويعقوب بن علي شيخ أولاد رياح، ومن قبلهما يحيى بن يملول صاحب توزر، وظلّوا يراسلونهم ويدعونهم إلى مثل ما كانوا عليه ـ سابقاً ـ من خلاف وانتقاض على سلطان بني حفص، كما كانوا يدعونهم إلى أبي حمّو الزيّاني صاحب تلمسان(959).

وعندما كان أولاد أبي الليل مع الأمير أبي فارس عزوز متجهين إلى بلاد الجريد لاستخلاص ضرائبهم ومغارمهم، بلغهم أنّ ابن مزني صاحب بسكرة اعتقل أبا زيّان بن أبي سعيد عثمان أمَلاً في نجدة أبي حمّو ضدّ أبي العباس الحفصي ـ عندما بلغهم ذلك ـ عدلوا عن ذهابهم إلى الجريد وفارقوا أبا فارس عزوز في مدينة قفصة، واتجهوا بأحيائهم إلى بسكرة مؤمّلين لقاءهم بأبي حمّو الزيّاني، وتقوية جانبهم به، بعد أن يئسوا من معاودة التغلّب الذي كان لهم على ضواحي إفريقية(660).

---

(659) المصدر السابق.

(660) المصدر السابق.

ولكن ـ مثلما ذكرنا من قبل ـ فإنّ أبا حمّو الزياني لم يستجب لرغبة ابن مزني، ولم يأت إلى بسكرة حتى يفي بما وعد به ابن مزني من مساعدة إذا هدّده بنو حفص. وقد عرفنا ـ إذ ذاك ـ أن ابن مزني انتهى به الأمر إلى نفْض يده من صاحب تلمسان، وإلى الإعلان عن طاعته وانقياده للسلطان أبي العباس الحفصي. ولكلّ ذلك فوجىء أولاد أبي الليل بواقع الحال، فندموا على ما حصل منهم وأيقنوا أنهم خسروا الصفقتين. إلّا أن يعقوب بن علي ـ شيخ أولاد رياح ـ صنع معهم مثلما صنع مع ابن مزني وأهالي بسكرة فبعث إلى أبي العباس الحفصي مستشفعاً فيهم، وأرسل بابنه محمد صحبة مبعوث كبير الدولة ابن أبي هلال الذي كان ما يزال موجوداً إذ ذاك في بسكرة. ووصل وفد الشفاعة في أولاد أبي الليل إلى تونس ومثل أمام السلطان أبي العباس فقبل هذا السلطان شفاعة يعقوب بن علي في أولاد أبي الليل وعفا عنهم. وزيادة في التأكيد على ذلك بعث إليهم أبو العباس بأخيه أبي يحيى زكرياء «.. لاستقدامهم أماناً لهم وتأنيساً. وبذل لهم فوق ما أمّلوه من مذاهب الرّضى والقبول»[661].

ولم يكن هذا الموقف الجديد من السلطان أبي العباس مع أولاد أبي الليل إلّا تأكيداً لما قلناه من أنه كان بعيداً عن القوّة الفاعلة التي يستطيع بها السيطرة الكاملة على البلاد، وخاصّةً مع قبائل الأعراب الذين كان يخشى عودتهم إلى الانتقاض، أو استغلالهم من قِبَل الطامعين والمنتهزين.

(661) العبر (6 :893).

السلطان أبو العباس وأولاد مهلهل

ما إن استرضى أبو العباس الحفصي قسماً من قبائل الكعوب - أي أولاد أبي الليل - حتى غضب قسم آخر من تلك القبائل وهم أولاد مهلهل. وقد حدث هذا سنة 783 هـ. عندما أعلن أولاد مهلهل عن سخطهم على السلطان أبي العباس واتجهوا صوبَ مشاتيهم في الصحارى بزعامة شيخهم يحيى بن طالب، وأخذوا يبحثون عن سَنَدٍ يقوّي شغبهم، ويكسب عملَهم وانتقاضَهم الصفة الشرعية فتذكّروا أنّ يحيى بن يملول - صاحب توزر السابق - ترك ولداً صغيراً بعد وفاته في مدينة بسكرة، فبعث يحيى بن طالب يدعوه إليه. وما إن وصله حتى بايعه أميراً على توزر واستعمله تعلّة للهجوم به على تلك المدينة وإخراج بني حفص منها. وأمكن لأولاد مهلهل اقتحام مدينة توزر، والتغلّب على أميرها الحفصي، ونصّبوا ذلك الطفل عليها، معيدين بذلك سيادةً اسمية لبني يملول على توزر. أما أميرها الحفصي فقد فرّ ناجياً بنفسه، مستجيراً بيحيى بن طالب زعيم أولاد مهلهل فأجاره هذا الأخير، وأمّنه على حياته حتى وصل مدينة قفصة حيث يوجد فيها عاملُها الحفصي عبدالله التريكي.

وبلغت أخبار توزر إلى السلطان أبي العباس فقرّر أن يجرّد حملة جديدة إلى بلاد الجريد، ويقودها بنفسه حتى يستعيد توزر إلى نفوذه، ويؤدّب أولاد مهلهل. وحسب الوصف الذي ذكره ابن خلدون[662] عن استعداد السلطان

(662) العبر (6 :894 - 895).

أبي العباس للقيام بتلك الحملة فإننا نجد ذلك الاستعدادَ يدلّ على ما ذكرناه ـ عدّة مرات ـ من أن السلطان الحفصي لم يكن له من الجيوش النّظامية المهيّأة ما يمكنه أن يجابه بها الأحداث المفاجئة أو غير المتوقعة بالرّغم من أنه قضى عشرات السنين في مقارعة ذلك النوع من الأحداث. وهكذا نجد السلطان أبا العباس لا يتجه مباشرة إلى بلاد الجريد، بل عسكر خارج العاصمة يستجمع القوى، ويغري الجند على المشاركة. ثم قصد منطقة الأربس[663] وأخذ يحرّض الأعراب على الانضمام إليه لا سيّما أولاد أبي الليل الخصوم التقليديون لأولاد مهلهل، ومنافسوهم على زعامة قبائل الكعوب. وبعد ذلك توجه إلى فحص تبسّة حيث أقام عدّة أيام للاستراحة، وتجميع ما يمكن جمعه من الجيوش حتّى إذا استوفى ما يضمن له النجاح في حملته اتجه صوب قفصة. ومن قفصة بعث بتشكيلة أولى إلى توزر بقيادة أخيه زكرياء، وابنه المنتصر، وكان معهما ـ أيضاً ـ زعيم أولاد أبي الليل صولة بن خالد. ثم التحق بهم السلطان أبو العباس وحاصروا جميعاً المدينة حتى استولوا عليها بعد فرار ابن يملول وأولاد مهلهل عنها. وانتصب المنتصر ابن أبي العباس من جديد على توزر. ثم قفل السلطان أبو العباس عائداً إلى تونس منتصف سنة 784هـ[664] إلاّ أن هذه الحملة لم تكن قاضية على الشغب والانتقاض في بلاد الجريد، فقد عاد ابن يملول ـ من جديد ـ مغيراً على توزر قصد استرجاعها إلى حوزته. وعاد السلطان أبو العباس يقود بنفسه حملة أخرى ضد ابن يملول الذي فرّ عائداً إلى بسكرة ونواحيها قبل أن يصل السلطان أبو العباس إلى توزر مِمّا جعل السلطان الحفصي يعدل عن مواصلة سيره مكتفياً بالوصول إلى قفصة حيث جاءه أهالي الجريد يشتكون من الحاجب أبي القاسم الشهرزوري لسوء دخلته وقبيح فعاله[665] فغضب عليه

(663) قرب السرس حالياً.
(664) العبر (894 - 895).
(665) العبر (6 :895).

أبو العباس وحمله معه مقيّداً إلى تونس. واستاء الأمير المنتصر لما فعله أبوه مع حاجبه فأقسم ألاَّ يعودَ إلى ولاية توزر، فعيّن أبو العباس أحد أبنائه الصغار (زكرياء) والياً عليها بدل أخيه المنتصر.

لكن بماذا يفسّر موقف الأمير المنتصر في تضامنه مع حاجبه الشهرزوري عندما اعتقله السلطان أبو العباس؟ هل يعني ذلك أنه كان مظلوماً، وأن تشكيات أهالي توزر منه لم تكن مبنية على أمر صحيح؟ مهما تكن الإجابة عن ذلك التساؤل فإنه لا مانع من احتمال أن سوء الإدارة الذي كان يسلكه الحاجب الشهرزوري مع الأهالي كان مما يشجع ابن يملول على تكرار محاولته لاسترجاع مدينة توزر، وأن في غضب الأهالي على السلطة الإدارية ما يغريه بأن يجد العون والتأييد في محاولاته تلك. ويبدو أن نقمة أهالي توزر كانت لا تمس شخص الأمير المنتصر بقدر ما كانت تمس حاجبه أبا القاسم الشهرزوري، إذ نجد أهالي توزر ـ بعد أن تركهم المنتصر من أجل حبس حاجبه المذكور ـ يطلبون من أبيه أبي العباس أن يُعيده إليهم بعد عودته من قابس سنة 789 هـ. وكان هذا الطلب من أولاد مهلهل أنفسهم «فأركبوا نساءهم في الهوادج واعترضوا بهنّ السلطان سافراتٍ مُوَلْوِلاتٍ، دخلاء عليه في إعادة المنتصر إلى توزر لما لهم فيه من المصالح، فقبل السلطان وسيلتهنّ وأعاده إلى توزر. .»[666].

(666) العبر (6: 900).

ابن خلدون في مهبّ الريح

1 ـ من بسكرة. . . إلى قلعة بني سلامة:

عندما وصل ابن خلدون في تدوين تاريخه إلى الحديث عن استرجاع مدينة توزر للمرّة الثالثة من قبل السلطان أبي العباس الحفصي وإخراج ابن يملول وأولاد مهلهل منها قال ابن خلدون «. . كنت أنتهي بتأليف الكتاب إلى ارتجاع توزر من يد ابن يملول، وأنا يومئذ مقيم بتونس. ثمّ ركبت البحر منتصف أربع وثمانين إلى بلاد الشرق لقضاء الفرض. ونزلت بالإسكندرية ثم بمصر. وصارت أخبار المغرب تبلغنا على ألسنة الواردين»[667].

وقد كنّا تعرضنا بالذكر إلى العلاّمة ابن خلدون وما له من صلات ومساهمات قريبة أو بعيدة في الأحداث التي جدّت بالمغرب الإسلامي مع السلطنة الحفصية بتونس، والمرينية بفاس، والزيانية بتلمسان والأحمرية بغرناطة على حدٍّ سواء[668]. وكان آخر العهد به أنه استقرّ في فاس عند السلطان المريني بعد أن غادر بسكرة إثر الوشايات التي حيكت ضدّه واقتنع بها أحمد بن مزني.

وكاد ابن خلدون يفقد حياته في الطريق ما بين بسكرة وفاس من قبل أنصار غريمه أبي حمو الزياني، فقد أوعز هذا الأخير إلى بني يغمور من

(667) العبر (6 :896).

(668) انظر ما تقدم.

شيوخ عبيد الله من قبائل المَعْقِل بالتعرّض لابن خلدون ومن معه. يقول ابن خلدون:

«.. فاعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين مخرج وادي «زا» فاعترضونا هناك فنجا من نجا مِنّا على خيولهم إلى جبل «دَبْدُو» وانتهبوا جميع ما كان معنا، وأُرْجَلوا الكثير من الفرسان، وكنت فيهم. وبقيت يومين في قفره ضاحياً عارياً إلى أن خلصت إلى العمران، ولحقت بأصحابي بجبل دَبْدُو. ووقع - خلال ذلك - من الألطاف ما لا يعبَّر عنه ولا يسع الوفاء بشكره. ثم سرنا إلى فاس..»[669].

وفي فاس أكرم وفادته الوزير أبو بكر بن غازي نظراً لعلاقة قديمة كانت بينهما منذ قدوم السلطان أبي سالم من الأندلس إذ كانا معاً من أنصاره وفي خدمته. وأقام ابن خلدون بفاس - كما يقول -: أثير المحلّ، نابه الرّتبة، عريض الجاه، منوّه المجلس عند السلطان[670].

إلّا أنّ أحداثاً أوجدت خلافاً كبيراً بين فاس وغرناطة تسبّبت في إبعاد ابن خلدون عمّا كان يصف به نفسه من نعمة واستقرار، فطوّحت به - مرّة أخرى - في الآفاق. وقد تمثّلت تلك الأحداث في التجاء لسان الدين ابن الخطيب إلى المغرب الأقصى بعد فراره من بني الأحمر أصحاب غرناطة.

وقد تطوّرت تلك الأحداث إلى إعلان الحرب بين الجانبين بينما عدوّهم المشترك في الأندلس يتقوّى شأنه يوماً بعد يوم. وانتهت تلك الأحداث في المغرب الأقصى بعزل السلطان الطفل (السعيد بن عبد العزيز) وانتصار أحمد بن أبي سالم المريني والأمير عبد الرحمان بن أبي يفلُوسَنْ على أن يكون الملك للسلطان أحمد بن أبي سالم في سائر أعمال المغرب، وأن يكون للأمير ابن يفلُوسَنْ سجلماسة ودرعة والأعمال التي كانت لجدّه أبي

(669) التعريف (218).

(670) المصدر السابق.

علي أخي السلطان أبي الحسن المريني. وقد تمّت كلّ هذه الأحداث بالمساعدة والتدخل المباشر من ملك بني الأحمر في غرناطة(671).

وكان ابن خلدون ـ أثناء تلك الأحداث مقيماً بفاس «عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه»(672) فلما وصل إلى فاس السلطان أحمد بن أبي سالم والأمير عبد الرّحمان بن يَفَلُّوسَنْ خرج ابن خلدون لاقتبالهما مع رجال الدولة من الفقهاء والكُتّاب والجند. ويبدو أنّ صلة ابن خلدون بابن يفلُوسَنْ كانت أقوى من صلته بالسلطان ابن أبي سالم، فكان ابن يفلُّوسَنْ يميل إليه ويدعوه أكثر أوقاته ليشاوره في أمره، ويأخذ رأيه(673) فأوجب ذلك سخط الوزير محمد بن عثمان على ابن خلدون فدّبر له مكيدة عند السلطان ابن أبي سالم انتهت باعتقاله في السجن. وظلّ يومين محبوساً، ولم يطلق سراحه إلاّ بعد تدخّلٍ من الأمير ابن يفلّوسَنْ عندما بلغه أن ابن خلدون إنّما اعتقل بسبب اتصاله به، ومشاورته له في شؤونه.

وبعد مغادرة أبي ابن يفلّوسَنْ مدينة فاس إلى مراكش أحس ابن خلدون بسوء وضعه فحاول الانتقال إلى الأندلس، إلاّ أن حاشية السلطان ابن أبي سالم عارضت في ذلك. ولم يسمح له السلطان المريني بمغادرة فاس والتوجه إلى الأندلس إلاّ بعد مماطلات ووساطات عديدة فأذن له بذلك «.. على كُرهٍ من الوزير محمد بن عثمان وسليمان بن داود بن أعراب ورجال الدولة»(674) إذ كانوا يخشون إفلاته من قبضتهم وما قد يحوكه من مناورات نظراً لصلته المتينة بابن أبي يفلّوسن. وما إن استقرّ ابن خلدون بغرناطة حتى قويت الشائعات ضدّه في فاس، واتُّهِمَ بأنه يحرّض ابن الأحمر على مناوأة

(671) انظر عن ذلك العبر (7 :292 - 636) الاستقصا (4 :63).
(672) التعريف (224).
(673) التعريف (225).
(674) التعريف (225).

السلطان ابن أبي سالم، ومناصرة منافسه الأمير ابن أبي يفلّوسَن، بينما يقول ابن خلدون إنه قصد الأندلس بقصد القرار، والانقباض، والعكوف على قراءة العلم[675] ثم آل موقف البلاط المريني من ابن خلدون أن طلب من صاحب غرناطة أن يرجع ابن خلدون إلى فاس أو أن يخرجه عنه، ويبعث به إلى تلمسان حيث سبقه أخوه يحيى إليها متولّياً كتابة سرّ أبي حمّو الزياني كما كان يفعل من قبل.

واستجاب ابن الأحمر لهذا العرض الأخير بعد أن أبلغه المرينيون ما كان من موقف ابن خلدون في محاولته تخليص لسان الدين بن الخطيب من القتل. وهكذا اضطر ابن خلدون إلى الانتقال إلى تلمسان رغم الجوّ المظلم الذي كان بينه وبين أبي حمّو الزيّاني. وفي تلمسان التحق به أهله من فاس وأخذ في تدريس العلوم بعيداً عن السياسة ومشاغلها[676] ثم أراد أبو حمّو الزيّاني استعماله في جلب قبائل الذواودة ـ لمكانة ابن خلدون عندهم ـ فاستدعاه وكلّفه بالسفارة إليهم في ذلك الغرض. وكانت التجارب القاسية التي عاناها ابن خلدون قد أقنعته بضرورة البعد عن مثل تلك المهمات إلّا أنه تظاهر بالاستجابة لرغبة صاحب تلمسان حتى يمكنه التخلص منه، ومن ضغطه عليه.

وفي طريقه إلى الذواودة عرج على أحياء أولاد عريف في مناطق وهران والتجأ إليهم فتلقّوه بالترحاب. وأقام بينهم أياماً. ثم بعثوا يستدعون أهله من تلمسان بعد أن بينوا لأبي حمّو الزيّاني عجز ابن خلدون عن القيام بالمهمة التي أوكلها إليه. ثم أنزلوه مع أهله في قلعة بني سلامة عندهم[677]. وبذلك دخل ابن خلدون مرحلة جديدة من حياته إذ أقام هنالك أربع سنوات (776 ـ 780هـ). متخلّياً عن الشواغل كلّها. وشرع يكتب تاريخه المشهور حتى

(675) التعريف (226).

(676) التعريف (227).

(677) تقع هذه القلعة في مقاطعة وهران ويقال لها أيضاً قلعة ابن سلامة.

أكمل «المقدمة» منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتدى إليه في تلك الخلوة. «فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر» كما يقول[678].

ولما طال مقامه بقلعة بني سلامة عند صاحبها أبي بكر بن عريف وفي قصره الذي اختطه لنفسه سئم ابن خلدون من الغربة والانقطاع، وتشوقت نفسه للعودة إلى تونس. ويصف ابن خلدون تلك الفترة الدقيقة من حياته بقوله:

«ثم طال مقامي هنالك، وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان، وعاكِفٌ على تأليف هذا الكتاب (كتاب العبر) وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناتة. وتشوقت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلّا بالأمصار، بعد أن أمليت الكثير من حفظي، وأردت التنقيح والتصحيح. ثمّ طرقني مرض أوفى بي على الثنية[679] لولا ما تدارك من لطف الله. فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس والرحلة إلى تونس حيث قرار آبائي ومساكنهم، وآثارهم وقبورهم. فبادرت إلى خطاب السلطان بالْفَيْئة إلى طاعته، والمراجعة وانتظرت.. فما كان غير بعيد، وإذا خطابه وعهوده بالأمان والاستحثاث للقدوم، فكان الخفوف للرّحلة فظعنت عن أولاد عريف مع عرب الأخضر من بادية رياح، كانوا هنالك ينتجعون المِيرة بِمَنْدَاس. وارتحلنا في رجب سنة ثمانين [وسبعمائة][680].

وبعد أن يتحدث ابن خلدون عن الطرق التي سلكها حتى وصل تونس، يواصل قائلاً: «.. وسرنا إلى السلطان أبي العباس - وهو يومئذ قد خرج من تونس بالعساكر إلى بلاد الجريد لاستنزال شيوخها عن كراسي الفتنة التي كانوا عليها - فَوَافَيْتُه بسوسة، فحيّا وفادتي، وبرّ مقدمي، وبالغ في

(678) التعريف (229).

(679) كذا في الأصل ويحتمل «المنيّة».

(680) التعريف (230).

تأنيسي، وشاورني في مهمّات أموره. ثم ردّني إلى تونس. وأوعز إلى حاجبه مولاه فارح [بن مهدي] بتهيئة المنزل، والكفاية في الجراية والعُلُوفة، وجزيلٍ الإحسان فرجعت إلى تونس في شعبان من السنة [780 هـ] وآويت إلى ظلٍّ ظليل من عناية اسلطان وحرمته. وبعثت عن الأهل والولد وجمعت شملهم في مرعى تلك النّعمة، وألقيت عصا التّسيار. وطالت غيبة السلطان إلى أن افتتح أمصار الجريد. وذهب فلّهم في النّواحي ولحق زعيمهم يحيى بن يملول ببسكرة ونزل على صهره ابن مزني، وقسم السلطان بلاد الجريد بين ولده، فأنزل ابنَه محمد المنتصر بتوزر وجعل نفطة ونفزاوة من أعماله، وأنزل ابنه أبا بكر بقفصة. وعاد إلى تونس مظفّراً ماهِداً فأقبل عليّ، واستدناني لمجالسته، والنجيّ في خلوته. . »[681].

تلك هي الصورة التي حكاها ابن خلدون عن عودته إلى مسقط رأسه تونس، وعن احتفاء السلطان أبي العباس الحفصي بقدومه. ولكن هل يسلَم هذه المرّة من السعايات والمنافسات؟ إنه بالرّغم من جِدّه في التفرّغ للمعرفة وإقباله على المطالعة لزيادة التنقيح والتصحيح لكتابه ـ كما قال ـ فإن عقارب السعاية والوشاية لم تبعد عنه هذه المرّة كذلك. فما إن رأى أهل الدولة حظوته عند السلطان أبي العباس، واحتفاءه به، وأخْذَ رأيه فيما يعرض عليه من الأمور حتى غُصّت حلوق بطانة السلطان بذلك فأفاضوا في السعايات والوشايات دون أن يتمكنوا من تحويل ميل السلطان عنه.

ويذكر ابن خلدون أن رجال الدولة الحفصية كانوا يستعينون في ذلك باستعمال إمام الجامع (الأعظم) وشيخ الفتيا (إذ ذاك) محمد بن عرفة فقد استجاب لغرضهم نتيجةً لعوامل نفسية رمشاحنات ومنافسات كانت بينه وبين ابن خلدون منذ الصغر.

2 ـ هجرة ابن خلدون إلى المشرق:

مِمّا لا شك فيه أن حاشية السلطان أبي العباس الحفصي توجست خيفةً

(681) التعريف (230 - 232).

من المنزلة التي أصبح عليها ابن خلدون عند هذا السلطان. وهم يعرفون مختلف الأدوار السياسية التي قام بها ابن خلدون في مختلف عواصم المغرب الإسلامي، بل ويعلمون كذلك مدى حرص ملوك تلك العواصم على استمالة ابن خلدون وتكليفه بالمهمات السياسية والإدارية. وبالرغم مما يظهر على ابن خلدون من عزم على الانقطاع للعلم والانصراف عن السياسية فإنهم يعرفون أنه أظهر ذلك عدّة مرات إلاّ أنه يعود إلى المهام السياسية عندما يطلب منه ذلك بإلحاح أو بدونه. ولكل ذلك فهم لا يأمنون هذا الجانب وليس هنالك ما يمنع السلطان أبا العباس من تكليفه بخطة أو مهمّة. ولهذا سعت حاشية هذا السلطان في إفساد العلاقة المتينة التي كانت تربط ابن خلدون بالسلطان الحفصي.

أمّا بخصوص موقف الشيخ ابن عرفة فقد أطنب في الحديث عنه ابن خلدون نفسه، إذ يقول عن ذلك: «.. وكان في قلبه نكتةٌ من الغيرة من لدن اجتماعنا في المربى بمجالس الشيوخ، فكثيراً ما كان يظهر شفوفي عليه وإن كان أسنّ منّي[682] فاسودَّ بتلك النكتة قلبهُ ولم تفارقه. ولما قدمت إلى تونس انثال عليّ طلبة العلم من أصحابه وسواهم يطلبون الإفادة والاشتغال وأسعفتهم بذلك، فعظم عليه. وكان يسر التنفير إلى الكثير منهم فلم يقبلوا. واشتدت غيرته، ووافق ذلك اجتماع البطانة إليه فاتفقوا على شأنهم في التأليب عليّ والسعاية بي، والسلطان ـ خلال ذلك ـ معرض عنهم في ذلك. وقد كلّفني بالإكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوفه إلى المعارف، والأخبار، واقتناء الفضائل فأكملت منه أخبار البربر وزناتة وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصلَ إليّ منها. وأكملتُ منه نسخةً رفعتها إلى خزانته[683].

وحاول المناوئون أن يثيروا في السلطان أبي العباس جانبَه النّفسي ضدّ ابن خلدون ـ ما داموا لم يجدوا في الجانب السياسي ما يَدْعَم قولهم ـ فكانوا

(682) ولد ابن عرفة سنة (716هـ). وولد ابن خلدون سنة (732هـ).

(683) التعريف (232 - 233).

يذكرون له أن ابن خلدون يستنكف من مدحه لكثرة مدحه للملوك والسلاطين قبله[684]. وبلغت ابن خلدون تلك السعايات عن طريق أحد المخلصين له من بطانة السلطان، فكتم الأمر إلى أن تهيّأ له أن يرفع نسخة من كتابه «العبر» ويتوجها باسمه، فأنشد بين يديه قصيدة لامية مطوّلة تعرّض فيها لمدحه وإثبات خصاله، ونضاله من أجل توحيد السلطنة الحفصية، وما فعله من خضد شوكة المسنبدّين من الوُلَاة، والمتنطعّين من الأعراب. ولعلّ ما يهمّنا - هنا - ما ذكره ابن خلدون معتذراً عن قلة مدحه للسلطان أبي العباس.

يقول ابن خلدون في ذلك:

مولاي غاضت فكرتي وتبلّدت ... مني الطِبّاعُ، فكلّ شيء مُشْكِلُ
تسمُو إلى دَرَكِ الحقائق همّتي ... فأصَدُّ عن إدراكهنّ، وأُعْزَلُ
وأجدّ ليلي في امتراءِ قريحتي ... وتعودُ غوراً بينما تسترسلُ
فأبيتُ يعتلج الكلامُ بخاطري ... والنّظمُ يشردُ، والقوافي تُجْفِلُ
من بعد حول أنتقيه. ولم يكن ... في الشعر حوليّ يُعابُ ويُهْمَلُ
فأصونه عن أهله متوارياً ... أن لا يضمَّهُمُ وشعري مَحْفِلُ
وهي البضاعة في القبول نَفَاقُها ... سيّان فيها الفحلُ والمتطفِّلُ
وبنات فكري إن أتتك كليلةً ... مرهاءَ[685] تَخْطِرُ في القصور وتَخطِلُ
فلها الفخار إذا منحتَ قُبُولها ... وأنا على ذاك البليغ المِقْوَلُ[686]

على أن ابن خلدون يذكر في رحلته قصيدة أخرى كان قد خاطب بها السلطان أبا العباس في أول اجتماع له معه في سوسة عندما فارقه إلى بلاد الجريد؛ وطلب منه ابن خلدون أن يستقرّ بتونس ريثما يعود هو من حملته التأديبية في بلاد الجريد، فقد بلغ ابن خلدون أن السلطان أصابه في طريقه مرض، وعَقِبَه إبلال فخاطبه بقصيدة من جملة ما جاء فيها قوله:

---

(684) التعريف (233).

(685) بلا كحل.

(686) تنظر القصيدة في التعريف (233- 244) وقد أثبت أكثر من مائة بيت.

ومشفَّعٍ لله يُؤْنَسُ عندَه أثر الهدى في المعهد المأنوسِ
يعتدُّ منها رحمةً قدسيةً فيبوء للرّحمان بالتّقديسِ
طَبٌّ بإخلاصِ الدّعاء. وإنه يشفي من الدّاءِ العياءِ ويوسي(687)

ويعلّق ابن خلدون بعد هذا البيت بقوله: «. . والمعنيُّ به إمام الجامع الأعظم، جامع الزيتونة بتونس» والمعروف أن الشيخ ابن عرفة تولّى إمامة الجامع الأعظم منذ سنة 750 هـ. وفي سنة 772 هـ. تولّى الخطابة به، واستمرّ على ذلك إلى وفاته سنة 803 هـ. (1440 م). ومعنى ذلك أن ابن خلدون عنى بقوله في ذلك البيت الشيخ ابن عرفة. وأنّ ذلك كان قبل أن يتمّ له الاستقرار بتونس، وقبل أن يتجدّد الاحتكاك بينه وبين ابن عرفة مع البطانة الحفصية التي تحالفت مع الشيخ المذكور ضدّ ابن خلدون، وتمادت السعايات ضدّه وكان آخر تلك السعايات أنهم حرّضوا السلطان أبا العباس على أن يأخذ معه ابن خلدون في خرجته الثانية إلى بلاد الجريد، وطلبوا من نائبه بتونس مولاه فارح أن يظهر للسلطان الحفصي خوفَه من بقاء ابن خلدون معه في العاصمة والسلطان بعيد عنها، وأنه يخاف على نفسه من ذلك.

وتواطأ أصحاب المؤامرة مع الشيخ ابن عرفة أن يشهد لدى السلطان بصحة ذلك التخوّف. وقد تمّت تلك الشهادة وابن خلدون غائب عَن مجلس السلطان. ورغم أن أبا العباس أنكر على المتآمرين عملهم ولم يصدّقهم فإنه أمر ابن خلدون بالسفر معه. ولم يجد ابن خلدون مناصاً من إجابة أمر السلطان فوافقه على مضض، وسار معه إلى تبسة. ولم يذكر ابن خلدون الأسباب التي جعلت السلطان الحفصي يأمره بالرجوع إلى تونس. ومهما يكن فإن ابن خلدون لم يكمل الرّحلة مع أبي العباس إلى بلاد الجريد، بل رجع من تبسة إلى تونس العاصمة وأقام بضيعة له قربها، واشتغل بزروعه إلى أن عاد السلطان الحفصي من توزر ظافراً منصوراً فصحبه إلى تونس(688).

(687) انظر كامل القصيدة في التعريف (241 - 244).
(688) التعريف (244).

وفي شعبان من سنة 784 عزم السلطان أبو العباس على التوجه إلى بسكرة لتأديب صاحبها ابن مزني لأنه آوى ابن يملول المتمرّد على السلطان الحفصي، فخاف ابن خلدون أن تعاد الكرّة من أعدائه ويغروا السلطان بحمله معه في سفرته خشيةً منه على نائبه بتونس. وصادف أن كانت سفينة تجارية وردت من الإسكندرية، وعلى وشك الإقلاع والعودة فانتهز ابن خلدون الفرصة، والتمس من السلطان أبي العباس الحفصي أن يسمح له بالسفر عليها لأداء فريضة الحج فسمح له بذلك بعد إلحاح.

يقول ابن خلدون: «. . وخرجتُ إلى المرسى، والناس متسائلون على أثري من أعيان الدولة والبلد، وطلبة العلم، فودّعتهم، وركبتُ البحر منتصف شعبان من السنة. وقوّضت عنهم بحيث كانت الخيرة من الله ـ سبحانه ـ وتفرّغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم، والله وليّ الأمور سبحانه»[689].

تلك هي الفقرة التي أنهى بها ابن خلدون حديثه عن وجوده بتونس مدة أربع سنوات من سنة 780 إلى 784 هجرية بعد أن وصل به اليأس في آخرها إلى الجزم بأنه لا مكان له في مقرّ آبائه وأجداده بعد أن كان يعتزم الإقامة نهائياً فيه.

وعندما استقرّ به المقام في القاهرة وأكرمه السلطان المملوكي الظاهر برقوق حاول ابن خلدون دعوة أهله وولده من تونس ليقيموا معه في مصر. إلاّ أن السلطان أبا العباس مانع في ذلك ـ أول الأمر ـ مؤمّلاً من ذلك الامتناع جبْرَ ابن خلدون على الرجوع إلى تونس. فلم يرضخ ابن خلدون لذلك الضغط. وتوسّل بالسلطان الظاهر برقوق حتّى يلتحق به أهله إلى القاهرة. وكتب السلطان برقوق رسالة مطوّلة[690] إلى السلطان الحفصي يلتمس فيها منه السماح لعائلة ابن خلدون بالالتحاق به، راغباً أن يكون تسفيرهم على ما

---

(689) التعريف (245).

(690) انظرها في التعريف (249 - 253).

هم جديرون به من التجلّة والتكريم. وقد حمل تلك الرسالة الشيخُ الصالحُ مسعودُ المكناسي. وسمح السلطان الحفصي لعائلة ابن خلدون بالسفر إلى مصر. إلاّ أن مصير تلك العائلة كان مأساةً قاسيةً على ابن خلدون.

3 ـ مهلك أسرة ابن خلدون:

ولم يكن حظ ابن خلدون في المشرق أحسن مما كان عليه في المغرب، فقد لاحقته الدسائس والوشايات، وقامت ضدّه المناورات في مصر حسداً من المتنفذّين وأصحاب السطوة والجاه في البلاط المملوكي مثلما حصل له في بلاطات دول المغرب الإسلامي. وسوف نكتفي ـ في هذا المجال ـ بتتبع حياة ابن خلدون منذ دخوله مصر إلى مهلك أسرته غرقاً في البحر. يقول ابن خلدون:

«..ولما رحلت من تونس ـ منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين [وسبعمائة] أقمنا في البحر نحواً من أربعين ليلة. ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر، ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر «برقوق» على التخت، واقتعاد كرسيّ الملك دون أهله بني قلاوون. وكنّا على ترقّب ذلك لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموّه لذلك، وتمهيده له. وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ولم يقدّر عامئذ. فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذّرّ من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوحُ القصور والأواوين في جوّه، وتزْهَرُ الخوانك[691] والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطىء بحر النيّل نهر الجنّة، ومدفع مياه السماء، يسقيهم النّهل والعَلَلَ سَيْحُه، ويجبي إليهم الثمرات والخيرات ثجّهُ. ومررت في سِكَكِ المدينة تغص بزحام المارّة، وأسواقها تزخر بالنّعم... ولما دخلت أقمت أياماً، وانثال عليّ طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلّة البضاعة، ولم يوسعوني

(691) أو الخوانق: مساكن الصوفية يقيمون به للتعبد.

عذراً، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها، ثمّ كان الاتصال بالسلطان فأبرّ اللّقاء، وأنّس الغربة، ووفّر الجراية من صداقاته، شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس - وقد صدّهم السلطان هنالك عن السفر اغتباطاً بعودي إليه - فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه في تخلية سبيلهم فخاطبه في ذلك. . .»[692].

ويذكر ابن خلدون بعد ذلك أنه تولّى التدريس بمدرسة القمحية في القاهرة الواقعة بقرب جامع عمرو بن العاص إلى أن غضب السلطان برقوق على قاضي المالكية بمصر الشيخ جمال الدين عبد الرحمان بن خير فعزله عن القضاء وولّى مكانه عبد الرحمان ابن خلدون وذلك سنة 786 هـ. ويذكر ابن خلدون - في نقد لاذع - ما كان عليه القضاء - إذ ذاك - من تجانف للحق، وبعد عن العدل لكثرة الارتشاء، وتغلّب أصحاب الجاه والنفوذ، وخنوع القضاة لشهواتهم «. . فقام هو بما دفع إليه السلطان من ذلك المقام المحمود، ووفّى جهده بما أمّنه عليه من أحكام الله، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يزعه عنه جاه ولا سطوة، مسوّياً في ذلك بين الخصمين، آخذاً بحقّ الضعيف من الحَكَمَيْن، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحاً إلى التثبت في سماع البيّنات، والنّظر في عدالة المنتصبين لتحمّل الشهادات؟ فقد كان البرّ منهم مختلطاً بالفاجر، والطيّب ملتبس بالخبيث، والحكّام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عمّا يظهرون عليه من هناتهم لما يموّهون به من الاعتصام بأهل الشوكة فإن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلّمون للقرآن، وأئمةٌ في الصلوات يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنون بهم الخير، ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاة، والتوسل لهم فأعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين النّاس منهم»[693] وعمل ابن خلدون على إصلاح كلّ ذلك ثم التفت إلى الفتيا بالمذهب ولم يكن

---

(692) التعريف (246 - 249).

(693) التعريف (254 - 255). واصل الكلام بضمير المتكلم.

الإخلال بها أقلّ من الإخلال بسير القضاء وتعرّض ابن خلدون بسبب ذلك إلى السعايات والوشايات والحسد والتآمر، ودسّوا إلى السلطان بالوشايات والتحريض ضدّه إلى أن تمكنوا من إقرار السلطان المملوكي عزله من القضاء وهو ما كان يتمنّاه. وعن هذه الفترة من إقامته بمصر يقول ابن خلدون.

«.. فكثر الشغب عليّ من كلّ جانب، وأظلم الجوّ بيني وبين أهل الدولة ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين فأصابها قاصفٌ من الرّيح فغرقت وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجَح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النّصيح ممن استشرته خشيةً من نكير السلطان وسخطه، فوقفت بين الورد والصدر، وعلى صراط الرّجاء واليأس وعن قريب تداركني اللّطف الرّبّاني وشملتني نعمة السلطان - أيّده الله - في النظر بعين الرّحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت - كما زعموا - مصطلحها، فردّها إلى صاحبها الأول، وأنشطني من عقالها، فانطلقت حميد الأثر، مشيّعاً من الكافّة بالأسف والدعاء، وحميد الثناء، تلحظني العيون بالرّحمة وتتناجى الآمال فيَّ بالعودة. ورتعت فيما كنت راتعاً فيه قبلُ من مراعي نعمته، وظلِّ رضاه وعنايته قانعاً بالعافية التي سألها رسول الله - ﷺ - من ربّه، عاكفاً على تدريس العلم، أو قراءة كتاب أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف»[694].

(694) التعريف (259 - 260).

انتفاضات جديدة
أمام أبي العباس الحفصي

1 ـ بسكرة وأولاد رياح:

بالرغم من الاتفاق الذي تمّ بين أبي العباس الحفصي وبين أحمد بن مزَني صاحب بسكرة الذي أعلن فيه ابن مزني طاعته وانقيادَه للسلطة المركزية الحفصية، فإن ذلك الاتفاق لم يكن إلاّ مراوغة من صاحب بسكرة لا يحمل في طيّاته الصدق، ولا العزم الحقيقي على الانقياد نظراً لتأصّل نزعة الاستبداد ببسكرة وما حولها من بني مزني الذين مضى عليهم وقت طويل مستبدّين بها. وهكذا كان حال أحمد بن مزني مع السلطان أبي العباس الحفصي «.. مضطرب الطاعة يجير على السلطان ويمنع في أكثر السنين المغارم معوّلاً على مدافعة العرب الذين ملكوا ضواحي الزّاب والتلول دونه..»[595].

وكان ابن مزني كثير الاعتماد على يعقوب بن علي شيخ الذواودة من قبائل رياح. وازداد ابن مزني مجاهرةً بالعصيان والاستبداد سنة 786 هـ. (1384 م) مِمّا جعل السلطان أبا العباس يعدّ العدّة، ويستنفر الجيوش لتأديبه، فخرَج إليه مارّاً بتبسة وسفوح جبل أوراس إلى تهودَا. والتقى السلطان الحفصي بالجموع التي حشدها ابن مزني فاقتتلوا عدّة أيام دون أن تتمكّن الجيوش الحفصية من تسجيل أي انتصار. وهو ما دعا السلطان الحفصي إلى

(695) العبر (6: 897).

العمل على جلب يعقوب بن علي إلى صفوفه مع قومه الذواودَة. وكان زعيم هذه القبيلة يتظاهر بتأييد السلطان الحفصي مخادعةً منهُ لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً بمفرده ما دامت عشيرته مصمّمة على الميل إلى أحمد بن مزني خوفاً من ضعفه في تلك المناطق التي قد يقوى فيها نفوذ السلطة المركزية الحفصية، وذلك أمرٌ لا يريدون قبوله أو التسليمَ به.

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان الحفصي يحاول جلب يعقوب إلى جانبه كان هذا الأخير يعمل على إقناع السلطان الحفصي بالإقلاع عن القتال، وعلى وضع أوزار الحرب مع رياح حتى تتاح له فرصة أخرى[696]. وأمام التحدّي الذي أظهره أولاد رياح وانعدام الأمل في التغلّب عليهم أذعن السلطان الحفصي لنصيحة يعقوب بن علي فكفّ عن متابعة الحرب، وأغضى عمّا قام به صاحب بسكرة وأولاد رياح. وكان من الطبيعي أن يتظاهر ابن مزني ـ من جديد ـ بالولاء، والانقياد، ودَفْعِ ما عليه من مغارم للسلطة المركزية بتونس. وعاد السلطان أبو العباس إلى العاصمة بعد خرجته الثانية إلى بسكرة بشيء أقلّ ما يقالُ فيه: إنه حلّ وسط، وحفظٌ لماء وجه السلطنة الحفصية أمام موقف جديد من مواقف التحدي والانتقاض.

2 ـ قابس بعد بسكرة:

في سنة 781 هـ. تمكّن أبو العباس الحفصي من إخضاع قابس إلى نفوذه، وشرّد عنها البقية الباقية من بني مكّي أصحابها. فخرجوا عنها ملتجئين عند الأعراب في نواحي طرابلس حيث مات «كبيرُهم عبد الملك، وعبدُ الرحمان ابن أخيه أحمد. وذهب ابنهُ يحيى إلى الحج»[697]. أمّا عبد الوهاب فأقام بمدينة زنزور في عمالة طرابلس يتحيّن الفرصة للعودة والانتقاض على أبي العباس الحفصي. ولم تطل إقامة عبد الوهاب بن مكّي في زنزور القريبة

(696) العبر (6 :898).
(697) العبر (898).

من مدينة طرابلس[698] إذ سرعان ما التفّ حوله الأنصار والمؤيدون فتوجه بهم إلى قابس يريد استرجاعَها من عاملها الحفصي يوسف بن الأبّار. ويبدو أن سوء سيرة هذا العامل مع أهالي قابس ساعَدَ كثيراً على احتلال قابس وعودتها من جديد إلى بني مكّي. فما إن علم أهالي المدينة بقدوم عبد الوهاب بن مكّي حتى تواطؤوا مع أشياعه وأنصاره في ضواحي المدينة وقُراها، واتفقوا معهم على موعد. وأعلن أهالي قابس العصيان والثورة على العامل الحفصي. واقتحم عبد الوهاب بن مكّي وأنصاره بابَ المدينة وقتلوا البوّاب. ثم اتجهوا إلى مقرّ إقامة العامل الحفصي وقتلوه. وبذلك استعاد بنو مكّي المدينة بعد أقلّ من سنتين من إخراجهم منها. وقد استمرّ عبد الوهاب بن مكّيّ مستبدّاً بقابس رغم الخلاف الذي حصل بينه وبين أخيه يحيى إثر عودته من الحجِ، فقد حاول هذا الأخير عدّة مرّات أن يفتكّ قابس من أخيه مستنجداً بصاحب بلدة الحامّة. إلاّ أن عبد الوهاب بن مكّي استطاع أن يتوصل إلى اتفاق مع صاحب بلدة الحامّة فمكّنه هذا الأخير من خصمه وبعث به إليه معتقلاً فحسبه بقصر العروسين. وبذلك خلا الجوّ لعبد الوهاب بن مكّي في قابس حيث ظلّ مستبدّاً بها عدّة سنوات.

وكان السلطان أبو العباس الحفصي مشغولاً عن أحداث قابس. ومن أهم أسباب ذلك الانشغال ما كان يجري في الجنوب الغربي للسلطنة الحفصية سواء في بسكرة أو في توزر، كما أنّ العامل الحفصي على طرابلس ـ الذي ما يزال على طاعته وانقياده للسلطنة الحفصية ـ لم يقم بأي عمل إيجابي في حركة العصيان بقابس مِمّا يدلّ على مَدَى الضعف الذي كان عليه أمام الأحداث التي جدّت على مقربة منه.

أمّا عبد الوهاب بن مكّي فقد شرع ـ منذ استبداده بقابس ـ يعمل على تقوية جانبه باستمالة الأعراب لمناصرته وتأييده لما كان يبذله لهم من أموال

(698) تقع غربي طرابلس بنحو 12 كلم (معجم البلدان الليبية ص 171).

لا سيما مع أولاد دبّاب أقوى القبائل العربية في المنطقة: وقد وصل تحدّي عبد الوهاب بن مكّي للسلطان الحفصي أن منع أولاد دبّاب من دفع المغارم للسلطنة الحفصية. وهذا ما دفع السلطان أبا العباس أحمد إلى تجريد حملة عسكرية إلى قابس قادها بنفسه بعد أن استعدّ لها استعداداً كبيراً. وأقبل السلطان أبو العباس وجيشه الكبير يحاصر المدينة بعد أن مهّد الأمور في ضواحيها حتى يقطع عنها المدد. ونشب القتال عنيفاً ضارياً بين الجانبين. وأمام صمود المحصورين عمَد أبو العباس الحفصي إلى قطع مساحات كبيرة من نخيل قابس وصيّرها قاعاً صفصفاً. وعندما اشتدّ الحصار على عبد الوهاب بن مكّي في قابس، وأيس من وصول النجدات إليه، وهاله ما أصاب غابة قابس من قطع أشجارها ونخيلها. ولعلّه ـ أيضاً ـ خاف من نفاد المؤونة والذخيرة، وأن أهالي قابس ربّما هدّدوه بالاستسلام إذا هو تمادَى على القتال وتمادى الحفصيون على اقتطاع النخيل والأشجار، لعلّ هذا وذاك مما جعل عبد الوهاب بن مكّي يغير من موقفه فشرع يفاوض السلطان الحفصي على إيقاف القتال والمصالحة طالباً الأمان، معلناً اعتذارَهُ، واعداً بالانقياد والطّاعة، ودَفْع المغارم، مقدّماً ابنَه رهينة لدى السلطان على ذلك. ومثل المعتاد رضي السلطان أبو العباس بالموقف الجديد لعبد الوهاب بن مكّي فرفع عنه الحصار، وعفا عنه، وقفل عائداً إلى العاصمة، مقتنعاً بما أعلنه عبد الوهاب بن مكّي من وعد بالطاعة، وتعهدٍ بدفع الضرائب، كأنَّ ما جرى ـ سابقاً ـ من بني مكّي لا يوجب المزيد من الحذر والاحتياط.

ولعلّ موقف السلطان أبي العباس كان ـ هذه المرّة ـ أقلّ حزماً مِمّا فعله في المرّة الأولى عندما عيّن على قابس والياً حفصياً فأبقى ـ هذه المرّة ـ صاحبها الأول عبد الوهاب بن مكّي عاملاً عليها مستبدّاً بها.

ويعلّق ابن خلدون على قطع النخيل من غابة قابس بأن ذلك رجع بالفائدة الصحية للمدينة، لأن كثرة الكثافة التي عليها الغابة جعلت منها بلداً وخيماً، فكان لقطع تلك الأشجار، وجعل مكانها براحاً أن «.. موّج الهواء

في ساحتها فصحّ بعد أن كانوا يستوخمونه لاختفائه بين الشجر، وفي متكاثف الظلال، وما يلحقه بذلك من التعفّن فذهب عنها ما كان يعهد فيها من ذلك الوخم رحمة أصابتهم من عذاب هذا السلطان. وربّما صحت الأجسام بالعلل. . »[699].

هكذا كان تعليق ابن خلدون على ما فعله السلطان أبو العباس الحفصي بغابة قابس عندما قطع أشجارها انتقاماً من ثبات عبد الوهاب بن مكّي أمام الحصار الذي ضربه عليه. فهل كان ذلك من ابن خلدون اعتذاراً لما فعله هذا السلطان الذي أكرم وفادته ولم يستمع إلى قول الوُشَاة فيه؟ تساؤل يمكن أن يطرح على كلّ حال. وكان في إمكان ابن خلدون لو حلل ذلك الموقف وبيّن هل كان الأجدى من ذلك لو شفيت عقول الناس من الفوضى والانتقاض لأن التنويه بعمل عاجل إذ أفاد في إخماد فتنة وقْتاً مّا فإنه لا يفيد استئصال الوخم الذي استمرّ بعد ذلك عدّة قرون.

3 ـ ثم جاء دور قفصة:

رأينا ـ من قبل ـ أن السلطان أبا العباس الحفصي كان ولّى على مدينة قفصة ابنَه أبا بكر سنة 781 هـ. بعد أن أزال عنها بني العابد. ولكنّ هذا الأمير الحفصي لم يبق هناك إلاّ سنةً واحدةً مفضّلاً الالتحاق بـأبيه في العاصمة، فولّى أبو العباس الحفصي على قفصة أحد خلصائه (عبدالله التريكي) إلى أن توفّي سنة 794 هـ. فتولّى بعده ابنُه محمد التريكي. إلاّ أن هذا الأخير لم يكن في مستوى أبيه كفاءة وسمعة. وقد هيّأ ضعفه الفرصة لحكام قفصة السابقين من بني العابد فحرّك مطامحهم وأحيى فيهم أمل العودة إلى الحكم فأخذوا يحرّشون إخوة محمد التريكي ـ وكانوا أطفالاً صغاراً ـ على منافسته ومنازعته في الولاية على قفصة. وكان مدبّر كلّ ذلك

(699) العبر (6 :899) وما ختم به التعليق هو عجز بيت للمتنبي يقول فيه:

لعل عتبك محمود عواقبه ... فربما صحت الأجسام بالعلل

أحد أقرباء بني العابد المسمّى محمد الدُّنَيْدِن. وكان هذا الأخير أحد الذين سلموا من عقاب السلطان أبي العباس عندما انتقم من بني العابد وأتباعهم، لأنه كان ـ فيما يبدو ـ غير متظاهر بشؤون السياسة أو تأييد بني العابد. «. . وكان [إذ ذاك] ينظر في قسمة الماء بالبلد. وكان فيها معقلاً فلم تطرقه النكبة كما طرقَت قومه. . »[700]. ولعلّ مرور السنين وتجدّد الانتقاضات عل السلطنة الحفصية في الجنوبين الشرقي والغربي أطمعـا محمد الدّنيدن في أن يقوم ـ هو أيضاً ـ بمغامرة سياسية عندما تهيأت له الأسباب إمّا أخذاً بثأر قرابته بني العابد، أو طمعاً شخصياً في الرئاسة على قفصة.

ومهما يكن فقد استطاع محمد الدُّنَيْدِن أن يُغري إخوة محمد التريكي على الانتقاض ضد أخيهم، وأن يستعملهم تعلّة لخروجه على والي قفصة حتى يكتسب شيئاً من الشرعية، ويجلب الشيعة والأنصار. ولم يجد الدُّنَيْدِن كبير عناء في إزالة محمد التريكي واعتقاله، لأن أهالي قفصة كانوا يساعدونه في ثورته وانتقاضه. ولمّا استقرّ له الأمر طلب منه أعيان قفصة أن يتخلّى عن أبناء التريكي الذين حارب باسمهم مخافة أن يستميلَهم السلطان أبو العباس نظراً للعلاقات القديمة التي كانت تربط هذه العائلة بالبلاط الحفصي. وكان موقف أهالي قفصة يتلاقى مع المطامح السياسية التي سيطرت على محمد الدُّنَيْدِن. ولهذا بادر بالاستجابة، وقبض على أبناء التريكي وأخرجهم من المدينة واستصفى أموالهم واستبدَّ برئاسة المدينة[701].

وكان السلطان أبو العباس أثناء ذلك ـ حسب تعبير ابن خلدون. . . «. . . يرعد ويبرق، ويواصل الإعذار والإنذار» فلم يزدد المنتقضون في قفصة إلاّ عناداً وإصراراً على العصيان، مما جعل السلطان أبا العباس يجرّد حملة عسكريـة أخرى إلى الجنوب الغربي، ويحاول ـ قدر إمكانه ـ حشد الجيوش، وجلب الأعراب بما وفّر لهم من العطايا والهبات. ثم اتجه إلى

(700) العبر (6 :905).
(701) العبر (6 :906).

قفصة وحاصرها في منتصف سنة 795 هـ. (1383 م) بينما حاول محمد الدُّنَيْدِن وأنصاره الثبات والمقاومة. ومثل الأحداث السابقة استُعْمِلَ قطع النّخيل والأشجار وسيلة تهديد وضغط على المحصورين. وفعلاً فإنه ـ بعد هذا التهديد ـ خرج محمد الدُّنَيْدِن إلى مقابلة السلطان أبي العباس الحفصي سعياً في عقد الصلح بين الطرفين. وتظاهر أبو العباس الحفصي بالموافقة على كفّ القتال والمصالحة. ثم غدر به وحبسه عنده، مؤمِّلاً أن يكون ذلك سبباً في القضاء على الفتنة. إلاّ أن ذلك كان خطأ سياسياً ارتكبه السلطان أبو العباس لأنه أتى بنتائج معاكسة لما كان يؤمّله. إذ ما إن علم أهالي قفصة أن السلطان الحفصي غدر بزعيمهم الدُّنَيْدِن حتى عمدوا إلى أحد أفراد بني العابد فأخرجوه من محبسه ونصّبوه عليهم. ويُدْعَى هذا الشخص عمر بن حسن بن العابد كان قد خرج من قفصة إلى المغرب لما تغلّب على قفصة السلطان أبو العباس. ثم رجع ونزل بأطراف الزّاب. وعندما استولى الدُّنَيْدِن على قفصة قدم عليه عمر بن حسن «فأقام معه أياماً. ثم استراب به. وتقبّض عليه وحبسه»[702]. فلما غدر أبو العباس بمحمد الدُّنَيْدِن أخرج أهالي قفصة هذا المعتقل من بني العابد، وأمّروه عليهم، وبعثوا إلى العرب يسترحمونهم، ويطلبون مساعدتهم على فكّ الحصار عنهم. وانتهز أولاد أبي الليل الفرصة فاستجابوا لاستنجاد أهالي قفصة فأقبلوا نحو المدينة بزعامة صولة بن خالد بن حمزة، وشنّوا غاراتهم على القوات الحفصية المحاصرة للمدينة التي وجدت نفسَها بين واجهتين لا سيما بعد أن انفض الكثير من العربان عن السلطان الحفصي ينتجعون لإبلهم ومواشيهم. هكذا أصبح أبو العباس الحفصي بدون قوة مسانِدة يستطيع بها ردّ زحف أولاد أبي الليل فبادر بفكّ الحصار عن قفصة والعودة إلى تونس. ولم يكتف أولاد أبي الليل بذلك فأخذوا يناوشون الجيش الحفصي طيلة الطريق دون أن يتمكن أحدٌ من الطرفين من التغلّب على خصمه.

---

(702) المصدر السابق.

وبعد وصول أبي العباس الحفصي إلى العاصمة طلب منه صولة بن خالد أن يمنحه عفوه، ويقبل طاعته. ولكن أبا العباس لم يقبل ندامة زعيم أولاد أبي الليل. فاضطر هو وعشيرته إلى الارتحال إلى مشاتيهم في جنوب البلاد، وبعثوا لابن يملول يستدعـونه للإجلاب به على توزر واسترجـاعها. فاستجاب لدعوتهم بتحريض أحمد بن مزني صاحب بسكرة. إلاّ أن محاولة ابن يملول باءت بالفشل إذ استطاعت الحامية الحفصية بتوزر أن تصمد أمام المهاجمين حتى دبّ الخلاف بينهم فأقعلوا عن محاصرة توزر واتجه أولاد أبي الليل إلى التلول للمصيف بها.

أمّا محمد الدُّنَّيْدِن فقد تركه أبو العباس الحفصي بقفصة دون أن يحمله معه إلى تونس. إلاّ أنه ذهب ـ من تلقاء نفسه ـ إلى تونس، وأخذ يراسل أهالي قفصة حتى يقبلوا عودته إليهم فأجابه البعض منهم. وشجعه ذلك على التوجه إلى قفصة إلاّ أن عمر بن الحسن تمكّن من القبض عليه وقتله. وبذلك استعاد بنو العابد استبدادهم بقفصة الذي قطعه السلطان أبو العباس منذ سنة 781 هـ.

انتهاء حكم بني مكي لقابس

في الوقت الذي عاد فيه السلطان أبو العباس إلى تونس بعد فكّ الحصار عنها نجد بني مكّي ينتهي حكمهم لقابس. وقد قام بذلك الإنهاء الأمير عمر بن أبي العباس الحفصي. وكان من أمر هذا الأمير أن كان في بداية أمره تحت كفالة شقيقه إبراهيم أمير قسنطينة. وعندما توفّي أبو بكر بن ثابت المتولّي على طرابلس سنة 782 هـ، واضطربت الأحوال فيها بعد وفاته قدم القائد قاسم بن خلف مستنجداً بالسلطان أبي العباس حتى تعود طرابلس إلى الهدوء والانقياد فاستجاب السلطان أبو العباس لرغبته وبعث معه ابنه عمر. إلّا أن المنتقضين بطرابلس صمَدوا أمام قاسم بن خلف وعمر بن أبي العباس مِمّا جعل هذا الأخير يعدل عن متابعة الحصار، ويعزم على التوجه إلى والده في قفصة. وحاول في طريقه النزول بجربة إلّا أن عاملها العلج منصور لم يقبله. وعندما أعلم عمر الحفصي والده بذلك ولّاه على صفاقس، ووعده بضم جربة إليه. وتمّ لعمر الحفصي ما وعده به أبوه فضمت إلى نفوذه جزيرة جربة بعد ممانعة من العلج منصور، فقد «.. امتنع العلج منصور بحصنها المسمّى بالقشتيل حتى كاتب السلطان وأمره بتمكين ابنه من الحصن والإفراج له عن الجزيرة أجمع فاستبدّ بها..»[703] ولم يكتف عمر بن أبي العباس بصفاقس وجربة

(703) العبر (6 :909).

فعزم على ضمّ قابس إلى نفوذه. وقد تمّ له ذلك بتحالفه مع بلدة الحامّة وصاحبها ابن وشاح فهجموا جميعاً على قابس، واستطاعوا القبض على المتزعم بها يحيى بن عبد الملك بن مكّي وقتلوه. وبذلك انقرض أمر بني مكّي من قابس. واستقلّ بها عمر بن أبي العباس الحفصي بالإضافة إلى إمارته على كلّ من جربة وصفاقس[704].

(704) المصدر السابق.

الذواودة والسلطنة الحفصية

إن علّة الاضطرابات في السلطنة الحفصية لا تكمن فقط في انتقاض عمّال الأطراف ـ لا سيما البعيدة منها ـ بل كان إلى جانب تلك العلّة القاتلة سيطرة القبائل على النفوذ في مناطقها وتحدّيها للسلطة المركزية، وإعانتها للمنتزين والمنتقضين. وكان من أشهر هذه القبائل في الحفصية الغربية قبيلة الذواودة المتفرّعة عن رياح الهلاليين[705]. ويمتد نفوذها من قسطنطينة إلى أقاصي الجنوب. «وكان لهم عطاء معلوم مرتب على مراتبهم زيادة على ما بأيديهم من البلاد في التلول والزّاب بإقطاع السلطان. .»[706].

وكانت السلطنة الحفصية متبرّمة من هذه الامتيازات التي ضيّقت من دخل الجبايات لخزينة الدولة حتى «. . صار العرب يزدرعون الأراضي في بلادهم بالتلول، ولا يحتسبون بمغارمها، ويمنعهم السلطان العطاء من أجل ذلك فتفسد طاعتهم، وتنطلق بالعبث والنّهب أيديهم. .»[707]. هكذا يعبّر ابن خلدون عن ذلك الوضع الذي لا يمس الجباية فقط بل له انعكاس مباشر على فقد الأمن والاطمئنان في تلك المناطق الشاسعة التي كان للأعراب فيها النفوذ والسطوة. وقد حاول أمير قسطنينة (إبراهيم ابن أبي العباس) أن يخفّف

(705) انظر قبائل المغرب (418 - 421 - 433).
(706) العبر (6 :900).
(707) المصدر السابق.

من ذلك الضغط على الوضع الاقتصادي والفلاحي، فكان يماطل الأعراب في دفع العطاءات لهم، ويعلّلهم بالمواعيد حتى تذمرّوا من تلك المماطلات. وحاول زعيم الذواودة (يعقوب بن علي) أن يحمل الأمير إبراهيم على الوفاء بما تعهد به، إلّا أن الأمير الحفصي لم يستجب لتدخلات يعقوب بن علي، فاعتبر ذلك إهانةً له ولبني قومه فارتحل عن قسنطينة، وأخذ يتنقّل بين القبائل يدعوهم إلى العصيان، ويحرّضهم على الانتقاض فأجابه الكثير منهم مثل أولاد سبّاع بن شبل، وأولاد سبّاع بن يحيى ومن انضمّ إليهم من الأحلاف، وأخذوا يغيرون على ضواحي قسنطينة وتلولها. وانطلقت أيديهم بالنّهب وانتساف الزروع ثم يعودون إلى التلول والهضاب محمّلين بالأسلاب والغنائم[708]. دون أن يتمكّن أمير قسنطينة من إيقافهم عند حدّهم لولا ما حدث من أمور غير منتظرة أهمّها وفاة زعيم الذواودة (يعقوب بن علي) سنة 790 هـ. فاشتغلوا بموته ونقل جثمانه إلى بسكرة. وبموت يعقوب بن علي وولاية ابنه محمد على الذواودة فُقِدت أكبر شخصية بدوية كانت تلعب أخطر الأدوار في عهد السلطان أبي العباس الحفصي. وكان من دهاء هذا الزعيم أنه كان يمثل نقطة توازن القوى بين كبار الساسة في المنطقة أمثال أبي حمّو الزياني، وأبي العباس الحفصي، وأحمد بن مزني. وكانت علاقاته مع ابن مزني أمتن تلك العلاقات. وكان التحالف بينهما أشبه بما يعبّر عنه في لغة العصر بالمصير المشترك. ولهذا فإن موته ـ في ذلك الظرف الدقيق الذي توترت فيه العلاقات بين أتباعه وبين السلطنة الحفصية في منطقة قسنطينة ـ سوف يغيّر مجرى الأحداث لا محالة.

وحاول خلفه (ابنه محمد) أن يسلك مسلك أبيه في جمع كلمة الأعراب من حوله، ومواصلة تحدّي السلطنة الحفصية. إلّا أن منزلته لم تكن مثل منزلة أبيه في قومه. وكان النجاح الأول الذي سجله إبراهيم بن أبي العباس الحفصي هو إحداث الشقاق بين زعماء الذواودة أنفسِهم إذ أخذ

---

(708) العبر (6 :901).

يستجلب بعض قادتهم إلى صفّه. وقد استجاب له أبو ستة بن علي أخو يعقوب المتوفّى بمن انضمّ معه من أولاد عائشة أم عمر. أمّا أخوه صميت بن علي فقد فضّل أن يبقى بجانب ابن أخيه محمد بن يعقوب. وقد جرت عدّة وقائع بين الجانبين قتل في إحداها أبو ستة الذواودي الذي خالف قومه وانحاز إلى جانب إبراهيم الحفصي.

ومما لا شك فيه أن هذه الوقائع والأحداث كانت تكلّف خزانة الدولة الحفصية باهض النفقات. وقد ذكر ابن القنفذ في كتابة «الفارسية» أن الأمير إبراهيم ـ الذي كان يلازم حضور دروسه ـ أنفق في حروبه مع أولاد الذواودة أموالاً كثيرة. وقد أخبره الأمير نفسه أنه أنفق في شهر شعبان سنة (792) ثمانين ألف دينار جديدة ثم استشهد له بكاتبه فأخرج زماماً وقف ابن القنفذ عَلى فصوله فوجد جملته تزيد على تسعين ألفاً ونحو مائة فرس مختارة[709]. وإذا كان هذا ما أنفق في شهر واحد فقط أدركنا أهمية ما كانت تكلّفه تلك الحروب لخزينة الدولة لا مع أعراب رياح فقط وإنما مع كلّ تلك الانتقاضات والحروب التي قاومها أبو العباس أحمد الحفصي وأبناؤه طيلة سنوات وسنوات في مختلف جهات السلطنة.

وقد حاول أبو العباس الحفصي مساعدة ابنه إبراهيم على محاربته للذواودة ومن انضمّ إليهم، فاستطاع أن يجليهم عن الكثير من التلول ويمنعهم من المصيف فيها حتى ضايق تنقلاتهم، وأفقدهم ما يكفيهم من المعاش، واضطرّوا إلى نهب مزارع حليفهم أحمد بن مزني، مما كاد يفسد العلاقات بينهم وبينه.

ويأتي الموت ـ مرّة أخرى ـ ليغيّر مجرى تلك الأحداث، فقد توفّي إبراهيم بن أبي العباس الحفصي في شوال سنة 792[710] (جويلية 1390)

(709) الفارسية (187).

(710) في الفارسية (188): وفاة إبراهيم كانت سنة ثلاث وتسعين.

فانخرم بموته الجيش الحفصي، واضطربت صفوفه. وانتهز أحد قادة القبائل (محمد بن يوسف) الفرصة فأسرع بالتوجه إلى قسنطينة ونواحيها متظاهراً بالطاعة للسلطنة الحفصية، متبرئاً من الخلاف عليها، «ونادى في أهل البلاد بالأمان والعمارة فصلحت أحوال الرّعايا والسابلة وبعثوا إلى السلطان بتونس متسأمنين مستعتبين فأمّنهم، وأعتبهم. . .»[711] وبينما نجد ابن القنفذ ـ وهو المقيم بقسنطينة والمعاصر للحدث ـ يذكر أن أمر قسنطينة تولّاه ـ بعد إبراهيم ـ كاتبه إبراهيم بن يوسف الغماري[712] نجد عبارة ابن خلدون لا تخلو من غموض ولُبْس عندما قال «. . وأقام بقسنطينة مكان ابنه إبراهيم ابنَه وبعث من حضرته محمد ابن مولاه بشير لكفالته والقيام بدولته فقام بأمرها وصلحت الأحوال. .»[713].

(711) العبر (6 :900).

(712) الفارسية (188).

(713) العبر (6 :902).

غزو النصارى للمهدية

في نفس السنة التي توفّي فيها الأمير إبراهيم الحفصي أمير قسنطينة وقع غزو خارجي على مدينة المهدية قامت به سفن فرنسية وجنويزية. ويجعل ابن خلدون تلك الغزوة كردّ فعل لما يقوم به البحارة المسلمون من أعمال قرصنة بحرية تنطلق ـ خاصة ـ من ميناء بجاية. ويلخّص قضية الصراع الإسلامي المسيحي على حوض البحر الأبيض المتوسط وسواحله بقوله:

«. . كانت أمّة الفرنج وراء البحر الرّومي (البحر الأبيض المتوسط) في الشمال قد صار لهم التغلّب ودولةٌ بعد انقراض دولة الرّوم فملكوا جزائره مثل سردانية وميورقة وصقلية، وملأت أساطيلهم فضاءه. ثم تخطّوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها. وعادت لهم سورة التغلّب في هذا البحر بعد أن كان سورة الإسلام فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحّدين بكثرة أساطيله، ومران راكبيه، فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بني مرين أياماً. ثم فشل ريح الفرنج، واختل مركز دولتهم بإفرنسة، وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوه والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية، وأصبحوا دولاً متعددة، فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة، فَيُجْمَعُ النفراء والطائفة من غزاة البحر، ويصنعون الأسطول ويتخيرون له الرجال والأبطال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة

فيظفرون بها غالباً، ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم. ويغالون في فدائهم بما يتعذر معه أو يكاد، فشق ذلك على أمم الفرنجة، وملأ قلوبهم ذلاًّ وحسرة وعجزوا عن الثأر به، وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان بإفرنجة فصمّ عن سماعها، وتطارحوا بثهم وثكلهم فيما بينهم، وتداعوا لنزول المسلمين والأخذ بالثأر منهم. . »[714].

وتجمُّعُ الأمم النصرانية لمجابهة تحدّي القرصنة الإفريقية في عهد أبي العباس الحفصي لا يتمثل في نزولهم بالمهدية فقط، بل سبق لهم أن نزلوا بجزيرة جربة، ونهبوها وأقاموا فيها مدّة قصيرة[715] خلال سنتي 1388 - 1389 م. إلاّ أن حملتهم على المهدية سنة 792 هـ (1390 م) كانت أكثر أهمية لا من جهة عدد الدول النصرانية المشاركة فيها ولكن من جهة الاستعداد الحربي لها. وكانت حملة النزول بالمهدية مشتركة بين الجنويز والفرنسيين كما كان فيها قلة من المتطوعين من الأقطار النصرانية الأخرى. ويذكر الزركشي[716] أن جملة الأسطول النصراني كانت مائة قطعة بين كبيرة وأغربة. وقد باركت البابوية برومة إقلاع الأسطول النّصراني المتجه إلى المهدية مما أضفى على تلك الحملة نزعة صليبية واضحة[717].

وبالرّغم من أنّ حملة النزول بالمهدية سبَقَتْها استعدادات كبيرة، وشهور عديدة لتهيئتها، ورغم وصول تلك الأخبار إلى المسؤولين الحفصيين فإننا لا نجد لدى السلطنة الحفصية كامل الاستعداد لصدّ ذلك النّزول. وغاية

(714) العبر (6 :902 - 903) مع ملاحظة عدم دقة ابن خلدون فيما أورده من معلومات عن أروبا في ذلك الوقت ربما لاضطراب ما وصله منها أو قلته.

(715) برنشفيك (1 :197 - 198).

(716) الزركشي (112).

(717) برنشفيك (1 :200).

ما فعله الحفصيون ـ في بداية الأمر ـ أن السلطان أبا العباس بعث بابنه أبي فارس عزوز يستنفر أهل النوّاحي، ويترصّدون الأسطول المهاجم. ورغم هذا العلم والاستعداد فإن ابن خلدون يقول بأنهم طرقوا المهدية على حين غفلة[718] ومعنى هذا أن الاستعداد لمجابهة الغزو لم يكن يتمثل في قوى بحرية لصدّ الهجوم المتوقع، أو لاعتراض المهاجمين قبل نزولهم، في الوقت الذي يقول فيه إن القراصنة الذين كانوا ينطلقون من بجاية أو المهدية يكادون يمثلون السيادة على البحار، ومما يؤيد ما قيل إن التفوق التقني في ملاحة القوى المسيحية كان ـ إذ ذاك ـ أقوى ممّا كانت عليه الأساطيل الإسلامية.

وكانت الحملة ضدّ المهدية مهيأة استراتيجياً رغم ما للمدينة من حصانة طبيعية معروفة. وإذا نحن سايرنا الزركشي في تاريخ الدولتين فإننا نجد الحفصيين ينهزمون منذ الجولة الأولى، ويتركون المجال فسيحاً للأسطول المهاجم دون أن يلقى مقاومة حتى أن الزركشي يقول: « . . ودخلها العدوّ ولم يجد فيها عيناً تطرف عدا رجلاً واحداً مشغّباً قتلوه. . »[719] وهكذا تمكّن المهاجمون من نصب الحصار على المّدينة و« . . ضربوا ـ عند أول الطرف ـ سوراً من الخشب بينه وبين البحر حتى أصاروا المعقل في حكمهم، وعالوا عليه بالأبراج، وشحنوها بالمقاتلة ليتمكّنوا من قتال البلد، ومن يأتيهم من مدد المسلمين، وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البحر يشرف على سور المعقل. . »[720].

إلّا أن من كانوا في المهدية ظلوا يقاومون هذا الحصار دون أن يستسلموا، ودون أن يتمكن أبو فارس عزوز ـ بمن معه من الأعراب ـ من فكّ الحصار عن المدينة. وإذ ذاك اضطر السلطان أبو العباس إلى إرسال أبنائه

(718) العبر (6 :904).
(719) الزركشي (112).
(720) العبر (6 :904).

وأخيه زكرياء لنجدة المهدية في جموع كبيرة من العساكر، واستنفروا الأعراب في الطريق حتى اجتمع لديهم عدد كبير فعززوا بذلك جانب أبي فارس عزوز «. . وبرز الفرنجة للقتال فكان بينهم وبين المسلمين جولة جَلَّى فيها أبناء السلطان. وكاد الأمير أبو فارس منهم يتورط لولا حماية الله التي وَقَتْهُ. . »[721] ويفصل الزركشي تلك الحماية بقوله: «. . إن المولى أبا فارس نادَى في المسلمين وجمع القواد ومن حضرهم من الجند، وكرّ راجعاً تجاه العدوّ حتى أخذ المحلّة من أيديهم، فحميت العرب، وانصرف العدوّ منهزماً وقتل منهم نحو خمسة وسبعين رأساً. وواجه العدوّ بنفسه، ودفع صدورهم دفعة شتت بها شملهم فلم يلتفت إلّا والعدوّ قد أحاط به من كلّ جهة وعلم العدوّ أنه ابن الخليفة ـ ومن عادتهم في الحرب أنهم إذا أخذوا ملكاً أو ابن ملك فإنهم لا ينزلونه عن فرسه ـ فأخذوا بعنان فرسه، وساروا به. فألهمه الله ـ سبحانه ـ فأخلع عنان فرسه من رأسه، وألح على الفرس وهمزه فخرج من بينهم فرموه بسهام وأسنّة واتبعوه بخيل وأعنة وهو لا يلتفت إلى أن وصل المسلمين، وسلّمه الله عزّ وجلّ. . »[722].

وتوافرت الهجمات على الغزاة من داخل المدينة وخارجها بالحجارة والسهام والنفط من أسوار المدينة حتى احترق البرج العالي الذي نَصبه الغزاة لضرب من كان داخل مدينة المهدية. وكان هذا أقوى تحصينات العدوّ الهجومية. وما إن احترق هذا البرج حتى اضطرب الغزاة وداخلهم الفزع. وكانت مدّة الحصار قد طالت، وبدأ الزاد والذخيرة في النقصان ثم خاف الغزاة أن يدركهم فصل الشتاء. ودبّ الخلاف بينهم حول مواصلة الحصار أو الإقلاع. وكان الجنويز أكثر ميلاً إلى التخلّي عن مواصلة الحصار. وهكذا بعد شهرين من نزولهم انسحبوا ـ بعد أن يئسوا من التغلّب على المدافعين،

---

(721) العبر (6 :904).

(722) الزركشي (113).

واحتلال المدينة ـ حوالي العشرين من سبتمبر 1390 (منتصف ذي الحجة 792)[723]. دون أن يحـقـقوا الهدف الأساس من هجومهم، أي القضاء على القرصنة الإفريقية التي سوف تستمرّ مدّة أخرى لها الصولة الأولى في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

(723) برنشفيك (1 :202) وفي الفارسية (188) أن الحصار دام شهرين ونصفاً.



ميضاة السلطان أبي عمرو عثمان بدرب عبد السلام قرب سوق العطارين

وفاة السلطان أبي العباس

1 ـ ازدهار الحركة العلمية والأدبية:

يعتبر السلطان أبو العباس الحفصي من أشهر سلاطين بني حفص فبالإضافة إلى جهوده الجبارة في إعادة الوحدة للسلطنة الحفصية، فإن بقاءه على عرش السلطنة حوالي ربع قرن (772 - 796) جعله يستطيع التغلّب على الكثير من الانتقاضات والثورات. إلاّ أنه ـ رغم ذلك كلّه ـ لم يسجل في عهد حكمه الطويل إنشاء معالم ذات بال. وكانت كثرة الشغب وعدم الاستقرار في العاصمة من أهمّ الأسباب التي صرفته عن ذلك. وغاية ما قاله بشأنه ابن القنفذ أن «.. له بالحضرة حسنات دائمات فمنها إقامة القراءة في الأسبوع بالمقصورة غربيّ جامع الزيتونة في كلّ يوم بالوقف المؤبّد. ومنها إنشاؤه لسبّالة الماء ببطحاء ابن مردوم بداخل المدينة، ومنها بناؤه للبرج الكبير بشرقي بلد قمّرت بالمرسى، ومنها رفع التضييف عن قرى قرطاجنّة وقت خروج السلطان إلى ذلك المكان إلى غير ذلك من محامد أفعاله»[724] وكان بناؤه للبرج الكبير بقمّرت والذي حدّده الزركشي بأنه يقع بقرطيل المحار شرقي بلد قمّرت قرطاجنّة[725] نتيجة لتفاقم القرصنة البحرية وهجماتها المتكررة على مدن السواحل.

(724) الفارسية (178).
(725) الزركشي (107).

وبجانب ذلك فإننا نجد ازدهار العاصمة بحركة علمية وأدبية نشيطة لا يرجع الفضل فيها لأبي العباس الحفصي بالذات نظراً لبداية ذلك الانتعاش العلمي والأدبي التي ظهرت منذ أن كثرت هجرة الأندلسيين إلى تونس، ثم الانتعاش الذي حصل بعد ذلك في عهد أبي الحسن المريني لكثرة ما أتى معه من علماء المغرب وفقهائه. وكانت روح العصر السائدة لدى الأمراء والسلاطين تتمثل في تقريب وجمع أكثر ما يمكن من العلماء والأدباء حولهم خاصة سلاطين بني مرين. وكان السلطان أبو العباس الحفصي يسلك ذلك المنهج منذ أن كان أميراً على قسنطينة. وقد ذكرنا ذات مرّة ـ نقلاً عن ابن القنفذ ـ أن السلطان أبا العباس كان يحضر بعض الدروس العلمية بانتظام. ويكفي هذا السلطان فخراً موقفه من عبد الرّحمان بن خلدون عندما احتضنه وحماه طيلة السنوات الأربعة التي قضاها في تونس حتى وفّرَ له من الوقت والاطمئنان مَا ساعده على المزيد من التدقيق والتحرّي في كتابة تاريخه الكبير. وكان حريصاً على أن يبقى عنده باستمرار حتى حاول الضغط عليه بعدم السماح لعائلته بالالتحاق به إلى المشرق أملاً من هذا السلطان في عودة ابن خلدون إلى تونس لولا إصرار هذا الأخير على الهجرة خوفاً من الدسائس والوشايات التي كانت تحاك ضدّه باستمرار.

2 ـ علاقات أبي العباس بالخارج:

إذا قضى السلطان أبو العباس أغلب مدته الطويلة في إخضاع الأطراف، وتأديب القبائل، وتوحيد السلطنة مما يدخل في نطاق الشؤون الداخلية لتلك السلطنة، فإننا نجد علاقاته الخارجية أقرب ما تكون إلى الاستقرار والمسالمة. وإذا استثنينا محاولة النزول الإفرنجي في المهدية وبعض الأعمال القرصنية الأخرى أمكن أن يقال: إن سياسته الخارجية كانت أميل إلى السلم.

ومع أن مواقفه الحربية في عَرض البحار لم يكن لها من الشأن والقوّة ما يضفي عليه الأبّهة والبطولة فإن صدى انهزام نزول الإفرنج في المهدية سنة

(792 هـ/1390 م) كان له استحسان في العالم الإسلامي خاصة عند المماليك في مصر، وعند بني مرين في المغرب الأقصى[726] وكانت علاقاته مع مماليك مصر أكثر صفاءً وبعداً عن الشوائب. وهذا شيء طبيعي نظراً لعدم تصادم الطرفين من أجل التوسع في النفوذ.

وقد مرّ بنا أن السلطان المملوكي (الظاهر برقوق) بعث إليه برسالة يرجوه فيها السماح لعائلة ابن خلدون بأن تلتحق به. وكانت الرسالة مفعمة بعبارات الود والتقدير من الظاهر برقوق إلى أبي العباس الحفصي[727] وكان تاريخ تلك الرسالة 15 صفر 786 (أفريل 1385). وعندما عاد الظاهر برقوق للحكم مرّة ثانية سنة 792 هـ. بعد أن خلع في السنة قبلها (791 هـ) بعث إليه أبو العباس الحفصي برسالة يهنئه فيها بعودته إلى الحكم، وانتصاره على خصومه. وكانت الرسالة مصحوبة بهدية فاخرة امتازت بكثرة ما فيها من الخيول. وقد حمل تلك الرسالة كبير رجالات دولته الوزير محمد بن أبي هلال. وقد جاء فيها أن الوزير ابن أبي هلال كان يلحّ على الذهاب لأداء فريضة الحج. ولكن المشاغل الداخلية لم تمكّن السلطان أبا العباس من السماح له بذلك. فلما جاءت مناسبة تهنئة الظاهر برقوق انتهز أبو العباس الفرصة فبعث بكبير رجال دولته لأداء فريضة الحج وحمل برسالة التهنئة والهدية للسلطان المملوكي. وهي الهدية التي اعتبرتها الرسالة السلطانية الحفصية «عنوان الحبّ السليم» بين العاهلين: الحفصي والمملوكي[728]. وكان وصول محمد بن أبي هلال للقاهرة في الثاني والعشرين من رمضان من السنة نفسها فخرج الأمير محمود الأستادار إلى لقائه بالجيزة. ثم أُحْضِرَ لدى السلطان الظاهر برقوق بعد ثلاثة أيام من وصوله، فأكرمه الظاهر برقوق، وأمر به فأنزل بدار، ورتّب له في كلّ يوم مائة درهم[729].

(726) برنشفيك (1 :204).

(727) انظر نصها في التعريف بابن خلدون (249 - 253).

(728) انظر كامل الرسالة في صبح الأعشى (8 :79 - 84)

(729) السلوك للمقريزي (3 :724).

وقبل ذلك بعث السلطان أبو العباس الحفصي برسالة إلى الظاهر برقوق يخبره فيها بانتصار الأسطول الحفصي وغزوه لجزيرة غودش (Gozzo) إحدى جزر أرخبيل مالطة، فبعث إليه الظاهر برقوق برسالة تهنئة بانتصاره، ويطلب منه مزيداً من التفاصيل عن تلك الغزوة[730]. ولهذا انتهز السلطان الحفصي فرصة سفر وزيره محمد بن أبي هلال إلى المشرق فبعث إليه بتلك التفاصيل ذاكراً له أن تلك الجزيرة كانت مركزاً للقراصنة الإفرنج الذين يعترضون السفن الإسلامية ويأسرون من كان عليها من حجاج وتجّار. ولهذا قام الأسطول الحفصي بغزوة تأديبية لتلك الجزيرة وقراصنتها. ويصف المكتوب السلطاني تلك الغزوة بقوله «.. فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غرباناً نعقت بالمنون، وعرّفت المسلمين الطائر الميمون، وشحناها عَدَداً وعُدَداً، واستمددنا من الله ملائكة سمائه مدَداً، فسارت تحت أجنحة النجاح إليها، وتحوم إلى أن رمت مخالب مراسيها عليها. فلما نزلوا بساحتها وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها بُهت الذي كفر، ووَدّ الفرار، والجبن يناديه: أين المفرّ، فلّما قضى السيف منهم أوطاره، وشفى الدّين من دمائهم أواره، وشكر الله من المسلمين أنصاره، عمدوا إلى ما تخطّاه السيف من والدٍ ومن ولد، ومن أخلد إلى الأرض من رجالهم عن المدافعة فلم يعترضه بالقتل أحد، فجمعوا منهم عدَداً ينيف بعد الأربعمائة على الأربعين، وجاؤوا بهم في الأصفاد مقرّنين..»[731].

وبعد أسبوع واحد من تلاوة الرسالة الحفصية على السلطان الظاهر برقوق وصلت إلى القاهرة الأخبار معلمة بانهزام الفرنجة بعد نزولهم بالمهدية[732] فاعتبر ذلك الانتصار من يمن السلطان أبي العباس الحفصي، وازدادت شهرته في الديار المصرية والمشرقية.

---

(730) صبح الأعشى (7 :379 - 384).
(731) صبح الأعشى (8 :84).
(732) السلوك للقريزي (3 :725).

أمّا علاقات أبي العباس الحفصي بسلطنة بني مرين فقد حاول هذا السلطان دعم تلك العلاقات بما هو أكثر مِمّا كانت عليه، فقرر في سنة 796 هـ (1393 م) إيفاد وزيره محمد بن أبي هلال في سفارة محمّلاً برسالة إلى السلطان أبي العَباس ابن أبي سالم المريني لتوثيق الصلة معه، وتهنئته بضم مملكة بني زيّان إليه بقيادة ابنه أبي فارس عبد العزيز المريني. إلاّ أنه لم يكتب للوفد الحفصي الوصول إلى تلمسان. فما إن وصل الوفد مدينة ميلة حتى بلغتهم وفاة السلطان أبي العباس الحفصي فكفّوا عن السير. وبعث إليهم الأمير أبو بكر المتولّي على قسنطينة يأمرهم بالعودة إلى قسنطينة مع ما كان يحمله الوفد من هدايا. وانقاد الوزير محمد بن أبي هلال للأمر فرجع إلى قسنطينة واستقرّ عند أميرها[733].

3 ـ ماذا بعد وفاة السلطان أبي العباس؟

كانت وفاة السلطان أبي العباس أحمد الحفصي في الثالث من شعبان سنة 796 هـ. (جوان 1394 م) بعد «. . مرض سابق طويل تزايد في الأشهر التي سبقت وفاته»[734]. وكان عمره عند وفاته سَبْعاً وستين سنة قضى منها أكثر من أربع وعشرين سنةً سلطاناً على كامل التراب الحفصي. وقضى قبلها إحدى عشرة سنةً أميراً على قسنطينة.

والمتتبع لأحداث السلطنة الحفصية ـ منذ تأسيسها ـ يمكن له أن يتساءل عن مصير هذه السلطنة بعد السلطان أبي العباس الذي قضى جُلّ عهده في توحيدها، وقمع الفتن، والحفاظ على سلامتها الترابية. فهل تستقرّ الأمور بعده؟ وهل يتولّى السلطنة وليّ عهده المعيّن؟ ثم ماذا سيكون موقف إخوته منه؟ وموقفهم جميعاً من عمّهم أبي يحيى زكرياء الذي كان يتولّى حجابة والدهم أبي العباس، وهو الذي كان محلّ اعتماده وثقته، والرّديف بعده في الملك، والمرشح بعده للأمر حسب عبارة ابن خلدون.

(733) العبر (6 :912) وهذا آخر ما بلغ ابن خلدون من أخبار صحيحة عن بني حفص.
(734) العبر (6 :909).

يبدو أن الموت المتوقع للسلطان أبي العباس إثر مرض النقرس الذي لازمه طويلاً حتى كان في غالب أسفاره يحمل على البغال في المِحفّة[734] جعل أبناءه يدبّرون أمرهم، ويتهيأون لذلك قبل حصوله خاصة أن أبا العباس ظل ثلاثة أيام مغمى عليه قبل أن يلفظ نفسه الأخير «.. فاجتمع أولاده وتآمروا في أن يكتموا حاله، وأن يبعثوا إلى عمّهم أبي يحيى زكرياء ـ وكان إذ ذاك يسكن بالرياض الذي هو الآن مدرسة بالحلفاوين من باب سويقة كما يحدده الزركشي في تاريخه[735] ـ من يخبره بأن أخاه أبا العباس عوفي من مرضه فجاء برسم عيادته. فلما دخل القصبة وجد أولاد السلطان بالقصبة، فظن أن أخاه توفي فأراد الرجوع إلى منزله ولكن أبناء أخيه ألحّوا عليه في الدخول. ثم قبضوا عليه وأدخلوه داره بالقصبة. وما إن سمع أبناؤه بالقبض على أبيهم حتى هربوا من تونس واتجهوا إلى عنّابة حيث يوجد أخوهم أبو عبدالله محمد أميراً عليها. وكان المتزعم لهذه الخطة الأمير أبا فارس عبد العزيز.

وبعد أن تمّ اعتقال أبي يحيى زكرياء اجتمع أبناء السلطان الراحل بأخيهم أبي بكر وليّ العهد. وقال له أخوه أبو فارس: إنّ صاحب عنّابة إذا سمع بالقبض على أبيه لن يبقى مكتوف الأيدي. وسوف يذهب ـ لا محالة ـ إلى قسنطينة ويستولي عليها. ولهذا يكون من الحكمة أن تمكث أنت بتونس وأمضي أنا إلى قسنطينة أو العكس. يقول الزركشي «.. فرأى أنه لا قدرة له على القيام بتونس فقال: بل أنا أمضي إلى قسنطينة فاجتمع أولاد الخليفة وكتبوا كتاباً عن أبيهم بولاية قسنطينة للمولى أبي يحيى أبي بكر..»[736].

والسؤال الوارد هو: لماذا تنازل أبو بكر عن ولاية العهد لأخيه أبي فارس عبد العزيز؟ هل كان يشعر بضعفه أمام أخيه أبي فارس بعد أن رأى

(734م) العبر (6 :909).
(735) الزركشي (114).
(736) الزركشي (115).

مهارته في القبض على عمّهم أبي يحيى زكرياء؟ وأنه لو تمسك بولاية العهد لا يأمن الانقلاب عليه. ولهذا فضل أسهل الحلول، واقتنع بالإمارة على قسنطينـة فتوجه إليها وأبوه بين أيدي موته[737] إذ غادر تونس في غرة شعبان، وتوفي والده في الثالث منه. وهكذا خلا الجوّ لأبي فارس عبد العزيز متزعم أولاد السلطان أبي العباس، فبايعه إخوته الموجودون بتونس. ثم بايعه عامة الناس. وما إن تمت له البيعة حتـى أمر بنقل ما في بيت عمه من أموال وذخائر إلى قصره. وزاد من التضييق عليه في محبسه[738].

(737) العبر (6 :909).
(738) العبر (6 :910).

الفصل التاسع

السلطان أبو فارس عبد العزيز

انتصاب السلطان أبي فارس عبد العزيز

كان للسلطان أبي العباس أحمد أولاد كثيرون، منهم من كان خارج العاصمة في بعض الولايات، ومنهم من كان موجوداً بحاضرة تونس عند وفاته. وكان من سياسة أبي فارس عبد العزيز بعد مبايعته أن زاد من تكليف إخوته ببعض المناصب فجعل أخاه إسماعيل رديفاً له في الملك، وبعث بأحدهم أميراً على سوسة، وبآخر على المهدية، وأحلّ الآخرين محلّ الشورى والمفاوضة[739]. أمّا أخوه المنتصر صاحب توزر فقد اضطرب أمره بعد وفاة أبيه مِمّا اضطره إلى مغادرة توزر والالتحاق ببني وشاح. وكان الأمر كذلك بالنسبة لأخيه زكرياء المتولّي على نفطة إذ غادرها والتحق بجبال نفزاوة[740].

ويعتبر السلطان الحفصي الجديد (أبو فارس) من ألمع سلاطين بني حفص في العهد الثاني لهذه الدولة أي منذ تمّ توحيدها على يد والده أبي العباس. وقد وصفه ابن القنفذ بأنه «.. رتّب الأحوال، وأعطى الأموال، وأخذ بالحزم في إمارته... وجعل في كلّ خطة من يصلح لها، وأقام بنظره الجميل عمودها وشكلها..»[741] والمعروف أن ابن القنفذ كان على صلة متينة بوالده أبي العباس، وأن المختصر التاريخي الذي ألّفه عن مبادىء الدولة الحفصية سمّاه «الفارسية» نسبة لأبي فارس هذا، وأهداه له.

---

(739) العبر (6 :910).

(740) المصدَر السابق.

(741) الفارسية (189 - 190).

عودة الانشقاق في العائلة الحفصية

لم يلبث السلطان أبو فارس قليلاً حتى جابه الانتقاض من أفراد أسرته. وكانت محاولة التصدّع الأولى للسلطنة الحفصية في عهد أبي فارس عبد العزيز قد اندلعت في الحفصية الغربية، في عنّابة وقسنطينة.

أمّا عنّابة فقد يكون لصاحبها بعض العُذر من الناحية النفسية على الأقل إذا شق عصا الطاعة في وجه السلطان الجديد نتيجة لسلوك أبناء عمّه ضدّ والده عندما أودعوه السجن واستصفوا أمواله فكان من الطبيعي أن يثأر لأبيه أبي يحيى زكرياء يحيى عمّ السلطان أبي فارس وإخوته. ولكن موقف أبي بكر شقيق أبي فارس هو الذي يؤكّد ـ من جديد ـ نزعة التفكّك والتنصّل حتى بين أبناء الأسرة الواحدة؛ فبعد أن تمّ الاتفاق بين الأمير أبي بكر وإخوته على أن يتنازل أبو بكر عن ولاية العهد لفائدة أخيه أبي فارس، وقنع بإمارته على قسنطينة، بعد كلّ ذلك فإنه لم يستمرّ على تعهده إلاّ عشرة أيّام فقط منذ وصوله إلى قسنطينة واستلامه شؤون الإمارة فيها، ففي العاشر من يوم دخوله جمع النّاس، وطلب منهم مبايعته سلطاناً خلَفاً لوالده أبي العباس. وخاف أهالي قسنطينة من سوء العاقبة إذا هم خالفوه فوافقوه على ذلك وبايعوه[742].

ويبدو أن الأمير أبا بكر كان على بيّنة من أمره وحاله عندما تنازل عن ولاية العهد لأن جأشه لا يتحمّل مسؤولية السلطنة عن كامل الدولة الحفصية.

(742) الفارسية (190).

ودون أن نعرف الأسباب التي جعلته يتنكّر لأخيه أبي فارس، فإن سيرته في قسنطينة ـ بعد أن بايعه النّاس ـ تدلّ على ضعف جأشه وقلّة حزمه فما إن بايعه النّاس حتى لزم داره وأخلد إلى لذّاته[743] مهملاً شؤون إمارته حتى كثر العيث والعبث، وتطاول عليه النّاس، ونجمت الفتنة وكثرت طلبات الأعراب. ثم حاولوا التآمر ضدّه بالتواطؤ مع الكاتب أحمد ابن الكمّاد. إلاّ أن هذا الأخير تخلّى عنهم في آخر لحظة مخافة أن يغدروا به هو أيضاً. ولم يقف ابن الكمّاد عند ذلك الحدّ فذهب إلى عنّابة يحرّض صاحبها (محمد بن زكرياء) على غزو قسنطينة مزيّناً له ذلك بضعف ابن عمّه، وعدم كفاءته لتسييرها ومسك زمامها. واهتز محمد بن زكرياء لهذه الفرصة ـ وهو الموتور بما فعله أبو فارس وإخوته بوالده ـ فجهّز جيشاً، وعبّأ الأجناد، وأقبل على قسنطينة يناصبها الحصار، فمنع عنها الداخل والخارج، وقطع أشجارها، وأمطرها بالسهام والحجارة. ولكنّ أهالي قسنطينة صمدوا أمام ذلك الحصار الذي استمرّ خمسة وسبعين يوماً لقوا فيها الشدّة والبأس ممّا جعل صاحب عنّابة يقلع عن محاصرة قسنطينة، ويعود أدراجه إلى عنّابة حتى يتمكّن من تجديد قواته كي يعيد الكرّة عساه يظفر بمبتغاه.

(743) المصدر السابق.

استعادة عنّابة

عندما كان محمد بن زكرياء (صاحب عنّابة) يحاول الاستيلاء على قسنطينة كان ابن عمّه السلطان أبو فارس على غير استعداد للتصدّي لابن عمّه المذكور، لأنه ظل - في بداية أمره - يركّز أموره، ويمّهد أحوال الحفصية التونسية مخافَةَ أن تثور فيها الفتن أو تفاجئَه الانتقاضات أثناء غيابه عنها. وكان من جهة أخرى لا يخشى أمر أخيه المستكين في قسنطينة بقدر ما كان يخشى ابن عمّه في عنّابة إذ لو تمكّن هذا الأخير من احتلال قسنطينة لعظم شأنه فيها وصعب التغلّب عليه، وربما حقق انقساماً جديداً في السلطنة. خاصّة أن التجارب أثبتت أن امتلاك قسنطينة هو أقوى مِعْوَلٍ يوجَّه إلى صرح السلطنة الحفصية. ولهذا كلّه عزم السلطان أبو فارس أن يقود حملة ضدّ ابن عمّه حتى يردَعه عن غيّه. وشرع فعلاً في مطاردته حتى التقى به في نواحي تبسة خلال رمضان 797 هـ. (جوان 1395). وأمكن للسلطان أبي فارس أن يلحق بابن عمّه هزيمة كبرى جعلته يفرّ من الميدان على فرسه ناجياً بنفسه صحبة شرذمة من أتباعه متجهاً إلى عنّابة، فتابعه أبو فارس إليها إلاّ أنه لم يدركه بها لأنه غادرها خفيةً على أنصاره، وامتطى سفينةً أقلّته إلى المغرب الأقصى بحثاً عن نجدة من سلطان بني مرين أو أماناً لنفسه إذا لم يَلْقَ منه النجدة.

وما إن علم الأمير أبو بكر بانتصار أخيه أبي فارس واستيلائه على عنّابة حتى بادر بالذهاب إليه للاعتذار عمّا بدر منه من خلاف، وإعلانه العجز عن

إدارة قسنطينة إلّا أن يكون تحت نظره. وكتب الأمير أبو بكر خَلْعَ نفسِهِ عن لقب السلطنة الذي ادعّاه لنفسه ونافس به أخاه. وقبل السلطان أبو فارس اعتذارَ أخيه، واعتزالَه السلطنة، واكتفاءَهُ بالإمارة على قسنطينة باعتبارها تابعة للسلطة المركزية في تونس.

وقبل خروجه من عنّابة بعث الأمير أبو بكر رسالة إلى قسنطينة يأمر فيها بالكفّ عن الخطابة باسمه على المنابر، وأن يعوّض ذلك باسم السلطان أبي فارس عبد العزيز. لكن سرعان ما ظهر عدم جدّه في ذلك إذ بعث رسالةً ثانيةً ـ قبل وصوله إلى قسنطينة ـ يحذّر فيها الخطباء من الدعاء للسلطان أبي فارس عبد العزيز منذراً بسوء العاقبة لمن يخالف ذلك. ويذكر ابن القنفذ أنه ـ نتيجة لهذا التردّد ـ ظلّت مساجد قسنطينة خمسة أشهر لا تدعو فيها لأحد: لا للسلطان أبي فارس، ولا للأمير أبي بكر إلى أن أمرهم هذا الأخير في صفر 798 (ديسمبر 1395) بتجديد الخطبة باسمه دون أخيه[744].

(744) الفارسية (192).

استعادة قسنطينة

كان أكبر المتسلّطين على أمير قسنطينة (أبي بكر الحفصي) الكاتب الفقيه إبراهيم بن يوسف الأندلسي. وكان قد تولّى نيابةَ هذه المدينة بعد وفاة أميرها أبي إسحاق ابن السلطان أبي العباس سنة (793 هـ)[745]. وظلّ على ذلك المنصب إلى أن توفّي السلطان أبو العباس فحاول الاستبداد بها. وامتنع ـ في أول الأمر ـ من تسليمها للأمير أبي بكر إلاّ بعد ما استظهر له هذا الأخيرُ بالرسالة التي أتى بها معه من تونس ليتولّى شؤون قسنطينة نيابة عن إخوته مقابل تنازله عن ولاية العهد لفائدة أخيه أبي فارس. وبذلك اضطر إبراهيم الأندلسي إلى تسليم السلطة للأمير أبي بكر. لكنه عمل في نفس الوقت على أن يكون هو صاحب النفوذ الفعلي. ونظراً لضعف الأمير أبي بكر ورغبته في الرّاحة والإخلاد إلى لذّاته سرعان ما أصبح إبراهيم الأندلسي هو المسيِّر الحقيقي لشؤون عمالة قسنطينة، كما أصبح الأمير أبو بكر رهن إشارته وتوجيهاته. فكان يحرّضه على الانتقاض ضدّ أخيه السلطان أبي فارس. ولهذا رأينا هذا الأمير ينقض العهد الذي عقده مع إخوته بعد عشرة أيام فقط من وصوله إلى قسنطينة. واستمرّ الأمير أبو بكر على مواقفه المتناقضة التي تقدم ذكرها لا سيما نقضه العهدَ من جديد بعد عودته من عنّابة. ومثلما حصل سنة 796 هـ. فقد تطاول عليه الأعراب من جديد

(745) الفارسية (188).

وشاعت الفوضى في قسنطينة ونواحيها سنة 798 هـ. ووجد الأمير أبو بكر نفسه عاجزاً عن كبح جماح الأعراب والاستجابة لطلباتهم التي لا تقف عند حدّ حتى ضاق عليه الأمر واشتدت به الحال فبعث ـ من جديد ـ إلى أخيه السلطان أبي فارس يستعطفه ويطلب ـ مرّة أخرى ـ الدخول تحت طاعته، ويرجوه أن يبعث إليه من يثق به ليشاهد بنفسه صدق ما يدّعيه، وتلقّي البيعة منه، فأرسل إليه السلطان أبو فارس كبيرَ الموحّدين الشيخ محمد بن أبي هلال ومعه أمر سلطاني بإقـرار الأمير أبي بكر نائباً عنه في قسنطينة. إلاّ أن الكاتب إبراهيم الأندلسي ندم على هذه اللّعبة الجديدة التي حرّض عليها، وخاف أن تدور الدائرة عليه بانقياد قسنطينة لتونس، فحرّك الأعراب للثورة وإعلان العصيان، وأجبر الأمير أبا بكر على نقض عهده مرّة أخرى. وضج النّاس بهذه الألاعيب فأخذوا يراسلون السلطان أبا فارس على القدوم بنفسه إلى قسنطينة وإزالة الفوضى والاضطرابات. ولم يكن من السلطان أبو فارس إلا الاستجابة لرغبة سكان قسنطينة بعد أن يئس من استقرار أخيه على رأي.

وفي الخامس والعشرين من شعبان 798 نزل السلطان أبو فارس على قسنطينة، وناصبها الحصار. ورغم الأمان الذي أعلنه السلطان الحفصي لأخيه أبي بكر فإن هذا الأخير أصرّ على المقاومة بتحريض كاتبه إبراهيم الأندلسي وقد دام الحصار عشرين يوماً. ويلاحظ ابن القنفذ أن هذا الحصار الذي ضربه أبو فارس عبد العزيز على قسنطينة لم يسبق ما يماثله إذ لأول مرّة تقع المحافظة على المزارع والأشجار فلم تستعمل وسيلة ضغط وتهديد بتقليعها والعيث فيها، وأن السلطان أبا فارس كان حريصاً على عدم سفك الدماء، وأعطى الأمان لكل من يطلبه من المحصورين[746]. ويضيف ابن القنفذ أنه كان يحرّض النّاس على طلب الأمان والدخول في طاعة السلطان أبي فارس باعتباره السلطان الشرعي للبلاد. وكان هذا من الأسباب التي دعت إلى انفراط عقد المحصورين حتى أحدثت عدّة فجوات في المقاومة

(746) الفارسية (193).

فتمكّن أبو فارس من اقتحام أسوار المدينة في الثامن عشر من شهر رمضان 798 (جوان 1395) ووقع القبض على كلّ من الأمير أبي بكر وإبراهيم بن يوسف الأندلسي الذي حمل مصفّداً إلى تونس حيث لقي حتفه مصلوباً[747] أو أنه ضرب ضرباً كثيراً ثم أخرج للعامّة فجروّه بالشوارع حتى مات[748] أمّا الأمير أبو بكر فقد حمل ـ هو أيضاً ـ إلى تونس وظلّ في اعتقاله إلى أن توفّي في ذي القعدة من سنة 799 هـ[749] وأقام السلطان أبو فارس أكثر من شهر في قسنطينة حتى مهّد أحوالها ونظّم شؤونها ثم عاد إلى العاصمة تونس.

(747) في الفارسية (193) كان ذلك سنة 798 بينما يذكر ابن حجر في الدرر الكامنة (1 :81) وأنباء الغمر (1 :531) إن ذلك كان سنة 799 هـ.

(748) الزركشي (119).

(749) الدرر الكامنة (1 :470) أنباء الغمر (1 :533).

أبو فارس يُقْصي إخوتَه عن المسؤولية

يبدو أن السلطان أبا فارس عبد العزيز بدأت ثقته في إخوته تنقص شيئاً فشيئاً ممّا جعله لا يتمادى في تقليدهم المسؤوليات، وتوليتهم على الأطراف. ولهذا لم يعيّن على قسنطينة واحداً منهم بل عيّن عليها أحد مواليه العلوج هو القائد نبيل. وسمّى على قصبة المدينة الشيخ أحمد بن تافراجين التينمللّي الذي كان له فضل استقرار الأوضاع وإجراء العدل إذ حسنت سيرته بالبعد عن كبرى المسائل وتجنّب ما يعتذر عنه في وهم السائل. وكان لا يوافق على الافتعالات في اتهام الأبرياء بالضلالات كما يقول ابن القنفذ[750]. إلاّ أن الشيخ ابن تافراجين لم يبق طويلاً في منصبه إذ انتقل إلى العاصمة تونس واستقرّ فيها. وقد سبب انتقاله اضطراب الأوضاع في قسنطينة فيما بعد.

وبالإضافة إلى موقف الأمير أبي بكر من أخيه السلطان أبي فارس وفرار أخويه في كلّ من نفطة وتوزر وعدم صمودهما أمام المنتقضين بعد وفاة أبيهم السلطان أبي العباس، بالإضافة إلى ذلك فإننا نجد أخاه عمر المتولّي على صفاقس وقابس وجربة يتنمّر هو الآخر ضدّه معلناً عدم اعترافه له بالسلطنة، فجرد أبو فارس حملة عسكرية ضدّ أخيه عمر وضرب عليه حصاراً في صفاقس، وأخذ يفاوض أهلها كي ينضمّوا إليه. ثم تقدّم جماعة منهم إلى مسكن أخيه عمر فاقتحموه وقبضوا عليه في الحمّام وسلّموه إلى أخيه السلطان

---

(750) الفارسية (194).

أبي فارس. ودخل السلطان مدينة صفاقس ونصّب عليها والياً جديداً[751] من غير أبناء العائلة الحفصية.

ولعلّه من الطريف أن نذكر ما جاء في «معالم الإيمان» لابن ناجي عن تغلّب السلطان أبي فارس عبد العزيز على أخيه عمر المستبدّ بصفاقس فقد روى ابن ناجي أن السلطان أبا فارس عبد العزيز قال:

«لما حاصرت أخي عمر بمدينة صفاقس ورد علينا (الشيخ عبيد الغرياني) ونحن نتعشى فقلت له: باسم الله. قال: لا حتى تشرب فرسي، ويعلّق علفها. فأمرت من أتى لها بالماء. وشربت قدّامه. وأوتي بالشعير وعلّق عليها علفها بحضرته. ودنا معنا فأكل ما تيسر. ثم قال: نعم يا سيّدي أنتم أولاد مولانا أبي العباس أحمد فيكم الخير والبركة، والثقة والرّحمة. وجئت من فضلِك أن ترحم أخاك عمر.

فقلت: يا سيدي، لو كنت أعلم أنّ فيه مصلحة لخلق الله لأجبتك فيما طلبتني. وهو مِمَّن يخشى منه على الناس. وسكت إخواني فاستشهدت بهم فصدّقوني.

فقال: وأنا ـ يا أخي ـ ما جرى إلاّ خير. زرت قبر سيّدي عيسى بن مسكين وتبرّكت به، وقلت: اللهم بحقك يا ربّ العالمين، وبجاه سيّدنا عيسى ابن مسكينَ انصر أمير المؤمنين. ثم قال: وسلامٌ عليكم.

فكلّمناه في المبيت عندنا فقال: لا. ومشى عند الفقيه عبدالله بن قليل الهمّ ـ واعتقادي أنه مقيم عنده ـ فسألته عنه من الغد. فقال: يرحمك الرّحمان. ما قام إلاّ يَسيراً ومشى.

ونحن في المجلس، ولا لي في أهل صفاقس طميعة، ولا لي معهم حديث. وإذا هم بعثوا لي وقالوا: تأخذه (يعني عمر) ونحلّ لك البلد. فكان

(751) الزركشي (119).

كذلك. فأنزلوه لي مكتّفاً من فوق سور البلد. فهو أشار لي بنصـر الله عليه..»[752].

وفي نفس الفترة التي ضمّ فيها أبو فارس لنفوذه كلًّا من قسنطينة والجنوب الشرقي تخلّى الأمير أحمد بن أخيه محمد عن مدينة بجاية وجاء إليه خالعاً نفسه، حاملاً معه مبايعة أهل بجاية للسلطان أبي فارس فقبل منه ذلك. وعيّن عوضه والياً جديداً من خاصّة مواليه وأصحاب الثقة عنده[753].

(752) معالم الإيمان (4 :256).
(753) برنشفيك (1 :212).

إخضاع الجنوب الغربي

ما إن فرغ السلطان أبو فارس من إخضاع الحفصية الغربية والجنوب الشرقي التونسي حتى أخذ يستعد لاستعادة المناطق التي استبدّت عن السلطة المركزية في الجنوب الغربي من الحفصية التونسية. وقد شرع في ذلك سنة 802 (1400 م) متظاهراً بالتوجه إلى طرابلس واستعادتها من بني ثابت. وبعد أن أقام بقابس للاستراحة واصل سفره. إلاّ أنّه بدل أن يشرق نحو طرابلس اتخذ طريقه صوب بلاد الجريد حتى يفاجىء المستبدّين بها بعد أن فرّ عَنها أخواه زكرياء والمنتصر إثر وفاة والدهم أبي العباس سنة 796هـ. وكانت مدينة توزر وما حولها قد استعادها إلى سلطة بني يملول حفيدٌ لهم يدعي بأبي يحيى كان قد أخرجه منها السلطان أبو العباس. ولم يجد أبو فارس عناءً كبيراً في الاستيلاء على توزر والانتصار على أبي يحيى بن يملول والقبض عليه وسجنه بعد أن حاصره عدّة أيام من شهر شعبان 802 (أفريل 1400). وبعد الفراغ من توزر اتجه السلطان أبو فارس إلى مدينة قفصة حيث استبدَّ بها ثلاثة إخوة من بني العابد هم منصور وأبو بكر وعلي[754] وكانوا يحكمونها بالاشتراك فيما بينهم فحاصر المدينة حتى استسلمت وقبض على الإخوة الثلاث وأودعهم السجن. ونصّب على قفصة والياً جديداً من مواليه سمّاه الزركشي باسم محمد التواسي. وبالرّغم من أن أبا فارس عبد العزيز أعلن

(754) المصدر السابق ومعالم الإيمان (4 :258).

عفوه عن أهالي قفصة بعد فيء وقع فيها فإنه أمر بتهديم سور المدينة حتى لا تعود إلى الانتقاض مرّة أخرى[755]. وقد تمّ ذلك في شهر رمضان من نفس السّنة. ثم عاد إلى العاصمة ليستجمّ قبل أن يستأنف نشاطه في سبيل استرجاع بقية الأطراف المستبدّة.

(755) المصدر السابق ومعالم الإيمان (4: 258).

استرجاع طرابلس وبسكرة

في صائفة سنة 803 هـ. قام أبو فارس عبد العزيز بحملة إلى طرابلس لاستعادتها إلى نفوذ السلطة المركزية وهي المنطقة التي كان مستبدّاً بها بنو ثابت منذ زمن بعيد. وأقام عليها حصاراً مدّة طويلة انتهى بالاستيلاء عليها في السادس من رجب 803 (1401 م) مُنْهياً بذلك سيادة بني ثابت عليها. وقد تمّ هذا الانتصار بفضل تدخّل جمع من صلحاء طرابلس وعلمائها حتى تمّ فكّ الحصار عنها واستسلامها[756].

وإذا نحن تتبعنا أعمال السلطان السابق أبي العباس في تمهيد أطراف السلطنة الحفصية، وقلنا: إن ابنه أبا فارس اتبع نفس خطى أبيه فإن على أبي فارس أن يتجه كذلك إلى بسكرة مثلما فعل أبوه حتى تتم له السيطرة الكاملة على كافة تراب السلطنة الحفصية.

ودون أن تتعرّض المصادر التاريخية لذكر الأسباب التي دفعت أبا فارس بالتوجه إلى بسكرة، فإن رغبته في توحيد سلطنة آبائه وأجـداده، والقضاء على مناطق الشغب والانتقاض فيها هي التي جعلته سنة 804 هـ يقود حملة عسكرية ضد أحمد بن مزني صاحب بسكرة. وبعد أن غادر العاصمة أقام أياماً ببئر الكاهنة[757] حتى استجمع قواه ودبّر أمره في الهجوم على

(756) الزركشي (120).

(757) أي البئر التي قتلت عندها الكاهنة في معركتها مع حسان بن النعمان الغساني (معالم الإيمان 1: 67).

أحمد بن مزني الذي لم يثبت طويلاً أمام الهجوم الحفصي فبادر بالاستسلام. ويذكر ابن القنفذ أن أبا فارس عبد العزيز لم يكن - في بداية الأمر - يعتزم إقالة ابن مُزْني من منصبه. لكن يبدو أن تذمّر النّاس منه، وشكاياتهم للسلطان، ورغبتهم في تنحيته عنهم، جعلت أبا فارس عبد العزيز يغيّر رأيه في ابن مزني فيأمر بالقبض عليه، وحمله معه إلى حاضرة تونس. وكان دخول السلطان أبي فارس لمدينة بسكرة في السابع من جمادى الآخرة سنة 804 (جانفي 1402) مزيلاً بذلك حكم بني مزني في بسكرة ومناطقها بعد أن استمرّوا يتداولون الحكم فيها والاستبداد بها مائة وأربعين سنة منها أربعون سنة لأحمد بن مزني آخر من تولّى منهم مشيختها. وتبعاً للطريقة التي سلكها أبو فارس عبد العزيز فقد عيّن على بسكرة أحد قوّاده من مواليه العلوج.

أبو فارس في غدامس

كانت أبعد تنقلات السلطان أبي فارس عبد العزيز في سبيل تمهيد أحوال أقاصي جهات السلطنة قد تمثلت في قيامه بحملة عسكرية إلى غدامس ودَرْج على مشارف الصحراء الكبرى، إذ تبعد غدامس عن مدينة طرابلس بنحو 459 كلم[758].

وأثناء هذه الحملة العسكرية أجرى السلطان أبو فارس عدّة تحويرات في سلك كبار المساعدين له، ففي أثناء سفرته تلك أمر بالقبض على صاحب جبايته الفقيه محمد بن قليل الهمّ، وعلى محمد بن غالية وبعث بهما إلى قابس ومن هناك أُبْحِرَ بهما مقيّدين إلى تونس[759]. ويبدو أن أبا فارس اكتشف مؤامرةً تدبّر ضده أثناء تلك السفرة أو أنه اكتشفها قبل خروجه من العاصمة وفضّل أن يزيح الستار عَنها، ويقبض على مدبّريها وهو بعيد عن العاصمة، فبعد القبض على محمد بن قليل الهمّ ومحمد بن غالية، قبض في شهر رمضان (809 ـ فيفري ـ مارس 1407) على ثلاثة من إخوته هم: التريكي، وخالد، وأبو زيان، كما قبض على البعْض من قوّاد جيشه مِمّن لهم ضلع في ذلك التآمر منهم القائد ابن اللّوز، والقائد ابن أبي عمر[760]. وإذا اكتفى أبو فارس عبد العزيز بالقبض على إخوته الثلاث فإنه أمر بقتل القائدين المذكورين وبعث برأسيهما إلى تونس حيث علّقتا عبرةً للنّاس.

(758) معجم البلدان الليبية (242) وتبعد درج عن غدامس بنحو 103كلم يُنظر معجم البلدان الليبية ص130.
(759) الزركشي (122).
(760) المصدر السابق.



المدرسة الشماعية (الصحن وبيوت الطلبة) أسسها الأمير يحيى بن الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص. 1235/633.

عودة أولاد حكيم وتدخل بني مرين

يذكر الزركشي في «تاريخ الدولتين» أنه في سنة 810 هـ. ثارت أولاد حكيم - من قبائل سليم - بقيادة الشيخ أحمد أبي صعنونة ضدّ السلطان أبي فارس. وقد جرت معركة بينه وبينهم في عين الغدر بين الحامّة ونفزاوة انتهت بانتصار السلطان أبي فارس وخضوع أحمد بن أبي صعنونة وانقياده[761]. ولم تذكر المصادر التاريخية هل إن السلطان أبا فارس تقاتل مع أولاد حكيم بعد عودته من غدامس إلى تونس أم أنّ المعركة جرت أثناء عودة السلطان أبي فارس من خرجته إلى دَرْج وغدامس، على أن قرب التاريخ بين معركة عين الغدر والخرجة إلى غدامس قد يستنتج منه أن تلك المعركة جرت أثناء عودة أبي فارس من دَرْج وغدامس. أما انقياد ابن أبي صعنونة فلم يمنع بعض زعماء أولاد حكيم من عدم الاستسلام والبحث عن مناصر لهم. فقد ذهبت طائفة من أولاد حكيم إلى فاس مستصرخة بالسلطان المريني أبي سعيد عثمان ممّا نتج عنه دخول العلاقات الحفصية المرينية طوراً جديداً لم يكن في الحسبان. وكان وجود الأمير محمد بن زكرياء الحفصي - صاحب عنّابة السابق الملتجىء لدى بني مرين - مما ساعد على هذا التطور الجديد في العلاقات الحفصية المرينية. وكانت المطامح القديمة لبني مرين في الاستيلاء على السلطنة الحفصية قد تحرّكت من جديد عند أبي سعيد عثمان فجهّز جيشاً لمحمد بن زكرياء من فرسان بني مرين وغيرهم وبعثه مع أعراب

(761) الزركشي (123).

أولاد حكيم[762]. ويتضح من ذلك أن عدم استجابة بني مرين لصاحب عنّابة ـ أوّل قدومه ـ كان نتيجةً لعدم الثقة في انتصاره لقلّة أنصاره، أمّا وقد جاءت الآن أعراب بني حكيم فإن هناك ما يبعث على الأمل في وجود الأنصار وتحقيق الانتصار.

واتجه محمد بن زكرياء صحبة شيخه إلى إفريقية. وما إن وصل قرب بجاية حتى تلقته عربان إفريقية مطيعة منقادة. وكان من ضمنهم شيخ أولاد حكيم ابن أبي صعنونة الذي أظهر ـ في بداية الأمر ـ انقيادَه وطاعتَه للسلطان أبي فارس وإذا به يعدل عن ذلك عندما بلغه أنّ بني مرين ساندوا زعماء قبيلته، وأرسلوا معهم جيشاً لمقاتلة السلطان أبي فارس عبد العزيز. ولم يكتف ابن أبي صعنونة بذلك بل أخذ يحرّض الأمير محمد بن زكرياء على القتال، ويهوّن له الأمر بسهولة التغلّب على السلطان أبي فارس. واغترّ الأمير محمد بن زكرياء بما زيّنه له الأعراب فأعاد جيش بني مرين إلى فاس ـ مكتفياً بما التفّ حوله من الأعراب ـ وزحف بهم على مدينة بجاية فاستولى عليها، وولّى عليها ابنه «منصور» إلاّ أن السلطان أبا فارس أمكن له استعادة بجاية والقبض على أميرها الجديد منصور بن محمد وبعث به مقيّداً إلى تونس مع كبار البلد، وعقد على بجاية لصاحبها السابق الأمير أحمد بن أخيه محمد. ثم خرج أبو فارس يطارد خصمه محمد بن زكرياء «.. فلما التقى الجمعان تحوّل شيخ العرب المرابط [ابن أبي صعنونة] عن الأمير محمد وتركه لعهد كان بينه وبين السلطان على ذلك. فانهزم من كان مع الأمير محمد وفرّ هو بنفسه طالباً النّجاة فلحقته خيول السلطان بموضع يقال له بتيتة ـ جوفي بلد تمغزة ـ فقتلوه، ودفنت جثته هناك فقبره معروف بذلك الموضع إلى الآن[763] واحتزّ رأسه وأتوا به إلى السلطان أبي فارس فبعث به رجلاً من رجال الطريق

(762) الاستقصا (4 :91).

(763) أي في عصر الزركشي وفي الاستقصا (4 :91) أنه: علّقه بباب المحروق أحد أبواب فاس إغاضة للسلطان أبي سعيد» المريني.

يقال له «المحمصي» إلى مدينة فاس فعلّقه ليلاً بباب المحروق بها فأصبح أهل فاس يتوارونه»[764].

وكان ما فعله السلطان أبو فارس برأس ابن عمّه محمد نكايةً في بني مرين الذين جهّزوا له جيشاً ضدّ السلطان الحفصي أمَلاً منهم في تحقيق الحلم الذي كان يراود بني مرين منذ عهد السلطان أبي الحسن.

(764) الزركشي (124).

عودة الصراع بين المغارب الثلاث

لم تكن الظروف مواتية ليأخذ السلطان أبو فارس بثأره من بني مرين خاصة أنه حديث عهد بالفتن الداخلية التي جابهته منذ تولّيه سلطنة بني حفص، بالإضافة إلى ما يقتضيه أخذ ذلك الثأر من غزو بني زيان أصحاب تلمسان، لأنهم يعتبرون حاجزاً بينه وبين مرين. ولهذا اكتفى أبو فارس باحتلال مدينة الجزائر وضمّها إلى نفوذه كما سيتأخر أخذه بثأره من بني مرين أربعة عشر سنة أخرى اهتمّ خلالها بشؤونه الدّاخلية، وتنظيم البلاد، والقيام بحركة عمرانية كبيرة يأتي الحديث عنها فيما بعد.

وكانت الأوضاع السياسية في كلّ من المغربين الأوسط والأقصى تزداد تدهوراً بمرور السنوات التي قضاها السلطان أبو فارس في شؤونه الداخلية وقبل أن يهاجم بني زيان في طريقه إلى بني مرين.

ففي مملكة بني زيان بتلمسان كثرت الاضطرابات والانقسامات. وكان تدخّل بني مرين واضحاً مكشوفاً في خلافات الزيانيين وحروبهم الدّاخلية، ففي السنة التي استولى فيها أبو فارس على مدينة الجزائر (813 هـ) تولّى شؤون تلمسان عبد الرّحمان بن محمد الأول. إلاّ أنه لم يبق في الحكم إلاّ شهرين وأيّاماً، لأن عمّه السعيد بن أبي حمّو ثار ضدّه وخلعه في أوائل المحرّم 814 (أواخر ماي 1411). فتدخل بنو مرين في الأمر، وحرّضوا عليه أخاه عبد الواحد فخلعه في منتصف رجب من السنة. وكان عبد الواحد هذا من ألمع ملوك بني زيّان فكان.. «.. شجاعاً، متناهياً في الحزم والجد

مقتفياً آثار أبيه، جزيل العطاء، حليماً عن الدّماء، محبوباً من الرعية..»[765]. وقد سجّل عبد الواحد انتصاراً على بني حفص عندما استرجع مدينة الجزائر إلى حظيرة الدولة الزيّانية.

وكان بنو مرين ـ عندما ساعدوا بعد الواحد على خلع أخيه السعيد ـ يؤمّلون أن يصبح عبد الواحد من صنائعهم. إلاّ أن هذا التقدير كان وهماً، لأن عبد الواحد بن أبي حمّو الزيّاني كان على غير ما يتوقعون فقد كان يعمل على جعل بني زيّان صنو بني مرين وبني حفص قوة واستقلالاً. ولهذا تصادم مع أنصاره من بني مرين وتدخّل في خلافاتهم الدّاخلية، ونصب على عرش فاس المريني بعض حفدة السلطان أبي عنان[766]. وكان موقف بني مرين ـ رغم ما انتابهم من ضعف وفوضى ـ أن ردّوا الفعل ضدّ صنيعتهم عبد الواحد الزيّاني فحرّضوا ضدّه محمد بن أخيه أبي تاشفين. ثم استنجد هذا الأخير بالسلطان أبي فارس عبد العزيز الذي انتهز الفرصة لأمرين اثنين: الأول الانتقام من عبد الواحد الزيّاني الذي استولى على أقصى ثغوره الغربية (أي مدينة الجزائر)، والثاني أن ذلك سوف يهيّىء له أخذ ثأره من بني مرين خصومه السابقين منذ سنة 812 هـ.

أما الوضع بالمغرب الأقصى فلم يكن أحسن مما كان عليه في مملكة تلمسان. وكانت عائلة بني مرين تتهيأ لنهايتها بسبب كثرة ما كان فيها من اضطرابات داخلية وعدم استقرار في الوقت الذي كانت فيه حركة الاسترجاع الإسبانية تستعدّ للانقضاض على مملكة غرناطة بالضربة القاضية. وأخذت مملكة البرتغال تطمح إلى ما وراء الأندلس حتى استطاعت أن تضع أقدامها في الأراضي المغربية، وتحتل مدينة سبتة سنة 818 هـ (1415 م) في عهد السلطان أبي سعيد أحمد المريني[767]. وينقل السلاوي عن كتاب «نشر

---

(765) تاريخ الجزائر للميلي (1: 363).

(766) المصدر السابق.

(767) الاستقصا (4: 92).

المثاني» كيفية استيلاء البرتغاليين على سبتة قصةً طريفة تشبه القصة المروية عن قصير وزنوبيا ملكة تدمر، أو ما ذكره هوميروس عن حصان طروادة، فقد قال صاحب نشر المثاني[768] «. . رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصارى جاؤوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعاً وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة 818 هـ. وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالاً عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة فخرجوا على حين غفلة واستولوا على البلد. .». وأنّ الذي جرأ النصارى (يعني البرتغاليين) على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد تواطؤوا مع حاكم سبتة في ذلك عندما سلّم لهم تسيير شؤون الميناء في مقابل خراج معلوم[769]. وبذلك تمكّنوا من احتلال سبتة التي استمرّت في أيديهم قرنين ونصفاً. ثم انتقلت سيادتها إلى الإسبان إلى الآن.

وسواء أصحّ التواطؤ بين حاكم سبتة المريني وبين غزاتها أو لم يصحّ فإن اضطراب الأحوال السياسية بين بني مرين أنفسهم هو الذي ساعد البرتغاليين على ذلك الاحتلال، كما أن الخلاف بين غرناطة وفاس على جبل طارق كان ممهّداً لذلك أيضاً. وهو الخلاف الذي انتهى بالإطاحة بأبي سعيد عثمان وانتصاب أخيه عبدالله بمساعدة صاحب غرناطة. إلّا أنه لم يمكث في الحكم إلّا مدّة قليلة انتهت ـ في ظروف غامضة ـ بانتصار خصومه وتولية عبد الحق بن أبي سعيد عثمان بمساعدة بني زيان أصحاب تلمسان[770].

تلك ـ إذن ـ هي الأوضاع السياسية في المغرب الإسلامي عندما استعدّ السلطان أبو فارس عبد العزيز للتدخل المباشر في شؤون مملكة بني زيان في تلمسان، وسلطنة بني مرين في فاس. وظهر بذلك أن أبا فارس عبد العزيز

(768) الاستقصا (4 :92) عن نشر المثاني.

(769) المصدر السابق.

(770) عن هذا الغموض والخلاف في كيفية انتقال الأمر من أبي سعيد عثمان إلى عبد الحق انظر الاستقصاء (4 :91 وما بعدها) ـ معجم الأسر الحاكمة (90) ـ برنشفيك (1 :226).

كان ـ نسبياً ـ أكثر تلك الدول استقراراً وتمكّناً في المنطقة. ولعلّ ذلك مما شجعه على التوسع خارج حدود سلطنته الحفصية فجرّد حملة عسكرية ضد تلمسان سنة 827 هـ/ 1424 م. واستولى عليها بسهولة لأن صاحبها (عبد الحق) فرّ منهزماً ملتجئاً إلى فاس بعد انهزام ابنه أمام السلطان أبي فارس. ودخل السلطان الحفصي مدينة تلمسان في جمادى الآخرة (827/ ماي 1424) واستقرّ في قصبتها واستولى على جميع ما فيها. وأقام بها مدّة يرّتب شؤونها، ويتدبر فيمن يوليه أمرها[771]. ولم يشأ أبو فارس عبد العزيز أن يلحق مملكة تلمسان مباشرة بسلطنته بل اختار لها أحد بني زيّان هو محمد بن أبي تاشفين فعقد له على تلمسان على أن يكون تابعاً له، خاضعاً لسلطانه. وبالرغم من سكوت المصادر عن أسباب عدم الإلحاق الفعلي لتلمسان بالسلطة المركزية الحفصية فإن عزمه على التوجّه إلى فاس قد يكون هو السبب في ذلك مخافةَ أن تنتقض عليه تلمسان وزناتة عندما يكون هو في طريقه إلى فاس فيجد نفسه محصوراً بين جبهتين.

ومهما يكن فإن السلطان أبا فارس ـ بعد أن أقر الأوضاع في تلمسان ـ اتجه صوب فاس ليتابع مطاردته لعبد الواحد الزيّاني من ناحية، وليحقق عزمه على الأخذ بثأره من بني مرين الذين حرّضوا ضدّه ابن عمّه محمد بن زكرياء من ناحية أخرى. وعندما أصبح أبو فارس عبد العزيز على مسيرة يومين فقط من مدينة فاس بعث إليه صاحبها بوفد ليقول له: «إن البلاد بلادكم والسلطنة سلطنتكم، وجميع ما تأمروننا نمتثله «فقبل أبو فارس كلام سلطان بني مرين، واكتفى به، وبعث له بهدية أكبر من التي أرسلها له المريني مع وفده. ثم كرّ راجعاً إلى تونس سنة 827 هـ. ولحقته في طريقه بيعة أهل فاس ثم بيعة صاحب الأندلس فصارت البلاد الإفريقية والمغرب الأقصى والأوسط كلّها تحت نظره..»[772].

(771) الزركشي (126).
(772) الزركشي (126) ـ الاستقصاء (4 :91).

أبو فارس والصراع الإسلامي المسيحي

يمكن اعتبار عدول أبي فارس المفاجىء عن مواصلة مسيرته نحو فاس نتيجةً لتطور الأوضاع السياسية والعسكرية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط. وقد تمثل ذلك خاصّة في رغبة ملك أرغونة وصقلية في الاستيلاء على سواحل إفريقية وجزرها بالرغم مما يبدو من أن أبا فارس عبد العزيز اكتفى بما قدمه صاحب فاس من ضروب الطاعة والانقياد واعتبره أخذاً بثأره من بني مرين.

والمعروف أن صقلية ارتبطت بمملكة أرغونة الإسبانية منذ سنة 1282 م (681 هـ) بعد مذابح عيد الفصح المشهورة ضد الفرنسيين، وانتزاع صقلية من نفوذ «آل دانجو». ومنذ ذلك التاريخ ظلّت صقلية تابعة لمملكة أرغونة إلى أن تولّى عرش تلك المملكة الفونصو الخامس سنة 1416 م (818 - 819 هـ) فركز اهتمامه أكثر نحو صقلية وما حولها، وأخذ في توسيع نفوذه حتى ضمّ إليه مملكة نابلي، كما اتجهت أنظاره إلى السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط حيث تنتصب السلطنة الحفصية. واتجاه الفونصو الخامس نحو شرقي أرغونة وجنوب البحر الأبيض المتوسط يتصل - لا محالة - بالمطامح العريضة التي أذكت أوارها «حركة الاسترجاع» الإسبانية. وخريطة شبه جزيرة إيبريا في بداية القرنين التاسع الهجري والخامس عشر المسيحي تبين أن ممالك إسبانيا النصرانية الثلاثة (قشتالة - أرغونة - البرتغال) كانت تتنافس على توسيع مناطق نفوذها على أصقاع المغرب الإسلامي فكانت مناطق

التوسع البرتغالي متجهة نحو المغرب الأقصى، وكانت مناطق التوسع الأرغوني متجهة نحو إفريقية الحفصية بينما كانت مملكة قشتالة ينصب اهتمامها على البقية الباقية من مملكة غرناطة بالأندلس.

ولم يكن السلطان أبو فارس عبد العزيز بعيداً عن منطقة ذلك الصراع، كما لم يكن بعيداً عن الأحداث الداخلية الجارية في مملكة غرناطة نفسها التي ما إن نعمت بشيء من الاستقرار في عهد سلطانها يوسف الثالث (811 هـ ـ 1408 م) حتى توفّي هذا السلطان سنة 820 هـ (1417 م) وعادت أمور غرناطة الداخلية إلى الاضطراب بتولّي أبي عبدالله محمد الملقب بالأيسر. «. . وكان أميراً صارماً سيّء الخلال، متعالياً على أهل دولته، بعيداً عن الاتصال بشعبه، لا يكاد يبدو في أيّة مناسبة عامّة . .»[773] ورغم ما بذله وزيره يوسف بن سرّاج من محاولة التوفيق بين هذا «الأيسر» وبين عامّة الشعب ورجال الدولة فإنه لم ينجح في ذلك[774] مِمّا دخل بمملكة غرناطة في فترة عصيبة من الفوضى والاضطرابات الداخلية. وكانت مملكة قشتالة المتربصة للانقضاض على غرناطة تذكي نارَ الفتنة ضد «الأيسر» وتحرّض على الثورة ضدّه وتتوغل في بلاده حتى اندلعت الثورة ضدّه وأطاحت به، ونصبت بدلّه ابنَ عمّه محمد الزغير (أو أبو عبد الله الصغير). أما محمد الأيسر فقد فرّ ناجياً بنفسه. وركب البحر إلى تونس حيث نزل فيها لاجئاً عند السلطان أبي فارس عبد العزيز[775] الذي كان يساعد مملكة غرناطة بألفي قفيز من القمح من عشر منطقة وشتاتة. ولم يَزد انتصاب محمد الزغير على غرناطة إلاّ اضطراباً وفوضى خاصة بعد اشتداد خلافه مع ابن سرّاج حتى اضطر هذا الوزير إلى مغادرة غرناطة والالتجاء إلى ملك قشتالة بإشبيلية. وفي بلاط قشتالة تمّ الاتفاق بين ابن سرّاج ويوحنّا الثاني ملك قشتالة على دعوة

---

(773) عبدالله عنان نهاية الأندلس (154).

(774) المصدر السابق.

(775) برنشفيك (1 :228).

«الأيسر» من تونس والعمل على إعادته إلى عرش غرناطة. وبعث ملك قشتالة بابن سرّاج وبحاكم مرسية «الفونصو دي لوركا» إلى تونس يطلبان من السلطان أبي فارس عبد العزيز أن يساعدَهما على إعادة محمد الأيسر إلى حكم غرناطة.

السلطان أبو فارس والملك «الفونصو الخامس»

استجاب السلطان أبو فارس عبد العزيز إلى ما تقدم به كلّ من الوزير يوسف بن سرّاج وحاكم مرسية «الفونصو دي لوركا» فجهّز لمحمد الأيسر جيشاً قوامه خمسمائة رجل، وبعث إلى ملك قشتالة بهدية نفيسة[776]. وأمكن لمحمد الأيسر أن يتغلّب على محمد الزغير، وأن يستعيد مكانته على غرناطة. ثم أرسل إلى ملك قشتالة يطلب تجديد الهدنة معه. إلا أن ملك قشتالة اشتطّ في شروط تجديد الهدنة إذ كان من جملة الشروط أن «. . يؤدّي الأيسر ما أنفقه بلاط قشتالة في سبيل استرادِهِ عرشَه، وأن يؤدّي فوق ذلك ـ جزية سنوية ضخمة اعترافاً منه بطاعته لقشتالة، وأن يفرج عن سائر الأسرى النّصارى الموجودين في بلاده، فرفض الأيسر تلك الشروط المجحفة، وهدد ملك قشتالة بالحرب. أمّا يوحنّا الثاني فقد بعث بسفرائه ومعهم هدايا نفيسة إلى أبي فارس الحفصي سلطان تونس، وإلى سلطان فاس عبد الحق بن عثمان المريني يرجو كلاًّ منهما أن يبتعد عن التدخل في شؤون غرناطة، فوعد كلاهما بتحقيق رغبته. . »[777] فلماذا كان هذا الموقف من السلطان أبي فارس عبد العزيز خاصة أن ملك قشتالة لا يشك أحد في مواقفه التوسعية وعزمه على إزالة آخر دولة إسلامية بالأندلس؟ لعلّ المبرّر

---

(776) برنشفيك (1 :228).

(777) نهاية الأندلس (158).

الوحيد الممكن انتحالُه لأبي فارس ـ بقطع النظر عن مدى استعداداته الحربية والعسكرية ـ هو موقف ملك أرغونة وصقلية (الفونصو الخامس) من السلطنة الحفصية بعد أن أصبح أبرز مهيمن على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط لامتداد نفوذه في جنوب إيطاليا وجزر قرسكا وسردانيا وصقلية ومالطة؛ فهل كان السلطان أبو فارس يتوقع غزواً لسلطنته من قبل قوات أرغونة فاتخذ ذلك الموقف؟ على أنّ بعض المصادر تشير إلى أن هناك اتصالات وقعت بين السلطان الحفصي وملك أرغونة بُعيَدَ انتصاب هذا الملك[778] تخص تبادل الأسرى، أو حول مصادرة بضاعة تجارية تابعة لأرغونة على ظهر سفينة أرست بميناء تونس قبل أن يتوجه السلطان أبو فارس إلى تلمسان والمغرب الأقصى.

ومن جهة أخرى نجد «الفونصو الخامس» يبعث بسفارة إلى تونس سنة 827 هـ. (1424 م) للتحدث في التصالح والمهادنة بين الطرفين. وكان وصول السفارة عندما كان السلطان أبو فارس غائباً عن عاصمته أثناء انشغاله بقضية تلمسان وفاس. فلماذا وقع إرسال تلك السفارة في ذلك الوقت بالذات؟ هل كان للقيام بعملية استكشاف وتطلع على الأوضاع أو لمجرد اكتساب الأنصار ممن يمكن أن يشقوا عصا الطاعة وينتقضوا على السلطان أبي فارس أثناء غيابه؟ إنه ليس من السهل الإجابة عن ذلك. وغاية ما يذكره الزركشي في تاريخ الدولتين أنه «.. في عام سبع وعشرين (وثمانمائة) بعث سلطان النصارى القطلاني رسولاً من قبله إلى حضرة تونس برسم التحدث في الصلح، فوجد الرسول السلطان أبا فارس بالمغرب فبعث الغراب الذي جاء فيه لسلطانه يخبره بغيبة السلطان عن تونس، فبعث له الغراب. وقال له: ارجع في الحين، فرجع في الغراب فوجّه عمارة عددها خمسون جفناً وقصدوا قرقنة ونزلوا بها ليلاً على حين غفلة من أهلها..»[779].

هذا ما يقوله الزركشي في تاريخ الدولتين. أما المصادر الغربية ـ خاصة

---

(778) برنشفيك (1 :229) والحاشية رقم (3).

(779) الزركشي (126).

الإيطالية منها ـ فتذكر أن الهدف الأصلي لم يكن جزر قرقنة وإنما كان جزيرة جربة، وأن «الفونصو الخامس» بعث أخاه «بطرس» في أسطول بحري قصد الاستيلاء على جربة. ولكن ضعف إمكانياته في النجاح ـ ربما ـ وبلوغ الخبر بعودة السلطان أبي فارس جعلاه يعدل عن التوجه إلى جربة مكتفياً بالنزول في قرقنة[780].

ويذكر الزركشي أن النصارى كانوا نحو العشرة آلاف مقاتل والمسلمون نحو ألفين بين رجال ونساء وأطفال، والجزيرة ليس فيها بلد ولا حصن يمنعون فيه فوقفوا وقاتلوا عن أنفسهم وحريمهم، وقتلوا من النصارى نحو أربعمائة، وقتل منهم نحو مائتين ثم أسر بقية المسلمين واستولى النصارى على الجزيرة[781]. وكان السلطان الحفصي عائداً ـ إذ ذاك ـ من المغرب الأقصى، فلّما وصل قفصة بلغه خبر العمارة النصرانية فجدّ السير إلى صفاقس حيث اتفق وصوله ووصول النصارى إليها في وقت واحد، فشرعوا يتفاوضون معه في النزول والأمان ليتحدثوا معه في فدية من كان معهم من أسرى المسلمين، فأعطاهم أبو فارس عبد العزيز خمسين ألف دينار فدية إلّا أن النصارى أبوا قبول ذلك المقدار لأنه غير كاف في نظرهم.

وحاول شيخ أولاد حكيم المرابط ابن أبي صعنونة أن يغري السلطان أبا فارس بالقبض على أولائك النصارى وإطلاق سراح من كان عندهم من أسرى المسلمين «. . وقال له: النصارى خانوك، فإنهم بعثوا رسولهم للصلح وفعلوا ما فعلوا. وليس لخائن أمان، فالرأي عندي والصواب القبض على هؤلاء حتى يردوا المسلمين» فقال (السلطان أبو فارس): لا. لئلا يتحدث النّاس: إني خائن. نعطي الأمان ونخون. نعوذ بالله من ذلك فقال له المرابط: إذا لم تفعلها أنت نفعلها أنا تمشي أنت للصيد وأنا نأخذهم في غيبتك.

(780) برنشفيك (1 :230).

(781) الزركشي (126).

فنهاه (السلطان) وطلعوا لأجفانهم على الأمان وسافروا بـالمسلمين لبلادهم. . »[782أ].

وتختلف المصادر التاريخية في تقدير عدد الأسرى والقتلى في قرقنة وفي نتائج المفاوضات كذلك، فالمصادر المسيحية تذكر أن جملة من قتل من المسلمين في قرقنة كان سبعمائة شخص، وأن عدد الأسرى كان ثلاثة آلاف. أما المصادر الإسلامية فتذكر أن عدد القتلى كان مائتين، وأن عدد الأسرى كان ألفين. أمّا عن نتائج المفاوضات بين السلطان أبي فارس وقادة الأسطول النصراني، فالمصادر المسيحية تذكر أن نتيجة المفاوضات كانت تبادل الأسرى المسيحيين والمسلمين، بينما تذكر المصادر الإسلامية فشل تلك المفاوضات، ورجوع الأسطول الأرغوني محملاً بالأسرى الذين أتى بهم من جزيرة قرقنة[782ب].

وحسب رواية المصادر الإسلامية فإن موقف السلطان أبي فارس عبد العزيز يدعو إلى التساؤل عن أسباب ذلك الموقف، وأنه كان لا يتلاقى مع رغبة الأهالي، وعلى رأسهم المرابط ابن أبي صعنونة الذي تطوع بالقبض على أصحاب الأسطول الغازي وفكّ الأسرى المسلمين لولا أن السلطان الحفصي منعه من ذلك بدعوى أنه لا يخون أماناً أعطاه لهم.

والواقع أن موقف السلطان الحفصي كان يمثل ـ على الأقل ـ موقف الضعف أو الخوف إذْ ما معنى أن يعتدى على أرضه، وتؤسر رعاياه، ويمثُلُ أمامه أصحاب الجريمة ويتركهم يعودون سالمين متعللاً بأنه أعطاهم الأمان وهم الذين اعتدوا على أرضه ورعاياه، وأفرطوا في شروط المهادنة وتبادل الأسرى ـ فهل كان يخشى بأسهم وغزوهم لبلاده؟ وهل يضم موقفه هذا إلى موقفه الآخر ـ عندما التزم بعدم التدخل في شؤون غرناطة إذا هاجمها ملك قشتالة؟.

(782أ) الزركشي (127).

(782ب) برنشفيك (1 :230 ح 2).

مهما يكن فإن موقف أبي فارس عبد العزيز مع الأسطول الأرغوني المعتدي ـ حتى على اعتبار أنه موقف شهامة ونبل ـ لم يلق الحظوة والاعتبار عند خصومه وعند «الفونصو الخامس» بالذات، فقد ظلّ هذا الملك يحلم بالاستيلاء على جزيرة جربة وإلحاقها بمملكته الواسعة حتى تشمل كلّ جزر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بالرغم من قيام الحفصيين ـ عدّة مرات ـ بحملات انتقامية ضد الجزر التابعة لأرغونة. وكان من أهمّ تلك الحملات غزو جزيرة مالطة، ففي سنة 832 هـ. (1429 م) جهّز السلطان أبو فارس أسطولاً بقيادة مملوكه رضوان وأمره بالنزول في مالطة حيث قضوا فيها بضعة أيام[783] ولو أن الزركشي يقول: «.. وفي سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة عمّر السلطان من تونس أسطولاً كبيراً، وبعثه إلى جزيرة مالطة وأمر عليه مملوكه القائد رضوان، وأمره أن ينازلها ثلاثة أيام فإن أخذت وإلاّ رحل عنها فنازلها، وضيق عليها الحصار، ثم أقلع عنها بعد أن أشرف على أخذها..»[784].

ويبدو أن الأحداث الدّاخلية التي شغلت «الفونصو الخامس» في ممتلكاته الإيطالية هي التي أخّرته عن القيام برد الفعل. ولهذا فما إن انتهت تلك المشاغل حتى قاد بنفسه حملة عسكرية بقصد الاستيلاء على جربة.

(783) برنشفيك (1 :231).
(784) الزركشي (127).

الفونصو الخامس يغزو جزيرة جربة

بعد أن عاد «الفونصو الخامس» من جنوب إيطاليا إلى عاصمته قطلونيا، استراح مدّة ثم خرج في 23 ماي 1432 (835هـ) مارّاً على جزر الباليار الشرقية وصقلية ومالطة حتى تجمّع له عدد ضخم من المحاربين «في أمم لا تحصى» كما يعبّر الزركشي[785] ثم اتجه صوب جزيرة جربة فأرسى أمامها في منتصف شهر أوت (ذي الحجة 835). ورغم هذه الكثرة الكاثرة التي كانت معه، ورغم قلّة الجيوش الحفصية المدافعة عن الجزيرة فإن «الفونصو الخامس» وجد صعوبة في النزول، ولم يحتل كامل الجزيرة مِمّا جعل بعض المعلّقين يتساءل عن السبب في ذلك. ولعلّ كثرة ما عنده من جيش وصعوبة الإسراع بالنزول في الجزيرة أو الإقلاع منها جعلته يتخذ ذلك الموقف، علماً بأن السلطان الحفصي صادف أنه لم يكن بعيداً عن جربة إذ كان في «عَمْرَة» قرب قفصة. وكانت الأخبار قد وصلته تعلمه بتوجه ملك أرغونة إلى جربة فبعث بفرق عسكرية صحبة أحد قواده، ونزلت في الجزيرة قبل وصول «الفونصو الخامس»[785]. أما السلطان نفسُه فقد أخذ يجمّع الجيوش ويطوي المراحل حتى وصل في السابع والعشرين من ذي الحجة أي بعد عشرة أيّام من وصول «الفونصو الخامس» حسب التحديد الزمني الذي ضبطه ابن الشماع[786]. وعندما وصل السلطان أبو فارس عبد العزيز وجد العدوّ قد اجتاز

(785) الزركشي (129).

(786) الأدلة البينة النورانية (146 - 147).

القنطرة التي تصل جربة بالأرض الكبيرة. ويصف الزركشي الوضع العسكري قائلاً: «. . . فكان المولى السلطان بعساكره خارج الجزيرة والعسكر (الذي بعثه قبله) داخلها والعدوّ في البحر على طرف القنطرة وقد جعل بينه وبين المسلمين سوراً من الخشب. وكان المولى أبو فارس يجلس كلّ يوم بطرف القنطرة مع أصحابه، ويجعل بين يديه القائد نبيل بجيش معه للقتال فإذا خرج أحد من المسلمين جيء به إلى السلطان فأحسن إليه[787]. وحسب ما يفهم من كلام الزركشي فإن أولائك المسلمين الذين كانوا يخرجون من الجزيرة ويقدّمون إلى السلطان الحفصي فيحسن إليهم، وكانوا يعودون ـ بعد ذلك ـ إلى الجزيرة حيث يوجد العدو محتلاً لقسم منها. وليس من المستبعد أن البعض منهم كانوا مبعوثين من العدوّ للتجسس وحزر القوات التي توجد مع السلطان الحفصي، ثم يعودون إلى الجزيرة، ويخبرون العدوّ بحقيقة الوضع، لأن الزركشي ذكر سبباً للحادثة التي كادت تقضي على السلطان أبي فارس عبد العزيز؛ فقد ذهب أحدُ المتجسسين وأخبر العدوّ بأن أصحاب أبي فارس عبد العزيز ينصرفون عنه لمآربهم وقت القائلة، ولا يبقى معه إلاّ بعض الخواص. وانتهز العدوّ هذا الوضع ودبّر خطة للهجوم على السلطان الحفصي في القيلولة عندما يخلو مخيّمه من القوة المدافعة، فجهّز العدو عدّة سفن ونزل من فيها حيث يوجد السلطان أبو فارس مع بعض خاصته فباغتوهم بالهجوم وقتلوا البعض من تلك الخاصة منهم القائد محمد بن شيخ الموحّدين ابن عبد العزيز. ولم ينجُ السلطان إلاّ بأعجوبة فقد امتطى جواده وفرّ هارباً[788] واستولى المغيرون على عدد من السلاح والأعلام الخاصة بالسلطان وعلى عشرين منجنيقاً[789]. وهذا الحادث غريب في بابه، فهل بلغ الاطمئنان بالسلطان الحفصي وأتباعه إلى الحد الذي يجعلهم يتركونه بلا

(787) الزركشي (129 - 130).

(788) المصدر السابق.

(789) برنشفيك (1: 232).

حراسة وهو غير بعيد عن شاطىء البحر حيث توجد في الضفة الأخرى من المضيق قوات العدوّ.

وكان لفشل المغامرة التي قام بها جنود «الفونصو الخامس» أثر كبير في نفسه ونفسية جيشه لا سيما أن تلك المغامرة الفاشلة تلتها مفاجأة أخرى لم تكن في حسبان الجيوش الإسبانية الغازية، ولا حتى في حسبان قيادة الجيش الحفصي. وهي عملية دخول إمدادات من الجيش الحفصي إلى الجزيرة معززة جانب الجند الحفصي الموجود فيها. ولم تكن العملية نتيجة دراسة رسمية أو عسكرية لمنطقة القتال، وإنما كانت نتيجة خبرة بطبيعة البحر ومده وجزره هناك يعرفها البعض من سكان الجزيرة. وقد ذكر الزركشي أن أحد أهالي الجزيرة جاء إلى السلطان الحفصي - إثر الهجوم المباغت الذي كاد يودي بحياته - وأعلمه بأنـه يمكن العبور إلى الجزيرة عن غير طريق القنطرة وذلك من جهة ينحسر عنها الماء كثيراً أثناء الجزر. وانتهز السلطان أبو فارس ذلك فبعث مع المخبر مجموعة من الجنود تمكنت من عبور الماء القليل ودخلت الجزيرة معززة حاميتها الحفصية. وفـوجىء «الفونصـو الخامس» وجنوده بدخول هذا المدد الحربي إلى الجزيرة عن طريق لم يعرفوه فأسقط في أيديهم - وبدأوا يفكرون في الرحيل بعد أن خاب أملهم في إمكانية التغلّب على حامية الجزيرة والاستيلاء الكامل عليها. وليس من المستبعد أن يكون النقص في الذخيرة، وانشغال «الفونصو الخامس» بأحوال مملكته في جنوب إيطاليا أن يكون ذلك - أيضاً - مرجحاً لفكرة الإقلاع ومغادرة جزيرة جربة[790] بعد أن بقوا فيها سبعة وعشرين يوماً[791].

كانت تلك هي الصورة التي انتهت بها غزوة ملك أرغونة لجزيرة جربة. ولعلّ أهم ما يستنتج من ذلك ضعف الأسطول الحفصي؟ فبالإضافة إلى أن الحفصيين لم يعترضوا الأسطول المهاجم في عرض البحر فإنّه لم

(790) برنشفيك (1 :232).

(791) الزركشي (130).

يكن عندهم ما يكفي للقيام بعملية نزول مجابهة خاصة وهم معززون بحامية حفصية داخل الجزيرة، ولم يتم لهم الدخول للجزيرة إلا بعد الإرشادات التي مدهم بها أحد سكان جربة.

وضعف الأسطول الحفصي أمام أساطيل أرغونة وصقلية وغيرهما سوف يستمر عدة عقود أخرى تكون أثناءها سواحل السلطنة الحفصية عرضة للغزو والاحتلال إلى ظهور المغامرين البحريين الذين مهـدوا للتدخـل التركي العثماني فيما بعد.

ومهما يكن فإن فشل «الفونصو الخامس» في محاولته الاستقرار بقرقنة وخاصة بجربة أضفى على السلطان أبي فارس عبد العزيز هالة من التقدير والإكبار حتى نعته بعض المؤرخين بأنه واسطة عقد السلطنة الحفصية[792].

(792) المؤنس (138).

السلطان أبو فارس وتلمسان

لم يكن انضمام مملكة تلمسان الزيّانية إلى السلطنة الحفصية منذ سنة 1424/827، متبوعاً بالاستقرار، فالأمير الزيّاني (محمد بن أبي تاشفين) الذي نصّبه السلطان أبو فارس عبد العزيز بدل عبد الواحد بن أبي حمّو لم يبق على ولائه للسلطنة الحفصية إلاّ نحواً من خمس سنوات، وفي سنة 1429/832 قلب أمير تلمسان ظهر المجنّ للسلطان الحفصي فأعلن استقلاله وأزال اسم السلطان أبي فارس مـن الرسائل وخُطَبِ الجُمَعِ والأعياد. وهذا ما دفع السلطان أبا فارس إلى إرسال جيش حفصي ضدّ صاحب تلمسان. وقد جعلت قيادة هذا الجيش لقائد قسنطينة، وهو العلج المعروف بلقب «جاء الخير» وكان معه الأمير الزيّاني المعزول عبد الواحد بن أبي حمو، لأنّ هذا الأخير - بعد أن فرّ من تلمسان وبعد أن طوّف في الآفاق - جاء إلى تونس معتذراً عمّا قام به واستقرّ في العاصمة التونسية تحت رعاية السلطان أبي فارس بعد أن منحه عفوه وأمانه. وكان الفشل نتيجة للحملة العسكرية التي قادها العلج «جاء الخير» ضدّ صاحب تلمسان، فرجع «جاء الخير» إلى قسنطينة خائباً بينما ذهب الأمير عبد الواحد الزياني إلى الأرياف والجبال مستصرخاً قبائل العربان، فاستجاب له عدد كبير منهم فزحف بهم على تلمسان وقد أمكن للأمير عبد الواحد أن يتغلّب على تلمسان ويمتلكها. ورغم أن انتصاره على ابن أخيه (محمد بن أبي تاشفين) إنما كان بوسائله الخاصة ودون مساعدة حفصية فإنه لم يشأ إعلان استقلاله بتلمسان فبعث ببيعته وتبعيته للسلطان أبي فارس عبد العزيز. ولعلّ هذا الموقف من عبد

الواحد الزياني كان مرجعه إلى أن ابن أخيه محمد لم يقبض عليه ولم يقتله عندما انتصر عليه وافتكّ منه تلمسان، فقد أفلت منه محمد بن أبي تاشفين وفرّ إلى الجبال مستصرخاً الأعراب جامعاً للأنصار. ولهذا لم يكن عبد الواحد الزيّاني مطمئناً كامل الاطمئنان، فلم يقطع خط الرّجعة مع تونس الحفصية حتى تكون في إعانته إذا هاجمه ابن أخيه. وفعلاً فلم يلبث محمد بن تاشفين أن جمع من القوى والأنصار ما شجعه على مهاجمة تلمسان ومحاربة عمّه عبد الواحد. وقد استطاع أن يقتحم عليه المدينة، ويقتله، وينتصب من جديد على عرش مملكة بني عبد الواد الزيّانية. ولم يقف السلطان أبو فارس عبد العزيز مكتوف الأيدي أمام هذا التحدّي فخرج بنفسه - للمرّة الثانية - قاصداً تلمسان وناصبها الحصار وضيّق عليها الخناق «. . . فلمّا علم محمد (ابن أبي تاشفين) أن لا قوّة له على القيام في البلد واشتدّ عليه الحصار خرج ليلاً هارباً إلى جبل بني يزناسن. ولمّا أصبح أهل البلد فتحوا الباب ودخلها (السلطان أبو فارس) ومن معه. وبعث بقائده نبيل ابن أبي قطاية في عسكر إلى الجبل وحاصرهم إلى أن طلبوا منه الأمان على أن يمكّنوه من الأمير محمد فأنزلوه إلى المولى السلطان فعفا عنهم وقبض عليه واعتقله»[793] وحمله معه إلى تونس. وظلّ في السجن إلى أن توفي فيه[794].

وقبل عودته إلى تونس فكّر السلطان أبو فارس فيمن يوليه على تلمسان. وظلّ على رأيه الأول في عدم إلحاق تلمسان - عضوياً - بالسلطنة الحفصية فاختار لها من العائلة المالكة نفسها شخصاً آخر هو أحمد بن أبي حمّو الزياني المعروف باسم «أحمد العاقل». وقد تمّ ذلك سنة 1431/834 م. ويبدو أن هذا الأمير الجديد على تلمسان انتهز فرصة انشغال السلطان أبي فارس بنزول «الفونصو الخامس» بجربة وذهاب السلطان الحفصي إلى أقصى الجنوب فبادر متولّي تلمسان بالخلاف وأعلن انفصاله عن السلطنة الحفصية.

(793) الزركشي (129).

(794) المصدر السابق.

الفترة الأخيرة من حكم أبي فارس

اعتبر بعض الملاحظين أن العشر سنوات الأخيرة من حكم السلطان أبي فارس عبد العزيز فترة لم تعرفها السلطنة الحفصية متمثلة في قوة جيشها، وسلامة حدودها، وفي هيبتها ومتانة علاقاتها الخارجية[795]. وإذا استثنينا الأحداث التي حصلت بسبب إلحاق تلمسان بالسلطنة الحفصية والتي لا يمكن اعتبارها أحداثاً داخلية إلاّ تجـوّزا، إذا استثنينا ذلك أمكن القول بأن الاستقرار كان مستتبّاً في العهد الأخير من حكم السلطان أبي فارس اللهم إلاّ بعض الأحداث الطفيفة التي لم تعطها المصادر التاريخية شيئاً من التفصيل عن أسباب حدوثها دون أن يمنع ذلك من استنتاج أنها محاولات انتقاض أو عصيان. وقد تمثلت تلك الأحداث في كلّ من قسنطينة وطرابلس وبجاية.

ففي خصوص قسنطينة فإننا نجد السلطان أبا فارس يبعث سنة 830 هـ/1427 م رئيس دولته محمد بن عبد العزيز صحبة الأمير المنتصر بن محمد المنصور «.. برسم القبض على رئيس قسنطينة الحاج محمد الدهان لما بلغه عنه من العتوّ والطغيان واقتناء الأموال، ومعارضة ولاة الأمر وعدم الانقياد»[796]. وتلك أمور خطيرة إن لم تدلّ على الاستبداد فعلاً بشؤون قسنطينة فإنها تدلّ على بدايته على الأقل. ويبدو أن الحاج محمد الدهّان كان

(795) برنشفيك (1 :238).
(796) الزركشي (127).

له من القوة والأنصار ما يجعله يستطيع رفض إرادة السلطان الحفصي في تعويضه أو عزله. ونـدرك هذا ممّا فعله مبعوث السلطان الحفصي ورئيس دولته عندما أوفده سلطانه للقبض على الحاج محمد الدهان. فقد تظاهر هذا المبعوث الكبير بأن قدومه إلى قسنطينة كان المراد منه عزلَ القائد «جاء الخير» وتعويضَه بالأمير المنتصر قائداً على حامية قسنطينة. وانطلت الحيلة على الحاج الدهان فخرج مستبشراً بلقاء محمد بن عبد العـزيز والأميـر المنتصر ففوجىء الدهان وصحبه بالقبض عليهم وإرسالهم مقيّدين إلى تونس حيث أودعوا السجن بالقصبة[797]. واعتبر أنصار الحاج الدهان أنّ عزله عن قسنطينة إنما هو انتصار لمنافسه العلج «جاء الخير» ولهذا ثارت الذواودة ضدّه في السنة بعدها، وقتلوه في معركة جرت بينه وبينهم فعيّن السلطان أبو فارس قائداً جديداً على قسنطينة هو مملوكه محمود.

وإذا كان عزل الحاج محمد الدهّان وما تبع ذلك من حركة انتقاض الذواودة على القائد «جاء الخير» حتى قتلوه يكاد يكـون واضحَ السبب والمعطيات فإن مقتل شيخ أولاد حكيم المرابط ابن أبي صعنونة كان في غاية الغموض. ويكتفي الزركشي في كلامه عن هذا الحادث بقوله: وفي العام المذكور (833 هـ/ 1430 م) قتـل صاحب طرابلس نبيل بن أبي قطاية شيخ حكيم المرابط ابن أبي صعنونـة بصحراء طـرابلس، وبعث برأسـه إلى تونس[798]. وكان آخر عهدنا بشيخ أولاد حكيم عندما رأيناه على خلاف في الرأي مع السلطان أبي فارس بشأن الأسطول الإسباني الذي أرسى بميناء صفاقس محمّلاً بالأسرى من جزيرة قرقنة؛ فبينما كان السلطان أبو فارس متساهلاً مع أولائك الغزاة كان الشيخ ابن أبي صعنونة متصلّباً معهم. فهل كان لذلك الموقف تأثير في مصير العلاقات بين السلطنة الحفصية وشيخ أولاد حكيم؟ المصادر المتوفرة لا تشير إلى شيء من ذلـك. إلاّ أن الفقرة

(797) المصدر السابق.
(798) الزركشي (128).

الخاصة بمقتل هذا الشيخ والتي نقلناها عن الزركشي يمكن أن يُستروح منها أنّ ابن أبي صعنونة ساءت علاقاته مع السلطنة الحفصية ـ أو على الأقل ـ مع صاحب طرابلس الحفصي العلج نبيل بن أبي قطاية. وقد جاء في تلك الفقرة أن مقتل ابن أبي صعنونة كان في صحراء طرابلس. كما جاء فيها أن القائد نبيل بعث برأس أبي صعنونة إلى تونس. وهذا شيء معتاد مع المناهضين والمتمرّدين في تلك العهود. فهل يعني ذلك أن شيخ بني حكيم شقَّ عصا الطاعة ـ بطرابلس على الأقل ـ وتوغل في الفيافي حتى أدركه القائد نبيل واحتزّ رأسه ليقدم البرهان على أنه وقع التخلّص من هذا الثائر المشاغب إذ لو كان هنالك انقياد أو انسجام من هذا الشيخ مع السلطان أبي فارس لما بعث عامله في طرابلس برأسه إلى العاصمة.

هذه ـ إذن ـ هي أهم الأحداث الداخلية التي وقعت في العهد الأخير من حكم السلطان أبي فارس عبد العزيز. وواضح أنها لم تبلغ من القوة والعنف والاستمرار ما بلغته الأحداث التي جابهها السلطان أبو فارس في أول عهده بالسلطنة أي في السنوات الثلاثين الأولى من جلوسه على عرش بني حفص.

أمّا ما حدث في بجاية فإنه يتصل بقضية ولاية العهد التي كان لها ـ في الغالب ـ آثار كبيرة في مجرى تاريخ السلطنة الحفصية.



المدرسة المنتصرية (الصحن وباب المسجد) أسسها محمد المنتصر وأتمها أخوه أبو عمرو عثمان.

ولاية العهد ووفاة أبي فارس

عندما عاد السلطان أبو فارس إلى العاصمة بعد رحيل «الفونصو الخامس» عن جربة كانت الأحداث في تلمسان ما تزال تدعوه إلى فض مشكلها بعد أن أعلن صاحبها أحمد بن أبي حمّو موسى انفصاله عن السلطنة الحفصية بينما كان السلطان أبو فارس في أقصى الجنوب مشغولاً بنزول «الفونصو الخامس» في جربة. ولهذا فما إن عاد إلى العاصمة حتى عزم على التوجه إلى تلمسان للمرّة الثالثة. وجهّز ـ فعلاً ـ جيشاً لذلك الغرض واتجه به صوب تلمسان لولا أن الموت فاجأه وحال بينه وبين ما أراد، ففي صبيحة عيد الأضحى من سنة 837 (18 جويلية 1434) وفي الموضع المعروف باسم «ولجة السدرة» قرب جبل ونشريس من عمل تلمسان وقبيل الخروج إلى صلاة العيد أدرك الموت ـ فجأة ـ السلطان أبا فارس عبد العزيز في الخامسة والسبعين من العمر قضى منها إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام في الحكم. وقد استطاع خلال هذه المدّة الطويلة من الحكم أن يجاهد في سبيل جمع السلطنة الحفصية والحفاظ على وحدتها وأن يكسب دولتَه حسن السمعة والذكر الجميل في المشرق والمغرب رغم المحاولات الانفصالية التي جابهته في عهده الأول، ورغم المحاولات الأجنبية للنيل من سيادته على أرضه في عهده الأخير.

وكان السلطان أبو فارس قد عمل على إبعاد إخوته عن النفوذ كما تقدم في صفحات سابقة. وعيّن ابنه محمد المنصور ولياً للعهد من بعده لما

استنجبه فيه من حميد الخصال، وحسن الاستعداد لتسيير شؤون الدولة. وقد نوّه بخصال هذا الأمير أغلب مؤرخي ذلك العهد خاصة ابن الشماع في «الأدلّة البينة النورانية» فقد جاء فيها قوله: «.. وكان موصوفاً بالعفاف من صغره، محبّاً في الخير وأهله، مجبولاً على فعله، مواضباً على أفعال البر، مثابراً على الجهاد، أنشأ أساطيل كثيرة أغار بها على أرض العدو، وشحنها بالخيل والرّجال ونكل بهم، كما عدّد له أنه أنشأ زاوية بالسيجومي في غاية من الحسن والإتقان، وعمل فيها جامِعاً للخطبة، ودرساً لقراءة العلم، ورباطاً لسكنى طلبة العلم وقراءة القرآن وأوقف عليها حبساً قويّاً، وجعل فيها سماطين للمقيمين فيها والواردين عليها. وكان تلقيبه بالمنصور دليلاً على منزلته وكفاءته[799]. ولكن الموت المفاجىء حال بينه وبين الوصول إلى الحكم. فقد توفّي بوطن طرابلس في الثاني والعشرين من شهر رجب 833 (16 أفريل 1430) دون أن تعطي المصادر التاريخية المعروفة توضيحات عن تلك الوفاة، ويقدر «برنشفيك» أن وفاة ولي العهد الحفصي لا تبعد عن الأحداث التي انتهت بمقتل ابن أبي صعنونة في صحراء طرابلس[800] ولعلّ ذلك يؤكد ما استنتجناه عن مقتل شيخ أولاد حكيم على يد ابن أبي قطاية عامل طرابلس. خاصة أن مقتل ابن أبي صعنونة كان في نفس السنة التي ذكرت فيها وفاة ولي العهد محمد المنصور بن أبي فارس عبد العزيز. كما أن عبارة ابن الشماع من أنه «.. مات سعيداً شهيداً تقوّي من ذلك الاستنتاج»[801].

وتأثر السلطان أبو فارس لوفاة ولي عهده غاية التأثر، وحوّل ولاية العهد لحفيده محمد المنتصر بن محمد المنصور مِمّا أغضب ابنه المعتمد المتولّي على بجاية إذ ما إن بلغته وفاة أخيه المنصور حتى أغذّ السير إلى العاصمة طمَعاً في ولاية العهد، ولو أنه كان يتظاهر بأنه جاء للتعزية. لكنه وجد الأمر

---

(799) الأدلة (147 - 148).

(800) برنشفيك (1 :239) وانظر فقرة التعليق (798).

(801) الأدلة (148).

منتهياً بتعيين محمد المنتصر ابن أخيه المنصور فعارض في ذلك، وتلكّأ في العودة إلى بجاية مِمّا جعل والدَه أبا فارس يعتقله بالعلوّ الكائن بسقيفة سانية باردو، وعيّن بدله على بجاية أحد مماليكه، هو القائد أبو نعيم رضوان[802] بعد أن ظلّ أميراً عليها منذ سنة 824/ هـ. (1421 م). فلماذا حوّل السلطان أبو فارس ولاية العهد لحفيده المنتصر دون غيره؟ إنه يعلم ما انجرّ من أحداث عن مثل هذا التحويل ابتداءً مما صنعه هو وإخوتُه مع أخيهم أبي بكر الذي كان ولياً للعهد في حياة والدهم.

(802) الزركشي (128 - 129).

أعمال أبي فارس العمرانية والاجتماعية

قبل الإجابة عن السؤال المطروح حول ما انجرّ من أحداث نتيجة تحويل السلطان أبي فارس لولاية العهد من الأبنـاء إلى الأحفاد يحسن التعرض للمجد العمراني والاجتماعي الذي تمّ في عهد هذا السلطان الذي اعتبر عند بعض المؤرخين واسطة عقد السلطنة الحفصية.

ففي مجال العمران عدّد له المؤرخون الكثير من الآثار والمزايا من ذلك بناؤه للزاوية التي كانت تقع خارج باب البحر بعد أن كانت ماخوراً يدرّ على خزانة الدولة عشرة آلاف دينار، فحول ذلك الماخور إلى مكان تقام فيه الصلاة وتدريس العلم وقراءة القرآن وسكنى الطلبة، وأوقف عليها وقفاً مؤبداً يكفيها، وجعل فيها سماطاً جارياً للمقيمين فيها والواردين عليها[803].

ومن ذلك بناؤه للماجل الكبير بمصلّى العيدين خارج باب سيدي عبدالله. يقول عنه الزركشي: إنه من الأبنية الضخمة التي قلّ أن يبنى مثلها. وأخرج منها سبيلين للماء أحدهما لشرب العطاش من جعب النحاس يجذب منه الماء بالنفس، والآخر مورد لمن يرده بقربة أو غيرها[804] كما بنى سقاية خارج باب الجديد من تونس ترد بها الناس والدواب، وأوقف عليها أوقافاً تقوم بها. يقول الزركشي: ومنها بناؤه الزاوية التي خارج باب أبي سعدون

---

(803) الأدلة (145) وانظر الزركشي (116).

(804) كان يقع هذا الماجل قرب الملاسين اندثر الآن وأصبح مكانه منطقة سكنية.

بحومة باردو، وجعلها منهلاً للوارد من أي أفق كان يأوي إليها عشية إلى أن يشخص من هنالك سحراً وحبّس عليها ما يقوم بها، ومنها بناؤه للزاوية التي بحومة الدّاموس خارج باب علاوة المعروف بالشيخ الصالح سيدي فتح الله جعلها ملجأ للواردين من تلك الجهة إذا لم يقدروا على الوصول إلى المدينة.

ومنها بناء محارس جميلة تحوط ثغور المسلمين كمحرس آدار والحمامات وأبي الجعد ورفراف وغير ذلك[805].

وفي الميدان الثقافي كان من أهمّ إنجازات السلطان أبي فارس عبد العزيز إقامته لمكتبة عامّة بالمجنّبة الهلالية بجامع الزيتونة، مشتملة على أمهات الكتب والدواوين جلبها من القصر السلطاني وأودعها المكتبة المذكورة، وأوقفها على الطلبة ينتفعون منها بالنظر والنسخ بشرط ألاّ يخرج منها أي كتاب خشية أن تضيع. وجعل للمكتبة المذكورة قيّمين يقومون برعايتها ونفضها ومناولتها للمطالعين والمراجعين. وأوقف على المكتبة المذكورة أوقافاً كثيرة تصرف منها أجرة القيّمين بما يكفيهم ويصرف الباقي على الكتب ولوازمها[806].

ومن إنجازات هذا السلطان إزالة الكثير من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الأسواق تثقل كاهل الشراة والمستهلكين. وإذا اختلفت مقادير تلك المكوس عند بعض المؤرخين فإنّها تتجاوز الثلاثين ألف دينار على كلّ حال. وعن ذلك يتحدث الزركشي بقوله:

«.. ومنها ما ترك من المجابي لوجه الله سبحانه فمنها مجبى سوق الرهادنة. وكان قدره ثلاثة آلاف دينار ذهباً في كل عام. ومجبى فندق الخضرة وقدره ثلاثة آلاف دينار ذهباً. ومجبى سوق العطارين وقدره مائتان

(805) الزركشي (116).
(806) الأدلة (144).

وخمسون ديناراً ذهباً. ومجبى فندق الملح وقدره ألف دينار ذهباً ونصف الألف. ومجبى فندق البياض (أي الفحم) وقدره ألف دينار ذهباً. ومجبى قائد الأشغال وقدره ثلاثة آلاف دينار ذهباً. ومجبى سوق القشاشين وقدره مائة دينار ذهباً. ومجبى سوق الصفارين وقدره خمسون دينار ذهباً. ومجبى سوق العزافين وقدره خمسون ديناراً ذهباً. ومجبى الصابون وقدره ستة آلاف دينار ذهباً، وأبيح للناس عمله بعد أن كان عمله محصوراً متوعَّداً فاعله بالعقوبة المالية والبدنيـة.

وترك ما كان على المنكر من خراج كالشرطة[807] كان غير واحد من المساكين التزمها بثلاثة دنانير ونصف الدينار ذهباً في كلّ يوم.

وفي نطاق الحفاظ على الأخلاق العامّة أمر السلطان أبو فارس بغلق المواخير والحانات، وأجلى المغنيات والمخنثين من البلاد «.. لما بلغه عنهم من عمل المناكر» مستغنياً كذلك عمّا يستخلص منهم من مجابي ومكوس. هذا بالإضافة إلى ما تقدّم من أن السلطان أبا فارس كان يقدم مساعدة سنوية لمسلمي الأندلس تتمثل في ألفي قفيز من الطعام وما يلزمها من زيوت وشحم وغير ذلك[808].

هذا أهمّ ما أثبته المؤرّخون من أعمال عمرانية وثقافية واجتماعية قام بها السلطان أبو فارس عبد العزيز مِمّا جعل أولائك المؤرّخين ـ بالقياس إلى غيره ـ ينوّهون به كثيراً، ويضفون عليه نعوت الثناء والمدح. وإذا نحن تركنا أقوال المؤرخين المعاصرين له جانباً فإننا نجد ابن أبي دينار ـ مثلاً ـ يتحدث عنه في المؤنس بقوله: «.. ما أطلت الكلام في هذا المحل إلاّ لكون هذا الإمام هو واسطـة بنـي أبي حفص وإذا ذكرت خلافة الحفصيين بدونه يظهر

(807) عرف صاحب تحفة الأريب الشرطة بأن حاكم المدينة كان يستعمل أعواناً للتنفيد يستخلصون أجرهم من الناس ويدفعون منه للحاكم الثلاثة دنانير والنصف. (الزركشي 117 ح 5) وانظر دوزي (مادة شرط).

(808) الزركشي (116).

في خلافتهم النقص»[809] ويجعله ابن أبي الضياف من مفاخر قومه[810]. وهو عند حسن حسني عبد الوهاب «.. درّة عقد الدولة الحفصية، ومفخرة من مفاخر البلاد التونسية. سار بعدل وسياسة وتدبير فازدهت إفريقية في أيامه، وبلغت شأواً بعيداً في الثروة والعمران..»[811].

والواقع أنّ الأعمال التي أنجزها أبو فارس عبد العزيز تقيم الدليل على ما يمكن أن يقدمه استمرار الحكم، وقوة الحاكم من إصلاحات وإنجازات تعود على المصلحة العامة والأفراد بالخير والفائدة. وهو ما لوحظ فقدانه في فترات عديدة وعهود كثيرة أيام السلطنة الحفصية قبل السلطان أبي فارس عبد العزيز وبعده.

---

(809) المؤنس (138).

(810) الاتحاف (1 :182).

(811) الخلاصة (119).

الفصل العاشر

عهد السلطان أبي عمر عثمان

السلطنة الحفصية بعد أبي فارس

إن التساؤل عن مصير السلطنة الحفصية بعد وفاة السلطان أبي فارس لا يخلو من مبرّر لا سيما بعد أن أصبح حفيدهُ محمد المنتصر وليّاً للعهد خلفاً لوالده محمد المنصور الذي كان يعلّق عليه أبو فارس عبد العزيز كبيرَ الآمال. ولكنّ المدّة القصيرة التي ظلّ فيها محمد المنتصر وليّاً للعهد كانت غير كافية للمزيد من التجربة والممارسة مثلما فعل أبوه من قبل. وكانت المهمّة الوحيدة التي ذكرها المؤرخون كمظهر من مظاهر التجربة والدربة أنّ جدّه السلطان أبا فارس أرسله مع رئيس دولته (الشيخ ابن عبد العزيز) إلى قسنطينة لعزل صاحبها الحاج محمد الدهّان والإتيان به مقيّداً إلى تونس العاصمة صحبة أنصاره وكبار مؤيديه. ولم تكن المدة الفاصلة بين وفاة ولي العهد محمد المنصور في بلاد طرابلس (22 رجب 16 أفريل 1430/833) وبين وفاة السلطان أبي فارس (10 ذي حجة، 18 جويلية 1434/837) تزيد على الأربع سنوات وبضعة أشهر. إلا أنّه رغم كل ذلك ـ ورغم صغر سن ولي العهد الجديد ـ فقد أمكن له ـ بمساعدة رجال الدولة بالطبع ـ أن يتربّع على عرش السلطنة الحفصية خلفاً لجدّه السلطان أبي فارس.

كان محمد المنتصر موجوداً مع جدّه أبي فارس في الجيش الذي سار به هذا الأخير إلى تلمسان قصد الإطاحة بأحمد العاقل الذي أعلن استقلاله واستبداده بمملكة تلمسان. ومعنى ذلك أن محمد المنتصر كان موجوداً في «ولجة السدرة» الغير بعيدة عن تلمسان عندما توفّي جدّه فجأة يوم عيد

الأضحى من سنة 837. وكان التصريح بوفاة السلطان ـ إذ ذاك ـ لا يخلو من مخاطر إذ من الممكن أن يضطرب الجيش، أو تدبر مؤامرة ضد محمد المنتصر قبل أن تتم له البيعة من أهل الحلّ والعقد الموجودين معه. ومن ناحية أخرى فإن وجودهم على مقربة من تلمسان وبعدهم عن العاصمة بمسيرة عشرين يوماً[812] قد يشجع صاحب تلمسان (أحمد العاقل) على انتهاز الفرصة ـ إذا حدث أي شغب في الجانب الحفصي ـ ويبادر هو بالهجوم ويفتِكُ بالحفصيين.

ولعلّ الأشد خطراً من كلّ ذلك أن المنافس الأول لمحمد المنتصر في خلافة السلطان أبي فارس (أعني عمّه المعتمد) كان معتقلاً في نفس الجيش الذي كان متجهاً إلى تلمسان؛ فماذا يكون موقف هذا المنافس رغم اعتقاله وحبسه إذا علم بوفاة والده؟.

من المرجح أنّ كلّ هذه الاعتبارات هي التي جعلت محمد المنتصر يأمر بكتمان وفاة جدّه. ويخرج هو ليؤم النّاس في صلاة العيد، ويعلمهم بقرار العودة إلى تونس لأن جدّه مريض وأنهم سيعودون به محمولاً على محفّة. وظلّ السر مكتوماً إلى أن بدأ يتسرب شيئاً فشيئاً حتى وصل المعتمد فدبّر حيلة للفرار، وتمكن من ذلك، وغادر سجن المحلّة. وما إن علم محمد المنتصر بذلك حتى بعث بالجند وراءه فتمكّنوا من القبض عليه والإتيان به، فبادر المنتصر باعتقاله والانتقام منه بتكحيل عينيه بالنّار. وبذلك اطمأن المنتصر بالقضاء على أكبر منافس له فأعلن ـ إذ ذاك ـ عن وفاة جدّه وبايعه الناس سلطاناً حفصياً. ثم أمر بغسل جدّه وتكفينه، وبعث به قبله إلى تونس حيث ووري التراب حذو قبر والده محمد المنصور بالتربة المجاورة لضريح محرز ابن خلف[813].

أمّا السلطان الجديد (محمد المنتصر) فقد تابع سيره سالكاً طريق

(812) ابتسام الغروس (208).
(813) الزركشي (131).

الجنوب فمرّ على مدينة المسيلة وعندها جاءته البيعة من قسنطينة. وعندما وصل هذه المدينة جاءته البيعة من الحاضرة تونس فاستبشر بذلك كثيراً وقرىء نصّ البيعة على الملأ في الجامع الكبير بقسنطينة[814]. ثم شرع في تغيير عمّاله ورجال دولته فعيّن على بجاية عمّه أبا الحسن علي ابن أبي فارس، وعزل القائد محمود عن قسنطينة وعيّن عوضه شقيقه أبا عمرو عثمان.

وكان أهمّ ما قام به السلطان محمد المنتصر - في إبعاد المشبوه فيهم - أنه اعتقل أخاه لأبيه (أبا الفضل) كما اعتقل ابن الشيخ محمد بن عبد العزيز رئيس الدولة. وكان أبو الفضل نفسه حفيداً لشيخ الموحّدين مجمد بن عبد العزيز، في الوقت الذي كان فيه هذا الشيخ ينوب السلطان أبا فارس في تونس منذ أن سافر إلى تلمسان. وكان من الطبيعي أن يغتاظ شيخ الموحّدين لما فعله السلطان الجديد بابنه وحفيده، وأن يتوجس منه محمد المنتصر خيفةً من ردّ فعل عنيف يقوم به ضدّه لا سيما بعد أن وصل الهاربون إلى تونس وأخبروه باعتقال ولده وحفيده. ولهذا فإننا نجد السلطان الجديد يبعث بقائدين من قوّاده العلوج هما أبو الفهم نبيل، وأبو الثناء محمود إلى تونس العاصمة قبل أن يستفحل أمر شيخ الموحّدين، وفعلاً فما إن وصل القائدان حتى وجدا العاصمة مغلقة الأبواب في وجهيهما، وانتصب المقاتلون على أبوابها وأسوارها. وبدا كأن شيخ الموحّدين يعتزم المقاومة والامتناع من قبول جيش محمد المنتصر بينما كان في حقيقة الأمر يدبّر خطة للفرار مع أولاده وخاصته. وأمكن له أن يغادر العاصمة تحت جنح الظلام وقت العشاء ففتحت المدينة أبوابها للقائدين نبيل ومحمود. وعاثت العامّة في ديار الشيخ ابن عبد العزيز نهباً وفساداً.

ويبدو أن فرار الشيخ ابن عبد العزيز كان نتيجة يأسه من الانتصار والثبات على المقاومة، ومن عدم وجود السند المعنوي الذي يجعل العامّة

(814) المصدر السابق.

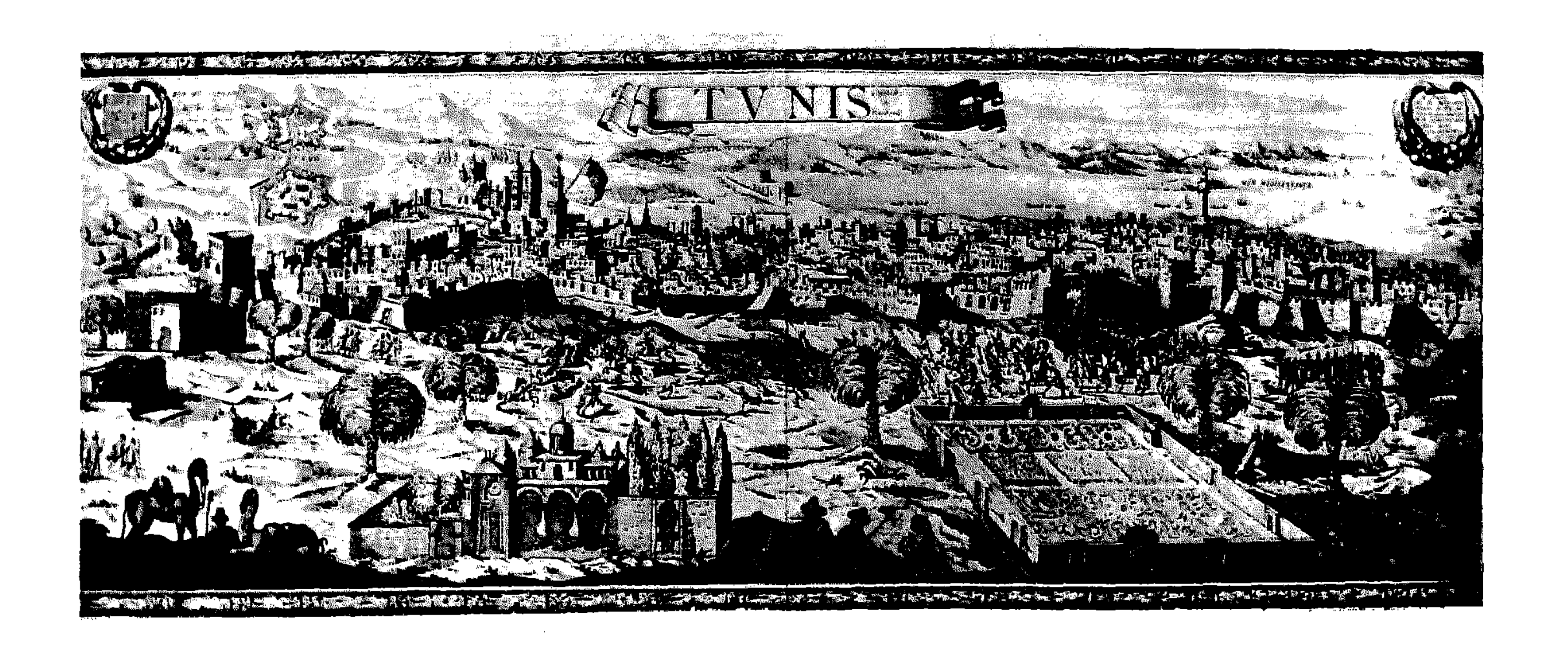
وسكان العاصمة يقفون معه. ويمكن استرواح ذلك مِمّا جاء في كتاب «ابتسام الغروس في مناقب الشيخ أحمد بن عروس»[815] فعند وصول القائدين نبيل ومحمود إلى العاصمة بعث الشيخ ابن عبد العزيز إلى المتصوّف أحمد بن عروس يستطلع رأيه أو يطلب المساندة، أو حتى يعرف مستقبله حسب زعم مؤلف الكتاب إلاّ أن الشيخ أحمد بن عروس لم يستجب لما طلب منه، ولم يساعده على جلب الأنصار حوله مِمّا جعل الشيخ ابن عبد العزيز يبعث ليلاً بزوجته مع بعض حاشيتها من النساء يتوسلن إلى الشيخ أحمد بن عروس إلاّ أنه أصرّ على موقفه. وإذ ذاك يئس الشيخ ابن عبد العزيز من كسب سندٍ معنوي يساعده على الوقوف ضدّ السلطان الجديد، وهذا الموقف ـ فيما نقدّر ـ هو الذي جعل الشيخ ابن عبد العزيز يقرر الفرار تحت ستار الظلام صحبة أولاده وعياله وحشمه ملتجئاً إلى الأعراب في جنوب الوطن القبلي ما بين وادي الرّمل وسوسة[816] إلاّ أن الأعراب غدروا به فقبضوا عليه، وبعثوا يخبرون تونس بما تمّ عندهم فجاءهم القائد نبيل واصطحب معه الشيخ ومن معه وأودعهم سجن القصبة إلى أن هلكوا جميعاً[817].

---

(815) تأليف عمر بن علي الراشدي طبع في تونس 1303 هـ.

(816) ابتسام الغروس (208).

(817) الدولتين (132) وفي «ابتسام الغروس» (208) ما يفيد أن الشيخ مات مقتولاً.



خريطة لمدينة تونس في عهد الحماية الاسبانية تمثل المدينة والأسوار والقصبة.

عودة الأعراب إلى الانتقاض

كان قدوم السلطان محمد المنتصر إلى العاصمة في العاشر من محرم سنة 838 (16 أوت 1434) فاستقبله الناس بحفاوة وجدّدت له البيعة العامّة. وحاول استرضاء الناس وجَلْب عطفهم فأطلق سراح الكثير من المساجين، وتصدّق بالأموال الطائلة على طلبة العلم والفقراء والمساكين[818] وعهد بأكبر منصب إداري ـ وهو الحجابة ومشيخة الموحّدين ـ إلى محمد ابن أبي هلال[818]. ولكنّ التغييرات الإدارية التي أحدثها المنتصر الحفصي ـ بالإضافة إلى الاعتقالات التي شملت العديد من أقاربه وإخوته ـ أحدثت شيئاً من التذمّر في البلاد، وهيأت الظروف لعودة الأعراب إلى الظهور من جديد بعد أن خضد شوكتَهم جدُّهُ السلطان أبو فارس عبد العزيز، كما أن موقفه ضد أفراد العائلة الحفصية جعل هؤلاء الأخيرين لا يشعرون بالاطمئنان إليه. وبدأ التململ فعلاً في أوساط الأعراب مما دفع بالسلطان المنتصر إلى القيام بسفرة تفقدية داخل البلاد على أمل اكتساب الهيبة، وتحذير من تحدثهم أنفسهم بالفتنة، ففي نفس السنة التي وصل فيها تونس (1434/838) خرج محمد المنتصر «... في جيش عظيم برسم تفقّد البلاد وتهدين الأوطان» حسب عبارة الزركشي[819] حتى وصل ناحية قفصة بعد أن انجلت

(818) الزركشي (132).

(819) ص (132).

من بين يديه جميع الأعراب والمفسدين حسب عبارة ابن الشماع[820]. وهي عبارة صريحة في بيان سبب خروجه إلى تلك النّواحي لما كثر فيها من العيث والفساد. إلّا أن مرضاً أصابه قبل دخوله مدينة قفصة أجبره على الإقامة بها أيّاماً طلباً للرّاحة والشفاء. وأثناء إقامته «أمر بصدقة مال على الفقراء والمساكين وطلبة العلم[821]. ولم تتركه الأحداث ينال نصيبه من الرّاحة والإبلال إذ حدث ما هو أشد خطراً عليه من انتقاض الأعراب فاضطر محمد المنتصر إلى مغادرة قفصة ـ رغم مرضه ـ متجهاً إلى تونس العاصمة.

(820) الأدلة (155).

نهاية محمد المنتصر الحفصي

لم يكن الحدث الذي عجّل بعودة السلطان محمد المنتصر من قفصة ـ رغم مرضه ـ سوى فرار أخوين من الأمراء الحفصيين كانا معه ضمن جيشه الذي اصطحبه معه إلى الجنوب الغربي. ومن المحتمل[822] أن هذين الأميرين هما حفيدان لأبي يحيى زكرياء عمّ السلطان أبي فارس عبد العزيز الذي اعتقله هذا الأخير إثر انتصابه على عرش السلطنة، وكان ابنه محمد والياً على عنّابة فحاول الانتقاض لكنّ السلطان أبا فارس تغلب عليه. ويبدو أن الحفيدين لم ينسيا ما وقع لجدّهما أبي يحيى زكرياء وأبيهما محمد. وعندما أحسا بضعف الدولة بعد وفاة أبي فارس عبد العزيز، وبتململ الأعراب بعد تلك الوفاة، فرّا من جيش محمد المنتصر، والتحقا بأعراب أولاد أبي الليل، وبعثا فيهم من جديد النزوع، إلى الفتنة والعصيان.

وخاف محمد المنتصر أن يتقوّى أمر هذين الأميرين الثائرين، ويستوليا على العاصمة تونس فما كان منه إلاّ أن بادر بإرسال أحد قواده ليحمي العاصمة من السقوط. وغادر هو قفصة ـ رغم مرضه ـ ملتحقاً بتونس. وجزم محمد المنتصر بأنه لا يستطيع مجابهة الوضع الجديد بمفرده فبعث يستنجد بأخيه ونائبه في قسنطينة (أبي عمرو عثمان) ليجابها معاً هذه الثورة التي

(822) هنالك غموض في التسلسل النسبي لهذين الأخوين قارن ما بين الزركشي (132 - 133) وبرنشفيك (1 : 241 ـ ح ـ 1).

اندلعت ضدّ السلطة المركزية مدعّمة بالأعراب من أولاد أبي الليل.

وأسرع صاحب قسنطينة (أبو عمرو عثمان) بنجدة أخيه محمد المنتصر بعد أن عيّن على قسنطينة نائباً عنه القائد أبا علي منصور المعروف بالمزوار. ثمّ صرفه عَنها وعقد عليها للقائد نبيل بن أبي قطاية[823].

وعندما تعزز جانب محمد المنتصر بنجدة أخيه استعدّ لمجابهة أولاد أبي الليل الذين يواجهونه تحت راية أميرين من بني حفص فجهّز محمد المنتصر لأخيه عثمان جيشاً وعقد له عليه. وتهيأ أبو عمرو عثمان لمجابهة الثوار إلاّ أن هؤلاء بادروه بالقتال قرب جبل الريحان قبل أن يستكمل عدّته ويلتحق به سائر جيشه فأوقعوا بجنده وهزموه، وقتلوا الكثير منهم كان من جملتهم الفقيه ابن حجر أحد أصحابه[824] وعاد أبو عمرو عثمان مهزوماً إلى العاصمة دون أن ييأس من مواصلة قتال الثوار. إلاّ أنه عدل عن خطته الأولى في مجابهة أولاد أبي الليل إذ اقتنع بأنه لا يمكنه مجابهتهم بقواته الخاصة فأخذ يبحث عن حلفاء له من الأعراب حتى يتمكّن من التغلّب عليهم بقوة تضاهي قوتهم. ولم تكن هذه القوة سوى أولاد مهلهل الخصوم التقليديين لأولاد أبي الليل فقد استجاب أولاد مهلهل للتحالف المعروض عليهم من الأمير عثمان الحفصي فأقبلوا معه على العاصمة لتقوية صفوفه. لكنّ أبا عمرو عثمان فوجىء بأن العاصمة ضرب عليها الحصار أولاد أبي الليل بقيادة أبي يحيى زكرياء الحفصي وأخيه، وأن أخاه السلطان محمد المنتصر كان ـ رغم مرضه ـ يتكلّف الركوب ويخرج إلى المهاجمين مع أهل تونس يقاتلهم بسبخة باب خالد[825].

وعندما علم أولاد أبي الليل بقدوم أبي عمرو عثمان وحلفائه أولاد مهلهل أيقنوا بأنهم لا يستطيعون المجابهة لهذا قرّروا رفع الحصار عن

(823) الزركشي (133).

(824) المصدر السابق (133) وانظر هامش الأدلة البينة (157) حول هوية هذا الشخص.

(825) سبخة السيجومي.

العاصمة والانسحاب عنها قبل أن يدركهم أبو عمرو عثمان وحلفاؤه. وفعلاً، فعندما وصل أبو عمرو عثمان لم يجد ما يحول بينه وبين دخول العاصمة. واستقْبِل بالحفاوة والتعظيم من كافة أهالي العاصمة، وعظمت منزلته عندهم باعتباره المنقذ لهم من احتلال أولاد أبي الليل لمدينتهم خاصة بعد طول الأمد ـ منذ عهد السلطان أبي فارس ـ على قطع الشغب الذي كانوا يرهبون به العاصمة في السابق.

ولم ييأس أبو يحيى زكرياء الحفصي وأخوه من مواصلة الانتقاض رغم الفشل الذي منيا به في محاصرة تونس. ولهذا عزما ـ مع أولاد أبي الليل ـ على القيام بمحاولة أخرى لمحاصرة تونس. وما إن بلغ الخبر السلطان محمد المنتصر حتى جهّز أخاه عثمان من جديد للتصدّي للمغيرين في الوقت الذي كان فيه أبو يحيى زكرياء وأولاد أبي الليل متجهين إلى تونس بعد أن تجمّعوا في القيروان.

وفي مكان يدعى «الكرومة» لا يبعد كثيراً عن العاصمة التقى الجمعان فكانت الهزيمة على المنتقضين وقتل منهم خلق كثير وفرّ باقيهم من الميدان[826]. وبعد هذه الهزيمة الثانية أيقن الأمير أبو يحيى زكرياء وأخوه بأن لا أمل لهما في تحالفهم مع أولاد أبي الليل فقررا الذهاب إلى مناطق قسنطينة. ونزلا عند الذواودة مستجيرين بهم. وقد ظلا هنالك بضعة أشهر حتى وفدا على تونس مع شيخ الذواودة عيسى بن محمد متشفّعاً لهما. وقبل محمد المنتصر تلك الشفاعة متظاهراً لهما بالعفو إذ سرعان ما وقع التراجع عن ذلك فقبض عليهما وأودعهما السجن حيث هلكا في ظروف غامضة لم توضحها المصادر المتوفرة.

لكن إذا نحن عرفنا أن محمد المنتصر كان يشكو المرض منذ ذهابه إلى قفصة، وأن ذلك المرض ما يزال يشتدّ به شيئاً فشيئاً، وأن مقاومة

(826) الزركشي (133) والكرومة والكرائم تطلق عادة على الأحواز القريبة من المدينة.

الثائرين الحفصيين بمناصرة أولاد أبي الليل كانت مقامة على كاهل أخيه وولي عهده أبي عمرو عثمان، إذا عرفنا كلّ ذلك يمكن لنا أن نستنتج أن التراجع عن العفو الذي منحه محمد المنتصر لأبي يحيى زكرياء وأخيه إنما كان من تدبير حاشية السلطان ومن ولي العهد خاصة. وهو الذي أصبح ارتقاؤه على عرش السلطنة قاب قوسين أو أدنى لشدة المرض بأخيه. وبذلك يزيل أبو عمرو عثمان تلك العقبة من طريقه بواسطة أخيه السلطان المتهالك، والذي وافاه الأجل في الثاني والعشرين من صفر 839 (16 سبتمبر 1435) بعد أمّه العلجية «ريم» المتوفاة في السادس عشر من شهر صفر المذكور، وبعد أن قضى هذا السلطان في الحكم سنة واحدة، وشهرين واثني عشر يوماً[827].

ونظراً لقصر مدّة محمد المنتصر وقضاء الكثير منها مريضاً فلم تسجل له آثار كثيرة سوى بناء سقاية للماء داخل باب أبي سعدون، والشروع في بناء مدرسة قرب سوق الفلقة وقع إتمامها بعد وفاته. وهي المدرسة المنتصرية الموجودة حالياً قرب سوق النحاس بالعاصمة، والتي تم إنجازها في عهد أخيه عثمان. كما أمر ببناء زاوية للشيخ أحمد بن عروس الذي كان حيّاً إذ ذاك، وكان له مقام واحترام لدى السلطان محمد المنتصر حتى أنه كثيراً ما كان يوصي بحفظ ما يتكلّم به الشيخ المذكور وكتبه وإنهائه إليه[828] ويذكر صاحب ابتسام الغروس أن الزاوية التي بناها المنتصر للشيخ أحمد بن عروس كانت - في الأصل - فندقاً به الخناء وأنواع الفسوق ما لم يكن في غيره من الفنادق وأن أحمد بن عروس كان يسكن في ذلك الفندق[829].

(827) في الأدلة (11 يوماً) وفي الزركشي أن وفاته (12 صفر) ويبدو أنها في الأصل (22) خاصة أنه يذكر وفاة أمّه قبل ذلك بتاريخ (16) صفر.

(828) ابتسام الغروس (441).

(829) ابتسام الغروس (829).

السلطان عثمان الحفصي

عندما توفّي السلطان محمد المنتصر تولّى السلطنة بعده شقيقُه أبو عمرو عثمان[830] إذ بويع صبيحة وفاة أخيه على رضىً من الخاصة والعامة ولم يتخلف عنه أحد. وكان له من العمر سبعة عشر عاماً وأربعة أشهر وخمسة عشراً يوماً[831]. هذا حصيلة ما قاله كل من الزركشي في تاريخ الدولتين، وابن الشماع في «الأدلّة البيّنة النورانية» أي إنه رغم سنّ هذا السلطان فإن بيعته كانت محلّ رضى الخاصة والعامة ولم يتخلف عنها أحد. فهل كل ذلك نتيجة السمعة التي أحرزها بانتصاره على أولاد أبي الليل والقبض على الأمير أبي يحيى زكرياء وشقيقه؟ قد يستبعد أن يكون ذلك وحده كافياً لحصول ذلك الإجماع من أهل الحلّ والعقد في الدولة. وإذا صحّ ما نقله بعضهم[832] من أنّ انتصاب أبي عمرو عثمان سلطاناً بعد أخيه هو أقرب إلى عملية انقلاب نتيجة تآمر بين السلطان الجديد والحاجب محمد بن أبي هلال، وأنه لا يستبعد أنه وقع التعجيل بموت المنتصر، فإنّ غيره من المصادر لا يشير إلى ذلك. ولو أنّ التأكيد على أن مبايعة أبي عمرو عثمان كانت بالإجماع والرّضى يدعو هو ذاته إلى التساؤل. كما إن إبقاء كبار المسؤولين بدون تغيير قد يدعو إلى التساؤل كذلك.

---

(830) أمهما ريم العلجية.

(831) الأدلّة (157) وفي برنشفيك 16 عاماً ونصفاً نتيجة الفارق بين التقويمين.

(832) برنشفيك عن فاقنان (1 :242 ـ ح ـ 1).

ومهما يكن من أمر فإن أبا عمرو عثمان نُصِّب على عرش السلطنة الحفصية في ظرف دقيق ينذر باستمرار التصدّع لمرحلة استقرار جاهد من أجلها طويلاً السلطان أبو فارس عبد العزيز.

أبو عمرو عثمان وحركات الانتقاض

إن قِصَر المدة التي قضاها محمد المنتصر سلطاناً حفصياً، وتصدّيَ أخيه أبي عمرو عثمان لمجابهة المنتقضين والمنشقين، يجعلان هذا السلطان الجديد هو المجابه الحقيقي لحركات التمرّد التي قامت في عهد أخيه المنتصر وفي عهده هو من باب أولى.

وكانت أولى محاولات الانتقاض بعد وفاة أخيه هي فرار عمّ أبيه محمد (المعروف بالحسين) بن أبي العباس السلطان الأسبق. ولم يكن محمد الحسين هذا من رجال السياسة بل كان يعتبر من رجال الفقه والعلم. وقد قال عنه في ذيل الديباج «.. كان من جملة فقهاء تونس وعلمائها. كان علّامة محققاً أخذ عن ابن عرفة والقاضي أبي مهدي عيسى الغبريني وغيرهما... وله أجوبة مسائل الإمام أبي الحسن بن سمعة الأندلسي المنوّعة حين وجهها إلى إفريقية[833] وكان يشتغل بالتدريس في المدرسة الشماعية. ولكن رغم هذا الانقطاع للعلم فما إن استقام الأمر للسلطان أبي عمرو عثمان حتى فرّ هذا الشيخ الفقيه مع أبنائه ملتحقاً بأولاد أبي الليل الذين كانوا يقيمون على مقربة من العاصمة. وخاف الناس أن يستجيب أولاد أبي الليل إلى تحريض الشيخ محمد الحسين بن أحمد الحفصي ويشنوا هجوماتهم على العاصمة. ويحاصروها. وبسبب هذا الخوف والهلع احتكرت الأقوات وغلت الأسعار

(833) نيل الابتهاج (307).

ووقع التشويش بالحضرة وأوطانها[834].

ويبدو أن أسباب شدة الهلع لا تعود إلى الخوف من هجمات الأعراب فقط وإنما تعود ـ أيضاً ـ إلى شخصية محمد الحسين الحفصي العلمية من أن استجابة أولاد أبي الليل ربّما تكون قوية المفعول، وأن رجال الدولة الذين نصّبوا أبا عمرو عثمان على السلطنة قد يكون لهم أثر في كثرة ذلك الهلع، ولهذا بادروا ـ مع السلطان أبي عمرو عثمان ـ بتهديد أولاد أبي الليل إذا هم استجابوا لدعوة هذا الثائر وساعدوه. وكما أن المصادر التاريخية لم تذكر الأسباب التي جعلت الشيخ محمد الحسين يفرّ من العاصمة، ويعلن بذلك غضبه على السلطان الجديد، فإن تلك المصادر لم تذكر الأسباب التي جعلت أولاد أبي الليل لا يستجيبون لدعوة ذلك الشيخ بل ينصاعون لتهديدات السلطان أبي عمرو عثمان ويقبضون على الشيخ محمد الحسين ومن معه ويسلّمونه إلى السلطان فاعتقلهم بالقصبة إلى أن قضى الشيخ نحبه في ربيع الثاني سنة 839 (أكتوبر 1435)[835] وظلّ أبناؤه مسجونين بعد وفاته إلى أن عفا عنهم السلطان الحفصي وأطلق سراحهم.

أمّا عدم استجابة أولاد أبي الليل لدعوة الشيخ محمد الحسين فلعلّها لم تكن ناتجة عن كفّهم عن المشاغبة أو عدم الرّغبة فيها، وإنما لأن الشيخ المذكور لم يكن من رجال السياسة والحكم، ولم يكن عنده من المال ما يغري، أو القوة التي تساند لا سيما أن أولاد أبي الليل لم تَبق لهم السطوة التي كانت عندهم من قبل لكثرة ما نالهم من تقتيل وتعب وجهد خاصة في عهد السلطان أبي العباس أحمد، وفي عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز.

ولكلّ هذه الاعتبارات فإن أولاد أبي الّليل بعد أن سلّموا الفقيه الحفصي للسلطان متظاهرين بالجنوح للسلم، وارتحلوا عن ضواحي

(834) الزركشي (136).

(835) الزركشي (136).

العاصمة ـ كانوا في حقيقة أمرهم يبحثون عن المزيد من القوة والسند حتى يعودوا إلى الشغب وإثارة الفوضى. وفعلاً فإنهم ما إن ابتعدوا عن العاصمة وانضافت إليهم جموع أخرى حتى شرعوا في إثارة الفوضى والغارات على الناس وإرهاب السبّيل حتى اضطر السلطان أبو عمرو عثمان إلى التفاوض معهم كي يكفّوا عن الشغب، ويرجعوا إلى الجادّة. إلاّ أن أولاد أبي الليل اشتطوا في طلباتهم بما تعجز السلطة المركزية عنه. ولهذا قرّر السلطان الخروج إليهم وقتالهم. وابتدأت جيوشه تتجمّع في المكان الذي يطلقون عليه اسم «الزعترية» غير بعيد عن العاصمة. وفهم أولاد أبي الليل أن انتصاب المعسكر معناه رفض السلطان لطلباتهم فقـرّروا مهاجمـة المعسكر قبـل استكمال عدّتـه. إلاّ أن الأخبار وصلت السلط الحفصيـة فقرّر السلطان الحفصي إعادة الجيش إلى داخل أسوار العاصمة مخافة أن يباغتهم أولاد أبي الليل بالهجوم. وجاء الأعراب ونزلوا بسبخة خالد (السيجومي) ثم ضربوا حصاراً على العاصمة في شهر رمضان 839 (أفريل ـ مارس 1436). وظلّ القتال سجالاً بين الطرفين. «.. وكان السلطان يخرج إليهم بأهل حضرته وجيوشه يقاتلهم بالسبخة مبدياً من الشجاعة ما يقصر عنه الوصف ـ حسب عبارة الزركشي[836] ـ واستمرّت المناوشات على ذلك دون أن يظفر أحد الطرفين بالانتصار إلى أن استطاعت السلطة المركزية إقناع أولاد مهلهل بالانضمام إلى صفّ السلطان والتحالف معه ضد أولاد أبي الليل. وعند ذلك خاف أولاد أبي الليل من الهزيمة فقرّروا فكّ الحصار عن العاصمة والابتعاد عنها. ثم التقى بهم أولاد مهلهل في «الكرومة» وانضافت إلى أولاد مهلهل الجيوش السلطانية. وبعد معركة عظيمة وقُتْلِ خلق كثير انهزم أولاد أبي الليل وفرّوا على وجوههم طالبين النّجاة[837].

---

(836) ص (137).

(837) الزركشي (137).

أبو عمرو عثمان والتحديات الأولى

لم يكن فرارُ أولاد أبي الليل في معركة «الكرومة» فرارَ الهزيمة والاستسلام، بل توجهوا ـ بعد ذلك ـ إلى بجاية التي أعلنت الثورة والعصيان في وجه السلطان الجديد أبي عمرو عثمان، فعند وفاة السلطان محمد المنتصر كانت بجاية تحت إمارة عمّه علي بن أبي فارس عبد العزيز. ولم يقبل هذا العمّ أن يتولّى السلطنة أبو عمرو عثمان، فأعلن شقَّ عصا الطّاعة، ودعا لنفسه سلطاناً حفصياً علي بجاية. وعندما انهزم أولاد أبي الليل في معركة الكرومة قرّروا التوجه إلى بجاية والاستنجاد بصاحبها وتحريضه على القدوم إلى تونس فاستجاب لهم صاحب بجاية. وعادت المأساة من جديد عندما أصبح بنو حفص ـ مرّة أخرى ـ لعبة بين القبائل يحارب بعضهم بعضاً. وعاد نفس الخط الذي سلكه ثوار حفصيون سابقون من المبادرة بالسيطرة على الحفصية الغربية والمغرب الأوسط.

وكان أول عمل قام به صاحب بجاية ـ بعد أن انضمّ إليه أولاد أبي الليل ـ هو التوجّه إلى قسنطينة قصد احتلالها قبل التوجه إلى تونس العاصمة.

ولكن رغم محاصرته لقسنطينة حوالي شهر فإن ـ حاميتها ـ بقيادة العلج نبيل بن أبي قطاية ـ أمكن لها أن تصمد أمام ذلك الحصار، وأن تقابل المهاجمين برّد الفعل الذي أجبرهم ـ في النهاية ـ على رفع الحصار عن قسنطينة والتوجه إلى العاصمة تونس. وازدادت ـ في هذه الحروب ـ انقسامات الأعراب بين السلطان وعمّه؛ فقد انقسمت الذواودة بين العمّ وابن

أخيه بالإضافة إلى تحالف أبي عمرو عثمان مع أولاد مهلهل، وتحالف أولاد أبي الليل مع صاحب بجاية، كما انضمّ إلى السلطان الحفصي شيخ أولاد حكيم سعيد بن أحمد وأتباعه من حكيم وبني علي وغيرهم.

ويصف الزركشي[838] المعارك التي جرت بين السلطان الحفصي وعمّه صاحب بجاية قائلاً بعد حديثه عن حصار قسنطينة: «.. فرحل (صاحب بجاية) خائباً قاصداً للحضرة ومعه شيخ الذواودة عيسى بن محمد. وكان المولى السلطان خرج بمحلته للقائه. ووفد عليه سبّاع بن محمد شيخ الذواودة فكان في جملته. وقدّم السلطان بين يديه قائده محمود يحشد الحشود من الحنانشة وقرفة، فورد عليه أصحاب الأمير أبي الحسن فحملوه إليه فبايعه ووقفَ معه. وأشار عليه بمناجزة السلطان الحرب قبل كمال عساكره. وكان أبو النظر ابن القائد محمود بمحلة الخليفة (السلطان الحفصي) فلّما سمع بما وقع لأبيه فرّ (من جيش السلطان) ولحق بأبيه... وسار السلطان بعساكره ومعه أولاد مهلهل ومن انضاف إليهم إلى أن قرب من سرّاط، فوفد عليه في مساء الليلة التي كانت المعركة صبيحتها شيخ حكيم سعيد بن أحمد ومعه أتباعه من حكيم وبني علي وغيرهم فالتقى الجمعان بإزاء وادي سرّاط بقرب تيفاش يوم الأربعاء 22 ربيع الأول سنة أربعين وثمانمائة (أكتوبر 1436). واجتمع به ذلك اليوم بذلك الموضع عرب إفريقية كلّها. فصفّت الصفوف ووقف الخليفة في وسطها، فلما رأى أصحاب الأمير أبي الحسن كثرة ما وفد على الخليفة من الجيوش ندموا على أنهم لم يناجزوهم الحرب في أمس ذلك اليوم[839]. ثم قوّوا عزائمهم، وحملت ميمنتهم على ما يقابلها فهزمتهم. ثم حملت ميسرتهم كذلك. وينقل الزركشي ما حُدِّثَ به عن الشيخ الفقيه أبي العباس أحمد الشماع قاضي المحلّة. حينئذ (وصاحب كتاب الأدلّة البيّنة النورانية) قال: كنت وافقاً في

---

(838) الزركشي (137 - 138).

(839) أي قبل انضمام الأعراب إليه.

ذلك اليوم في موضع مرتفع فرأيت أمير المؤمنين لمّا رأى ما نزل بميمنته وميسرته دفع بأهل الحفيظة وجماعة الحفظيين وذوي الصدق في وجوه العدو، ولم يبال بهضم جناحيه وقصد نحو الأمير أبي الحسن فتفرّقت فرق الفتح وأهل الظفر، وتفرقت عن الأمير أبي الحسن أصحابه، وقتل كثير منهم وكرّ أصحاب السلطان لما رأوا النصر من قبله فبقي الشرار من ضحوة النّهار إلى العصر. وأفلت الأمير أبو الحسن بفرسه طالباً نجاة نفسه. وأسلم محلّته وأصحابه فأخذهم النّهب وما أيقن هو بدخول بلد بجاية مع من خفّ من أصحابه، فقفل السلطان راجعاً إلى حضرته فدخلها منصوراً ظافراً. . »[840].

(840) الزركشي (138) مع ملاحظة أن هذا النص لم يرد في «الأدلة البينة النورانية».

بعد معركة وادي سرّاط

كان لمعركة وادي سرّاط أثر كبير في أولاد أبي الليل وهم أكبر مناصر لأمير بجاية، فراجعوا موقفهم بعد تلك الهزيمة، وبدأوا يشعرون بأن لا أمل في انتصار خصوم السلطان أبي عمرو عثمان. ولهذا حاولوا التصالح معه، ومهادنته ـ ولو مؤقتاً ـ فجاء وفد منهم إلى تونس ـ دون طلب أمان مسبّق ـ لمقابلة السلطان الحفصي وأخْذِ الأمان والعفو منه. إلاّ أن أبا عمرو عثمان ـ وقد ضاق ذرعاً بأولاد أبي الليل ـ أمر بالقبض على الوفد في سانية باردو. ثم أمر بتقييدهم واعتقالهم بسجن القصبة أمَلاً منه في القضاء على فتن أولاد أبي الليل بجعل أولائك القادة الوافدين رهائن عنده يرهب بها أتباعهم. وكان في طليعة ذلك الوفد بعض الكبراء من أبناء حمزة من أولاد أبي الليل منهم: منصور بن خالد، وطلحة بن محمد، ومنصور بن ذؤيب وغيرهم[841].

وظنّ السلطان أبو عمرو عثمان أن انهزام عمّه في معركة وادي سرّاط، وانفضاض أولاد أبي الليل من حوله قد يسهلان عليه مهاجمة عمّه في بجاية واحتلالها فتوجه إليها في أواخر سنة 840 هـ (1437 م) يعتزم الاستيلاء عليها. ولكنّ أبا الحسن لم يعدم أنصاراً آخرين يساندونه ضد ابن أخيه صاحب تونس. وبسبب ذلك لم يتمكّن السلطان أبو عمرو عثمان من الوصول إلى بجاية إذ اعترضه عبدالله بن عمر بن صخر شيخ بني سيلين وتقاتل معه دون

(841) المصدر السابق.

أن يتمكن من مواصلة سيره إلى بجاية فرجع إلى العاصمة سنة 841 هـ (1437). وقد ظل هذا الحاجز الفاصل بين السلطان الحفصي وبجاية سنتين أخريين أي إلى أن تمكنت القوات الحفصية من التغلّب على شيخ بني سيلين فاحتزت رأسه وأتت به إلى العاصمة فأمر السلطان أبا عمرو عثمان بتعليق رأس الشيخ ابن صخر على باب خالد المقابل سبخة السيجومي إعلاناً للنصر وإرهاباً للغير. وبمقتل شيخ بني سيلين زال الحاجز الذي كان بين السلطان الحفصي وبجاية، كما أن صاحب هذه المدينة وجد نفسه ـ إذ ذاك ـ مكشوف الجانب وبلا نصير. ولهذا فما إن بلغه أن السلطان أبا عمرو عثمان غادر تونس في طريقه إلى بجاية حتى خرج منها هارباً بنفسه ملتجئاً إلى بعض القبائل. وخرج أهل بجاية لاقتبال السلطان أبي عمرو عثمان الذي دخل المدينة في الرابع من جمادى الثانية سنة 843 هـ. (9 نوفمبر 1439) وأمّن الناس على أنفسهم وأموالهم ثم عقد على بجاية لابن عمّه عبد المؤمن بن أبي العباس أحمد. ثم كرّ راجعاً إلى تونس حيث وصلها في شهر رجب من العام المذكور[842].

(842) الزركشي (130 - 140).

عدم استقرار الوضع في بجاية

لم يستتب الأمر في ولاية بجاية بعد انضمامها إلى السلطة المركزية الحفصية. وقد تمثل ذلك ـ أولاً ـ في ردّ الفعل الذي قام به بنو سيلين بعد الفتك بشيخهم عبدالله بن صخر، ففي أوائل سنة 846 (1442م) دبّر محمد بن يحيى ـ أحد قادة بني سيلين ـ مؤامرة ضد أمير بجاية الجديد أبي محمد عبد المؤمن انتهت باغتياله أخذاً بثأر شيخ بني سيلين، فعقد السلطان الحفصي على بجاية لأبي محمد عبد الملك (أحد إخوة الأمير المغتال). وكان هذا الاغتيال ـ دون شك ـ نتيجة لتحريض أبي الحسن الحفصي من ناحية، وأخذاً بالثأر من ناحية أخرى. وظل أبو الحسن الحفصي يترصد الفرصة المؤاتيَة لاستعادة بجاية إلى نفوذه حتى تمكّن من ذلك سنة 850 هـ عندما قام بهجوم عليها وقتل قائدها أحمد بن بشير واستولى عليها. إلاّ أن هذا الاستيلاء لم يستمرّ أكثر من عشرين يوماً فما إن وصلت الأخبار إلى تونس منبئة برجوع الأمير أبي الحسن إلى بجاية وقتله قائدها حتى جهّز السلطان أبو عمرو عثمان جيشاً قادَه بنفسه إلى بجاية مقدّماً بين يديه العلج نبيل. ومثلما حصل في السابق فلم يكن أمام الأمير أبي الحسن إلاّ الفرار من جديد والالتحاق بالجبال ملتجئاً لدى بعض القبائل. أما السلطان أبو عمرو عثمان فعاد بدوره إلى تونس العاصمة بعد أن عيّن محمد بن فرج قائداً جديداً على بجاية[843]. وبعد ست سنوات من ذلك (رجب 856/ صيف 1452م) أعاد

(843) الزركشي (141).

أبو الحسن الحفصي الكرّة وهاجم بجاية وحاصرها وضيق عليها الخناق بما تجمع حوله من خلق. وأسرع السلطان أبو عمرو عثمان بالنجدة للمدينة المحصورة قبل أن تسقط في يد عمّه، وريثما يتهيأ له الأمر ليرحل بنفسه إلى المدينة المحصورة. وصادف أن خلافات ـ حول الزعامة ـ حدثت في قبيلة أولاد سيلين تولّدت عنها نتائج مباشرة لمصير الأمير الثائر أبي الحسن الحفصي، فقد تنازع على سيادة القبيلة محمد بن سعيد وأحد أبناء عمّه حتى تمكّن ابن العمّ هذا من الانتصار على محمد بن سعيد وأخرجه من وطنه. وكان هذا الانهزام نتيجةً لمساعدة صاحب بجاية. لخصم ابن سعيد المذكور، فذهب هذا الأخير إلى بسكرة مستنجداً بقائدها عبد الرحمان الكلاعي على أن يكون في مساعدة السلطنة الحفصية ضد الأمير أبي الحسن إذا هي أرجعته إلى وطنه، واستعاد زعامته على بني سيلين. واتفق مع صاحب بسكرة على الإحسان لمن يأتيه من أولاد حمزة أنصار الأمير أبي الحسن على أمل استخدامهم ضد هذا الأمير الثائر. وفعلاً كاد الأمير أبو الحسن ينخدع لذلك لو لم يأتِهِ من حذّره من أولاد حمزة مِمّا جعله يتخلّى عنهم فتركهم والتحق بمحمد بن سعيد بن صخر ونزل عند صهره سعيد بن عبد الرحمان بن صخر مؤمّلاً أن يجد الأمن والمساعدة عند أصهار نصيره السابق. ولكن ـ كما يقول المثل ـ من مأمنه يؤتي الحَذِر. ذلك أن محمد بن سعيد وسع تآمره على أبي الحسن الحفصي عندما أشرك في ذلك التآمر القائد منصور، قائد قسنطينة، وأحمد بن علي أحد زعماء الذواودة. ولهذا فما إن نزل أبو الحسن الحفصي عند سعيد بن عبد الرحمان بن صخر حتى أخذ صهره محمد بن سعيد يلحّ عليه بتسليم الأمير أبي الحسن الحفصي إلى خصومه من آل بيته. وتلكّأ سعيد بن عبد الرحمان في ذلك ـ بادىء الأمر ـ ثم استجاب لرغبة صهره محمد بن سعيد، فاتفقا على الغدر به والقبض عليه. وبعثا بالخبر إلى قائد قسنطينة فجاءهما على جناح السرعة، ومكّناه من الأمير المخدوع. وبعث قائد قسنطينة بابنه علي وسعيد بن عبد الرحمان يخبران السلطان أبا عمرو عثمان بالقبض على عمّه فاستبشر السلطان بذلك. وبعث

جيشاً للإتيان به يقوده شيخ الموحّدين محمد بن أبي هلال صحبة علي بن القائد منصور إلى أن التقوا بقائد قسنطينة والأمير أبي الحسن في المكان المعروف بجبل إيكجان[844]. وسلم الأمير المخدوع إلى محمد بن أبي هلال وإلى علي بن القائد منصور. .» فارتحلا به مقيّداً راكباً على بغلة. ثم توقّعا أن يفلته العرب من أسره قبل وصوله إلى السلطان أبي عمرو عثمان. فلما كانت ليلة الثالث من شوال سنة 856 (1452م) أمَرَا به فذبح بموضع بطرف السبخة. ودفنت جثته هنالك. وبعثا برأسه إلى السلطان مع البريد ـ هو في طريقه إليهم ـ فوضع الرأس بين يديه. ثم نُصِب على قناة بالسوق حتى رآه الناس وتحققوه. ثمّ أمر بدفنه[845] واطمأنّ أبو عمرو عثمان بعد القضاء على عمّه أبي الحسن أكبر منافس له في السيادة على السلطنة.

وقبل أن يصل أبو عمرو عثمان إلى بجاية بعث إلى أميرها ابن عمّه أبي محمد عبد الملك ليقدم عليه مع أهل البلد للقائه وتجديد العهد له. إلاّ أن أمير بجاية تلكّأ في الذهاب إلى السلطان واقتباله خارج بجاية. ولم يكن من السلطان أبي عمرو عثمان سوى سلوك الحيلة والمراوغة حتى يقدم عليه أمير بجاية فبعث إليه بقاضي المحلّة والبعض من الفقهاء والمرابطين يحرّضونه على الخروج لاقتبال السلطان فانخدع لذلك وقدم عليه في محلّته قرب جبل أولاد رحمة. ولم يمهله السلطان إلاّ ليلة واحدة اعتقله بعدها وعزله عن بجاية، وعيّن عوضه القائد منصور الذي كان يتولّى قيادة قسنطينة، والذي لعب دوراً هامّاً في القضاء على الأمير أبي الحسن.

وإذا لم تتعرّض المصادر التاريخية للأسباب التي جعلت الأمير أبا محمد عبد الملك يتلكّأ في مقابلة السلطان أبي عمرو عثمان، وجعلت هذا الأخير يأمر بعزله واعتقاله فإن مجرى الأحداث التي جرت في بجاية ومناطقها

(844) أو إنكجان وهو الذي ارتبط بتاريخ الدولة العبيدية إذ كان أكثر مقام أبي عبد الله الشيعي في ذلك الموضع. وكان يسميه دار الهجرة. عن معجم البلدان لياقوت (1 :392 - 393).

(845) الزركشي (146).

يفسر ما اتخذه السلطان ضدّ ابن عمّه أمير بجاية، فالذي رجّح كفة السلطان أبي عمرو عثمان على عمّه أبي الحسن هو الدور الذي قام به محمد بن سعيد الزعيم الجديد لبني سيلين. وهذا الزعيم الجديد يعتبر أن عدوّه الأول هو عبد الملك الحفصي، صاحب بجاية الذي ساعد أحد أبناء عمّه من بني سيلين حتى تغلّب عليه وأخرجه من وطنه ودفعه إلى الالتجاء إلى صاحب بسكرة ومن هناك لعب دوره مع السلطنة الحفصية للقضاء على أكبر خصوم السلطان عثمان. ولهذه الاعتبارات فإن عودة محمد بن سعيد السيليني إلى زعامة قبيلته لا يمكن الاطمئنان إليها ما دام عبد الملك الحفصي موجوداً في بجاية إذ لا مانع من أن يساعد أحد منافسيه على زعامة القبيلة كما فعل في المرّة السابقة. ولهذا فإن عزل عبد الملك فيه ترضية له من ناحية، وفيه بعث الاطمئنان في نفسه من ناحية أخرى.

ومهما يكن فإن القضاء على أبي الحسن علي الحفصي (عمّ السلطان أبي عمرو عثمان) يعتبر من أهمّ الأحداث والنتائج الحاسمة التي حققها أبو عمرو عثمان، فقد ظلّ هذا العمّ أكثر من سبعة عشر سنة يمثل القوة المهدّدة والثورة المتواصلة ضدّ السلطة المركزية للسلطنة الحفصية.

عثمان الحفصي والقادة العلوج

بعد عودة السلطان أبي عمرو عثمان قريرَ العين من بجاية سنة 856 هـ (1453 م) كان أول ما اهتمّ به هو قضية القائد العلج نبيل ابن أبي قطاية.

ولقد لعب هذا القائد أدواراً هامّة في مسرح السياسة الحفصية منذ عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز. ويبدو أن هذا القائد بدأ يتطاول على السلطة والنفوذ في عهد أبي عمرو عثمان؛ فقد ذكر الزركشي أنه في الأيام التي عاد فيها السلطان عثمان من بجاية إلى تونس، قتلت العامة وبعض خدّام القائد نبيل حاكمَ باب المنارة المشهور باسم «المكحول» ونقبوا على عراقيبه، وجـرّوا جثّته في أزقة المدينة وأحرقوه مروّجين أن السلطان أبا عمرو عثمان هو الذي أمر بذلك وصادف أنه خرج يوم الواقعة المذكورة إلى الصيد فلما رجع في المساء وأعلم بالخبر أنكره. وأمر بالقبض على من فعل ذلك فقبض على خمسة رجال من القتلة فذبحوا في الموضع الذي أحرقوا فيه جثة حاكم باب المنارة عن يسار باب الجديد[846] وبعد أقل من ثلاثة أشهر من وقوع ذلك الحادث نجد السلطان أبا عمرو عثمان ينكب القائد نبيل المذكور، ففي الحادي عشر من ربيع الأول سنة 857 (أفريل 1453) أمر السلطان بالقبض على القائد نبيل وأولاده وخدمه واعتقلهم بسجن القصبة. وخرج في نفس الوقت أبو الفضل بن أبي هلال في تشكيلة عسكرية إلى عنّابة واعتقل قائدها

(846) الزركشي (147).

أبا الفضل ابن القائد نبيل وجاء به إلى تونس حيث اعتقل في القصبة مع أبيه وإخوته، كما اعتقل القائد ناصر رضيع القائد نبيل الذي كان يتولّى قيادة توزر، وأوتي به إلى سجن القصبة كذلك. ثم . . «. . أمر السلطان أبو عمرو عثمان بجمع الأموال التي للقائد نبيل وأولاده ومن قبض معه، جمعت كلّها من مكامن احتجابها وحصل منها ـ فيما قيل ـ ما يزيد على عشرين قنطاراً ذهباً من العين، وما يقارب قيمة ذلك من الجواهر والعقار والأثاث[847]. وظل القائد نبيل ابن أبي قطاية في السجن مدّة شهرين حيث وافاه الأجل في السجن كمداً وحسرةً. ويذكر الزركشي: أنه دفن ليلاً بالقصبة. ثم أخرج بعد يومين. وأنزل إلى المدرسة الكائنة شرقيّ باب ينتجمي (أحد أبواب القصبة) ودفنوه بمقبرة كان أعدّها لذلك حين بنائه لها[848].

وكان السلطان أبو عمرو عثمان ـ بعد استرجاع بجاية والتخلّص من أميرها عبد الملك الحفصي ـ عيّن لها أحد قواده العلوج (القائد منصور) أمَلاً منه أن يكون متولّي بجاية أكثر انقياداً وإخلاصاً إذ هو من أولائك العلوج العتقاء الذين صاحبوا تاريخ السلطنة الحفصية منذ نشأتها، وأصبحوا محلّ اعتماد سلاطينها، كما أصبحت لفظة «القائد» تطلق على الكثير منهم دون تسلسل نسبهم إذ كان أغلبهم من الأسرى، وكثيراً ما يكونون أطفالاً.

ويبدو أن أهالي بجاية استنكفوا أن يتولّى أمرهم ذلك العلج العتيق فحاولوا التمرّد عليه، وضيّقوا عليه الخناق، ومنعوه من التصرّف. وأكثر من ذلك أنه بدأ تطلّعهم وتساؤلهم عن أبي بكر بن عبد المؤمن الحفصي قصد مبايعته والدعوة باسمه. وأمام هذا الوضع المنذر بالانفجار في بجاية قرّر السلطان أبو عمرو عثمان تجهيز جيش يتوجه على رأسه إلى بجاية كي يخضد شوكة المتمرّدين. وأثناء طريقه إلى بجاية بلغته الأخبار معلنة بأن أهالي بجاية لهم رغبة في تولية أبي بكر بن عبد المؤمن عليهم، نظراً لمعرفتهم به،

(847) الزركشي (147).
(848) المصدر السابق.

ومعرفة أبيه وعمّه من قبل. وخاف السلطان أبو عمرو عثمان أن يستجيب الأمير أبو بكر لرغبة أهالي بجاية ـ وكان أبو بكر معه في المحلة فأمر بالقبض عليه عندما اقتربوا من مدينة ميلة، وأعاده إلى تونس مصفّداً واعتقله بسجن القصبة مع أتباعه وحاشيته. وكان ذلك أواسط سنة 859 هـ (1455 م). وعندما اقترب السلطان الحفصي من بجاية خرج إليه أعيان المدينة ووجهاؤها للترحيب بقدومه معلنين تبرءهم وتنصّلهم من حركة الانتقاض التي قام بها أشرار بجاية ـ حسبما نقلوا عنهم ـ وأخبروه بفرار المشاغبين واستعداد سكان المدينة لاستقباله والاحتفاء به، وتجديد طاعتهم وولائهم له. وعلى ذلك الأساس دخل السلطان مدينة بجاية. ويبدو أن السلطان أبا عمرو عثمان أيقن باستنكاف أهالي بجاية أن يتولّى أمرهم القوّاد العلوج، ولهذا عزل عنها القائد أبا علي منصور وسمّى عليها ابنه أبا فارس عبد العزيز، ثم قفل راجعاً بجيشه إلى تونس معرّجاً على قسنطينة حيث عقد للقائد فارح على بسكرة وتوقّرت بالإضافة إلى قيادته السابقة على قسنطينة.

ويظهر أن السلطان أبا عمرو عثمان ازدادت شكوكه في أبناء العائلة الحفصية فشرع يأخذهم بالظنّة، ويوغل في الحذر منهم. وكنا تعرضنا في السابق إلى اعتقال الأمير أبي بكر بن عبد المؤمن لمجرّد أن أهالي بجاية فكروا في توليته عليهم دون أن تذكر المصادر المعروفة أنه قام بأي عمل إيجابي يفيد التواطؤ مع المتنمّرين من أهالي بجاية. كما نجد هذا السّلطان ـ إثر عودته من بجاية ـ يبادر بالقبض على أولاد عمّه أبي الحسن واعتقالهم في سجن القصبة بعد أن أطلق سراحهم من قبل بعد موت أبيهم في السجن.

انقياد بني سيلين وأحداث تلمسان

رغم حملة التهدئة التي قام بها السلطان أبو عمرو عثمان في بجاية فإن ذلك لم يوقف الشغب ولم يمنع الاضطراب ذلك أن محمد بن سعيد بن صخر، زعيم بني سيلين، لم ينفكّ يشاغب أمير بجاية الجديد أبا فارس عبد العزيز ابن السلطان عثمان حتى اضطر هذا الأخير إلى منازلته وقتاله، والتغلّب عليه، والاستيلاء على مكاسبه وجيشه مما أجبر ابن صخر على الفرار ناجياً بنفسه باحثاً عن الأنصار، طالباً للنجدة. إلّا أن السلطان الحفصي لم يقنع بانهزامه وفراره إذ توقع أن يرجع هذا الزعيم مرّة أخرى ويهاجم بجاية متى سنحت له الفرصة. ومن أجل كلّ ذلك عزم السلطان الحفصي على التوجه بنفسه إلى منطقة بجاية محاولاً فضّ النزاع نهائياً بينه وبين محمد بن سعيد بن صخر، سالكاً معه سبيل المفاوضة الهادفة إلى التصالح. ولهذا بعث إليه بالأمان والعفو إذا هو أقلع عن إثارة الشغب. وزيادة في تطمين زعيم بني سيلين بعث إليه السلطان الحفصي بابنه محمد المسعود وليّ عهده للتفاوض معه. وفعلاً استجاب محمد بن سعيد لرغبة السلطان الحفصي «.. فجاءه مع ولي العهد راغباً في الطاعة، فأكرمه، وأتى به وبجميع أهله إلى تونس وأسكنه بها وأعطاه ما يقوم به»[849] وفي طريق العودة إلى تونس عرّج السلطان أبو عمرو عثمان على قسنطينة لتغيير قيادتها فعزل القائد فارح،

(849) الزركشي (151).

وقدّم عليها القائد ظافر بن جاء الخير[850] وكان ذلك في مفتتح سنة 864 (نوفمبر 1459) وفي نفس السنة عيّن القائد منصور على قفصة بدل أبي إسحاق إبراهيم الفتوحي.

وإذا كانت العلاقات مع بني زيّان أصحاب تلمسان لم يطرأ عليها شيء ذو بال منذ وفاة السلطان أبي فارس عبد العزيز، وأنّ أبا عمرو عثمان لم يكن في إمكانه التدخّل المباشر في شؤون تلمسان إذ كان مصروفاً عنها بشغب عمّه أبي الحسن، فإن الأحداث التي جدّت في تلمسان سنة 866 هـ (1462 م) أوجبت تدخل السلطنة الحفصية من جديد في شؤون تلك الإمارة التي كان على رأسها أحمد العاقل الذي أقامه عليها السلطان أبو فارس عبدُ العزيز منذ أكثر من ثلاثين سنة ثم حدث أن ثار ضدّه أحد أحفاد أخيه، وهو محمد بن أبي ثابت الزيّاني فتغلّب عليه وأخرجه من البلاد فذهب أحمد العاقل لاجئاً إلى الأندلس، وتلقّب محمد بن أبي ثابت بلقب «المتوكّل على الله» وأعلن انفصاله عن التبعية الحفصية. وبالرّغم من أن تلك التبعية ـ كما مرّ ـ تكاد تكون تبعية اسمية، وبالرّغم من أن أحمد العاقل لم يلتجىء إلى تونس ولم يستنجد بالسلطان أبي عمرو عثمان فإن السلطان الحفصي اعتبر انتصاب المتوكّل في تلمسان تحدّياً للسلطنة الحفصية مِمّا جعله يقرّر التدخّل المباشر في شؤون تلمسان، ويجهّز جيشاً كبيراً وصفه الزركشي بأنه عظيم المدد مجهول العدد[851]. وكان خروج هذا الجيش في شهر شوال سنة 866. ورغم وفاة شيخ الموحّدين محمد بن أبي هلال في قسنطينة فقد واصل السلطان الحفصي مسيرته نحو الغرب حتى وصل أرض بني راشد على بعد يومين من تلمسان حيث أقبلت عَرب سُويد وبنو يعقوب والذواودة وغيرهم معلنين طاعتهم وانقيادهم، فقبل منهم السلطان، وقوّى بهم صفوفه وانطلق قوّاده في مختلف الجهات يمهّدونها ويجبون أموالها. وكان الزمن شتاءً شديداً تهاطلت

(850) المصدر السابق.

(851) الزركشي (153).

فيه الثلوج من أول نوفمبر العجمي حتى العشرين منه. إلّا أن الزحف الحفصي استمرّ حتى شارف تلمسان وهدّدها بالحصار والنّزال فخاف المتوكل - صاحبها - من مجابهة السلطان الحفصي وعدم القدرة على صدّه. ولهذا بادر بإرسال وفد من الفقهاء والعلماء بقيادة الصوفي أحمد بن الحسن، والفقيه محمد بن أحمد العقباني وخال المتوكّل على الله علي بن حمّو بن أبي تاشفين[852].

ويذكر الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل الملطي الذي كان موجوداً في تونس إذ ذاك أنّ صاحب تلمسان بعث مع ذلك الوفد - بخطّ يده - بأنه يعاهده على الطّاعة والقيام بدعوته. وبعث إليه بعدد من الدراهم والدنانير مضروب عليها اسم السلطان الحفصي[853] وتقبّل السلطان الحفصي ذلك العرض بلا تلكؤ، ولا زيادة شروط دُون أن يذكر المؤرّخون دخوله لتلمسان. وحسب الذي يذكره الرحّالة المصري فإن السلطان أبا عمرو عثمان لم يكن في وسعه غير ذلك بل كان مرحّباً بذلك العرض، مترقباً له. ولعلّ كثرة الثلوج وشدة البرد، وما أصاب عسكر السلطان الحفصي من الغلاء الفاحش وما كثر فيه من القلق والقيل والقال، وظهور بوادر الخلاف في الجيش، هي التي دفعت بأبي عمرو عثمان إلى قبول عرض صاحب تلمسان، لأنه - حسب عبارة عبد الباسط الملطي - كان السلطان قد عَزم - هو نفسه - على العودة وبقي يترقب مندوحة لذلك، وحجّةً يحتج بها على رجوعه. ولهذا فما إن وفد عليه الشيخ أحمد بن الحسن ومن معه حتى أجلّه، وعظّمه وأجابه عمّا جاء بسببه. ورجع [أبو عمرو عثمان] إلى تونس على جهة الصحراء في الشتاء فتلف الكثير من عساكره وما معهم من الجمال وغيرها[854]. ويتابع «الملطي» حديثه فيذكر أنه بعد وصول الخبر إلى تونس بأخذ تلمسان، وإقامة

---

(852) المصدر السابق.

(853) القسم المطبوع من رحلة عبد الباسط تحقيق برنشفيك.

(854) المرجع السابق.

أميرها نائباً عـن السلطان الحفصي «.. دقت البشائر لذلك، وزينت تونس زينة هائلة غريبة عجيبة على طريقة تلك البلاد بهيئة غريبـة لم أرَها بغير هذه البلاد. ولم يزالوا على ذلك عدّة أيام. وأظهروا من الفرح والسرور ما لا مزيد عليه».

هذا هو تعليق عبد الباسط الملطي على غزو تلمسان من قبل السلطان الحفصي، وعلى السرور الذي استقبل به سكان العاصمة خبر انتصار سلطانهم واستعادته تلمسان إلى حضيرة الدولة الحفصية.

على أن هذه الغزوة التي كلفت الخزانة الحفصية باهض الأموال لم تأت بالنتائج المتوقعة منها: نتائج الاستقرار، واستمرار التبعية سوى سنوات قليلة بعث خلالها الأمير محمد بن أبي ثابت هدية للسلطان الحفصي صحبة قاضيه محمد بن أحمد العقباني مع رجل من بني عمّه[855] وقد وصلت تلك الهدية في أواخر جمادى الثانية سنة 868 (مارس 1464) وصادف أن وصولها كان بعد إبلال السلطان الحفصي من مرض قوي أشرف منه على الهلاك[856] حتى كثرت الأراجيف والقيل والقال عنه ومصير الأمر من بعده[857]. ولهذا فما إن عوفي من مرضه وجاءت هدية تلمسان حتى «زينت الأسواق كلّها بتونس وكان فرح كبير»[858] وامتدت الأفراح خارج العاصمة.

ويذكر عبد الباسط الملطي الذي كان - إذ ذاك - في طرابلس أنه لما وصلت أخبار شفاء السلطان إلى طرابلس زينت طرابلس وتظاهر النّاس بالفرح والسرور. وكانت زينة غريبة عجيبة[859].

ولكن بعد أقل من سنتين من ورود تلك الهدية عادت للمتوكّل (صاحب

(855) الزركشي (154).
(856) الزركشي (155).
(857) رحلة عبد الباسط (36).
(858) الزركشي (155).
(859) رحلة عبد الباسط (36).

تلمسان) نزعة الاستقلال عن السلطنة الحفصية فخلع طاعة السلطان الحفصي واستبدّ بأمره، ففي أواسط سنة 870 هـ (1466) جاءت إلى تونس العاصمة وفود الأعراب من بني عامر وبني سويد يستنهضون السلطان أبا عمرو عثمان على الخروج إلى تلمسان وإرجاعها إلى نفوذه لأن صاحبها المتوكّل على الله نكث العهد، ونقض البيعة، وتخلّى عن التبعية.

عودة تلمسان للنفوذ الحفصي

عندما جاء الأعراب يستنهضون السلطان أبا عمرو عثمان ضد صاحب تلمسان فكر هذا السلطان طويلاً قبل أن يبحث فيما جاؤوه من أجله. وغير مستبعَـد أنه ندم على إبقاء ابن أبي ثابت على عرش الإمارة التلمسانية دون أن يعوضه بغيره من أبناء بني زيّان مِمّن تكون له عليه دالة تنصيبه على الإمارة المذكورة. ولهذا حاول السلطان أبو عمرو عثمان أن يتدارك الوضع هذه المرّة. وكان يوجد بتونس العاصمة أَحَد أفراد بني زيّان هو الأمير أبو جميل زيان بن عبد الواحد بن أبي حمّو فوقع الاتفاق بين السلطان الحفصي ووفود بني عامر وسويد على أن يعيّن لهم الأمير أبا جميل زيّان ليحاربوا باسمه، وليكون هو صاحب السيادة والإمارة على تلمسان بعد الانتصار على المتوكل الناكث للعهد، والخارج على الطاعة.

وعلى ذلك الأساس جهّز السلطان الحفصي جيشاً لأبي جميل زيّان، وأعطاه ما يحتاجه من الآلة والأخبية والأموال وعيّن له قائداً على الجيش محمد بن فرح الجبائي، كما جعل صاحب شوراه ومدبّر أمره الشيخ أحمد البنزرتي. وكتب إلى ولده أبي فارس عبد العزيز (أمير بجاية) يأمره بأن ينضم إليه ويصحبه إلى تلمسان. وكانت خطة السلطان الحفصي أن يبادر أولاً بإرسال ذلك الجيش حتى يتجهز هو، ويلتحق صحبة جيش آخر. وهكذا خرج الأمير أبو جميل زيّان من تونس في شهر شوال 870 ملتحقاً ببجاية وفي العاشر من ذي القعدة خرج السلطان ملتحقاً به.

أمّا خطة المتوكل المنتقض بتلمسان فكانت تتمثل في استمالة قبائل الأعراب من الذواودة وغيرهم إلى جانبه بزعامة الشيخ محمد بن سبّاع، كما كان يوجد عنده محمد بن سعيد بن صخر شيخ بني سيلين بعد أن فرّ منهزماً أمام المطاردة الحفصية. وكان المتوكل يؤمل أن يكون أولائك الأعراب حائلاً بينه وبين قدوم الجيوش الحفصية إذ بعث لزعماء تلك القبائل الهدايا والأموال ليكونوا معه ضد بني حفص إذا أقبلوا لمحاربته. وقد وصلت هذه الخطة إلى السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان. ولهذا كان منهجه ـ منذ البداية ـ تكسير ذلك الحاجز الذي يعتزم المتوكل الاستناد عليه في دفاعه. ولهذا اتجه السلطان الحفصي منذ البداية إلى مطاردة محمد بن سبّاع وحليفه محمد بن صخر وأجبرهما ـ ومن انضم إليهما ـ على الفرار والهروب إلى الصحراء. وبذلك انفتح الطريق أمامه إلى تلمسان فاجتاز الأوراس، ومهّد الأوطان هنالك، وقضى على جيوب المقاومة والمناوئين. وكان لزحفه المتواصل بلا توقّف أن سارعت مدن المغرب الأوسط بالانقياد له وتقديم البيعة فجاءته البيعة من المديّة ومليانة، وتنس وغيرها، كما أقبلت عليه الأعراب من كلّ صوب بالمبايعة والتأييد فكان يحسن اقتبالهم، ويجزل لهم في العطاء حتى وصل تلمسان وناصبها الحصار في ربيع الثاني من سنة 871 (نوفمبر 1466) ويصف الزركشي المعارك والمناوشات التي دارت حول تلمسان المحصورة بقوله: «. . . وخرج (إلى السلطان من تلمسان) خلق كثير خيلاً ورجّالة فقاتلوهم أشدّ قتال إلى المغرب. ومن الغد صبيحة يوم الخميس صبح «الخليفة» بعساكره ونزل بالمنصورة قرب البلد وركب إلى البلد فقاتلها أشدّ قتال، وتحصّنوا بالأسوار والمرابع والسهام ثم قاتلهم أشدّ قتال. ثم أمر بهدم الأسوار وعاجلهم الليل قبل امتلاك البلد فرجعوا إلى محلّتهم عازمين على أخذ البلد في صبيحة تلك الليلة فأصابهم مطر كثير»[860].

ويعني هذا الوصف أن موقف المتوكّل هذه المرّة يخالف موقفه السابق

(860) الزركشي (157).

من السلطان الحفصي منذ أربع سنوات إذ في المرّة الأولى بادر بالاستسلام وبعث بطاعته وولائـه قبل وصول أبي عمرو عثمان إلى أسوار تلمسان، وأن السلطان الحفصي انتهز فرصة ذلك العرض فبادر ـ هو أيضاً ـ بقبوله وعاد أدراجه دون أن يجري بين الطرفين قتال، بالإضافة إلى ما كانت عليه حالة الجيش الحفصي ـ إذ ذاك ـ من جوع وما ناله من تعب وقساوة لا يدعوانه إلى المجابهة إلا كرهاً. أما موقف المتوكل ـ هذه المرّة ـ وشدته في المقاومة فيمكن إرجاع ذلك إلى خوفه من أن السلطان الحفصي قد لا يقبل منه المصالحة بعد أن نكث المصالحة الأولى، ولهذا صمد أمام الجيش المهاجم عسى أن يجد وسيلة ضغط أو مساومة تمكنه من إبعاد الهزيمة عنه بعد أن أيقن بأنّ عثمان الحفصي أقرّ العزم على القتال واحتلال تلمسان. وفعلاً ففي صبيحة السبت ـ أي اليوم الرابع من بدء القتال ـ خرج من مدينة تلمسان وفد كبير من أعيانها بقيادة قاضيها ومثلوا أمام السلطان الحفصي طالبين منه الكفّ عن القتال، ومنْحَهم العفو، وأن المتوكل على الله ندم على ما فرط منه، وأنه يعترف ـ مجدّداً ـ بسيادة السلطان الحفصي على تلمسان. وقدّم الوفد بيعة المتوكّل مكتوبةً مشهوداً عليها منهم. وكتب فيها المتوكل بخط يده: شهد على نفسه عبدالله المتوكّل عليه محمد لطف الله به. ولا حول ولا قوة إلّا بالله[861]. وزيادة على ذلك، وإظهاراً لصدقه وصحّة عزمه على تحسين العلاقات بين الجانبين قدّم المتوكل بنته بكراً زوجة للأمير أبي زكرياء يحيى ابن ولي العهد محمد المسعود دون خِطبة سابقة. ولم تذكر المصادر الأسباب التي جعلت السلطان أبا عمرو عثمان يقبل ذلك العرض رغم الجدّية التي أحاط بها الحملة التأديبية التي قادها من تونس ضدّ المتوكّل الزياني خاصّة بعد أن جرّبه في السابق ولم يكن عند حسن الظنّ.

فما هي موجبات هذا الرضى السريع إذن؟ هل هي الرّغبة في حقن الدماء؟ هل هي نتيجة الحالة الصحية التي أصبح عليها السلطان عثمان

(861) الزركشي (158).

خاصة بعد المرض الذي انتابه منذ سنتين وأشرف به على الهلاك؟ هل لعبت المصاهرة المعروضة دورها في الكفّ عن القتال؟ ولماذا وقع الاختيار على الأمير أبي زكرياء يحيى بالذات وهو الذي سوف تهيىء له الأقدار منصب السلطنة خلفاً للسلطان أبي عمرو عثمان؟. . تلك أسئلة قد تصعب الإجابة عنها من خلال النصوص التاريخية. ولكنّ المتتبع لأحداث السلطنة الحفصية وتاريخها في هذه المرحلة بالذات يدرك أن آثار الشيخوخة والهرم التي بدأت تبرز بوضوح أكثر في ملامح تلك السلطنة كان لها الأثر الكبير في ذلك.

السلطان عثمان والأعراب

جابه السلطان أبو عمرو عثمان أحداثاً كبيرة في سبيل استتباب الأمن والاستقرار في البلاد سواء كانت تلك الأحداث ناتجة عن الثائرين عليه من أبناء العائلة الحفصية أو من غيرهم. وإذا كان انتصاره على خصومه الحفصيين ينتهي بقتلهم أو القبض عليهم، فإن ذلك ليس ميْسوراً بالنسبة للثائرين من القبائل أو الجهات التي يقوم فيها مطالبون من غير أبناء العائلة الحفصية. والواقع أن الأحداث التي أتت بعد الفترة الأولى من ولاية أبي عمرو عثمان على السلطنة نجدها لا تمثل العنف أو الشدة التي كان جابهها في أول عهده أو في عهد أسلافه. ولعلّ هذا مرجعه إلى ما سنّه هو لنفسه من عدم إطالة المكوث طويلاً بالعاصمة، فكان يكثر من الخروج كلّ سنة إلى مختلف المناطق لتهدئة الأوضاع أو إظهار الهيبة، وبث الرّهبة. وقد تدوم تلك الخرجات في بعض الأحيان أكثر من سنة فقد دامت إحداها عاماً وثلاثة أشهر دوّخ أثناءها الأعراب، وضرب على أيدي المعتدين، وشرّد أهل الفساد[862].

وكان من أهمّ الأحداث التي جرت للسلطان أبي عمرو عثمان مع الأعراب ما حصل سنة 867 هـ. إثر عودته الأولى من تلمسان. فما إن استقرّ به المقام في العاصمة حتى بلغه أن عرب إفريقية من أولاد مسكين، وأولاد يعقوب، والشنانفة، من أولاد مهلهل، ومن انضمّ إليهم من القبائل

(862) إتحاف أهل الزمان (1 :188).

والأعراب، اجتمعوا كلّهم وتحالفوا فيما بينهم على محاربة السلطان أبي عمرو عثمان إذا هو لم يُعِدْ إليهم ما كانوا تعودوا قبضه من الأموال والعطايا والمساعدات، وأنهم سوف يشنّون عليه الحرب في مختلف جهات البلاد. وعندما أيقن بخطورة الموقف بادرهم قبل أن يبادروه فأعلن النّفير العام في البلاد، وبعث إلى جميع أطراف السلطنة فأتاه المدد من مختلف الجهات. وكان لعودته من تلمسان بتبعية بني زيّان أثر لا شك فيه في استجابة مختلف الجهات لندائه. وما إن تمّت له التعبئة التي أرادها حتى قاد الحملة بنفسه إلى مناطق المنتقضين. وما إن علموا بما تجمّع لدى السلطان الحفصي من قوة حتى فضّلوا الفرار مخافة الهزيمة. وتقدم السلطان الحفصي إلى مناطقهم وقام هناك بحركة واسعة النّطاق في تغيير المسؤولين عن القبائل «.. وعقد على مشيخة أولاد يعقوب للحاج محمد بن سعيد عوضاً عن أخيه سمير، وعلى مشيخة أولاد يحيى للحاج جديد عوضاً عن أخيه إسماعيل، والطاهر بن رحيم عوضاً عن فارس بن علي من أولاد سلطان، ولمالك بن منصور عوضاً عن علي بن علي الشيعي، ولقاسم بن طالب العوني عوضاً عن يحيى بن طالب فجعل على كلّ طائفة مِمّن خالفه رجلاً منهم إمّا أخاً لشيخ أو عمّاً أو ابن عمّ. وأخذ أولادهم مراهين وبعثهم إلى الحضرة، وأنزلوا بدار قرب القصبة وأجريت عليهم النفقات. وسار بالشيوخ الذين عقد لهم في طلب المخالفين إلى أن وصل بلد نفطة، وألجأهم إلى دخول الصحراء في زمن القيظ الشديد ـ وكانت صائفة شديدة الحرّ جدّاً ـ فهامت إبلهم، وصارت تنفلت وتجيء للموارد حيث كانت. ومن شدّة حرّ هذه الصائفة ولهيبها أن النّعام كان يرد شريعة بياش بقفصة[864] ويصطاده الناس هناك إلى أن هلكت إبلهم ونساؤهم وأولادهم جوعاً وعطشاً وحريقاً في الصحراء فرأوا أنْ لا بُدَّ لهم من الإياب والوفود على أمير المؤمنين فوفدوا عليه واحِداً بعد واحِدٍ طالبين عفوه، فعفا عنهم على أن ليس لهم في

---

(864) هو وادي بياش الحالي.

المشيخة شيء وإنما هي لمن عقد له...»[865].

واستقرّ السلطان أبو عمرو عثمان أياماً في نفطة ثم توزر للراحة وانتقل بعد ذلك عائداً إلى تونس. وفي طريقه إليها دخل قفصة وأقام فيها أياماً. وعن هذا الدخول وتلك الإقامة يقول الزركشي: «... ودخل قفصة وارتاح بها هو وجيشه. ودخل القصبة وتغدّى بها مع بعض خواصه، والقائد منصور قائدها واقف بين يديه يهنّئه ويتلطف له، ويستعطف وهو يبتسم له. ودخل أيضاً المولى الأمير المسعود وتغدّى بالسلام الفوقاني الشارف على الرّحبة والقائد علي بين يديه. وكان يوماً عظيماً راحة وهناء. وكل أمير في بستان متنزهاً وكذلك القواد وغيرهم كل منهم في مكان على قدره[866].

ولم يكن ما فعله السلطان أبو عمرو عثمان من عفو على زعماء الأعراب المنتقضين، وقبول توبتهم إلاّ مرحلة تمهيدية للتخلص منهم، لأنه يعتقد أن طلبهم العفو لم يكن إلا اضطراراً أمام ظروف طبيعية قاسية، وأنهم سوف لن يبقوا على عهدهم حالما تسنح لهم الفرصة بالانتقاض والتمرد من جديد ولكلّ ذلك فإننا نجد هذا السلطان عندما اقترب من تونس - في طريق عودته من قفصة - يأمر بالقبض على أولائك الزعماء بعد الاحتيال عليهم وإيهامهم بالإخلاص في عفوه وصفحه، وأعطى لكل واحد منهم ألف دينار، وزيّن لهم الانضمام للمحلة والدخول في صفوف جيش السلطان العائد إلى تونس. وفي الطريق بات كلّ واحد من أولائك الزعماء عند قائد من قواد السلطان وهناك قبض عليهم وصفّدوا في الإغلال، وأدخلوا العاصمة على تلك الحال راكبين البغال. وكان يوم دُخولهم يوماً عظيماً - حسب عبارة الزركشي - وسلموا من العامّة وأخذوا للقصبة واعتقلوا بها[867].

(865) الزركشي (153 - 154).

(866) المصدر السابق.

(867) المصدر السابق.

ولاية العهد ووفاة السلطان عثمان

من أهم الأحداث الداخلية التي حصلت في أواخر عهد السلطان أبي عمرو عثمان وفاة ابنه ووليّ عهده محمد المسعود. وكان أبو عمرو عثمان يحبّه كثيراً، ويعلق عليه الآمال الكبيرة ليتولّى السلطنة من بعده. وحسب مختلف المصادر التي تعرضت بالذكر لولي العهد هذا فإنه كان شخصية مرموقة. وكان محل تنويه المؤرخين ومدحهم لما له من «أخبار شهيرة بأفعال البرّ» حتى قال عنه ابن أبي دينار لم يأت في بني أبي حفص مثله من عفاف وديانة، وبرّ وأمانة وهو أبو الخلفاء الآخرين لم يأت أحد إلّا من ولده «وعد من مآثره: الختمة التي كتبها بيده في عدّة أسفار، وأوقف عليها ريعاً للاستغلال يقيم القارىء بها ويقرأ فيها كلّ يوم بعد صلاة الظهر نصف حزب أو ربعه بحسب الأيام، وجعلها على التوابيت بإزاء الرّبعة التي بها البخاري من تحبيس والده بالجامع الأعظم بتونس. وله أخبار شهيرة بأفعال البرّ أضربنا عنها خوف الإطالة»[887] وقد مرّ علينا ـ في صفحات سابقة ـ ما أنفقه أبوه من أموال وما قدّمه من طعام احتفاء بزفافه على ابنة عمّه حتى كان عرسه حفيلاً لم يرَ مثله[888] وكان وليّ العهد ممدوحاً بإطناب من الشعراء لا سيما من الشاعر الأندلسي الأصل ابن الخلوف الذي قال فيه القصائد والأزجال والموشحات[889].

(887) المؤنس (158).

(888) المصدر السابق.

(889) ينظر ديوانه المخطوط بدار الكتب الوطنية رقم 4483. أحمدية.

وكانت وفاة محمد المسعود في شعبان 893 هـ (صيف 1488 م) فبادر السلطان أبو عمرو عثمان بتعيين ولي عهد جديد هو أبو زكرياء يحيى بن محمد المسعود الذي كان يشغل ـ إذ ذاك ـ إمارة قسنطينة. وصادف أن السلطان أبا عمرو عثمان توفّي في الشهر الموالي لوفاة ولي عهده الأول إذ أدركه الأجل في آخر رمضان من نفس السنة 893 هـ. ورغم أن وفاته كانت في السبعين من العمر فإن البعض يعتبر وفاة ولده إبراهيم سنة 889 وحفيده ابن محمد المسعود سنة 890 ومحمد المسعود نفسه سنة 893 من الأسباب التي عجلت بوفاة السلطان عثمان[890]. والسؤال المتبادر هو: لماذا اختار السلطان عثمان حفيده يحيى لولاية العهد دون بقية أبنائه أو إخوة هذا الحفيد؟ هل كان ذلك منه استنجاباً له دون بقية أفراد العائلة الحفصية، أم أن ذلك كان تدليلاً منه على مكانة وليّ عهده السابق عنده، فأراد جبر ذلك الصدع بتعويضه بابنه يحيى البالغ من العمر خمساً وثلاثين سنة؟.

مهما يكن فإنّ تاريخ السلطنة الحفصية ـ بعد وفاة السلطان عثمان ـ دخل في فترة غموض، وفتن داخلية عنيفة، وأوبئة جارفة. وما إن بويع الحفيد يحيى بالسلطنة حتى ثار عليه ابن عمّه (عبد المؤمن بن إبراهيم) وهربت جماعة من الجند، ودخلت البلاد في وضع غامض وأخبار متناقضة متضاربة.

(890) برنشفيك (1 :276).

الغموض والتضارب في الأفكار

إن أول ما يلتفت إليه الباحث عن مصادر تاريخ هذه الفترة هو موقف الرعيني القيرواني صاحب كتاب «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس»[891] باعتباره أقرب المؤرخين إلى تلك الفترة إذ لم يكن بين الانتهاء من تأليفه وبين وفاة السلطان أبي عمرو عثمان سوى قرنين من الزمان. ورغم ذلك فإننا نجده يتحدث عن خلفه باقتضاب مخل إذ كلّ ما جاء فيه عن أبي زكرياء يحيى هو قوله: «.. بويع يوم وفاة جدّه. وخرج إلى المحلّة على حسب العادة فهربت جماعة من الجند، وأخبروا أنّ المحلّة أخذتها الأعراب. وأن السلطان مات ومن غد جيء برأسه فوضع على رمح، وطيف به واستبدّ بالملك ابن عمّه أبو محمد عبد المؤمن بن الأمير أبي إسحاق إبراهيم ابن أمير المؤمنين أبي عمرو عثمان. وبويع في رجب من السنة المذكورة (؟) وفي ذي الحجة منها جيء بجثة الأمير يحيى ودفنت عند سيدي أحمد السقاء وكلّ ذلك مفتعل. ثم بعد ذلك افتضح الأمر، وظهر أن السلطان بالحياة. وبعد خبر يطول دخل السلطان أبو زكرياء يحيى. وفر عبد المؤمن. واستقل أبو زكرياء بملكه. وبعد أيام جيء برأس عبد المؤمن وطيف به كما طيف برأس «الخليفة» يحيى وكفى الله المؤمنين القتال، ورجع إلى حضرته بتونس، وبويع بيعة ثانية. ووقع الحلم منه على الناس، وجاءته بيعة بلد

(891) طبع عدة مرات ورغم ذلك فهو ما يزال في حاجة إلى تحقيق.

العنّاب وقابس وصفاقس، ودانت له البلاد. وتمّ في ملكه إلى سنة تسع وتسعين. وكان فيها وباء عظيم مات فيه خلق كثيرون. ومات السلطان أبو زكرياء في التاسع من شعبان (899هـ) فكانت مدّة ملكه ست سنين إلاّ شهراً وعشرة أيام. وتولى بعده محمد بن الحسن بن محمد المسعود. . .»[892].

وهذا الكلام من ابن أبي دينار يعني أن يحيى بن محمد المسعود استمرّ على السلطنة من 893 إلى 899. وعلى ذلك سار من جاء بعده من المؤرّخين التونسيين مثل الوزير السرّاج، وابن أبي الضياف، والباجي المسعودي وحسن حسني عبد الوهاب[893] وقد ثبت أن الاستناد على كلام ابن أبي دينار لا يخلو من مآخذ ومن بُعْدٍ عن الواقع التاريخي. ومما تجدر الإشارة إليه ـ منذ البدء ـ الاضطراب في كلام ابن أبي دينار إذا كان الموجود في كتابه هو نفس ما كتبه. وقد تمثل ذلك خاصة في جعل الأمير عبد المؤمن يبايع في شهر رجب سنة 893 أي قبل شهرين ـ على الأقل ـ من وفاة السلطان أبي عمرو عثمان الذي توفي آخر رمضان من نفس السنة (893 هـ) بينما يذكر قبل أسطر أن الحفيد يحيى بويع يوم وفاة جدّه عثمان آخر رمضان سنة 893، فهل هنالك كلام محذوف من نص ابن أبي دينار ترتب عليه الغموض والتناقض؟ ثم ماذا يعني هذا الاختصار في الأحداث الذي تعمّده ابن أبي دنيار عندما قال: «. . وبعد خبر يطول دخل السلطان أبو زكرياء يحيى» إلخ فهل كان يشك في صحة تلك الأخبار فأثبت منها ما كان له فيه اطمئنان. مع ملاحظة أخرى هي أن الفرضية الثانية، والتي هي الأصح، أن السلطان الحفصي الذي توفي سنة 899 هـ هو زكرياء بن يحيى لا أبوه يحيى بن محمد المسعود. وأن الاشتباه حصل لدى الناسخ أو الرّاوي ما بين زكرياء بن يحيى وأبو زكرياء يحيى فاعتمد الثاني وأهمل الأول. ومن هناك جاء الاشتباه والإشكال.

---

(892) المؤنس (159 - 160).

(893) هم حسب التتالي في الحلل السندسية (1 :1090) اتحاف أهل الزمان (1 :189 - 190) الخلاصة النقية (83) خلاصة تاريخ تونس (123).

وقد كان من أبرز المهتمّين بهذه النقطة ـ إن لم يكن أولهم ـ روبير برنشفيك في دراساته عن السلطنة الحفصية(894). وبعد مقارنة النصوص تبيّن أن يحيى بن محمد المسعود لم يتولّ السلطنة إلاّ مدّة قصيرة، وأنه قتل فعلاً من ابن عمّه (عبد المؤمن) الذي تولّى مكانه عرش السلطنة الحفصية. ثم ثار على عبد المؤمن زكرياء بن يحيى المقتول. وأمكن لزكرياء هذا أن يهزم عبد المؤمن ويستولي على الحكم ويستمرّ فيه إلى سنة 899 هـ. حيث توفي بالطاعون. وقد وقع التوصل إلى هذا استناداً على مصادر أغلبها غير تونسي.

أ ـ في الضوء اللامع للسخاوي نجد ما يلي: يحيى بن محمد المسعود(895) بن عثمان بن محمد بن أبي فارس استقرّ بعد جدّه ثم قتله ابن عمّه عبد المؤمن بن إبراهيم بن عثمان واستقرّ عوضه. ثم دخل عليه زكرياء بن يحيى المذكور خفية بمساعدة أهل تونس ففرّ عبد المؤمن إلى العرب فحشدوا معه إلى محاصرة تونس فهزمهم أهلها. وكان بينهم مقتلة أكثرها من العرب(896) والفتنة قائمة في سنة بضع وتسعين ثم سكنت(897).

ب ـ وفي بدائع الزهور لابن إياس ما يلي: «وفيه (شعبان 899) جاءت الأخبار بوفاة صاحب تونس ومدينة إفريقية وهو زكرياء بن يحيى بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبي فارس الحفصي مات بالطّاعون»(898).

ج ـ وفي بدائع الزهور ـ أيضاً بمناسبة الحديث عن وفاة السلطان أبي عمرو عثمان ـ جاء ما يلي: «ولمّا توفّي تولّى بعده ولد ولده يحيى المعروف بحفيده. فلم تطل مدّته وقتل واستطال عليه أعمامه. .»(899).

---

(894) برنشفيك (1: 277 - 278) ـ حفصي غير معروف في Revue Tunisienne 1930 (38 - 48).

(895) في الأصل بن مسعود.

(896) في الأصل: الغرب.

(897) الضوء اللامع (10: 258) رقم (1035).

(898) بدائع الزهور (3: 302) وفيه أن الذي تولى بعد زكرياء ابنه عمر وذاك غير صحيح وإنما هو محمد بن الحسن.

(899) بدائع الزهور (3: 256).



النقيشة الموجودة بباب زاوية أحمد بن عروس تنظر الصفحة 645 من الكتاب.

د ـ ونجد المصادر الغربية تتلاقى مع المصادر المشرقية في هذه النقطة كما أثبت ذلك ليون الإفريقي (الحسن الوزان) في وصفه لإفريقية من أن السلطان يحيى قتله عبد المؤمن بن إبراهيم. وأن هذا الأخير خلفه ابن الأول وتولّى سلطنة بني حفص(899م).

هـ ـ على أن الأهمّ من كلّ ذلك وثيقتان أخريَان أثبتهما برنشفيك في دراسة نشرها سنة 1930 في المجلة التونسية أولهما رسالة شاهد عيان بتاريخ 26 أكتوبر 1490 (حجة 895) تصف دخول زكرياء بن يحيى إلى مدينة تونس، وانتصاره على ابن عمّه عبد المؤمن. وهي الرسالة التي بعث بها قنصل مملكة نابلي إلى الملك فرديناندو ويذكر فيها كيفية وصول زكرياء بن يحيى إلى أسوار العاصمة، وكيف أن عبد المؤمن بن إبراهيم حاول بإطلاقه سراح الأسرى المسيحيين أن يجد قوّة تدافع عنه، وكيف أن عبد المؤمن لم يستطع الثبات طويلاً، ولم يجده ما فعله نفعاً لأنّ سكان العاصمة كانوا من أنصار زكرياء بن يحيى حتى اضطر عبد المؤمن إلى الفرار من العاصمة صحبة أبنائه وقلّةٍ من أتباعه والتجأ إلى الأعراب عسى أن يجد منهم المناصرة والتأييد.

و ـ أمّا الوثيقة الثانية فهي النقيشتان الموجودتان بنهج سيدي أحمد بن عروس إحداهما فوق باب الزاوية نفسها. رنبتت النقيشتان بوضوح تامٍّ أن السلطان الحفصي في تونس سنة 896 هـ هو زكرياء بن يحيى لا أنه والده يحيى بن محمد المسعود.

وهكذا تتظافر الأدلة على أنّ مدّة الست سنوات من (893 إلى 899) وجد فيها على عرش السلطنة الحفصية ثلاثة أشخاص هم يحيى ثم عبد المؤمن ثم زكرياء. فلماذا هذا الغموض والخلط في المصادر التونسية ابتداءً واعتماداً على كتاب المؤنس لابن أبي دينار؟ هل يعود ذلك إلى شدة

(899م) وصف إفريقيا 2 :100.

الاضطرابات الدّاخلية طيلة السنوات الست وما أعقبها فيما بعد؟ أم أن المصادر التي سجلت تلك الأحداث، أو الأشخاص الذين كانوا حريصين على تسجيلها جرفهم الطاعون الذي لم يسلم منه السلطان الحفصي نفسه، ونتج عن ذلك أن ابن أبي دينار وغيره لم يجدوا ما يسدّون به تلك الثلمة في تسلسل تاريخ سلاطين بني حفص.

بداية نهاية الحفصيين

يعتبر أبو عبدالله محمد بن الحسن بن محمد المسعود من سلاطين بني حفص الذين ظلوا مدّة طويلة على عرش السلطنة، فقد امتدت مدّة هذا السلطان من سنة 899 هـ إلى 922 هـ (1494 ـ 1525 م) وهـي مدّة تزيد على ثلاثين سنة. ويصفه ابن أبي دينار بأنه كان «. . فطناً، ذكياً، فصيحاً، محبّاً للخير وأهله، معتقداً في الصالحين. . »[900]. وعدّد من مآثر هذا السلطان بناءه المقصورة بصحن الجنائز من جامع الزيتونة. وهي المقصورة التي عرفت باسم «العبدلية» نسبة إلى أبي عبدالله هذا.

ويذكر ابن أبي دينار أيضاً أنه في أيام هذا السلطان جرت عدّة وقائع بينه وبين الأعراب حتى هزموه على القيروان ورجع منهزماً إلى تونس في ثمانية خيول[901] كما يذكر أنه بعث بهدية ـ في أول عهده ـ إلى سلطان المماليك بمصر، كما أرسل إليه سلطان المماليك بهدية فيها الزرافة. وكان الرسول الحامل للهديتين هو شيخ باب سويقة الغريبي الذي قتله السلطان غدراً بعد ذلك نتيجة لأسباب لم يكشف عنها النقاب بعد.

وإذا كان ابن أبي دينار يصف السلطان بالفطنة والذكاء والفصاحة، فإن آخرين يصفونه بالضعف وهواية اللذات[902] وسوء التدبير، وأنه أنشأ ـ من أول

(900) المؤنس (160).

(901) المؤنس (901).

(902) برنشفيك (1 :280).

عهده ـ منزلاً خاصّاً به في المرسى للانصراف إلى لذاته[903]. وإذا كانت هذه الأشياء الداخلية التي سجلت لهذا السلطان الحفصي في غاية الاقتضاب ـ رغم طول مدته في الحكم ـ فإنه مما لا شك فيه أن ذلك يعود إلى الأحداث الخارجية التي جابهت السلطنة الحفصية. وهي أحداث على غاية من الخطورة أدخلت البلاد في غموض كبير وحالةٍ من التدلّي لا حدَّ لها جعلت ابن أبي دينار يعتبر هذا السلطان ختام بني حفص، وأن السلطنة من بعده آلت إلى «اسم ولا رسم»[904].

ولعلّ من أهمّ النصوص الدالّة على ذلك الغموض ما ذكره الشيخ إسماعيل التميمي في رسالته عن أئمة جامع الزيتونة عندما ترجم لأبي البركات محمد بن محمد بن عصفور الذي عيّنه أبو عبدالله الحفصي مشرفاً على المكتبة العبدلية يقول الشيخ إسماعيل التميمي:

«. . . وهنا انقطع الخبر، وعمي الأثر، وطويت تفاصيل أخبار العلماء لما دهم الحضرة في المائة العاشرة من الفتن بتقلّص ظلّ الدوّلة الحفصية عنها، وبلوغها سنّ الهرم، فتجاسر عليها الثوار من كلّ جانب، وتنقصت أطرافها وأجلبت الأعراب عليها، وامتدت أيدي العدو الكافر عليها. وقد كان في الحضرة في هاتيك الأيام علماء أعلام كالقاضي أبي حفص القلشاني الحفيد، والشيخ أحمد سليطن، والإمام الصوفي محمد الحويجب، وإمام المعقولات وبحر المنقولات محمد مغوش. ولم نقف على تفصيل أحوالهم[905]. وهكذا انقطع التسلسل والتعداد لأئمة جامع الزيتونة حوالي ثمانين سنة نتيجة لتلك الأحداث إلى أن جاء الأتراك العثمانيون إلى تونس.

ونقطة أخرى يحسن أن نشير إليها هنا وهي ما ذكره ابن أبي دينار في

---

(903) ش ـ أ جوليان (2: 153).

(904) المؤنس (161).

(905) أثبت تلك الرسالة ابن أبي الضياف في تاريخه (7: 61 - 62) وعنها نقلت النسخة الخطية بدار الكتب الوطنية.

بداية حديثه عن السلطان الحسن بن محمد بن الحسن الذي تولّى السلطنة سنة 932 هـ. فقد قال ابن أبي دينار: وهنا انتهى النقـل الذي قيّده الزركشي. ولم أطلع على ما سواه إلاّ ما تلقيته من أهل الحاضرة. ولهذا نأتي جملاً لا تفصيلاً ولم أقيّد نفسي بتـاريخ الوقائع لقلّة الضبط ولم أجد من له اهتمام بهذا الأمر..»[906]. بينما النسخ المعروفة من تاريخ الدولتين تنتهي بسنة اثنين وثمانين وثمانمائة هجرية. ولسنا هنا بصدد مناقشة هذا القول الداعي إلى التساؤل وإنما ذكرناه تأكيداً للغموض الذي كان يسود تلك الحقبة من تاريخ البلاد.

(906) المؤنس (161).

الفصل الحادي عشر

انهيار السلطنة الحفصية أمام الخطر الاسباني

النزعة الصليبية في المغرب الإسلامي

استمرت فترة الغموض التي دخلتها السلطنة الحفصية من عهد السلطان أبي عبدالله محمد إلى نهاية تلك السلطنة. وهي فترة لا يمكن إبعادها عن النزعة الصليبية التي سادت الصراع الذي دار بين الأمم النصرانية والدول الإسلامية في المشرق والمغرب الإسلامي على حدّ سواء، فإذا كانت الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي كانت تستهدف ـ أول أمرها ـ الاستيلاء على بيت المقدس، ثم آلت إلى المحافظة على المكاسب والدويلات التي تكوّنت نتيجة لتلك الحملة دون أن تتخلّى عن شعارها الديني المسيحي، فإن ذلك الشعار لم ينفكّ ملازماً لجميع أوجه الصراع التي ظهرت في الأندلس وتزعمتها كل من المملكة البرتغالية والمملكة الإسبانية المتحدة.

وكانت مملكة البرتغال أكثر توسعاً وأسبقَ دخولاً في المغرب الأقصى. فمنذ سنة 818 هـ (1415 م) نزل البرتغاليون في مدينة سبتة بقيادة هنري الملّاح ووضعوا حمايتهم عليها. ثم ازدادت حركة نزول البرتغاليين زحفاً وعنفاً بعد استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية سنة 857 هـ (1453 م) عندما جهّز «الأذفونش الخامس» أسطولاً كبيراً واستولى على القصر الصغير بين سبتة وطنجة سنة 862 هـ. (1458 م) ثم جاء دور مدينة طنجة وآنفا وأصيلاً بعد ذلك. وكانت حالة بني وطاس لا تسمح بدفع هؤلاء الغزاة نظراً

لما كان عليه الوطاسيون من ضعف، وما كانت عليه بلاد المغرب الأقصى من انقسامات وحروب داخلية.

وفي الرّبع الأول من القرن العاشر الهجري (السادس عشر ميلادي) استولى البرتغاليون على بقية مدن السواحل المغربية بشواطىء المحيط الأطلسي مثل العرائش وأغادير وإيفني وآزمور. وهكذا لم تأت سنة 925 هـ (1520 م) حتى كان الساحل الغربي من المغرب الأقصى خاضعاً لحكم البرتغاليين وتحت سيطرتهم[907].

أمّا المملكة الإسبانية المتحدة فإنها ـ بعد استيلائها على غرناطة والتوقيع على وثيقة التسليم ذات السبعة والستين شرطاً المتضمنة لاحترام المسلمين في دينهم وأملاكهم وسلامتهم وحرية هجرتهم ـ سرعان ما قلبت ظهر المجن، ونقضت كلّ تلك الشروط تحت تأثير الكنيسة وضغطها بزعامة الكردينال كسيميناس (Ximénès) لِمَا له من نفوذ فعّال على الملكة إيزابيلاّ، فابتدأت الدعوة إلى تنصير المسلمين بطريقة الإرشاد أولاً. ثم كانت الطّامة الكبرى سنة 905 هـ (1499 م) عندما صدر قانون يقتضي إجبار المسلمين على التنصّر وتحريم إقامة شعائرهم الدينية، وغلق المساجد. وقد عمد ذلك الكردينال إلى الكتب الإسلامية الموجودة بغرناطة وحرق منها مئات الآلاف، ولم يبق منها إلاّ ثلاثمائة كتاب في الطب[908]. ثم بعد سنتين من ذلك أي سنة 907 هـ (1501 م) منع وجود الإسلام والمسلمين في إسبانيا إذ أصبح ذلك الوجود يعتبر خطراً على الدولة الإسبانية والمذهب الكاثوليكي. ومنع المسلمون من حمل السلاح بأيّ وجه كان. وكان من نتيجة هذا الضغط الجديد أن ثار المسلمون بجبال البشرات فاستعمل الإسبان ضدّهم كلّ وسيلة لقمع تلك الثورة واستغاث الثوار المسلمون بالسلطان العثماني بايزيد الثاني ولكنّ هذا السلطان كان مشغولاً بالاستعداد لغزو سلطنة المماليك في مصر

---

(907) م. ع. المطوى (الحروب الصليبية في المشرق والمغرب) (119).

(908) المصدر السابق (187).

والشام دون أن يعبأ بما يلقاه الثوار المسلمون في الأندلس.

وأثبت المقّري في كتابه «أزهار الرّياض» القصيدة التي بعث بها أولائك الثوار إلى بايزيد الثاني في أكثر من مائة بيت فيها وصف شامل مثير لما نال الإسلام والمسلمين هناك. وجاء في القسم الأخير من تلك القصيدة ما يلي:

فَهَا نحنُ ـ يا مولاي ـ نشكو إليكُمُ فهـذا الـذي نلنـاه من شرِّ قـوّةِ
عسى دينُنَـا يبقَى لنـا وصـلاتنـا كما عاهدونا قبـل نقضِ العزيمـةِ
وإلّا فيجلونـا جميعـاً مِن ارْضهم بـأمـوالِنـا للغـرب دارِ الأحبّـةِ
فهذا الذي نرجوه من عزّ جاهكم ومن عندكم تقضى لنا كلُّ حاجةِ
ومن عنـدكم نرجـو زوال كـروبنـا ومـا نالنا من سوء حـال وذلَّةِ[909]

ولكنّ هذه القصيدة ذهبت كصرخةٍ في وادٍ، أو نفخة في رماد على حدّ قول الأول:

لقـد أسمعتَ لـو نـاديت حيّـاً ولـكـنْ لا حيـاةَ لـمـن تـنـادي

وكانت ميوعة السلطان العثماني من أهمّ الأسباب التي قضت على تلك الثورة مهما حاول الدّارسون البحث عن مظاهر للمساعدة العثمانية لثوار الأندلس إذ ذاك[910] بينما ظلت المملكة الإسبانية المتحدة تواصل حملاتها القمعية ضد البقية الباقية من مسلمي الأندلس، كما ظلت تلك المملكة منقادة لتحريضات الكردينال كسيميناس في تعقّب المسلمين في بلاد المغرب الإسلامي.

---

(909) انظر كامل القصيدة في أزهار الرياض (1 :109 - 115).

(910) انظر العدد 27 من مجلة الأصالة: رسالة من مسلمي غرناطة ـ د. ع. التميمي.

بداية النزول الإسباني في الشواطىء الحفصية

لقد انتهزت المملكة الإسبانية المتحدة حملة على مالقة وألَش قام بها بعض المغامرين المسلمين وردوا من المرسى الكبير بالجزائر، فجهزت أسطولاً بحرياً كبيراً هجمت به على المرسى المذكور ووقع الاستيلاء عليه سنة 914 هـ (1505 م). وكان ذلك بداية النزول الإسباني في شواطىء المغربين: الأوسط والأدنى. ثم تبعته وهران التي جرت فيها مذبحة كبيرة قتل فيها أكثر من أربع آلاف من المسلمين، وأسر فيها ثمانية آلاف، وحوِّل مسجدان إلى كنيستين. وكان ذلك بإشراف الكردينال كسيميناس نفسه[911] وبقيادة «بيدرو نفارو» الذي استولى بعد ذلك على بجاية في مفتتح سنة 1510 م (915 هـ). ويعني كل ذلك ابتداء الهجوم المباشر على السلطنة الحفصية واقتطاع أطرافها.

وبعد الاستيلاء على بجاية اتجهت أنظار القوات الإسبانية إلى مدينة طرابلس التي كانت تعتبر على مشارف أقصى امتداد شرقي للسلطنة الحفصية. فما هي العوامل والأسباب التي جعلت الإسبان يبادرون بالتوجه إلى طرابلس قبل غيرها من بقية موانىء السلطنة الحفصية؟ مِمّا لا شك فيه أن ذلك لم يكن اعتباطاً بل كانت هنالك عوامل عدّة دفعت إلى ذلك التعجيل. ولعلّ من أهم تلك العوامل هو ظهور الدولة العثمانية كدولة بحرية

(911) ش ـ أ ـ جوليان (1 :252).

قوية في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. وكانت طبيعة الصراع على السيادة في هذا البحر توجب الإسراع باحتلال أكثر ما يمكن من موانيه وسواحله لا سيما ما كان منها قريباً - ولو نسبياً - من امتداد النفوذ العثماني. واحتلال الإسبان لطرابلس يعني - إذ ذاك - احتلالهم لمنافذ الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط الذي تعتبر المملكة الإسبانية القوة الضاربة فيه. وبذلك تمكن الحيلولة بين الأسطول العثماني وبين تمركزه في الحوض الغربي من هذا البحر. كما يعتبر احتلال بجاية غرباً وطرابلس شرقاً ضربَ حصار واسع النّطاق على السلطنة الحفصية - أو على الأقل - القبض على جناحي ذلك الطائر حتى لا يحلّق في الجو ويصعب مسكه. وكان اختيار تلك المناطق البعيدة عن السلطة المركزية الحفصية لا يخلو من حنكة سياسية وحربية، وتقدير موفق للانتصار بالإضافة إلى ما كانت عليه السلطة المركزية الحفصية من وهن وضعف.

وإذا عجز أبو عبدالله محمد الحفصي عن خضد شوكة الأعراب حتى أعادوه منهزماً إلى تونس العاصمة في ثمانية من الخيول فإنه ليكون أعجز - لا محالة - إذا توجهت إليه القوات الإسبانية واحتلت ثغور بلاده الساحلية.

سقوط طرابلس في يد الإسبان

كان الوضع السياسي والعسكري في مدينة طرابلس مِمّا يساعد على النجاح في غزوها واحتلالها؛ فمنذ عـدّة عقود أصبحت طـرابلس واهية الارتباط بالسلطة المركزية الحفصية. ويذكر بعض المؤرّخين أن طرابلـس - إبّان الغزو الإسباني - كان يوجد فيها الأمير الحسن بن أبي عبد الله محمد الحفصي مغاضباً لأبيه وفي خلاف معه. كما يذهب البعض الآخر إلى أن ذلك الخلاف تطوّر - فيما بعد - إلى حدّ أن دبّر هذا الولد المغاضب قَتْل والِده كي لا يعدل عنـه في ولاية العهـد إلى غيره من إخـوته الأربـع والعشرين[912] بل يذهب آخرون إلى ما هو أبعد من ذلك عندما يجعلون من الأسباب التي ساعدت الإسبان - أو شجعتهم على غزو طرابلس - هو أنّ أحد أبناء السلطان الحفصي المسمّى «أحمد» كان في خلاف مع والده. وأنه ذهب إلى الإسبان مستنجداً بهم ضد أبيه[913].

وتذكر بعض المصادر التاريخية قصة لا تخلو من طرافة اعتبرت من الأسباب التي شجعت الإسبان على غزو طرابلس وافتكـاكها من النفـوذ الحفصي مفادها: أنه جاءت إلى طرابلس سفينتان إسبانيتان مملؤتان بالبضائع فاشتراهما تاجر واحد، ودفع الثمن نقداً فتعجبَ أصحاب السفينتين لذلك.

---

(912) حقائق الأخبـار عن دول البحار (1 :419).
(913) إضافات الزاوي على تذكار ابن غلبون (104).

ثم دعاهم تاجر آخر إلى الضيافة عنده وأقام لهما مائدة فاخرة مِمّا زاد في إعجابهم. وقد تملّك هذا التاجر الغرور إلى درجة أن أخذ لؤلؤة ثمينة ودقّها دقّاً ناعِماً، وذرّها على الطعام وعلى مرأى من الضيوف. وقال لهم: هذا مقام الفلفل. ثم أحضر دلّاعة ولكنه لم يجد سكّيناً يقطعها بها، فسألهم سكيناً فلم يجد عندهم. فسأل الجيران فلم يجد، فذهب إلى السوق واشترى سكيناً وعندما سألوه عن عدم وجود السكّين قال لهم: إن الأهالي ضجروا من حمل السلاح ليلاً ونهاراً أيّام الظلم والعدوان. ولمّا استقرّ الأمن والعدل صار حمل السلاح بيننا أمْراً معيباً. ومن حمَلَه يعرّض نفسه للإهانة. فتعجب أولائك الإسبان مِمّا رأوا، وأخبروا دولتهم بذلك فطمعت إسبانيا في طرابلس واحتلّتها. . »[914].

ولا شك أنّ هذه الحكاية لا تعْدوا أن تكون من «الأوضاع» التاريخية أي إنها إلى الاختلاق أقرب. ولكنها ـ حسبما نرى ـ إنما وضعت رمزاً لتبرير احتلال الإسبان لطرابلس، أو تدليلاً على مَدَى ضعف القوة الحامية للمدينة من قبل المسؤولين الحفصيين، وعدم امتلاك السلاح لذلك في وقتٍ كان فيه المغرب الإسلامي مهدّداً بالاحتلال من القوة الإسبانية المتكالبة على التوسع في مناطق النفوذ.

وحتى على افتراض صحة الخبر فإنه لا يعدو أن يكون اعتذاراً من ذلك التاجر الذي كان لا يملك سكيناً تتناسب مع مظهر الإسراف الذي تباهى به أمام التجار الإسبان. ومهما يكن فإن الغزو الإسباني لم يكن أمراً مفاجئاً إذ وصلت الأخبار المنذرة بالحملة العسكرية المتوجهة إلى طرابلس قبل شهرين من وصولها مِمّا جعل الأهالي يهجرون مدينة طرابلس إلى غريان وتاجورة ومسلّاتة وغيرها، وأخذوا معهم كلّ ما كان مهمّاً من المال والمتاع[915] ولم

(914) التذكار (109 ـ إضافات الزاوي) حقائق الأخبار (1: 446) نزهة الأنظار لمقديش (1: 252-253).

(915) التذكار (104 ـ إضافات الزاوي).

يبق بالمدينة إلّا الحاكم والمحاربون والعاجزون عن الفرار، فعلامَ يدلّ هذا؟ ألّا يدلّ على أن الأهالي كانوا على يقين بأن السلطة الحاكمة في البلد لا قدرة لها على صدّ العدوان الإسباني، وأنّ حكاية اللؤلؤة والدلّاعة لا يبعد أن تكون أسطورةً اختلقت للانتقاد على تلك السلط. وأن المسألة ليست مسألة أمْن وعدل حتى اعتبر حمل السلاح عيباً، بل إن المسألة هي فقدان القوّة التي جعلت سكّين قطع الدلّاعة رمزاً لها.

وبينما تشير الأسطورة إلى الضعف الذي كانت عليه البلاد فإن الأخبار التاريخية تذكر الاستعداد الكبير الذي استعدّ له الإسبان حتى يقوموا بحملتهم تلك، فقد ذكروا أن الإسبان جهّزوا لغزو طرابلس مائة وعشرين قطعة بحرية. ثم انضمّت إليها سفن أخرى من مالطة وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان وثلاثة آلاف من المالطيين والطليان. وأنّ الحملة وقع إعدادُها بإشراف نائب ملك قشتالة في صقلية[916]. فلماذا كلّ هذا الاستعداد لو صحت أسطورة التاجر صاحب اللؤلؤة والدلّاعة؟ مِمّا لا شك فيه أن ذلك الاستعداد لم يكن مقصوداً به قوات طرابلس ـ مهما كانت عليه تلك القوات ـ، وأن ذلك الاستعداد لم يكن بدافع الخوف من القوات الحفصية التي لم تحرك ساكناً عند احتلال بجاية، بل كان المقصود من ذلك هو التصدّي للأساطيل العثمانية إذا قدّر لها أن تعترض الأسطول الإسباني لتمنعه من النزول في طرابلس. وذلك ما يتماشى مع منطق الأحداث المهيئة لصراع عنيف على السيادة في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

أمّا حامية طرابلس فلم تصمد أكثر من يوم أمام الأسطول الإسباني بقيادة «بيدرو نافارو» ففي صبيحة الثامن عشر من ربيع الثاني سنة 916 هـ (جويلية 1510) بدأ النزول الفعلي للجيش الإسباني. ولم يأت الغروب حتى سقطت مدينة طرابلس في أيدي القوات الإسبانية «.. ولم يَخْلُ في المدينة

---

(916) المصدر السابق علماً بأن صقلية كانت ـ إذ ذاك ـ تابعة لإسبانيا.

موضع قدم من قتيل ـ كما يقول نافارو في رسالته لنائب الملك في صقلية ـ وقدّر عدد القتلى بخمسة آلاف، وعدد الأسرى بأكثر من ستة آلاف. ولم يكلّف ذلك الغزو القوات الإسبانية سوى ثلاثمائة قتيل»[917].

وإذا وقع السكوت عن موقف أبي عبدالله الحفصي من احتلال بجاية فإننا نجد ابن أبي دينار يذكر خبراً مقتضباً عن موقف هذا السلطان من احتلال طرابلس نقله عن خط الشريف بركات. وهو ما يلي: «أخذت طرابلس من يد محمد سنة 914 هـ قام بها ابن قراب وملّكها للنّصارى وبعث لهم جيشاً مقدمه القائد محمد أبو حداد ـ وكان من أكبر قواده ـ فبارزه قبطان النّصارى فأخذه أبو حداد بالحملة وساقهُ أسيراً. وأبو حدّاد هذا كان قائد توزر. .»[918] فهل يعني هذا الخبر أن السلطان الحفصي بعث إلى قائده بتوزر حتى يصدّ الغزاة الإسبان وأن المعارك وصلت بين الطرفين إلى حدّ المبارزة بين القائد الحفصي والقبطان الإسباني؟ مهما كانت صحة هذا الخبر المقتضب فإن القبطان الإسباني الذي أسره أبو حدّاد لم يكن هو قائد الحملة، وأن النجدة الحفصية لم تتمكن من إزالة الاحتلال الإسباني، لأن قائد الحملة الإسبانية «بيدرو نافارو» انتصب حاكماً على طرابلس واتخذها قاعدة لتوجيه حملاته على جزيرة جربة.

(917) المصدر السابق.

(918) المؤنس (161).

جربة تصمد أمام الإسبان

كان الاستيلاء على مدينة طرابلس مشجعاً للإسبان على مواصلة اقتطاع أطراف السلطنة الحفصية. ولهذا اتخذوا من مدينة طرابلس نقطة انطلاق وارتكاز لمحاولة احتلال جزيرة جربة. وهي جزيرة لا تخفى أهميتها العسكرية والتجارية على حدّ سواء.

وقد يجدر التذكير بأن جزيرة جربة كانت ـ منذ القديم ـ منطقة صراع وتنافس بين حكام السواحل الشمالية والسواحل الجنوبية للحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط لا سيما مع الحكام المستولين على جنوب إيطاليا أو جزيرة صقلية. وهو الصراع الذي استمرّ منذ عهد الحروب التي دارت بين قرطاجة وروما خاصّة.

وفي العهد الإسلامي تواصل ذلك الصراع، وقد اتضح أكثر منذ أن استولى النرمان على جزيرة صقلية وافتكوها من السيادة الإسلامية. ولم يكتف النرمان بذلك، بل تابعوا سياستهم في مطاردة المسلمين في إفريقية نفسها، لا سيما في عهد روجير الثاني إذ تمكّنوا من الاستيلاء على جزيرة جربة في عهد الحسن الصنهاجي ولم يخرجوا منها ومن سواحل إفريقية إلّا عندما جاء الموحّدون بقيادة عبد المؤمن بن علي في سنة الأخماس أي سنة 555 هجرية.

وعاد الصراع على جربة من جديد في عهد الحفصيين ابتداءً من

ولاية المستنصر الثاني (أبي حفص عمر) إثر تولّيه السلطنة بعد انهزام الدّعي ابن أبي عمارة، فقد انتهزت مملكة أرغونة فترة الاضطرابات التي عمّت السلطنة الحفصية ـ إذ ذاك ـ وقام أسطول أرغونة وصقلية بغزو الجزيرة والاستيلاء عليها بقيادة روجير دي لوريا (Roger de Lauria) واستقرّ الإسبان في الجزيرة، وبنوا حصن «القشتيل» المشهور الذي يتحدث عنه التجاني في رحلته بقوله:

«.. ثم أصبحنا من الغد مُرْتحلين فلم نزل نمشي بين نخيل باسقة، وثمار متناسقة إلى أن وصلنا موضع القشتيل ـ دمّره الله ـ فرأينا حصناً يهول النّاظر إتقاناً وحصناً وهو مربع الشكل. وفي كلّ ركن منه برج. فاثنان منها مستديران، واثنان مثمّنان، وبين كلّ برجين من هذه في وسط الحائط برج صغير مربّع، ويدور به فصيل صغير. ويدور بجميع ذلك حَفْر متسع، فنزلنا على مقدار ميل منه..»[919].

وقد لقي سكّان الجزيرة ـ أثناء ذلك الاحتلال العنت والإرهاق وظلّ الإسبان معتصمين بذلك الحصن مدّة نصف قرن (688 - 738 هـ) أي إلى أن تمكّن القائد مخلوف بن الكماد من الاستيلاء عليه، وتحريره من أيدي النّصارى الإسبان.

وفي عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز حاول «الفونصو الخامس» ملك أرغونة وصقلية احتلال جربة من جديد ـ عندما كان أبو فارس يمهد أحوال البلاد في مناطق الجريد. إلاّ أن نجدة أبي فارس عبد العزيز استطاعت إنقاذ الجزيرة من احتلال جديد عندما أجبر الفونصو الخامس وجنوده على مغادرة جربة بعد أيام قليلة من النّزول بها. وكان ذلك سنة 835 هـ/ 1432 م.

ولم يكن اتجاه «بيـدرو نافارو» إلى جربة ـ بعد استيلائه على طرابلس ـ إلاّ استمراراً لتلك المحاولات السابقة من مالكي جزيرة صقلية للاستيلاء على

(919) رحلة التجاني (128).

جربة باعتبارها إحدى الرّكائز التي يعتمد عليها باب الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

وإذا كان السلطان أبو عبدالله محمد الحفصي حاول مساعدة طرابلس على مقاومة الاحتلال الإسباني بإرساله محمد أبا حداد عامله على الجريد - بدون نتيجة - فإننا لا نجد له موقفاً مماثلاً عندما حاول «بيـدرو نافارو» الاستيلاء على الجزيرة.

والواقع أن الإسبان حاولوا - جهدهم - الاستيلاء على جربة، وقاموا بثلاث محاولات دون أن يتمكنوا من ذلك وقد قام بيادرو نفارو باثنتين منها.

الأولى في شهر جويلية (ربيع الأول) سنة 1510 م/ 916 هـ.

والثانية في الشهر الموالي من نفس السنة.

أما الحملة الثالثة فكانت بعد ذلك بعشر سنوات إذ كانت في سنة 1520 م (926 هـ) بقيادة «الدون هوڤـو دُوُ مَنْكادا Don Hugo de Mancada نائب ملك إسبانيا المتحدة مع صقلية.

ويصف الشيخ بوراس المحاولتين الأوليين بقوله: «.. وفي سنة ست عشرة وتسعمائة ليلة الثلاثاء لتسع وعشرين خلت من شهر ربيع الأول هجم الإفرنج على الجزيرة على الساحل القبلي بعدما ملكوا مدينة طرابلس. وكان شيخ الجزيرة أبا زكرياء يحيى السمومني واجتمع أهل الجزيرة في بـرج «القشتيل» فنزلت فلوكة وفيها رجل من طرف رئيس الإفرنج [يعني به بيادرو نفارو] ومعه كتاب للشيخ يخاطبه فيه على أن يسلّم له الجزيرة أو القتال، أجابه (الشيخ) بأنّ له رغبة في القتال، وأغلظ له الخطاب. فلمّا بلغه الجواب استعدّ لنزول البحر، فتحوّل المسلمون إلى قربهم عند «قصر مسعود» فنظر أعداء الله إلى كثرة المسلمين، وعلموا أن لا طاقة لهم بقتالهم فانصرفوا راجعين إلى طرابلس. ولم ييأس المسلمون منهم فأخذوا للتأهّب للقتال إلى ليلة الخميس لثالـث وعشرين خلت من جمادى الأولى [إذ] قدمت جميع

مراكبهم التي كانت بطرابلس، وقدرها مائة وعشرون مركباً بعساكرهم فوجدوا المسلمين مجتمعين عند «قصر مسعود» ومعهم الشيخ السمومني وأولاده يحرّضون المسلمين على القتال.

وفي يوم الجمعة استعدّ الكفار للنزول فصلّى المسلمون صلاة الجمعة وخطب خطيبهم بما أعدّ الله من النّعيم المقيم للمجاهدين في سبيل الله، ونزل عدوّ الله بعساكره رجالاً ورُكْباناً بطبولهم وآلة حربهم من مدافع ومحرقات وغيرها، فرتب المسلمون صفوفهم ميمنة وميسرة وقلباً. وعند نزولهم البرّ هجموا على المسلمين فولّى المسلمون أمامهم فاتّبعتهم الكفرة وقد أكمن المسلمون جماعةً من المجاهدين ومعهم الشيخ سليمان بن الشيخ يحيى السمومني فقطعوا بينهم وبين البحر، ورجع عليهم المسلمون وحملوا عليهم من كلّ جهة وجانب حملةَ رجلٍ واحدٍ. وأعلنوا كلمة التوحيد، ووضعوا فيهم السيف فلم يبق منهم إلاّ القليل فأسروهم ولم يرجع أحد منهم إلى سفنهم . . »[920].

هذا ما قاله الشيخ بوراس عن حملتي «بيادرو نافارو» على جزيرة جربة. وهو كلام لا يخلو من غموض ومبالغة أحياناً. ولكنّ الثابت هو أنّ أهالي الجزيرة صمدوا وحدهم لمجابهة الغزوتين لا سيما الغزوة الثانية التي تعزز فيها جانب «بيدرو نفارو» بنجدة كبيرة جاءته من مدينة بجاية بقيادة «دون غرسيا» الطليطلي الذي لقي حتفه في المعركة[921].

أما الحملة الثالثة التي وقعت سنة 926 هـ (1520 م) بقيادة نائب ملك إسبانيا في صقلية فإنها لم تنجح كذلك رغم كثرة جيشها إذ كان يشمل ألف فارس وأكثر من ثلاثة عشر ألفاً من المشاة[923].

---

(920) مؤنس الأحبة للشيخ بوراس (106 - 108).

(922) انظر تفصيلاً عنها في «فرسان القديس يوحنا» تأليف عمر الباروني من صفحة (50) مؤنس الأحبة من صفحة (108).

(923) مؤنس الأحبة (12).

فشل الغزوات الإسبانية الأولى

أمام فشل الغزوات الثلاثة الإسبانية لجزيرة جربة يمكن التساؤل: إلى مَا يعزى ذلك، وإلى ما يعود ذلك الصمود أمام الغزوات الإسبانية رغم أنّ سكان الجزيرة لم يتلقوا أيّة مساعدة من السلطة المركزية الحفصية.

أغلب الظنّ أنّ ذلك يعود إلى وضعية اجتماعية هامّة تسود سكّان الجزيرة إذ ذاك، فبالإضافة إلى الشعور بأنّ السلطان الحفصي قليل المبالاة والاهتمام بالتعرّض للأساطيل الإسبانية وما تقوم به من احتلال لمختلف مناطق السلطنة الحفصية[924] وإلى التحفّز من خطر الإبادة من قبل الغزاة، فإن سكان الجزيرة - وكانوا - إذ ذاك - على مذهب الإبّاضية كانوا يشعرون بما تشعر به كلّ أقلية من تحفّز وتكتّل. ولهذا فإنهم عندما رأوا الخطر الإسباني يستهدف السواحل الإسلامية، وأيقنوا بأن دور الجزيرة آتٍ لا ريب فيه، بعثوا إلى أتباع مذهبهم في جبال نفوسة بليبيا مستصرخين نجدتهم طالبين منهم الدعاء بالسلامة والتأييد. وبالرغم من أنّ «الشماخي» لم يذكر في كتابه «السير» بعث النجدات من جبال نفوسة إلى جربة إلاّ أنّ ذلك لا يمنع احتمال ذهاب المتطوّعين لنصرة إخوانهم في المذهب، والدفاع معهم ضدّ العدوّ المتوقّع نزوله إذ يذكر محمد بن زكرياء الباروني ذلك التوقع بقوله:

«.. لما اتصل بالمسلمين أهل المغرب استيلاء النّصارى على المرسى

(924) ملحقات مؤنس الأحبة (144).

الكبير هالهم ذلك وأحزنهم لعلمهم أنهم ـ لا محالة ـ يستولون على مدينة وهران، وأنهم ـ إن فعلوا ـ فالباقي من بلاد المغرب في خطر عظيم، فصاروا يتوقعون ذلك وينتظرونه، فقضى الله، فاستولوا عليها في شهر المحرم فاتح خمسة عشرة وتسعمائة فاشتدّ حزن المسلمين وقوي البلاء عليهم.. فلما كان شهر رمضان من السنة نفسها أخذوا مدينة بجاية. فلّما اتصل ـ أيضاً ـ خبرها بمن بقي من المسلمين زاد خوفهم خوفاً، وأكثرهم خوفاً أهل جزيرة جربة لما سبق بينهم وبين النّصارى من العداوة، ولأنّ البحر محيط بها، وأنها لا تقوم بنفسها[925].

هذه ـ إذن ـ هي العوامل النفسية التي يمكن اعتبارها من أهمّ العوامل التي جعلت المحاولات الإسبانية لاحتلال جزيرة جربة تمنى بالفشل. بالإضافة إلى بعض العوامل الطبيعية التي ساعدت على ذلك:

ففي المحاولة الأولى يبدو أن «بيدرو نافارو» كان يستسهل غزو الجزيرة، وأن أهلها سوف لا يصمدون أمام الجيش الإسباني الذي سبقت قدومه إلى الجزيرة أخبار انتصاراته من المرسى الكبير بالجزائر إلى طرابلس الغرب بينما كان أهالي الجزيرة على يقظة تامة، وحراسة متواصلة حتى لا يفاجئهم العدو بالنزول.

وكانت البادرة الأولى التي قام بها سكان الجزيرة أنهم قتلوا الرّسل الثلاث الذين أنزلهم القائد الإسباني للتفاوض، وكانوا يحملون أعلاماً بيضاء إشعاراً بمجيئهم للتفاوض، ولعرض رسالة من قائد الأسطول الإسباني إلاّ أن سكان جربة كانوا على استعداد للدفاع والمقاومة والقتال... فلم يتقدم حاملو الأعلام كثيراً في أرض الجزيرة حتى تقدم منهم الحراس المكلّفون بخفر السواحل، ولم يلتفتوا إلى ما كانوا يقولون، وما كانوا يعرضون فعاجلوهم بالقتال...»[926] ولا يستبعد أن تكون هذه المبادرة مفاجئة للغزاة جعلت

(925) ملحقات، مؤنس الأحبة (134).

(926) مؤنس الأحبة: (100).

قائدهم يعلن العودة إلى طرابلس لما أصيبوا به من صدمة نفسية غير منتظرة.

أمّا الحملة الثانية التي استعد لها الإسبان استعداداً كبيراً فقد صادف أنّ يوم نزولهم بالجزيرة كان يوماً شديد الحرّ إلى درجة كبيرة، وأنّ سكان الجزيرة هيأوا خطة المكامن والخدعة ضد الإسبان فانسحبوا إلى داخل الجزيرة تاركين الغزاة يتوغلون في أرض لا ماء فيها ولا آبار ـ وقد استبدّ بهم العطش واشتد بهم الحرّ ـ حتى وصلوا بهم إلى مكان فيه آبار وجرار كثيرة فاندفع الجنود الإسبان يتخاطفون القلال والجرار ويتنازعون على شراب الماء حتى انخرمت صفوفهم بينما كان سكان الجزيرة في مكامنهم يتربصون الانقضاض عليهم. وهذا ما تمّ فعلاً حسب الذي يذكره رواة الواقعة، فقد انقضّ سكان الجزيرة على الغزاة الإسبان وأعملوا فيهم السيوف والرّماح حتى جندلوا منهم ثلاثة آلاف، ووقع في الأسر أكثر من ذلك، وانهزمت البقية فارّة على السفن إلى طرابلس.

ومهما يكن في رواية هذه الحادثة من خيال أو مبالغة فإن أصولها لا تخلو من الصحة، ومن خطة جعلت الإسبان يفشلون للمرّة الثانية في محاولاتهم احتلال الجزيرة، وأن يكون لذلك الفشل صداه الكبير على النصارى ولدى المسلمين على حدّ سواء. مع ملاحظة أن الخدعة الحربية التي استعملها سكان الجزيرة لا تمنعها خطة الحرب، ولا يستبعدها العقل.

وإذا استطاع سكّان جربة الثبات والصمود بقواهم الذّاتية أمام الأسطول الإسباني فإن ذلك لم يمنع الإسبان من تسجيل عدّة انتصارات في مناطق أخرى من السلطنة الحفصية كما يأتي بيانه.

بداية التصادم العثماني الإسباني

المعروف أن ظهور الدولة العثمانية ـ كقوّة جديدة في البحر الأبيض المتوسط ـ ابتدأ منذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر ميلادي) وازداد ذلك الظهور استفحالاً في مطلع القرن العاشر هـ (سادس عشر م). وكان أهم ما سجله العثمانيون في المشرق الإسلامي استيلاءهم على مصر والشام والحجاز بالقضاء على سلطنة المماليك واحتلال القاهرة من قبل السلطان سليم الأول العثماني سنة 923 هـ (1517 م)، وبالقضاء على آخر سلطان مملوكي (طومان باي) بعد مقتل سلفه (قانصوه الغوري) في معركة «مرج دابق» الحاسمة. وعندما عاد سليم الأول إلى القسطنطينية أخذ معه آخر خليفة عباسي «محمد المتوكل على الله» وهو الخليفة الثامن عشر من الخلفاء الصّوريين الذي نصّبهم المماليك في القاهرة بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد هولاكو.

وقد حُمِل هذا الخليفة العباسي من القاهرة إلى القسطنطينية مع جملة الآثار والنفائس المنسوبة للرسول عليه السلام والتي كانت موجودة في القاهرة[927].

وبالاستيلاء على سلطنة المماليك أصبحت السلطنة العثمانية مسيطرة على سواحل الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط في نفس الوقت

(927) انظر عن نهاية المماليك والخلافة العباسية بدائع الزهور لابن إياس جـ 5 من صفحة 148.

الذي كان النفوذ الإسباني مسيطراً على حوضه الغربي بعد أن أصبحت مدن وهران والجزائر، ومستغانم ودلس وشرشال وبجاية، وعنّابة وطرابلس تحت نفوذ القوات الإسبانية. أمّا مملكة تلمسان فقد قنع صاحبها بالدخول تحت حماية القوات الإسبانية الغازية. ولهذا كلّه كان من الطبيعي أن يتصادم الإسبان والعثمانيون من أجل السيادة على البحر الأبيض المتوسط ما دام كلّ واحد منهما يطمح إلى السيطرة الكاملة عليه. إلاّ أن هذا الصراع لم يبدأ مباشرة بين الطرفين وإنما سبقته أعمال فردية تطورت فيما بعد إلى صدام مباشر بين الدولتين الكبيرتين.

ظهور الأخوين: عرّوج وخير الدين

كانت الأعمال الفردية الممهدة للتصادم المباشر بين الإسبان والعثمانيين تتمثل خاصة في ظهور مغامرين مسلمين صمّموا على مقارعة الإسبان في عرض البحار أو في الأراضي الإسلامية التي استولوا عليها أو دخلت ـ غصباً ـ تحت حمايتهم. وقد مرّ في السابق أن المتطوعين للجهاد الإسلامي ـ ضد حركة الاسترجاع الإسبانية ـ هالهم عجز ممالك المغرب الإسلامي عن نجدة المسلمين بالأندلس، كما هالهم الموقفُ المائع الذي وقفه الأتراك العثمانيون والمماليك أمام استغاثات الثوار المسلمين في جبال البشرات في الأندلس. وكان من أبرز أولائك المغامرين الأخوان عرّوج وخير الدين[928] اللذين أصبحت لهما شهرة عالمية بلغت ـ أحياناً ـ مستوى الأساطير.

ومما يذكر عن أصل هذين الأخوين أنهما من صَحراء الأناضول انتقل أبوهما إلى جزيرة مديلّلي ضمن الجيش العثماني واستقر فيها. وقد فتح هذه الجزيرة السلطان محمد الفاتح سنة 866 هـ (1462 م) وترك فيها حامية من جنوده منهم واحد يسمى «يعقوب» وتزوج يعقوب إحدى الذمّيات فأنجبت له أربعة أولاد هم: إسحاق وعرّوج، وخير الدين وإلياس. واشتغل الأخوان

(928) بعض المصادر تقول «أولوج» عن عروج و«خضر» عن خير الدين، انظر مثلاً حقائق الأخبار (1: 538 - 546).

عرّوج وخير الدين ـ أول أمرهما ـ بالتجارة البحرية. وفي إحدى سفرات عرّوج إلى طرابلس الغرب اعترضت سفينته سفن تابعة لجزيرة رودس واستولت عليها، وأسرت عرّوج مع أخيه إلياس، فكان هذا الحادث محوّلاً لحياة عرّوج. وبعدما تخلص من الأسر ـ حسب روايات مختلفة وغامضة أحياناً ـ اتجه إلى القرصنة والانتقام من سفن النصارى أخذاً بثأر ما فعلته معه سفن رودس النصرانية. ثم أخذ أمره يقوى شيئاً فشيئاً حتى وصل جزيرة جربة، ومنها التحق بتونس صحبة أخيه خير الدين الذي التقى به في جزيرة جربة وسلك هو أيضاً نفس المنهج الذي سلكه أخوه.

عروج وخير الدين في تونس

وفي تونس اتصل الأخوان بالسلطان الحفصي فأباح لهما الإقامة في أي ميناء يريانه. واتفق معهما على أن يكون له الخمس مما يستوليان عليه من غنائم النصارى. وكان السلطان أبو عبدالله الحفصي يترقّب منهما - زيادة على ذلك - أن يحدثا هيبة لدولته، وحماية سواحله نظراً لما يتمتع به الأخوان من كفاءة حربية بحرية فكانا يقيمان الشتاء في تونس ويخرجان - بداية من الربيع - في جولاتهما البحرية، كما كانت تدفع السلطان الحفصي رغبة استعادة ما افتكه الإسبان من أراضيه في الحفصية الغربية (بلاد الجزائر).

وقد اهتم مؤرخ مجهول بتدوين غزوات عرّوج وخير الدين في كتاب يحمل عنوانه عبارةَ «غزوات عرّوج وخير الدين»[929]. والكتاب - وإن كان لا يخلو من المبالغات والإفراط في التفاصيل - إلا أنه يفيد كثيراً عن أعمال هذين الأخوين وما كان لهما من أثر في مجرى السياسة الدولية في البحر الأبيض المتوسط.

ويصف الكتاب إحدى عودات خير الدين من الغزو قائلاً: .. ثم رجع خير الدين إلى مدينة تونس بهذه الغنيمة العظيمة. وبقي أخوه عرّوج في البحر فلم يَرَ أهل تونس إلا خير الدين داخلاً عليهم ببروز عظيم، وشهرة

---

(929) غزوات عروج وخير الدين.

زائدة، وخلفه المركب الذي غنمه، فدهش الناس من فعله، وتعجبوا من صنعه. وتحققوا أنه لا نظير له في إقدامه وشجاعته. واهتزّ له السلطان وأهل دولته. واشتغل خير الدين بإنزال الذخائر والسلع. فكان من جملة ما فيها ثمانون بازياً من طيور الصيد، وثلاثون صمصوماً[930] وعشرون من الكلاب السلوقية. وكان من عادة أهل تونس أنهم يلبسون أسارَى الروم ثياباً حساناً، وقلانس طوالاً، ففعل بهم خير الدين على العادة، وأعطى لكل أسير كلباً في يده. وألبس خير الدين رجاله ثياباً حساناً، وأعطى كلّ واحد منهم بازياً في يده. ويا له من مناسبة حيث أعطى كل واحد ما يشاكله. وكان من جملة ما خرج من المركب أربع بنات أبكار من بنات الروم لم يشاهد أحسن منهن خلقة فألبسهن ثياباً حسنة تناسب حسنهن وجمالهن. وكان لزعيمي النصارى اللذين كانا في المركب بنتان من أحسن البنات خلقة فزينهما بزينة تناسبهما، فأما الأربع بنات فأركبهنّ البغال. وأما البنتان فأركبهما على جوادين من عتائق الخيل. وكم من ذخائر ونفائس من الأمتعة وجهها، فبعث بالجميع مع أحد خواصه إلى السلطان فوقعت منه أحسن موقع وشاهد منها ما لم يشاهد أيام دولته. وكثر ثناؤه على خير الدين وعلى جماعته وقال: هكذا تكون الرجال[931].

هذه عينة من كتاب «غزوات عرّوج وخير الدين» نقلناها بنصها ـ رغم طولها ـ لما تحويه من مظاهر اجتماعية قد لا نجدها في المصادر التاريخية الأخرى، كما أنها تقيم البرهان على الأسباب التي جعلت السلطان الحفصي يستبشر بوجود الأخوين عنده عسى أن يكون هذا الوجود مضفياً عليه شيئاً من المهابة، وأن يجد فيهما وفي أسطولهما ما يخفف عنه الشعور بالحرمان من قوة حربية تستطيع أن تصد الغزاة، أو تقوم بردّ الفعل على الأقل، مع الإشارة ـ مرة أخرى ـ إلى أن هذه الفترة من تاريخ الدولة الحفصية كانت شديدة

(930) يشرحه ناشر الكتاب بأنه نوع من كلاب الصيد الكبير الرأس. ويسمّى في الجزائر طاروس.
(931) غزوات (16/15).

الغموض، قليلة التفصيل لما وقع فيها من أحداث.

ومهما يكن فقد كانت موانىء السلطنة الحفصية هي التي تدعمت في أحواضها القوة البحرية للأخوين عرّوج وخير الدين. وقد شجعتهما انتصاراتهما البحرية على التقدم والتوغل في عرض البحار إلى السواحل الإسبانية. وكان انشغال المملكة الإسبانية بالأحداث في البلاد الإيطالية وبخلافاتها مع لويز الثاني عشر (ملك فرنسا) ما جعلها لا تجابه بجدية أو بقوة رادعة ما تقوم به سفن خير الدين وعرّوج[932] كما أن «بيدرو نافارو Pedro Navaro» لم يبق مواصلاً لمغامراته البحرية التي حقق بها عدة انتصارات في المغرب الإسلامي. ولهذا استطاع عرّوج وخير الدين أن يقدما على تخليص الموانىء الجزائرية من الاحتلال الإسباني وأن ينقذا الكثير من الثوار المسلمين بالأندلس من الأسر والقهر، ويأتوا بهم إلى إفريقية.

(932) ش ـ أ ـ جوليان (2: 255).

اتصال عرّوج وخير الدين بالسلطنة العثمانية

ولم يمض وقت طويل حتى استطاع عرّوج تسجيل عدة انتصارات مما جعل سكان مدينة الجزائر يستنجدون به فأقبل عليهم وخلّصهم من الاحتلال الإسباني بعد أن هزم الإسبان وكبّدهم خسائر فادحة. ورغم الحملة الإسبانية التي قادها «دياقو دي فيرا Diego de Verra» لاسترجاع مدينة الجزائر فإن عرّوج تمكن من صدّهم ودحرهم مع تكبيدهم بالغ الخسائر مما جعل سكان مدينة تلمسان وصاحبها محمد الثابتي الزيّاني الخاضع للحماية الإسبانية يستنجدون بعروج ـ كذلك ـ لينقذهم مما هم فيه. ولكن بعد ستة أشهر من القتال والحصار انتصر الإسبان واستشهد عرّوج مع جماعة من أصحابه فانتقلت القيادة لأخيه خير الدين الذي ظل مستولياً على مدينة الجزائر ونواحيها.

وكان عرّوج ـ فيما يبدو ـ يشعر بقلّة العصبية التي تكثر من حوله، كما كان في حاجة إلى صبغة شرعية على ما يستولي عليه من الأراضي والأمصار. وبالرغم من أنه اتصل بالسلطان الحفصي وتعامل معه فإن وضع هذا «السلطان» لا يحقق له ما يرغب فيه. ولهذا اتجه بأنظاره إلى السلطنة العثمانية فبعث إلى السلطان العثماني ـ عندما استولى على قلعة جيجل ـ بهدية سنية ومفاتيح القلعة[933] إشارة منه إلى ربط حظوظه بحظوظ الدولة العثمانية.

---

(933) حقائق الأخبار عن دول البحار.

ثم ازدادت الصلة توثقاً بعد وفاة عرّوج عندما رأى خير الدين ـ لبعد نظره ـ أن الإسبان لا بد أن يقوموا برد فعل قوي متى تهيأت لهم الأسباب، كما أحس بتململ أهالي البلاد لا سيما بعد وفاة أخيه عرّوج. ولهذا وطّدَ خير الدين عزمه على الاعتراف بالسلطنة العثمانية وإعلان تبعيته لها، وانضوائه تحت لوائها، فأصبح يخطب باسم السلطان العثماني ويدعو له على المنابر.

وكانت السلطنة العثمانية ـ من جهتها ـ حريصةً على ذلك راغبة فيه. ولهذا بادر السلطان سليمان القانوني بتعيين خير الدين والياً على الجزائر برتبة أمير أمراء وبعث إليه بالإمدادات العسكرية. وكانت الدفعة الأولى تشمل أكثر من ستة آلاف مقاتل[934] وبذلك بدأ الارتباط الفعلي بالسلطنة العثمانية بالمغرب الإسلامي من جهة كما فقدت السلطنة الحفصية القسم الغربي من سلطنتها مثلما فقدت قبل ذلك طرابلس من جهة أخرى، بل إن السلطنة الحفصية نفسها كانت قد تهيأت لتصبح ميدان صراع وتنافس ما بين الإسبان والعثمانيين أصحاب الشوكة في البحر الأبيض المتوسط.

---

(934) إتحاف أهل الزمان (2 :10).

لماذا اتجه نظر عرّوج وخير الدين إلى الدولة العثمانية

إن قضية اتجاه كلّ من عروج وخير الدين إلى السلطان العثماني لاكتساب الصبغة الشرعية دون التوجّه إلى السلطان الحفصي يدعو إلى التساؤل لا محالة. فهل كان مجرّد ضعف السلطان الحفصي هو الذي دعا - خاصة - خير الدين إلى تغيير اتجاهه نحو العاصمة العثمانية البعيدة عنه بدل تونس العاصمة الحفصية القريبة منه، والتي كانت نقطة انطلاق عظمة أخيه عروج منها؟ الذي يبدو أن السلطان أبا عبدالله محمد الحفصي كان على حذر من الأخوين عرّوج وخير الدين لا سيما بعد استقرارهما في الموانىء الجزائرية. فهل كان يتوجس منهما خيفة وأنه ربّما اشتد أمرهما أكثر فيطمعان في الاستحواذ على السلطنة الحفصية نفسها؟ وقد يكون ما أحسَّ به أبو عبدالله الحفصي من بوادر اتجاه الأخوين المذكورين إلى الدولة العثمانية - لا سيما من خير الدين - من الأسباب التي باعدت التقارب والتساند بين الطرفين. ويذكر ابن أبي الضياف وغيره أن الأخوين عرّوج وخير الدين عندما ذهبا إلى استخلاص بجاية من يد الإسبان، وأشرفا على افتتاحها نفدَ ما عندهما من ذخيرة البارود فبعثا إلى السلطان الحفصي يطلبان منه مدّهما بالذخيرة إلاّ أن السلطان الحفصي تغافل عن الطلب «تخوفاً على ملكه المشرف على الانقراض»[934] إلاّ أن عروج وخير الدين لم يبقيا مكتوفي

(934) المصدر السابق.

الأيدي أمام تغافل السلطان الحفصي عن طلبهما فاشتريا البارود من جهة أخرى حتى تمّ لهما فتح مدينة بجاية. ثم توجها ـ بعد ذلك ـ إلى مدينة الجزائر. وكان موقف السلطان الحفصي من طلب الأخوين بدايه فتور العلاقات بين الأخوين وبينه عندما «.. منعهما البارود في وقت الاضطرار»[935].

ولم يكن موقف أبي عبدالله الحفصي يجافي روح العصر ـ إذ ذاك ـ من التخاذل والانحشار في بوتقة ذاتية ضيّقة ولو على حساب المصلحة العامة. ولهذا فإننا نرى ـ في حينه ـ أن الخلاف بين خير الدين والبلاط سوف يؤول إلى الحرب الفعلية وإلى التحالف الحفصي مع الإسبان. ويمكن انتحال العذر للحفصيين لو كان لهم من القوة والمناعة ما يجعلهم في حمىً من الانهزام وتسليم الوطن للأعداء التقليديين للمغرب الإسلامي ابتداء من الأندلس. ولكن ما ذكرناه من التخاذل والانحشار في الذاتية الضيّقة سوف يدفع بهم إلى تسليم البلاد إلى عدوّ في الدين والوطن حتى لا يسلموها إلى إخوة لهم في الدين على الأقل.

(935) المصدر السابق.

موقف صاحب تلمسان من خير الدين

ولم يكن موقف عبدالله الزيّاني ـ صاحب تلمسان ـ يختلف عمّا ذكرناه من روح التخاذل السائدة لدى حكام العصر لضعفهم النفسي، والسياسي، والعسكري. بل كان موقف صاحب تلمسان أكثر وضوحاً وتدليلاً على تلك النفسية التي جرّت الويلات والاحتلال. وقد سبق أن ذكرنا أن صاحب تلمسان استنجد ـ في أول الأمر ـ بعرّوج وخير الدين حتى يخلصاه من السيطرة الإسبانية بعد أن ارتضى بالحماية الإسبانية إثر احتلال بلاده بقيادة «بيدرو نافارو» لأهم المدن والموانىء من المرسى الكبير بوهران إلى مدينة بجاية، إلاّ أن أبا عبد الله الزياني قلَب ـ فيما بعد ـ ظهر المجنّ لخير الدين، ونقض ما كان بينهما من عهود. وكان هذا التراجع نتيجة لتدخلات الإسبان وإغراءاتهم لا سيما بعد وفاة القائد عرّوج. ويتحدث مؤلف كتاب «غزوات عرّوج وخير الدين» عن موقف صاحب تلمسان بقوله: «... وكان الطاغية (يعني ملك إسبانيا) وجه إلى سلطان تلمسان يعده ويمنّيه. وأرسل إليه مالاً عظيماً، وأغراه بالانتقاض على خير الدين والإجلاب على الجزائر برّاً مع إجلاب أجفان الطاغية بحراً. والتزم له أنه إذا استولى على الجزائر بأن يردّها إلى إيالته كما كانت في إيالة آبائه من قبل. وكان سلطان تلمسان في قلبه حزازة عظيمة من خروج ملك الجزائر من يده فحين ورد عليه كتاب الطاغية بذلك ألقى إليه سمعه وأخذ بمجامع قلبه وانتقض على خير الدين، وأخذ في الحركة إليه، فجعل يجمع عربه وأهل عمالته، وضرب أخبيته خارج

تلمسان ونبذ ما أسلف إليه خير الدين من الإحسان. وكان الطاغية وجه إليه أربعة عشر جفناً برسم إعانته»[936].

ويتمادى صاحب الغزوات متحدثاً بمثل ذلك الأسلوب إلى أن تندلع الحرب فعلاً بين خير الدين وبين صاحب تلمسان وحلفائه الإسبان. وتنتهي الحرب بهزيمة أبي عبد الله الزيّاني وفراره إلى تلمسان. وعندما لحقه خير الدين وحاصره، وأيقن بهزيمته «... وجه إلى خير الدين بمشائخ حضرته (تلمسان) وكبراء أهل دولته يلتمس منه الصلح كما جرت به عادته. وبعث معهم إلى خير الدين بثلاثين ألف دينار، فلم يقبلها خير الدين وقال لأولائك الرسل: إن هذا الرجل لا دين له ولا إيمان.. ينقض العهد مرة بعد المرة بما تسوّل له نفسه، وتارة بإغراء النصارى فليس له مني أمان أبداً، فرجع الوفد إلى أبي عبد الله الزياني بذلك وأعلموه بمقالة خير الدين. وعند ذلك خرج هو نفسه إلى المدينة وترامى بين يديه، وجعل يتضرع إليه في الإبقاء عليه. فقبل منه خير الدين وعفا عنه»[937].

---

(936) غزوات عرّوج (79).

(937) المصدر السابق (79 - 80).

استبداد الشابيين بالقيروان

بينما كانت أحداث الصراع والقتال تجري بين الإسبان وخير الدين من أجل السيادة على المغرب الأوسط (القطر الجزائري) كان الوضع في تونس الحفصية يسوده الغموض لا سيما من الناحية الوثائقية، فلم يذكر المؤرخون عن السلطان أبي عبدالله الحفصي شيئاً ذا بال، وهو الذي ظلّ على عرش السلطنة الحفصية نيّفاً وثلاثين سنة. وتوفي هذا السلطان سنة 932 هـ (1526 م) دون أن نجد في الوثائق التونسية ما يشفي غليل الباحث عمّا جرى خلال تلك السنوات وما تلاها حتى أن ابن أبي دينار ـ بعد أن ذكر وفاة أبي عبدالله محمد وتولية ابنه الحسن يوم وفاته اكتفى بالقول: إن هذا السلطان الجديد رفع المكوسات كلّها، وأجرى على الناس العادة العثمانية[938] وسار سيرة حسنة في أول الأمر. وهنا انتهى النقل الذي قيّده الزركشي. ولم أطلع على سواه إلا ما تلقيته من أهل الحاضرة. ولهذا نأتي به جملاً لا تفصيلاً. ولم أقيد نفسي بتاريخ الوقائع لقلة الضبط ولم أجد من له اهتمام بهذا الأمر..»[939].

وعندما ذكر ابن أبي الضياف أن الحسن الحفصي هذا «... حاول

(938) نسبة إلى جده السلطان أبي عمرو عثمان.

(939) المؤنس (161) وهذا النقل عن الزركشي يدعو إلى البحث والتساؤل ذلك أن النسخ الموجودة من الزركشي تنص على أن تاريخ الدولتين ينتهي في 882 مما هو خارج عن نطاق هذا المجال الآن.

تلافي الخرق ـ فأبطل المكوس كلّها، وأجرى الناس على عادة جدّه عثمان وأجمل السيرة» عقب ابن أبي الضياف على ذلك «.. إلا أنه ضرب في حديد بارد، ومخالسة أمل شارد..»(940). فقد تظاهر هذا الحسن ـ في أول أمره ـ بحسن السيرة إلاّ أنه لم يستمر على ذلك طويلاً إذ ساءت سيرته بين الناس واضطربت عليه البلاد وخرجت عن طاعته مدينة سوسة فقام فيها صهره القليعي، وقام عليه بالقيروان أحد مرابطيها هو الشيخ عرفة بن نعمون الشابي(940). وقد حاول هذا الأخير أن يعيد اللعبة التي تكررت في حياة الدولة الحفصية عدة مرات مما كان يفعله الأعراب في غالب انتقاضاتهم من القيام بالثورة متسترين بشخصية حفصية حقيقية أو مزعومة. وهذا ما فعله الشيخ عرفة بن نعمون فقد بايع شخصاً اسمه يحيى مدعياً أنه من بني حفص جاء من المغرب، فصدقه العامة وبايعوه على ذلك. وتم له الأمر وهو في الحقيقة ـ كما يقول ابن أبي دينار ـ اسم ولا رسم، وأن الأمر كلّه بيد الشيخ ابن نعمون الشابي. ويبدو أن هذا «السلطان» المزيّف لم يعجبه الأمر، ولم يستفد من الدور الذي لعبه صحبة الشيخ ابن نعمون ففضل الفرار من القيروان، واتجه إلى تونس مختفياً. إلاّ أن أمره اكتشف فيما بعد من السلطان الحفصي ولم ينفعه تحيّله ولا هروبه فقبض عليه في المركاض بالعاصمة، وقطع رأسه، وطيف به في شوارع المدينة(941).

وظل آل الشابي مسيطرين على القيروان دون أن تتمكن السلطة الحفصية من القيام بأي رد إيجابي لتلك الثورة. والواقع أن السلطان الحسن الحفصي لم يبق بيده من البلاد شيء ذو بال. ويكاد نفوذه لا يتجاوز رقعة صغيرة من تلك السلطنة الواسعة الأطراف، فقد «.. تغلّبت الأعراب على جلّ البلاد. وكانت الشوكة في أولاد سعيد لأنهم استقلّوا بالبلاد بعد أولاد

(940) المؤنس (161 - 162) الاتحاف (1: 191).
(941) المؤنس (162).

مدافع فعاث أولاد سعيد في البلاد. وكان موقف السلطان الحفصي موقف المهادن المسالم فهادن أولاد سعيد بستين ألف دينار على الوطن..»[942].

ومما زاد هذا السلطان ضعفاً التنكيل بإخوته وقتلهم. وقد استطاع أحدهم ـ وهو المسمّى رشيد ـ النجاة من القتل فالتجأ إلى بعض الأعراب وأغار بهم عدة مرات على تونس العاصمة ليستولي على كرسي أبيه باعتبار أنه أولى به لأنه أكبر إخوته. وفي آخر الأمر التجأ إلى خير الدين في الجزائر طالباً حمايته[943].

(942) المؤنس (163).

(943) حقائق الأخبار عن دول البحار (3 :419).

تدخل خير الدين في شؤون بني حفص

بعد التجاء رشيد الحفصي إلى الجزائر صادف أن صاحبها خير الدين دعي من طرف السلطان سليمان القانوني إلى زيارة العاصمة العثمانية فانتهز خير الدين الفرصة وحمل معه رشيد الحفصي إلى الآستانة. وهناك طلب خير الدين من السلطان سليمان القانوني أن يأذن له بغزو تونس وضمّها إلى الدولة العثمانية على أن يكون ذلك مبطّناً باسم الرشيد الحفصي الذي يكنُّ له أهالي تونس عظيم الحب وتأييدهم بعد أن ضجوا من سوء سيرة أخيه الحسن، فوافقه سليمان القانوني على ذلك، وأمدّه بالأموال والعتاد في أسطول يتكون من مائتين وخمسين سفينة[944].

ولم يتجه خير الدين ـ مباشرة ـ إلى تونس أو الجزائر وإنما قام ـ في طريقه ـ بغزوات في جنوب إيطاليا وجزيرة مالطة. ثم جاء إلى السواحل التونسية وأرسى بميناء بنزرت حيث لم يجد ما يمنعه من النزول بها بل وجد ترحيباً من أهاليها يرجعه البعض إلى وجود الرشيد الحفصي معه أملاً منهم في استيلائه على عرش السلطنة الحفصية عوض أخيه الحسن[945] ولو أن بعض المصادر تذكر أن خير الدين بادر إلى الدعوة باسم السلطان العثماني على منابر بنزرت مما يعتبر إلحاقاً معنوياً بالسلطنة العثمانية. وما إن علم الحسن الحفصي بنزول خير الدين في بنزرت حتى أسقط في يده، بينما كان السكان

(944) المصدر السابق.

(945) محمود بو علي (146).

مبتهجين بذلك. وكثر فيهم الضجيج حتى حاول البعض مضايقته في قصره. وأيقن الحسن الحفصي بعجزه عن صدّ خير الدين أو الصمود أمامه إذا أقبل بأسطوله على العاصمة، ولهذا فضّل الفرار من العاصمة «... هارباً بما خف حمله في قلة من خاصته وأتباعه، مستجيراً بالأعراب المستبدين بأطراف البلاد»[946].

وعندما وصلت الأخبار إلى خير الدين تعلمه بفرار الحسن الحفصي عن العاصمة بادر بالتوجه إليها، فركب أسطوله ونزل بحلق الوادي. ثم تقدّم إلى مدينة تونس واستولى عليها دون مقاومة تذكر، فاستقر بالقصبة وأعلن الدعوة باسم السلطان العثماني سليمان القانوني وكان ذلك سنة 1530/936 م.

وبالرغم من أن خير الدين لم يجد مقاومةً أثناء استيلائه على بنزرت وحلق الوادي وتونس إلا أنه - إثر دخوله العاصمة - حصلت معارك واصطدامات بين الأهالي والجيش التركي دون أن تعطى الأسباب التفصيلية لذلك. ولا يستبعد أن تكون تلك الأحداث نتيجة خيبة أمل الأهالي عندما عرفوا أن خير الدين سوف لا ينصّب الرشيد الحفصي على عرش السلطنة الحفصية، وإنما جاء ليضمّ تونس إلى نفوذ العثمانيين مثلما تمّ في الجزائر، أو أن ذلك كان نتيجة لسوء تصرف الجيوش التركية مع الأهالي مما أثار حفائظهم. ومهما كان الأمر فقد حصلت معارك عنيفة بين سكّان ربض باب سويقة وبين الجنود الأتراك إثر استقرارهم بالعاصمة. ويصف ابن أبي دينار تلك المعارك بقوله: «... وقام أهل باب سويقة على خير الدين وكانت بينهم مقتلة عظيمة مات فيها خلق كثير من الجانبين. وكانت من باب سويقة إلى باب البنات على حومة العلوج. وفشا القتل بين الناس..»[947] ويضيف ابن أبي الضياف على ذلك: إن الأهالي بعثوا لسلطانهم الحفصي (الملتجىء عند الأعراب) وأن خير الدين ركب بنفسه لإطفاء نار القتال فسكن

(946) الاتحاف (2 :11).

(947) المؤنس (163).

الحرب وكفّ عسكره عن القتال، ونادى في الناس بالأمان[948] وتحدِّدُ بعض المراجع عدد من قتلوا من الأهالي بثلاثة آلاف قتيل والجرحى بستمائة. أما خسائر الجيش التركي فكانت أقل من ذلك[949] وتنصيص ابن أبي الضياف على أن خير الدين ركب بنفسه لإيقاف القتال الناشب بين الأهالي والأتراك قد يقرب احتمال أن المعركة نشبت لسوء تصرف من الجيش الغازي، أو نتيجة إثارات من الأهالي إما من أنصار الحسن الحفصي الذين بعثوا يستحثونه على القدوم، أو ممن خاب أملهم فيما أعلنه خير الدين من تبعية تونس للسلطنة العثمانية.

ويذكر ابن أبي دينار ـ بعد حديثه عن تلك المعركة ـ ما يثير شيئاً من التساؤل. يقول: «. . وخير الدين هذا هو الذي نفى العالم مغوشاً لخوفه منه لما تملّك تونس»[950] فمن هو مغوش هذا؟ ومتى وقع نفيه من طرف خير الدين؟ .

أما عن مغوش هذا فهو محمد بن محمد مغوش أحـد علماء تونس في القرن العاشر الهجري قال عنه صاحب «الكواكب السائرة بأعيان المـائة العاشرة»: وفضل في بلاده، وبرع، وتميّز، وولي قضاء عسكر تونس في دولة سلطانها مولاي حسن بن محمد بن عثمان. . الحفصي. ثم قدم عن طريق البحر إلى القسطنطينية في دولة السلطان سليمان خان[951] فعظمه، وأكرم مثواه وتولى قضاء العسكر العثماني. ثم فضل الذهاب إلى مصـر والانقطاع إلى العلم حتى توفي سنة 947 هـ. .»[952].

أما متى كان ـ بالضبط ـ ذلك النفي أو ما هو السبب فيه فلم تنص عليه الكتب التي تعرضت لذكر الحادث أو ترجمت للشيخ مغوش. ثم لماذا كان

---

(948) الاتحاف (2 :11).

(949) بو علي (148).

(950) المؤنـس (163).

(951) في الأصل «سليم خان» وهو سهو.

(952) الكواكب السائرة (2 - 15 - 17) نيل الابتهاج (336) شجرة النور الزكية (273) الشقائق النعمانية (1 :501 - 504).

خير الدين يخشى هذا الشيخ حتى نفاه من تونس؟ فهل كان له دورٌ في الفتنة التي حصلت بين الجيش التركي وسكان ربض باب سويقة؟ أم هل كان له تواطؤ مع الحسن الحفصي الملتجىء عند الأعراب والذي حاول استرجاع عاصمته فيما بعد خاصة أن الشيخ مغوش كان من قضاته؟.

مهما يكن فإن خير الدين ـ بعد أن أوقف الفتنة، وأعلن الأمان للناس ـ أخذ يعمل على توطيد مركزه وتحصين المدينة استعداداً لما يطرأ من أحداث لا سيما أن الحسن الحفصي لم ييأس ولم يستسلم بعد فراره من العاصمة بل حاول استرجاع عاصمته أكثر من مرة.

هزيمة الحسن الحفصي أمام خير الدين

يتعرض ابن أبي الضياف إلى محاولات الحسن الحفصي لاسترجاع عاصمته فيذكر أنه «لمّا سكنت الثائرة قدم السلطان الحسن في طوائف من الأعراب (لأن أنصاره لما عزموا على الثورة وجهوا له يستحثونه على القدوم فوصل بعد هدوء الفتنة. وتسلل له شيعته وأدخلوه وحده)[953] مختفياً واجتمع بعصابته وأشياعه، ودبّروا في استئصال خير الدين، ومن معه فقصدوا القصبة ـ صباحاً ـ وبها خير الدين ـ فخرج لهم بعسكره فهزمهم، ووالى عليهم القتل والأسر حتى نادوا بطاعة السلطان سليمان[954] خان، وطلبوا من خير الدين الأمان، فبذله لهم. واستقر في القصبة، والنصر له، ونجا الحسن الحفصي إلى الأعراب «برأس طمرة ولجام»[955] ثم إن خير الدين كاتب الأعراب ورغبهم في جمع كلمة المسلمين، وحذّرهم سوء عاقبة الفتنة في الإسلام، فأجابوه على شرط أن يُبقِيَ في أيديهم ما أعطاه لهم بنو حفص من الإقطاعات. فالتزم لهم بذلك وشرط عليهم أن يكون مشتاهم بالصحراء وأن يكفّوا اليد العادية (على البلاد). ثم بعث إلى نائبه بالجزائر في إرسال عسكر وأربعمائة فارس. ولما وصلوا إليه وزعهم في الجهات لِمَا رأى من حال أهل المملكة. وشملت العافية في الظاهر. وبعث خير الدين بهدية إلى السلطان العثماني وبها الدنانير المضروبة باسمه في تونس.

(953) ما بين القوسين زيادة من الخلاصة النقية (85 - 86).

(954) في الأصل سليم وهو سهو.

(955) الطمرّة: الفرس المستعد للوثوب والعدو.

ثم إن السلطان الحفصي داخل من جديد أشياخ العرب في الثورة على خير الدين فأجابوه بالثورة والعصيان، والتفوا عليه حول القيروان[956] فخرج إليهم خير الدين بقوة من العدة وكثير من العدد. واستصحب المدافع على العجلات ـ ولم تكن معروفة يومئذ في المغرب ـ فطاشت عقولهم، ورأوا أن لا قبل لهم به. وخامرهم الرعب، فولّوا منهزمين، وأثخن فيهم (خير الدين) بالقتل والأسر، فبادروا بطاعة السلطان العثماني وطلبوا الأمان. فأمنهم (خير الدين) وكتب لهم بذلك، فوفدوا عليه، وجدّد عليهم البيعة ورجعوا لأوطانهم. .»[957] وكانت أكثر القبائل إيغالاً في الفتنة قبائل النمامشة ودريد[958].

وبانفضاض الأعراب وبالإعلان عن طاعتهم لخير الدين أيقن الحسن الحفصي بأنه لا أمل له في الانتصار على خير الدين وقواته التركية. ولهذا عزم على ارتكاب مظهر آخر من مظاهر المأساة التي قضت على السيادة الإسلامية في الأندلس، أي مأساة استنجاد ملوك المسلمين ـ ضد بعضهم البعض ـ بملوك الإسبان. وكان آخر ما ذكرناه من صور تلك المأساة ما قام به أبو عبدالله الزيّاني صاحب تلمسان عندما استنجد بالإسبان ضد خير الدين نفسه.

ويعيد الحسن الحفصي صورة المأساة بما هو أشنع وأفظع فخرج من تونس مستصرخاً بالإمبراطور الإسباني «شارلكان» الذي تهيأت له ظروف مختلفة ليقوم بعمل إيجابي في إفريقية مواصلاً وموسّعاً لحركة الاسترجاع التي قام بها أجدادُه من قبل.

(956) كانت القيروان ـ إذ ذاك ـ يسيطر عليها الشيخ عرفة الشابي.
(957) الإتحاف (2 :12).
(958) م. بو علي (148).

الفصل الثاني عشر

من الحماية الاسبانية إلى نهاية الحفصيّين

شارلكان والنزعة الصليبية

كانت ولاية شارلكان على عرش المملكة الإسبانية بعد «فرديناندو» ملك قشتالة وأرغونة في الوقت الذي سادت فيه أوروبا دعوة جديدة إلى القيام بحرب صليبية ضد الأتراك العثمانيين الذين أصبحوا يمثلون الشوكة الإسلامية؛ فقد دعا البابا «لاون العاشر» إلى تخطيط حملة صليبية ضد السلطنة العثمانية، وطلب من ملوك أوروبا أن يتحدوا ويتحالفوا ضد الخطر العثماني الذي أصبح يزداد توغلاً وتمكناً في شبه جزيرة البلقان وأوروبا الوسطى، كما أعلن هذا البابا في الخامس من شهر مارس 1517 (932 هـ) عن هدنة لمدة خمس سنوات بين ملوك أوروبا حتى يعملوا على صدّ الخطر العثماني. والملاحظ أن الإعلان عن تلك الهدنة جاء بعد أقلّ من شهرين من استيلاء السلطان سليم الأول على مصر وإزالة سلطنة المماليك.

وقد استجاب لدعوة البابا إلى التهادن بين الممالك النصرانية كلّ من ملوك فرنسا وإسبانيا، وإنكلترا والبرتغال، والمجر وبولونيا، والدنمارك وإيكوسيا. وانعقد بين أولائك الملوك اتفاق بتصديق البابا لاون العاشر[959]. وفي السنة الموالية أي سنة 1518م بعث هذا البابا بأربعة من كرادلته يستحثون أولائك الملوك على تجهيز الجيوش استعداداً لحملة مشتركة ضد السلطنة العثمانية. وأقام حفلة طواف في شوارع رومة سار فيها الكرادلة حفاة

(959) حاضر العالم الإسلامي (3 :230).

لإثارة الرأي العام حتى يشتد الحماس والتطوع في الحملة الصليبية المدعوّ إليها. إلا أن جميع التدابير التي هيئت لتلك الحملة لم تأت بنتيجة إيجابية إذ مـات ـ أثنـاء التهيؤ للحملة ـ الإمبـراطـور مكسيميليـان الأول صـاحب الإمبراطورية الرومانية المقدسة الخاضعة لسلطة روحية من البابا في رومة. وهكذا قبر مشروع تلك الحملة إلا أن النزعة الصليبية ظلت مسيطرة على الرأي العام في أوروبا وخاصة في المجامع والمحافل الكنسية[960].

ومن جهة أخرى فإن وفاة الإمبراطور مكسيميليان الأول قد هيّأت لشارلكان أن يصبح على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة عندما انتخب لذلك المنصب نظراً لقرابته العائلية من الإمبراطور السابق. وهكـذا نال شارلكان لقب الإمبراطور بعد أن كان يحمل لقب ملك إسبانيـا. وبهذا المنصب الجديد أصبح أقوى شخصية في أوروبا النصرانية، وأصبحت حدود إمبراطوريته متاخمة للسلطنة العثمانية لوجود النمسا تحت نفوذه، كما أن هذا النفوذ امتدّ إلى القارة الأمريكية حتى قيل عنه: إن مناطق نفوذ شارلكان لا تغيب عنها الشمس[961]. وكانت إحاطة مناطق نفوذه بالمملكة الفرنسية موجبة للتنافس والحروب بينه وبين فرنسوا الأول مما جعـل شيئاً من التقـارب والتحالف يحصل بين السلطنة العثمانية والمملكة الفرنسية أمام خصمهما المـشترك الإمبراطور شارلكان.

هذا من ناحية الوضع العالمي، أما من ناحية الأوضاع في المملكة الإسبانية فإنه ـ بالرغم مما قيل عن التسامح الديني مع بقـايا المسلمين بالمقارنة إلى ما نالهم في عهد فرديناندو وإيزابلا ـ بالرغم من ذلك فإن عهد الإمبراطور شارلكان سجلت فيه مأساة جديدة بعد سنوات قليلة من ولايته، فقد تمكنت «. . العناصر الرجعية في البلاط الإسباني والكنيسة الكاثوليكية

(960) المصدر السابق.

(961) موسوعة لاروس.

من استصدار مرسوم 12 مارس 1524 الذي يحتم تنصير كلّ مسلم بقي على دينه بالأندلس، وأن يُخْرَجَ كلّ من أَبَى الدخول في الديانة النصرانية، وأن يعاقَبَ كلّ مسلم أَبَى التنصر أو الخروج من إسبانيا في الآجال المحددة بالرق والعبودية مدى الحياة. كما اقتضى ذلك المرسوم تحويل جميع المساجد الإسلامية إلى كنائس مسيحية..»[962] ثم تتالت بعد ذلك الأوامر والقوانين المرهقة، فصدر قانون يحجر على الموريسكيين بيع الحرير والذهب، والفضة والحلْي، والأحجار الكريمة وحتّم على كلّ مسلم بقي على دينه أن يحمل شارة زرقاء على قبعته، وحظر عليهم حمل السلاح إطلاقاً وإلاّ عوقب المخالفون بالجلد، كما أمروا أن يسجدوا في الشوارع كلّما مرّ كبير الأحبار»[963].

(962) نهاية الأندلس (351).
(963) المصدر السابق.

استنجاد الحسن الحفصي بشارلكان

لم يكن ما ذكرناه أعلاه إلا نموذجاً من الأعمال التي حصلت ـ في عهد الإمبراطور شارلكان ـ ضد بقايا المسلمين في الأندلس، فكيف يذهب إليه الحسن الحفصي مستنجداً به ضد المسلمين الأتراك الذين جاؤوا إلى تونس؟ أليس ذلك دليلاً على مدى المستوى الذي يصل إليه «المسؤول» إذا تغلبت عليه أنانيته وحبّه لذاته فلم يعد همّه الصالح العام ولا مصلحة الأمة بل انحصر هدفه في الانتقام لذلك ولو جرّ البلاء على الأمة وأسلمها لعدوّها في الدين والوطن.

فماذا كان يتوقع الحسن الحفصي إذا أتى بالإسبان لينصّبوه شبحاً هزيلاً على البلاد؟ إنه لم يكن يجهل ما قام وما يقوم به الإسبان في الأندلس. وإنه لا يجهل عزم المملكة الإسبانية على توسيع حركة الاسترجاع فتشمل دول المغرب الإسلامي، وأنهم في سبيل ذلك استولوا على الموانىء الإسلامية من المغرب الأقصى إلى طرابلس الغرب. فهل ظن الحسن الحفصي أنه إذا أخرج الأتراك من تونس يستطيع هو أن يخرج الإسبان منها، وهو الشخص الذي رأيناه لا يكاد يسيطر على الملك الواسع من السلطنة الحفصية إلا على العاصمة أو عنابة التي يوجد فيها ابنه أحمد، وأن الأعراب كانوا متغلّبين عليه، وقد بذل في مهادنتهم عشرات الآلاف من الدنانير، وأنه ـ عندما جاء خير الدين إلى تونس ـ فوجىء هو والعربان بتلك المدافع التي تجرّها العجلات ولا يعرفون لها صورة من قبل.

ومهما يكن فقد انتهز الإمبراطور شارلكان الفرصة ليقدم إلى تونس، ويخرج منها الأتراك ويحول بينهم وبين التفرد بالسيادة في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، ويعزل الجزائر حتى يسهل عليه احتلالها وضمها مع طرابلس وتونس إلى أمبراطوريته الواسعة التي لا تغيب عنها الشمس. ذلك أن انتصاب الأتراك في تونس يعتبر - من ناحية أخرى - تهديداً مباشراً للبابوية والإمارات الإيطالية[964]. ولكل هذه الأسباب لم يتردد شارلكان في الاستعداد للنزول بتونس فجهز أسطولاً فيه أربعمائة سفينة على متنها ثلاثون ألف جندي[965] كان من ضمنهم فرسان القديس يوحنا. وهم بقايا الصليبيين الذين نزحوا من المشرق الإسلامي. والمعروف أن هؤلاء الفرسان خرجوا من جزيرة رودس بعد استيلاء العثمانيين عليها سنة 1522 م (929 هـ) وسمح لهم السلطان سليمان القانوني بمغادرة الجزيرة، فطلبوا من الإمبراطور شارلكان أن يسمح لهم بالإقامة والاستقرار في جزيرة مالطة فأذن لهم بذلك[966]. وإذْنُ شارلكان لهم بالإقامة تحت نفوذه يتلاقى مع أهدافه الصليبية البعيدة، إذ كان هؤلاء الفرسان يقومون بالقرصنة ضد الأساطيل الإسلامية استمراراً لعملهم الصليبي السابق. ولهذا كان من الطبيعي أن يرحب بهم شارلكان، وأن يجعلهم من أتباعه وأنصاره، كما كان من الطبيعي أن يكونوا في طليعة مساعديه على غزو تونس.

(964) ش. أ. جوليان (2: 258).
(965) المصدر السابق وفي حقائق الأخبار (1: 420) أن عدد السفن 500 ويجعل المؤنس (ص 160) عدد الجنود مائة ألف.
(966) عمر الباروني (79).

شارلكان يستولي بسهولة على تونس

منذ البدء يمكن القول بأن خير الدين لم يصمد طويلاً أمام الأساطيل الإسبانية التي أرست بميناء حلق الوادي ثم دخلت مدينة تونس وفرّ خير الدين مع أتباعه إلى الجزائر.

فما هي االأسباب التي جعلت خير الدين لا يقوى على صد العدوان الإسباني، وعلى الاستماتة في الدفاع ضدّهم؟. إذا نحن سايرنا ابن أبي الضياف في تعليل ذلك فإننا نجده يقول: «. . ولما بلغ خبر ذلك إلى خير الدين بالحاضرة احتقر عدوّه وأضاع الحزم اعتماداً على علوّ كعبه، وشيوع صيته، فجاءه أهل الحاضرة وطلبوا منه أن يحضر أسطوله لدفع الصبنيول قبل نزوله إلى البر، فلم يصْغ إليهم (خير الدين) وغالبُ ما يأتي على الشجعان من هذا الباب. . »[967].

هذا ما يقوله ابن أبي الضياف حول انهزام خير الدين وتغلّب الإسبان عليه. وأحسب أن هنالك عوامل أخرى كان لها ضلع كبير في الموقف الذي وقفه خير الدين من النزول الإسباني. وكانت تلك العوامل داخلية وخارجية. ومن أهم العوامل الخارجية أن خير الدين لا تمكنه مجابهة الأسطول الإسباني وحده لأن السلطنة العثمانية كانت مشغولة ـ إذ ذاك ـ بحروبها في المجر وفارس، وأنها لم تتجه بعدُ بثقل قواها إلى البحر الأبيض المتوسط. وهذا من شأنه أن لا يسمح لها بإرسال قوات كبيرة إلى الجزائر وتونس. وخير الدين لا

(967) الإتحاف (2 :12).

يجهل قوات خصمه القادم عليه، ولهذا فلا مانع من احتمال أنه كان يجعل في الدرجة الأولى الاحتفاظ بالجزائر. وأنه كان يخشى أن يقع بها نزول إسباني لو أنه أطال الصمود أمام قوات شارلكان. وبذلك يخسر الصفقتين.

أما عن العوامل الداخلية فبالإضافة إلى ما خلَّفته الفتنة التي وقعت بين سكان حي باب سويقة وجنود خير الدين فإن قدوم السلطان الحفصي مع الأسطول الإسباني سوف يكون له ـ لا محالة ـ تأثير في ضعف الاستجابة والوقوف بجانب خير الدين لا سيما من أنصار الحسن الحفصي الذين ما يزالون يحنّون إليه، وهو ما لاحظه المعلّقون على تلك الأحداث[968] فبعد نزول الجيش الإسباني بحلق الوادي في المكان المعروف باسم «برج العيون» وانتصاره على خير الدين وجيوشه الاثني عشر ألفاً[969]. رجع خير الدين إلى العاصمة فوجد أهلها مضطربين ما بين متمسك بطاعته، وما بين ميّال إلى السلطان الحسن الحفصي. ويذكر ابن أبي الضياف أن خير الدين ـ أمام هذا الوضع المضطرب ـ جمع أعيان الناس للتشاور معهم في الأمر فاختلفوا في مواقفهم بين مؤيد ومناهض مما جعل خير الدين يغادرهم معوّلاً على ما عنده من جيش. وعاد إلى حلق الوادي وجاءه المدد من الأعراب ظاهرهم معه وقلوبهم عليه ـ حسب عبارة صاحب الإتحاف[970] ـ فكانوا سبباً في الهزيمة الثانية لخير الدين. وعندما رجع إلى العاصمة متجهاً إلى القصبة وجد الأسرى الذين كانوا فيها ـ وهم من النصارى ـ قد أعلنوا العصيان واستولوا على القصبة ومنعوا خير الدين من دخولها. وبذلك وجد خير الدين نفسه أمام وضع لا يستطيع البقاء فيه فقرر الانسحاب من تونس والعودة إلى الجزائر حيث.. وصلها بعد عَصْبِ الريق من شدة الحر والعطش والجوع[971].. ذلك أن «.. العرب اعترضته عند تبرسق فكانت بينهم حروب

---

(968) المؤنس (164) الإتحاف (2 :13).

(969) في المؤنس «التقى الجمعان بخربة الكلخ وعدد جيش خير الدين 18 ألفاً.

(970) الإتحاف (2 :13).

(971) المصدر السابق.

شديدة وتخلص منهم إلى أن وصل بلد العنّاب وركب البحر في عشرين غراباً»[972] معجلاً العودة إلى الجزائر مخافة أن يسبقه إليها القائد الإسباني «أندري دوريا»[973].

(972) المؤنس (164).

(973) مولود قائد (56) «الجزائر تحت الأتراك» بالفرنسية.

خطرة الأربعاء

كان الحسن الحفصي المصاحب لشارلكان قد أعلن الأمان للناس إذا هم تخلّوا عن المقاومة وعن خير الدين. ولكن هذا الأمان كان مناورة منه أو مفروضاً عليه إعلانه لأن الأمر كان بعكس ذلك. وقد علّق ابن أبي الضياف على ذلك بقوله: «.. والدول إذا حان انقراض أوانها وأشرفت على ما قدر لها من أجل سلطانها، تهاونت بأمانها وجعلته وسيلة لغدرها وطغيانها. ولا إيمان لمن لا أمان له. وهو من أعظم الأدلة على الانسلاخ من الخلال الحميدة المؤذن بانقراض العز والسلطان..»[974].

وهذا الحكم القاسي من ابن أبي الضياف على الحسن الحفصي له ما يبرره لأن هذا السلطان كان من أول استنجاده بشارلكان عازماً على تسليم البلاد له وإعطائه ما يريد منها. وقد جاء في الرسالة التي بعثها إلى شارلكان: أن خير الدين ـ هذا الرائس التركي الحقير ـ استولى على مملكتي. وكان من أكبر الأسباب التي جعلته يقدم على احتلال بلادي هو علاقتي الودية معكم دائماً. ولهذا كان من مصلحتك ـ أيها القائد العظيم ـ أن تأتي لنجدتي، وتعيد إليّ ملك أجدادي. وعندما تعاد إليّ مملكتي سوف أعترف بكم وأكون نائباً عنكم»[975].

---

(974) الإتحاف (2: 13).

(975) مولود قائد (55).

وكان الأهالي مغرورين لا يعلمون ما يبطنه لهم الحسن الحفصي عندما جاء مع الإسبان. يقول صاحب المؤنس «.. فلما دخل الحسن الحفصي إلى قصبته وأعطى الأمان للناس، وقعد كلّ صانع في صناعته، وأهل الربع فتحوا ربعهم، واطمأنوا في أماكنهم دهمهم عدوّ الدين فهجمت النصارى عليهم على حين غفلة في قائلة والأسواق مفتوحة فأخذوا ما فيها من الأمتعة، وقتلوا أهلها، وسبوا خلقاً كثيراً. وفرّ الناس بعيالهم ممن قدر على الهرب، ورحلوا إلى ناحية زغوان، فبعث عظيم النصارى (يعني الإمبراطور شارلكان) إلى العرب وجعل لهم جعلاً على كلّ مسلم أتوا به إليه، فخرجت العربان في طلبهم وأخرجوهم من كلّ شعب وواد، وأتوا بهم إلى النصارى، فكان طلب العرب لهم أصعب من طلب النصارى. وأخذوا ما شرطوا لهم. والبعض فدى نفسه من العرب، وبلغت فدية الرجل ألف دينار وأكثر وأقل. وكان هذا الوقع جسيماً. وهذه الواقعة هي المعبر عنها بخطرة الأربعاء... وقيل: في هذه الواقعة أسر الثلث، ومات الثلث، وهرب الثلث. وسمعت من شيوخ البلد من يقول: عدد كل ثلث ستون ألفاً..»[976].

وواضح من هذا الوصف الذي نقلناه عن كتاب االمؤنس لابن أبي دينار أن هنالك تواطؤاً بين الحسن الحفصي وحُماته الإسبان عندما أعطى الأمان للأهالي حتى فتحوا دكاكينهم ومتاجرهم كي يقع نهبهم والفتك بهم على حين غفلة. وقد اتفق الذين كتبوا عن تلك الفترة على أن الحسن الحفصي أباح للجند الإسبان مدينة تونس مدة ثلاثة أيام يفعلون فيها ما يشاؤون «.. فارتكبوا كلّ أنواع المحرمات، وهدموا المساجد وحرقوا ومزقوا الكتب النفيسة»[977] كل ذلك في سبيل أن يعود الحسن الحفصي إلى عرش سلطنته الواهية. وهو العرش الذي ظل فيه ـ كما يقول الباجي المسعودي ـ مع العدى أذلّ من النقد، وملكوا عليه الضاحية والبلد»[978].

---

(976) المؤنس (164) وتعني «الخطرة» المعركة.

(977) ينظر المؤنس (164) الإتحاف (2 :13) الحلل السندسية (1 :1095).

(978) الخلاصة النقية (86).

بنو حفص تحت الحماية الإسبانية

جرت خطرة الأربعاء في الحادي والعشرين من شهر جويلية 1535 (941 هـ) ثم جاء بعدها الإمبراطور شارلكان متظاهراً بمنع جنده من الاعتداء وبإعطاء الأمان للناس فاستتبَّ الأمن، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي بعد أن أدخل عليهم الرعب والهلع المقصودين حتى لا يرفعوا رؤوسهم بعد ذلك. وفي الأسبوع الأول من أوت عقد اتفاق بين الحسن الحفصي وشارلكان أهم ما جاء فيه: «.. إخلاء سبيل الأرقّاء المسيحيين، والإباحة لجميع المسيحيين بالاستيطان في إقليم تونس، وإقامة دينهم بدون معارضة، وأن يتنازل الحسن الحفصي لشارلكان عن مدائن بونة (عنابة) وبنزرت، وحلق الوادي، وأن يدفع له مبلغ اثني عشر ألف دوكا مصاريف حرب، وأن يقدّم له ـ سنوياً ـ اثني عشر ألفاً من الخيول العربية ومثلها من المهارة العربية (صقور) علامة امتنانه بشرط أنه لو خالف أحد هذه الشروط يدفع أول مرّة خمسين ألف دوكا (ذهبياً) وفي الثانية مائة ألف. وفي الثالثة يسقط حقه في الملك..»[979].

هذه أهم شروط المعاهدة التي أبرمها الحسن الحفصي مع الأمبراطور شارلكان حسب رواية محمد فريد الأكثر تفصيلاً من غيرها. وهي شروط قاسية قبلها الحسن الحفصي فأدخل بمقتضاها مملكة بني حفص تحت الحماية الإسبانية على صورة أكثر مأسوية مما عناه ابن رشيق بقوله:

(979) تاريخ الدولة العلية (84).

ألقــاب سلطنــة في غيــر مملكــة　　كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأســد

وبعد عقد هذه المعاهدة غادر الأمبراطور شارلكان تونس في السابع عشر من أوت 1535 م مكتفياً بالإذن ببناء قلعة حصينة في حلق الوادي فيها حامية عسكرية بألف جندي وعشر سفن حربية[980].

ولم يكن متوقعاً أن يمكث شـارلكان في تـونس كثيراً خـاصة أن إمبراطوريته الواسعة ـ وما لها من خصوم ومنافسين ـ لا تسمح له بطول البقاء في إفريقية. فاكتفى بما فعله سلفه فرديناندو من احتلال سواحل المغرب الإسلامي دون التوغل داخل البلاد. ويقدر شارل أندري جوليان «أن شارل الخامس كان عازماً أكثر من فرديناندو الكاثوليكي على ألا يغامر فيحتلّ بلاد البربر فاقتصر على إقامة قلعة في حلق الوادي وإرجاع مولاي الحسن إلى عرشه من دون أن تكون له ثقة في المستقبل. وكان أول المعترفين بأن السلطان الحفصي كان مبغوضاً من رعاياه». وقد أصبح بعد المذبحة العظيمة التي صاحبت رجوعه عرضة أكثر من ذي قبل للاحتقار وبات نفوذه معدوماً تماماً»[981] وقد جاءت الأحداث مؤيدة لذلك.

---

(980) المصدر السابق ويذكر صاحب الخلاصة النقية أن الحصن بني من الأحجار المجلوبة من الحنايا الرومانية القديمة.

(981) ش. أ. جوليان (2: 331) الترجمة العربية.

الصراع بين الحسن الحفصي وابنه أحمد

قام الحسن الحفصي بمحاولات عديدة لتوسيع نفوذه وتمديد رقعته إذ كان نفوذه لا يكاد يتجاوز تونس وجهاتها بينما كانت أطراف البلاد مستقلة عنه يتولّاها الأعراب أو الأتراك أو الإسبان. وكان الحسن الحفصي يشعر بأن أشد أولائك المستبدّين بالأطراف خطورة هو الشيخ عرفة الشابي بالقيروان الذي امتد نفوذه إلى مناطق شاسعة. ولهذا بادر الحسن الحفصي بتجهيز حملة عسكرية ضد الشابي. إلاّ أن الحملة فشلت وصدّت على أعقابها قبل أن تصل القيروان باثني عشر ميلاً[982] وبعد أشهر قليلة أعاد الحسن حملة ثانية ضد آل الشابي متحالفاً مع أحد زعماء أولاد أبي الليل يسمى «عبد الملك» ولكن بدون جدوى كذلك. ثم تتابعت حملاته بمساعدة الإسبان إلى أن يئس من تغلّبه بمساعدة قوات الاحتلال الإسبانية ولذلك عزم على الاتجاه من جديد إلى السلط الإسبانية مستنجداً بها ضد عصيان القيروان حتى يؤدبها كما أدب تونس من قبل. وكان هذا في الوقت الذي اندلعت فيه الحرب من جديد بين فرنسا وإسبانيا. وبما أن هنالك تقارباً بين فرنسوا الأول والسلطان العثماني، وأن خير الدين سيكون بجانب الأسطول الفرنسي ضد شارلكان فإن الحسن الحفصي انتهز الفرصة وحرص على الذهاب إلى مقابلة شارلكان وطلب النجدة منه حتى يشغل خير الدين عن مساعدته للأساطيل الفرنسية.

---

(982) م. بو علي (154).

ولكن قبل وصول الحسن الحفصي إلى شارلكان فاجأته أحداث داخلية في تونس غيرت من اتجاهه، فقد وصلته الأخبار تعلمه أن ابنه أحمد ـ أمير عنابة ـ جاء بعده إلى تونس ونادى بنفسه سلطاناً عوض والده، فما كان من الحسن الحفصي إلاّ المبادرة بالعودة صحبة جيش من المرتزقة يقوده القرصان (لوفريدو Lofredo) النابوليتاني[983] ذلك أن أحمد بن الحسن الحفصي لما رأى فعل أبيه في المرة الأولى، وما عزم عليه من جديد خاف من إتلاف الحضرة فتلافاها وأقبل إلى تونس خفية وتكلم مع بطانته وجماعة من أهل أريانة[984]واستشارهم في خلع أبيه، فأجابوه على كلمة واحدة. فتوجه إلى القصبة ومعه الأعيان من الحاضرة. ولما وصل إلى باب ينتجمي جبن عن الإقدام فوكزه الشيخ عمر الجبالي بين كتفيه ـ وكان عمدته ـ وقال له: تقدم، فثاب له فكره. ودخل القصبة فلم يتعرض له أحد. واتصل الخبر بالناس فهرعوا إليه وبايعوه. فقال لهم: إنما فعلت هذا لأني أنفت لما حلّ بكم في السابق وخفت عليكم مما يأتي. فشكروه ودعوا له. وسار في الناس سيرة حسنة نفرت بها نفوس أهل البلد عن أبيه، وازدادوا تعلّقاً به[985].

ولما تم لأحمد بن الحسن الحفصي الأمر على تلك الصورة بعثت الحامية الإسبانية إلى والده تعلمه بالخبر وتستحثه على القدوم قبل استفحال الأمر، فأقلع الحسن الحفصي من نابلي بجيش من المرتزقة بقيادة القرصان الإسباني «لوفريدو Lofredo».

ويتحدث صاحب المؤنس عن عودة الحسن الحفصي بقوله «.. ولما وصل الحسن بالنصارى هبطوا إلى البرّ فسمع السلطان أحمد وأهل البلد. ووقعت هرجة عظيمة. وخاف أهل المدينة أن يصابوا مثل المرة الأولى ففروا خفافاً وثقالاً بنية الجهاد والمدافعة عن الأموال والأولاد. ونادى منادي

(983) م. بو علي (160).

(984) المؤنس (166).

(985) المؤنس (166) الإتحاف (2: 14)

(السلطان) أحمد: من أتى بأسير أو رأس قتيل فله مائة دينار. وجلس (أحمد الحفصي) عند باب القصبة، وجعل الدنانير في قراطيس من الكاغذ. وحرّض الناس على الجهاد. فخرج أهل الربضين[986] بلا سلطان معهم والتقوا بالنصارى والحسن. وكانت المصاف من خربة الكلخ (شرقي تونس) إلى سانية العنّاب[987].

ويذكر ابن أبي دينار أن الجيشين ظلا متقابلين دُون أن يبادر أحدهما بالهجوم. ثم يضفي على الموقف مسحة من «التصوف والبركة» مما كان يسود مجتمع تلك العصور من التخلف الذهني والتواكل والقدرية فيقول: «. . وكان يومئذ الشيخ سيدي علي المحجوب ممن حضر الواقعة فوقف عند كدية وأخذ قبضة من تراب ومسكها في يده. وقرأ حزب الشيخ الشاذلي. وعند تمام قراءته رمى بها نحو الكفرة وقال: شاهت الوجوه. . ثلاثاً واصطفّ الفريقان ولم يكن بينهما قتال والناس ينظر بعضهم بعضاً. .»[988].

فلماذا هذا الموقف الحَذر من الجانبين؟ أغلب الظن أن ذلك يعود إلى وضعية كل من الجيشين، فلعل الجيش النصراني لم يكن من القوة المعنوية والمادية التي كان عليها جيش شارلكان، وأنه يفضل خطة الدفاع لأنها أدعى إلى الحفاظ على القوى وقلة الخسارة. أما الجيش الإسلامي فهو عبارة عن متطوعين لا قيادة لهم. وقد رأينا كيف أن أحمد الحفصي جلس أمام باب القصبة يحرّض الناس على القتال ويغريهم بالمال. وأن عبارة ابن أبي دينار التي تقول: «. . وخرج أهل الربضين بلا سلطان. .» فيها إشارة واضحة إلى فقدان القيادة لأولائك المتطوعين، إلّا أن حادثاً ـ غير منتظر ـ غير ذلك الموقف الحذر لدى القوات المتقابلة. وقد ساق ابن أبي دينار ذلك الحادث مساق الكرامة للشيخ علي المحجوب بينما هو ـ فيما نحسب ـ لم يكن سوى

---

(986) ربض باب سويقة وربض باب الجزيرة.

(987) المؤنس (166) الإتحاف (2: 15).

(988) المؤنس (166).

نتيجة للتحفز والحماس اللذين تحدث عنهما ابن أبي دينار نفسه من أن أهالي تونس خافوا أن يقع لهم من النصارى الوافدين مع الحسن الحفصي ما وقع لهم في المرة الأولى مما يعبر عنه بـ«خطرة الأربعاء» عندما أباح لهم الحسن الحفصي مدينة تونس مدة ثلاثة أيام وفعلوا فيها ما لا يوصف من النهب والاعتداء والفظائع.

ذلك أن الجيشين المتقابلين المحجمين عن المبادرة بالهجوم فوجئا بظهور جماعة من المتطوعين المسلمين يخرجون من مدينة تونس يحملون علماً أخضر ويقودهم من سمّاه ابن أبي دينار بـ«المعلم عمر». وكان عدد هؤلاء المتطوعين نحو مائتي رجل. وقد أقبلوا إلى ساحة المعركة من بين شط بحيرة تونس ونوايل سيدي سفيان واندفعوا يهاجمون النصارى وحليفهم الحسن الحفصي «. . فلما رأى الناس ذلك تقوّت نفوسهم فتقدم المعلم عمر ومن معه. وتقدم الناس والتقى الجمعان. واشتد القتال ساعة من النهار فأنزل الله النصر على المسلمين وصدقوا في قتالهم لأعداء الدين فقتلوا قتالاً ذريعاً لم يقتل بتونس مثله. .»[989] ثم يقول ابن أبي دينار «. . وسمعت من أهل الحضرة من يقول: كان السلطان أحمد ذلك اليوم يعطي من أتاه برأس من الكفرة مائة دينار. وكثرت الرؤوس حتى صار يعطي العشرة دنانير وأقل وأكثر إلى أن أعطى ديناراً. .»[990] وتذكر بعض المصادر أن العشرين ألف نصراني الذين كانوا مع الحسن الحفصي لم ينج منهم إلا خمسمائة فروّا ملتجئين إلى قلعة حلق الوادي الإسبانية وأن قائدهم «لوفيردو» هلك غريقاً في البحيرة[991].

(989) المؤنس (166 - 167).

(990) المصدر السابق.

(991) م. بو علي (161).

مأساة الحسن الحفصي

أما الحسن الحفصي فكانت مأساته أشد وأنكى. يقول عن ذلك صاحب المؤنس «. . . وفرّ الحسن إلى شكلي[992] ودخل في الماء راجلاً بلا فرس. وهابته الناس لمقامه السابق فيهم[993] إلى أن دخل المدعو «أبو الهول» فأخرجه من البحيرة وهو ملوث بالغرم فكسي برنساً وجيء به إلى ولده أحمد فوبخه على فعله حتى قال له: خالفت مسمّاك الحسن. وسجنه. واستغاث العوام بالسلطان أحمد وقالوا: لا يكون ملكان في مدينة. وكثر هرج الناس فاستشار أحمد أصحابه في سجنه أو قتله فأشار عليه ابن أبي حمزة بسمل عينيه فسملت عيناه[994]. ثم يضيف ابن أبي دينار «. . . ولما نفذ أمر الله فيه أخذ نفسه بزيارة الصالحين. ويطلب في ذلك الإذن من ولده فيأذن له. ولا يزال ينتقل من ولي إلى آخر حتى استأذنه في زيارة مقام الشيخ قاسم الجليزي المتوفى سنة 902»[995].

ويبدو أن أحمد الحفصي ارتاب في أمر والده من أنه ربّما يسعى في حيلة إلى الفرار. ولم يكتم ذلك عن أبيه فقال له: لعلّك تريد أن تلتحق

(992) جزيرة صغيرة في بحيرة تونس.

(993) في الأصل كلمتان غير واضحتين.

(994) المؤنس .(167).

(995) انظر عنه حقيقة التصوف الإسلامي (275).

بصهرك أبي سلامة القليعي. فأجابه الحسن الحفصي بقوله: وما عسى أن يكون منّي وأنا على هذه الحالة.

إلّا أن الأمر كما توقع ابنه السلطان أحمد. إذ بعد أن أذن له بزيارة مقام الشيخ قاسم الجليزي جاءه بالليل صهره القليعي وهرّبه إلى القيروان[996] مما يدلّ على أن هناك مؤامرة مدبرة من قبل للهروب به من معتقل ولده. كما أن مجرى الأحداث المقبلة لا يبعد معه أن تكون هنالك أهداف سياسية تكمن وراء تهريب الحسن الحفصي لا أنه مجرد عطف إنساني وموقف عاطفي من صهره نحوه.

وفي القيروان أقام الحسن الحفصي طريداً ضريراً بزاوية الشيخ أبي علي سالم القديدي[997] وكانت عجائز القيروان يزرنه ويبتن عنده. يقول ابن أبي دينار: «.. وأنا أدركت بعض من أدرك بعض العجائز اللائي جالسنه وحادثنه. وسمعت من الحاكي أنه قال: دخل عليه أولاد الشيخ عرفة صاحب القيروان وأكبر خصومه السياسيين ومن أجله ذهب ثانية إلى الأندلس وأتوه بعود وقالوا له: نريد أن تسمعنا من غنائك بالعود. وألزموه على ذلك استخفافاً له. وأخذ الحسن العود وجسه بيده. وقد كبر عليه إقدامهم بما لا يليق بمثله فأنشدهم البيت الشهير بين الناس:

وكنّا أسوداً والرِّجال تهابنا أتانا زمان فيه نخشى الأرانبا

وألقى العود من يده، وأجهش بالبكاء في وجوههم فخرجوا من بين يديه لا يدري أحد أين يضع قدمه[998].

وإنه موقف مأسوي بلا شك لكنه في عرف ـ البرور والإنسانية ـ لا يصل في القسوة إلى موقف ابنه أحمد الذي أمر بسمل عينيه حتى لا ينافسه

---

(996) المؤنس.

(997) معالم الإيمان (4 :50 - 89) حقيقة التصوف الإسلامي (58 - 59).

(998) المؤنس: (168).

في سلطنة واهية مهانة بحماية الأجنبي واستجدائه، والعيش تحت سطوته وكابوسه.

وقد ذكرنا من قبل أن التآمر الذي حصل لتهريب الحسن الحفصي لا يبعد أن يكون من بدايته مبطناً بنوايا سياسية رغم حالة العمى التي أصبح هو عليها. ويشير إلى ذلك صاحب المؤنس ـ دون تفصيل ـ إلى أنه كان في خبره (وعلمه) أن الحسن الحفصي مات بالقيروان «. . . لأنه مقبور هناك حتى وقفت على ورقة بخط بركات الشريف يذكر فيها أن السلطان الحسن هرب إلى بلاد النصارى ـ وهو أعمى ـ وأتى بعمارة لأخذ المهدية فمات في البحر فأنزل البرّ ورفعوه إلى القيروان فدفن بها. والله أعلم بحقائق الأمور. ويمكن أن يكون فرّ من القيروان بعدما أقام بها. وهذا هو الأصح لأن إقامته بالقيروان معروفة بين الناس. . »[999].

(999) المصدر السابق.

أحمد الحفصي بين عيث الأعراب واستبداد الأغراب

كانت الظروف الداخلية التي تولّى فيها أحمد الحفصي ظروفاً صعبة شديدة. ولعلّه كان يحسب أن انتزاءه على أبيه والنّكال به على تلك الصورة سوف يسهلان عليه تسيير البلاد، ويجعلان الناس يقبلون على طاعته والانقياد إليه. لكن الأمر كان على خلاف ما قدّر بالرغم عمّا كان يصفه به بعض المؤرخين من حسن سلوك وقدرة تسيير. ولعلّ أهم ما جابهه من أول حكمه هو فراغ الخزينة من المال إذ «.. لم يجد في خزائن أجداده شيئاً لأنها أتلفها أبوه في أيامه»[1000] في شهواته التي آخرها ما لزمه من الإنفاق على عسكر الصبنيول لتخريب البلاد[1001].

وبالإضافة إلى ذلك فقد جابهته الآفة القديمة التي أضرت بالسلطنة الحفصية وزعزعت استقرارها على مدى تاريخها الطويل، وهي آفة الأعراب وما يحدثونه من فوضى واضطراب خاصة في هذا الظرف العصيب الذي تجتازه البلاد. وقد تمثلت قمة ذلك في عيث أولاد سعيد. يقول ابن أبي دينار: «.. وعاثت أولاد سعيد كعادتهم الخبيثة وشنّوا الغارة إلى أن وصلوا الجبل الأخضر (تجاه باردو)[1002] وساقوا بعض مواشي السلطان فخرج إليهم بنفسه فأدركهم في السيجومي وطعن البعض منهم»[1003] و«.. أخرج

(1000) المؤنس ص 169.

(1001) الإتحاف 2: 15.

(1002) الإتحاف 2: 16. والجبل الأخضر هو مكان الرابطة وما حولها.

(1003) المؤنس ص 169 والإتحاف 2: 16.

فتوى من علماء الحضرة بقتال أولاد سعيد فبدّد شملهم وأهانهم»[1004].

ويذكر ابن أبي دينار أن الشيخ البرزلي كان يدعو إلى قتالهم في عهد السلطان أبي عمرو عثمان. ثم قال: وسمعت من يقول: إنه أفتى بقتلهم أيضاً، وبقتل غيرهم من المحاربين من عرب إفريقية ولا فرق إلّا أن هذه الطائفة أشد نفاقاً منهم. كما يورد أن ابن ناجي أفتى بتحريم مبايعتهم آلات الحرب حتى الأتمقة والرواحي[1005] التي يلبسها الإفريقيون من العرب لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء إلّا أن السعيديين أقوى ضرراً من غيرهم لأنهم على ممرّ الأيام لا ينسون فسادهم ولا ينتهون عن فعلهم الخبيث إلخ.[1006]. وكان أبو عمرو عثمان ممن أذلّهم ومزّق شملهم وأخذ عليهم ألاّ يَصِلُوا إلى نواحي الوطن. وسكناهم من وادران إلى القبلة لا يتعدّونه. وإنما حدث منهم هذا الحادث في أيام السلطان الحسن إلى أيام السلطان أحمد هذا زاد طغيانهم فسلطه الله تعالى عليهم وفتك بهم وبدّد جمعهم غير ما مرّة[1007].

وكان هذا في نفس الوقت الذي كانت فيه البلاد نهباً مقسّماً بين الشابيين والإسبان والأتراك. وفي بداية الأمر حاول أحمد الحفصي أن يصادق الأتراك الموجودين في طرابلس والجزائر، كما حاول أن يهاجم الإسبان في قلعة حلق الوادي. أما عن علاقته بالترك فكان هو أول من راسل ملوك الترك... بعث أوّلاً محمد القصيبي ثم محمد المريشي إلى الجزائر وبعث بأبي الطيب الخضار مرّة إلى الجزائر ومرّة إلى قسنطينة كما ذهب إلى مدينة طرابلس.

(1004) المؤنس ص 169.

(1005) أتمقة مفرده تماق: نوع من أحذية الفرسان. والرواحي مفرده ريحية: نوع من الجوارب الخفيفة اللينة من جلد الخروف تلبس بدل الخف مع الحذاء. ينظر دوزي (تكملة المعاجم، تمق، روح).

(1006) المؤنس ص 169.

(1007) المصدر السابق.

أما عن موقف أحمد الحفصي من حامية حلق الوادي الإسبانية فيقول ابن أبي دينار: «. . . وفي أهل حلق الوادي له عدة وقائع منها أنه عزم على السفر إلى إفريقية على عادته. وسار كأنه غاز ومعه ألف فارس. وأردف خلف كلّ فارس رجلاً. وسار إلى أن بلغ ماطر. ورجع من هناك على غير طريقته الأولى إلى أن أتى على ناحية المعلّقة فكمن هنالك وبعث خيل «الدالة»[1008] وأمرهم بالغارة على حلق الوادي، والنصارى مطمئنـون من جانبهم لأن جواسيسهم وهم «المهجرسون»[1009] أخبرتهم بأن السلطان خرج عن البلد. فلمّا أنذروا بخيول الدالة خرجوا من البرج في طلب الخيل وانهزموا أمامهم فاتبعوهم إلى أن وصلوا قرب الحضرة. فلما علم أحمد (الحفصي) ببعدهم جال نحو البرج ودهم الذي به على حين غفلة. ووقف على بابه. وانذهلت النصارى عن غلق الباب. وامتنع هو من أخذه ورجع. ولو أراد أخذه لتمكن منه لما هو سابق في علم الغيب»[1010].

إن تخصيص ابن أبي دينار هذه الواقعة بالذكر ربما يستنتج منه أن ذلك أهم ما حصل بين أحمد الحفصي والحامية الإسبانية بحلق الوادي. ولكن لماذا هذا الموقف المضطرب من أحمد الحفصي؟ إن نيّته في مهاجمة الحامية الإسبانية كانت مبيّتة حسب مساق الرواية، لقد أعلن عن ذهابه إلى ماطر ثم عدل لأسباب لا نعرفها. ثم لماذا لم يقدم على احتلال حصن حلق الوادي وبذلك يحول بين الإسبان وبين احتمائهم بأسوار تلك القلعة المنيعة. فهل كان يخشى من رد فعل خارجي وتأتي النجدة الإسبانية لتفتك منه الحصن وتنتقم منه. أم كان لا يثق في أهالي العاصمة فيتخلّون عنه إذا تصدّى ـ جدّياً ـ للحامية الإسبانية. إن المرارة التي تحدث بها ابن أبي دينار

(1008) النوبة.

(1009) يعني بهم المتمردون والخارجون على القانون. ولعل الاستعمال التونسي للكلمة مأخوذ من الهجرس: اللئيم. والطواف بالليل. القاموس (هجـرس) والدارجـة التونسيـة تنطقهـا: مهزرصون.

(1010) المؤنس ص 171.

هي التي أوجبت هذا التساؤل خاصة أن عدد الرجال (ألفان) الذين كان يعتزم الذهاب بهم إلى جهة ماطر يمكنه من احتلال القلعة والسيطرة عليها.

أما أهالي العاصمة فإن واقعهم النفساني الذي كانوا عليه يهيؤهم لأي عمل إيجابي ضد الحامية الإسبانية. وكانوا يهيؤون أولادَهم للمقاومة ومجابهة المحتلين. وفي هذا الصدد يقول ابن أبي دينار:

«.. وكان أهل حلق الوادي (الإسبان) يأخذون من أهل تونس الرمية[1011] من الجصّ والجير لبناء برجهم فإن أعطوهم ذلك وقعت الهدنة، وإن لم يعطوا ضيّقوا عليهم برّاً وبحراً وتصبح بطائحهم في البحيرة ويرمون بالمدافع. وفي البرّ يغيرون هم ومن معهم من المهجرسين فيقاسي من ذلك أهل تونس أكبر التعب. وإن عزم أهل تونس أو السلطان على غزوهم أنذرهم المهجرسون وهذا دأبهم معهم. وكان أهل تونس في شدّة مع العدو في كلّ حين. ولهذا كانوا يدرّبون أولادهم بلعب المحجر دائماً ليتطرّوا بملاقاة العدو»[1012].

كان إذن سكان مدينة تونس على أهبة واستعداد ليكونوا بجانب أحمد الحفصي لو أنه عقد العزم على اقتحام القلعة الإسبانية بحلق الوادي. ولكنّ تردده في ذلك ـ رغم فتح أبواب القلعة وخروج الكثير من حاميتها ـ دليل على ضعفه وعجزه أمام المحتلّين لبلده مهما كانوا. وكان اعتماد أحمد الحفصي على العلوج النصارى من أبرْز العوامل المفسدة للجو بينه وبين رعاياه والمبعدة للأسَرِ التونسية العريقة في الإدارة عن البلاط الحفصي مثل عائلة بني هلال التي خدمت الدولة الحفصية منذ عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز. وكان من أبرز أولائك العلوج العلج «خوان بن خاكمو» الذي كان من أهل الحلّ والعقد مع إسبان حلق الوادي. وكان يتزعم ثلاثمائة رجل من

(1011) ضريبة جديدة. دوزي: تكملة المعاجم العربية (ضرب).
(1012) المؤنس ص 171 - 172.

أولائك العلوج في حاشية البلاط الحفصي. وهو الذي تولّى الفتك بعائلة بني هلال. ويتحدث ابن أبي دينار عن ذلك بقوله: «.. وخوان هذا هو الذي قتل عبد الكريم بن هلال ضربه على رأسه بفأس في علوّ «الخليفة» حسن. وأشرف من العلوّ على أصحابه فقال لهم: اقتلوا بقية بني هلال. فقتلوا يومئذ ثلاثة عشر رجلاً.. ومشى محمد بن حذيفة اليماني إلى أبيهم إبراهيم بن هلال في ذلك اليوم وأوعده هو وبقية بنيه إن لم يتوبوا قتلوا بالحديد، فهربوا بعد ذلك إلى قسنطينة، وهي إذ ذاك بيد الترك فأكرموهم»[1013]. هذا بالإضافة إلى المهجرسين الذين كانوا ضد السلطة الشرعية الحفصية وفي نفس الوقت كانوا يتعاونون مع الحامية الإسبانية.

(1013) المؤنس ص 168 - 169. ويقول: إنهم رجعوا بعد ذلك على يد القائد إبراهيم بن الشيخ.

أحمد الحفصي بين الإسبان والأتراك

حاول أحمد الحفصي ـ في بداية أمره ـ أن تكون له علاقات تعاون مع الحاكم التركي على طرابلس الغرب «درغوث باشا»[1014] وقد أجبرتهما على ذلك مصالح مشتركة. ذلك أن أحمد الحفصي كان يؤمّل من تمتين علاقاته مع درغوث باشا أن يدرأ عنه خطر الشابيين المستولين على القيروان والطامعين في ضم تونس إليهم فكان يخشاهم أكثر من الإسبان الذين أجبرتهم ظروف الحرب في أوروبا على أن يقتنعوا ـ ولو مؤقتاً ـ بالاستقرار في بعض الموانىء الساحلية دون أن يتوغلوا في البلاد، كما أن درغوث باشا دفعه حرصه على تنقية مدخل الحوض الغربي للبحر الأبيض من فرسان القديس يوحنّا والإسبان، دفعه ذلك إلى التقارب مع أحمد الحفصي وهو ـ بلا شك ـ مؤمن بأن هذا «السلطان» لا خطر منه، وأنه من الميسور التغلّب عليه في الظروف المناسبة. ويكتفي ابن أبي دينار في حديثه عن العلاقات بين أحمد الحفصي ودرغوث باشا بقوله: «. . وكانت بينه (أحمد الحفصي) وبين درغوث باشا صحبة أكيدة»[1015] بينما تذكر بعض المصادر الأخرى أن درغوث باشا زار تونس سنة 1548 م (956/955 هـ) إثر عودته مظفراً من إحدى غزواته لجنوب إيطاليا، وأنه أهدى لأحمد الحفصي إحدى السبايا الجميلات

(1014) اسمه بالتركية «طورغود رايس» ح ح عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ص 128 جـ 1.
(1015) المؤنس ص 170.

لتصبح ضمن حريم قصره، وأن أحمد الحفصي قدم له أيضاً هدية نفيسة[1016]. إلاّ أن هذه العلاقات لم تكن واضحة كثيراً ولا محددة المعالم في الكتب االتاريخية المختلفة لتداخل الأحداث وكثرتها. هذا بالإضافة إلى أن حقيقة الصراع على السيادة إنما كانت تتمثل في الصراع العثماني الإسباني. وحسب أحمد الحفصي أن يضمن بقاءه فوق كرسي سلطنة متهالكة مهما كانت القوى التي تسنده ويتوكأ عليها.

وكانت الانتصارات التي حققها درغوث باشا في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط قد أكسبته سمعة كبيرة وجعلت منه محطّ الآمال في تخليص أهالي السلطنة الحفصية مما يعانونه من تسلط وقهر، ومما جعل سكّان القيروان يستنجدون به ضدّ محمد الطيب الشابي. وانتهز درغوث باشا الفرصة فاستولى على القيروان وقتل صاحبها محمد بن الطيب الشابي. ثم عاد إلى طرابلس بعد أن عيّن حيدر باشا خلفاً له على القيروان. وقد تم ذلك في الوقت الذي أصبح فيه أحمد الحفصي أشدَّ ضعفاً وأبعدَ ما يكون عن ردّ الغزاة والطامعين حتى قال لأحد وزرائه: لو جاء علي باشا (صاحب الجزائر) وأراد احتلال تونس في عدد يسيرٍ من الجند ما كنت ألقاه. وهذا أوانه وإني لفي حيرة من ذلك[1017]. والوزير المتحدث عنه هو أبو الطيب تاج الخضار الذي ساءت علاقاته مع سلطانه أحمد الحفصي حتى فكّر هذا الأخير في تدبير مؤامرة ضده واغتياله. وعندما اكتشف تاج الخضّار ما يدبره ضده أحمد الحفصي عزم على الانتقام منه فكاتب سرّاً علي باشا صاحب الجزائر يعلمه بحقيقة الوضع في تونس ويحرّضه على القدوم إليها واحتلالها، ويعده بأنه يكون بجانبه وفي إعانته[1018]. وكانت العلاقات بين علي باشا وأحمد الحفصي غير طيبة منذ أن كان علي باشا متولّياً على طرابلس. ولهذا انتهز الفرصة

(1016)ينظر: الطاهر قيقة (Dourgouth Rais P. 65).

(1017)المؤنس ص 172.

(1018)الإتحاف 2 :17.

للإطاحة بخصمه أحمد الحفصي فجهز جيشاً كبيراً. واجتمع لديه نحو السبعة آلاف من قبائل مختلفة اجتاز بهم الحدود في طريقه إلى تونس.

واستعدّ أحمد الحفصي لملاقاة مهاجميه فالتقى بهم قرب باجة معتمداً على خيالته الزمازمية وألف وستمائة من رجاله. ولم يثبت أحمد الحفصي وجيشه الصغير أمام علي باشا فبادر الحفصي بالفرار والعودة هارباً إلى العاصمة.

انهزام أحمد الحفصي والحماية الإسبانية ثانية

يتحدث ابن أبي دينار عن هزيمة أحمد الحفصي أمام مهاجمه علي باشا[1019] فيذكر أن الأتراك بقيادة علي باشا تابعوا طريقهم مطاردين أحمد الحفصي وفلول جيشه حتى إذا وصلوا وادي مجردة وجدوه حاملاً فبعث علي باشا إلى بنزرت يستجلب القناطر والأخشاب لإقامة جسر عبروا عليه النهر. وحاول أحمد الحفصي مرّة ثانية إيقاف الزحف التركي قرب سيدي الحطاب إلاّ أنه ـ مثل المرة الأولى ـ انهزم وأسرع بالعودة إلى العاصمة وظل فيها بضعة أيام يفكر في مصيره حتى عزم على الفرار قبل وصول علي باشا فدخل القصبة وأخذ ذخائره وأمواله والبعض من أهله وأتباعه، وخرج ليلاً متخفيّاً. وكاد يفتضح أمره إلا أنه تمكّن من الفرار ولم يبق معه إلا القليل. وسار حتى وصل قلعة الإسبان في حلق الوادي واحتمى بها.

أما علي باشا فتابع مسيرته حتى وصل تونس ففتح له السكان أبوابها واقتبله الأهالي بالترحاب. وكان ذلك سنة 977 هـ ـ 1569 م ونادى في الناس بالأمان. واجتمع لديه وجوه البلد وأخذ عليهم البيعة للسلطان العثماني سليم الثاني. يقول ابن أبي دينار. ولما استقر قدم (علي باشا في تونس) جاءه فرسان الزمازمية وقالوا له: نحن خدّام سلطاننا دافعنا عنه بقدر استطاعتنا. ولا مردّ لحكم الله. فإن شئتم أبقيتمونا في بلادنا، وإن شئتم ننصرف وأرض الله واسعة.

(1019)ينظر المؤنس ص 172 وما بعدها.

فقال لهم علي باشا: قد فعلتم ما وجب عليكم من النصح والمدافعة عن سلطانكم فأنتم الآن من جماعتنا[1020]. وإذا كانت نهاية أحمد الحفصي - بعد انهزامه - هي الالتجاء إلى الإسبان في قلعتهم بحلق الوادي فإن نهاية وزيره الذي خانه وجلب علي باشا كانت قتْلَه من قبل علي باشا بعد أن علَّم الأتراكَ قوانين البلاد وتصرفاتها وأخذ يتصرف في الأعمال، لأن الأتراك ليس لهم خبرة بأحوالها. وظن أبو الطيب الخضار أن دالّته على الأتراك تجعله يستبد بالحكم معهم لكنهم «عاجلوه وقُتِلَ صبراً، ونهبت أمواله، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وعوقب بنقيض مقصوده كما هي عادة الله - سبحانه - فيمن ساءت نيته»[1021]. وباستيلاء علي باشا على تونس انتهى حكم أحمد الحفصي، أو أحمد سلطان أو حميدة. وكان انتهاء حكمه مطابقاً لخرافة التنجيم من أن الذي يزيله عن الحكم شخص اسمه علي ولا يتكلم اللسان العربي[1022] إلّا أن أحمد الحفصي أعاد الاستنجاد بالإسبان ضد الأتراك العثمانيين. وفعلاً عاد أحمد الحفصي صحبة أسطول إسباني كبير بقيادة «دون خوان» أخي الإمبراطور فيليب الثاني[1023] في الوقت الذي لم تكن فيه البلاد على استعداد لردّ جيش عرمرم تعداده عشرون ألفاً خاصة أن علي باشا لم يُحْكِمْ ربط البلاد به، ولم يقوّ استحكاماتها وجهاز دفاعها مكتفياً بتعيين أحد قوّاده (رمضان) يحكم البلد بحامية لا تتجاوز ثمانمائة من الأتراك ومثلهم من عسكر زواوة[1024] مما جعل القائد الإسباني - قبل النزول من الأسطول في حلق الوادي - يُخْرِجُ لأحمد الحفصي كتاباً رسمياً من الإمبراطور فيه الشروط التي يجب عليه قبولها إذا أراد الجلوس على تلك السلطنة من جديد. وفوجىء أحمد الحفصي بخيبة أمل كبرى فأبى أن يقبل شروط الإسبان

(1020) الإتحاف 2: 17.

(1021) المؤنس ص 174.

(1022) الإتحاف 2: 16.

(1023) محمود بو علي ص 165.

(1024) المؤنس ص 174.

القاضية باقتسام المملكة مناصفة بينه وبينهم. لكن العائلة الحفصية لم تعدم خائناً آخر يقبل تلك الشروط وهو أخوه محمد الذي استدعاه «دون خوان» فقبلها ليصبح شبحاً باهتاً لسلطنة موهومة حكمها الفعلي لقوات الاحتلال الإسباني. وضاقت الدنيا بأحمد الحفصي ففرّ إلى جزيرة صقلية وسكن مدينة بلرم وبقي بها إلى أن مات وجيء به إلى تونس فدفن بزاوية الشيخ قاسم الجليزي بعدما مكث ثلاثة أيام ملقى في الجلاز لم يؤذن بإدخاله البلد ظنّاً من القوم أنه حيّ[1025]. ولعلّهم فعلوا ذلك زيادة في الإهانة والاحتقار.

(1025) المؤنس ص 17. الإتحاف 2: 18

محمد بن حسن آخر بني حفص

تمت مسرحية تعيين محمد بن حسن الحفصي سلطاناً فوق متن الأسطول الإسباني. وكان ذلك سنة 980 هـ/1572 م ولم يكن في مستطاع الحامية التركية القليلة أن تصمَدَ أمام الجيش الإسباني العرمرم ففضلت الانسحاب والتوجه إلى بلدة الحمامات إلّا أن أهاليها لم يقبلوهم وغلقوا دونهم الأبواب ومنعوا عليهم الأكل في شيء من التشفي والإغاظة. وقد ذكر ابن أبي دينار أن أهالي الحمامات علّقوا على برج المدينة كلبة سلوقية ميّتة وقالوا لهم: هذا ما لكم عندنا[1026] وسواء أكان الخبر صحيحاً أو مفتعلاً فإنه يدلّ على مدى الانفكاك وانعدام الترابط السياسي والاجتماعي في تلك الفترة العصيبة من تاريخ تونس ذلك أن صدّ أبواب الحمامات أمام الحامية التركية المطاردة من قبل جنود الإسبان يعني تحالفاً ـ ولو غير مقصود ـ من سكان البلدة مع الغزاة الإسبان.

وكان موقف اليأس الذي أصبحت عليه تلك الحامية المحصورة بين البحر والجيش الإسباني جعل جنود تلك الحامية يخوضون معركة انتحارية أكسبتهم نصراً فقهقروا مطارديهم الإسبان وقتلوا منهم الكثير، وبعثوا برؤوس القتلى أحمالاً إلى القيروان لطمأنة الناس هنالك بعد أن عمّهم الرعب والفزع. وشجع هذا الانتصار الجنود الأتراك على الانتقام من سكان

(1026) المؤنس ص 176. ويقول في المؤنس: إن ذلك البرج يسمّى برج السلوقية إلى اليوم.

الحمامات فهاجموا المدينة في الغد واقتحموها عنوة «.. وقتلوا من قدروا عليه من الرجال وفرّ الباقون، وسبيت أولادهم وحريمهم، ونهبت أموالهم وفعلوا بهم الفاقرة (الداهية الشديدة) وأتى الشيخ الجديدي فافتكّ منهم النساء والأولاد وأرجع إليها (الحمامات) من هرب. والتحق الجنود الترك بإخوانهم بالقيروان وأقاموا هنالك»[1027].

(1027)المؤنس ص 177.

شدة القمع الإسباني ومحنة التراث

لم يكن أمام سكان العاصمة ـ عندما رأوا فرار الحامية التركية ـ إلاّ الإصابة بالهلع الشديد لأنهم ما يزالون يذكرون ما أصابهم في «خطرة الأربعاء» التي حصلت في عهد الحسن الحفصي: يقول ابن أبي دينار: إن أهالي مدينة تونس هرب أكثرهم إلى ناحية جبل الرصاص واختفوا هناك في الدواميس. وكان الخطب فيها جليلاً. وكانت في زمن الخريف وغالب أهل البلاد عرائس فانهتك حجابهم وافتضحوا ونالهم من الهوان ما لم يعهدوه، وصنعوا نواويل[1028] في الغابات، وسكنوا بها وتسولّوا بين خيام البادية. ونالوا من الخوف والجوع ما لم ينله أحد[1029].

وهكذا وجد الإسبان المدينة شبه خالية من حاميتها التركية وسكّانها المدنيين فدخلوها صحبة محمد الحفصي واقتسموا ما فيها من مساكن أغلبها خال من سكانه. واستقرّ محمد الحفصي صحبة الحاكم الإسباني في القصبة يجلسان معاً في سقيفتها للحكم. وبعث محمد الحفصي بأمانه إلى السكان ودعاهم إلى الرجوع. واطمأن الناس وعادوا على حذر وإذا أغلب منازلهم محتلة من الإسبان فمن وجد منزله سكنه ومن وجده مشغولاً بالإسبان أوكل أمره إلى الله. ويتابع ابن أبي دينار حديثه عمّا أصاب تونس بقوله «.. وفي

(1028) جمع نوالة: الأخصاص.

(1029) المؤنس ص 175.

تلك الأيام أهين الجامع الأعظم (جامع الزيتونة) ونهبت خزائن الكتب التي به، وديست بأرجل الكفرة معالم المدارس، وتفرق ما جمع فيها من دواوين العلوم، وتبددت في الشوارع حتى قيل إن المار من شرقي الجامع حيث النواوريون الآن إنما يمر على الكتب المطروحة هناك.. وسمعت بعض أهل الحضرة يقول: إن النصارى ربطوا خيولهم بالجامع الأعظم، ونبشوا قبر الشيخ سيدي محرز بن خلف فلم يجدوا به إلّا الرمال... وفي تلك المدة عمّر الباستيون[1030] خارج باب البحر من تونس وفصلت أسواقه وحوانيته وعمّر بالكفرة. ونال أهل تونس من أهل الباستيون ما لم ينالوه من غيرهم حتى كانوا يفتنون الرجل عن دينه. وشاركت النصارى المسلمين في مساكنهم ومعاملتهم وأقاموا معهم تحت القهر والإهانة»[1031].

ومما سجل في ذلك العهد ما يعبر عنه بخطرة الشكارة[1032] وهي معركة حصلت بين الإسبان وسكان العاصمة المسلمين بسبب نزاع على شكارة بين مسلم ونصراني[1033]. ويعلّق ابن أبي الضياف على ما أصاب المكتبة العلمية من فعل الإسبان قائلاً: «.. وهذا هو السبب في قلة تآليف الفحول من هذا القطر، فإنها ضاعت شذرَ مذرَ في هذه الواقعة»[1034].

ولم يكن ما ذكرناه إلّا عَيْنات مما أصاب البلاد إبّان الاحتلال الإسباني وهو احتلال مصحوبٌ بعزم الإبادة مدفوعٌ بتعصب ديني لو طال به الأمد لكانت نتائجه القضاء المبرم على معالم الهوية القومية والدينية ومقوماتها. ولا غرابة في هذا التوقع لأن أولائك الغزاة الوافدين كانوا منتشين بالانتصارات

(1030) لفظة إسبانية تعني القلعة. وكان هذا الحصن واقعاً خارج باب البحر حيث السفارة الفرنسية الآن. ح ح عبد الوهاب. (خلاصة تاريخ تونس ص 129 ح 1).

(1031) المؤنس ص 175 - 176.

(1032) يراد به في بلاد المغرب الكيس من الخيش لاستعمال الحبوب. ينظر دوزى (تكملة المعاجم. شكر).

(1033) ينظر المؤنس (176) الإتحاف (2 :19).

(1034) الإتحاف 2 :19.

المسيحية على الإسلام وبقايا المسلمين في إسبانيا، فقد ازدادت الحالة سوءاً على المسلمين في عهد الإمبراطور فيليب الثاني (1555 - 1598م) إذ صدر في ماي 1566 م تجديد القانون الذي صدر في عهد الإمبراطور شارلكان سنة 1550 م القاضي بتحريم التخاطب باللغة العربية على الموريسكيين وارتداء الثياب العربية، واستعمال الحمامات، وإقامة الحفلات على الطريقة الإسلامية[1035] كما يقضي هذا القانون منح الموريسكيين ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ أو يخاطب بالعربية سواء بصفة خاصة أو عامة. وكل معاملات أو عقود تجري بالعربية تكون باطلة ولا يعتدّ بها إلى غير ذلك من الإجراءات[1036]. وكان من نتيجة هذه الإجراءات الجديدة أن اندلعت ثورة للموريسكيين بزعامة فرج بن فرج في أواخر سنة 1568 م في جبال البشرات ونصبوا عليهم ملكاً من بقايا بني أميّة تسمّى باسم محمد بن أميّة. وقد استطاع هؤلاء الثوار أن يحققوا بعض الانتصارات. وكان في استطاعتهم أن يحققوا الكثير لو وجدوا الاستجابة من الدول الإسلامية وخاصة من السلطنة العثمانية[1037] وكان للقائد الإسباني الجديد «دون خوان» الأثر الفعال في قمع ثورة الموريسكيين. وكان لهذا القائد انتصار آخر على القوى الإسلامية عندما تولّى قيادة الأسطول المشترك بين إسبانيا والبندقية والبابا وفرسان القديس يوحنّا وكبد الأسطول العثماني هزيمة منكرة في معركة «لابانت» الشهيرة والتي جرت في أكتوبر 1571.

هذا هو القائد الذي جاء مع أحمد الحفصي إلى تونس، فماذا ينتظر منه الإسلام والمسلمون عندما استنجد به أحمد الحفصي وهو العارف بكلّ حالاته ومواقفه. ولكل ذلك قلنا في السابق: «لو طال الأمد بهذا الاحتلال

(1035) عبدالله عنان، نهاية الأندلس ص 357.

(1036) ينظر المصدر السابق.

(1037) المصدر السابق.

الإسباني لكانت نتائجه القضاء المبرم على معالم الهوية القومية والدينية في هذه الرقعة من الأرض العربية الإسلامية. . .»[1038] ولعل ذلك كان من العوامل الخفية التي جعلت بعض المؤرخين يعنونون الحديث عن تخليص البلاد من الاحتلال الإسباني بعنوان «الفتح العثماني»[1039].

(1038)ينظر محمد فريد: تاريخ الدولة العلية ص 103 - 104.

(1039)ينظر مثلاً: الإتحاف (2 :7) خلاصة تاريخ تونس ص 131.

تدخل الأسطول العثماني

عندما فرّت الحامية التركية من تونس العاصمة إلى الحمامات ونجت من مطاردة «دون خوان» وجنوده، وجدت ملاذها في مدينة القيروان التي كانت محكومة بالقائد التركي حيدر باشا. وأمام الهول الشديد الذي استولى على الناس فكر هذا الحاكم لمدينة القيروان في الفرار عنها قبل وصول الإسبان لولا الإلحاح القوي من بعض صلحاء القيروان ببقائه في القيروان وأنه لا خوف عليه. وكان يَعِدُه بالخير، ويضمن له السلامة فبعث فيه الاطمئنان[1040] وحبب إليه البقاء. ولكن قد لا يستطيع الصمود وحده. ولهذا بعث يستنجد بزملائه في طرابلس الغرب والجزائر حتى يكوّنوا قوّة موّحدة يزحفون بها على القوات الإسبانية في تونس. وكان هذا في الوقت الذي جدّدت فيه السلطنة العثمانية أسطولها بعد هزيمة «لابانت» كما أن الصلح الذي أبرمته مع البندقية سنة 1573 م كان من الأسباب التي جعلت السلطنة العثمانية تفكر جدِّياً في تخليص عدة مناطق من المغرب الإسلامي محتلة من قبل الإسبان.

وبالرغم من أن الظروف السياسية كانت ملائمة لتوجه الأسطول العثماني مباشرة إلى تونس فإن بعض المعلّقين يذكر أن الأسطول العثماني كان يعتزم نجدة الثوار المورسكيين في جبال البشّرات بالأندلس، فلما بلغه

(1040) المؤنس ص 177، الإتحاف 2: 19.

القضاء عليهم وانهزامهم غير وجهته إلى تونس. وهو افتراض يسهل دفعه بواقع البلاد التونسية نفسها، فبالإضافة إلى وجود قوات تركية في طرابلس والجزائر فإن الحامية الإسبانية لم يبق في إمكانها الصمود إذا جاءت نجدة تركية كبيرة خاصة أن تلك الحامية تقلّص عددها إلى نحو أربعة آلاف جندي منذ أن غادرها القائد دون خوان وتركها متحالفة مع محمد الحفصي الذي لا يمثّل قوةً ذات بال.

أما أسطورة رؤية السلطان العثماني لمحرز بن خلف واستنجاده به فما نحسب إلّا أنها رد فعل ساذج أخْذاً بثأر ضريح محرز بن خلف الذي عبث به الإسبان ونبشوا قبره[1041].

ومهما يكن فقد تم الاستعداد العثماني لتلك الحملة وخرجت العمارة العثمانية من القسطنطينية في غرة ربيع الأول 981 هـ (1573 م) بقيادة سنان باشا. وتجمّعت قطع الأسطول في ميناء مورين ثم أقلع الأسطول حتى وصل إقليبية بعد أحد عشر يوماً. وبعد استراحة هناك تابع سيره إلى ميناء حلق الوادي. والقول بأن الأسطول العثماني استراح بإقليبية يثير شيئاً من التساؤل من أن الجيوش التركية التي سبقت قدوم الأسطول العثماني وحاصرت حصن حلق الوادي لم تكن على علم بوصول الأسطول، وأنها كادت تفكّ الحصار الذي ضربته على الحامية الإسبانية. وعن ذلك يقول ابن أبي دينار «.. وكان من قدر الله ـ تعالى ـ قبل وصول العمارة العثمانية بيوم أن وصل تونس الباشا حيدر من القيروان وكذلك مصطفى باشا صاحب طرابلس، فحضرا إلى تونس ونزلا معاً بإزاء المدينة في سيجوم لقصد محاصرتها. وفي آخر اليوم ظهرت مراكب في البحر فظنوا أنها نجدة للعدوّ فعولّوا الرحيل ليلاً[1042] لو لم يصلهم رسول من سنان باشا وأعلمهم بحقيقة الأمر فذهب إليه القواد الأتراك لتحيته

(1041)ينظر المؤنس ص 178، الإتحاف 2 :19.

(1042)المؤنس ص 187.

والاستعداد لمجابهة القوات الإسبانية المتمركزة في قلعة الباستيون خارج سور العاصمة وقلعة حلق الوادي الحصينة. وسهل على العثمانيين حوز تونس لأنها كانت شبه الخالية من العباد والجند. واستعدت القوات التركية بقيادة سنان باشا لخوض المعركة الفاصلة لا سيما مهاجمة قلعة حلق الوادي التي ظل الإسبان طيلة 43 سنة يشددون من استحكماتها الدفاعية. ويصف ابن أبي دينار هذه القلعة بقوله:

«. . وكان هذا الحصن لم ير مثله في الشرق والغرب. وكان للنصارى به اهتمام. وحصّنوه بما قدروا عليه من المبدأ إلى التمام. ويستمر في وصفه حتى يقول: وقد كنت منذ زمان وقفت على رسالة بعثها بعض من شاهد الواقعة لبعض الرؤساء بالديار العثمانية، وأخبره فيها بما شاهد من شدة الحرب، ومنعة الحصار، وكثرة رجاله وذخائره وسفنه وطوله بما يعجز عنه الوصف. ومن شاهد بقية آثاره حكم بصحة ما وصف[1043]». وكان من جملة ما جاء في تلك الرسالة قول صاحبها متحدثاً عن قلعة حلق الوادي: «. . إن سعة السور يسير عليه سبعة من الخيالة من غير ازدحام، وأن عدد الدور التي حوله لسكنى المهجرسين أزيد من مائتي دار. والبحر من جميع جهاته، والخندق به دائر. وكان عمق الخندق ستين ذراعاً، وقعره متصل بالبحر وفي حافته قبّة أعدوها للتحصن فيها، ونقبوا تحت الأرض نقباً طويلاً يتصلون منه إلى تلك القبة»[1044].

(1043) المؤنس ص 190.

(1044) المصدر السابق.

المعركة الحاسمة

منذ البداية يجدر القول بأن القوات الإسبانية لم تكن وحدها المتصدية للقوات التركية العثمانية فقد كان مع الإسبان عدد كبير من «المهجرسين». وبما أن دأب هؤلاء كان دوماً يتمثل في المنافع المادية الشخصية فقد استمالتهم قوات الاحتلال الإسباني بما كانت تغدقه عليهم من أموال. وقد مرّ في السابق أن لهم أكثرَ من مائتي منزل حول قلعة حلق الوادي، وأن حصن الباستيون كان به سبعة آلاف جندي الكثير منهم من أولائك المهجرسين الذين كثيراً ما ينعتهم ابن أبي دينار بالمرتدّين[1045].

وابتدأت المجابهة بحصار قلعة حلق الوادي. وكانت أقوى عقبة دفاعية تتمثل في الخندق العميق بحوالي ستين ذراعاً والذي يحيط بالقلعة ويحول دون الوصول إليها. وابتدأ الحصار أولاً حسب الطرق التقليدية رمياً بالمدافع والبنادق والمنجنيقات. ولكن ما عند الإسبان من ذخيرة ومؤنة جعلهم لا يعبأون بالحصار ولا بهذا النوع من السلاح، وكانوا في أحيان كثيرة يخرجون من الحصن صحبة المهجرسين ويلتحمون مع الأتراك ويسقط العديد من القتلى في صفوف الجانبين. وعندما طال الحصار بدون نتيجة عزم الأتراك على ردم الخندق العميق مهما كان الثمن. وكانت العملية هي ردم الخندق بالصوف والحطب والرّمل والرصاص حتى يتغلّبوا على الماء ويتمكنوا من

(1045)ينظر المؤنس مثلاً ص 188-189.

عبور الخندق. وينقل ابن أبي دينار أن جملة ما ألقي في الخندق من الصوف كان مقدار سبعين ألف حمل بعير. ويقول: «.. وأخبرت من أهل تونس أن الصوف الذي ألقوه في الخندق جيء به من نجع دريد أكثره، ومن غيره أقله.. ولما ألقوا الصوف في الخندق ألقوا فوقه الحطب والتراب والأخشاب. واهتم العسكر بنقل التراب كلّ الاهتمام، وأقدموا بنيتهم غاية الإقدام إلى أن ملأوه من أوله إلى آخره. وصارت فوقه «كيمان» كالجبال وحملت الرجال من التراب ما لا تحمله الجمال[1046]. ولما امتلأ الخندق بالتراب بنوا المتاريس فوقه وصار المكان أعلى من حيطان الحصار (البرج). وبذلك أمكن للمدافع أن تلقي كورَها داخل الأسوار، وأن تصيب مباشرة أهدافها. ومما عجّل باقتحام الحصن ما ذكرناه من أن المهجرسين والإسبان كانوا يقومون من حين لآخر بحملة مفاجئة على المحاصرين لهم، وأنهم في إحدى المرات خرجوا إلى ناحية رادس حيث يوجد أحد القادة الشعبيين يسمّى محمد بن عرب مع جمع من المتطوعين التونسيين وداهموهم ليلاً على حين غفلة إلاّ أن محمد بن عرب كان يقظاً مستعدّاً فقابلهم بقواته حتى هزمهم وأجبرهم على الفرار والعودة إلى حصن حلق الوادي بعد أن أثخن فيهم القتل مما جعلهم يذهلون عن غلق باب القلعة في الوقت الذي كان فيه عدد من الفدائيين يتهيأون لاقتحام الفرصة بأية طريقة كانت فاندفعوا داخل القلعة وتبعتهم الجموع وأعملوا سيوفهم في الحامية الإسبانية بدون تشبيه ولا تكييف حسب تعبير المؤنس[1047]وقد تم ذلك في السادس من جمادى الثانية سنة 981 (أكتوبر 1573) بعد حصار دام ثلاثةً وأربعين يوماً بعدد السنين التي مرت على بدء بناء هذه القلعة.

وبعد الانتهاء من الاستيلاء على قلعة حلق الوادي اتجه سنان باشا بقواته إلى حصن الباستيون فقوي عزم الأتراك المحاصرين له، وحملوا جميعاً

(1046)المؤنس ص 191.

(1047)ص 192.

على الحصن فقتل من الإسبان وأحلافهم المهجرسين أكثر من ثلاثة آلاف. واشتد الالتحام بين المتقاتلين وتطاعنوا بالخناجر حتى تمكن الأتراك من التغلّب الكامل على مَنْ فيه ولم ينجُ من القتل إلاّ من تمكن من الفرار والتجأ إلى قلعة شكلي ببحيرة تونس. واستولى الأتراك على ما في الحصن من ذخيرة وسلاح وأمتعة ولباس ومصوغ وآلات الحرب والبارود والخبز البشماط الذي أعدّوه لمقاومة الحصار. ويذكر ابن أبي دينار أنه لما أُخِذَ الباستيون وجدوا الجامع الذي هو خارج باب البحر ملآن بالسلاسل والأغلال. ويتوقع أن تلك الأغلال والسلاسل كانت تستعمل ضدّ المسلمين وجبرهم على التنصّر[1048].

أما الإسبان الذين التجأوا إلى جزيرة شكلي فقد طلبوا الأمان من القائد العثماني سنان باشا وأعلموه «بأمور مهمّة منها أن عندهم مائتين وخمسة من رجالهم أهل صناعات غريبة منها عمل الطواب الذي يعجز عنه، وتذويب النحاس والحديد وعمل المدافع الكبار وغير ذلك من الصناعات فأعطاهم الأمان ثم استخدمتهم الحكومة العثمانية في تلك الصناعات.

أما مصير محمد بن الحسن الحفصي فقد حمله معه سنان باشا إلى اصطنبول واعتقل هناك خشية فراره واستنجاده بالإسبان مرّة أخرى. وظلّ في اعتقاله هناك إلى وفاته[1049]. وانقرضت السلطنة الحفصية نهائياً بانتصار الأتراك العثمانيين على الإسبان. وهي السلطنة التي امتدت من سنة 603 هـ إلى 981 هـ (1573/1207 م). ودخلت البلاد التونسية مرحلة جديدة من تاريخها بدايتها التبعية للسلطنة العثمانية التركية.

(1048) المؤنس ص 195.

(1049) الإتحاف 2: 21.

الفهارس العامة للكتاب

فهرس الأعلام.
فهرس الأماكن والبلدان.
فهرس الفرق والطوائف.
فهرس عبارات وألفاظ لها مدلولات متميزة أو تتصل بأحداث معينة.
فهرس أهم المصادر والمراجع.
فهرس مواد الكتاب.

فهـرس الأعلام

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- س -

- ق -

- ك -

فهرس الأماكن والبلدان

- أ -

- ب -

- ث -

- ج -

- غ -

- ف -

- ق -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

- ي -

فهرس الفرق والطوائف

- أ -

- ت -

فهرس عبارات وألفاظ لها مدلولات متميزة أو تتصل بأحداث معينة

ـ أ ـ

لم يراع في هذا الفهرس سبق الورود أو تكراره.

- ح -

- خ -

فهرس أهم المصادر والمراجع

- ابتسام الغروس ووشي الطروس، في مناقب ابن عروس: تونس 1303هـ، الراشدي عمر بن علي الجزائري.
- إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان: تونس 1963 - 1969، ابن أبي الضياف: أحمد بن الحاج بالضياف.
- الإحاطة في أخبار غرناطة: مصر 1973 - 1977، ابن الخطيب: ذو الوزارتين لسان الدين.
- الأدلّة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية: تونس 1355 - 1936، ابن الشماع: محمد بن أحمد.
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: القاهرة 1942، المقري: أحمد بن محمد.
- الاسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس: طرابلس الغرب 1952، عمر الباروني.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: مصر 1312هـ، الناصري السلاوي: أحمد بن خالد.
- استيلاء النصارى على وهران وبجاية وطرابلس وهجومهم على جربة، كتبها محمد بن زكرياء الباروني:

أ ـ مخطوطة بآخر السير للشماخي رقم 3858، أحمدية، ورقم 15.349 دار كتب وطنية.

ب ـ نشرت ضمن ملحقات مؤنس الأحبة وهي التي نحيل عليها.

- الأصالة (مجلة) عدد 23 جانفي ـ فيفري 1975، د. عبد الجليل التميمي في مقالة «.. رسالة من مسلمي غرناطة».

- إعتاب الكتاب: دمشق 1380 - 1961، ابن الأبّار، محمد بن عبد الله.
- الأغاني: بيروت 1957 - 1964، الأصفهاني (أبو الفرج).
- إنْباء الغمر بأبناء العمر: القاهرة 1971 - 1972، ابن حجر (أحمد بن علي).
- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ج 3 - 1380هـ - 1961، ج 5 القاهرة 1383 - 1963، ابن إياس (محمد بن أحمد).
- بلاد البربر الشرقية تحت حكم الحفصيين (بالفرنسية): باريس 1940 - 1947، برنشفيك، روبير La Berberie orientale sous les Hafsides Robert Brunschvig. Paris 1940 - 47.
- البلاد الجزائرية تحت الأتراك (بالفرنسية): الجزائر 1974، مولود قايد Mouloud Gaid l'Algerie sous les Turcs.
- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب: ق (3) تطوان 1960، لابن عذارى (أبو عبد الله المراكشي).
- تاريخ إفريقيا الشمالية ج (2)، تونس 1398 - 1978، ش. أ. جوليان، تعريب: محمد مزالي، البشير بن سلامة.
- تاريخ الجزائر في القديم والحديث: قسنطينة 1932، الميلي: محمد مبارك.
- تاريخ الخلفاء: مصر 1371 - 1952، السيوطي، جلال الدين.
- تاريخ الدول الإسلامية والأسر الحاكمة: القاهرة 1972، د. أحمد سعيد سليمان.
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية: تونس 1960، الزركشي: محمد بن إبراهيم.
- تاريخ الدولتين: حواشي ماضور، تونس 1960، محمد ماضور، تعليقاته على تاريخ الدولتين للزركشي.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية: مصر 1311 - 1893، محمد فريد.
- التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار: مصر 1349هـ، ابن غلبون: محمد بن خليل.
- التذكار (إضافات الزاوي): مصر 1349، الزاوي: الطاهر أحمد.
- التعريف: رحلة ابن خلدون شرقاً وغرباً، القاهرة 1370 - 1951، عبد الرحمان بن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي.
- تكملة المعاجم العربية: ط. ثالثة أبريل 1967 د. دوزي Supplement aux Dictionnaires Arabes R. Dozy - Brill - Paris 1967.

- التمرد المتواصل في تونس (بالفرنسية): تونس 1972، محمود بو علي La Sedition Permanante en Tunisie, M. Bouali. Tunis 1972
- حاضر العالم الإسلامي: مصر 1352، لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض.
- حاضر العالم الإسلامي (التعاليق): مصر 1352، شكيب أرسلان.
- الحركة الصليبية: القاهرة 1963، د. سعيد عبد الفتاح عاشور.
- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: تونس 1374 - 1954، المطوي محمد العروسي.
- حفصي غير معروف [سلطان]: تونس 1930 ر. برنشفيك. المجلة التونسية Un Hafside meconnu R. Brunschvickk. La Revue Tunisiénne I 1930. pp. 38 - 40.
- حقائق الأخبار عن دول البحار: مصر 1312هـ، إسماعيل سرهنك.
- الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي: تونس 1384 - 1965، محمد البهلي النّيال.
- الحلل السندسية في الأخبار التونسية: تونس 1970 - 1973، الوزير السرّاج محمد بن محمد.
- خلاصة تاريخ تونس: تونس 1373هـ. حسن حسني عبد الوهاب.
- الخلاصة النقية في أمراء إفريقية: تونس 1333هـ، محمد الباجي المسعودي.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: القاهرة 1385 - 1966، ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني.
- درغوث رايس (بالفرنسية) 1974، الطاهر قيقة، Dorgouth Rais. Le Magnifique seigneur de la mer. Tahar Guiga.
- ديوان ابن الأبّار: تونس 1985، تحقيق: د. عبد السلام الهراس.
- ديوان أبي الطيب المتنبي: مصر 1355 - 1936، شرح أبي البقاء العكبري.
- ديوان ابن الخلّوف: مخطوطة المكتبة الأحمدية رقم 4483، أحمد بن محمد الخلوف.
- رحلة التجاني: تونس 1377 - 1958، أبو محمد عبد الله التجاني.
- رحلة عبد الباسط الملطي: باريس 1936، تحقيق روبير برنشفيك.
- رحلة بن جبير: القاهرة 1374 - 1955، محمد بن جبير.
- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة: مصر 1344هـ، الغرناطي: محمد بن أحمد.

ـ الروضتين في أخبار الدولتين: القاهرة 1287 - 1288هـ، أبو شامة عبد الرحمان المقدسي.
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك: القاهرة (ط 2) بداية من 1957، أحمد بن علي المقريزي.
ـ السير: طبعة حجرية مصر 1301هـ، مخطوطة الأحمدية رقم 3858، أحمد بن سعيد الشماخي.
ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: القاهـرة 1349 - 1350هـ، محمد بن محمد مخلوف.
ـ الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: القاهرة 1310هـ، طاش كبرى زاده.
ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: القاهرة 1915، القلقشندي أحمد بن علي.
ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: القاهرة 1353 - 1335هـ، السخاوي، محمد بن عبد الرحمان.
ـ طبقات سلاطين الإسلام: بغداد 1388 - 1968، استانلي لين بول تعريب: مكي طاهر الكعبي.
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر: بيروت 1956 - 1959، ابن خلدون، عبد الرحمان.
ـ عرفة الشابي رائد النضال القومي في العهـد الحفصي: تونس 1982، علي الشابي.
ـ عصر المرابطين والموحدين: القاهرة 1964، عبد الله عنان.
ـ غزوات عرّوج وخير الدين: الجزائر 1353 - 1934، لمجهول (نشره نور الدين عبد القادر).
ـ الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية: تونس 1968، ابن القنفذ، أحمـد بن حسين بن علي.
ـ فوات الوفيات: القاهرة 1951م، ابن شاكر، محمد الكتبي.
ـ القاموس المحيط: للفيروزآبادي، القاهرة 1959، ترتيب طاهر أحمد الزاوي.
ـ قبائل المغرب: الرباط 1388 - 1968، عبد الوهاب بن منصور.
ـ الكامل في التاريخ: بيروت 1385 - 1965/ 1387 - 1967، ابن الأثير، عز الدين الشيباني.
ـ الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة: بيروت 1945 - 1959، الشيخ نجم الدين الغزّي.

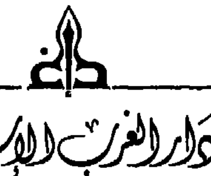
- لاروس القرن العشرين: باريس 1928 - 1953، مكتبة لاروس Larouse du XX siécle, Paris 1928 - 1953, Librarie Larousse.
- لسان العرب: بيروت 1374 - 1376/ 1955 - 1956، ابن منظور.
- مدينة تونس في العهد الحفصي: تونس 1981، عبد العزيز الدولاتلي.
- مستودع العلامة ومستبدع العلامة: تطوان 1384 - 1964، أبو الوليد بن الأحمر.
- أبو المطرف بن عميرة: الرباط 1385 - 1966، محمد بن شريفة.
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: تونس 1320هـ، عبد الرحمان الدباغ وأبو القاسم بن ناجي.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب: القاهرة 1949، عبد الواحد المراكشي.
- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي: القاهرة 1370 - 71/ 1952، زامبوار. ترجمة جماعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة القاهرة.
- معجم البلدان: مصر 1323، ياقوت الحموي.
- معجم البلدان الليبية: بيروت 1388 - 1968، الطاهر أحمد الزاوي.
- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة: دمشق 1368 - 1949، عمر رضا كحالة.
- المغرب في حُلي المغرب: القاهرة 1964، ابن سعيد المغربي.
- المقتضب من كتاب «تحفة القادم»: القاهرة 1957، ابن الآبّار - اختيار أبي إسحاق البلفيقي.
- المقدمة لابن خلدون: 1376 - 82/ 1957 - 62، عبد الرحمان، ابن خلدون: تحقيق علي عبد الواحد وافي.
- المقرّب لابن عصفور: بغداد 1391 - 92/ 1971 - 72، تحقيق: الجبوري، عبد الله. الجواري، أحمد عبد الستار.
- مقصورة حازم القرطاجني: تونس 1972، ضمن مجموع: قصائد ومقطعات للدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي): الشيّاح، لبنان 1959م، المقريزي أحمد بن محمد.
- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس: تونس 1967، ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم.
- مؤنس الأحبة في أخبار جربة: تونس 1960، محمد أبو راس.
- نزهة الأنظار في عجائب التاريخ والأخبار: مخطوطة المكتبة الأحمدية رقم 6232

طبعة حجرية، تونس، مقديش، محمود بن سعيد.
- نظم الجمان: القسم المطبوع في تطوان، ابن القطان، تحقيق: محمود علي مكي.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب: القاهرة 1949م، المقّري، أحمد بن محمد.
- نهاية الأندلس: القاهرة 1386 - 1966، عبد الله عنان.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج: القاهرة 1329هـ، أحمد بابا التنبكتي.
- الوفيات: بيروت 1971، ابن القنفذ، أحمد بن حسن ابن الخطيب.

إحـــالات

1 ـ برنشفيك = بلاد البربر الشرقية تحت الحفصيين.
2 ـ الخطط = المواعظ والاعتبار.
3 ـ دوزي = تكملة المعاجم العربية.
4 ـ الزركشي = تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية.
5 ـ شارل. أ. جوليان = تاريخ شمال إفريقيا.
6 ـ عبد الله (ع) عنان = عصر المرابطين والموحدين.
7 ـ عمر الباروني = الاسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس.
8 ـ محمود (م) بوعلي = التمرّد المتواصل.
9 ـ مولود قايد = البلاد الجزائرية تحت الأتراك.

فهرس مواد الكتاب



شارع الصوراتي (المعماري) ـ الحمراء ـ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ـ ص . ب . 5787 - 113 بيروت ـ لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

رقم 86/1/3000/75

التنضيد الإلكتروني : كومبيوتايب للصف الطباعي الالكتروني 

الطباعة : مؤسسة نزيه كركي